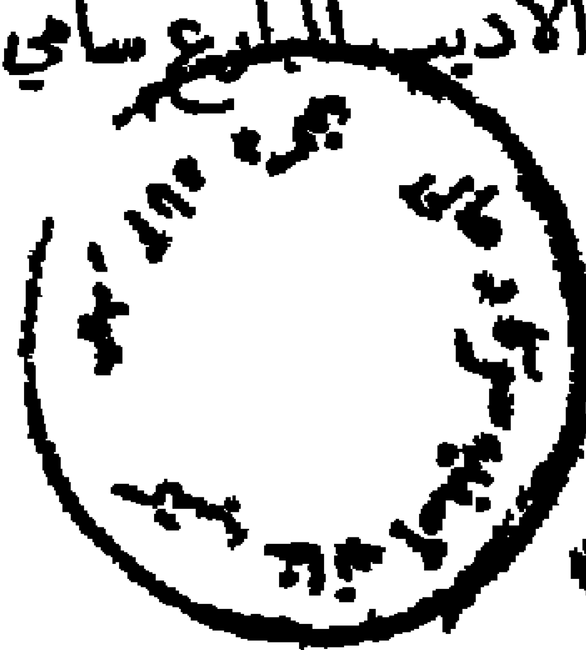
متيلدة

مترجمة بقلم الاديب البليغ سامي افندي قصيري



بادارة والتزام نخلة قلفاط

مجلد ثانٍ

بيروت سنة ١٨٨٥

الفصل الثالث والثلاثون

مخاوف

لو كان ممكنًا ان يداخلني الشك لبرهة من الزمان بحالة التغيير التي طرأت عليّ باحكام الوالدية التي اكتسحت افكاري بغتة وكشفت لها عن عالم جديد لكفنني الافكار والمخاوف التي تنبهت فيّ عقيب محادثة اورزيل وزوجي لاقناعي بصحة هذا الانقلاب وليسمح لي الان بايراد هذه المشابهة الغريبة فان الام المسكينة الساهرة على فراخها تتوهم بالاميال الغريزية كون النقطة السوداء التي تكاد لا تنظر الا قليلاً في قبة السماء هي الباشق المفترس عدوها القاسي الالد وهكذا انا فانه تراءى لي من هذه المحادثة بين اورزيل وزوجي التي لا تتضمن ظواهرها شيئًا من غير زيادة تطميني ملامح السوء بحصول مصاب جديد هائل فان ابنة عمي صرحت جليًا انها لا تحب زوجي بل تخرت ايضًا باحتقار المداعبات التي تالمت بها كثيرًا وتظاهرت بقحة موجبة للغيظ بصفاتها الحقيقية ولربما بما هو اقبح من صفاتها ايضًا فانها اعترفت بقحة وجسارة انه لا يمكنها الا تكون عبدة ذليلة للرجل الذي يذلها ويسودها وسيدة مترفعة للرجل الذي يتعبدها ومتربعة متزلفة مجردة عن الشفقة من نحو جميع الذين لا يردخون صاغرين عند اقدامها ولا يضعون بتعاظم رجلها على رؤوسهم ومن جملة اقوالها لكونتران انها لا تحبه مطلقًا ولا يمكنها ان تحبه الى الابد لانه يحبها ولان محبة الازواج موجبة للضحك منهم ومع ذلك فقد قالت له مرتين بوقاحة انه سيبقى بالرغم عنه متعشقًا لها على الدوام

ولو جرت هذه المحادثة قبل صيرورتي اما لخرجت من خبائي مشرقة بالثقة والسعادة وارتميت جاثية على اقدامي وشكرت الرب لما انه سمح بان تكشف هذه الخائنة الجسورة عن عورة عيوبها وتصرح بجميع شرور ودناءة نفسها وقلت ان زوجي اخذ لبرهة بظاهرها المسكرة ولكنه اطلع الان على حقيقتها ولا يمكن قلبه ان يشعر من نحوها بعد ذلك بغير الاحتقار والخوف لانه لا يوجد في العالم من لا تتهيج كبرياؤه على الاقل باستماع امراة مخاطبة بمثل هذا الاحتقار فكم بالحري كونتران

لا . . لا . . لا يمكن ان كونتران الجميل الجذاب الثامل بخمرة الزهو والتعشقات الكثيرة يتنازل . . لا اقول لان يحب بل لان يهتم فقط بامرأة تتجاسر على مخاطبته بقولها اني لا احبك ولن احبك الى الابد ولا يسعك الا تحبني

نعم . . نعم اني اعيد للمرة الثانية انه لم يكن ليسعني وقتئذ الا اشكر الرب واعترف بكون السكون والراحة عادا لزمن طويل الى قلبي

واظن يقيناً ان هذا النوع من العلم بسواد المستقبل تبادر اليّ فجأة ليساعدني بالدفاع عن مستقبل ولدي . . واسفي اني كنت في بدء الشباب ولم اتدرب قط بالاطلاع على انواع الشرور التي تداخل الفكر الانساني ويقتضيني قوة فوق العاده لاخترق بتصوراتي حجاب هذه الافكار الخبيثة فكنت اومن بعماية في الخير مجردة عن تلك الشهوات الشريرة التي بدلاً من ان تبحث وراء المطلوب بين الامور النقية الشريفة الممكنة تدفع بدناءة الى استخراجه من لجج الغش والسفه والمستحيل

فهل يمكني والحالة هذه ان اظن وقتئذ بان رجلاً يتعشق بجنون امرأة بلا ضمير والسبب في ذلك كونها قالت له اني لا احبك ولن احبك الى الابد

لا . . لا . . يا الهي . . فلو قيل لي من قبل ان القلب الانساني اهل لان يقدم على مثل هذه الاعمال المتطرفة المشينة لانكرت ذلك على القائل واتخذته كنوع من التجديف

فباي سرّ خفي يا ترى امكني وكنت الى ذلك الحين جاهلة لانواع هذه الشرور وان احذر او بالحري اشعر لاني شعرت مادياً بخشونة تمزق فوادي ان كونتران لا يلبث من تلك الساعة ان يحب هذه الامرأة بتحرق لا يقاس بحبه لي ولمعشوقاته السابقات ولا بكل حب يمكن ان يشغل قلبه في حياته الى الابد

واي الهام سري يا ترى كان ينبهني وقتئذ الى ان هذه الشهوة العشقية المشومة ستكون الشهوة الوحيدة الاخيرة لحياته بل اي صوت كان يقول لي بان الرجال الكثيري الحمة القليلي التاثر اذا سلب قلبهم يوماً بالحب المجرد عن الامل ولا سيما نحو امرأة خاسرة يكون حبهم غالياً بجدة مخيفة بل كيف شعرت ان اورنريل بتحرساتها الجهنمية لعبت بشهوات زوجي المتهيجة بقولها له انت جميل بديع ومعتاد ان تعجب بك الناس ولكني مع ذلك استخر منك واهزأ بك وانت تحبني وسيكون لي من هذا الحب ضحك دائم اما لك فحزن ابدي

ولم يكفها ذلك بل ارادت ان تثير من كونتران ثائرة الحب الشديد الحي باشعال نار الغيرة في قلبه فاثبتت له انها لا تقابل جميع الناس منه باانواع هذا البرود والهزء والاحتقار

فانظر . . انظر باية حرارة عشقية صورت له الاضطراب الشديد الذي يستغرق عقلها وحواسها لمجرد فكر التقرب من الرجل الذي تحبه وكيف اغرورقت اعينها واحمرت خدودها وخفق قلبها لدى التلفظ بتلك الكلمات الصادرة عن حالة الغيبوبة الممتزجة بالتحرق والتلذذ وكيف احنت راسها البديع بطرف واحتشام وخضوع عندما بدات تتكلم عن تعبدها للرجل الذي يذلها ويسودها

وتظاهرت جاثية على الركب بايد مضمومة متوسلة الى سيدها ان يتكرم عليها ببسمة من شفتيه ومحولة باعينها الزرق الوسيعة الطافحة بالظرف والحزن والحب

وا اسفي . . وا اسفي . . لا بد ان تكون هذه الامراة بمحاسن غرارة قهارة لا يمكن الثبات امامها حتى امكني انا متيلدة خصيمتها بل الام التي تخافها ان اشعر وادرك وقتئذ بان ليس فقط كونتران بل لربما كل من راها من الرجال لا يسعه الا يعشقها بجنون مفرط بالنظر الى كثرة ظرفها ومظاهرها الساحرة

لا . . لا لعمري . . ان الرب لم يحاول اضلالي بالالهامات المخيفة عندما كشف لي عن الزوبعة المرهبة الاخذة بالتجمع في الفضاء بل اراد باحكام رحمته التي لا تحد ان يمكن الام المسكينة الوحيدة الضعيفة من ان تحيد على الاقل من طريق المصائب الرائعة التي تتهددها

وعندما خرجت من الدائرة التي كنت مختبئة فيها شعرت ان ارجلي تكاد لا تحملني لشدة خوار القوى ووجدت كونتران جالسًا على مقعد هناك باعين شاخصة وايد مشبكة على صدره وهو مستغرق في غيبوبة التامل والجمود فاجبرت ان اتكئ بخفة على كتفه لاعيده الى نفسه فرفع بحدة راسه وقال لي هذه الكلمات بصوت خائر متلهث . . ما هذه الامراة . . ما هذه الامراة . . يقتضي ان تسافر . . متيلدة . . يقتضي ان تسافر

فتاكدت شكوكي بهذه الالفاظ لانها خرجت من فم كونتران بمعان مفزعة وهي اما انه يحب هذه الامراة بتعشق واما انه يخاف من ان يتعشقها

وللحال تبادر اليّ فكر اعتبرته في بادىء الامر كنوع من الالهام الالهي وهو ان اصرح لكونتران بكلما اعلمه عن علاقة اورزيل بالموسيو شيوبيل ولا بد ان يكون هذا الرجل محسوبًا لديها في مصاف العبيد المتعشقين الذين تكلمت عنهم ثم اعتقدت بادئ بدء ان كونتران متى علم بحالة هذه الامراة وتحقق كونه مخذولاً ممن فاز لديها رجل مضحك من مثل شيوبيل لا يسعه الا ينفر منها ويبتعد بقلبه بعيدًا عنها وقلت لربما يكون كونتران ايضًا قد علق ثمنًا عظيمًا على اكتساب قلبها وظن انه يجني بذلك ثمرة حبها الاول

ثم اردت ان اعلم زوجي بضروب الاحتيال والخيانة التي استعملتها لحصول الابتعاد بين الموسيو سيشرين وامه وهممت ان اتكلم بكل شيء واذ داخلني التردد بالسوال من نفسي عما اذا كانت هذه الايضاحات لا تزيد من اشعال نار الحب في قلب كونتران وتاجج من جمر كبريائه الباطلة بالغيظ الناشيء عن معاملته باحتقار لم يعامل به رجل مضحك من اهالي الولايات وقلت لربما يكون كونتران معتقدًا بعفة اورزيل وانها من ذوات الفضيلة بالرغم عما تظاهرت به من صفات القحة والمعاصي وهو متصبر بسهولة على عدم حصوله على حبها بدعوى ان هذه السعادة

ممنوعة عنهُ وعن جميع الناس ولكني خفت ان يزيد هذا الاعتقاد الاخير بمحاسن ابنة عمي في اعينهِ

وتزايدت عليَّ الهواجس المتباينة والظنون المتضاربة فاعتمدت ان اصمت وانتظر الهامات الدقائق وكان زوجي قد عاود السقوط بنوع من غيبوبة الاحلام فقبضت على يدهِ وشددت عليها بحنو وقلت شكرًا . . . شكرًا لك يا كونتراني الشريف فقد حدثتني بالصواب ولا تلبث اورزيل ان تسافر ونعيش سوية من بعدها بالسعادة والراحة

فتبسم كونتران بتمرمر واجاب لقد سرك بلا ريب من اورزيل ان تسيء معاملتي والامل ان يبعثك ذلك على الطمان

وكان جل رغبتي ان لا يطلع كونتران على شيء من مخاوفي فقلت نعم يا صديقي ان قلبي طافح بالطمانينة ولكني لا اعلم المراد بقولك ان اورزيل اساءت معاملتك لعلها انها كانت تخاطبك بالفاظ المازحة

اجاب متسائلاً بالفاظ المازحة يا متيلدة . . وبفرض كونها ارادت المزاح بكلامها الم تعاملني يا ترى بمنتهى الاحتقار . . فبمدة حياتي . . لا . . لا . . . بمدة حياتي بكليتها لم اقابل من احد بكل هذه اللحة . . . اني بقيت باهتًا مكاني هنا كابله لا اجد كلمة اقولها . . فيا الله ما هذه الجسارة . . . بل ما هذه الوقاحة

قلت ولكني لا اذكر يا كونتران ان اورزيل خاطبتك بشيء قاس من غير قولها لك انها لا تحبك الى الابد وانهُ لا يمكنك الا تحبها

اجاب حسن . . حسن . . فهلا تحسبين ذلك شيئًا

قلت لا . . لا . . ان ذلك لا يحسب بشيء على الاطلاق لانك تحبني يا كونتران . . وحنوك من نحوي يمنعك عن الاشتغال بحبها فسواء لديك احبتك او لم تحبك

اجاب صدقت . . . صدقت الحق معك . . يا متيلدتي الحنونة اني احبك . . نعم احبك . . وانت طيبة كريمة بقلب صادق . . ونفس ابية سامية اما ابنة عمك . . . فما هي الصفات يا ترى التي تجملها بما يبعث الناس على حبها نعم انها بوجه لطيف قليل الانتظام وقامة مكملة وارجل ظريفة واعين وسيعة باهتة مجردة عن الخجل وتنثنات سخرية سفيهة مفرطة في قلة الحياء ولكنها بلا قلب ولا نفس . . فهي بذلك كواحدة من ممثلي الروايات تموه بما ترتعش لهُ القلوب وكلما فكرت بها كلما صعب عليَّ الخروج من لجة التعجب الشديد فهل خطر في ذهنك يومًا يا متيلدة ان يحصل ذلك من هذه الامراة المتظاهرة على الدوام بالسويداء والتوجع . . . . حقًا اني نظرت في حياتي نساء كثيرات باسلات مجرمات ولكني لم اصادف بينهن امراة من مثلها ذهبت بصوابي ثم صاح من غير ارادة منهُ

اه لو يسعني ان اسود عليها واقمع كبرياها وحينئذٍ من يصف مسرتي وسعادتي عندما إرد لها احتقار باحتقار وتهكما بتهكم

فاخفيت وجهي بين يدي واستغرقت بالدموع ولم الفظ كلمة اذ لم يعد لي من وجه للريب بكون اورزيل اصابت بسهمها المرمى

اما كونتران فكان ماخوذًا بمشاغل الافكار الكثيرة فلم يتنبه الى شيء من دموعي ثم نهض فجأة وعاد الى اتمام حديثهِ وهو يمشي في الغرفة باقدام متسعة فقال اني على تمام اليقين بان الرجل متى ساد بسلطانهِ على هذا الجنس من النساء المتكبرات الوقحات لا يمكن ان يشعر من نحوهنَّ بشيء من الشفقة . . فيا لسعادة المرء عندما يسعهُ أن يحتقر و يشين امثال هذه المخلوقات المنتفخة بعظمة الكبرياء . . . ثم استلقى على ظهره قهقهة بالضحك المغتصب وقال ان هذه الادعاءات الباطلة التي تكلمت بها هذه الامراة تستدعي الضحك الشديد فان السيدة سيشرين . فهمت السيدة سيشرين . . . تريد ان تكون بحسب الزي الاخير وتحصل على احسن منزل في باريز وتسخر بجميع الناس . . . قه . . قه . . قه . . حقًا ان امثال هذه الحادثة لا تخلو من المسرة والطرب . . ولكن ما بالك يا متيلدة . . . العلك تبكين

قلت اه يا كونتران ان هذه الحادثة ستكون مشومة علينا

اجاب وما المعنى بهذا الكلام

قلت المعنى هو ان اورزيل لسوء الحظ لم تلفظ كلمة الا تركت لها في فؤادك اثرًا داميًا من الغيظ والتمرمر

اجاب من الغيظ والتمرمر ولماذا يا ترى . . الما ان السيدة سيشرين صرحت باني لست من ذوي السعادة الحاصلين على رضاها . . فما هذا الذي تفكرين به يا صديقتي العزيزة . . ومن تتوهمينني . . . نعم اني لست من اصحاب الكبرياء الباطلة والغرور لكني لا احمل ان تمس اهليتي بمثل هذا الاحتقار الفاضح من قبل السيدة سيشرين والذي يضحكني شديدًا منها نطرفها الى الدعوى بانقيادي صاغرًا الى تعشقها . . . وقد اعترفت لك يا متيلدتي الحنونة بالحقيقة وتاكدت اخيرًا صحة اعترافي فاني رايت كون اورزيل لا تخلو من مظاهر الظرف وانقدت معها بالملاطفة الى ما هو ابعد من حدود ارادتي . . . لكن ذلك كلهُ وحرمة الصدق لم يحصل مني باميال الحب لان هذه الامراة لا تحوي شيئًا حسنًا . . وبعيدة عن كل شيء حسن ثم صاح قائلاً انا اتعشقها . . اني متشفق من الان لحالة الحمقاء المساكين الذين سيوخذون باشراكها . . انا اتعشقها . . وهل تفرق معيشتي وقتئذ عن معيشة اهل الجحيم . . انا اتعشقها . . وهي بمثل هذه الصفات الجهنمية . . اها . . اها . . . ثم غير فجأة لهجة الحديث وقال لي بصوت حنون لم يخفني والاسفي كونهُ مغتصبًا انا اتعشقها . . كاني

بعيد عمن تساوي بحسنها الفًا من مثلها . . . ولست حاصلاً على افضل واخلص النساء . . . . اريد ملاك اللطف والمكارم . . . فيامتيلدة . . ياحبيبتي متيلدة كيف امكنك ان تخشي لبرهة من الزمان حصول المقابلة بينك وبينها . . انت . . انت

ثم سقط مستغرقًا في نوع من نقلبات الاحلام وكان من المدائح الاخيرة التي ساقها اليّ ان المتني كثيرًا لانها ذكرتني بكلمات اورزبل المشومة لزوجي عندما قالت له لا يقتضي لاجبارك على مدح امرائك الا اعاملك بالاحتقار

وقد صدقت اورزبل بذلك لان المدائح الموجهة لنحوي من كونتران كان مدفوعًا اليها بعفاعيل الغيظ فهو لا يريد بمدحي شيئًا من غير نكاية ابنة عمي

ثم قلت لزوجي المهم لدينا يا صديقي الآن ان تبارح اورزبل ماران بايام قليلة وان نقنع زوجها بسرعة السفر

اجاب بلا ريب . . بلا ريب فلتسافر . . فلتسافر عاجلاً . . . عاجلا فسكت برهة ثم قلت اسمح لي يا صديقي ان اخاطبك بايضاح

اجاب تكلمي

قلت الا تجد من الغريب ان يتاتى لي اولك عن هذه الحادثة الناطقة بوجوب تبرئتك وتطميني شيء كثير من ضروب القلق والمخاوف

اجاب اني لم افهم شيئًا من كلامك

قلت ان اورزبل صرحت علانية بكونها لا تحبك ولن تحبك الى الابد وان ملاطفاتك نحوها بلا جدوى وانها مزمعة على السفر قريبًا . . ومع ذلك فها انذا مواصلة البكاء على ما تراني . . وانت مضطرب قلق ولا تستطيع اخفاء شيء من هياجك

فصاح بفروغ صبر اه يا الهي ان اسباب ذلك بسيطة . فانت تبكين لانك تبكين من لا شيء اما انا فمنهيج لانه يوجد بين الاشياء ما يجرح بلا ارادة عزة النفس . . فما الذي تريدين استنتاجه من ذلك يا ترى . . هل تحاولين وضع نفسك من اورزبل موضع الصدى وتقولين بلسانها اني متعشق لها او بالحري لا البث ان اتعشقها ان ذلك رابع المستحيلات ولكني لا انكر كونها جردتني من الصبر لاني لم اعتد ان اعامل من احد بانواع هذا السخر ثم يوجد اساليب كثيرة للكشف عن الافكار وكان الاولى بها ان تقول لي بصراحة اني اظهرت لك شيئًا من الخفة ومن المقتضي ان نسى ذلك الان ونبقى متصادقين بسرائر صافية واذا كان وجودي موجبًا لاثارة الغيرة من متيلدة فلا امتنع عن السفر سريعًا . . . حقًا لو تكلمت بذلك لاصابت . . . ولكن ما الغاية يا ترى من اعترافها لي بكل هذه المبادىء . . بل ما الفائدة من قولها لي بوقاحة اني لم احصل على استحسانها ولكن اناسًا

غيري يحصلون على ذلك . . وما المراد من ايضاحها بمظاهر التعشق اذا اضربنا عن التكلم بما هو اكثر لحالة الثمول التي تعتريها بمناسبة الظروف التي تحلم بها . . . . . يا للعجب ويا للغرابة كيف ظهرت على أوجهها وقتئذ انواع التاثر الحقيقي . . ان ذلك لمن المعميات التي لا تحيط بها الافكار لكني لست من ذويها وليهتم غيري بحل رموزها ثم صاح اليست فضلاً عن ذلك بارادة من حديد وانها ارادت ان تتعلم ركوب الخيل وها هي الان من مهرة الفرسان ثم تحولت افكارها الى ان تكون في الشتاء القادم من نساء الزي الجديد المتفننات ولا ريب بنجاحها لانها حاصلة على كلما تحتاجه للنجاح

قلت منذ هنيهة ذهبت الى ما يخالف هذا الفكر يا صديقي وقلت ان تكلفها بذلك نوع من الادعاء الباطل المضحك

فضرب زوجي برجله الارض بخشونة وقال اه يا الهي ان ما لا يحتمل ان تستخرجي من اقوالي غرائب المعاني . . اني احدثك بمزيد الثقة والامن فلا تجتني بين كلماتي على غير الاشياء التي اريد قولها لك

فنظرت اليه بتعجب مولم وقلت سابديـ لك هذه الملاحظة الوحيدة انك منذ نهاية تلك الحادثة وانت تتكلم بلا انقطاع عن اورزبل ولم يبدُ لك شيء من الافكار لجهة ولدنا

فوضع يده على جبهته وصاح باضطراب مزيد صدقت ايتها الامراة المسكينة الكريمة فالعفو . . العفو يا متيلدة عن طيشي . . . ان كلماتك وحدها هي التي تذكرني بواجباتي وحبي وتسكن من هياجي وتعذبني عن الجرح المولم بكبريائي . . فاصفحي لي اذن عن بقايا هذه الكبرياء الاخيرة . نعم اني شعرت كوني متضايقاً قليلاً لتجردي عن كل مزية توليني شيئاً من السلطان على اورزبل . . . وهل تعلمين لماذا . . لاني لو حصلت على ذلك السلطان لكانت الضحية التي اقدمها وقتئذ بالانقطاع عنها لك اعظم من الضحية الحاضرة ولا اريد الا اثبت لك حبي باعظم الضحايا . . . صدقيني ان من اسهل ما يكون لدي ان انسى هذه الامراة الشيطانية ثم صاح الحق معك يا ملاكي المحبوب . . ولدنا . . ولدنا فلنتكلم عن ولدنا ولا ريب ان السعادة ستكون مضمونة لنا في وسط هذه الامال العذبة وتعشقات قلبي الاكيدة لك . . ثم العفو ايضاً لانجراح قلبي بتهكمات اورزبل وسبب ذلك انها تحقرت بي امامك ولا اخفي عنك يا متيلدة اني شديد الافتخار والاعتداد بنفسي منذ يوم ارتباطي بحبك . . . ولكنني لا اظنك بعد كل هذا الا تحبينني كثيراً كالسابق . . . والامل ان لا نفكر بعد الان بهذا المشهد المضحك الا لنضحك من اعمالي وخفتي بل الاصوب في شرعي ان ننسى كل هذا ونتكلم عن ولدنا متخذين من امثال هذه المحادثات العذبة ملجأ اميناً نحتمي به من غوائل هذه الافكار الشريرة

ثم انقطعت هذه الحادثة بمجيء واحد من مزارعينا يريد التكلم مع زوجي فانهى كونتران كلامه بالتبسم

وسرني منه في بادىء الامر هذه الالفاظ العذبة التي اوردها بظرفه العادي ثم تراآى لي اخيرًا انه يتكلم بلهجة عصابية مضطربة وان حالة نظره مخالفة لحديثه فكانما هو يحاول ان ينشط بافكاره عن التامل باحواله او يطمي ببعض الفاظ الحنو لكن لهجة صوته كانت لا تخلو وقتئذ من نغمة موثرة وكلما كنت اتامل بحالة الانفعال الملمة به مما اضرمت ماره اورزبل كلما تمكن مني الاعتقاد بوجود الخطر على مقربة منا وقرب انقضاضه علينا ولو تكنني الدهر مذلك منذ بضعة ايام لما امكني الا ابكي . . . واتكلم ببعض الفاظ الشكوى العقيمة واما الان وقد دعيت لواجبات جديدة فلا يسعني الا اغير سلوكي بكليته واعتمد على وجوب الهرب من الاحزان الحادة لئلا يصاب ولدي بتاثيراتها المشومة فالت على نفسي ان لا اتكدر من الان وصاعدًا من اجل الاباطيل العالمية وان احجر شعائري وقلبي ضد المصائب الادبية بحيث لا توثر بها بعد الان الالام والاوجاع ولكن مظاهر الاحوال كانت تنذر بان لا تلبث ان تعصف بهذا العزم الجديد انواء التجارب القاسية فمسحت دموعي وفكرت بمركزي بجمود ولكيما لا اعود اسحق بخيبة الظن تحت البقايا الباقية من امالي بدات اتصور بسالة مستقبلي بمنتهى ما يمكن تصوره من مظاهر السواد المشومة اني لا اخفي شيئًا لجهة الاسباب التي دفعتني الى التمسك بهذا العزم الجسور فاني كنت حاصلة على كنز من السعادة والامل ولا يمكن احد في العالم ان يجردني منه فمهما ساءت احوال مستقبلي يبقى لي ولدي اني كنت معتقدة بثقة لا تتزعزع بان الله سبحانه وتعالى قد استعفدني بهذه التعزية السامية في وسط احزاني كجزاء ديني على اخلاصي لواجباتي وهذا الاعتقاد الاعمى بالحماية الالهية منعني وقتئذ من الحصول على اقل الخاوف الجدية لجهة مستقبل حيوة ذلك الجنين الذي تضاعفت به حياتي ولا يلبث ان ينسيني كثيرًا من الالام

ثم رسمت خطة للعمل وعقدت العزم الثابت على السير بموجبها فقلت ان مدة ثمانية ايام تكون كافية لاقتناع الموسيو سيشرين من امرائه بالرحيل عن ماران واذا مضت الايام المذكورة ولم تسافر ونفر رلدي ان احتقاراتها المصنعة لزوجي لم تكن الا نوعًا من ضروب الخفة الاثيمة فلا يسعني وقتئذ الا المسير بحسب مشورات الدوقة دى ريشفيل والامل متى نفيت وحدي مع كونتران ان اتوصل بحنوي وحالة حملي الحاضرة التي تستوجب اهتمامه الى طرد اورنربل من افكاره وبفرض حصول عكس ذلك وان حمة تعاظم بالموانع وقضيت بعد منازلة نفوذ هذه الامراة المشوم بجميع قوى حبي واخلاصي فيبقى لي ولدي ثم التعزية بسقوطي شريفة امام اعدائي واعيش من ثم لولدي ووحيدي

ان من المستحيل علي شرح حالة السكون والثقة التي اوجدها فيَّ ذلك العزم فلم اعد اشعر كالماضي بشيء من تلك المخاوف المبهمة والاوجاع التي لا يعرف لها غاية ولا حد وسبب ذلك انهُ لم يكن فيما مضى ليبقى لي لو فقدت حب كونتران الا ياس رحب وحيوة شقية عقيمة و بعض التذكرات المظلمة التي تزيد لدى اجراء المقابلة في قساوة الحاضر

فجثوت على ركبتي لاشكر الرب لانهُ لم يسمح ان تستغرقني انواع الثقة المشومة واعتمدت ان الاحظ كل شيء باصغاء بدون ان اتنازل الى التلوث باقذار التجسس الدني ولن لا اتهامل بالاطلاع على كلما يتاتى عنهُ انارة افكاري بالحقيقة

الفصل الرابع والثلاثون

السيدة دي ماران

ان من اغرب ما يذكر حالة التعجب الشديد التي المت بي في اليوم الثاني من تاريخ ذلك المشهد عندما دفعت اليَّ رقعة مختصرة من قبل السيدة دى ماران وما آلها انها لا تلبث ان تصل اليَّ قريبًا ولربما في ساعة وصول تحريرها وانها ستعلمني شفاهًا بسبب مجيئها فقلت لربما تكون هذه الامراة قد نبهت بالهامات ضميرها الخفية الى الاحزان الجديدة المتراكمة عليَّ ولا تريد بحضورها شيئًا من غير التلذذ بمشهد عذابي

ولو لم تسعفني الايام بالاطلاع على جميع صفات السيدة دى ماران من خفية وظاهرة لتعجبت كثيرًا من وقاحة هذه الزيارة لدى التذكر بما كان منها في مواجهتنا الاخيرة وكيف كشفت لي بصريح العبارة عما تضمره لي من البغض والذي اخافني كثيرًا اجتماعها عندي باورزيل لانها املت وتنبت من قبل بالهامات الشر ان هذه الفتاة لا تلبث ان تصير عاجلاً كان او اجلاً بمرافقتها لي في حياتي عدوتي الالدى ولا ريب ان وجودها الان بجانبي يكون موجبًا لمرضاة عمتي ولربما تضم اليها وتصير حليفة منيعة لها وتاملت بتبرمر ان العالم فطر على ذلك وان المرء مجبور باحكام العوائد على ان يقبل في منزلهِ الد اعدائهِ بحجة القرابة او الصداقة التي تساعد على انتشار وزيادة المضار الصادرة عن عداوتهم ثم اطلعت كونتران على قرب مجيء عمتي فلم يهتم كثيرًا لهذا الخبر اما انا فبالعكس تخوفت بمجيئها وفكرت بوجود اسباب خطيرة حملتها على هذا المجيء المسوب خروجًا عن عوائدها لانها لم تبارح باريز منذ اكثر من خمسة عشرة سنة

وفي نحو الساعة الثانية تقريباً وصلت عمتي مصحوبة بسرفيان وواحدة من نسائها وخادم من المشاة كمماع امامها وكلب صغير كان خلفاً لفيليكس عندها فبادرنا لمقابلتها الى ساحة القصر الخارجية حينما انحدرت من العربة برشاقة وسهولة ولم تغير الايام شيئاً من احوالها فهي لابسة على الدوام لثوبها وقبعتها الحرائر بين الرماديين من مثل رهبان الكرمل

ولم يسعني بالرغم عن مشاغل افكاري المحزنة الا ابتسم بظاهر العجب عندما رايت كموت السيدة دي ماران يزدان بالقياطين المثلثة الالوان ومثل ذلك قبعة سرفيان فهي بوردة عظيمة ملونة بالالوان الثلاثة الوطنية

ولاحظت السيدة دي ماران حالة تعجبي فصاحت بدخولها الى القاعة اليس الباعث لك على هذا التعجب كوني لم اغني لك بعد المرسليز ولا شيئاً من اغاني الحرية . . صرحاً ابها الوطني والوطنية العلي لا امثل لكما بهذه القياطين المثلثة الالوان واحدة من محرزات الغاية الشهيرات في ثورة تموز ثم لا يبعد ان تظنا ايضاً كوني حضرت لاخبركما بعقد زواجي على الموسيو لافيت (وهو من رجال المالية الفرنساويين وله دخل عظيم في ثورة ١٨٣٠) امام مذابح الوطنية لكنكما مخطئان وهوذا القياطين الجميلة المثلثة الالوان تحت اقدامي بل ماكل للنار وعند تكلمها بذلك جردت قبعتها من تلك القياطين ثم داستها باقدامها بمنتهى الغضب والغيظ والقت بها الى الموقدة فريسة للنار

فضحك الموسيو كونتران وقال احسنت يا سيدتي اني لا اصدق كونك تتكلمين بالجد

اجابت كيف لا اتكلم بالجد هل تحاول ان تهزأ بي يا حضرة الموسيو دي لانكراي الا فاعلم جيداً اذن اني لم ارتض بتخريج ثيابي بهذه الالوان المستقبحة مني الا لغاية ان اسافر براحة وسكينة

قال كونتران وهل لم تتاثر اميالك الملكية بهذه المساهلة

اجابت ان اميالي الملكية لا تجد في ذلك شيئاً من موجبات التاثر وعندي ان الوسائط الحسنة الموصلة الى السلامة لا يمكن الانتقاد عليها فهل من الممكن يا ترى ان يوخذ عليّ لو تسلحت في ايام كارتوش وماندرين (زعيمين شهيرين للصوص في فرنسا) برخصة منهما للمرور بلا خطر بين رجالهما . . . لا لعمري . . . ومثل ذلك تظاهري الان بهذه القياطين الملونة واستصحابي لهذه التذكرة المسرحة بالسفر فهي لا تختلف بشيء لديّ عن رخصة اللصوص المذكورة فاني استعملها للانتفاع بها ولكني احتقرها . . فهمت كلامي

اجاب فهمت يا سيدتي . . . انما افيدي الان لاية الصدف المعيدة يا ترى نحن مديونون بزيارتك

قالت ان رجال الحكومة الحاضرة يا ولدي يريدون ان يحاكموا او بالحري يحكموا على اولئك

الوزراء المنكودي الحظ ثم الفتن متواصلة في باريز على الدوام والالسن تلهج بنهب منازل الاشراف وتجديد الاحوال التي حصلت سنة ١٧٩٣ فاخفيت الاواني الفضية في مكان لا يسع الشيطان المريد ان يصل اليه ثم اتيت بجوهراتي ونحوًا من خمسة الاف ليرا فرنساوية في الطبقة الثانية السفلية من صندوق العربة وجئت الى هنا انتظر الحوادث فاذا سكنت الاحوال عدت الى باريز والا رحلت الى انكلترا اما الان فباريز لا تسكن لان جميع الاصحاب والمعارف الذين تولف منهم هيئتنا الاجتماعية بارحوا البلاد فالبعض لحقوا بالملك المسن الصالح وامراة ولي العهد والاخرون ذهبوا الى فاندي لانتظار الملكة وان شاء الله يعرقلون طويلاً مساعي هولاء الزرق المستجدين اما الباقون فطلبوا النجاة لانفسهم كايام الثورة الاولى فمنهم من رحل لالمانيا ومنهم من سار لايطاليا حقًا ان نفسي زهقت اخيرًا في باريز من حالة الوحدة والضجر ثم انتابتني المخاوف ايضًا بما سهل لي الحصول على السعادة بالمجيء لمعانقتكما يا ولديَّ العزيزين فاني احب كثيرًا النظر الى حالة معيشتكما الهنيئة واقول في نفسي لدى مشاهدتكما ان هذين القلبين اوجدا لبعضهما وتم ارتباطهما بعنايتي بسلسلة زاهرة ثم قهقهت ضحكًا وقالت حقًا لقد اثرت فيَّ مظاهر البرية فبدات اتكلم بقصائد الرعاة والمزارعين . . . . فابن اذن زموركما لاشدو باغاني سعادتكما على الزمر من مثل رعاة اركاديا

وراعني من السيدة دى ماران مظاهر افراحها لان ضحكتها المزعجة كانت تشف عن معاني الشر وبدخولها وضعت كعادتها النظارات على اعينها ولم تكن الغاية من ذلك الا اخفاء نظراتها بحيث لا تشاهد من وراء الزجاج ويمكنها ان تلاحظ الحضور بحسب مشتهاها ولا تلاحظ من احد وانتبهت في بادىء الامر الى ان عمتي في حالة تكلمها كانت تتامل باصغاء تام وجهي ووجه زوجي ثم قالت هل يمكنكما ان تمداني بشيء من اخبار اورزيل

اجبت انها هنا مع زوجها منذ بضعة ايام

قالت صحيح . . فقد اجتمع اذن شمل العائلة في هذا القصر . . يا للغرابة كيف جئت في الزمان المناسب ثم قالت واين تلك الفتاة العزيزة

قال كونتران انها خرجت للتنزه مع الموسيو ميشرين وقريبًا ترجع

فصاحت السيدة دى ماران ماذا . . . خرجت للتنزه مع زوجها وانت باق هنا مع امراتك حقًا ان هذه الارض هي ارض الميعاد والحيوة التي تقضونها فيها طافحة بالحنو وغاية في السهولة والبساطة ثم كررت قولها خرجت للتنزه مع زوجها . . يا لله كم يناسبها هذا الرجل لانه جاهل احمق من مثل الاوز كثير الكلام . . لكن اخبراني يا ولديَّ العزيزين العلهما لا يزالان يتبادلان فيما بينهما كلمات الحنو الموثرة من مثل يا ربي ويا جميلتي

فتبسمت بمرمر وقلت سوف ترين اورش بل متغيرة كثيرًا يا سيدتي

اجابت متغيرة . . وما المعنى بذلك يا ترى العلها فقدت شيئًا من ظرفها السابق

قلت انها لا تزال كثيرة الظرف ولكن اخلاقها تغيرت ولم تعد الان على شيء من مظاهر السويداء السابقة

فقهقهت بالضحك وقالت اني اضحك بالرغم عني عندما اتذكر بجهالة تشيعي لك في الماضي وكيف ان هذا التشيع كان يغشى على بصري ويعمي بصيرتي . . فهل تذكرين ايام كنت اونب على الدوام اورش بل وادعي كونها شنيعة . . فالان يا ولدي وقد مضى الذي مضى يمكني ان اعترف بالحق فاعلما اذن ان اعمالي وقتئذ كانت مجردة عن العدالة واني كنت بالعكس اجدها بافكار سامية وظرف كثير بل كنت اجد فيها من مظاهر الظرف والحلاوة ما لا اجده فيك يا عزيزتي متيلدة ولكني كنت ادفع بشعائر الحب وقتئذ الى اختلاق هذه الاكاذيب الباطلة لغاية ان امدحك بذمة ابنة عمك . . اني اهلة لان اقدم على كل شيء بقوة الحب والارتباط . . . ولا تتصوري بذلك انك اقل جمالاً من اورش بل فهي لا تشبه اليك بشيء من هذا القبيل ولكنها حاصلة على ما لا تدرك حقيقته من اسرار الظرف الناخسة الجذابة التي تسلب من مثل هولاء المتزلفين العقول

وعند هذه الكلمات الاخيرة اشارت الى الموسيو كونتران واستغرقت في الضحك ثم مالت عليَّ وقالت بصوت منخفض قليلاً وهي مداومة الضحك ايضًا الست غيورة من هذه الشيطانة اورش بل . . احترسي جيدًا من هولاء الشقيقات اللواتي يظهرنَ بتبسمات الطهارة والندامة واعين مهارة تنبعث منها اشعة الحب الساحرة

وكانت عمتي قد حسبت جيدًا لكل كلمة من كلماتها المذكورة واستعدت عليها بمنتهى افكار الشر فلم تجرحني من قبل بقساوة من مثل القساوة التي جرحتني بها هذه الكلمات وتيقنت من هذه الظروف بان للنوايا الردية كالنوايا الطيبة صدف تساعدها وقد تخدم الاثنين في الغالب التقادير الغريبة وكونتران نفسه بالرغم عن ثباته اصيب مثلي بالجمود لهذه المازحة المشومة التي رمينا بسهامها ولم يسعه الا بتمتم بمظاهر التبسم المغتصب هل تظنين ممكنًا يا سيدتي ان اتظاهر بالخيانة من نحو متيلدتي العزيزة اولسنا على ما قلت مثالاً للمعيشة الهنية

قالت اني لا اريد شيئًا من غير المزاح بكلامي ثم لا يخفاك ان خفر الرجل لزمام امرأته في البرية لا يمكن ان يعذر عليه اما في باريز فقد تختلف الحال بالنظر الى سكرة العالم . . . والظروف . . وازهار الظرف اليانعة على قول الاميرة كسبرنكة . . فانت في مامن هنا ايتها الصغيرة المسكينة العزيزة التي اظهرت على الدوام كونك طيبة مخلصة من نحو كونتران ولنا مثال على ذلك ما حصل لك مع ذلك اللعين ليكورنو

فاعترتني الجمدة الممتزجة بالاصفرار الباهت وانتصب كونتران بمنتهى قامته كما لو لدغته الافعى وقال دعنا بربك يا سيدتي من التكلم في ذلك ولا تذكرينا بمشهد مكدر

قالت كيف لا اتكلم بذلك ايها العقوق الا فاعلم اني ساكرر هذه الاقاويل بلا انقطاع ولا اسكت عنها مطلقًا اظهارًا لفضل هذه الصغيرة . . فهل لك ان تجد في العالم امراة من مثلها تخاطر بسمعتها من اجل ارضاء دائن زوجها حقًا ان ذلك يا صديقي لمن اسمى ما سمع في الوجود عن طيبة القلب

فصاح ولكن اقاويل الناس شلم صيتها ليست الا نوعًا من الوشاية الدنية وقد صرحت بذلك علانية وامام جميع الناس لذلك الشقي ليكورتو

اجابت اني عالمة يا ولديّ العزيزين بانها وشاية وان متيلدة بريئة طاهرة من مثل فراخ الحمام الخارجة جديدًا الى عالم الحيوة ولكن . .

وكنت قد نظرت من نعيد الى مصير هذه المحادثة التي تريد السيدة دى ماران ترويجها فقاطعتها وقلت لها شبات اوجب عجبها وعجب الموسيو دي لانكراي ايضًا انك شرفتنا يا سيدتي بالمجيء لمشاهدتنا ولم نكن على انتظار لحصول هذه الزيارة من قبلك ونحن نحتسب على الدوام ان من السعادة العظمى ان نحصل عليك فيما بيننا ولا ننسى مطلقًا ان هذا القصر كان لاخيك وسنبذل كلما في الوسع لاجراء مقابلتك فيه باحسن ما يمكننا ولكنا نومل يا سيدتي ان لا تحاولي اذكارنا بشيء من التذكرات الموجعة لي ولزوجي

اجابت ولكن يا عزيزتي . . .

فقاطعتها ثانية بصوت اعلى وقلت من حيث قد نسيت يا سيدتي الاسباب التي كادت تقطع فيما بيني وبينك علاقة التقرب الى الابد فالامل ان لا تعودي عندنا الى ذكر شيء من تلك الوشايات المخيفة التي ارسلت صداها الى الوجود ولا اظنك تحملين باجابة هذا السوال شيئًا من الضحايا العظيمة . . . ثم لا يسعنا اذا تكرمت علينا بهذه المرحمة الا نطفح قلوبنا من نحوك بشعائر الامتنان ولربما يداخلك بعض المسرة بمشهد اتحاد وسعادة الشخصين اللذين حاولت بلا ريب عن غير ارادة منك تكدير حياتهما بالانقسام والشقاق

وكان من مظاهر الرصانة والسكينة التي اظهرتها وقتئذ ان اثرت تاثيرًا غريبًا في السيدة دى ماران والموسيو دى لانكراي فلازمت عمتي الصمت لبرهة ثم نظرت الى كونتران وقالت بتهكم اليست متيلدة هي التي تكلمت الان بالجميع عنها وعن زوجها . . فهل للنساء اذن ايها الفيكونت المسكين ان يستاثرن بالسيادة ويتكلمن بلسان ازواجهن على خلاف العادة

قال ان متيلدة لم تتكلم بلساني الا قليلاً ولكنها تكلمت كثيرًا بلسان نفسها . . . نعم انها تقدم

اليك معها بطلب مجانبة الاخبار بالحوادث الموجبة لكدرنا ولكني لا اسمح بان تضع عليك شروطًا للاقامة عندنا

وعند تكلمه ذلك نظر اليّ بصرامة

ولم اكن منتظرة لان يتشيع زوجي على نوع ما لعمتي ضدي كما فعل ولكني تظاهرت بالجلد لهذه المقابلة القاسية منهُ وبقيت مرتضية بمظاهر الثبات التي تكلمت بها ثم اجبت اني لا اضع شروطًا يا سيدتي الا لوجودي معكم فقد تشرفت بالقول لك اني اتذكر على الدوام كونك شقيقة ابي وانك هنا نزيلة الموسيو دى لانكراسيه واذا لسوء الحظ لم يمكنك الا التكلم بما لا يسعني استماعهُ من المازحات فلا يكون مني وقتئذ الا الرجاء بغض النظر عن سفري وقد يبقى الموسيو دى لانكراي للقيام بالفرائض المتوجبة علينا بزيارتك اما انا فاسافر في الحال الى باريز

وقد لفظت ذلك بلهجة دلت على عزم ثابت فصاحت السيدة دى ماران لا يبعد ان تحقق اقوالها بالعمل . . اني اكاد لا اعرف امراتك يا كونتراني المسكين فا هذا الذي جد عليها يا ترى

قلت جد ياسيدتي اني في حاجة لان ابتعد عن الاوجاع واني اعتمدت من الان وصاعدًا على مجانبة جميع الاكدار التي يسعني مجانبتها

اجابت فهمت . . . فهمت . . انك تريدين معاملة نفسك بالعناية والرعاية

قلت نعم يا سيدتي اني في حاجة بحسب قولك لان اعتني بنفسي

وعند ذلك ارسل لي كونتران بالرغم عن مشاغل افكاره نظرًا حنونًا يتضمن انهُ فهم المراد بحديثي

اما السيدة دي ماران فعاودت التكلم بهزء وقالت حسن يا عزيزتي تم الاتفاق وسنعمل سوًّا بجميع المواضيع التي لا يجوز التكلم بها فاولًا ليكورتو والاشاعات المشينة المتعلقة به ثانيًا انحراف زوجك عنك لنحو الاميرة كسيربكة ثالثًا جميع المشابهات التي تحمل على الظن بكون اورزبل اقرب منك الى امتلاك القلوب رابعًا واخيرًا كل تلميح يستدل منهُ على شيء من العناية التي لا يبعد على هذا المتزلق كونتران ان يحاول معاملة اورزبل بها استهانة بذلك المجذوب الموسيو سيشرين . . ها هو قد حضر . . فما احسن هذه الصدفة

وكان قد دخل وقتئذ الموسيو سيشرين الى القاعة مصحوبًا بامراتهِ ولدى مشاهدتهِ لعمتي صاح بمنتهى الفرح من ارى . . اليست تلك الامراة الصالحة السيدة دى ماران

قالت نعم انا ذاتي بلحمي وعظمي يا حضرة الموسيو سيشرين والان كنت بحديثك ثم نهضت لمعانقة اورزبل تقبلها من جبهتها وقالت صباح الخير يا اورزبل . . صباح الخير يا صغيرتي . . . اني سعيدة بمشاهدتكم مجتمعين كالعائلة الواحدة في منزل واحد وهذا موضوع احلامي وتمنياتي

منذ زمن طويل ان اراكما عائشين سوية كشقيقتين وان لا تبارحا بعضكما الا نادرًا

فصاح الموسيو سيشرين بل لا نبارح بعضنا على الاطلاق اذا امكن ونكون اشبه شيء بالعائلة الواحدة اليس كذلك يا حضرة السيدة دى ماران بل يا زبدة النساء الصالحات

قالت اذا داومت الاصرار على مناداتي بزبدة النساء تلجئني باحكام الضرورة الى المباشرة بتانيبك لان هذا الوصف يزعجني ثم لربما يضر بي ايضًا كواحدة من سليلات الاشراف . . وهل يوجد اصلحك الله يا حضرة الموسيو سيشرين بعد ايام تموز المجيدة التي قررت المساواة والاخاء والحرية مثل هذه الاوصاف والامتيازات . . الا فنادني اذن بهذا الاسم البسيط (يا ايتها الامراة الصالحة) ودعنا من زبدتك ان شئت ان لا تكدر شعائري بالغيظ

قال حسن فساقتصر مذ الان على مناداتك بما تريدين فانت امراة صالحة ثم اتخذ بكلامه لهجة جدية وقال بل في منتهى درجات الصلاح بحيث لا اراك الا واتذكر امي ولا ارى امي الا واتذكرك

اجابت ان هذه المشابهة تنطق بمدحي ومدح امك ثم بمدح تصوراتك العقلية واحكامك الصادقة . . لكن اخبرني هل نكبك الدهر بفقدانها

اجاب لا والحمد لله وانما جد حوادث كثيرة بعد مفارقتك للمرة الاخيرة

قالت عجل بقص هذه الاخبار لانك تعلم مقدار اهتمامي بالاطلاع على كلما يتعلق بك . . . فما الذي جد يا ترى

وخافت اورزبل من الاباحة باخبارها فكررت لزوجها الاشارة بالامتناع عن التكلم ولكنه لم ينتبه لاشاراتها وبقي مداومًا الحديث فقال انا افترقنا عن والدتي يا سيدتي

فصاحت السيدة دي ماران لا يمكن ان اصدق ذلك . . انت افترقت عن امك . . ولماذا يا الهي

اجاب لان امي اساءت ظنها باورزبل وتوهمت كون الموسيو شيبويل مدبر ناحيتنا الذي عزل بعد ثورة تموز يتودد اليها بالحب.

وكان وجه السيدة دي ماران الى ذلك الحين بمظاهر المسرة والهزء فظهرت عليه بغتة ملامح الخشونة والصرامة وقالت له

ان الارتياب بعفة اورزبل عبارة عن الارتياب بالاداب والتربية والمبادىء الوطيدة التي غرستها فيها ولا ريب ان امك تهيجت كثيرًا بالعدوان ضد اورزبل حتى امكنها ان تصدق بمثل هذه الاوهام الجسيمة . . . وانت تعلم ان تعلقي بالحب لا يعميني عن معرفة الحقيقة ومن اجل هذا اتقدم لك الان وعلى الدوام ككفيلة مسئولة عن استقامة اورزبل واذا كانت الظواهر

تكون الظواهر ضدها فلا تصدق هذه الظواهر لان هذه البنية البديعة تحبك اكثر ما يتراءَى لك منها

قال ولكن من يسمعك يظنك ساعية بمقاومتي لاقناعي بحقيقة انكرها والصحيح اني لم اشك مدة حياتي باورزيل واحلف لك بشرفي على ذلك

قالت اورزيل انك طيبة القلب كثيرة المسامحة يا سيدتي . . .

اجابت لا بل عادلة اتكلم عن كل بما يستحقه ولا ابخس احدًا حقه ويسرني كثيرًا ما اراه من اتحادكما ووفاقكما . . . ان ما لا يتصوره العقل حالة تمولي بالمسرات لحصول الاتفاق بالمعيشة بين عائلتيكما فان ذلك يوثر بي الى درجة لا يساعد اللسان على ايضاحها والذي يوجب زيادة مسرتي بنوع خاص من هذا التقرب انما هو التفكر بما يحصل مع الوقت من زيادة الارتباط بالمودة واحكام عرى المحبة بالائتلاف فتستحيل العائلتان اخيرًا الى عائلة واحدة مختلطة متمازجة لا يمكن التفريق بينهما بل الى واحدة من جمعيات الاشتراك ووحدة العلائق جريًا على اصطلاح العصر الذهبي بحيث لا يملك احدكم شيئًا الا يكون مشتركًا بينه وبين الاخرين اليس كذلك يا حضرة الموسيو سيشرين

اجاب ضاحكًا اصبت يا سيدتي ولكني انا وامراتي نربح كثيرًا بهذه المتاجرة

قالت دعنا بربك من الفاظ الملاطفة والاحتشام فهل يحسن التكلم بمثل ذلك بين الاصدقاء ويقال نربح كثيرًا او قليلاً ومن جهة ثانية الم يجد كل منكم في هذه المتاجرة ما ملكت يداه او لست متيلدة كاخ وشفيقة ثم اذا نظر كوهان الى امراتك كما لو كان ينظر الى امراته الا نتوقع ان تحبه امراتك بدورها كما تحبك . . فما المعنى اذًا بهذه الارباح التي نتوهمها

فصاح الموسيو سيشرين بمنتهى المسرة الحق معك يا سيدتي ان بذل القلب والاخلاص راسمالاً لشراكة مضاربة كهذه الشراكة بحسبما يقال في الاشغال عبارة عن بذل كلنا في الوسع بما يخول الشركاء حقًا متساويًا باقتسام ارباح السعادة

فصفقت السيدة دي ماران كفًا على كف وقالت هل سمعتموه . . . هل سمعتموه . . . عجبًا ما الطف وما ابدع هذه المشابهة لجهة التجارة والمضاربة فلا ريب ان اورغريل هي التي اودعت فيك سر التكلم بهذه الاساليب اللطيفة . . لله ما تفعل الامراة الشابة المهذبة بنفوذها على الرجل كم تلطف من اخلاقه وتهذب من حديثه . . نعم لا انكر يا حضرة الموسيو سيشرين انك منذ البداية مجمل بجميع الصفات الحسنة ولكنك كنت في حاجة لما لا يعلم كنهه من مزية التفنن برقة الايضاح ما تجملت به الان . . فما عدت تعرف لانك استبدلت الخشونة السابقة باساليب الظرف والرقة . . مهلاً . . مهلاً ولا تطوح بنفسك الى غرور الافتخار لان الفضل بذلك لغيرك

قال وكيف ذلك يا سيدتي .

اجابت بلا ريب ان فضلك بتلطيف اخلاقك لا يزيد بكثير عن فضل النسرينة عندما تتحول الى وردة . . . فيا أنت الآن الا صحة هذه الجنينية الصغيرة البديعة لانها طعمتك يا حضرة الموسيو سيشرين . . لانها طعمتك ....

فصاح الموسيو سيشرين يا لله ما اصوب هذه المشابهة . . نعم طعمتني . . نعم تطعمت

قالت نعم يا سيدي طعمتك بمطعوم مضاعف ثم نظرت الى آورزيل تبسم الشر ففهمت من ذلك ان ممازحات السيدة دى ماران بمعان جارحة مضاعفة

ثم تكلم الموسيو سيشرين بسذاجة فقال لربما يكون كلامك على سبيل السخر يا سيدتي . . . اصدقيني الخبر بحقك . اصحيح اني تخلقت باخلاق رضية

اجابت لربما لم اشتهر بشيء من الصفات في العالم من غير حرية الضمير والتكلم به بخشونة ولو عن نفسي فلو لم اكن على اعتقاد من تحسن اوصافك لما قلت ذلك . . ثم هل ذكر كوني عاملتك بشيء من الحلم والمداراة عندما كنت تتكلم بما يوخذ عليه . .

قال تكلمت بالحق وقد صدقتك اني بفرض كوني تخلقت بشيء من الصفات الحسنة فلايكون ذلك الا بفضل اورزيل ولكني لم انتبه والحق يقال الى حصول شيء من هذا التخلق

قالت ان هذا الانصاع المتناهي بالظرف يوئيد كلامي عنك يا حضرة الموسيو سيشرين ولكني اختار السكوت على التكلم مخافة ان تبعث به اورزيل على زيادة الافتخار والتعاظم بك و بذاتها . . . هانذا ذاهبة عكما فهلمي بي يا متيلدة الى غرفتي لاني تعبة من مشاق الطريق متوجعة القلب من حرى تقلدي تلك العلامات المثلثة الالوان لكن سكينة الحقول ومشهد السعادة التي نظرتكم عليها طردت عن قلبي تلك الاوجاع واريد الان مبارحتكم الى غرفتي وان ادعكم وشانكم تمرحون في بحبوحة الحب

الفصل الخامس والثلاثون

تذكرات الصبا

ولم يسعني ان اقف على السبب الحقيقي لمجيء السيدة دي ماران فجأة الينا فحاولت ان اقنع نفسي بصدق الاسباب التي اوردتها سيما وان جرائد باريز كانت تحمل الينا الاخبار بتفاقم

الاضطراب في المدينة المذكورة ثم تراءى لي مع ذلك ان مخاوف عمتي مبالغ فيها ولكن مجرد القول بكونها مدفوعة الى المجيء بغير هذه الاسباب كان موجعاً لا خافني بالرغم عني لان حضورها فيما بيننا لا يتضمن شيئاً من غير الانذار بمصاب جديد ثم تاملت كونتران باصغاء فاذا هو باهت ماخوذ بالمشاغل والاحلام اما اورزيل فكانت تجتنب الانفراد بي وكنت محترقة برغبة النظر الى سفرها السريع ولم اعلم هل هيئت زوجها واستجلبت اميالة الى السفر او لا ولكني خاطبت كونتران بذلك مراراً فقال لي ان ابنة عمي اكدت له انها في حاجة لان تتصرف بمزيد الدقة والتحرس لتحويل زوجها عن مقاصد قربها واباه منذ زمن طويل وانها تومل الوصول الى الغاية في بضعة ايام

ولم ارد ان اعلم اورزيل والسيدة دي ماران بحالة حملي لاني كنت ارغب الاستئثار بهذه السعادة سراً الى اطول ما يمكن من الزمان

واستمرت عمتي تضحك من الموسيو سيشرين وتلاحظ باصغاء اورزيل وزوجي وهي لا تنكث بشيء من عهودها لجهة السكوت عن الماضي الذي ينبه فيّ التذكرات المكدرة ولا ريب انها كانت عالمة بثبات عزمي على العمل بحسبما قلت لها واني افصل مبارحة ماران على احتمال شيء جديد من ضروب الخيانة وكانت كثيرة الحكمة والاطلاع فلم تغرب عنها مظاهر الانقلاب الملمة بكونتران فانه تحول من حالة الزهو والفرح الى التفكر والكآبة فتارة يكون خشناً فارغ الصبر واخرى سكوتاً حزيناً مثقلاً بالمصائب فتزايدت لذلك مع الايام مشاغل افكاري وهواجسي وخفت ان تتم الهامات ضميري وان يتهيج ميله الى ابنة عمي بنار الغضب المتضرمة بمظاهر عدم اكتراثها الكاذب ويستحيل الى حالة عشقية مشومة

ثم ظهرت لي مجدداً على وجهه المتقبض بالاكدار نسمات الحزن العصابية ولم يظلم وجهه بامثال هذه التبسمات بعد نجاته من اسر ليكورتي

وفاجئته اكثر من مرة بحضوري وهو يتمشى باقدام متسعة في الجبينة ونظرته مرة يبكي وقلما كان يخاطبني بالفاظ الخشونة بل بالعكس كان يكلمني في الغالب بحنو كثير

وا اسفي اني كنت اشعر لدى رجوعه الى تلك الصفات الكريمة من نحوي بمقدار توجعاته والامه الكثيرة

وعند انفراد اورزيل بي وبزوجي كانت تتظاهر بنوع من المسرات الجنونية تضاعف من احزانه وتخاطبه باساليب من مثل التي استعملتها معه في اثناء الحادثة السابقة التي دارت بينهما ثم تعزو بحضور الموسيو سيشرين تلك الشعائر الى شخص ثالث وهمي وترميه بدلاً منه باسنة السخر والاستهزاء

ولا انكر ان اورزيل داومت بمحادثاتها التكلم بمنتهى الافكار السامية وتظاهرت بما يؤيد

كونها اسمى فكراً من كونتران وكانت شعائري من نحو هذه الامراة غريبة فكنت ابغضها لسببين اثنين اولهما كونها عشقت زوجي بها وثانيهما كونها تضحك برداءة من عذابي

ولو بالعكس توددت هذه الامراة الى كونتران وتظاهرت بحبو لما امكني بلا ريب الا اكون تعيسة اكثر من الان لكن لا يبعد ان تقل وقتئذ مخاوفي لان المستدل من مهكات اورزيل المستديمة كونها لا تشعر بشيء وانها متسلطة تمام التسلط على لانكراي وهذا هو النفوذ القاهر الذي كنت اخافه

و بعد وصول السيدة دي ماران بزمان انتبهت يوماً من الرقاد قبل الفجر على صوت اشبه بسير العجلات ثم هدت الاصغاء ولما لم اسمع شيئاً ظننت كوني مخطية وعدت الى المنام

ثم دخلت بلوند والى غرفتي فسالتها عما اذا كانت قد سمعت شيئاً اجابت انها سمعت مثلي صوت مسير عربة وسبب ذلك ان الموسيو سيشرين سافر في الساعة الرابعة من الصباح فصحت مصحوباً باورزيل

قالت لا يا سيدتي ان خادمة اعلمني بان سيده اختار السفر قبل انفلاق الفجر ليسعه الوصول ليلاً الى مين شامانس حيثما ذهب لاشغال

فارسلت في حالة قلقي أكلف اورزيل بالمجيء الي فحضرت في الحال ولدى دخولها صحت هل سافر زوجك بدونك

اجابت يا شما هذه الهيئة الغضوبة التي تكلمينني بها يا عزيزتي ميلة وما الموجب يا ترى لاظهار كل هذا العجب من هذا السفر

فاضطربت لكل هذه الجسارة وقلت ما الموجب لاظهار العجب . . .

اجابت نعم ما من داع لذلك اذ امس مساء عند ذهابنا للنامة حدثني زوجي كالعادة باشغالو ثم تذكر فجأة بوجود اراض للبيع في سين شامانس وان بعضها مجاور لاراضينا وانة يرغب مشتراها وفي الصباح ارحل وراء الخيل وطلب اليّ ان اعتذر عنة لديكم وهو لا يغيب عنا الا اياماً قليلة وسيتخذ من ذلك فرصة لتفقد املاكو في جوار سين شامانس

فاغتظت لذلك وقلت لا ريب ان اورزيل تعمدت فوات هذه الفرصة المناسبة لمبارحة ماران مع زوجها ولا بد لها من مقاصد شريرة بخصوص كونتران ثم بدات تلك الظنون تتخذ بفكري مظاهر الحقيقة

ومضى زمن طويل وانا اجاهد في اخفاء افكاري وشعائري عن ابنة عمي فلم يعد يسعني المداومة على الاخفاء ورايت من المناسب ان اكشف لها عن حضوري للمحادثة التي دارت بينها و بين زوجي فقلت اي صالح لك اذن بالبقاء هنا حتى تاخرت عن الانتفاع بسفر زوجك

لمبارحة ماران

فبقيت اورزيل مصرة على اكاذيبها الباطلة لا تمزق عن وجه الحقيقة ستار التمويه ثم اجابت بلهجة التوجع والعجب الا بالله يا متيلدة ما هذا الذي اصابك . . حقًا اني لا اعلم بما يقتضي ان افكر . . انك تقولين لي (انت) وتكلفينني بمبارحة ماران كما لو كان وجودي مكدرًا لك . . فما المعنى بذلك يا ترى

قلت المعنى بذلك اني منذ ثمانية ايام سمعتك من وراء الخباء في مخجعي عندما تبادلت وزوجي تلك الحادثة الطويلة لاني شكوت لكونتران كثرة اهتمامه بك وتودده اليك فعرض عليّ في الحال ان يتقدم اليك بطلب مبارحة ماران ولم يسعني عند الوصول الى هذه الكلمات الاخيرة الا النطق بها بنوع من العظمة

فقطبت اورزيل بخفة حاجبيها وتبسمت بتبرمٍ ثم شخصت بنظرها اليّ وقالت فاذن زوجك كان عالمًا باختبائك هنالك وانك تسمعين محادثتنا

قلت نعم كان عالمًا بذلك . . فهل فهمت الان اسباب تعجبي . . انك وعدت زوجي بالابتعاد قريبًا عن ماران ثم سافر زوجك ولم تسافري

قالت اني مسرورة كثيرًا والكلام بيننا لاطلاعك على محادثتنا ولا بد ان تكوني مرتضية منها

قلت مرتضية

اجابت نعم فانك نظرت بعينك كيف اسأت من معاملة زوجك على خشونة بحيث لا يعود بعد الان الى مثلها . . الست على يقين الان من صداقتي واخلاصي فاني تطرفت بجهلك الى حد ان تظاهرت بالصفات القبيحة لزوجك والقصد من ذلك ان ابدل اماله اليّ بالنفور مني ولربما ببغضي ايضًا

قلت وهل تظنينني اغش يا اورزيل بهذا الكذب

اجابت واي كذب يا ترى . . انك كنت هنالك تسمعين حديثنا فتذكري اذن ازدرائي به والذي يؤكد لك صداقتي كوني عاملة بذلك على حين لا اعلم بوجودك على مقربة منا تسمعين حديثنا . . حقًا يا متيلدة انه لا يمكني ان اصدق بحصول مثل هذه الصدفة السعيدة التي دبرتها العناية الالهية على قول حماتي ثم استلقت على ظهرها ضحكًا

وفي هذه المرة كانت مظاهر التهكم والشر واضحة بجلاء على وجهها فقلت اسمعي لي يا اورزيل ان زمان التهكم مضى والحادثة التي اريد مخاطبتك بها جدية خطيرة ولا ريب انها الحادثة الاخيرة التي يمكن حصولها فيما بيننا

فصاحت بصوت المتامر وقالت تتوهمين محالاً فلي انا ايضًا عليك وعلى زوجك ان توديانی

حساباً على عدم استقامة تصرفاتكما من نحوي

قلت وما المعنى بهذا الكلام

اجابت المعنى انك ما خبأتك للاطلاع على محادثة ظننتها سرية وغير مسموعة من احد غيرنا قد ارتكبت نوعاً من الغلط الجلل ولعبت بي . . ويمكنني ان احاول الانتقام عن ذلك

قلت احب لدي ان اسمع منك امثال هذه الكلمات الطافحة بالكبر والتعاظم من ان اشاهدك تظاهر السوداء وافوتهم السابقة التي غشيتني بها طويلاً . نعم اني علمت الان كونك واحدة من عدواتي ولكن لا باس فلكلٍ عدو

اجابت اني لا احاول ان اعهو سيف العدو وان فعلت ولكن غاية ما اريد قوله انك اسات التصرف من نحوي ولي الحق ان اشكو من هذه الاساءة ويمكنني ان احاول الانتقام عن ذلك

قلت الم يحصل منذ وصولك الى ما زلت بالقاء الاضطراب في هذا المنزل

اجابت ما الذي فعلته يا ترى من موجبات اللوم هل في وسعي يا الهي ان امنع زوجك عن الظهور بالميل نحوي او هل يمكني ان افعل شيئاً يكون خيراً مما فعلته اني سخرت به وقطعت منه جميع حبال الامل ووعدته بالسفر لرغبتكما فيه

قلت ولما اذن لم تسافري في هذا الصباح ألم تكن الفرصة في غاية المناسبة للسفر فلو كان من نيتك الحقيقة ان تقتلعي من قلب زوجي جرثومة الامل المصر لما تظاهرت له بما لا يدرك من تلك الشعائر الوقحة الخارقة للعادة ولا قلت له اني لا احبك مطلقاً ولكني ساحب بتعشق اناساً غيرك بل اقتصرت على الكلمات الواجبة وقلت اني مرتبطة بواجباتي نحو زوجي وامرأتك صديقتي وشقيقتي ولا يمكني ان استهين باحداها . . فلو قلت ذلك لدلت اقوالك على الشرف والاستحقاق ولم تشف بشيء من المكر والخيانة واندادها

قالت اسمحي لي يا متبلدة ان احكم بالحق على كلماتي والمعاني المقصودة منها لان الغيرة تضل مستشيرها وإذنها اضلتك

قلت بل انارتني . . بمعرفة الحق يا وريل

اجابت لك علائق وصوالح كثيرة في هذه المسالة ولا يمكنك ان تحكمي بصواب فيها ولو صحيح ان محادثتي لكونتران بتلك الكلمات ازالت اميالة . لان الرجال لا يصدقون بمبادئنا ولكنهم يصدقون باعراضاتنا الصادرة عن قلة الاهتمام بهم

قلت لا انكر كونك من ذوي الاختبار العظيم في هذا الموضوع ولكنه يوجد من الادوية ما يشفي تماماً من مرض الانعطاف وهو التغيب

اجابت نعم عندما لا يزيد

قلت فاذن انت باقية هنا بقلب خالٍ من حب زوجي بل ...

اجابت بلا ريب وقد صرحت له بنفوري قلبي منه ايضًا وسمعتني فيما الذي تريد بنحو عادة ذلك

قلت حسن فلنفترض بان ظنوني ومخاوفي مبالغ فيها الا يجب عليك ان تضحي حدًا لذلك بتقصير مدة اقامتك عندنا

اجابت يستحيل على المرء ان يجد خيرًا من هذا الاسلوب الادبي لطرد الملس من منزله ثم لي بعض الملاحظات اريد ايضاحها لك ولا ريب تشعرين من نفسك باني لو تأخرت عن السفر اليوم مع الموسيو سيشريه بعدما وعدت زوجك به الالا بابه خطيرة الجأ تي الحسمة التصرف

قلت هلا تحسبين بشيء اذن راحة وسعادة حياتي التي حسبت ...

اجابت يسرني منك يا متيلدة ان تفكري كثيرًا بنفسك ليسعي في جنب ذلك ان افكر قليلًا بنفسي ولا يوخذ علي ذلك كعمل فوق العادة . . اني فاتحت زوجي لمرتين باختيار سفري بطريقة غير صريحة فاظهر عجبًا كثيرًا وشعرت انه لايمكني ان اصرح بدحول هذا التغيير الفجائي على ما اصد ولا تنتبه من افكاره الظنون فاما ان يظن بكوني تعمدت الفرار برضائي من زوجك حاقة ان اعلن بحبه واما ان يظن بان غيرتك هي التي دفعتني كرهًا الى السفر وعلى كلٍ من شكوكه لامتلئت اليّ تتهيج بذلك ثم تقل ثقته بي ولا اخفي عنك انه يهمني كثيرًا مثلك ان اعيش براحة

قلت اورنربل . . اورنربل . . احذري لنفسك ان التستر بمثل هذه الاسباب الواهية تيّ الضحك مني والاستهزاء بي

اجابت ولكنها اسباب جدية مهمة بالنظر اليّ واحلف لك باعظم الايمان على ذلك ثم لم اسئل بعد كيف اقتضى لي ان استعين بمنتهى قوات الحقيقة القديرة لامنع زوجي من ان يصدق بسيون امو الجهة علاقتي بالموسيو شيوبيل ولا اريد ان تتجدد معي الان امثال هذه المشاهد

فصحت اني بالرغم عن كلما اشعر به صدك لم اجسر ان الح بشيء عن تصرفاتك الانية في هذا المعنى اما الان وقد تكلمت عن ذلك بلا خجل فاقول لك ان اطلاعي على تلك الجريمة المشينة الاتية التي ارتكبتها هو السبب الاعظم الذي يخولني الحق بالارتياب منك ولا سيما عندما يكون المراد رجلاً من مثل كونتران

فصاحت متيلدة

قلت ان حضوري لكلما حصل في روحي هو الذي اوجد في الظن بل اليقين ان مظاهر عدم الاهتمام التي توهمين بها من نحو زوجي لاتخلو من افكار داخلية شريرة

فرفعت اوريل باحتقار اكتافها وقالت علمت الان انك صدقت بوشايات حماتي المضحكة لكن الوقت مضى ولم يعد يصلح لتجديدها وكان الاولى بك ان تصرحي بشكايتي امام زوجي وامه عندما دعوتك للشهادة بالاستناد الى براءتي . . . .

قلت وهل تجاسرين على التكلم بمثل هذا يا اوريل ولم احافظ على السكوت وقتئذ وانت طالبين الا بقوة الحنو بل بحماسة كريمة دفعت اليها بتذكرات الصداقة القديمة . . . الان تاكدت صدق كلمات حماتك عندما قالت لي ليتك لا تندمين الى الابد على انتصارك لهذه الامراة الاثيمة . ولكن ما لنا وللماضي . . . اني اطلب اليك الان للمرة الثانية او بالحري اتضرع اليك ان تقصري من مدة اقامتك عندنا . . ان علاقتنا بعد الذي حصل بيننا لا يمكن الا تحدق بها الاكدار الكثيرة فبربك اشفقي عليّ والحقي بزوجك . . ما الذي يمنعك يا ترى عن الرحيل وانت على ما تقولين خالية القلب من نحو كونتران ان لك من الصفات ما يؤهلك لنوال السعادة في كل مكان ولا اذكر اني اسأت اليك فبالله لا تسيئي الي وتداومي الاصرار على عذابي

قالت يحزنني كثيرًا ان تتالمي بسببي ولكني اكرر القول بانه لا يسعني من اجل تخيلاتك الوهمية ان اخاطر بعمل جعولي بمس مستقبلي

قلت مجاهدة على اخفاء اضطرابي فهل تريدين اذن ان تنتظري هنا زوجك الى ان يرجع

اجابت نعم ارغب في ذلك

قلت حسن ولكني خطأ كان او صوابًا غيورة منك

اجابت خطأ . . خطأ يا متيلدة

قلت فليكن . . ولكني على كل حال غيورة منك . . . وامتناعك عن الرحيل موجب لزيادة اضرام النار في تلك الغيرة ورجوع الموسيو سيشرين لا يتاتى عنه تسكين هياجي نعم ساحاول ان اخفي عنه اسباب هذا الهياج ولكن لا يمكنه اخيرًا الا يطلع عليها . . فتاملي جيدًا في ذلك . . . اذ لولا الجالدة الشديدة التي اظهرتها ولشتت افكار زوجك بمظاهر البرية في اثناء الصيد لما امكنه الا يكتشف على سري . . . فاعلمي اذن ان امتناعك عن السفر لا يفيدك شيئًا من غير الوقوع في الشدائد . . .

قالت وما الحيلة يا ترى انه لا يسعني اذا اصعدني باعمالك الا انصبر على نصيبي ولكني لا اتهور مطلقًا في مثل هذا الحمق والجنون واحفر بيدي حفرة لاضاعة نفسي

قلت لربما . . لربما . . يا اوريل . . . فالحذار لنفسك

اجابت هل تتوعدينني وبماذا يا ترى

قلت اني لا اتوعدك ولكني انبهك الى ان المراد الان الدفاع عن سعادتي ومستقبلي وحياتي

وساقاتل عنها بجميع قوايهولا اقف امام اي عمل كان للمحافظة على من لربما تريدين سلبة مني
اجابت ماذا هلا تقفين عن العمل امام الوشايات السفلة اني لا اصدق ذلك ولو نظرته منك بالعيان

قلت الحق معك فما كنت لاقدم على الاعمال المشينة وانما يمكني بلا سفالة ان اتقدم بخطابي الى مكارم زوجك واعترف لة بمخاوفي واقول لة انها بلا اساس يسوغها ولكنها تالمني كثيرًا . . . . ولا اظن هذه الشكوى تمسك . . . نعم لا يبعد ان تنبه من زوجك الظنون ولكن ما العمل فانت تريدين ذلك

اجابت ولكني وقتئذ ادافع وانتقم

قلت اسمعي لي جيدًا يا اوريربل اني احلف لك بتذكار امي المقدس انك اذا دمت مصرة على البقاء هنا رغمًا عني لا اتوقف دقيقة عن العمل بمقتضى هذا العزم الاخير ولو مهما كانت عقباه مشومة فان الهامًا خفيًا من داخل قلبي يقول لي ان مسالة من اشقى مسائل حياتي الجوهرية تحقق باجمعها الان بين سلب وايجاب في عالم الوجود . . . ثم اعلمي ان اخلاقي تغيرت كثيرًا فلم اعد ضعيفة كالسابق بل ثابتة حازمة . . لا تدفعني الى فروغ الصبر . . اني لا اطلب منك الا سهلا ممكنا

. اجابت اني اعلم منك بزوجي ولا يسع احد غيري ان يحكم بالصواب في هذه المسالة

قلت انك تبالغين كثيرًا لمقاصد شريرة بدقة شعائر زوجك وتنبه حواسه ولكني عالمة بسعة نفوذك عليه ولا اصدق بان الرجل الواثق بعناية بك الى حد ان اخذ بحبائل خداعك لجهة تحرير الموسيو شبوبيل ولم يتزعزع ايمانة بيمين امه المعظم بل الرجل الذي لا يمكنة ان يعيش الا بك ولك تداخلة اقل الظنون من نحوك اذا رآك وافدة عليه وفي لسانك لهجة بالشكوى لبعاده

قالت انة لا يجد في ذلك الا نوعًا من المبالغات المضحكة

قلت ان القلوب المخلصة الكريمة من مثل قلبه تصادق على هذه المبالغات ولو مهما كانت متطرفة لانها اهلة لان تشعر بمثلها ثم لا يخفاك ان اقل رغائبك اوامر عنده فقولي لة انك تريدين السياحة في ايطاليا ولا ريب انة يصدقك ويبادر الى مرضاتك

اجابت اوريربل بتبسم الساخر اني اشكر لك اقوالك لجهة تفنني ومهارتي ونفوذي واظن لسوء الحظ ان كلامك في هذا الصدد لا يخلو من المبالغة الكثيرة . . ثم قالت اطمئني وثقي اني لا ابقى هنا بعد رجوع زوجي من السفر الا بقدر ما يكفي لتسهيل الرحيل ولكني ارجوك بدوري ليثما يحل اوان السفر ان لا تضايقي عليّ بالالحاح وان تمنحيني الضيافة برعاية في منزلك

فصحت بظاهر الغيظ والاحتقار ان ذلك لمشين فهل تريدين اذن ان تصاب حياتي بالياس

قالت عودي الى صوابك وانسي هذه الظنون التي لا تعقل فان هذه الاوهام لا تلبث ان تزول من افكارك ويخلفها السكون والراحة

قلت ماذا . . تطلبين الي ان انسى الاوجاع ان الطلب سهل لانك لا تبالين بشيء لكن انفاذه صعب لاني متوجعة . . .

قالت صدقيني اني لم اتنكر في حياتي من شيء يا ميلدة كتنكري من هذه المباحثة وان . . . .

فقاطعت ابنة عمي بالحديث وصحت حسن ما دام ولا بد من القتال فهاءنذا مستعدة للارتضاء بي . . . ان جميع الوسائط موافقة لك للهجوم بطلب الاستيلاء على اعز ما يكون لدي ولا اظنها الا تكون موافقة لي ايضاً للدفاع عن نفسي وصولحي ان دعواك بعدم الاهتمام بزوجي كذب بل ضرب من مكائد الخدعة الاثيمة فانت تريدين ان يستحسنك وساقبح مظاهرك الغرارة في اعينه نعم اني سكت الى الان عن اخبارك المتينة في روفري ولكني لم اعد اداريه واذا حاول ان ينساني لبرهة من اجلك فلا يكون له الا اجراء المقابلة فيما بيننا . ليعلم الى اية امراة يضحيني

فصاحت اوزيل باعين ينبعث منها شرار الغضب ميلدة . . ميلدة الحذار . . الحذار لنفسك . . تمس حياتي . . حياتي باسرها ولا يمكني ان اصفح لك عن هذه الوشاية . . فهمت . . . ثم قالت ميلدة لا ترهقيني

فصحت صدقت . . . صدقت مخاوفي فانت تهتمين كثيراً بزوجي ومن اجل ذلك تخافين ان يطلع على اخبارك السفلة

قالت يهمني اعتبار زوجك لي كما يهمني اعتبار جميع الناس ومن الاعمال المستقبحة الشاذة ان تحاولي تجريدي من هذا الاعتبار

وقد تكلمت بذلك بلهجة الغضب الشديد كما لو اهينت بشرفها واستحقاقها

قلت وكيف يهمك الحصول على اعتباره وقد صرحت له علانية باشر المبادىء وسخرت بجرأة بكل ما هو طاهر ومقدس في العالم . . لا . . لا . . اني على يقين الان بان اميال قلبك المحتال اوعزت اليك بانه لا يمكنك وقد قصرت عن استملاك قلبه بالصفات الكريمة الا تحاولي استجلاب تصوراته بهذه المظاهر الشاذة الغريبة . لكن ماذا يكون منه يا ترى عندما يعلم بان الغاية من كل هذه التمويهات الباطلة والادعاءات الوقحة ان تقدمي له قلباً استاثر به من قبله الموسيو شيوبيل . .

فصاحت . . الحذار لنفسك يا ميلدة . . . لا تدفعي بي الى نهاية الصبر

قلت . . . الان . . . الان عرفتك ولم اعد اخافك . . فما من خطر عليّ الا من اوهامي الكاذبة من نحوك ولحسن الحظ قد تلاشت مني جميع تلك الاوهام

فلم تخف ابنة عمي شيئاً من الشعائر الرديئة المتهيجة بها وصاحت حسن . . من حيث قد عرفتني

وتلاشت اوهامك من نحوي وتشبثت باملك فاسمي حاجة بعد المحرس والذبذب . . لقد كلفني كثيراً ان اتظاهر مثلك بخلاف الحقيقي من شعائري منذ زمن طويل . . ثم صاحت تامليني جيد ولا تقولي بعد الان ان احوالي خافية عليك

فارتعشت خوفاً لملامح الجسارة والشر التي ظهرت في الحال على وجهها ثم عاودت الحديث وقالت فمنذ سنين عديدة وانا متضايقة بهذا الاخفاء

قلت منذ سنين عديدة ما المعنى بهذا يا اورزيل

فرفعت اكتافها وقالت تتظاهرين بالعجب ظناً منك اني صديقة بل شقيقة مخلصة لك . . . اليس كذلك ايتها الامراة الساذجة الصالحة

فصحت اه يا الهي . . اه يا الهي . . .

قالت هل نسيت اذن جميع الاوجاع التي رميتني بها منذ صبوتي

قلت انا . . انا

اجابت نعم انت . . انت يا متيلدة . . . فهل تتوهمين كوني حجراً صلباً مجرداً عن الحس الى حد ان انسى تلك الايام . . اولا تعلمين اذن بكلما وعاه قلبي المقرح من حين جمعني واياك التقادير المشومة من البغض والحسد

قلت وانا . . انا من باركت تلك الايام من اجل انها رزقتني اختاً . .

قالت كان الاحرى بك ان تلعنيها . . لانها رزقتك وقتئذ ضحية . . وبعدئذ عدوة . . .

قلت ضحية وعدوة . . اه يا الهي . . فما الذي فعلته لك اذن

قالت اليس من اجل اسمك وكبريائك كنت اضحى في كل يوم على مذابح الهوان الا تذكرين اني بلا انقطاع وفي كل معنى كنت اهان واجرح واحتقر بسببك ثم كررت قولها لا . . . لا . . . لم يهمل شيء من انواع العذاب التي تتالم بها عزة النفس الا انفذ فيَّ على الدوام باجراء المشابهة بيني وبينك ففي صباي كانت تربيتي وادابي وعلمي من حملة اعمال الخير المديونة بها لحسناتك واذا حصلت على شيء من الثياب الزاهية فلا يكون ذلك الا كحسنة افرغت عليَّ من بحر افضالك . وليس هذا هو كل الحاصل . . بل كان لك على الدوام وفي كل مكان المدح والثناء والانعام اما لي فالتوبيخ والقصاص والقساوة . . فهل تظنين ممكناً والحالة هذه ان اسى الى الابد هذه الاعمال الجارحة او هل يمكن ان تزول من فؤادي اثار هذه الجروح البليغة لتاتي بلومي على هفوة وتتظاهري بتنهد بسببي

فاخفيت وجهي بين يديَّ وصحت اه يا الهي . . اه يا الهي . . ان افكار السيدة دي ماران الجهنمية بمعرفة المستقبل لم تغشها ولا ريب انها كانت عليمة باحوال النفس التي مذرت فيها بذور الحسد

اجابت بمظاهر جديدة من الحدة وماذا تهمني اليد التي ضربتني في جنب الضربة التي اصابتني . . . . الم يكن منشأ الامي واوجاعي الدائمة الشديدة كوني لااذل الا لاعزازك ففي صبوتي كان نصيبي معك القصاص وفي شيبتي الاحتقار وعندما بلغت مبلغ الزواج فتحت امامك بسمو مركزك الامال الواسعة فتاملت باشرف واسطع نصيب في العالم وضاقت عليّ المذاهب لحقارتي فوجدت من السعادة ان يتوفق لي الزواج من فقير اهبج وكنت زيادة على ذلك غنية جميلة طافحة بالصفات المحبوبة اما انا ففقيرة حمقاء مجردة عن جميع مظاهر الظرف التي تحبب الناس بك ثم تحققت الظنون فتزوجت من سيد عظيم من ذوي الافكار السامية والمظاهر البديعة اما انا فمن رجل اهبج مضحك . وهنا تنفست الصعداء وقالت ابداً . . ابداً لا انسى الشعائر المكدرة التي المت بي عندما سخر بالرجل الذي يخجلني الانتساب اليه امامك وانت مشرقة بالعظمة والسعادة تنظرين بسكرة الحب الى خطيبك الجميل ثم تمرمرت كثيراً وقالت ان هذه المقابلة كانت الضربة الاخيرة الهائلة التي انحدرت عليّ وفي هذه المرة ايضاً كانوا يمحوني ويذبحوني لك وللسعادة الخشنة التي تحقينني باثقالها منذ زمن طويل

فصحت بالخوف ويا للرعبة . . انك تعلمين كوني بريئة من شرور عمتي واني عرضت بنفسي مراراً في ايام صبوتنا للقصاص لاكون مشاركة لك بالمصائب ثم تعلمين ايضاً ان زواجك من لا ينطبق على تطلبات قلبك لم يتوقف على ارادتي

اجابت لربما تريدين القول انك عرضت عليّ نصف ثروتك . لكني اسالك هل قبلتها . . فمن يا ترى قال لك اني غير حاصلة على شيء من مثل شيمك او من قال لك ان هذا التظاهر من نحوي على الدوام بالكرامة والشفقة لم يكن الباعث على زيادة غضبي

قلت فهل كنت تبغضينني اذن على الدوام ولم تكن تاكيدات الحب التي قدمتها لي الى الان الا مجموع اكاذيب وتجاديف فمنذ صبانا اذن وهذا البغض المخيف يشغل قلبك وقد استطعت اخفاءه عني بتحيل الى هذه الساعة ولم يوثر بك شيء لا مودتي كشقيقة ولا بغض السيدة دي ماران لي واسفي الم تري كيف ان غايتها الوحيدة من مذمتك ومدحي انما في اضرام الغيرة والحسد في صدرك وان تجعلك يوماً ما عدوتي . . . اه يا اورزبيل . . اه يا اورزبيل كم تسر عمتي لو سمعتك الان تتكلمين بذلك وعلمت كونك صرت الة عمياء لانفاذ ماَرب بغضها الاثيم

فصاحت اورزبيل بفروغ صبر ربك لا تشكي كثيراً من السيدة دي ماران لانها لم تفعل شيئاً من غير نشر شعائر الحسد التي فطرت عليها اني ولدت حسودة غيورة كما ولدت انت كريمة مستقيمة ولو كنت مكاني وكنت مكانك لما استطاعت السيدة دي ماران بالرغم عن تفننها بعمل الشر ان تنبه منك شيئاً من شعائر الغيرة الحارة ضدي

قلت ما دمت تعرفينني كريهة مستقبحة فلما تبغضينني . . ماذا فعلت لك .

اجابت ابغضك لانك كريهة مستقبحة . . ابغضك لاني تحملت الاهانة على الدوام بسببك . . ابغضك لانك متمتعة بجميع انواع السعادة التي احسدك عليها . . ابغضك لاني فعلت ما يوجب خجلي امامك . . فنحن وحدنا الآن ويمكنني ان اعترف لك بكل شيء بلا قصاص . . . ان النسيب اوجب زيادة حنقي ضدك اطلاعك على علاقتي الخبيثة المضحكة ثم معاملتي من حماتي امامك بمنتهى معاملات الاحتقار

قلت لكن تلك العلاقة كانت موجودة ومعاملات الاحتقار كنت تستحقينها

اجابت ومن اجل هذا فرغ مني الصبر وزهقت الروح ولو قيل عني اني شنيعة حدباء كالسيدة دى ماران لما همني ذلك على الاطلاق لانه بعيد عن صفاتي

قلت ولكن

فقاطعتني بالحديث وقالت لا اريد ان اكون خيراً من حقيقتي اني لم اجادل ولم اقل اني محقة بشعائري بل غاية ما قلته واقوله اني حاصلة على تلك الشعائر . . ديرت الصدف ان اجرح منك او بسببك بكلما يبعث على تضرم الغيظ في فوادي ومن اجل هذا اعتبرك كمنبع لمصائبي وابغضك لربما لا يكون ذلك منطقياً ولكنه حقيقي . . . . . ا باللك متعجبة لحديثي كانك لا تفهمين اسراره . . . ان الحزن والكآبة يا مليدة برقيان الفكر ويبسطانه ثم لا يخفاك كوني مديونة لاولئك المعلمين الخشنين القساة بعلم التظاهر بخلاف الصحيح والانتظار . . كنت اهان بسببك ولا يسعني ان افعل شيئاً ضدك فالجا الى التصبر والملاحظة . . . ثم دفعتني بكثرة المدائح المستديمة المسوقة اليك الى الرغبة الحارة بان اقابل بالتفنن ومظاهر الظرف الباطل والتدلل المصنع تلك المحاسن التي تجردت منها وتجملت بها . . وعندما صرت في الخامسة عشرة من العمر وجدتك جميلة ولا يمكني منازلتك في ميادين الجمال فوطدت نفسي ان اتسلح لمنازعتك يوماً بالمظاهر الغرارة والظواهر السحارة . . ولكن الساعة لم تحن . . . . وفي احد الايام بكيت من الغيظ لدى التامل بمستقبلك الساطع ونصيبي المشوم وصدف اني نظرت وقتئذ في المرآة فاذا الدموع تحسن لي اكثر من قهقهات الضحك الجنونية فاعتمدت من ذلك الحين على التظاهر موقتاً بالسويداء والاحزان ورقة الشعائر وتراءى لي بالنظر الى غناك وفقري والمدائح الموجهة اليك والاحتقارات التي ادمى بها فوادي ان من انسب الادوار الموافقة لحالتي بما يستجلب التفات الناس بالاهتمام بالي دور الضحية المتصبرة الذي اخترته لنفسي . . ثم تزوجت وتزوجت وكنت حاصلة على كل شيء ولك الحق باختيار النصيب الذي يحلو لفوادك فاخترت رجلاً بديعاً ورافقتك السعادة في زواجك ايضاً فعشت الى الآن جميلة غنية شابة بالقاب الشرف وصحة مجردة عن الشوائب معبودة من

الناس فهم لا يعجبون الا بجمالك ولا يلهجون الا بمدح فضائلك ولا تأمرين بشيء الا يقضى في الحال . . فهذا هو مجمل حياتك ثم قالت بلامح من الغضب والحسد اثبتت لي انها تعتقد كوني من اسعد النساء الا تكفيك كل هذه السعادة

فهممت لبرهة ان أكشف لها عن الحقيقة عسى تحمل بذلك على ترك عدواني وان اصرح لها بجميع عذابات الاشهر الاولى من زواجي والوشايات المشينة التي اربعت عني . . لكني وجدت اخيرًا ان هذا التصريح لا يخلو من الجبن واقتصرت على هذا الجواب فقلت

هل تظنيني اذن كثيرة السعادة حتى ابغضتني كل هذا البغض . . .

اجابت نعم . . ويكفيني لان احسدك واتوجع ان اقابل بين وجودي ووجودك . . . فلما كل هذا الاختلاف فيما بيننا . . لماذا لا توجد حسنة في العالم الا جملك الله بها ولا فضيلة او محمدة الا اجمعت الالسن على وجودها فيك . . اني تنبأت من قبل بذلك وعمتك منذ وصولها وهي تكرر لي القول بتواصل ان في باريز لا يعرف الناس احدًا غيرك ولا يحلفون الا بك فانت تعتبرين هنالك في آن واحد كاشد النساء تفننًا في الزي الجديد واكثرهن احترامًا يتكلمون عنك في كل مكان كتمثال للظرف والزهو ولا يمكنهم ان يذكروا لك شيئًا ولو قليلاً من سقطات الضعف والخفة كل ذلك وانت في عالم يصعب ارضاؤه والثبات امام عواصفه . . . اما انا فعائشة في الولاية مع تاجر مجهول ولا يمكني ان اسوده الا بمجاراته بهاجة يتكدر بها ذوقي وعوائدي ولم يكفني ذلك حتى جئت وشاهدت جروحات ذلك الوجود القاسي المشينة . . . ولم يكفني ذلك حتى اوقر زوجي وحماتي منذ وصولك اذاني بمدحك كما كانت تفعل معي من قبل السيدة دى ماران عمتك . . لا انكر انك امرأة بلا مثيل . . لكن لا باس . . فلربما لا تكون سعادتك ايضًا بعيدة المنال على طلابها بالاذية

واخذ الغضب والحسد من اورنيل ماخذًا عظيمًا فلم تنتبه الى حالة جمودي ودهشتي ولدى استماعها تتكلم بمثل ذلك عن سعادتي كشف لي الحجاب عن سر المعنى المراد باقوال السيدة دى ماران التي اعادتها لي مرارًا عديدة وهي . . سابقى امينة بالمحافظة على عهودنا فلا اتكلم بشيء من حوادث ليكورنو المرعبة لابنة عمك بل بالعكس سأكرر لها القول على الدوام بكونك من اسعد النساء وان جميع الناس تحسدك على نصيبك وهم جميعًا من اشرار وصالحين لا يفكرون الا بالتعبد لحسناتك

فلم اعد اتعجب من ذلك وعلمت ان السيدة دى ماران اخذت على نفسها بشرورها العادية ان تثير من ابنة عمي ثائرة الحسد بما لا تستطيع معه صبرًا على طلب التشفي والانتقام فصورت لها حياتي بمظاهر باسمة لا تتفق في شيء مع حقيقة الاوجاع الشديدة المحدقة بي

وعند مشاهدة اورنزبل مضطربة بفاعيل الغضب العظيم لسعادتي الموهومة فكرت بما يصيبها من الفرج اذا اطلعت على الحقيق من مصائبي فتشدد فيّ العزم على عدم التصريح بما يسرها وقلت هل هذا هوسر بغضك لي . اخبريني الان ما هي مقاصدك هل تريدين ان تنتشلي عني زوجي وهل هذا هو الانتقام الذي تحاولين انفاذه فيّ

اجابت بصوت الامر لا اظنك تنجحين الان بمحاولة الاطلاع على شيء من مقاصدي في هذا المعنى

قلت ان مقاصدك لا تخفاني واحب ان اصرح لك بمقاصدي ايضًا فساكتب الى زوجك بطلب رجوعه السريع وعند وصوله اعترف له بشكوكي ولكني اقول له بكونها شكوكًا موهومة لا يمكن اسنادها على شيء معقول واتوسل اليه ان يرحل بك من هنا . فانت من الان وصاعدًا اشد اعدائي خطرًا عليّ وما من موجب لمداراتك فاعدت اخفي شيئًا عن زوجي مما حصل لك في روفوري مع الموسيو شيوبيل

قالت انك تريدين الحرب يا متبلة . ولا باس فالحرب . . . الحرب . . . وجميع الوسائط ستكون حسنة مع النوش والامل ان اويد لك ذلك بالبرهان . . ثم خرجت وتركتني وحدي

الفصل السادس والثلاثون

عود

وكان من اول ما خطر على بالي بعد ذهاب اورنزبل ان اذهب للاجتماع بزوجي واخبره بمحادثتي مع ابنة عمي لكنه لسوء الحظ كان قد خرج للصيد منذ الصباح فقلت لبلوندو ان تبادر الى افادتي عند رجوعه ثم دقت ساعة الغذاء ولم يحضر من صيده

ودخلت الى القاعة فاذا السيدة دي ماران هنالك فسالتني عن ابنة عمي فاجبت انها بلا ريب في غرفتها ثم بحثت عنها في الغرفة المذكورة فلم اجدها وكان الصباح جميلاً فتوهمت كونها ذهبت للتنزه في الجنينة ثم قرع الجرس للمرة الثانية ولم تحضر ايضًا

ففكرت للحال بذهابها للاجتماع بكونتران ولدى السوال قيل لي ان زوجي خرج على جواد صغير مصحوبًا بواحد من حراسه وكلابه للصيد في المستنقع فهمدت افكاري لذلك وجلست على المائدة مع عمتي فلم تصمت عن ابداء بعض الملاحظات الشريرة لجهة تغيب ابنة عمي وزوجي ولكني كنت بشاغل

فكرية كثيرة فلم انتبه لهذه الملاحظات القاسية التي لو قيلت امامي في غير ذلك الوقت لتأتى لي عنها اكدار كثيرة

ولدى مبارحة المائدة احتججت بكتابة بعض التقارير قبل وصول البريد للصعود الى غرفتي وتركت السيدة دى ماران وحدها تشتغل بغزلها ثم دقت الساعة الثانية بعد الظهر ولم يحضر كونتران ولا اورزيل فاستدعيت ببلوندو اليّ وطلبت اليها ان تستخبر من خادمة اورزيل عما اذا كانت سيدتها قد امرتها بشيء قبل ذهابها فرجعت بلوندو واعلمتني ان السيدة سيشرين خرجت للتنزه وفي يدها كتاب من المكتبة فانطلقت الى الجنينة وبحثت كثيرًا عنها ولكني لم اجدها وكان الباب الصغير المودي الى الحرش مفتوحًا فقلت لا ريب انها خرجت من هذا الباب ولربما تكون متفقة وكونتران منذ الامس على هذا الاجتماع

ومما خطر على بالي هذا الفكر ارتعبت له لاني كنت اعلق اهمية كبرى على ان لا اسبق من اورزيل بالاجتماع بزوجي بعد الذي حصل فرجعت الى القصر بنفس مابوسة ولدى الدخول على السيدة دى ماران قالت لي انها قلقة جدًّا لغياب اورزيل ويقتضي ان ابعث من خلفها بعضًا من اتباعي للبحث عنها في الحرش اذ لربما تكون ضالة عن الطريق

وفيما نحن في الكلام دخلت ابنة عمي المذكورة فحيتني بتودد وتحبب كثيرين كما لو لم يحصل فيما بيننا مشهد الصباح

وكانت وقتئذ بسحنة موردة واعين لامعة ولا اعلم اي مظهر من الكبر والفوز كان ينبعث بسطوع وجلاء من تقاطيع وجهها ويستدل من حذائها الحريري المغبر قليلاً كونها مشت طويلاً وهي بقبعة من القش بربطات محلولة تخفق على اكتافها وضفائر شعرها الاسود الطويل تتدلى الى نهاية صدرها المجلل بشلح رقيق لا يحجبه عن النظر الا قليلاً

وكانت قابضة بيدها على باقة كبيرة من الزهور البرية فقالت لي وللسيدة دى ماران انها احبت الخروج من الجنينة وانها كادت تضل في الحرش ولكنها ارادت بالنظر الى جودة الطقس ان تنتفع بيوم جميل من ايام الخريف الاخيرة فجعلت تنتقل من مكان الى اخر وتجني الزهور ولم تفكر بوجوب الاهتداء الى الطريق الا بعد ان بعدت نحوًا من فرسخ ثم صادفت هنالك حطابًا فقادها الى القصر

وكان من هذا الخبر الذي قصته بمزيد البساطة ان بدد مخاوفي وظنوني التي تنبهت من قبل بحق والذي اوجب زيادة ثقتي بما اخبرت اورزيل ان بعد نصف ساعة من رجوعها عندما وفد الساعي علينا بالتقارير حضر الحارس الذي رافق كونتران الى الصيد وقال لي من قبله انه تاخر في الصيد الى اكثر مما كان يظن وهو يطلب اليّ ان لا اقلق لغيابه ويعدني بالعود مساء للعشاء

وسالت هذا الحارس عن زوجي فاخبرني انه لم يفارقه على الاطلاق وانه منذ ساعة تقريباً كان يصطاد في المستنقعات

فتطمنت تماماً بهذه الافادة وكان يهمني كثيراً ان اشاهد زوجي قبل اورزيل فعاودت التنبيه على بلوندو بان تنتظر رجوعه وتقوده الى بحجة كوني حاصلة على اخبار مهمة اريد مكالمته بها ثم عدت الى القاعة فوجدت السيدة دى ماران مكبة باصغاء على مطالعة تحارير وردت اليها من باريز ولم اعلم هل انتبهت او لا لحضوري ولكنها بقيت ملازمة النظر باعينها الى التحارير تتلوها ثم صاحت مراراً متعددة بمظاهر التعجب الشديد

اه يا الهي . . يا الهي . . من كان يصدق ذلك . . والى اي مصير يا ترى ستصير بنا هذه الحوادث . . وما هذا الامر المخيف هل اخبره او اخفي عنه

ففرغ صبري لهذا التعجب ولم اصدق بان عمتي لم تشاهد دخولي . . فقلت لها هل حصلت على اخبار حسنة من باريز يا سيدتي

اما هي فلم تجبني بشيء بل تظاهرت كانها لم تسمعني وداومت التكلم لنفسها فقالت من يعلم مقدار الغيظ الذي يتاتى عن ذلك . . وكيف السبيل الى منع حصوله . . ان من توفيقات السعادة كوني جئت الى هنا لتسوية هذا المشكل

فكان من هذه الكلمات الاخيرة ان فتحت لي سبيلاً للتفكر والخوف . . . نعم كنت اجهل الاسباب التي قيلت من اجلها ولكني من حين سمعت السيدة دى ماران تقول ان من توفيقات السعادة كونها جاءت الى هنا لتسوية بعض المشاكل تنبهت بالهام سري الى ان مجيئها مبنيٌّ على مقاصد شريرة وان مخاوفها من ارباب الثورة في باريز لم تكن حقيقية بل حجة مختلقة لمجيئها ثم اقتربت منها وكررت لها القول بصوت عال في هذه المرة لكيما لا يبقى لها سبيل للتظاهر بالصمم

هل لديك اخبار حسنة من باريز يا سيدتي

فتظاهرت بزعجة تدل على كونها فوجئت بحضوري ثم قالت ماذا . . . هل كنت هـ . . . . وهل سمعتني

قلت نعم سمعتك ولكني لم افهم شيئاً مما سمعته

اجابت الحمد لله على ذلك . . لان الوقت لم يحن بعد . . ثم رفعت يديها نحو السماء وصاحت

اه يا الهي . . اه يا الهي هل من الممكن ان يحصل ذلك

قلت يظهر لي انك بمشاغل كثيرة يا سيدتي

اجابت صدقت اني بمشاغل كثيرة ويوجد ما يحمل على هذه المشاغل وستطلعين على اسبابها قريباً

قلت هل لهذا التحرير اذن علاقة بي

اجابت تسالينني عما اذا كان لهذا التحرير علاقة بك . . . نعم لك به علاقة كبيرة بل اكثر مما تظنين وا اسفي الا ترينني طائشة مضطربة ولا اعلم ما الذي اصابني لهذا الخبر . . لكني لا اصدقه . . لا . . لا . . لا اصدقه . . انت اجلُّ من ان تقدمي على ذلك

قلت على ماذا يا سيدتي . . . هل لديك شيء جديد من موجبات الاضطراب . . . ربك صرحي

اجابت لا بد من انتظار زوجك لانه لا يمكني ان اصرح بشيء في غيابه ولا اعلم ايضاً فلربما لا اجسر على التكلم امامه . . ثم قالت اخبريني اذن هل ما زالت طباعه شرسة على ما كانت عليه قبل الزواج . . . فاذا كان ذلك وجب عليَّ استعمال المداورات الكثيرة والملاطفات الدقيقة باساليب غريبة لاخباره

فنظرت بثبات الى عمتي وقلت اني تعبت كثيراً يا سيدتي [illegible] الحوادث المشومة . . وها انذا متصبرة على احتمال كل شيء [illegible]

اجابت ما دام الامر كذلك فما من موجب لاتخاذ الاحتياطات [illegible] عند [illegible] الخبر وانت محقة بالحصول على ثقة تامة بقلب زوجك . . لان هذه الثقة تخفف عنك [illegible] كثيرة وغاية ما اوصيك به ان لا تعتمدي كثيراً [illegible] الاولى [illegible] ان لا [illegible] لاني وا حسرتي يا بنيتي العزيزة اصبحت عجوزاً [illegible] ولا استطيع الدفاع [illegible]

فصحت الدفاع عني . . وضد من يا ترى

قالت ضد زوجك . . لاني اذكر بالرغم عني ان الامير كسبرنكي كان يضرب [illegible] زوجة الاميرة كسبرنكة بشدة من اجل اشياء اقل بكثير من هذا

قلت ارى بسرعة يا سيدتي بالنظر الى كل هذه المبالغات الاغراقية انك [illegible] بالفاظ المزاح المشومة

اجابت المزاح واين نحن من المزاح الان . . . انت [illegible] بخلاصة الجد الاكيد . . وكلما يمكني ويقتضي عليَّ عمله ان اتداخل بينكما اذا ساءت [illegible] مصير وخيم

وكنت عايمة بعمتي وان من العبث ان اومل بجردها الى التصريح بما [illegible] الاسرار الخفية فاجبتها بثبات اساءها كثيراً

اريد الذهاب عنك لابدل ثيابي للعشاء فتنازلي [illegible] معذرتي عن [illegible]

قالت اذهبي . . . اذهبي يا صغيرتي العزيزة [illegible]

احيانًا من ثوران الغضب والابي كسيرنكة كانت تعل بموجب هذا الفن فتتزين وتحسن على الدوام بمسكر الناظر تسكينًا لغضب زوجها ولطالما خرجت فائزة بذلك من معامع العدوان

فخرجت ولم اسمع تتمة هذه المازحة القبيحة وصعدت الى غرفتي انتظر كونتران ولدى رجوعه من الصيد جاء لمواجهتي اجابة لطلبي والذي استجلب انتباهي عند دخوله مظاهر المسرة والبشاشة المشرق بها وجهه وكان منذ بضعة ايام منقبضًا بالتفكر والاحزان ثم قبلني بحنو وقال العفو . . العفو يا عزيزتي متيلدة فربما اقلقتك بغيابي . . ولكني سرت كطفل الى مسرات الصيد متكلًا كعادة على رحمتك

نادهشني من زوجي ان يتكلم بهذه الاعتذارات الحنونة بعد سكوته ازمان طويل عن التلفظ بها وقلت اني مسرورة كثيرًا لما ان هذا الصيد كان سعيدًا موفقًا فانت الان بحسبما يتراءى لي اقل اضطرابًا من هذه الايام الاخيرة الماضية

قال نعم يا اميرتي رأيت تعلمين ان اقل الاسباب يكون لها في الغالب تاثيرات عظيمة ففي هذا الصباح عندما ركبت الجواد واندفعت الى الخلاء كنت مكدرًا وجعلت اصطاد بلا مسرة وكانت السماء مغطاة بالضباب واذا باشعة الشمس الساطعة قد اخترقت فجأة تلك الغيوم ثم تراءى لي وقتئذ كأن الطبيعة قد اشرقت بالانوار ولا اعلم لماذا جرت علي نفس هذه الاحوال فاني تحولت سريعًا من حالة الكدر والحزن الى السعادة والانشراح . نعم صرت سعيدًا منشرحًا كما لو كنت في العشرين من العمر ولربما اكثر ايضًا بل كما لو كنت في نفس اليوم الذي قلت لي فيه اني احبك ثم زاد على ذلك بظرف كثير قوله تاملي جيدًا يا حبيبتي وقابلي لتعلمي هل حفظت مثلي تذكارًا سرمديًا لذات اليوم الجميل

وكان ذلك صحيحًا لاني لم ارَ في حياتي وجه زوجي في هذه الحالة من مظاهر التبسم والسعادة فلم يمكني اخفاء عجبي وقلت حقًا ان وجهك طافح بلائح السرور وهو يذكرني بايام كثيرة جميلة

قال نعم . . نعم ان سعادتي رحبة في تلالؤ يسطع من حولي بالرغم عني . . ولا يمكني ان اخفي مقدار مسرتي

قلت فليبارك الرب اذن اشعة الشمس التي غيرتك الى هذه الحال

فتاملني كونتران باسمًا وقال يجب ان اعترف لك بكل شيء فليست اشعة الشمس وحدها هي التي غيرتني بل يوجد ايضًا اشعة اخرى ادبية اشرقت علي وبددت الظلام عن افكاري . . وهل من حاجة لان اعلمك يا ملاكي العزيز انك انت هي تلك الاشعة الباعثة على هذا الانقلاب العجيب

قلت انا يا كونتران . . وكيف ذلك

اجاب اني تساءلت وقتئذ لما هذه المباينة بين احزان فؤادي المظلمة ومظاهر انوار الطبيعة الساطعة . . ثم تساءلت ايضاً عما اذا كنت غير حاصل على كلما يحبب قلبي بالوجود وعما اذا كنت غير مديون بكل ذلك الى امرأة محبوبة هي اجمل وافضل واكرم جميع النساء اللواتي أخلصن حياتهنّ لسعادة رجالهن ثم قلت ليس هذا هو كل الحاصل بل عربون حب جديد لا يلبث ان يلحم عُرى محبتنا واتحادنا واما حزين عابس لا اتمتع بلذة بجميع اوقات الحيوة وللحال ترآى لي يا هيلدة كأني خارج من حلم مكدر

قلت آه يا كونتران . . آه يا كونتران . . هل تتكلم بالصدق . . يا الهي

قال نعم اتكلم بالصدق . . والسعادة تجعل ذويها من ارباب الثقة والاخلاص . . فمن حين سلكت ذلك السبيل الرحب الذي فتحته امامي يا متيلدة لم اعد اخف من مداومة البحث للتوسع بفهم السبب الاول لتلك الاكدار الجنونية التي المت بي منذ بضعة ايام . . . ثم وجدت سبباً اخر صغيراً . . . هل اعترف به ايضاً يا ترى . . اني تطرفت بالحماقة الى حد ان شعرت بالقهر من تهكمات ابنة عمك . . نعم اني كواحد من ابناء المدارس او الولايات اضمرت لها غيظاً لما انها سخرت بكلامي ووجدت كون ذلك ممسّاً لا لحبي بل لعزة نفسي ولكني لدى التفكر بمتيلدة والملاك الصغير الموعود به مستقبلنا هجرتني تلك الافكار وعدت اليها نادماً بحنو وتعشق لا يقاس بهما حنوي وتعشقي السابقين

ثم قبل زوجي يدي بسرعة مسكرة فظننت كوني احلم ولم يسعني ان اصدق بما اسمعه وقلت اي انقلاب فجائي طرأ على افكاره ووجد فيه هذا التغيير وكان يتكلم بفطرة تشف عن اخلاص كثير وعند التلفظ بالكلمات المتعلقة بولدنا وضح في هيئته الاضطراب بملامح جدية لم يمكني معها ان افترض كونه يكذب . . .

وكان من حصول هذه السعادة غير المنتظرة عقيب اضطرابات النهار المختلفة ان وهنت عزائمي وتضعضعت افكاري فسقطت على مقعد هناك خائرة القوى ووضعت يديَّ الاثنتين على جبهتي استجمع حواسي وافكاري وبعد برهة من السكوت قلت له

العفو . . العفو لي بدوري يا صديقي لتقاعسي عن الجواب على كل هذه المكارم المسكرة التي اظهرتها لان الدهشة الملذة استغرقتني ولا يمكني ان اجد كلاماً يفي بترجمة امتناني

وكنت وقتئذ بمنتهى الارتباك موقنة بعود زوجي الي لا اعلم هل يجب او لا ان اطلعه على محادثتي لاورزبل واقراراتها القاسية ونوع البراءة الذي استدعتني اليه من اجله ثم حاولت اخيراً ان انبه حواسه الى شيء من ذلك فقلت هل عرفت يا صديقي ان الموسيو سيشربن سافر من ماران في هذا الصباح

اجاب علمت ذلك . . فلما لم تصحبة امرائة في سفره . . . ان هذه الفرصة لمن انسب الفرص لانجاز وعدها وكان الاولى بها أن تسافر احتراماً لك لاني قلت لها بان راحتك متوقفة على سفرها

فجاهدت على التبسم لاخفاء اضطرابي وقلت لربما تكون ندمت عما فرط منها من القساوة نحوك ويكون احتقارها لك فيما مضى لا يترجم عن شعائر قلبها الصحيحة

قال ماذا يعنيني منها ففي الصيف ضيعت اللبن على ما يقال والان مضى الوقت وملاكي الحارس معي بجمال كثير ومكارم وافرة تقيني وتحميني ضد جميع مظاهر الشر الغرارة

فداومت التظاهر بالتبسم وقلت انت مطمئن الان يا صديقي لكن ابنة عمي كثيرة التربع وهي بمظاهر سحارة ومتيلدتك المسكينة . . .

فقاطعني كونتران بلهجة طافحة بالحنو وقال ان متيلدتي المسكينة ساحرة صغيرة . . ويجب عليها بدلاً من التظاهر بهيئة الاتضاع والتصبر ان تعتقد من الان كونها ملكتي السائدة بسلطانها على قلبي ان لمتيلدتي المسكينة والكلام بيننا ذكاء فوق العادة وافكار فريدة لا تدرك فبنفثة منها تحول الزوبعة الى سكينة واكدار الحزن الاجاج الى فرح عذب وقد تكفيني اشارة منها لاستغراق نفسي في بحور الهناء وخلاصة القول ان متيلدتي المسكينة تذكرني اعمالها بالجان الذين يخفون لزمان طويل اقتدارهم ليظهروا به يوماً بمنتهى عظمته وقد اخشى من الان وصاعداً ان اتطرف كثيراً في التعبد لها . . هانذا ذاهب عنك يا ملاكي المحبوب فتحسي . . تحسني كثيراً بحيث يمكنا لدى مشاهدة ابنة عمك ان نتبادل النظر بما يتضمن القول (ها هي اورزيل المسكينة)

ثم قبلني كونتران في جبهتي وتركني في نوع من الانسلاب بالمسرة

الفصل السابع والثلاثون

اشاعات العالم

فالان وقد فكرت بسكينة بكلمات زوجي المتقدم ايضاحها لا اعلم كيف امكني وقتئذ ان اصدق بصحتها ولم تتنبه شكوكي بهذا الرجوع الفجائي الحنون من قبل كونتران نحوي باسباب غريبة مصتنعة كالتي ذكرها اني كنت اجهل حينئذ كون اشد التاكيدات امتزاجاً بشعائر الحب تستخدم في الغالب كحجاب لاخفاء اعمال العار والخيانة ثم كنت فضلاً عن ذلك كثيرة التعاسة وفي حاجة كبرى

لان اقابل من زوجي بحاسة كريمة ذلك ما دفعني الى الانقياد بعناية بهذه السعادة غير المنتظرة ثم اتكلت من جهة ثانية على حكمة افكاري ودقة نظري للاكتشاف على نوايا اورزيل الحقيقية وقضينا العشاء بالانشراح فلم تقل السيدة دي ماران كلمة لها علاقة بما تهددت به نهاراً واكثرت اورزيل من معاملتي بالرعاية واحاطني كونتران بمنتهى مما يمكن من الاعتناء الودادي الى حد ان اتخذت عمتي من ذلك سبيلاً للممازحة مراراً عديدة

وعند نهاية العشاء قالت لي ابنة عمي بملامح الاسف ما اعظم سعادتك بتمضية الخريف وقسم من الشتاء في هذا الخلاء

قالت السيدة دي ماران ولكنك مشاركة لنا بهذه السعادة يا ابنتي العزيزة المسيو سيشريت لم يظهر سروره ببقائك هنا الى اواخر الاجيال او ليس هو الذي قادك بنفسه الى هذا المكان

اجابت صدقت يا سيدتي ولكن ما كلما يتمنى المرء يدركه فان زوجي بحال ايابه وقد ارسلت من خلفه استعجلة بهذا الاياب سيجبر على السفر الى باريز ولا بد لي من الذهاب معه

فصاحت السيدة دي ماران انت مستعجلة بهذه الافكار والذي علمته من زوجك قبل سفره انه يستطيع الشتاء هنا الى كانون الثاني وانك لا تعودين الى باريز الا مع متيلدة وكونتران

اجابت بتبسم اصبت يا سيدتي ولكني حصلت الان على تحرير من احد مراسلي زوجي في باريز يشدد عليه بوجوب النزول الى المدينة من اجل تاسيس المحل التجاري الذي اشترك باعماله ولم يعد لي يا عزيزتي متيلدة الا خوار بعة او خمسة ايام اقضيها معك ثم متى صرنا جميعاً في باريز تكون جمعياتنا ايضاً مختلفة . . اذ لا يخفاك كوني امرأة واحد من التجار . . اما انت فالفيكونتيسة دي لانكراي . . الساطعة وعليه فقلما نشاهد بعضنا

فصاحت السيدة دي ماران ولكنكم كنتم معتمدين على السكنى سوية في باريز وان تكونوا مثالاً للنماذج والاتحاد بين العيال فهل تغيرت اذاً كل هذه المقاصد الحسنة

اجابت اورزيل باسمة ان جميع هذه المقاصد لم تكن لسوء الحظ سوى احلام يستحيل تحقيقها يا سيدتي ولا انكر كوني متاسفة كثيراً بالانقطاع عن هذا الامل . . ولكني لا ارى بداً من الانقياد والتصبر

قال زوجي بظاهر الانشراح انما صرحي ولو قليلاً يا ابنة عمي بان البيان الذي قدمته الك الجهة الدائرة الوحيدة التي يمكنا الاستغناء عنها لسكناك لم يحصل على رضاك

اجابت لم تصب ظنونك يا ابن عمي . . انا نرتضي بما هو اقل من ذلك ايضاً رغبة منا في البقاء بجانب عزيزتي متيلدة ولكن ضاحية سين اونوري بعيدة جداً عن مركز الاعمال ولا يمكن زوجي الاقامة فيها . .

وكان العشاء قد انتهى فنهضت عن المائدة ثم قدم كونتران ذراعة للسيدة دى ماران ومشى وإياها امامي وإمام اورزبل وعند دخولنا الى القاعة انحرفت ابنة عمي لنحوي وقالت انظرت كيف انتقم لنفسي . . فهل انت مسرورة بذلك

و بعد مناولة القهوة اتخذت السيدة دى ماران هيئة جدية خطيرة وقالت نحن الان وحدنا واقارب ويمكنا ان نتكلم بضمائر حرة وقلوب جلية صافية

وعند هذه الكلمات اخرجت من جيبها التحارير التي وصلتها صباحًا من باريز والقت عليَّ نظرًا ناطقًا بالتهكم والشر

قال كونتران ما هذا الذي تريدين قوله يا سيدتي

اجابت سوف تعرف كل شيء . . . وانما عدني اولاً بالمحافظة على السكينة وان لا تقاد بالجنون الى العمل بمقتضى تهيجات شعائرك الاولى ولا اظنك تخالف مشورتي في ذلك ثم نادت اورزبل ان اذهبي وانظري هل يوجد احد في قاعة الطعام

فنهضت اورزيل مطيعة و بعد اذ فتحت الباب والقت نظرًا عامًا على القاعة المذكورة عادت الى مكانها وقالت لا يوجد احد يا سيدتي

فكرر كونتران السوال وقال ما المعنى بكل هذه التحسبات

اجابت من اقوال بونابرت يقتضي على المرء ان يتدبر بغسل القذر من ثيابه في منزله وبين عياله . نعم ان هذا التعبير لا يخلو من السقامة ولكن معانيه الطافحة بالتعقل والاصابة تصلح بسقامته ثم التفتت لنحو اورزيل وقالت احب قبل الابتداء ان اشرح لك يا عزيزتي الصغيرة عما ستجدينه من التباين الواضح بين ما قلتهُ لك في الماضي وما سأقوله الان

قالت وكيف ذلك يا سيدتي

اجابت كنت متفقة مع متيلدة على ان لا اتكلم عن الوشايات الخفيفة التي أزيحت عنها ولا عن الاحزان المرهبة التي تكدرت بها الاشهر الاولى من زواجها . . . ومن اجل ذلك مثلت لك ابنة عمك الى الان كالامراة الوحيدة المتفردة بالسعادة المفرطة بين المخلوقات على حين انها والاسف لم تكن كذلك . . . وسوف ترين . . . . وتعلمين أن حيوة هذه المسكينة متيلدة كانت منذ زواجها ما عدا الايام القليلة من شهر العسل ايام عذاب طويلة وان ذلك كله لا يحسب بشيء في جنب الاكدار والمخاوف التي يضمرها لها النصيب

وبينما كانت السيدة دى ماران تتكلم جعلت اورزيل تنظر اليَّ بدهشة . . . ولو لم تغشني من قبل كثيرًا برياءها لربما قلت انها ترمقني بعين الاهتمام

قال كونتران بفروغ صبر اني اسألك المرة الثالثة يا سيدتي ان تصرحي ما المعنى بهذا الحديث

اجابت ستعرف ذلك عاجلاً لانهُ يهمك اكثر من الجميع الا ان هذه المعرفة ستكون بعد الاوان ولا تفيدك شيئًا لان الداء عضال والذي اظنهُ انهُ بلا دواء ثم يجب قبل كل شيء ان تحلف لي بشرفك كرجل من اصحاب الشرف ان لا تصدق على الكثير الا نصف ما اقولهُ لك وان لا تنسَ الظروف والالسنة الردية وما تفعل ولا يخفاك اني ريبت امراتك ولا يجب من اجلي كما ومن اجلها ان تعجل كثيرًا بالحكم عليها بحسب الظواهر بل يقتضي ان تقابل بعدل بين الذي لها والذي عليها ثم تتدبر اخيرًا بعقد العزم على شيء

وكان من المستحيل عليَّ وقتئذٍ ان اعلم من قبل بنتيجة حديث السيدة دى ماران نعم كنت منتظرة لان يكشف الستار عن مقاصد شريرة ولكني لم اقلق لشيء بالنظر الى ثقتي التامة بنفسي فقلت لها ما دمت انا المرادة بهذا الحديث يا سيدتي فاسالك على سبيل الرجاء ان تختصري هذه المقدمات وتصلي بنا سريعًا الى الجوهر

قالت حسن . . . . حسن ان في هذا الالحاح من متيلدة ما يبعث على الطمان ويتخذ كطالع حسن للمسالة . . والان هل تعلم يا حضرة الموسيو دى لانكراي ما هي الاشاعة المتناقلة على الالسن . . او بالحري ما هو اعتقاد الناس من مصافنا الذين لم يبارحوا باريز بالثورة

اجاب لا يا سيدتي

قالت انهم معتقدون ويعلمون ان امراتك قبل ذهابها الى روفري ذهبت خفية الى منزل ليكورتو في البرية وقضت فيهِ ليلة بتمامها منفردة راسًا لراس مع صديقنا صاحب النجوم الذهبية على السطح الفضي . . .

وعند تلفظ السيدة دى ماران بهذه الكلمات تاملتني بنظر الافعى فاصفررت اما هي فاكملت حديثها وصاحت انظروا . . انظروا . . هذه المسكينة الصغيرة كيف اضطربت احوالها . . اه يا الهي ما كان اغناني عن التكلم الان ثم نادت اورزبل ان تسعفها في الحال قليلاً من الاثير وهاك القارورة فاقتربت اورزبل مني بملامح التشفق المقترنة بالحماية والفوز فابعدتها عني بلطف وقلت لست في حاجة لشيء

ولم اكن على استعداد لهذه الضربة الاولى الهائلة فبقيت خرساء لا اتكلم بشيء وتلون زوجي ابرهة بحمرة الارجوان ولا اعلم هل حصل لهُ ذلك عن غضب او دهشة ثم عاد اخيرًا الى تمالك روعهِ واستلقى على ظهره مقهقهًا بالضحك وصاح ماذا هل تصدقين انت . . . انت ايضًا يا حضرة السيدة دى ماران بمثل هذه القصص الغريبة . . . فقد يحق بلا ريب لهذه المسكينة متيلدة ان تصاب بالجمود اذ من يمكنهُ يا ترى ان ينتظر استماع مثل هذا الجنون

وبادرت حالاً للبحث بافكاري عن الواسطة المحكمة لتبرئة نفسي مع المحافظة باحترام على سر

كونتران اذا كان ثمه وقت لذلك

وظهرت على السيدة دى ماران ملامح التعجب الشديد لعدم اكتراث زوجي بوشاياتها فعاودت الحديث وقالت مهلاً مهلاً وامسك عن الضحك الى ان استوفي لك على الاقل خلاصة الاقاويل التي اخبرت بها فقد مرَّ معنا اذن ان امرانك قصت ليلاً كاملاً في منزل ليكورتو اما الان فالبعض يعتقدون ويؤكدون كونها فعلت ذلك بارادتها عن حب ... ولا اظن بصحة هذا الراي لانهُ يفيد كون ابنة اخي بصفات واخلاق مشينة . . والبعض الاخر يدعي كون هذه الصغيرة المسكينة ذهبت الى ذلك المنزل بكل شرف ونية سليمة لتشتريه والله اعلم باي ثمن ورقة تتوقف عليها فضيحتك وضياعك يا عزيزي كونتران . . ثم يقتضي ان تلاحظوا جيداً يا اولادي الاعزاء كوني لا اتكلم الان الا بصدى اقاويل الناس لا اكثر ولا اقل . .

فلم يبقَ لي من سبيل للشك بكون ليكورتو اقام بكلامهِ لجهة الانتقام وكتب للسيدة دى ماران او لاحد معارفهِ بعض فقر عن تلك الليلة المشومة لاضاعة سمعتي والاستهانة بشرف زوجي

وكان البطلان والحقيقة مجتمعين ومتمازجين بخبث في هذه الوشاية المخيفة بما يدفع الناس ولا يعلم هل منشأ ذلك منهم عدم الاهتمام او الشر الى تصديقها بلا فحص ولا تحري

فلم اجسر ان القي بنظري على كونتران وكنت منتظرة ان تنفجر منهُ براكين الغضب على انهُ اظهر وقتئذ سكوتًا لا يعادل بغير مظاهر الخيبة التي علت وقتئذ وجه السيدة دي ماران وتغلب من جديد على شعائر اضطرابهِ القليلة ثم رفع اكتافهُ وعاود الحديث بجنان ثابت وقال

ان هذه الاقاويل يا سيدتي لم تعد تحسب من قبيل الوشايات ايضًا بل من قبيل الجنون ونحن الان في زمان صعب خطير لا يمكن الناس من التشدق بمثل هذه الاوهام العرضية

فصاحت السيدة دى ماران ماذا . . . اوهام عرضية . . . بارك الله فيك ما اسمى افكارك بالفلسفة

اجاب ان سوق الفلسفة يكون بخسًا جدًّا اذا امكن الحصول على لقب فيلسوف لمجرد احتقار الاشاعات الباطلة التي لا تستحق ان تسمى وشايات ايضًا . . ومتيلدة لا يمكن ان تقلق لمثل هذه الخزعبلات ثم احب ان انبهك بكلمتين مختصرتين الى الظروف المشومة التي سمحت لسوء الحظ بتقرب الموسيو ليكورتو من السيدة دى لانكراي ان هذا الرجل انتفع بجبن ودناءة من علائق حصرية اوجدت بيننا باحكام الصداقة لمحاولة تلمصيت السيدة دى لانكراي وقد اجبتهُ على هذه النزالة كما يجب ان يجاب بتكذيب صريح وكفنين امام نحو من عشرين رجلاً ثم حصل بيننا البراز وجرحتهُ بالسيف وفي اليوم الثاني سافرت الى انكلترا حيثما دفعت الى السفر بمصالح خطيرة وبحال سفري بارحت متيلدة باريز وذهبت لتصرف مدة غيابي عند ابنة عمها ثم وافيتها الى هناك عند

رجوعي من لوندرا وجئت بها الى هنا فهذه يا سيدتي كل الحقيقة اما من جهة الاختلاقات المضحكة التي اتصلت بك وحكمت بضرورة استلفات انظارنا اليها فاعيد لك للمرة الثانية كونها لا تستحق ان يهتم بتكذيبها وتكاد لا تخطر على بالي كانها لم تذكر لو لم تعمل متيلدة كالاطفال ونستاء بها البرهة ولكنها معذورة لانها مستجدة بمعرفة حقائق هذا العالم ونفسها النقية السليمة تتاثر كثيراً من المكدرات التي لربما بعد زمن طويل لا نعود نهتم بها ثم وجه الخطاب اليّ وقال بلهجة متناهية في الوداد والحنو عفواً يا متيلدتي المسكينة ان علاقتي المشومة بليكورتو لا تزال سبباً لاكدارك لكن املي ان تكون هذه هي المرة الاخيرة التي تستائين بها بسبب هذه العلاقة

فتاثرت كثيراً لهذه الكلمات الجامعة بين الشرف والبساطة

وظهر لي منذ بداية هذه الحادثة ان ابنة عمي مستغرقة بالتاملات وقد تغيرت ملامح وجهها اجمع اما السيدة دى ماران فارتبكت بالرغم عن ثباتها وجعلت تنقل نظرها باستغراب مني الى اورنريل ومنها الى لانكراي وهي تحاول التعمق في الاكتشاف على سبب تلطف اخلاق كونتران وقلة اهتمامه وكان من هذا التلطف ان اوجب عجبي ايضاً واثر فيّ كثيراً لانه كان لزوجي ان يجرح بعدل من اكاذيب السيدة دى ماران المذكورة

وبعد ان ابدت عمتي هذه الملاحظة بالنظر وهي سكونة لعدة ثوانٍ عاودت التكلم بهيئة المتامل فقالت حسن يا كونتران . . انك متصلب بالمحافظة على افكارك . . وانت تعلم جيداً ان غاية ما ارغب فيه ان لا تصدق الناس شيئاً مما يكنسون اليّ وان اجيبهم على ذلك بالتكذيب الصريح لكنه ورد في المثل السائر لا يوجد الدخان الا حيثما توجد النار فمن يا ترى والكلام بيننا اشعل نار هذه الوشاية الفاحشة وكيف يمكننا ان نصدق بان اناساً من اهل العظمة والمجد من مثل الذين بعثوا لي بهذه الاخبار يتطرفون ويبتدعون قصة زيارة متيلدة الخفية للموسيو ليكورتو لو لم يكن لها اثر من الصحة ومع ذلك فانت اعلم الناس بدخيلة احوالك وليس لك الا ان تسال ضميرك فهل صحيح ان الموسيو ليكورتو كان حاصلاً على شيء منك يتكفل بصيانتك وهل تعهد به الضيبة الى حدان بمجرد نسبة في مثل هذه الظروف من ذلك السلاح من اجل القيام بعمل كريم اني لا اظن بصدور كل هذه الكرامة من مثل هولاء الناس الذين لا يعرفون شيئاً من غير عمل الشر والاضرار بالعالمين

ولربما تكون شرور السيدة دى ماران الجهنمية قد خدمتها بهذه الاقاويل الصائبة على غير علم منها اذ من المستحيل ان تمس شكوك كونتران الحارة لجهة ارجاع الورقة المزورة التي تظاهر ليكورتو باعادتها له عن طيبة خاطر منه بما هو اقسى من هذه الكلمات

نعم ان زوجي لم يتمكن من مفاتحتي بهذه المسالة ظناً منه اني اجهل ذلك العمل المشوم بتمامه لكني

لاحظت منه على الدوام انه يظن بوجود سبب خفي اوجب على ليكورنو التنازل عن الورقة المذكورة

ولا اعلم هل كانت السيدة دى ماران وقتئذ مطلعة على كل شيء ثم بقيت منتظرة في هذه المرة ان يزبد كونتران بالغضب ولكن قلبي كاد يرتعش بالخوف لدى مشاهدته يسمع السيدة دى ماران بتمام السكينة المجردة عن الوساوس ولا سيما عندما رفع اكتافه ونظر متبسماً اليّ وقال لم يعد ذلك من ضروب الوشاية او الحماقة بل من لطائف القصص وخوارق الطبيعة فهل هذه هي كل اخبارك يا سيدتي وهلا تتضمن مراسلاتك شيئاً زيادة على ذلك ان من الخسارة ان يتوقف اصحابك عن اطلاق القلم بالاخبار في مثل هذا المجال الفسيح الجميل

فضاقت السيدة دى ماران ذرعاً عن مداومة الامساك من غضبها وصاحت لا . ليس هذا هو كل ما اريد قوله فقد اخبرتكما بما يعتقد به وجهاء الناس من ذوي الاحترام ويجب ان اخبركما الان بالنتائج التي تاتي لكما عن ذلك بحسب اعتقادي فانت وامراتك ولومها اكثرتما من الصياح والقول بكون تلك الاحاديث من لطائف القصص وخوارق الطبيعة سيشار اليكما بالاصابع في كل مكان وعلى نحو من عشر تحيات تبديانها لا تقابلان بتحية واحدة . . . لربما تعجبان لذلك وتعتبرانه سحراً على حين انه بسيط مالوف وان شئت معرفة الاسباب فهاكها ان الناس بحسب افكاري يكونون على مذهبين في هذه المسالة فاما ان يعتقدوا بان امراتك ضحت شرفها من اجل المحافظة على شرفك وحينئذ تنحط في اعين الناس الى مقام الشقي . . . واما ان يعتقدوا بان امراتك انقادت بميلها لليكورنو ولا يمكن اعتبارها وقتئذ الا نظير الخائنة الدنية ولا يخفاك ان في مثل هذه الظروف ينظر اليك ايضاً كواحد من ادنى البشر بدعوى انك سهلت باعمالك حصول هذه الاميال وروجتها اما لكونك مديوناً بالمال لهذا الرجل السهل واما لان امراتك اتتك بجميع ثروتها وانت ترى من دواعي السياسة والاقتصاد ان تتظاهر باغماض الاعين عن هفواتها

قال كونتران اصحيح يا سيدتي انهم يعتقدون ذلك

اجابت بلا ريب وهذا الذي يعتقده كرام الناس . . . وارباب الشرف . . . بل اصحابك اخيراً

قال وما ظنك يا سيدتي بما يعتقد به اعداؤنا

فقهقهت بالضحك وقالت اعداؤك يعتقدون خلاف هذا الاعتقاد ويقولون انك على اتفاق تام مع متيلده في كل ذلك اذ لو كان بينكما اثيم واحد لحصل الافتراق . . . فالامراة الشريفة لا تبقى مع الرجل الدني نعم من الممكن ان تضحي شرفها لخلاص شرف زوجها اما لا يمكنها وقد تمت

تلك الضحية الا تفترق عنه واذا بقيت معهُ تصبح شريكة له في الاثم والعار ومثل ذلك الرجل الشريف لا يمكن ان يبقى مع الامراة المستهينة به واذا كان مجردًا عن الثروة فخير له ان يعيش بالفقر والفاقة ولا يبقى متقربًا لصالح شخصي مشين من امراة فاسقة . . .وعليهِ فما الذي يستنتجهُ اعداؤك يا ترى باسلات السنتهم المسلولة كالافعى عندما يجدونكما على الدوام بجانب بعضكما . . . انهم يستنتجون وقتئذ انكما انتما الاثنين تعاملان بعضكما بجميع انواع المساهلة والمسامحة المستقبحين

فقاطعت السيدة دى ماران بالحديث وصحت الان . . .فهمت كل شيء ان بغضك الاعمى دفع بك الى نهاية ما يمكن من الحدة والتطرف وخانتك الظواهر بالرغم عنك . . .فليتبارك اسم الرب لانهُ كشف لنا بذلك عن سهام العدوان المصوبة نحونا

فصاحت عتي ماذا . .ماذا . .حقًا ان هذه الصغيرة لمجنونة

قلت . .كونتران . .كونتران . . .اني تسائلت كثيرًا لماذا انت تلك الامراة شقيقة ابي الى هنا . . . الى ان صرحت الان جليًا باسباب مجيئها . . .نعم يا سيدتي الان فهمت كل شيء . . . انك تريدين بهذه الاحاديث القاء الشقاق فيما بيننا ثم الفراق . . . .حقًا لو صحت هذه الاحلام لاحرزت منتهى ما يمكن الوصول اليهِ من الفوز لانهُ لم يمرّ على زواجنا اكثر من سنة وحصول الافتراق فيما بيننا يتكفل بضياع احدنا الى الابد لانهُ يجيز للناس التكلم عنا بالاشاعات المخيفة .

ودلني تقطب حاجبي السيدة دى ماران اني اصبت الحقيقة بكلامي فاخذت كعادتها تقهقه بالضحك لاخفاء غضبها وقالت قه . .قه . .قه . .كم تضحكني هذه الصغيرة بافتراضاتها العلك تتوهمين كوني اتكلم الان بافكاري الخاصة ايتها المجنونة اني لم ات الا كقريبة محبة مستقيمة لاقول لكما احذرا لنفسيكما يا ولديّ فهذه افكار الناس من نحوكما ولا تظنا هذه الاخبار من قبيل الهزر او الاشاعات الباطلة بل هي عبارة عن اعتقادات القسم العظيم الجدي من خيار الناس الذين يعتمد على كلامهم . . . فالان وقد فهم الناس تصرفاتكما بهذا المعنى ومن المستحيل تحويلهم عن هذا الاعتقاد وانتبك اذا لم نقل شرفكما انتما الاثنين فعلى الاقل شرف احدكما جئت كقريبة صالحة مستقيمة ا . . .

فقاطعها الموسيو دى لانكراي بالحديث وقال يظهر لي يا سيدتي ان للناس من مداومة اتحادنا وارتباطنا بالمودة ما يبعثهم على الظن بخلاف ما تتوهمين واننا نعيش شرفاء ونحتقر جميع هذه الوشايات الفاحشة لاعتقادنا ببراءة ساحتنا مما يستوجب اللوم واننا عقلاء لا نعرض شرفنا للخطر من اجل وشاية وهذا الفكر هو الاقرب للتصديق والتصور وخلاصة القول اني لا اوافق مطلقًا بتاثراتها ومخاوفها منك ثم قال ان هذه البنية المسكينة تحملت كثيرًا من الاشرار واعتنها الاوجاع فتوهمتك لبرهة

من الزمان في جملتهم . . . على اني لا اشك بكونها محطية وانك لم تتلفظي بهذا الحديث الا محبة بنا وغيرة منك على مصالحنا فتمي معروفك اذن ومدينا بمشوراتك . . . صرحي ما الذي يقتضي علينا عمله لنقنع اصدقاءنا انهم مغشوشين بفساد هذه الوشاية الدنية الكاذبة ونثبت لاعدائنا انهم اوغاد ادنياء

اجابت بغضب لا اتور بشيء لان الوقت مضى ولكني احذر وانبئا فاسمعا لي اذن اذا كنتما متشوقين لمعرفة الحاضر والمستقبل . . ان احدكما مغشوش ومضحى والثاني غشاش وجلاد وستقضي الضرورة بافتراقكما ويكون ذلك باقرب مما تظنان لان الضحية لا تلبث ان تهيج وتثور . . . الا ان هذا الافتراق سياتي بعد اوانه لان العالم متى اعتاد على النظر اليكما نظير جانيين متواطئين على ارتكاب الاثم بداوم احتقاركما ولا يكون افتراقكما وقتئذ الا شكاية جديدة ضدكما . . . وسيتخذكما الناس كلصين خاسرين بمداومة المعيشة سوية مع بعضكما . . . اربما تستغربان ذلك وتتصورانه فوق العادة . . على انه سياتي يوم تحققان به صدق هذه الاقوال ثم اسمعا لي هذه الكلمة ايضًا ولكما عليَّ ان لا اعود بعدها الى هذا الموضوع . . ان هذه الثورة اللعينة بددت شمل اصحابنا فلم اعد ارَ احدًا منهم ولم اسمع شيئًا من كل هذه الاخبار ولكنه تطاير اليَّ بعض الاشاعات المبهمة فرجوت خالك الموسيو دي فيرساك والموسيو دي بلانكور والاثنان من اصحابي القدماء ان يتتبعا الاخبار ويتفحصا عن كل شيء ويحررا لي عن كلما يسمعانه . . . وهاك تحاريرهما فاقراها . . لترى اني لم ابتدع شيئًا من فكري . . . ثم ما لنا الان ولهذا فلنضرب عنه ونلعب بالورق واذا كانت متيلدة تعبة فيمكني الاستعاضة عنها بملاعبة اورزيل . . . وكل هذا الذي اخبرنا به ينتهي حسنًا ان شاء الله اني مسرورة وفائزة يا صهري لسرورك وتصبرك . . حيث ما الذي اريده يا ترى من غير سعادتكما والذي يظهر لي ان كلما احتقركما الناس كلما قويت دعامات هذه السعادة وساهتم بتقويتها ان شاء الله ثم صاحت ان اقرعوا الجرس واطلبوا لنا الورق

وعند ذلك صعدت الى غرفتي وتركت زوجي وعمتي واورزيل يلعبون بالورق فاشتغلوا به عن التكلم بعد ذلك المشهد المكدر

الفصل الثامن والثلاثون

سعادة وامل

وكنت بمنتهى الحيرة لا اعلم هل سكينة كونتران حقيقية او مصنعة وهممت ايضًا للمرة الثانية

بالرغم عن تحريضات الموسيو دى مورتاني ان اصرح لزوجي بكل شيء من اخبار تلك الليلة المشؤومة ولكني فكرت ان لربما يكون السبب الاكبر لتظاهر زوجي بعدم الاهتمام لمساعي السيدة دي ماران انما هو الرغبة بعدم اثارة شكوكي لجهة الورقة المزورة ولمعرفتي بشرور عمتي الجهنمية لم يسعني الا ان ترف بمقدار المخاوف الكثيرة التي تتهددنا اذا رافق انكاراتنا الم ...

وتمت مظاهر الحنو والبرود التي قوبل بها زوجي من قبل عمته شهور رها تاكيداً على ... سوات عمتي ... لا اعلم هل يحصر كونتراس لعمتي قبل الذهاب الى ... وكنت احب ان اصرح له ... على السر ولم احمل هذا ... على ... ان المدرك اطلاع زوجها على سكوتي ... وفقاً ... الى الاعتراف ... شورات المدونة دي ...

وفي نحو الساعة الحادية عشرة قرع كونتراس الباب ... وحرية ... واضطراب اعظم ... ولكنه لم يكن كذلك بل تراءى لي ... المودة والحب ... صديقتي ما اكبر شرور السيدة دي ماران ... الاشتياق والانحراف فيما بينا

اجاب لربما لا افطع ... ولكن هذه الامراء يسوءها كثيراً ان لا تجد ... تغذيه ولعلها ... دي فيرساك والمرسيو دي ... لتسعل ... دى ماران اشرما ... ومن الان ... يعود ... اها

... يا صديقي ما اطيب قلبك ... هذا الوعد لان ... صبري تدربني على الدوام ... السيدة دي ماران ... احراى ... الحسن الحظ قصدت اذيتنا بما فعلت ولكنها ...

قلت وكيف ذاك

... التقارير المرسلة ... الدكتور ... الاخبار المستجمة منتشرة عنا الان بان بعض الاردياء ... تصوراً وهمية ... الاكاد ... ان دهت ... الاسباب التي ... ان ... الدكتور

كأني اجهل مقدار بغضك له وخوفك منه . ثم صاح ابي بلا ريب مجنون . . ومن الاهانة لك ان
افكر لدقيقة بمثل هذه السفالات المشينة لكن السنة التي ماران بعثتها لا علاقة لها بما نقوله عما اعدوناه
ومن المقتضي بالنظر الى هذه الايضاحات ان نسير منها . فان من رأيي الآن وكل ذلك منوط
بارادتك ان نؤخر طويلا زمان رجوعنا الى ماربر وان لا نعود اليها الا بعد نحو من سنة او احدى
عشر شهراً نقضيها في هذا القصر فتنقذ من حوادث هائلة جمة قوية لغيابنا . . اني عليم باحوال
ماربر ففي نحو من ستة شهور لا يعود الناس يهتمون بنا وفي سنة كل هذه الوشايات الشقية تصبح نسياً
منسياً . . . وبالعكس اذا ذهبنا اليها في صحة ابتداع كما كان العزم واذا بقيت لي نسبنا الى اتون
من نيران الاحقاد العمومية وربما لا يكون ذلك موجباً لخجل الكبير بل لاحتقار معرفة العالم . .
فانت جميلة عجيبة تجذب . . ولا يقتضي اكثر من هذا لاثارة جميع انواع الحسد والغيرة في صدور
الناس ودفعهم الى استخراج الحوادث الكثيرة الكاذبة من علائقي الماضية مع ليكورنو . . ولو
كنت وحدي لاحتقرت جميع هذه الاشاعات الباطلة ولكنك معي وقد فرض علي الذود عن
سعادتك وساكون من اشقى الناس اذا لم اعرف ان اذود عنك
من اجلي كل حزن جديد . . فمن العقل والحكمة اذن ان نؤجل رجوعنا الى ماربر . . صرخي
يا متيلدة . . اولست من رأيي بذلك . . بربك صرخي

فصحت آه يا الهي هل يمكنني . هل يمكنني ان اجاوب وقلبي يحترق بشدة من الحب والسعادة .
قال . قل يا كونتران هل مرادك ان تأتي لي لمصارع الحوت ان هذا والحق كثير
عليَّ ان أناله . كثير عليَّ ان احدث ان احجز رك والاعتقاد وحدي
زمان طويل بدلاً من الذهاب الى ماربر . ان هذا كثير كثير يا كونتران وما
بكل هذه السعادة يا الهي

ولم يسعني الا البكي بدموع غزيرة في هذه المرة فقال كونتران واسعد الصحيحة
هذا الغضب الذي اظهره لا اهمية له الا بمعنى الوهم الذي اوجده ولكن
اني ابعدتك كثيراً السعادة دموع المسرة
اقول لك اني احبك ثم صاح اني اخوف
اني جهلتك يا ملاكي من الزمان افكارك السابقة
نفسك المحبوبة الى الحمول حمراء وحسنة . ولا هل
كنت في حلم او حقيقة . وصرخت . صرخي يا ملاكي الحارس واستنقذنا
في ماران

فضممت يديَّ الى بعضهما بمنتهى الدهشة والاعجاب وقلت نكم . . نكم ايضاً بهذا الصوت

العذب المبهج ردد على سمعي امثال هذه العبارات . . انك لا تعلم مقدار الراحة التي تتاتى لي عن هذه الكلمات الحنونة ولا ما تسري بها في عروقي من سوائل المسرة والسلام ان ولدي يا كونتران يختلج لها بلطف من داخل احشائي . . نعم . . ان هذا الجنين الصغير اصبح من الان وصاعداً يشعر بكل شيء من فرح ومن اوجاع و يتاثر لكل شيء فشكراً لك على الركب عني وعنه يا صديقي الحنون . . شكراً لك على هذه السعادة التي انعشت بها حياتنا . . . .

. . . .

. . . .

وقضيت الايام التي تبعت هذه الحادثة بمسرة دائمة مع زوجي وكان من المستحيل ان يصل المرء بالحنو والعناية والمعروف الى اكثر مما وصل اليه كونتران وقتئذ من نحوي

ورات السيدة دي ماران حبوط مقاصدها الشريرة فلم تخف كدرها وجعلت تتكلم عن قرب سفرها بدعوى ان اخبار باريز الاخيرة ادعى الى الطمان مما قبل

اما اورزيل فكانت تنتظر من دقيقة الى اخرى قدوم زوجها وكانت قد كتبت له قياماً بوعدها تسالة الذهاب معه الى باريز بدلاً من الاقامة في ماران بحسب اتفاقهما الاول

ولاحظت حصول تغيير غريب في تصرفات اورزيل من نحوي ومن نحو كونتران وذلك من حين سمعت السيدة دي ماران تتكلم بتلك الوشايات المخيفة فانها تزايدت من نحو كونتران بالتهكم والسخر والترفع اما من جهتي فكنت اراها في الاوقات القليلة النادرة التي نوجد فيها سوية لوحدنا منقبضة متضعضعة وقد تنظر اليَّ احيانًا بملامح من الاهتمام لا يمكني فهمها ثم تحاول في اغلب الاحيان ان تكلمني باسهاب كما لو كان لديها سر تريد ان تأتمني عليه ولكنها توقف بغتة عن العمل بموجب الهامات ضميرها الاولى ومن ثم كنت اتجنب بما يمكن الانفراد بها

وكنت اقضي اوقات الصباح مع كونتران و بعد الغذاء نسير بالعربة لتنزهات طويلة لا يحكى فيها الا قليلاً ثم نتعشى ونمضي السهرة بلعب الورق مع السيدة دي ماران فالان وقد امار في الماضي اتذكر اشياء كثيرة قلما كنت انتبه اليها وقتئذ حيث ما كنت لاستطيع حل شيء من رموزها فمن ذلك ان زوجي وان اظهر لي على الدوام منذ يوم رجوعه اليَّ فجأة تمام الحنو كان مستغرقًا بالاحلام والمشاغل فتارة يستولي عليه الضعضع الغريب وتارة يتاثر بنوع من التعجب الخارق للعادة الممتزج بشيء من التوجع كما لو كان قد بحث باطلاً للاكتشاف على سر قاس غريب

ولم تعد تظهر فيه حرارة الفرح الجنوني التي تعجبت لها في بادىء الامر بل بالعكس كان يظلم وجهه في اغلب الاحيان بملامح الاحزان المرة وعندما كنت اخاطبه باظهار عجبي من ذلك كان يجيبني بلطف اني افكر بالاحزان التي سببتها لك

ومع ان هذه الظواهر كانت موجبة للاستغراب الشديد لم اقلق لها لان كونتران كان طافحاً بالعناية والمكارم من نحوي وهو يشدد عليّ من وقت الى اخر بوجوب الاقامة في ماران ملي سنة على الاقل لبينما تنسى الاشاعات المتناقلة عنا سيما وان في ذلك نوع من الاقتصاد لمستقبلنا والخلاصة اني لم ارتهب لمشاغل كونتران الغريبة المذكورة وكنت اخشى ان يفرغ صبره بكثرة السوال منه في هذا الموضوع

ولا ريب ان السيدة دي ماران استنارت باميالها الغريزية التي تدفعها على الدوام الى محبة اعدائي فتظاهرت بالمودة الشديدة من نحو اورزيل وجعلت تسير واياها لتنزهات طويلة مشياً على الاقدام

وظنت عمتي في بداية الامر ان كونتران مشغل بمحبة اورزيل والذي اثبت لي ذلك مازحاتها الشريرة للموسيو سيشرين ولكن مظاهر الاهتمام التي عاملني بها كونتران ومقابلته من اورزيل بالبرود اوجبت خيبة ظنونها في هذا المعنى

وكانت اورزيل تنحدر في كل صباح تقريباً للتنزه في الجنينة اما كونتران فكان يغني معي في هذه الساعة على الحان الموسيقى كالسابق ولولا الخوف من وجود اثنين من اعدائي بجانبي لما امكن ان يتصور الفكر اياماً سعيدة من مثل هذه الايام بعد ايام شانتيلي الجميلة ولكن هذا الخوف كان لا يلبث ان يزول قريباً ايضاً وابقى وحدي منفردة بكونتران

وكانت اورزيل تتبادل مع زوجها المكاتبة في كل يومين وجاء في تحرير اخير من الموسيو سيشرين ان وصوله الى ماران يكون في ١٢ كانون الاول وما كنت لانسى الى الابد هذا التاريخ

ثم اقبل ذلك اليوم وكان قد مضى نحو من ثلاثة ايام ولم تحصل اورزيل على تحارير منه فلم نقلق لذلك بل بالعكس وجدت في هذا الانقطاع دليلاً اكيداً على قرب مجيء زوجها اذ لو طرأ عليه تغيير في عزمه لما تقاعس عن اخبارها بتحرير

وبينما كنت جالسة مع كونتران على البيانو واذ وفدت لويدو تسالني عما اذا كان ممكناً ان اقبل زيارة اورزيل فكدت اجيب بالرفض على ان كونتران سبقني بالحديث وقال انها ستسافر اليوم ومن موجبات الاداب والملاطفة ان نقابلها اما انا فساعود اليك بعد هنيهة

ومع ان هذه المواجهة كانت موجبة لكدري وانقباضي لم اتردد بالانقياد الى مشورات زوجي فدخلت اورزيل وبقيت واياها وحدنا في الغرفة

الفصل التاسع والثلاثون

الندامة

وكانت اورزبل بمظاهر حزينة خطيرة فقالت لا يمكني بعد الذي حصل فيما بيننا ان اسافر بدون ان اراك واحادثك لبرهة . . ان زوجي سيحضر في هذا الصباح ولربما بعد ساعة من الزمان . . وعندها يكون من المستحيل القيام بالاعتذارات الاخيرة

قلت الاعتذارات . . وما المعنى بها يا ترى . . اني لا اظن بوجود حاجة اليها

اجابت لربما يكون ذلك بالنظر اليك لانك لا تذكرين كونك فعلت شيئًا مسيئًا لنحوي . . اما انا فبالعكس اعترف بخجل كثير كوني اخطات كثيرًا من نحوك

فنظرت بحذر اليها علمًا مني انها تحاول التقرب اليّ وانما ليس بالشعائر بل بالخبث والرياء ولكنها غشتني اكثر من مرة ولم يعد يخشى عليّ من الرجوع معها الى التالم بمرض الضعف والثقة الماضيين والذي اوجب عجبي من ابنة عمي انها لم تتظاهر في هذه الحادثة كالسابق بمظاهر السويداء والشكوى بل كان دخولها بمظاهر البرود والسكينة

فقلت لا ريب انك ارتكبت اثامًا كثيرة ضدي ولا اريد ان اذكرك بذلك في ساعة فراقنا فقد قطعت ما بيننا صلة العلاقة والمحبة وسنبقى من الان وصاعدًا غرباء عن بعضنا ولربما يمكني ان انسَ يومًا الشرور التي اساءت بها اليّ

قالت اسأت في فهم اسباب هذه المواجهة اني ما جئت لاطلب اليك ان تنسي كلامي لجهة الحسد الذي بعثني عليهِ واميال البغض الغريزية التي تولدت عنهُ

قلت فلما اذن كان مجيئك

اجابت اسمعي لي يا متيلدة انك نظرتني الى الان بمظاهر جمة مختلفة فيومًا امراة باكية متنهدة مغبونة بحسب قولك ويومًا متعظمة ساخرة من ربات الخفة الوقحات اتكلم باسمى الافكار المجردة عن الحياء ثم تارة منحطة الى المدح باميال زوجي الهمجية اصرف منتهى العناية الى جعلهِ سعيدًا بحسبما يمكن ويريد واخرى منقطعة الى غشهِ بلا ضمير يبكتني استعمل ضروب الرياء الشريرة لفصلهِ عن امهِ التي تبغضني فهذه المظاهر المختلفة لاخلاقي لا تحسب بشيء في جنب اسرار نفسي لاني مستجمعة لمباينات كثيرة . . اني احس من ذاتي بالميل الشديد المجرد عن الاعتدال للبذخ والزهو والاشراق بالمظاهر الساطعة وبلغ مني ذلك مبلغ الافراط الكثير واعترف الان بمنتهى العار والخجل

اني كنت مستعدة لان اقبل بالتاهل من عجوز لا يحتمل لارضاء ذلك الميل . . . . ثم حصلت على الشجاعة وصبرت على مضض البلوى بالذهاب الى الولاية والسكنى فيها بجبوة شنية مظلمة كما لو كنت في قبر وكل ذلك لامكن زوجي من الزمان الكافيء لزيادة ثروته بحيث يمكني ان اعود الى باريز وامرح في بحبوحة من حيوة البذخ الفاخرة التي كنت احلم بها على الدوام وافادي بكل شيء من اجلها . . . اني احب التسلط بامارة ويوجد من انواع السلطان الاستبدادي بل الوحشي ما ينعطف اليه فوادي بتعبد . . لا انكر اني كاذبة ومظاهري مموهة باطلة ولكني احيانًا اتطرف كثيرًا بالتزام جانب الصدق الجلي وخلاصة القول اني اهلة في آن واحد لان اعمل كثيرًا من الشر واحيانًا كثيرًا من الخير . . . لا تبتسمي يا متيلدة بما يدل على قلة الثقة والاحتقار . . . نعم كثير من الخير . . . وفي هذه الساعة ايضًا اعطيك برهانًا على ذلك ولا ريب ان ذلك الخير سيكون ممتزجًا بالشر كغيره من اعمال البشر ولكني على يقين من تغلب الخير وسوف تحكمين . . . فمنذ ثمانية ايام اختليت واياك بمحادثة صرحت بها بمقدار حسدي . . نعم كنت احسدك كثيرًا لانك شابة جميلة غنية بافكار سامية تجمعين الى الفضيلة والشرف انواع الظارف المفرط النهار وتسلبين العقول بالصفات الوقورة . . فما كنت ارى في الوجود كاملاً اتم من كمالك

قلت هذا تمليق . . .

قالت لا . لا . ليس في ذلك شيء من التمليق يا متيلدة اني شاهدت بمرأى العين اقتدارك على استمالة الافكار والقلوب اليك . . . فمن اجل حصولك على رضاء عجوز من نساء الولايات نظرتك تتقدمين اليها بلطف وظرف كثيرين لا يقتضي القيام باكثر منهما لاستئسار نحوًا من عشرين من ارباب الزهو والتربع فانت حاصلة على نوع من دلال الفضيلة والعفة حصول غيرك من النساء على انواع الدلال الشريرة الاثيمة والخلاصة انك كنت حاصلة وقتئذ كما وحاصلة الان على جميع المحاسن التي تنقصني فمنذ ثمانية ايام يا متيلدة كنت احسدك على كل هذه النضائل لاني كنت اظنك مديونة لها بسعادة عظمى . . اما اليوم . . .

وشاهدت انها تتردد عن اتمام الحديث فكررت قولها . . اما اليوم

قالت اما اليوم فعلمت كونك تعيسة . . بل من اتعس النساء ولم يعد يشجعني قلبي ان احسدك على هذه الصفات الساطعة النادرة

قلت اخطات يا اورزيل بفهم الحقائق اني لا اذكر كوني صرت سعيدة في حياتي بما يقاس بسعادتي في هذه الايام الثمانية الاخيرة اي من يوم بدات تتوهمين كوني مستحقة للشفقة ثم زدت على ذلك بتعاظم ابدًا . . لم يتظاهر زوجي من قبل بمثل هذا الحنو والرعاية من نحوي

فتاملتني بنظر غريب وقالت سنعود فيما بعد الى البحث بانواع هذه الرعاية والحنو اما الان

فلنتكلم قبل كل شيء عن السبب الذي اوجب ان تنوب الشفقة في قلبي مناب البغض. والحسد ان السيدة دى ماران منذ مجيئها وهي تبالغ لي في ذكر سعادتك الى اليوم الذي اخبرتك بوامامي بالوشايات المشينة الزائعة عنك ولربما تكون غايتها من هذا زيادة تهيجي بالحسد وعلى كل فلا ازال مقتنعة بانك افضل واشرف امراة وجدت في العالم ولكن سمعتك مست الى الابد او بالحري تلاشت

قلت اخطات لان الحقيقة لا تختفي

اجابت وا اسفي يا متيلدة لا تتكلمي بغير الصواب ان البطلان والحقيقة لسوء الحظ تمازجا في الحوادث التي اوجدت هذه الشكوك فمن الصعب المقاومة ان الناس في حالة الشك لا تتوقف عن الحكم فكانما انا الان قد انتقمت منك بقساوة من اجل الفضائل التي كنت احسدك عليها

فاغاظني من اورزيل انواع هذا التشفق الذي تظاهرت به من نحوي وتأثرت شعائري منها بهذه المدائح ومع ان كلامها عن سمعتي كان لسوء الحظ من اقرب ما يكون للحقيقة لم ارد ان اعترف بذلك امامها فقلت لا أنكر عليك انك في حاجة لان تصدقي بمثل هذا النوع الغريب من احكام البشر الذين يطلقون السنتهم بالطعن السفيه على النساء المحتشمات لكي انصحك ان لا تعجلي باظهار الفوز اذ لا يلبث كل منا عاجلاً كان او اجلاً ان يحكم عليه بما يستحقه فلا تتعبي فوادك بالتشفق علي اما كلامك بالمدح عن صفاتي وقد ذكرت لها مثل هذه النهاية والجزاء فيتضمن كثيراً من التهكم

. فعاودت اورزيل التكلم بثبات وقالت اني لا امدح هذه الصفات بجلاء مجرد عن التحرس الا من اجل انها تجازت بالشر ثم تبسمت وقالت اني لا احسدك عليها لان ذلك يلقيني في لجج كثيرة من الارتباك نعم لم اخالط الناس اكثر منك ولكني اعرفهم بالفكر اكثر ما تعرفينهم ومهما قلت . . فلا يزول اعتقادي بان سمعتك جرحت جرحاً مميتاً بالرغم عن عفتك الواضحة

قلت سيدتي .

قالت لا تتخذي كلامي المكدر في هذا الصدد كاهانة لك يا متيلدة . . لا . . لا . . ابداً . . انك تعتقدين كوني اكذب النساء واكثرهن تمويهاً ورياء ولا ريب انك ستغضبين من حديثي بدلاً من ان تتاثري به وتعامليني كمخاتلة كذوبة ولكن ذلك كلة لا يهمني وساتكلم من اجلي لا من اجلك . . . فالان يا متيلدة وقد علمت بمقدار الاحزان المخيفة التي اصابتك . . . الان وقد نظرت بعين التاملات الى المستقبل الذي ينتظرك . . . ندمت وندامتي من اعماق قلبي عن الشر الذي اردته لك . . ولا اجسر ان اقول عن الشر الذي عاملتك به

وعند تلفظ ابنة عمي بهذه الكلمات الاخيرة كان صوتها متاثراً مضطرباً ولولا تباعد قلبي بالثقة

عنها لصدقت كونها مصابة بتبكيت الضمير ولكني كنت اعرف نعاق أورزيل وكذبها فتبسمت بتمرمر ودفعت يدها عني وكانت قد مدتها للقبض على يدي

فصاحت . . الا تصدقينني يامتيلدة

قلت لا . . وهذه دموعك قريبة الانحدار الى اعينك لمساعدتك على اقناعي

اجابت دموعي . . لا . . . لا يا متيلدة اني لا ابكي في هذه المرة لان اوجاعي شديدة صادقة ولست في حاجة الى الدموع الكاذبة لاقناعك بها

فاضطربت لوقاحة هذا الاقرار ونظرت بدهشة الى ابنة عمي والان اعترف ولو مها نسب اليّ بالنظر الى هذا الاعتراف من الجنون والحماقة اني تاثرت رغماً عني من ملامح وجهها وعذوبة نظرها الحزون والذي استجلب التفاتي من تلك الملامح كونها لا تشبه بشيء الى تصنعاتها العادية فاعتقدت وما زلت اعتقد للان كونها تاثرت وقتئذ بحاسة حقيقية ولكني مع ذلك اردت ان اقاوم بكل قوتي تلك الشعائر فصحت يا لله ما اكثر دهاك دعيني . . . دعيني ان ناسفاتك بفرض كونها حقيقية لا تجدي نفعًا فهي لا تقلل شيئًا من جرم الاثام المخيفة التي ارتكبتها ضدي . . انك حاولت سلب سعادتي ولم اغش باميالك لنحو زوجي ولو لم يكن لهُ من نحوك الاحنة . . .

وشعرت بقساوة هذه الكلمة الاخيرة فاردت الامساك عنها ولكن اورزيل اكملتها وقالت تريدين ان تقولي الاحتقار . . قولي . . قولي ولا تقفي . . . فمن الواجب ان اصبر الان على استماع كل شيء منك

قلت وخلاصة القول انهُ لم يكن بخاطرك ان لا تنجحي باستئسار قلب زوجي ولا تضربي الضربة الاخيرة لامراة لم ترد لك شيئًا في حياتها من غير الخير اريد تلك التي علمت اخيرًا كونها تعيسة بلا حق اذا سلمنا بصحة هذه المظاهر

اجابت نعم . . . نعم . . . يا متيلدة كنت عالمة بتلك الحادثة التي دارت بيني وبين زوجك وحضرتها عن غير علم مني اني بدلاً من ان اخمد العشق في فواده كنت ازيده بما اظهر من عدم الاكتراث المصنع وانواع التجبر والاحتقار

فرفعت اكتافي بهيئة المحتقر وقلت ماذا . . عشق كونتران لك الا فصرحي بالحق المعقول وقولي ميلة بل وهمة العرضي

اجابت اقول عشقة يا متيلدة لان المراد بما اقول العشق فهمت ان المراد بما اقوله العشق

قلت وهل تجسرين على التلفظ بمثل ذلك الان . . الان ايضًا يا اورزيل

قالت لا احب ولا بشيء من الاشياء ان اجرح عزة نفسك وغاية ما اريده ان اقدم الا خدمة واصلح ولو جزءا من الشر الذي عاملتك بهِ لان الوقت والحمد لله لا يزال يسمح بذا

وكان في لهجة اورزبل نوع من السلطان فسمعت لها باصغاء اما هي فاكملت الحديث وقالت نعم كنت عالمة كيف اهيج من زوجك الحب وفي ذلك ما يحملك على الطعان من جهة حبي لكونتران ولكنة لا يمدك بفائدة تريح الفكر لجهة ماشعر و يشعر به الان من نحوي

فصحت ان هذا لمشين . . ما هذه الوشاية المستقبحة . . العل هذه هي الفاظ الوداع الا تريدين ان تسافري الا بعد ان تجرحي فوادي بعوامل الشك الجارحة

قالت رحمة بك يا متيلدة اسمعي لي باتمام خطابي فمن الممكن ان يحضر زوجي من دقيقة الى اخرى وحضوره يجعل من المستحيل اتمام هذه المحادثة

قلت رحمة بي

قالت نعم نعم رحمة بك اينها الامراة التعيسة . . فاسمعي لي وصدقيني اني مقادة الان بشعائر شريفة لربما اتعزى بها يوماً عن اعمالي الشريرة . . . فاصغي لي اذن . . . لا تفعلي ذلك من اجلك بل من اجل مستقبل ولدك على الاقل

فاخذتني الدهشة لهذه الكلمات لاني لم اعهد بهذا السر لاحد من غير كونتران وصحت ماذا العلك تعرفين . . .

قالت نعم نعم اعرف . . . وهذا الذي اوجب زيادة تبكيت ضميري وحملني على هذا التصرف

و بعد ان ابدت اورزبل التردد لدقيقة اطرقت باعينها الى الارض وعاودت الحديث بصوت خائر فقالت اولست تذكرين جيداً المحادثة الحادة التي حصلت بيننا

فصحت نعم . . . نعم . . . كلي . وكنت وقتئذ بمنتهى التالم والعذاب لاني شعرت كون قلبي منقبضاً بما لا يعلم كنهه من الالهامات المخيفة لدى التفكر باعمال زوجي وكيف اطلع هذه الامراة على سر لا يعلمه احد الا هو وانا

ثم عاودت التكلم فقالت باضطراب متزايد لا اريد بكلامي ان ابرئ نفسي بلومك . . . اني اعترفت لك بقساوة جارحة اثناء محادثتنا بالحسد الذي يشغل فوادي من نحوك الا انك انت ايضاً اظهرت كونك بلا شفقة من نحوي ولمتني على علاقة دنية لا يمكني ان اعترف بها الى الابد ثم اكثرت من رميي بالخيانة والشر وكنت اظنك من اسعد النساء . . . واحلف لك باعظم الايمان اني كنت اجهل وقتئذ ما تحملته من الاوجاع . . ولم اطلع عليها الا في مساء ذلك اليوم وانت تذكرين عندما صرحت السيدة دي ماران بتلك الاخبار المكدرة

قلت تكلمي . . تكلمي . . بربك تكلمي . . . ماذا حصل بعد تلك المحادثة . . . ثم كشفت الخفا بالنتة امامي . . فقلت نعم . . نعم . . اتذكر كونك ذهبت للتنزه الى الحرش

قالت الرحمة . . الرحمة يا متيلدة اني ذهبت للاجتماع بزوجك وكان ينتظرني في منزل الحراسة المهجور تعاهدنا من قبل على الاجتماع بهِ

وكان هذا الاقرار مخيفاً وغير منتظر فبقيت منهُ في بادىء الامر في حالة الدهشة وعدم التصديق

كيف لا والضربة في ذلك الحين موجهة لنحو الامل الاخير الباقي لي بمعنى ان حنو كونتران من نحوي لم يكن الا ظاهرياً كاذباً لاخفاء ميالهِ الشريرة من نحو اورزيل فلم استطع ولم ارد ان اسلم بتلك الحقيقة المرهبة وصحت في حالة الغيبوبة عن الوعي تكذيبن تكذيبن فكونتران قضى ذلك النهار في الصيد وقد جاءني رجل من اتباعهِ واخبرني بذلك

اجابت ان الرجل المذكور تكلم بحسب اوامر سيده

قلت فهل هو كاذب اذن

قالت نعم نعم كاذب . . . فالرحمة الرحمة يا متيلدة . . . لان بغضي لك اضلني فارتكبت الاثم بمحاولة الانتقام منك بسلب زوجك عنك

فصحت لا اصدقك وكلامك هذا كذب عن زوجي والقصد بهِ ان ترميني بطعنة جارحة الفؤاد

قالت لا اخاف ان اعلمك بالحقيقة ولو مهما كانت مشينة لي ومكدرة لك

فرفعت يدي لنحو السماء وصحت اه يا الهي . . اه يا الهي هل سمعتها

اما هي فاكملت حديثها وقالت الرحمة يا ابنة عمي لاني تجردت من عزيمتي عندما علمت اخيراً بمقدار تعاستك وعرفت من كونتران كونك اما ايتها الامرأة المنكودة الحظ وارتجفت خوفاً من جريمتي ايضاً لدى التفكر اني انقدت بتحيل لا للحب بل للحقد الدني وحاسة الانتقام المشينة

فصحت بمنتهى الياس الغريب يا الهي . . يا الهي التي بي الى الجنون . . . الى الجنون او انتشلني من هذه الحيوة فما عدت اريد ولا استطيع ان اتحمل زيادة على هذه الاوجاع

قالت صدقيني اني لم افكر وقتئذ بكلما تستوجبينهُ من الاهتمام والشفقة ويقتضي ان اتشجع الان واخبرك بكل شيء . . اني لم افكر وقتئذ بخلو قلب زوجك من نحوك . . لا . . لا . . . لم افكر مطلقاً ان حبهُ لي يجعلهُ كاذباً موهماً قاس مجرداً عن العدالة الى هذا الحد وا اسفي انك لم تقفي بعد على مقاصده فصحت يا للخوف من تكون يا ترى هذه الامرأة التي باشرت اعمال العار المشينة وجاءت تشكو من زوجي . . من هي . . ومن انا . . وما هذه الحيوة . . افي حلم انا او في يقظة رائعة وانت . . انت أيا كنت ايتها الامرأة . . المنتصبة امامي الشاخصة بي اجيبي . . اين انا وما هي الحقيقة وما هو الكذب هل يمكني ان اصدق ان انواع الحنو التي يعاملني بها كونتران منذ ثمانية ايام هي كمين شرير بل

نظاهر مشين ولكن ما المعنى يا ترى بهذا التظاهر الكاذب اذا كنت عازمة على السفر القريب . ما هذا الوجود المخبط الذي ضل به عقلي وصوابي . . . اني اتكلم بالخلط يا الهي . . اتكلم بالخلط . . فاشفقي عليَّ يا اورنربل واتبريني بالحقيقة . . انظري اولست مهانة وتعيسة وجديرة بالشفقة نها انا على اقدامك يا اورنربل على اقدامك

قالت بربك انهضي يا متيلدة فانا الان اطلب منك الصفح بدوري

قلت صفحت لك . . صفحت لك . . . فقط صرحي لي على الاقل بالحقيقة . . . الحقيقة باجمعها ولو مهما كانت مخيفة لاني ام ولم تعد حياتي تخصني وكثرة الاوجاع تقتل ولدي وقد قلت لك اني لم اعد اريد ان احمل . . لم اعد اريد . . واذا كان كونتران قد غشني بهذه الدناءة فمن الواجب ان اقطع كل امل باعادة استحلابه اليَّ واقرر نصيبي واعيش وحدي وانقطع عن رؤياه وعندما احصل على ولدي يمكني ان اعود الى السعادة فلا تخفي يا اورنربل وصرحي بكل شيء فهمت بكل شيء على الاطلاق ان خلاص حياتي متوقف على هذا التصريح فقولي الحق بربك الحق ولو مهما كان اليماً لان الموت خير من النزع

فاخفت وجهها المبلل بالدموع بين يديها وقالت يا لك من امراة مسكينة تعيسة

قلت نعم تعيسة بل كثيرة التعاسة يا اورنربل ولا يمكن ان تحسديني بعد الان اليس كذلك ان من الخشونة البربرية بعد الذي ظهر ان تداومي مواصلتي بالعدوان ومن المستحيل ان يصاب المرء باشر من هذه البلايا ولا ريب ان هذا هو الذي كنت تريدينه لي من قبل فهل بقيت حاجة في نفسك

قالت اه يا متيلدة لقد جرت كثيراً بالانتقام وعملي مخيف . . مخيف . . ولا يمكني لسوء الحظ ان افعل شيئاً بالنظر الى الماضي ولكنه يمكني ان اوثر كثيراً بالمستقبل فاسمعي لي اذن هاك تحرير كتبه لي كونتران وفي ضمنه جوابي عليه وفي كل يوم كنت اريد ان اسلمه هذا التحرير نعم انه لا يخفض ذنوبي ولكنه يثبت على الاقل املي بالتكفير عنها فاني تظاهرت به بمظاهر مستقبحة ورغماً عن كثرة تاسفاتي الناشئة عن استهانتي بك الى الان لم يمكني الا اتردد عن تسليم مثل هذه التحارير الموجبة لخجلي وعاري الى كونتران . . وها هي التحارير المذكورة

وبعد ذلك دفعت اليَّ غلافاً فاستلمته منها عن غير هدى ثم عادت الى الحديث وقالت لي كلمة ايضاً اريد قولها يا متيلدة كان يمكنني ان اسكت عن هذا التصريح القاسي واسافر الى باريز وادعك هنا بعناية تامة لا تعرفين شيئاً من الحاصل ولكني لم افعل ذلك ولدى تلاوة تحرير زوجك تطلعين على مقاصده الاستقبالية من نحوك وتعلمين كونه يحبني حباً غير مرتب ارتعش خوفاً لدى تامل ستائجه لقد اخبرتك بالاعمال الاثيمة التي اجريتها ضدك اما الان فانظري كيف اومل ان اصلح

اما الان فانظري كيف اومل ان اصلح ولو جزءا مما فات فبهذا التحرير الذي ارسل من كونتران الي تفاجئين زوجك وتضعضعين افكاره فلا يمكنه الا ان يرتمي على اقدامك و يطلب العفو ثم تقطعين منه باظهار جوابي كل امل بمشاهدتي الى الابد ويبقى في وسعك ايضاً ان تنتفي عن الماضي وتكوني على يقين من ضمانة المستقبل فاذا فعلت شيئاً ولو قليلاً يحملك على الغيرة ابعثي بجوابي الى الموسيو سيشرين واذا اردت الانتقام عن الماضي يا متيلدة ارسلي في الحال هذه الكتابة الى زوجي فلا يبقى له من ريب بارتكابي واثمي والذي اعلمه يقيناً ان عناية هذا الرجل بالثقة وطيبة القلب تستحيل الى تجرد عن الشفقة من نحوي اذا تاكد كوني اثيمة بالغش فيطردني من بيته ولا يعود يرضى ابي بمشاهدتي فاتجرد عن وسائط الحيوة واسقط من احلام الثروة والسعة الى الفقر والشقاء وانت لا تعلمين بما يمكن ان يبعثني عليه ذلك الفقر ثم زادت على ذلك بصوت عظيم قولها لا بد من وجود شيء من اعمال التقادير والعناية الالهية فيما حصل الان فما انا من اللواتي يرتبطن بالكتابة ومن المعلوم عندك كوني كثيرة الاحتيال لا اعمل شيئاً يخجني وكان من الممكن ان تبقى جريمتي اذا لم نقل تحت رواصد السر العميق فبلا برهان يؤيدها على الاقل ومع ذلك فقد حررت يدي هذا الجواب المتوقف عليه ضياعي ولم اقف عند هذا الحد بل جئت بارادتي وعهدت به اليك وما من شيء وانت تنظرين يجبرني على هذه المخاطرة بتسليم قيادي لرحمتك الا تبكيت ضميري عن الماضي والقطع بعزمي الثابت لجهة المستقبل وثقتي العمياء بعد التك وان شئت فواحدة من مباينات فطرتي الغريبة التي كلمتك عنها وسخرت بها

فبقيت باهتة اسمع لها والغلاف بين يدي ولم يسعني فهم شيء من هذا الانقلاب والوقاحة الممتزجين بنوع من الكرامة والعظمة

فتسائلت وقتئذ وما زلت اتسائل للان عما اذا كانت اورزيل قد فعلت ذلك عن نية صادقة واهتمام بمصالحي جاء منها بعد الاوان او دبرته بمنتهى دسائس الخيانة الجهنمية وقلت في ذاتي العلها تظاهرت بالقاء نصيبها بين يدي ليمكنها ان تطوح بي الى منتهى الياس وتعلمني بخيانة زوجي او لعلها ارادت باخلاص ان تسلحني للمستقبل بهذه الضمانات ضدها وضد كونتران وبقيت انظر اليها بمنتهى الخوف والدهشة والتحذر واذ سمع فجأة مسير خيل في الدار وكانت غرفة منامتي في الطابق الارضي فهرعت اورزيل الى النافذة وازاحت الستار ونظرت الى الدار ثم قالت لي ببساطة موثرة استجلبت انتباهي اليها بالرغم عني

هذه عربة زوجي يا متيلدة ويمكنك ان تصرحي له بكل شيء وتنتقمي مني عن الشرور التي عاملتك بها

ثم لازمنا مدة السكوت واذا بباب غرفتي قد فتح بغتة وتاخرت اورزيل مرتاعة عدة خطوات

الى الوراء ولم يكن الداخل علينا وقتئذ زوجها كما توهمت بل امة السيدة سيشرين

الفصل الاربعون

القصاص

ولا ريب ان الظروف التي قيدت بها السيدة سيشرين الى المجيء الينا اوجدت فيها قوة اشد من القوات البشرية العادية وكنت الى ذلك الحين قد نظرتها تمشي منحنية بتعب تحت احمال الشيخوخة ولكنها تقدمت وقتئذ الى وسط الغرفة بقدم ثابت طلق لا تخلو من الرشاقة وكانما التجعد قد زال عن جبهتها واشرق بدلاً منهُ نوع من الارتضاء والتهديد والنفوذ الصادع فاتخذ وجهها مظاهر العظمة الهائلة

وقد يخال الناظر اليها انها مكلفة بانفاذ قضاء من الانتقام الالهي ومن اجل ذلك ترفعت لبرهة من الزمان الى درجة سامية تجعلها جديرة بانفاذ تلك المهمة العلوية

وكان يظهر من منهجها الجامع بين السمو والافتخار وتبسماتها الخشنة ونظراتها الناخسة ان الام المجروحة بحبها لولدها بل الام المفتجعة لزوجة اثيمة قادمة بمنتهى الفرح الشديد لاجراء الانتقام المخيف

ولدى مشاهدة هذه الامراة بلون الاصفرار الباهت وثياب سوداء طويلة داخلني الخوف الشديد ونسيت كلما حصل بيني وبين اورزبل وبقيت كابنة عمي خرساء مسحورة امام حماتها

اما السيدة سيشرين فرفعت اعينها نحو السماء وصاحت بصوت مختنق لا تهملني . . . لا تهملني يا الهي بل اعطني القوة لانفاذ ارادتك بتمامها ان الفرح الكثير هو الترح كما ان كثرة الالم في كثرة الالم

وكانها اصيبت وقتئذ بمفاعيل الاضطراب الحاد فانها اسندت يدها المجعدة لدقيقة على سادة مقعد هناك ثم زغرت اورزبل بنظرها وصاحت الم اقل لك ايتها الشقية ان الرب العلي يكشف عن عورة الاشرار ويسحقهم عاجلاً كان او اجلاً

ثم التفتت نحوي وقالت الم اقل لك انك ستقاصين يوماً من هذه الامراة بالسر على الشفقة الاثيمة التي داخلتك من اجلها . . . الم اقل لك ان ولدي سيعود اليَّ واني ساكون وقتئذ تعزيته الوحيدة

وعند هذه الكلمات شبكت يديها على صدرها واحنت راسها بملامح الخشونة والكبر واذا كونتران قد دخل علينا تتبعهُ السيدة دى ماران ورجل اخر لا اعرفهُ وعند دخوله قال هل من الممكن ان اعرف يا سيدتي الاسباب التي شرفتنا بزيارتك ومن هو هذا الرجل الذي ادخلهُ عليَّ واحد من اتباعي وطلب اليَّ من قبلك ان احضر لمواجهتك

قالت السيدة سيشرين ان هذا الرجل هو معاون ولدي الاول وحيث لا يمكني السفر وحدي ارسل يصحبني

ثم وجهت الخطاب لنحو الرجل المذكور وقالت انا سنسافر باميرتين في نحو من ساعة فاخرج من هنا واقفل الباب

فنظر اليَّ كونتران بهيئة المتعجب ثم خرج المعاون وبقينا في الغرفة انا والسيدة دى ماران وزوجي والسيدة سيشرين واورزيل وكان كونتران وعمتي لا يعلمان شيئًا من بداية هذه المقابلة ولكنهما محسبين لوجود حوادث خطيرة وعندما انفرد بنا المقام وجهت السيدة سيشرين الكلام لنحو عمتي وقالت هل انت من العائلة يا سيدتي

فتاملتها السيدة دى ماران مليًا بلا جواب ثم ارتها لي بالنظر كانها تسالني من هي يا ترى هذه الامراة

قلت حضرتها السيدة سيشرين ثم اظهرت لحماة اورزيل عمتي وقلت حضرتها السيدة دى ماران

وكانما السيدة سيشرين تذكرت وقتئذ انواع المدائح التي كان يبالغ ابنها في ايرادها عن عمتي فتقدمت لنحوها وقالت انت ايضًا من زمرتنا يا سيدتي تقاتلين مع الكرماء المستقيمين ضد الاشرار وقد كرر لي ولدي ذلك اكثر من مرة فانت مثلي بسيطة مستقيمة وعدوة لجميع انواع الرياء والخبث والنفاق وحضورك الان ضروري ثم قالت لا باس ان تعدد القضاة لان المرتكبين عديدون ايضًا

اجابت عمتي لم افهم شيئًا يا سيدتي ما تريدين قولهُ بقضاتك ومرتكبيك ولكني استملك هذه الفرصة الحسنة لاعلمك بانك حاصلة على افضل البنين وكلما قالهُ لك الموسيو سيشرين عني من البساطة والسذاجة يدل على سمو ادراكهِ واصابة احكامهِ والامل ان تكون اقوالهُ عنك ايضًا قرينة الصواب وحينئذ لا يبقى علينا الا ان نهني انفسنا بهذه المقابلة

فتاملت السيدة سيشرين باصغاء السيدة دى ماران وبعد سكوت لعدة دقائق تغيرت احوالها ولا يعلم هل ادركت الحقيقة بملكة التعود على الملاحظة او بحكمة فكرية او بالهام قلبها الوالدي او بتبسمات عمتي الهازئة ثم هزت راسها ورفعت اصبع يدها اليمنى تشير بهِ وقالت لا . . لا يمكن ان

تكوني على الاطلاق من زمرتنا لان نظرك شرير وولدي غش بك كما غش بغيرك

فاستلقت السيدة دى ماران على ظهرها ضحكاً وصاحت حقاً لقد اثرت بي يا سيدتي نبواتك كما لو كنت واحدة من المشهورات عند الاقدمين بعلم الغيب

اجابت بعظمة لا علم لي يا سيدتي بهولاء الناس من ارباب المعرفة بالغيب ولكني اعرف فقط عندما اهان بالضحك مني كوني اهنت

وكان زوجي يتامل اورزيل فهالة منها مشهد اصفرارها ووجه الكلام لنحو السيدة سيشرين فقال اكرر السوال للمرة الثانية هل من الممكن ان اعرف يا ترى الاسباب التي شرفتنا برؤياك ان السيدة دى لانكراي بمظاهر مضطربة وكنتك متاثرة كثيراً وقد ارسلت من خلفي تطلبين حضوري في الحال لمقابلتك فماذا حصل يا ترى بربك صرحي

قالت سوف تطلع على الحقيقة يا سيدي . . سوف نقف على كل شيء

وكنت وقتئذ في لجة من العذاب وقد الهمني ضميري ان هذه الامراة حاصلة على براهين ثقيلة تؤيد فحش اورزيل ولكنها كانت لا تعجل في ابرادها كانها تتلذذ بالانتقام وتتشفى بمشهد العذاب المخيف الملم بابنة عمي وكانت في حالة غريبة من ضعف العزيمة وانحلال القوى بالرغم عن جسارتها وثباتها العاديين

واعترف الان انه لم يسعني وقتئذ مع وجود الاسباب الموجبة لاثارة البغض في صدري ضدها ان انغلب على شعائر الشفقة المتحركة في فوادي من نحوها عندما فكرت بافتضاحها وضياعها في ساعة رجوعها عن غيها بتبكيت الضمير وان لربما كان يبعثها ذلك على التخلق بالمستقبل بالاخلاق الكريمة

ثم اخرجت السيدة سيشرين من جيبها بتمهل غلافاً اشبه بالغلاف الذي دفعته اليّ ابنة عمي من قبل هنيهة

وللحال تبادر الى ذهني بسهولة هذه الملاحظة وهي ان الغلافين المذكورين اي الذي دفعته لي اورزيل والذي اخرجته السيدة سيشرين من جيبها من جنس واحد بل من اغلفة التحارير الموجودة في غرفة اورزيل وكان الورق المذكور ازرق اللون و بعد ما اظهرت السيدة سيشرين ذلك الغلاف الى اورزيل قالت بصوت صريح هل تعرفين هذا التحرير ثم رفعت اصبع يدها اليمنى لنحو السماء بمظاهر الشرف والعبادة وقالت انظري اليست يد الرب هنالك . . ان البرهان لاثبات جريمتك الاولى كان تحريراً جردتني منه بجسارة عظيمة . . والبرهان الثاني لاثبات جريمتك الثانية تحرير ايضاً ولكنك انت التي ارسلته في هذه المرة بيدك الى ولدي لان الرب رماك للانتقام منك بالتضعضع والطيش

فلم تجب اورنزيل بكلمة وصبغ لونها بالاصفرار كالموتى ونقدمت لنحوي وجردتني من الغلاف الذي اعطتنيهِ وكان لا يزال في يدي ثم فضت ختمهُ وفتحتهُ و بعد ان القت نظرها عليهِ بسرعة تخلت عنهُ بوجل فسقط من يدها الى الارض واحنت راسها على صدرها مثقلة بالاحزان العميقة وسر الامر ان تلك الامرأة التعيسة كانت قد اخطت في كتابة العنوان فارسلت لزوجها تحرير كونتران وجوابها عليهِ ودفعت اليَّ التحرير الذي كتبتهُ لزوجها الموسيو سيشرين

ثم عاودت السيدة سيشرين التكلم فقالت الم اقل لك ان يد الرب هنالك . . . . اراد ان يكشف عنك الستر اينها الغشاشة المحتالة باضلالك فوضعت على غلاف التحرير اسمًا بدلاً من اسم اخر وكان من هذا الخطا البسيط ان علم ابني بحقيقتك فانهُ تاكد برأي العين باني كنت ملهمة في روفري من الرب عندما قلت لهُ ان امراتك اثيمة فاطردها وان لم توجد البراهين على خيانتها . . . الم اظن وقتئذ كمجنونة لاني طلبت من ولدي بدون سبب كاف ان يتخلى عما يحسبهُ خسارة عظمى . . على ان الرب اهتم بتبرئتي واثبت جليًا كون الهامات الام معصومة عن الغلط

وكان في هذا الايضاح نوع غريب من المصائب المتسلسلة فبقينا جميعًا لبرهة ماخوذين بالدهشة والجمود ثم تكلمت اخيرًا السيدة دي ماران فقالت لحماة اورنزيل بصوت مستهجن بربك الذي تعرفين جميع اسرار الطيفية اشرحي لنا يا عزيزتي سر هذا الخطا في كتابة العناوين . . اكرمي علينا بالتعليلات العقلية وقولي ما المعنى بذلك

فشخصت السيدة سيشرين بالسيدة دي ماران واجابت بقساوة ان الشيخوخة الضالة الشريرة تكون على الدوام مثالاً رديًا للاخرين . . فالان وقد علمت يقينًا كونك ربيت هاتين الامرأتين لا اتعجب من فحش هذه الشقية (واشارت الى اورنزيل) ولكني اتعجب كثيرًا من فضائل ابنة عمها (واشارت اليَّ)

فاستغرقت السيدة دي ماران بالضحك وصاحت ماذا . . ماذا . . كل ذلك من اجل انك الامراة المنقطعة للعناية . حقًا ليس هذا بالسبب الكافي لان تكوني مجردة عن الشفقة من نحو العالم الحقير . . . فما هذا الذي تقولينهُ اذن هل من الممكن ان الومك يا ترى لما انك ربيت ابنك تربية مضحكة تجعلهُ مستحقًا لما ينزل بهِ . . . صرحي . . . هل من الممكن ان تكوني مسئولة عن عدم موافقة زواجه

قال كونتران للسيدة سيشرين بربك يا سيدتي دعينا من هذه المشاحنات ان من الامور التي لا يمكن تصديقها كوني لا استطيع معرفة ما تريدين

قالت اريد يا سيدي ان تقرأ امراتك هذا التحرير الذي بعثتهُ لكنني ثم سلمتني التحرير المذكور وقالت اريد ان تقرأ يا كونتران ايضًا جواب هذه الامرأة على تحريرك فقد قضى الرب ان

تكون هذه الاثيمة مبغوضة ممن شاركها بالاثم ومن الرجل الذي سفهت عليهِ بدناءة ثم دفعت الى كونتران ذلك التحرير وقالت اريد ان اقرأ لهذه الفاسقة بدوري التحرير المرسل اليها من ولدي وهنا شبكت ذراعيها على صدرها بمظاهر غير متأثرة وجعلت تنظر الينا بسكوت

وكان زوجي قد اصيب بدمار القوى لانه علم اخيرًا بمركز اورزبيل المرهب وبما يتاتى لي من المكاره الشديدة عن هذا الاكتشاف غير المنتظر وكان معلومًا من مظاهر اورزبيل كونها في غيبوبة تامة لاترى ولا تسمع شيئًا واتخذ ذلك المشهد هيأة خطيرة فنسيت السيدة دي ماران لدقيقة من الزمان ضروب الهزء الشريرة وظهر كونها مسامِلة باصغاء جدي

اما انا فارغد في نوع من التهيج وحصلت وقتئذ لبرهة على قوة غير عادية ولكني شعرت بعدم الاستطاعة على المقاومة طويلاً وانه لربما افقد كل حاسة قبل ان يتضح ذلك السر المشوم بجلاء صريح

وبينا كانت اورزبيل مخدرة بتاملاتها الى الدرك الاسفل والموسيو كونتران منهمكًا بمطالعة جوابها الذي توهمت كونها سلمته لي جعلت اقرأ تحرير زوجي الذي استوجب من اورزبيل ذلك الجواب

الفصل الحادي والاربعون

من الموسيو دي لانكراي الى اورزبيل

لا . . لا يا اورزبيل . . لا يمكني ان اخضع لاوامرك . ان تصرفاتك لا يمكن شرحها والذي اشعر بهِ من بعد السعادة غير المنتظرة التي اسبغتها عليّ كثير الغرابة فمن المقتضي ان احرر لك ما دام متعذرًا عليّ مكالمتك بل ما دمت تهربين بحكمة من جميع الفرص النادرة التي تمكني من الانفراد بك قبل سفرك . . . لا اعلم امستيقظ انا او في حلم . . ولربما تساعدينني على ايضاح هذا السر

ان امتلاك الرجل لامرأة محبوبة تعشق حار يجعله على الدوام سعيدًا ومفتخرًا . . ولكني مع ذلك سقطت في غد ذلك اليوم المقتضي ان يكون من احسن ايام حياتي في لجة من الاحزان العبوسة وما ولدت هذه الا تصرفاتك المبهمة . . . واكرر لك القول يا اورزبيل بان جميع الحوادث والاسرار المتسلطة عليّ في الحال غريبة وتخيفني . . اني اشعر فضلاً عن الهياج الخشن العميق الذي

تتعذب به نفسي بان الحادثة العظمى المقدرة لحياتي لا تلبث . . لا تلبث . . ان ثم . . . ان حبي لك سرمدي مشوم . . لانة بلا حد وبلا نهاية . . . سرمدي مشوم لاني احبك اكثر مما تحبينني بنحو من الف مرة فانت الامراة الاولى التي سادت عليَّ وعندما اكون بجانبك احس من نفسي بانحطاطي عنك انحطاطًا اتم وقد قلت لي انك تريدين اما سيدًا واما عبدًا فخذيني عبدًا . . . بل عبدًا اعمى متصبرًا خضوعًا

يا الخجل الكثير ان اصرح بهذا الحديث ولكنني مع ذلك صرحت به باملٍ ان يجردك هذا النوع من الكفران بالذات من سلاح الازدراء الذي تتبعتني به بلا شفقة الى وسط تلك السعادة المسكرة التي ماتت في مهدها ولم يشرق عليها الصباح . . . نعم ترآى لي من ذلك الحين اني كنت لك وانك بعيدة عن ان تكوني لي لاني لم ارَ في اعينك وقتئذ شيئًا من الحب واللذة او تبكيت الضمير بل ظهر منها ملامح الغوش والتسلط الطافحين بالحقد والوقاحة وانواع التهكم القاسية ولو كنت يا اورزيل ممن يعتقدون بالشياطين والارواح الشريرة على ما يقولون لما امكنني الا اشبه نظرك هذا المحتقر المتعظم بنظرهم عندما يرمقون مسكينًا ساقطًا الى الابد تحت سلطانهم بقوة وساوسهم ومظاهرهم الغرارة الجهنمية

الك ستجدين في هذه المشابهة كثيرًا من الجنون والتطرف ولربما تضحكين منها ايتها الساحرة المجردة عن الشفقة وتظنين كوني امزح ولكن هذه المشابهة والحق يقال جدية تصرح بمنتهى ما يمكن التصريح به عن تاثير حقيقي لا يمكن وصفه . . . فمذ ذلك اليوم يا اورزيل لم تعد نفسي تخصني بل اصبحت لك . . ملاكًا كنت او شيطانًا . . فما الذي تفعلينه بها

ان ذلك لمن ضروب الحماقة التي لا تعقل ولكنه يترآى لي ان قلبي لم يعد يخفق في صدري بل في صدرك انت . . . ويظهر لي بمزيد الرعشة والخوف اني لم اعرف الحب في حياتي الى الان . . . لا تتخذي حديثي من قبيل الابهام الكاذب يا اورزيل فلو كان مرادي ان احدثك بالخزعبلات لما تكلمت بهذه اللهجة المرة الحزينة المكدرة المستهجنة التي لا تومل بشيء من النفع بالنظر اليك ولا تفيدك شيئًا من غير الذي تعرفينه لانك على اعتقاد من سعة اقتدارك وقوة سلطانك عليَّ لا . . لا . . . لم اعرف الحب في حياتي الى الان لاني ايقنت على الدوام وما زلت اوقن بان الرجل الذي يأسر فواده بجمرة الحب الحقيقي يقتضي ان يشعر بتاثيرات شبيهة بتاثيرات النساء بنتهى ما يعهد فيهن من شعائر الرقة والخوف والخضوع والتحذر . . . فهذه هي التاثيرات التي اشعر بها الان من نحوك يا اورزيل ولا اذكر ان قلبي تاثر يومًا بمثلها ولا ريب ان طعلا صغيرًا لا يعترف لك بكل ذلك اني عالم بما يوليك على هذا التصريح من الرحمان العظيم ولكن ما الفائدة من المتاعب او ما الذي استفدته يا ترى من مفاهرة حبي منذ ظهورك لي بهيئة جديدة في تلك الحادثة الطويلة اي

سمعتها امراتي فلما تبدل ميلي اليك بسرعة منذ ذلك اليوم الذي سخرت بهِ مني بلا شفقة الى حب جنوني

لما يا ترى لم يسلب فؤادي بصفاتك الحسنة بل سلب بجسارة ووقاحة ماديك وتهكمات افكارك القادحة وتلك الفصاحة المتحرقة بالوجد التي صورت بها بمنتهى اللذة حالة التضعضع التي تلم بك لدى التقرب من الرجل المحبوب . . نعم ان هذا الفكر مخيف ولكني احب ان اصرح لك بكل شيء . . . هل تعلمين لماذا اتى لي عن انقيادك اليَّ بالحب في ذلك اليوم ان صرت تعيسًا قلقًا حزينًا ولم احصل على السلطان الذي يتقرر للرجل على الدوام بمثل هذا الانقياد . . . هل تعلمين اخيرًا لماذا امادي على الدوام الى لك وانت بعيدة عن ان تكوني لي لانك بحسبما تراءى لي — وا اسفي يرتجف قلبي بالخوف عندما احاول ان اصدق او اكتب ذلك — لم تنقادي وقتئذ لسكرة الحب ولا لجواذب الاحساس . . ولالي بل لنوع من النفوذ الخفي غريب عني

لا اظنك تعلمين ابدًا بمقدار ما اخلقته لي من التاسفات المخيفة والرغائب المحرقة والامال الجنونية الزاهرة . . لا . . لا . . لا تعلمين ابدًا ما هذا ان يقول الانسان في ذاته ان هذه الامراة التي تبعث الناس على منتهى ما يطير اليهِ التصور من تحرقات الوجد قد امتلكتها ولم امتلكها ولي عليها جميع الحقوق وما من حق لي عليها وفي احد الايام سلمت ذاتها اليَّ بقلب خال واحتقار كثير تالمت منها بالاهانة والتمرمر . . . فمن كنت يا ترى ومن انا الان بالنظر اليك . أ العوبة . . . . ثم اذا كنت لا تحبينني فلما كل هذه التعطفات . . . هل المراد ان تنبئي لي كوني حقيرًا في اعينك وانهُ يمكنك بلا قصاص ان تمنحيني كل شيء ثم تنسي بالغد ما منحتني اليوم ولا يصبغ وجهك بحمرة الحياء امامي لا . . لا . . ولا واحدة من امبراطورات الرومان لم تظهر في حالة احتقاراتها الساحقة بجسارة اكثر من هذه الجسارة ان العبد ليس برجل

فمنذ ذلك اليوم وانا احاول ان اقرأ على وجهك ولو بعض تذكرات حنونة ولكن وجهك كان لا يصرح بشيء من غير الترفع با لفخر وعدم الاكتراث ولا اعلم هل كان ذلك عن تمويه او رياء او تصنع او قلة احساس او حكمة . . . فلما تعامليني هكذا . . . افلست محبك او لم اعد ذلك المحب . . . . او اردت بخفة جهنمية غريبة ان لا تخفي عني شيئًا لكيما احزن واسف على كل شيء بتهيج اشد . . لا . . لا . . يا اورزيل لا يمكن ان يكون ذلك ويقيني في هذا المعنى بحبي الجنوني لا بنفسي فستشعرين من نحوي بتلك الاضطرابات المسكرة التي تكلمت عنها بتحرق . . . . سمعت يا اورزيل . . . سابعثك على التحرق بمنتهى تطرفات العشق فآه ما احلاك وقتئذ اني لمجرد هذا الامل وحده يفور دمي في عروقي وافارق صوابي . . وكل شيء رخيص وجائز لديَّ يا اورزيل الحصول على حبك الاخلاص والضحايا والعار ولو اني حاصل على الجسارة لقلت الجناية ايضًا واذا

. . . يا للمرق عند ما افكر ان تلوفك المتوش الخليع يقود الحب الى حتفه الشرعي من الطهر ولن
يكرك الفاحش الجسور بسكر و بسود و يتمادى الى الابد

اه لو كنت تحبين . . لما كان مثلك في الوجود معشوقة مسكرة . ان ما يلقي بالجنون الى
يفكر المرء بانك انت الجامحة الساخرة الخائنة تحتقرين بفضل الحب الى امرأة خضوعة حنونة
مخلصة مزينة بذلك الظرف المعبود الذي لا يوجد الا بك وليس كثير من النساء اللواتي يبعثن
على مقابلة ذلك الخضوع والحنو والاخلاص اذا لم نقل بالبغض فبالاحتقار وعدم الاكتراث
وسبب ذلك انهن حاصلات بفطرهن الضعيفة السقيمة على هذه الصفات السلبية .

ثم ما الذي يهمني يا ترى ان تكون الشاة وديعة خائفة واي فضل لها بذلك ولكن اذا جاء
النمر خاضعاً متودداً وربض عند اقدامي فحينئذٍ . . حينئذٍ تدخلني السعادة الكبرى والنوز
الذي لا يمثل فيا اورزيل . . يا اورزيل اني اشعر من هنا . . من دقات قلبي الخافق بشدة
واضطراب انك ستحبينني كما اريد ان احب منك . . وانه يمكنني ان اجبرك على ذلك . . ان
الحب المتطرف يتسلط على المرء بقوة الاخلاص وسيتسلط عليك ايضاً لا تتخذي كلامي من قبيل
التخيلات المضحكة العمياء . . اني استخرجت هذا اليقين من اعماق قلبي

. وقد اوسل واتصور في بعض الاحيان ان اعراضك المصنع تظاهر لادخال الحيلة على امرأتي
والغاية منه ان يقوى فيها الاعتقاد بعودي اليها بالمودة التي تظاهرت بها كذباً من نحوها . . .
ولكن لا . . لا . . اذ لو كان ذلك لكرمت عليّ بكلمتين وكشفنا لبعضنا عن الضمائر ولو بالاشارة
على حين ان الامر بالعكس ومنذ ذلك اليوم الجامع بين القساوة واللطف وانت مهتمة بمجانبة
الفرص النادرة التي تمكنا من المحادثة وحدنا . ومن يعلم . . فلربما لا اتمكن ايضاً من ايصال
هذا التحرير اليك

يا لك من امرأة غريبة الاطوار اذا حدثتك باسلوب عن حبنا لا يكون جوابك الا التهكم
والاغرب ان امرأتي تبغضك وتخافك وانت تعلمين ذلك ومع هذا فمنذ ذلك اليوم الذي سلمت
لي فيه بما يغضبها وانت تنظرين اليها باهتمام مؤثر . . ألعل منشأ ذلك تبكيت الضمير . . لا . .
لا لعمري . . فمثلك لا يبكتها ضميرها . . وعلامَ تبكيت الضمير يا ترى وهنوتك لا تعد بهفوة ثم
ألا يقال من جهة ثانية ان غايتك الوحيدة الان انما هي ان أأسف على حالة مثيلة واتعشقها

ولدى مشاهدتك على هذه الحال غير مبالية بحبي تظاهرت بمنتهى العناية والحنو من نحو
متيلة لغرضين اثنين اولهما ان احول شكوك امرأتي المسكينة عن معرفة الحقيقة وثانيهما ان انبه
منك شعائر الغيرة على انك بدلاً من ان تلاقي وتجري لهذه المعاملة تظاهرت بالارتضاء المجرد عن
كل حسد . . يضيع لدى التفكر بمثل ذلك صوابي . . فمن تكونين اذن وما الذي تريدينه لي

من الاملاك يا الجارس بانهت او شيئًا الذي لا تضطر فهو خطوتي لاحملك ويتراءى لي الى ان يسير كيف ملك على حياتي منتهى النفوذ المشوم . لا . . لا . . العفو يا اوريزل لاني انكلم بلا وعي . حسبك يا تكفري من هذا التجريد قالبي واحرق من اي فكك التنهد المتعفيات الملولة وتكن خاطبتهن بكل شيء .

وقد تحدثين من سلفكار في هذه المتروضة على حالة الاضطرابه الشديد المصاحب برأسي فافكاري مختلفة متضاربة كالبحر المتلاطم بالامواج وغرض من الف خيال يلوح لتصوري لان فكري وقلبي معذبين بالارتياب ولا اعلم من انت بالنظر الى فهذه الحالة هي الفك عنيفة وانها دامت زمنًا ايضًا ولم تمارعي لسكون هواجسي بالطامنة فلا تبقى لي قوة ولا ارادة لمواصلة التظاهر فهو يلزمني بالتظاهر به لمقاومة شكوكك متيلة ومنع ضياعك بالافتضاح لكن هذا التضعضع المستولي علي بكل هذه الافكار المختلفة يظهر لامراتي لحسن الحظ كنوع من احلام الحب وانها في موضوع تلك الاحلام . . لا تقرايام الا ويتضح كل شيء

انت لا تعرفيني يا اوريزل ولا تعرفين حالة تصلبي والعناد الذي لا يقهر لبلوغ ارادتي فانا نفسي كنت اجهل ذلك ايضًا قبل ان اشعر بقوة الارادة التي بعثتني عليها فما كنت لاكف عن الامل بالحصول على حبك الا بعد المخاطرة باجراء كلما يمكن الانسان اجراؤه بل لا . . لا . . لا يمكني ابدًا ان اصادق بوجوب الانقطاع عن هذا الامل . . وصوت سري ينذرني بالفوز

هذه هي مقاصدي افصلها لك تفصيلاً فلا تحاولي مقاومتها ولا تطمعي بتغيير شيء منها ففي بضعة ايام ستسافرين الى باريس وقد تحججت بالاشاعات المكدرة التي جاءتنا باخبارها السيئة ديهمارات واقنعت امراتي بوجوب الاقامة في هذا القصر مدة الشتاء بامل ان اوافيك الى باريس بعد ذهابك بنحو من خمسة عشر يومًا وسابتدع لسفري اسبابًا جديدة كافية لان تقنع امراتي بلزوم السفر وعندما اصير عندك لا اعدم اسبابًا كثيرة لاطالة اقامتي ثم وحالة امراتي تمنعها من المجيء الى اللاجتماع بي ثم اذا حاولت ذلك تذهب اتعابها ورغائبها بالباطل لاني ابدًا لم اشعر في حياتي كونيمي المعاملة مجردًا عن الشفقة من مثل الان فساكون قاسيًا من نحو كل شيء . من غير حبي لك ثم اعلمي انه لم يحملني على التظاهر لمتيلدة بخلاف احساساتي من نحوها الا الخوف من ان تضل بها الغيرة وتسعى لضياعك لدى زوجك

ثم هاك يا اوريزل ملاحظة اخرى تؤيد مقالي لك فان الحب المخلص العميق يبعث المرء على منتهى الرقة والاحساس وقد استعملت الكذب الكثير الى هذا اليوم بالملاطفة بدون ان اشعر بشيء من الاسف او الكدر ولكني احلف لك باعظم الايمان ان من الامور المستقبحة لدي الان كثيرًا لمن اخاطب امراتي بحنو لا ينطق به قلبي ويتراءى لي كأن ذلك تحديني لاخلاصي في حبك ويجب ان تكون متيلدة بمنتهى الغباوة حتى لا تعلم كم يكلفني ويغيظني هذا الدور الذي امثله

لها ولكن نهاية قريبة فسأوافيك الى باريس وحالة القرابة فيما بيننا تمكني من مشاهدتك في كل يوم بدون ان تنبه من زوجك الشكوك وحينئذٍ يا اورزيل يخلولنا الجو ولا يعود علينا من رقيب يضايقنا فانصرف من نحوك مما يخولني الحصول على حبك ولا بد من الحصول على ذلك الحب . . اطلبي مني جميع الضحايا المستحيلة والممكنة فاخضع صاغرًا بسعادة لارادتك وقد لا يكلفني ذلك شيئًا ولا آسف على شيء لان كل شيء من دونك عدم لدي . من المخيف ان يتلفظ المرء بهذه الكلمات ولكنها حتى وعقلي وارادتي لا يستطيعان امتناعًا فانت . انت يا اورزيل جائمًا انتحيها من احد غيرك . . بربك صرحي هل تريدين ان يقطع كل ما علاقتنا الواهنة وتذهبين سوية لاختفائنا حينًا في بلاد بعيدة بربك يا اورزيل لا تدعي للشفقة سبيلاً للتغلب عليك فسواء لدي امرأتي اصيبت بالشقاء او السعادة لان نصيبها لا يتغير فهي جامعة لكثير من الصفات الحسنى والكمال ولكني اشعر ان كل حاسة من نحوها قد انحدت من فؤادي الى الابد واست . . ليت الان الموضوع الوحيد لاحلام قلبي وروحي واحساسي وحياتي فاحكي هل يسع متيلدة ان تنازعك في المنزلة اذا احببتني او ان تعزيني عنك اذا لم تحبيني

فانت انت على الاطلاق است . . لا اميل الى الشك في هذا الموضوع ولا اريد الميل اليه لاني لا اريد ان انظر الى الهاوية العميقة التي ستفتح امامي اذا . . . لكن لا محيري فابت تحبيني ومن الواجب ان تحبيني لان الصدفة لم تدفع نفسي عن عشيتك لم اعد اوجد الا يك ولك وقد كنت لي ويجب من الان وصاعدًا ولو مهما قلت وفعلت ان تكوني لي واكون لك الى الابد ولا اقف امام اية واسطة كانت . . . فهمت . . . امام اية واسطة كانت للوصول الى هذه الغاية وسيحصل ذلك لان الاقدار تريده استودعك الله ايها الملاك او الشيطان اني سافاسمك جحيمك او نعيمك (ك)

. . . .

وساعود فيما بعد الى التكلم عن التاثيرات العميقة التي المت بي في تلاوة هذا التحرير .

وبينما كنت مستغرقة بقراءته كان كوتتران مهتمًا بمطالعة هذا الجواب المحرر له من اورزيل التي ظننت كونها سلمته لي عند نهاية محادثتي معها

الفصل الثاني والاربعون

من اورزيل الى كونتران

اقل صفاتي اني كريهة . . . فهذا تحريرك تفكهت به وقتاً ثم اعيده اليك وبما تسر ملاحظة كونه طافحاً بالتحذر والحماقة والعماية والتنور والاخلاص وحب الذات والحنو والقساوة وينقصه مع كل ذلك العظمة والظرف ولربما ينقصه العقل ايضاً (وان كنت حاصلاً على تلك الاشياء) ولكنه من استرسال الطبيعة واقول قولاً عن سذاجة زائدة انك اقنعتني فقد آمنت اذن بحبك . . نعم امنت انك تحب المرة الاولى من حياتك وانك ستفعل كل شيء في العالم لتكون محبوباً مني وانك اهل لان تقدم على اعظم التجارب المجردة عن التعقل واشر الاعمال المحلولكة بالسواد للوصول الى هذه الغاية بل اعتقدت اخيراً كونك مجملاً بالاخلاص الحقيقي من نحوي فتكاد تخفى معرفتك عن اعيني يا ابن عمي

قد امنت ايضاً ان لي نفوذاً في قلبك بدون ان احاول الادعاء باني اهلة لما اكرمتني به من الصفات الشيطانية عندما كنت تعجب من نفوذي عليك كبراً وتغطرساً كانك ترى من الواجب ان يستعين المرء بالعلوم الباطنة ليكون مستحقاً للنفوذ عليك والاستيلاء على افكارك وسيكون نفوذي عليك مشوماً اذا اردت لانه متوقف على اعمالك

ثم امنت مثلك بان نقائصي ومعائبي الدنية هي التي لعبت براسك وذهبت بعقلك وصوابك

انك لم تبعثني على التخلق بالفضائل على فرض كوني مجردة عنها ولا على الرغبة في اظهارها على فرض كوني حاصلة عليها فان لؤلؤة العفة غائصة في اعماق النفس كما يغوص اللؤلؤ في اعماق البحر وهذه الكنوز لا ينالها الذين يكتفون بالعوم على سطوح الامواج المتلاعبة بهم ثم يوجد بين هذه الاعماق ما يكون فرداً خفياً لا تنفذ اليه الاعين الكليلة . نحن متفقون يا عزيزي على اشياء كثيرة ولكنا مختلفون على المادة المهمة فانت تعتقد بثبات انك بقوة حبك لي تجبرني على محبتك اما انا فاعلن لك بثبات لا يقل عن ثباتك اني لا احبك ابداً وان لجاجتك في الحب تنتهي اخيراً بحملي على بغضك لان الحب الذي يدعى اليه هو على الدوام معاكس للحب الذي يشعر به وانت تعرف هذه الاوليات يا حضرة الدون جوان (ابن شارلكان كان من اعظم قواد عصره مشهوراً بالجمال والزهو)

لو ميزك الحب بذكاء اسمى من ذكاء اولاد المدارس لوجدت خلاصة الحقيقة الصادقة في هذه الفقرة من تحريرك وهي كسهم اراشة افتخارك الباطل المهان اما الفقرة فهي

لا . لا . ولا واحدة من امبراطورات الرومان لم تظهر في حالة احتقاراتها الماحقة بجسارة اكثر من هذه الجسارة ان العبد ليس برجل

اني افرزت هذه الكلمات لانها مستحقة لذلك ولانك اصبت بها الحقيقة في هذه المرة وهي تفيد بعبارة اخرى — ان الانتقام ليس بحب — فهل فهمت المراد بهذا اللغز وادركت اسباب تصرفي الغريب لا لعمري فانت الان بعيد عن الادراك وقد تكلمت بمعانٍ سامية واني اومل ان يعجبك هذا الاقرار على النفور مني ولسوء الحظ قد فات الوقت المناسب لان التظاهر لك بمظاهر الوقار المحترمة ولو تظاهرت من قبل بذلك لامكني ان اطفىء بهذا التظاهر جمرة حبك الاعمى فنفذ ذهلي باذن الى ما وان بل منذ تفكري بالانتفاع بطلب متيلدة اليّ ان اتخذ في بيتكم منزلاً كان قصدي المقرر ان اجعلك عاشقاً مجنوناً بحبي فهمت . . عاشقاً مجنوناً وان استخدم حبك . . وسوف تعلم لماذا . .

اني كنت حاصلة على كلما يلزم لاستمالتك وكنت لا احبك واشعر بكوني مترفعة عنك كثيراً وزد على ذلك اني تصورت بان الواسطة الاكيدة لاشعال الحب في قلب رجل اضعف الفوز احساسه انما هي ان يحقر به وان يشعر بذلك جمر كبريائه وان يجري اقناعه اخيراً بان القلب الخلي منه العامل على ازدرائه يلزم ان لا يكون كذلك من جهة غيره

وقد تأتى لي من هذه الاساليب التي دبرتها بمكر ودهاء ان احرزت منها الفوز الذي كنت اومل به ففي روفري خاطبتني في صباح وصولك بالفاظ الحب الفجائية فاجبت عليها بما اقتضته مقاصدي ثم جددت لي هنا التكلم بحنو عن ذلك الحب فاجبتك واثبت لك انك لا تشغل مقدار ذرة من افكاري فكادك ذلك وتأججت بك نار الحب بالكيد وفي بضعة ايام ضاعفت هيامك لا لاني قاسمتك ذلك الهيام بل لاني تحقرت بك وتظاهرت لك بمظاهر غريبة ومبادئ تترفع عنها الفطرة السليمة وافكار جسورة تشمئز بها النفوس السامية

ولا يمكني ان اصدق بمقدار هذا النجاح الذي احرزته على قلبك بمثل هذه الوسائل الضعيفة ولو ظهرت لتصوراتي من قبل بمنزلة سامية لما امكن الا ان تنحط الان عن تلك المنزلة بسهولة نجاحي عليك

لا تغفل يا حضرة الدون جوان عن ان النساء اللواتي يكنّ من فطرتي يعظم حبهنّ بمقدار ما يصادفنَ من الصعوبة في استمالة محبوبهن فهن يحتقرنَ الفوز السهل ويسرهن العراك وتلذهن الموانع ويحرقنَ للمستحيل وعلى كلٍ فانتفع بهذه النصيحة اذا ما صادفت يوماً واحدة من امثالي فان

المواسطة الوحيدة لاستمالتها انما تكون بالابتعاد عنها

لا يمكن يا ابن عمي العزيز ان تحصل على استحساني لان اوجه المشابهة في الطباع قريبة فيما بيننا ومن اللازم ان يخضع كلانا لناموس التجذب والدفع المتعاكسين ولا يتيسر لك النجاح الا بالسير في هذا الطريق القويم جريًا على قول الموسيو بسبون ولك مثال على ذلك من مجانة فهي لربما لا تحبك الا لانها مجهلة بطهر يعادل ضعفك لما اذا تقدمت الي بالحب وانا متفننة حالك بعلم هذه المبادىء فقد تخيب آمالك وتخسر اوجه الفضيلة واحتقر منك

ان هذه الطلائع لا يمكن ان ينظر اليها الا مع الضحك ولهذا فاني لا افكر بحبك الجدي الا وانهال فاحذر لنفسك ان المحيل الذي يخشى يكون غدًا اشد جنونًا وحماقة من الرجل الكريم فالان وقد تقرر معنا ذلك يا ابن عمي العزيز فلنرجع الى التكلم في موضوع تحبيك ففي احد الايام شعرت بحسب قولك فجأة وبلا سبب (ولربما خيل لك ذلك) بكونك لي واني بعيدة عن ان اكون لك ومنذ ذلك الحين كنت تراني جافية محتقرة غير متذكرة بالماضي كما لو لم يكن فجبت لهذا الانقلاب السريع وبدأت تتكلم بالشيطان والتقادير المشؤومة ثم سالتني عما اذا كنت احبك او عما اذا كان لي من نحوك ميل . . لا . . لا ابدًا . . نعم انت جميل ولكني لسوء الحظ بذوقي فاسد وستقول متسائلاً كيف لا تشعرين من نحوي لا بوجد ولا بحب ولا بانعطاف . . لا . . لان هذا لا يمكن ابدًا

قد برح عن بالك يا ابن عمي ان شهوات النفس على انواع متعددة وان الحب ليس باشدها اولًا ألا تعلم بان امراة مثلي تجسر من اجل شفاء انتقامها وحقدها على ما لا تجسر عليه لو كانت مشتعلة الفؤاد بنار الحب المحرق او تختلج بها على الاقل عواطف الميل ففي هذه الحالة الاخيرة تنقاد صاغرة لالهامات دلالها علمًا منها ان الفوز ولو مهما كان قليلاً يغني الميل العرضي وبالعكس اذا اصيبت بحرق فانها لا تعود تعقل والحب ملء الحب الحقيقي العميق يبعثها على منتهى الرقة والاحساس واذا كبت وقتئذٍ تكوي بنوع من الذهول التي الطاهر لانها في حالة انجذابها الاعمى لا تدري بجانبها الا عقيب ارتكابها فيتاتى لها عن ذلك تبكيت الضمير والخجل واللذة الحارة المرة ثم تتحول شعائرها اخيرًا الى نوع الشعائر التي تتجمل بها اشرف النساء لان الحب الخالص يرفع غالبًا القلوب المتناهية في الخسران الى مقام القلوب المتناهية في الطهر والنقاوة

ثم سالتني ايضًا ما هو السر الخفي ومن اين اتت بالنظر اليّ فاسمع اذن

اني من حينما امكني ان احيط علمًا بتاثيراتي واميز بين الخير والشر ابغضت امراتك . . ابغضتها لاني منذ وجودي في قيد الحياة وانا اضحي في كل يوم وساعة من اجلها واجزر بسيف مزاياها

المنازة فابدًا . . ابدًا لم يبلغ الحسد والغيرة في العالم هذا المبلغ من التهيج فاردت ان اهجرها ولكيما اكون على يقين من حصول ذلك الهجر صوبت سهمي نحو اعز عزيز عندها واعتمدت ان انتشلك عنها لا لانك الحبيبي (لانك لم تحبيني مطلقًا) بل لانها تحبك بتعبد وبعد المحادثة التي سمعتها متيلدة خفية عني بايام اجتمعت بها فاوسعتني توبيخًا مرًا وتهددتني بالاحتقار وبحق لي ان اقول لم الان بالاحتقار العادل وهيجت مني منتهى الشعائر الردية ثم دعوتني لانفرد بك فاسرعت بجريًا نحو السياسة التي اقرر بها انتقامي وسلطاني عليك لانك وقتئذ . . لا . لا . لا يمكن ان تعلم ابدًا اي مقصد شرير دبرته لك . . لا يبعد ان تحبني كثيرًا ولكني اريد ان اتخلص منك

قد تذكر الان ان السيدة دي ماران حصلت في مساء ذلك اليوم الذي ماتت فيه السعادة في مهدها ولم يشرق عليها الصباح بحسب قولك على تحارير من باريس وانها اخبرتك امامي بجميع الوشايات المشينة الذائعة عن متيلدة فبالرغم عن مبالغات هذه الامراة الشريرة فهمت حالاً بان سمعة متيلدة تلطخت امام الناس باوساخ العار وهكذا اعلمتني الصدف بان تلك الامراة التي نغصت حياتي بسعادتها منذ طفوليتي كانت من اتعس المخلوقات فانها عاشت الى هذا الحين من اجلك ومن اجل الفضيلة . وهي مستحقة على الدوام لجميع انواع الحب والاحترام . . وقد اضاعت سمعتها الحسنة تقريبًا وكان جزاها منك بعد هذا كله ان تتركها من اجلي . . من اجلي . . حقًا ان هذا لكثير

والان اسالك ما الذي بعثني يا ترى على هذا الانقلاب السريع وان تنوب الشفقة في قلبي مناب البغض هل كان ذلك عن حاسة طيبة شريفة او عن اعتقادي بان تعاسة امراتك جعلتها غير صالحة للحسد او عن معرفتي التامة باخلاقك وما تضمره في المستقبل لمتيلدة فلا ريب ان هذا السبب الاخير هو الذي سل ضغينتها من قلبي فقد خمدت نار انتقامي لعلمي بما سيكون منك لمتيلدة في المستقبل ولم يعد لي من فائدة بحبك فاعذرني اذن يا ابن عمي لما اني استملتك من اجلي لا لشيء . اما من جهة متيلدة المسكينة فاني لا اقدر على عمل يفيدها بالنظر الى الماضي ولكني اقدر على ما يفيدها في المستقبل .

اني امراة فائقة في الغرابة ومن حيثما شعرت بالشفقة عليها تراءى لي من الجنايات العظمى ان اسعى من نحوك بما يوجب تاثرها بشيء ولو قليل من الغيرة . فانظر اذن لماذا تظاهرت فجأة بكل هذا البرود . انظر فيما يوجب عليك طرح ما يحملك عليه الجنون من الامل بتحويلي من غس الحشا ومناسبتي بنعيمي وجحيمي . . لست غسًا ولا ملاكًا ولا شيطانًا وما من جحيم ولا نعيم لي ولكني امراة مسكينة لا تحبك وتنذر من صميم قلبها نذورًا لتعود الى صديقة صباها ان سرتي بتضحيتي محبتك في من العظم بمنزلة تحمل الناس بجانبها الاخلاص لمتيلدة على حبي لنفسي

فاسمح لي اذن ان لا اقطع العلائق التي تربطني باحسن الرجال من اجل ان اذهب معك لنخفي حبنا في بلاد بعيدة اذ ما من حاجة للذهاب بعيدًا لاخفاء ما لا وجود له بيننا

اني ما زلت بطيبة خاطر عن كل سلطان لي على نفسك واستعفي بتشكر كثير من التسلط على هذه المملكة الجميلة الملقي بها على اقدامي. واحب لديّ ان اعيش كعبدة في ظل مرج مزهر غض من ان اكون ملكة على صحراء قاحلة جدباء . واستحلفك ان تعفيني من براهين الاخلاص وهذه الضحايا العظيمة التي تعدني بها ولا استحقها فانت تضايقني كثيرًا في مباحثي الباطنة على ظالمي المستقبل لاني اشعر باني مختارة لان يداخلني ولا اعلم من اجل اي معشوق خفي هيام عظيم مشوم من مثل الهيام الذي يشغل فؤادك من نحوي

فاين يا ترى محتجب للان ذلك الظالم الخفي المستقبل المستبد بسلطانه عليّ . . لا اعلم . . . والذي اعلمه اكيدًا ان مشهدك الكمد يجفله

لا نتكل على وجود الصداقة بينك وبين زوجي لمشاهدتي في باريس اذا تطرفت بالجنون ولحقت بي الى هنالك لاني مجبورة لا يضاح اسباب سفري فجأة للموسيو سيشرين ان اعترف له بانك متصب الي على نوع ما واني رايت مناسبًا من اجل راحة متيلدة والتخلص منك ان ابارح ماران . . ولا ريب انك تكون وقتئذٍ ضيفًا ثقيلاً مخذولاً اذا حاولت تمثيل دور ابن العم بالمجيء الينا

ابقَ مع متيلدة . . . اني اتذكر بانك تكلمت عن الملاك الحارس والشيطان المضل . . فلو كنت حاصلاً لا اقول على شيء من الكرامة بل على الاميال الغريزية المفروض وجودها في كل امرء لحفظ وجوده لعدت اليها لانها ملاكك الحارس وبالعكس اذا بالرغم عن عدم اكتراثي بك وخلو قلبي التام من نحوك بقيت مصرًّا على المجاهدة بطلب حبي فساكون شيطانك المضل

لا انكر انك تحبني بتعشق . . لكن يجب على الدوام ان يتغلب على حب بلا امل اني باذلة الجهد من اجل صالح متيلدة وراحتي لاقناعك ببطلان مساعيك المستقبلة وكل خوفي ان يبقى عالقًا بك شيء من الامل لانك حاصل بالرغم عن مظاهر اتضاعك على نوع من عزة النفس المستعصية وهي خطرة بقدر ما لديك من الوسائل الموجبة لتركيتها امام كل احد غيري . . فربما لا تصدق ذلك لانه من المستحيل على المرء ان يسلم بالاستثناء الجارح . .

ولا ريب انك بدلاً من ان تعترف بالحقيقة وتصرح بكوني لا احبك تفضل على ذلك ان تقنع نفسك بالمحال وتدعي باني لم اقطع صلة العلاقة معك فجأة الا فرارًا من حاسة اخافها واتقاء سعة سلطانها . . فيالك من رجل كثير المخاطر . اه يا ابن عمي . . يا ابن عمي . . واحسرتي

اضحك من هذه الامراة وحرماناتها فانت على غاية ما يكون من الصداقة يا سيدتي العزيزة مع صواعق الفاتيكان ومنذ هنيهة كنت متقربة بكلامك من العناية الالهية والسماء وتراآى لي كانك من الموقفين لخدمة الله اذا لم نقل من سعاته على الارض انما اطمئني فسيبقى لي على الدوام نحو من ربع ساعة للتوبة وريال للصلاة عن نفسي عندما تحون الساعة اللازمة للتفكر بخلاصي . . . . .

. . . .

وفي مساء ذلك اليوم سافرت السيدة دي ماران مصحوبة باورزيل الى باريس ورحلت السيدة سيشرين الى عند ولدها وبقيت انا وكونتران وحدنا في ماران

الفصل الرابع والاربعون
الزوجان

فبقيت يومين لا اشاهد الموسيودي لابكراي وكان من مجيء وسفر السيدة سيشرين ان نوهم الخدم في القصر حدوث مباحثة خطيرة بيني وبين زوجي وظنوا من واجباتهم في مثل هذه الحال زيادة السكوت والتحرس في خدمتهم فكانوا لا يتكلمون فيما بينهم الا بصوت منخفض كأن في القصر ميتاً . . . ومن المستحيل على تصوير مشهد هذا القصر الكبير المشوم فكان سكوتاً معتماً مقفراً اقطن جناحاً منه وكونتران جناحاً اخر .

واردت ان ابقى وحدي منفردة لذاتي استعد للمحادثة التي لا بد من حصولها بيني وبين زوجي

وفي مدة هذين اليومين شعرت بطارىء ادبي لم يسعني للان شرحه فان ثورة عميقة سامة ثارت في فجأة وكان من واجباتي ان اخاطب زوجي بلهجة الحرية والصدق ولا ريب ان هذه الحادثة كانت من اهم حوادث حياتي ولا تزال رنتها في اذني الى اليوم الاخير من ايامي ولم يبق شيء من تفصيلاتها ولو مهما كان طفيفاً الا حفر وما زال محفوراً للان في ذهني

وحصل ذلك في احد الاحاد وكنت قد سمعت قداساً منخفضاً في كنيسة القرية وبقيت هنالك طويلا اصلي ثم عدت الى القصر وكان الوقت شتاء مظلماً وبدخولي بدأ الثلج بتساقط ثم دقت الساعة الكبيرة الموضوعة في مقعدي الساعة العاشرة والمقعد المذكور عبارة عن قاعة صغيرة بسيطة كنت معتادة على الجلوس فيها في اغلب الاحيان بنافذتين مشرفتين على الجنينة وكان معلقاً فيها

عن يمين و يسار الموقدة صورة ابي وامي ثم موضوعاً على طاولة الكتابة مدليون من كونتران مشغولاً بالمينا

ويجب ان اتكلم عن هذا المدليون باعلانه اخيراً فانه كان مرسلاً لكونتران من الدوقة دي ريشنيل واعطاء مثل هذه المدية المتقدمة لرجل من معشوقته الى زوجته من انواع الدناءة السذجة التي يتسامح بها المرء بدون ان يعكر بها في هذا العمل المنكر من القبح والشين

وكان بجانب طاولة اعالي مكتبة من خشب الورد تحتوي على نخبة كتبي المختارة ثم البيانو بين النافذتين

ولدى مروري بقرب المرآة تاملت ذاتي فاذا انا ضئيلة ومصفرة كثيراً ويسندل من رؤوس خدودي البارزة المحمرة قليلاً على الحمى المتحرقة بنارها منذ يومين وكان نظري لامعاً منتعشاً ولكن شفتي بلون البنفسج و يدي مجلدتان

وكنت وقتئذٍ بثياب سوداء وشعر محلول متدلي على اكتافي برح عن بالي ان اضفره فنظرت بنوع من الفرح الخشن الى حالة الضعف والتغيير التي رسمتها الاحزان على وجهي وقابلت بيني و بين اورزيل التي لا تزال على الدوام ندية موردة

ثم دقت ساعة القصر الكبيرة القديمة الساعة العاشرة ونصف واذ دخل زوجي عليّ وكان متغيراً كثيراً ايضاً في هذين اليومين بحالة شديدة من الاصفرار واعين محمرة من الدموع والسهر وهو بهيئة خشنة مثقل بالمصائب

و بدخوله قال فجأة اني لا احاول الكران فان الخطايا التي ارتكبتها ضدك عظيمة جداً . . . ومن الواجب ان تبغضيني . . . فلا باس ابغضيني

قلت ارجوك ان تسمع لي يا كونتران ففي هذا النهار يتقرر مركزنا ومن اللازم ان اكلمك بتمام الحرية والصدق عن نتيجة تاملاتي وعزمي الاخير المقرر ؟

اجاب تكلمي

قلت اني في هذين اليومين اللذين قضيتهما لوحدي تجلت لناظري بساعة واحدة على نوع ما ولا اعلم باي تخيل غريب طرأ على افكاري جميع الحوادث التي حصلت من تاريخ اليوم الذي عرفتك به فانيت على مجملها وتفصيلاتها وتمحصتها بنوع من الطمانينة وسمو النظر اوجبا تعجبي ولدى التامل في الايام الماضية وجدت بلا كبرياء جنونية ان اخلاصي نحوك لم يكن مطلقاً واني ابديت بجانب الحنو لدوام المحافظة على حبك نقياً مجرداً عن الشوائب بالرغم عن احتقاراتك وكنت اتحمل الاوجاع بصبر على الدوام لا انطق بالشكوى الا نادراً عندما ادفع الى ذلك بفاعل الالم الشديد ثم ابادر في الحال الى مسح دموعي لاقل اشارة منك بمعنى الحنو واتقدم اليك بشفاه متبسمة

لا اعاود التمسك بامال السعادة المكذوبة مراراً عديدة

قال كونتران بتمرمر صدقت . . وانما لا يكون حسنا منك ان تلهجي الان بذكر آثامي وفضائلك

قلت لم اتكلم بامثال هذا الحديث يا كونتران لامدح ذاتي بل لالومها بعنف

فسال ماذا هل تاسفين اذن . . .

قلت نعم أآسف لما اني اجريت كلما كان ممكنا لضمانة تعاستي بدون ان اجعلك سعيداً ولربما لم تعاملني بكل هذه القساوة . . لو تصرفت بخلاف هذا التصرف

فسال ما الذي تريدين قولهُ يا ترى

قلت ان في ذلك ما يوجب استغرابك يا كونتران . . فان نتيجة تاملاتي كانت تقريباً ان اشكو من نفسي وابرئك

فصاح تبرئينني . . انا

قلت نعم . انت . . ما عدت اموه على نفسي بالباطل يا كونتران واعترف اني ما كنت لك ابداً في حياتي رفيقة شريفة على يقين من استحقاقها بمزية ثابتة موجبة لاحترامها بل عبدة جبانة بخضوع اعمى وانقياد عقيم وصبر جامد ولدى مشاهدتي على مثل هذه الحال من الخضوع والمزلة عاملتني بلا رحمة ولا شفقة

فنظر الي كونتران بتحذر وقال ما الغاية يا ترى من محاولة تبرئتي بهذه الالفاظ

قلت كان يمكني ان اقول لك بان الغاية من ذلك ان الطف قليلا من قساوة الاقرار الذي ساخاطبك به ولكن كلامي في هذا المعنى يكون كذبا اذ قلما يهمني الان توجعت او لم تتوجع مما اريد قولهُ لك

وتراءى لي كأن زوجي تنبه وقشعر للهجة حديثي الطافحة بالبرود وعدم الاهتمام . فسال ان لهجتك جديدة يا متيلدة

قلت من اللازم ان تكون جديدة كالشعائر الصادرة عنها والاقرار المراد بثهُ لك

فصاح كونتران بربك وضحي

قلت بعد هذه النظرة الطويلة التي القيتها على الماضي حصلت على اكتشاف اخر مخيف وهو ان احزاني الحقيقية المؤلمة كانت بالكاد مستحقة للشفقة وان نواحي المستديم مضجر باكثر مما هو مؤثر ودموعي الابدية موجبة لفروغ صبرك واذهاقك ولا تحرك شفقتك الا نادراً

قال هل تسخرين يا متيلدة . . ان هذا السخر لقاس

فقبضت على زوجي من يده وسرت به الى امام المراة حيثما ارينهُ وجهي الذابل وقلت له اني

بلا ريب تألمت كثيرا حتى امكن ان يتغير وجهي الى هذه الحال اليس كذلك يا كونتران ألا فاحكم اذن على حالة شعائري عندما اجبرت باحكام العقل على الاعتراف بان احزاني بالكاد مستحقة للشفقة وقلت لنفسي اني اذا رفعت امري لقاض منزه عن الغرض فقد يحكم بان الخطاء بذلك خطائي فهل يمكن بعد هذا الاعتقاد يا كونتران ان تتوهم كوني حاصلة على جلد الاسخر

فسأل وهل انت حاصلة على هذا الاعتقاد يا متيلدة

قلت نعم حاصلة على ذلك . . نعم غداً سيعلم الناس فرداً فرداً انواع العذاب التي تحملتها فيرفعون اكتافهم باحتقار ويقولون يا لها من امراة بليدة مضجرة لم تنل تشكياتها وانينها المستديمين الا الذي تستحقه فابدا الا تكون الامراة كريمة وتعيسة ويمكن احتمالها ان مزاياها الجامعة في آن واحد بين الضعف والميل الى البكاء وسرعة التاثر تكاد تصفح بقساوة زوجها . . نعم ان اورزيل خائنة وفجة غشاشة ولكن الموسيو دي لانكراي يفضلها بنحو من الف مرة على متيلدة لانها مجملة على الاقل بنوع من الظرف الجارح بل قد يوجد فيها من مساويات الخير والشر ما ينبه القلب والفكر على الدوام اما متيلدة فبالعكس دائماً منصبرة باكية وعلى نمط واحد . . . اجل انها حاصلة على جميع الفضائل وما من احد ينكر عليها ذلك ولكنها لا تعرف ابداً ان تستميل الناس الى حب الفضيلة وخلاصة القول انها امراة مقترفة لاعظم الخطايا لانها تحب ولا يمكنها ان تحب فهذا الذي يقوله العالم يا كونتران بل هذا الذي يحق للعالم ان يقوله بالنظر الى مباديه . . . ولربما تشفق عليَّ بعض النفوس الحنونة لدى التفكر بان حياتي بجانبك يمكن تلخيصها بهذه العبارة حب بشرف وتوجع وصبر . . نعم لربما تشفق عليَّ ولكنها لا تبدي شيئاً من غير الشفقة وبين الشفقة والميل هاوية عظيمة

فصاح كونتران ما هذه اللهجة يا متيلدة

قلت اخبرني مرة ثانية ايضاً هل من الممكن ان يكون مقصدي السخر بينما اصرح لك علانية بانه لم يعد لي بعد تسكاب كل هذه الدموع الغزيرة حتى ولا التعزية بكوني مستحقة للشفقة

قال وما الذي اوجب يا الهي ان يتقرر لديك هذا الاعتقاد المشوم

قلت العقل . . العقل الخالي المستقر يا كونتران ويجب ان يكون القلب خالياً بل قفراً بلقعاً حتى يمكن ان تسمع فيه رنات هذا الصوت الخشن

اجاب ماذا تقولين . . قلبك

قلت نعم قلبي فانه اصبح خالياً قفراً من حينما لم اعد احبك ومن حينما خمدت منه جمرة هذا الحب امكني ان احكم على اعمالي واعمالك بخلو غرض

فصاح متعجباً ما عدت تحبينني

قلت لا ما عدت احبك . . وهذا الذي يجعلني أن أرى كل شيء بلا تشيع وإني لا اخشى من تكديرك بهذا الحديث . . ولو قيل لي في ما مضى أن هذا الحب العظيم الذي كنت أشعر به من نحوك والذي ثبت كثيراً بصادمة التجارب الخشنة سينقض يوماً ويمحت بالافتراء ومع هذا فها هو الان مطفى بتمامه من فؤادي

فصاح متبلداً . . متبلداً

قلت نعم تلاشى بتمامه من قلبي في البرهة القصيرة التي قرات فيها التحرير المرسل منك لاورزيل . اني لا احاول ملامتك يا كونتران ولم يعد لي حق بذلك . . واقول بلا افتخار باطل انك خسرت قلباً من مثل قلبي وكفى بهذا قصاصاً لك . . . ليس الذي ما يحملني على الامل او الخوف من ان تتغير تعد الان حالة شعائري من جهتك لاني عليمة بذاتي ولا يمكني لسوء الحظ ان اشعر بشيء بدرجة وسطى واعلم جيداً ان لربما كان من الحكمة ان احبك بحرارة اقل من الحرارة التي احببتك بها وان لا اتجرد من حبك بكل هذه السرعة ولكني فطرت على هذه الاخلاق ولا يستطيع المرء شيئاً ضد خلو الفؤاد . ولا ريب ان حبي لك جفت ارضه بلا علمي منذ زمان طويل بالدبوع ولم يعد يلزمه الا صدمة عنيفة لاقتلاعه بجزوعه من قلبي ان تحريرك لاورزيل اقنعني بضياع جميع آمالي وان لا بد لحبي أن يسحق ويفنى بصادمة المستحيل والذي اعلمه أني بينما كنت اطالع التحرير المذكور واذا برود منهل عميق يقرب أن يكون مادياً اخمد حركات قلبي ولم يكن ذلك كعاصفة شديدة اثارت جميع شهوات النفس المتعاكسة تتغالط وتتصادم بعنف كالزوبعة التي تلوي وتزعزع كلما تصادفه بطريقها في حالة هياجها . لا لعمري لان الزوبعة على الاقل وان تضرربها الكل بتساوٍ فلا تدمر الكل اما الذي شعرت به فجائحة خشنة متزايدة المد يجي تدريجاً واستاصلته . . . . . كانواع الطوفان الصماء التي تتصاعد وتطفو الى ان تبتلع كل شيء في عبابها المخيف ولا يعود يظهر للعين الناظرة المرتهبة الا فضاء خالٍ سكوت

فبهت زوجي في بادىء الامر ثم اجابني بنوع من الغيظ المكتوم أن سرعة هذا النفور تثبت لك ضعف استمراره . نعم اني مخطي . . ومرتكب اثاماً كثيرة من نحوك ولكني لا استحق مثل هذه المعاملة

قلت لم يحصل الا ما يجب حصوله يا كونتران أني كنت منتظرة ان يصدر عنك كل ذلك وان تتاثر عزة نفسك لهذا الفكر وهو لم يعد يمكني ان احبك . ولم اعد احبك وتصورت ايضاً ان لربما سرعة نفوري عنك تحملك على امثال هذه التخيلات الوهمية الا انك مخطي في اوهامك لاني ابدا . .

ابداً لم اضل بمعرفة شعائري

فرفع زوجي اكتافه وقال كنت معتقدة على الدوام انك تحبينني كما صرحت بذلك منذ هنيهة وهوذا انت الان تعتقدين عكس ذلك وتدعين بخمود هذا الحب ولا ريب انه سيلم بهذه الحاسة الاخيرة ما ألم بالاولى وتبلغ نهايتها

قلت ليس في هذه المشابهة شيء من الاصابة يا كونتران اني بلا ريب كنت استمررت على حبك لو لم تعمل كل ما في الوسع لقتل ذلك الحب واقول لك بصراحة وجلاء انك وان عملت الان كلما يمكن عمله في الوجود للتغلب على خلو قلبي من نحوك فلا يمكن ابداً ان تنجح بذلك

قال ولكن اعمالي هذه عن طيش وقلة امانة وما من امرأة لا تصفح عن مثل هذه الخطية بعد خمود هياجها الاول الناشيء عن جرح كبريائها الباطل

قلت لم اقل . . لا . . لا ولم ادعِ مطلقاً ان جميع النساء يفكرن او يقتضي ان يفكرن فكري . . ولا ريب اني مخطئة ومن تعاسة نصيبي ان اكون على الدوام مشكوّاً مني او بالحري من صفاتي المعيبة المستنكرة ان اكون دائماً متطرفة باخلاقي

قال كونتران اسمحي لي للمرة الثانية يا متيلدة ان تباعد قلبك عني على فرض انه مسبب عن ذلك التحرير القاسي كتبته لابنة عمك لا يكون موسساً على بواعث حقة

قلت لا اريد ان ارجع بنظري الى الماضي يا كونتران ولكن من حيث تفوهت بذكر هذا التحرير فلا باس من التكلم بشانه تذكر نصوصه جيداً فتعلم ان معانيه كانت كضربات قتالة لاشد الامال تهوراً بالاصرار انك جرحتني فيه كامراة وزوجة وام جروحاً لا تشفى وليس هذا هو كل الحاصل فان هذا الحب الذي ضحيتني من اجله بلا تردد ولا شفقة كان ويكون وسيكون الحب الوحيد الحقيقي لحياتك وسوف تتاكد صدق اقوالي اني اعترف بلا تواضع باطل بل بافتخار عظيم اني لست حاصلة على شيء ما يلزم للمقاومة برجحان ضد اورز بل اذا ارادت الاستمرار على استمالتك خلافاً لوعودها ولم يعد لي ولا عوض من قلبي اقدمه لك اذا داومت احتقارك ثم يوجد ايضاً اشياء اخرى اود اقولها لك فاصفح لي عن حرية افكاري لانه يكلفني كثيراً ان اخاطبك بهذا اني في حالة تطرفي بحبك غشيت العماية على اعيني بالنظر الى بعض حوادث حياتك ولما لم يمكني ان اجد لها عذراً يشفع بها انتهيت اخيراً بالاعتقاد اني اثيمة مثلك اما الان فقد اضمحلت اوهامي وظهرت اعمالك برمتها مجردة عن التمويه لاعيني واذا امكن ان اصفح لك عن هذا الطيش وقلة الامانة بحسب قولك فمن المستحيل ان احب رجلاً . . . لم يعد يمكني ان اعتبره

فصاح متيلدة ما المعنى بذلك

قلت لو علمت قبل زواجي بل قبل ان اسحر بمفاعيل الحب الجنوني بما علمته بعدئذٍ لما امكن

ابدًا ان اقترن منك

قال وما الذي علمتهِ يا سيدتي مما يوجب عدم اعتباري اني لا اظن مطلقًا انا صحت اقوالك ان يكون حبي المستعصى لامراة لا تستحقهُ هو الذي اوجب انحداري في اعينك الى هذه المنزلة المشينة

فاخبرت كونتران بعد تردد اخير بتفاصيل المشهد الذي حصل في منزل ليكورنو المنفرد وكيف اجبر الموسيو دي مورتاني والموسيو دي روشكيم ذلك الرجل على اعادة الورقة المزورة من كونتران اليهِ

فانحطت عزائم زوجي لهذا الخبر ولم يلفظ كلمة مدة حديثي وكانت حالتنا وقتئذٍ تستدعي ان لا يبقى شيء فيما بيننا موضوعًا للشك فما من حاجة للمحافظة على الاسرار واجراء الملاطفات وكان يهمني ان اقرر مركزي بايضاح بالنظر الى زوجي ثم رايت من نظرات كونتران العابسة التي من وقت الى اخر وهو يتمشى بهياج في الغرفة انهُ طبقًا لنيات الموسيو دي مورتاني لا يمكن ان يصفح لي ابدًا عن خطية اطلاعي على هذا العمل المشوم

وبعد ان تمشى كونتران بضع دقائق بهياج مزبد القى نفسهُ على مقعد واخفى راسهُ بين يديهِ فتحرك قلبي بالشفقة عليهِ وقلت لهُ ما عدت احبك حبًا وقد ارتكبت عملاً اثيماً ولكني مشاركة لك باسمك وانت اب لولدي وقد يكفي هذا لان اقول لك بانك وان خسرت الى الابد قلبًا متحرقًا باطهر انواع الحب فلا يزال لك امام العالم امراة وهذه الامراة لا تقصر ابدًا بالواجبات المفروضة عليها نحوك فيجب ان لا نتظاهر بدخول شيء من التغيير على علايقنا ولولا الوشايات السفلة الزائعة عنا لطلبت اليك الانفصال عن بعضنا انفصالاً حبيًا اننا لا يمكننا بذلك ولو مهما قالت السيدة دي ماران الا ان نخسر نحن الاثنان كثيرًا فالاوفق ان نعيش زمنًا ايضًا على هذا الحال . . ثم نتصرف فيما بعد بحسب الظروف

قال كونتران فجأة فليكن اني لا احاول ارجاعك عن افكارك فمن الان وصاعدًا نعيش متفرقين وساخلصك قريبًا من وجودي المستقبح . . . انك لا تنسين الشرور التي رميت بهِ . . . والحق معك

قلت اوكد لك اني نسيتها الان كل النسيان ولو كان ممكنًا لي ان انتقم عنها لما حاولت الانتقام لان النتيجة محدقة بي وسواءٌ لدي الاسباب التي اوجبتها

فصاح كونتران بعد سكوت لدقيقة من الزمان لا . لا هذا مستحيل فكل هذا البرود لا يمكن ان يخلف كل ذلك الاخلاص . . ابدًا . . ابدًا لا يمكن ان تعامليني بكل هذه القساوة . . . ولا سيما في ساعة . . .

فاكملت عنه الحديث وقلت في ساعة لربما تكون محتاجاً فيها للتعزية ثق انه لا يمنعني من الشفقة عليك الغيرة بل الاحترام الانساني واري جيداً من الان بان هذا الحب الذي يشغل فؤادك سيكون مشوماً عليك ومن اجل هذا ارتهب منه بالخوف ان جميع المصائب التي ستحل بك لا يمكن ابداً الا يتأثر لها فؤادي . . .

فنهض كونتران فجأة وصاح ان من الجنون ان اجتهد باصلاح الحال فمركزنا يا سيدتي قد تقرر كما تقولين نعم ما عدت تحبينني حبًا ولكن يمكنا المعيشة سوية بلا حب وسأريحك من وجودي المكدر لك فيعيش كل منا منفرداً في جهة من جهات القصر ولا اعارض ابداً ولا بوجه من الوجوه مقاصدك

قلت بأقي علي ان اتكلم يا كونتران عن نقطة واحدة مهمة فاني ارغب ان تنظم بالثلثين من ثروتي اوراقاً تضمن مستقبل ولدنا

اجاب ان ذلك يتعلق بي يا سيدتي وساهتم به

قلت اني بالنظر الى جهلي التام في معرفة الاشغال ورغبتي الحارة ان يتقرر هذا العمل بافضل ما يكن من الطرائق النظامية اجد من الواجب ان انبهك الى اني ساستمد بمشورات الموسيو دي مورتاني في شأنه

قال لا يحصل ابدا بيني وبين هذا الرجل ادنى علاقة يا سيدتي

قلت وانا ايضاً لا اريد ان يحصل بينكما ذلك وانما تكرم علي بدليل يؤيد انفاذ رغائبي في هذا المعنى واذا وجد الموسيو دي مورتاني ذلك الدليل نظامياً كافياً فلا اطالبك باكثر منه

قال كل هذا يا سيدتي لا يمكن ان يجري بحسبما ترغبين فان حظ ولدنا يهمني بقدر ما يهمك ولي . . انا وحدي ان اقرره وساعمل لذلك ما اجده ضرورياً بدون ان تجري المراقبة على اعمال لا تتعلق باحد غيري

قلت هلا تريد ان تؤدي ضمانة اكيدة على انفاذ مطلوبي منك يا كونتران

اجاب لا يا سيدتي

قلت اعلم اذن اني ساستعمل جميع الوسائط الممكنة للحصول على هذه الضمانة

قال افعلي . فانت حرة

وهكذا كانت نهاية هذه المحادثة مع زوجي

الفصل الخامس والاربعون
يأس الحب

وبعد هذه الحادثة بايام ارسل الموسيو دي لانكراسي الى باريس خادم غرفته الحاصل على ثقته التامة ومذ سفره كان يصل زوجي كل يوم تقريباً تحرير منه اما انا فكنت انتظر بكثير من فروغ الصبر والقلق جواب الموسيو دي مورتاني وكانت هذه هي المرة الثانية التي كتبت بها لهذا الرجل ولا يمكني ان افهم المراد من سكوته

وكانت حياتي مستمرة على المسير في مسالك الحزن والكآبة فكنت اتعجب في بعض الاحيان لما ان خلو القلب ناب في فجأة مناب الحب على حين ان ذلك مطابق لنواميس الفطرة فان الاحساسات الحارة العميقة لا تتدرج بالانقياد الى حالة البرود التي تحلها فهي اما ان تعيش على الدوام واما ان تخمد فجأة كما اشعلت . . . بعد اذ تقاوم طويلاً وبسالة اشد النوازل الموجبة لاخمادها

نعم أن هذه الاحساسات تسقط وتموت بغتة كالمقاتل الذي لايشعر الا في حالة تسليم الروح فقط انه مثخن بالجراح الدامية وان دماءه نفدت منه في القتال

ثم تعجبت لشيء آخر ولا اعلم هل يقتضي ان افتخر او اخجل به . . . فان تجردي من الحب اوجب تجليد قلبي وكثير من حوادث حياتي كانت اشد المًا عليّ من هذه الحادثة ولا اعلم هل منشا ذلك الشجاعة او الصبر او عدم الاكتراث ولكني ما لبثت ان اطلعت حالا على سرّ هذا التصرف فاني كنت متعزية على خلو قلبي من حب كونتران بفكر انحصار جميع قوى نفسي من الان وصاعدًا في حب ولدي . هل ما زال قلبي يغشني يا ترى او ليس تعبدي لابن كونتران هو عبارة عن مداومة حبه . . لا . . لا . . لايمكن ان اكون مغرورة فان الحب الوالدي كان مالئًا قلبي بكليته وهو وحده سبب ثباتي لاني عندما فكرت لسوء الحظ بان الامل الالهي الذي اودعهُ فيَّ الرب ليس الا املاً وتساءلت عن حالة فراغ قلبي اذا نزع مني ذلك الامل . . . فحينئذٍ اعترتني الرجفة واصابني الدوار وحولت نظري عن تلك الهاوية المظلمة موجهًا به نحو المستقبل الزاهر الوحيد الذي يربطني بالحياة . . . .

. . . .

وكان الشتاء قد اقبل ببرده القارس وضبابه المظلم ولياليه الطويلة التي لا يقصرها اجتماع

الاصدقاء من حول النار وكنت اتبادل على الغذاء والعشاء مع كونتران بضع كلمات ثم ينسحب كل منا الى غرفته وتغيرت عوائده بكليتها فلم يعد يخرج للصيد ولكنه بالرغم عن قساوة الفصل كان يذهب في كل يوم تقريبًا ماشيًا على اقدامه الى الحرش حيثما يقضي ثمه ساعات طويلة و يعود ساعة مجيء البوسطة تمامًا ثم يرجع الى الحرش ولا يعود الى القصر احيانًا الا عند اشتداد الظلام وكان يبقى في بعض الاحيان مدة يومين او ثلاثة ملازمًا غرفته يقضي فيها جميع حاجاته ولا يخرج منها على الاطلاق ثم بدأت هيأته تتغير بمظهر مخيف فان خديه المقعرين وعينيه الغائرتين وحالة تبسماته العصابية كانت تظهره للعيان بملامح من التوجع والحزن والتضعضع لم اشاهد بمثالها في حياتي

وفي ساعة مجيء البوسطة كان لا يمكنه التغلب على قلق افكاره فكان يركض بنفسه لمقابلة الساعي وفي احد الايام نظرته من احدى نوافذي يستلم تحريرا فتامله مدة بخوف كما لو كان يخشى فتحه ثم قراه بسرعة و بعد ان انتهى من تلاوته مزقه اربًا وداسه بغضب بارجله وهيأ مرتين جميع استعداداته للسفر ولكنه عاود الامتناع عنه

وفي مساء احد الايام بينما انا وبلوندو في قاعتي الصغيرة نفتح صندوقًا فيه ثياب للاطفال احضرته من انكلترا واذ دخل كونتران علينا فجأة مصفرًّا ضئيلا كما لو كان في غيبوبة عن الهدى وصاح بصوت يمزق الاحشاء — متبلدة ما عاد يمكني ان احتمل طويلا . . . ثم لاحت منه التفاتة نحو بلوندو فقطع حديثه واختفى فلحقت به وكان قد لجأ الى غرفته واقفل عليه الباب فبقيت مدة طويلة على بابه وهو لا يريد ان يفتح لي

ثم خلع يومًا الثياب المبتذلة التي كان يلبسها وتبدل بزهو كثير ودخل عليّ وقال لي بهيئة الضائع صرحي بجلاء كيف تجدينني هل تغيرت كثيرًا قولي بالاختصار الم اعد اهلا لان يستحسني الناظر او ما زلت حسنًا كالسابق

وعند هذه الكلمات تاملته بدهشة فضرب برجله الارض وصاح بحدة اني اسالك عما اذا كنت قد تغيرت كثيرًا . . فهمت مرادي

فناب فيّ الخوف مناب الدهشة اذ تراءى لي من ذلك السؤال وتلك الهيئة كون صاحبها فاقدا للصواب ولم اعد اعلم بما اجيبه فخرج مزبدا بالهياج بعد اذ كسر عن الطاولة كاسًا من الخزف الصيني ثم هل اصرح اخيرًا بكل شيء ان بلوندو علمت من كبير الخدم ان كونتران كان يسكر احيانًا مساء بمشروبات قوية يستحضرها الى غرفته

لا . . لا . . لم يعد ممكنًا لديّ بعد هذا ان ابقى مرتابة فاني تاكدت من هذا التطرف والحدة والطيش ان كونتران مصاب بتهيجات العشق واليأس وانه يطلب احيانًا بالسكر نسيان اوجاعه

واعتقدت من شعائر شفقتي عليهِ بان جمرة الحب اخمدت برمتها من قلبي فكنت انتغص كثيرًا لدى مشاهدتهِ على مثل هذه الحال من التعاسة واشكو بمرارة من اوروز بل ولكني لم اعد احس من نحوها بشيء من الغيرة

وكنت شاعرة باسف مزيد انهُ لا يسعني ان انفع كونتران بشيء وان تعزياتي لهُ ستكون بلا ريب عقيمة و بلا جدوى ومن جهة ثانية ماكنت اريد ولا اجسر على مخاطبتهِ بهذا الموضوع فبقيت متربصة انتظر مناسبة الفرص وفي احد الايام وصلت البوسطة قبل ميعادها العادي بقليل فاحضرت التحارير الى زوجي في المكتبة حيثما صادفتهُ هنالك وكنت قد ذهبت اليها لاخذ كتاب ففض الغلاف باضطراب وقرأ واصفر وارخى التحرير فسقط منهُ الى الارض واخفى جبهتهُ بين يديهِ

فاقتربت منهُ متأثرة وقلت انت تتالم يا كونتران . . .

فارتعش ثم رفع راسهُ بعجلة واذا هو يبكي وكان يلوح على وجههِ الذابل لوائح الياس العميق فقال نعم اتالم . . ماذا يهمك

فقبضت على يديهِ المحترقتين النحيلتين وقلت اسمح لي يا صديقي ان بين هذه الاحزان ما الى الشفقة عليك . . .

قال انت . . انت . .

قلت نعم انا ومن حيث ان قلبي تجرد كليًا عن حبك صار يمكني . . بل يجب عليَّ ان اعزيك كصديقة . . فانت تتالم . . وما من حاجة للسوال منك عن سبب هذا التغيير الطارئ عليك منذ زمن

فصاح غائبًا عن وجوده نعم . . لماذا اخفي عنك الان . . نعم احبها بتعشق . . نعم احبها كطفل بل كمجنون . . . احبها حبًا لم يسبق لاحد في العالم ان احبهُ قبلي ولكن احتقاراتها مجردة من الشفقة فهي بسببي اضاعت مستقبلها وحياتها ولا تريد ان اخفف عنها المصاب الذي سببتهُ لها فمن مقتضيات شرفي الان ان اظللها بحمايتي . . . انما العفو . . العفو . . لماني لك . . لك يا الهي اقول ذلك

قلت يمكنك ان تقولهُ لي يا كونتران لانك لا تعلمني بهِ شيئًا جديدًا ولم يعد لدي من شك لجهة شدة نار الوجد التي تضنيك . . . فتبًا لهُ من وجد مشوم . . مشوم كلفني خسارة سعادتي ولا ينالك منهُ غير الاحزان

فصاح نعم مشوم . . نعم مشوم انك لا تعلمين كم كلفني انا ايضًا هذا الوجد من الدموع والياس المكنون ومنتهى تطرفات الهياج العقيم والمقاصد الجنونية الاثيمة بل لا تعلمين حالة الغيبوبات

المشينة التي ابحث عنها بالسكر . . ان هذه الامراة الجهنمية كانت عالمة جيداً بمقدار ونوع الحب الذي رمتني به . اريد ذلك الحب المخيف الذي ضحيتك من اجله . انت . فلا ريب اني شقي او بالحري مجنون . . ومع ذلك فان هذا الحب على ازدياد دائم في كل يوم رغماً عني . . . وقد هممت مرتين على الذهاب اليها ولم اجسر لان تقدماً باطلاً لدى امراة باخلاق شرسة من مثل هذه يمكن ان يعود عليّ بخسارة كل شيء على اني حاصل دائماً وبالرغم عني على اشعة من الامل ثم صاح العفو . . العفو يا الهي لاني اتكلم بما يغيظك ويجرحك

قلت احلف لك باعظم الايمان يا كونتران انه يمكني ان اسمع لك الان كل شيء وقد اجد في ذلك عوضاً لي ولك عما خسرناه نحن الاثنان

قال اعلم ذلك . . اعلم ذلك وانه لم يعد يمكني الاتكال على حبك ومن اللازم ان امتنع عنه . . انما لا تكوني بلا شفقة ودعيني اضع قلبي بجانبك . . ومن حيث لم تعدي تحبينني فلا يمكن ان يسوئك ذلك . . اه يا متيلدة اني كثير التعاسة واقراري لك بما احتمله من الاوجاع يقرب ان يكون انتقاماً لك من نفسي اه لو كنت تعرفين ما هو هذا ان يحتمل المرء اوجاعاً صماء كامنة في الصدر

قلت اعرف ذلك يا كونتران اعرف ذلك

قال فنحو من عشرين مرة هممت ان ارتمي على اقدامك واعترف لك بكل شيء واطلب منك على الاقل معاملتي بالشفقة ولكن ذنوبي الماضية كانت تعود بالحال الى افكاري فيستغرقني الخجل ولا اتجاسر على تحقيق عزمي . . وصرت افترس دموعي في خلواتي . . نعم ابكي . . نعم ابكي كطفل لاني ضعيف

وكان يبكي بحرارة ثم مسح دموعه وصاح اما من شفقة اذن في قلب هذه الامراة . . . . الا تفكر . . . اني من اجلها ضحيتك . . انت الشريفة الكريمة بقدر ما هي فاسقة وردية . . وان اعمابي هذه حد تنتهي اليه . . . ان كبرياءها الجهنمية ولو مهما قالت ستترنح حبوراً لمشاهدتي على اقدامها . . . ثم صاح ألا تعلم اذن هذه الامراة انه لا يبقى لها في قلبي متى زالت عن اعيني تلك الغشاوة الا الاحتقار والبغض . . ان افتخارها الباطل لا بد ان يتاثر بضربة قاسية لدى مشاهدتي راجعاً اليك . . لانها تحسدك على الدوام ولو مهما تظاهرت بالخلاف

قلت الرجوع نحو الماضي مستحيل يا كونتران فيجب ان تقتلع من ذهنك الى الابد فكر تاثر او وزن بل بتل هذه الضربة التي تظنها قاسية لكبريائها

قال حسن . . احتقريني احتقريني انما دعيني اصرح بافتخاري اني من حينما قلت لي هذه الكلمات القاسية من فمك وهي — ما عدت احبك — بدات اشعر بكلما خسرته بخسارتك . .

والذي يزيد الان في شدائد احزاني كوني ما عدت استطيع القول لنفسي ـ اني حاصل هنا بجانبي على قلب شريف محب كريم من صفاتهِ النسيان والمسامحة ارجع اليهِ دائماً بثقة لانهُ بمكارم لاتنفذ . . . قلت نعم كان هذا القلب كما تقول لك يا كونتران

فصاح وهو لايزال لي . . دائماً لي . . ولا ريب انك في غرور يامتيلدة ان حباً مثل حبنا يترك في القلب جزوعاً لايمكن استئصالها . نعم لايبعد ان يذبل لزمن من الازمان ولكنهُ يعود فيجدد انتعاشهُ بنضارة اكثر من السابق بحقك يامتيلدة لاتلقي بي الى الياس وساعديني للفوز على هذا الحب الظالم احلف لك يميناً معظماً اني لم اقدر في حياتي كالان كلما يحواه قلبك من الصفات العظيمة السامية فاه كم يكون هياج هذه الامرأة عظيماً ومتطرفاً اذا اعتقدت انا سعيدان متحدان وكلاً منا مشغل بالاخر بجنو . اية ضربة قتالة تلم وقتئذٍ بكبريائها . . هيا يامتيلدة ولنتجرد عن الشفقة من نحوها . . تعالي . . تعالي الى باريز ولنتظاهر هنالك امامها بحالة من الحب لاتقاس بها حالات حبنا السابق واذ ذاك نتالم هي ايضاً بالاوجاع التي عذبتنا بها

فثبت لديَّ من هذا الطلب الغريب حالة كبر كونتران وكيف ان العشق يكون على الدوام اعمى

ولا يمكن ابداً ان يكون من نية كونتران وقتئذٍ جرحي ولكنهُ مع ذلك عرض عليَّ ان امثل هذا الدور المستقبح لاهاجة غيرة اورزيل فقلت لزوجي لو تلفظت بهذه الكلمات قبل الان لتاتى لي عنها اوجاع شديدة اما اليوم فاني اتبسم منها بحزن . . واسفي ان الحب متسلط عليك الى درجة اعمت بصرك فلم تعد تدرك ان هذه الارادة الضعيفة العقيمة المتعلقة بالرجوع اليَّ هي برهان جديد على نفوز اورزيل بما لايقهر عليك

فصاح يااللهول ويااللرهبة . . . اذا كانت هذه الامرأة لايومل منها ان تحبني وهي تضحك من اوجاعي ولا يمكن ان تحمل احتقاراتها لي على محمل من الدلال فلماذا ياترى لااقدر ان اقطع الامل من استمالتها يوماً الى حبي . . . ولماذا اجد نوعاً من اللذة المرة في الاحزان التي تسببها لي . . . ولماذا احبها اخيراً . . . مع علمي انها امرأة مموهة خائنة وغير مكترثة بحبي

فضممت يديَّ الى بعضها ورفعت راسي نحو السماء وصحت يا الهي . يا الهي ما اعظم مشيئتك لانك سمحت من اجل مقاصة كونتران ان يقاسي جميع الاوجاع التي عذبني بها

فصاح ما هذا الذي تريدين قولهُ يامتيلدة

قلت الا نعلم ياكونتران انهُ يوجد شيء من اعمال العناية الالهية فيما هو حاصل الان . . .

فاني انا ايضاً عندما كنت اشعر من نحوك بذلك الحب الاعمى المستعصي كنت اخاطب نفسي بهذا القول وهو اذا كان كونتران لم يعد يحبني فلماذا ياترى لاازال حاصلة على هذا الامل المتأصل باستمالته الى حبي ولماذا لاآكل واتعب من خلو قلبه وقساوته اني كنت مثلك يا كونتران اردد على نفسي دائماً هذه السؤالات واجد لذة مرة في هذه الاحزان واقابل في كل يوم احتقاراتك المستجدة بنوع من يأس الثقة واقضي لياليًا طويلة في استطلاع هذا السر المؤلم

فصاح كونتران مستغرقًا بشخصيته وهو لا يعلم انه موجه بخطابه الي اليس من المخيف المرعب ان يشعر المرء كونه مقوداً بحاسة لا تقمع . . اليس من المخيف . . بربك صرحي . . اليس من المخيف ان يرى المرء ويتحقق بنفسه بان العقل والارادة والواجب والشرف جميعهم قاصرون عن اخماد هذا الحب المشوم

قلت انك تصور الاوجاع التي سببتها لي يا كونتران بالوان مرهبة ولكن حبي لك رغماً عن احتقاراتك كان اجابة لداعي الواجب وعملي تطرف بالحب الشريف اما انت فمقود بحبك لهذه الامرأة الى انعطاف اثيم وعملك تطرف بالحب الجاني

فخمدت فيه نار حب الذات لدقيقة ولكنها عاودت الشبوب فصاح يوجد بون عظيم بين صفاتي وصفاتك فانت امرأة شابة مسكينة ضعيفة بلا قوة لا تعرفين شيئاً من الحياة والشهوات اما انا فلست كذلك . . . ولا يمكن ابداً ان تلعب بي على هذه الصورة واحدة من اهالي الولايات في الثامنة عشرة من العمر بلا سمعة ولا ثبات لا بل ضائعة ومتروكة من الجميع . . فهي تخافني اذن . . لانها تفر مني . . ولا ترضى بالاجتماع بي . . اني اعرف جيداً بان اصحاب هذه الاخلاق المترفعة الوقحة بخشونة كثيراً من الاجتماع بسيد . . . ان الكبرياء الباطلة لا تعميني عن معرفة الحقيقة واورزيل عاملة على غش نفسها . . انها كثيرة التحيل وتخافني شديداً ولكنها تطرد عن افكاري كل ظن بعظمة نفوذي عليها سبقت ونسبت لعزة نفسي في تحريرها انواع الثقة العادلة التي لابد ان تداخلني بتصرفاتها وقالت لي هذه الكلمات — لا تتصور بكبريائك اني اهرب منك لاني اخافك . . فهنا . . هنا كل الامل . . وما من ريب اني تهافت على اليأس قبل الاوان . . فهي تخافني . . وتحبني . . ان الحب جعلني اعمى كواحد من اولاد المدارس . . اه يا متيلدة سينتقم لك

فقاطعت زوجي وقلت اسمع لي يا كونتران اني منذ هنيهة وجدتك تعيساً ومع ان سبب هذه التعاسة الاستهانة بي لم يسعني لدقيقة من الزمان الا ان اتاثر للاكدار التي رزقت منها نصيباً في حياتي وانسى انك انت الجاني بها على نفسك اما الان فقد عاود الامل نموه في قلبك

وصرحت لي بذلك بقساوة عظيمة فلم يعد من شاني ان اخاطبك بكلمة ايضاً زيادة عما قلته

فصاح العفو يامتيلدة . . العفو يا الهي . . اني فقدت عقلي قلت ولكني بتمام العقل واقدم لك هذه النصيحة الاخيرة وهي ان اورزيل اشد تفنناً ومهارة منك وانت منحدر بقدمك الى انحس الفخاخ التي نصبتها لك

فصاح فخاخ واي فخ ياترى

قلت لو لم تدع لك املاً على الاطلاق لنسيتها ولكنها وهمتك انها تفر خوفاً منك لئلا تحبك كثيراً فحفظت لها بذلك نفوذاً عليك ورمتني بضربة اخيرة ولايمكني ان اشكو منها لانها ستنقطع عن رؤياك بحسب وعدها

فصاح الموسيو دي لانكراي انك تنسبين بهذا افكاراً شريرة مستقبحة لعمل طافح بالكرامة وكان من هذا التوبيخ ان اثار شعائري بالغيظ فصحت وما هي يا ترى اعمال هذه الامرأة الكريمة التي بعد ان اضرتني بكلما هو عزيز لدي" قالت لي اني ما احببت ابداً زوجك ولكني جعلته شريكاً لي بخيانة دنية وهاءنذا الان نادمة عما فرط مني واحلف لك اني ما عدت اراه . . فيالها من ضحية عظمى تحملتها بالامتناع عن رجل لاتحبه بعد ان اوصلت اليه جميع الاوجاع الممكنة في العالم

اجاب ولكنها لدى الاعتراف بخطيتها وضعت مستقبلها بين يديك وقد نظرت كيف انها لم تبالغ بذكر قساوة زوجها وعناده

قلت الم تكن عالمة ياسيدي باني غير اهلة لان اضربها اولم اقدم لها الى ذلك الحين نحواً من الف برهان على مكارمي وضعفي فكفاك تعظيماً بما تدعوه مكارم هذه الامراة . . . فهي مضرة بي في الحاضر ولا يمكنها ان تعمل شيئاً مفيداً للاوجاع الماضية

ثم نهضت مغتاظة من حب الموسيو دي لانكراي لذاته وحاولت الخروج . . . ولكنه اقترب مني باضطراب وقبض على يدي وقال لي بحزن العفو . . العفو . . اني لفي خجل الان من كلامي . . واشعر واسفي بما فيه من وكزات جارحة . . فالعفو . . ولكني تعيس او ما من قوة لي على هذا العراك . . ضعفت عزيمتي ولم يعد لي اقتدار على الارادة ايضاً فما اقطع به اليوم اتخلى عنه غدا وهذا الفكر المشوم هنا دائماً هنا حاضر متصلب ولا يمكني انتزاعه حقاً ان هذه الحالة مخيفة هائلة . فماذا اعمل يا الهي ماذا اعمل

ثم ان هذا الرجل الممتاز بعناده وقساوته عاود تسكاب الدموع فما اثر بي هذا الضعف بقدر ما اغاظني وقلت له تسالني ماذا تعمل . ماذا تعمل ان من يشاهد افعالك وتاسفاتك

القاصرة وانقيادك السهل لميل اثيم لايقول ابداً انك مجبور بقوة لاتغلب على هذا التصرف

اجاب صدقيني ان هذا النفوذ ياميتيلدة لايمكن مقاومتة

قلت صدقني انا ايضاً ان هذه اعتذارات باطلة مشينة ثم كررت قولي تسالني ماذا نعمل يجب ان تتصرف كشهم بل كرجل من اصحاب القلوب لان غشاوة الجهل اضمحلت عن اعيني بالنظر اليك فلم اعد عمياء وحانت الساعة للتكلم معك بصراحة خشنة ان مستقبلي ومستقبلك ومستقبل ولدنا جميعهم متوقفون على مايقطع به عزمك اليوم انك اقترنت مني بلا حب وارتكبت جرماً موجباً لضياع الشرف وجعلتني الى الان من اتعس النساء ثم تهورت بحب شقي . .

قال ما هذا اللوم ياميتيلدة اشفقي عليّ

قلت لم اذكرك بهذا الماضي المشوم الا لاقرر مركزنا بما يجب واجيبك على هذا السوال ماذا اعمل نعم ساصرح لك الان بما يلزم عملة ففي هذا اليوم بل في هذه الساعة التي تتكلم بها لايزال في يدك امر الحصول على حياة سعيدة شريفة اما غداً فلربما يفوت الوقت

فصاح حسن حسن ياميتيلدة إنبريني عزيني تعالي لمساعدتي فانت لاتحصلين الا على الهامات شريفة وساسير بموجبها

قلت انك شاب شجاع غني لاينقصك العقل وقد وفقتك السعادة باعدام البرهان الوحيد على العمل المشوم الذي ارتكبتة وكان ممكناً ان يلقي بك و بشرفك الى العار والشنار ثم من السعادة ايضاً ان مرج الناس الكذب والصدق معاً في الوشايات المشينة الزائعة عنا بحيث لايمكن الكرماء الا ان يترددوا بالحكم عليك فغير حياتك اذن وكن مفيداً واستمل الناس اليك فتحصل على الفكر العام بوقت قريب

فصاح ولكن كيف وباية واسطة

قلت ان حياتك قضيت حتى الان ما عدا خداماتك العسكرية ضياعاً بالبطالة فاجعل لها غاية واشتغل بخدمة بلادك . . . الا يوجد خطط شريفة يمكنك الدخول اليها والتقلب بها . . اولم تكن واحداً من رجال العسكرية والسياسة

قال لااسال هذه الحكومة ولا اقبل منها خدامة على الاطلاق

قلت لاباس الحق معك واميالك في هذا الصدد لاتخفى على ذي بصيرة فانت تمثل بمركزك واقرارك بالجميل لعائلة افاضت عليك وعلى ذويك انعامها وكانت عائلتي ايضاً مخلصة لها على الدوام الحزب الساهر على حقوق وامال هذه العائلة الملكية فانضم اذن لاولئك الشجعان المدافعين عن حرمتها وحقوقها

قال هل تشور علي اذن بالذهاب الى فاندي

قلت لا اشور عليك بالاشتراك في الحرب المدنية فقد يوجد بين التهورات ما لا تخفى عدالتها واعذرها ولربما اعجب بها ولكني لا اريد ان اراك مشتركًا بها . . اما من واسطة اخرى لخدمة هذا الحزب

اجاب وكيف ذلك

قلت الا يوجد في مجلس النواب مثلاً مركز حسن تتخذهُ بين الملكيين

قال في مجلس النواب . ومن اين لي الحظ بالحصول على ذلك

قلت يمكنك اذا اردت ان تحصل على اعظم الحظوظ الموصلة الى هذه الغاية . . . فان املاكنا في هذه الجهات وذكر عائلتي الحسن يهيئان لك السبيل للفوز بالانتخاب . تمسك بهذا الامل ووجه افكارك من الان وصاعدًا لهذه الغاية انك والحمد لله بفكر مرن لامع فجملة بما ينقصه من الرصانة والتعمق وادرس لتمثل بلادك شرائعها وحكومتها . تمم بتعاليم جدية الافضليات التي ميزتك بها الاختبار ومعرفة العالم . . انك حاصل هنا من حولنا على مستاجري حقولنا ومزارعينا وجميع الاشخاص الذين يتوقف عليهم نجاح الانتخاب فاستول على قلوبهم بقوة الظرف الذي لا ينقصك للتظاهر بموالاة الارادة . استعلم عن مصالحهم واحتياجاتهم واسعَ للحصول على حبهم انهم لم يروا منك للان الا رجلاً منقطعًا للبطالة غير مكترث بالمسائل العظيمة المضطربة بها البلاد فاظهر لهم انك اهل لان تعمل اشياء اخرى من غير قيادة كلابك للصيد اثبت لهم انهُ يمكن المرء من امثالك ان يكون من سلالة اجداده الاقدمين وان يدافع عن المبادئ والحقوق التي يعتقد كونها مفيدة والهية ويتولى الزود امام البلاد عن ارباب الشغل المتوجعين وينتصر لدعواهم الشريفة المقدسة اصرف سهرات الشتاء الطويلة بدروس نافعة وطف مزارعنا في كل يوم كن عادلاً حليماً بشوشًا فنكتسب قلوبًا كثيرة دعني احقق مقصدي الذي رفضتهُ فيما مضى بلا شفقة فتصير بقوة اعمال الخير ومداومة الخدمة ضروريًا لاصحابك ولا ريب انك تجازى يومًا على اهتماماتك واشغالك بالحصول على صوت البلاد . . اجعل هذه الغاية مطمحًا لانظار حياتك يا كونتران . . واذ ذاك نقاتل بنجاح ونتغلب على هذا الحب المشين الذي ينهك قواك وعقلك . . . . وستجد بجانبك لتشجيعك على سلوك هذا السبيل الحسن المجيد لا اقول قلبًا محترقًا بالوجد بل صديقة مخلصة تساعدك في كل اجتهاد ومقصد حميد ونباركك في حال صلاحك وشجاعتك وهذه المهمة لا تقتصر فوائدها على انقاذك فقط من ضعف مشوم بل يمكنها ايضًا ان ترفع وتشرف اسم ولدنا . . وحينئذٍ فلربما هذا القلب الحزين الذي اشعر الان انهُ مثلج مائت يجدد حياتهُ لدى مشاهدتك يا كونتران متغيرًا كريمًا بواحدة من الاعجوبات

التي يجازي بها الرب احيانًا المقاصد الحزومة واذا بالعكس كانت الضربة التي اصابته قتالة لصداقتة الجدية وتربية ولدنا واعتبار العالم وسمعتك ولربما مطمح حميد ايضاً كل ذلك يكون كافياً لاشغال حياتك وتخفيض اسفك على ضياع الحب في الزواج الذي كنت تلهج به سالفًا

قال لست انا الساعي بتدابير ذلك الامل بل الظروف ومع ذلك فقد حصلنا على ايام جميلة

قلت بل كثيرة الجمال يا كونتران . . ان من جملة الخطايا العظيمة التي ارتكبتها ضدي كونك رفعتني في بادئ الامر الى افق السعادة التامة وانت تعلم ان هذا الهناء لا تطول مدتة اما خطائي انا فهو اعتقادي بدوام امثال هذه السعادة وعندما خاب الاعتقاد وحلت الرزايا نقصتني الشجاعة للاستقرار بعزمي على شيء ورقة شعائري تحولت الى منتهى التطرف المشطط بسرعة التاثر فلم اعد اعلم ماذا واي شيء احتمل واقتضى ان تزول من راسي جميع تلك التخيلات والاوهام بتمامها للرجوع الى نفسي وعقلي ولربما لو خاطبتك من قبل بهذه اللهجة الثابتة المعقولة التي اخاطبك بها اليوم لاوجدت فيك رغائب شريفة واستاصلت كثيرًا من المقاصد المشينة ورفعتك في آن واحد لدى اعينك واعيني ولكني اقول للمرة الثانية ايضًا اني اخذت وفتنت بكلامك وصدقتك وكان غروري عظيماً هائلاً وفي مدة العراك المتواصل بين حبي واحتقارك ضعف واظلم عقلي ولكني اشعر انة ثبت وعظم وارتفع بفكر الواجبات الجديدة التي فرضتها على النظرة وهاانا الان ارى واحكم واتكلم بخلاف السابق

وكان كونتران يسمع لي بدهشة متزايدة لم تدع له فرصة لمقاطعة حديثي فصاح بخلاف السابق نعم بخلاف السابق ثم كرر قولة ماذا يامتيلدة هل هذه هي انت التي اسمعها الان . . انت الضعيفة المتصبرة على الدوام .

قلت اجب يا كونتران هل يمكن فيما بعد ان تبكي وتقول لي هذه الكلمات التي لاتليق بامثالك وهي ماذا اعمل ضد الشهوة الجنونية المتلاعبة بي

فصاح الموسيو دي لانكراي لا لا لا ابدًا لا اقول ذلك فستكونين لي كما كنت على الدوام ملاكي الحارس لان اقوالك الشريفة الخشنة فتحت امامي افقًا جديدًا . . نعم نعم ساقاتل تلك الشهوة واتغلب عليها . . وسيكون لي من ذلك غايتان وعوضان . وهما تجديد الحصول على اعتبارك واعتبار الناس ومعاودة اكتساب ذلك القلب الشريف الذي سببت خسرتة . . اني عند ما اقابل ايتها الامرأة الشريفة الممتازة بين النساء بين هذه اللهجة الوقورة السامية وادعاآت اورزيل الوقحة بل عندما اقابل بين التهيجات الطاهرة السليمة الناشئة عن الافكار الكريمة المتنبهة

فيّ بحديثك والشعائر المرة التي تتاتى لي على الدوام من افكارها السخرية المترفعة لايمكنني ان افهم كيف استطعت ان اتعامى عن صفاتك الى هذه الدرجة واضحيك .اه يامتيلدة دعيني اعتقد من اجل الحصول على الشجاعة والثبات في مقصدي بان برودة قلبك الوقتية لاتلبث ان تزول سريعاً .فاه ما الذ هذه الحياة الجديدة الحنونة الحبية المشتركة فيما بيننا وقتئذٍ

قلت اعيد لك القول ياكونتران ان ذلك مستحيل نعم ستحصل مني على المساعدة والمودة اللتين يفرضهما عليّ الواجب انما لايمكنني ان اعدك باكثر من ذلك فان زواج الحب فيما بيننا مضى واخلفه زواج المؤانسة وستكون علائقنا من الان وصاعداً سكونة بكآبة ولكنها طافحة بالرعاية والمودة والاخلاص اني لااحاول مدح تصرفاتي يا كونتران وانما تامل جيداً فيما حصل بيننا وانظر الم اتصرف

فقاطع حديثي وصاح بلا ريب تصرفت كواحدة من اكرم النساء ولكن التعود على السعادة يجعل المرء كثير الرغائب . ولربما لايمكنني ان ارتضي بما لااستحقة ايضاً

قلت تشجع . . تشجع ياكونتران فقد يمكن ان تاتيك الحيوة بايام سعيدة ايضاً وتتعزى بمطامع شريفة ومشاغل جديدة وانتصارات مجيدة ولربما ياتي يوم لاتاسف بهِ على شيء واكون انا وحدي المتنبهة للفرق الكائن بين الماضي والحاضر اريد الفرق النسبي يكدرك الان . . .ان حيوة جديدة لا يبعد ان تبتدي امامك .فالشجاعة .الشجاعة ياكونتران .واذا وجدت انك تعيس فافتكر بمن هم اشد تعاسة منك

قال نعم . .الشجاعة الشجاعة يامتيلدة وسوف ترين . . اني ساريد كوني مستحقاً لك ومن هذا النهار ستبتدي امامي هذه الحيوة الجديدة التي تكلمت عنها .فقد نبهت من قلبي المطامع الحميدة وسانبع مشوراتك اني اسف بالرغم عني والوم نفسي بعنف لما اني نظرت الى هذه الثورة بلا اهتمام كمتفرج ولم انتصر ولا بشيء من الاشياء للعائلة المديون لها بكل شيء .ان ذلك جبن . . . فشكراً . . .شكراً لك يامتيلدة لانك اخجلتني باستلفات افكاري الى ما يخجل من اعمالي . .

واعترف ان هذه المحادثة اوجدت فيّ بعض الامل فشكرت الرب لانهُ الهمني التكلم بالخير وكلما كنت اعاود التامل بالمشورات والامال التي اخلصتها لكونتران كلما عظم استصوابي لها وقلت في ذاتي اذا امكن ان يربو في نفسهِ حب المجد والطمع فلا ريب انهما يعظمان سريعاً بما يكفي لازالة الشهوة التي يشعربها من نحو اورزيل فان رجلاً مثل كونتران بافكارهِ ومعرفتهِ للناس اذا انخرط في سلك الاعمال السياسية لايرتاب احد بوصولهِ سريعاً الى مركز معتبر

الفصل السادس والاربعون

السفر

وفي ثاني يوم هذه الحادثة التي اوجدت فيَّ آمالاً كثيرة وكشف فيها كونتران عن مقصد كريم لم اشاهد زوجي وفي نحو الساعة الثانية كان البرد قارسًا ولكن الطقس صحو جميل فبعثت اسال كونتران عما اذا كان يريد مرافقتي للتنزه بالعربة وبعد قليل عادت بلوندو واخبرتني انهُ بمشاغل كثيرة وهو يأسف لعدم استطاعتهِ على المسير معي الى هذا التنزه

فظننت انهُ بالنظر الى حرارة اخلاقهِ الفطرية مشغل بالاعمال التي لاتلبث ان تجرده من افكارهِ المضرة وانطلقت وحدي لهذا التنزه فانتفعت بشمس الشتاء الباهتة وافرخ روعي المنقبض واستضئت رغماً عني بامل مبهم بعيد

ومع ان قلبي كان مجردًا عن حب زوجي ووجودهِ في الغالب يكدرني بالنظر الى التذكرات القاسية التي يذكرني بها كان لا يسعني ان امنع نفسي عن الامل بامكانية الحصول على مستقبل حسن

وكان من افكاري وقتئذٍ انهُ اذا توصل كونتران بقوة الشغل والارادة الى التغلب على شهوتهِ لاورزيل وناب منابها في قلبهِ مطمع شريف فحينئذٍ يكون قد تخلص من هذه الاشراك ويعود اليَّ

ان الرجال المتطبعين بطباع من مثل طباع كونتران اذا ما تنبه فيهم الطمع يومًا لا يدع مكانًا معهُ للشعائر الحنونة ولربما يكفيهِ حينئذٍ امتلاك قلبي اذا راعى حالة انقيادي واخلاصي

واسفي ان هذه الافكار اثبتت لي ضعف عزمنا وتقلبات شعائرنا فاني والحق يقال لم اعد احب زوجي كما قلت لهُ ومع ذلك فقد ترأى لي لاقل امل بمشاهدة رجوعهِ اليَّ كالسابق ان لربما يتجدد حبي لهُ ايضًا فكان احب لديَّ ان اصدق ان قلبي مصاب بمرض الجمود من ان اصدق بموتهِ . .

وبعد تنزه طويل انقلبت راجعة وكان الوقت تقريبًا ليلاً ولدى قربي من القصر تعجبت لمشاهدة بلوندو قادمة لمقابلتي في الممر الطويل الموصل الى الجنينة ثم اشارت الى السايق فاوقف العربة وللحال اضطربت بملامح الحزن والقلق التي ظهرت لي من وجه هذه الامراة الصالحة فقلت اصعدي معي يابلوندو لاقودك بالعربة الى القصر

قالت كنت مزمعة ان اطلب اليك ذلك ياسيدتي ثم صمتت

فسالتها ما هذا يابلوندو فانت مصفرة . مضطربة ولا ريب انهُ حصل في القصر شيء خارق العادة

قالت ارجوك قبل كل شيء ياسيدتي ان لاتقلقي

فصحت انك تخيفينني فما هذا الذي حصل اذن

قالت اني ركضتُ الى هنا خشية ان تعرفي في القصر فجأة

فصحت صرحي اذن صرحي اذن ماذا حصل

قالت سكني روعك ياسيدتي . . نعم ان هذا الخبر يستدعي تعجبك . . ولكنهُ لا يكدرك اذا تاملتهِ بعين بصيرة . . . بل لربما يكون مفيدًا وموجبًا لراحتك باكثر من السابق

فصحت لراحتي باكثر من السابق الا وضحي اذن

قالت ان حضرة الفيكونت اعطاني تحريرًا باسمك ومنهُ تطلعين بلا ريب . . .

فصحت تحريرًا واين هو

قالت هاكهُ ياسيدتي ولكن الليل اقبل ولا يمكنك القرأة في هذا الظلام

فصحت وما الذي قالهُ لك الموسيو دي لانكراي

قالت اسمعي ياسيدتي تفصيل الخبر انهُ وصل الى القصر بعد ذهابك للتنزه بقليل جيرمين الخادم الذي بعثهُ حضرة الفيكونت الى باريس منذ زمن وكان مواصلاً مكاتبته منها يوميًّا وطلب في الحال مواجهة سيده وبعد ان تحادث معهُ نحوًا من خمس دقائق . . . فصحت واخيرًا

فعاودت بلوندو التكلم بتردد ونظرت اليَّ بملامح التوجع والتاثر بالشفقة وقالت اوكد لك يا سيدتي ان لربما يكون هذا السفر مناسبًا لك . .

فضممت يديَّ الى بعضهما وصحت ماذا . . هل سافر اذن الموسيو دي لانكراي

ولم يسع بلوندو مداومة الاخفاء فقالت بعنف نعم سافر وليت الرب لا يسمح برجوعهِ لانك ذهبت ضحية للشدائد ايتها المسكينة

فلم اجاوب بلوندو وهرعت الى غرفتي لقرأة تحرير الموسيو دي لانكراي وهذه صورتهُ

ماران الساعة الثالثة

انك تحذرين بلا عناء سبب سفري فجأة . . . فما من فائدة بالاخفاء وقد وصلت بنا الحال الى هذه الدرجة ان من الاقدار وانت تعلمين ما لا يمكن المرء بلا جنون ان يحاول مقاومتها

ان وجودي من الان وصاعدًا سيكون ثقيلاً وغير محتمل لديك وكذلك وجودك سيذكرني بالاثام التي لا يمكني ولا اريد انكارها فان صفاتك الحسنى ومعائبي لا تمكنا من الامل بالمعيشة في هذا النوع من الارتباط السلبي الذي يكتفي بهِ كثيرون من الازواج فان تاسفاتك على الايام الاولى من زواجنا ستكون دائمًا بمعنى اللوم وصبرك في الفضيلة يذكرني باثامي على الدوام فتزهق اخلاقي ولا يمكنا الا ان نخسر نحن الاثنان بالتقرب

اني اترك لك تمام الحرية ويقيني انك تحسنين التصرف بما يليق واسالك ان تكرمي علي بنفس هذه المنة اعلمي من جهة ثانية اني قطعت بعزمي وعبثًا يداخلك الامل بامكانية تغييره واظن ان خمسة وعشرين الف فرنك تكفيك سنويًا للمصروف وستدفع لك هذه القيمة بتمامها سوى بقيت في ماران كما انصح لك بمداومة البقاء او نزلت الى باريس

واصليني بالاخبار عن صحتك واذا كان لديك اعتراض على هذه الافكار المالية التي عرضتها عليك فبادري لمكاتبتي لاهتم بتسوية كل شيء بحسب مبتغاك اني غششت مثلك بالمقصد الحسن الذي قطعت بهِ بالامس ومنشأ ذلك الضعف فاني كنت مجردًا من صوابي فتصرفت وتكلمت كرجل بلا عزم وحكمي الان كحكم من حملة التيار فاغمض اعينهُ واهمل نفسهُ لرحمتهِ انهُ يوجد ولو مهما قلت ظروف لا نستطيع الارادة معها شيئًا «ك دي ل»

وكان من سفر زوجي فجأة وقرأة هذا التحريران نشأ لي عنهما قشعريرة مولمة واضطراب شديد فشعرت حالاً بتمزيق داخلي عنيف.. وجمد دمي في عروقي.. وتجاوز فكري كشهاب من النار خوف هائل... فاغمي عليَّ من الرعب والالم..

اليوم.. كوفتتني... وعلى الدوام.. فلتكن ملعونًا ياكونتران... لانك قتلت ولدي في احشائي..

ولا اعلم كم مضى عليَّ من الزمان بعدئذٍ وانا في حالة قريبة من الجنون وضياع الصواب وكانت بلوندو لا تفارقني لا ليلاً ولا نهارًا تماعلمتني اخيرًا اني عندما علمت بنتيجة اضطرابي المستنكرة فقدت عقلي... فجعلت استغرق بضحكات الضحك المقرون بالرعشة ودامت هذه النوبة العصابية الشديدة الى ان نفذت قواي بتمامها فالم بي نوع من الغيبوبة والجمود ولم اعد الفظ كلمة في كل هذه المدة وتراى للناس كاني لا اسمع شيئًا مما اخاطب بهِ وبقيت نحوًا من شهرين غير حاصلة على قوة الادراك بتمامها وعندما رجعت الى صوابي اقتضى ان تقص عليَّ بلوندو كلما حصل... كل شيء الى حين سفر زوجي.. كل شيء.. الى حين حصول الشرور المتسببة عن ذلك السفر.. كل شيء اخيرًا الى تلك الدقيقة الهائلة التي.. ان قلبي لا يطاوعني على الكتابة ويدي ترتجف وكل وجودي يرتعش بهذه الذكرى المولمة.. فاه يا ولدي..

آه ياولدي

الويل لك يا كونتران الويل لك

ان صوت يأسي لايزال يعلو بالتنهدات الى هذه الساعة فو يل لك انت يامن قطعت بلا شفقة الرابطة الاخيرة . . الوحيدة التي تربطني بالحياة

الويل لك يامن جردتني من المحجة الوحيدة التي لربما كانت تسمح لي يوماً ان اصفح لك عن الشرور التي اسأت بها اليّ . . فلتكن ملعوناً يا كونتران . . ملعوناً الى الابد . .

ثم تساءلت مراراً عديدة عما اذا كان سفر زوجي فجأة هو المسبب وحده لتلك الحادثة المشؤومة المتوقف عليها تقرير حياتي او ان منشأ ذلك الاحزان الحارة التي تالمت بها منذ بضعة شهور و بقيت زماناً طويلاً مجهولة من ضعفي لااريد ان اعترف بهذا الجبن الاخير المستوجب اللوم العنيف فاني بالرغم عن خيانة زوجي المعيبة وتحريره لاورزيل واقراراته الصريحة وشعائر فؤادي وتصريحاتي باني لم اعد احبه . . يااللعار و ياللخجل . . كنت لاازال احبه . . احبه . . لان صدمة الاضطراب الشديدة التي اصابتني بسفره كانت سبباً في موت ولدي قبل اوانه

فالان وقد زالت عن اعيني غشاوة الغرور الى الابد واصبحت اشاهد الماضي بعين الحقيقة البصيرة ارى ان املاً خفياً مبهماً كان يستدني بلا علمي حتى في وسط الاحزان المتطرفة واشدها باساً بحسب ظني ان غياب كونتران جعلني ان اشعر بماهية حضوره بالنظر اليّ

نعم كنت اعرف حبه لاورزيل وكان يعترف لي بذلك الحب الجنوني المستعصي ولكنه كان هنا على الاقل بجانبي وكان يمكني ان اتكل بقوة العناية والحنو على رجوع قلبه اليّ . . ثم اعيد ايضاً للمرة الثانية هذه العبارة ولو مهما كانت قاسية ومجردة عن الشفقة وهي - كان هنا - بجانبي واحب لديّ ان اتوجع بحضوره من ان اتوجع لغيابه

ان نوعاً من تبكيت الضمير الماثل الخشن سيتبعني من الان وصاعداً الى منتهى حياتي . . لان حباً دنياً كلفني حياة ولدي

ولو كان صحيحاً ما تقوله شفتاي الكاذبتان لجهة نسياني واحتقاري لهذا الرجل لوضعت جميع مستقبلي نصب اعيني في الحب الوالدي وتحملت بعاده بشرف وسكينة . . ولكن الحقيقة لم تكن كذلك فان حالة التمزق الخشن التي شعرت بها لسفره اثبتت لي بكم وكم من الشريانات الخافقة كان لايزال قلبي متعلقاً به . . ولكن ذهابه المشين الفاضح استأصل من قلبي هذه الجذوع الاخيرة الحارة الدامية واعدم واسفي بعد فوات الوقت وانما الى الابد بزوو ذلك الحب الدني . .

الفصل السابع والاربعون

الوصية

وفي مدة مرضي وصلت التحارير الاتية من الدوقة دي ريشفيل الى ماران ونظرت بلوندي انها مغلقة بالسواد فخافت ان تكون متضمنة اخبارًا مشومة ولم تسلمها لي الا عند زوال الخطر عني لئلا تعرضني لاضطرابات جديدة خطرة ولم تحفظ هذه الامراة الصالحة المخلصة بالمامات ضميرها اما التحارير فهي الاتية

باريس الساعة الثانية في . . كانون الثاني سنة ١٨٢١

احرر لك ياعزيزتي متبلدة بعجلة عن حادث مولم فقد اتصل بي الان ان الموسيو دي مورتاني جرح امس بالبراز جرحًا بليغًا . . ثم يقال ولا يمكنني ان اصدق بان صديقنا هذا المنكود الحظ انجرامه الذي تعرفين اخلاقه واستقامته كان البادي بالاعتداء

ان الجراحين المتولجين معالجته لا يمكنهم للان ان يصرحوا بشيء من الامل ولا يستعملون الالات الجراحية للمرة الاولى الا في هذا المساء اني لا اعلم ما الذي يخيفني من ان يكون هذا البراز الذي الموسيو دي مورتاني من عمل بعض الدسائس المستنكرة

ذهبت منذ هنيهة بنفسي للوقوف على اخباره وبينما انا مستغرقة في عربتي انتظر خادمي على باب المنزل الذي يقطنه وحده على ما تعلمين واذ وفد اثنان بقامتين عظيمتين وثياب حسنة ولا ريب ان مجيئهما كان نقصد الوقوف على اخباره ايضًا وقبل دخولها اجريا من انواع الاحترام المضحك بالاعتذار من بعضهما عن مرور الواحد منهما قبل الاخر ما اوجب دهشتي وبعد ان قضيا هنيهة في المنزل خرجا وبقيا مدة امام الباب ينظران يمنة ويسرة ثم قال الرجل الاكبر منهما وقد ضحك كالوحش (ولا انس الى الابد هيئة السفلة المشومة ووجهه المحمر الاحمر وهو بلحية بجاحبين شديدة الشقرة واعين زرق صغيرة) الم اقل لك ان الرصاصة في الجنب توثر من مثل الرصاصة في الجمجمة فاني صوبت الطلق نحو راسه وانت تعلم مهارتي واني لا اخطي ذبابة من مسافة اربعين قدمًا ولكني مع ذلك اجبرت ان اخفض اعيني امام اعين ذلك الرجل فاني لم اشاهد في حياتي نظرًا مثل نظره . . وهذا الذي اضاع ميزانية رصاصي فاجاب الرجل الاخر بلهجة غريبة ولفظ مشدد لاباس . . اذا كانت الضربة قاضية فحصل على الوعد . . انما من مزية له الا القيام بكلامه . .

ولم اعد اسمع شيئاً لان الرجلين ابتعدا ولا يمكنني ان اصرح لك بمقدار قلقي من ذلك . . فمن هما اذن هذان الرجلان يا ترى . واية علاقة بين الموسيو مورتاني ومثل هولاء الناس . وما المعنى بهذه الكلمات ستحصل على الوعد . ما من مزية له الا القيام بكلامه . اذا كانت الضربة قاضية ـ فما هذا السر .

الساعة الثامنة مساء

لا يزال الموسيو دي مورتاني على حاله وقد امر بلزوم المحافظة على السكوت المطلق وارسلت ارجو الموسيو دي سين بيار بالمجيء اليّ وكان واحداً من شهود صديقنا في البراز على ما علمت ثم اخبرته بما سمعته من اقوال الرجلين فدهش مثلي لهذه الكلمات الغريبة . ان احد هذين الرجلين ذا الشعر الاشقر كان مبارز الموسيو دي مورتاني وهاك تفاصيل ذلك البراز بحسبما املئني بها الموسيو دي سين بيار

قال حضر اليه الموسيو مورتاني مساء الجمعة واعلمه بحصول مشاجرة قوية بينه وبين رجل لا يعرفه ولكنه كان يصادفه في قهوة باريس حيثما جرت له العادة ان يتناول الطعام وكان هذا الرجل ورفيقه يبادران على الدوام للجلوس على المائدة المجاورة له كلما سمحت لهما الفرصة بذلك ويوفقان جلوسهما بحيث يكونان مسموعين منه ثم ياخذان بالتكلم عن الامبراطور بالفاظ الخشونة والاحتقار ولا يخفاك يا عزيزتي متيلدة تشيع وتعبد الموسيو دي مورتاني لنابليون فانت تعلمين اذن باي فروغ صبر كان يتحمل هذه المحادثة التي تجرحه باعظم المواضيع استحقاقاً لميله وحبه الحاد

في يوم الجمعة الماضية جاء الموسيو مورتاني كعادته للعشاء ولم يستقر على المائدة الا وصل الرجلان وبوصولهما تجدد المشهد وبوشر بالمحادثة المعتادة ولاحظ صاحبنا المنكود الحظ انهما يتكلمان بالاشارة وينظران اليه ولكنه مع ذلك تمكن بتعب من امساك نفسه ثم نهض وخرج ولم يبد كلمة اذ ما من سبب شرعي للمباشرة بالعدوان لان هذين الرجلين كانا بالطبع حرين ان يتبادلا الاراء فيما بينهما ويصرحا بافكارهما وفضلاً عن ذلك فان خطابهما لم يكن موجهاً اليه . . . .

وبعد خروجه من قاعة الطعام توجه الى الكوميدي فرانسيز وكان الحضور نذراً قليلاً فاخذ كرسياً منفرداً وجلس عليه واذ حضر بعد دقائق الرجلان المذكوران وجلسا بجانبه ثم عاودا حديثهما المعهود فرأى الموسيو دي مورتاني نوعاً من الاعتداء بهذا الاصرار الغريب على دوام ملاحقته ففرغ لسوء الحظ صبره وتغلب عليه اخيراً فوران غضبه فالتفت نحو صاحب اللحية الشقراء منهما وقال لا يتجاسر على التفوه بمثل ذلك عن الامبراطور الا الرجل الشقي

. . فبدلاً من ان يجيب هذا الرجل الموسيو مورتاني على كلامي بقي يخاطب رفيقة وضاعف القذف بحق نابليون وكان من هذه السماجة ان اخرجت صاحبنا المنكود الحظ عن طور التعقل فشد الرجل المجهول بعنف من ذراعهِ وسالهُ الم تسمع كلامي

فصاح الرجل بحدة انك دعوتني شقياً ثم رفعت يدك عليَّ ولم اخاطبك بكلمة فانت البادي بالشر وقد وجب عليك القيام بالترضية فهذه تذكرتي وغداً صباحاً يكون شاهدي عندك ثم دفع تذكرتهُ الى الموسيو دي مورتاني وكان مكتوباً على هذه التذكرة القبطان لابلان

وفي نفس ذلك المساء النحس حصلت فيهِ هذه المشاجرة ذهب الموسيو دي مورتاني الى الموسيو دي سين بيار وقال لهُ انهُ مخطي ولكنهُ لم يستطع الامساك عن الغضب لدى استماعهِ القذف والمطاعن تلفظ بحق تذكار الرجل الذي يعجب بهِ اكثر من جميع العالم ثم طلب من الموسيو دي سين بيار ان يتفق مع شاهد القبطان لابلان وزاد على ذلك انهُ مستعد للتسامح معهُ بكل ترضية يطلبها

وفي الساعة الثامنة من صباح اليوم الثاني حضر لمقابلة الموسيو دي سين بيار شاهد القبطان لابلان وهو رجل من ايطاليا يلقب بالشيفلير بيريتي وطلب ان يكون حق اختيار السلاح للقبطان لابلان وانهُ يريد البراز بالافردة على بعد عشرين قدماً وان يكون هو البادي باطلاق الرصاص لانهُ المهان

ورغب الموسيو دي سين بيار ان يعدل حظ القتال بما يمكن فطلب ان يطلق الاثنان سوية ولكن شاهد القبطان تمنع شديداً عن الرضاء بذلك ولسوء الحظ كان الموسيو دي مورتاني هو البادي بالعدوان بلا موجب شرعي فاجبر الموسيو دي سين بيار اخيراً على قبول البراز بحسبما عرضت خطتهُ من الخصم

وعندما علم الموسيو دي مورتاني بنتيجة هذه المواجهة المكدرة ظهر عليهِ القلق والانهماك وقبل ان يذهب للقتال دفع الى الموسيو دى سين بيار مفتاحاً وتضرع اليهِ ان يرسل الاوراق التي يجدها في صندوق دلهُ عليهِ لاصحابها المعنونة باسمائهم

وكان الموسيو دي سين بيار عليماً بشجاعة الموسو دي مورتاني الذي ادى في مثل هذه الظروف اعظم البراهين واشدها سطوعاً ودلالة على هذه الشجاعة فلم يسعهُ الا ان يعزو لنوع من الهام الضمير المشوم حالة التضعضع والوجل التي ظهرت عليهِ قبل القتال فان صاحبنا الموسيو دي مورتاني اظهر استمراراً جمة على ما كان من تطوحهِ بالغضب واهانتهِ لهذا الرجل كأن تذكار الامبراطور لا يدفعهُ عن نفسهِ ثم كرر مراراً ايضاً هذه الكلمات لربما صفح لي عن هذا العمل لو كانت حياتي متعلقة بي وحدي اما الان فالذي عملتهُ اشد من جنون لابل جناية . .

وعند الظهر وصل الموسيو دي مورتاني والقبطان لابلان وكل منهما مصحوب بشاهدين الى حرش فيل — وافراي حيثما نظم كل شيء بحسب الاتفاق فوقف الخصمان على بعد عشرين قدماً وانتصب الموسيو دي مورتاني بمنتهى قامته وكان ماسكاً بيده اليمنى فرداً ثم شبك ذراعيه على صدره والقى على القبطان نظراً ثابتاً نافذاً فاخفض القبطان امام هذا النظر اعينه برهة وشاهد الموسيو دي سين بيار بجلاء ان يد القبطان ترتجف ولكن الرصاص والاسفي خرج من الفرد . . وكان خروجه مشوماً فدار الموسيو مورتاني مرة على ذاته وسقط على ركبتيه ويده اليمنى على جنبه الايسر ثم ارتمى على قفاه وصاح — يا ابنتي المسكينة — انه كان يفكر بك وقتئذ يامتيلدة . .

فحمله شاهداه بين اذرعهما بحالة تقرب من حالة النزع لان الرصاصة كانت قد تغلغلت في صدره ثم نقل الى باريس بمزيد المداراة وحالة صحته الموجبة للقلق الشديد لم تتاخر للحسن الحظ منذ امس

فهذه ياعزيزتي متيلدة تفاصيل الخبر المشوم الذي اخبرني به الموسيو دي سين بيار وهو يفكر مثلي بالنظر الى الكلمات الوحشية التي سمعتها بالامس ان هذين الرجلين حسبا بمزيد الدقة لتحقيق مقصدهما العدواني وتصرفا بتعمد ودسيسة الى ان تيسر لهما اخراج الموسيو دي مورتاني عن خطة اعتداله العادي فانه القى نفسه بمباشرة العدوان المجرد عن التعقل لرحمة هذين القاتلين المستاجرين والذي يظهر ان احدهما على يقين من اصابة رصاصة

ولكن من ذا ياترى المغري الخفي على اجراء هذا الانتقام اذ لا ريب بان هذين الشقيين لم يتصرفا من تلقاء نفسيهما وما هما الا آلتان لمحرك هائل . .

وصلني الان كلمة من الموسيو دي مورتاني وهو يشعر انه احسن ويقول ان لديه اموراً خطيرة يريد ان يكشف لي عنها ومعاذ الله ان اتاخر دقيقة عن القيام بهذا الواجب المشوم المقدس اني ابارحك الان وساعود اليك قريباً ياابنتي

باريس الساعة الحادية عشرة مساء

اني قادمة راساً من مواجهة صديقك يامتيلدة . . فلنشكر الرب ونتضرع اليه بطلب المعونة اذ ما زال للان بعض الامل . . وسيعيش . . سيعيش لسعادة اصدقائه ومجازاة اعدائه لان الكلمات التي سمعتها اطلعتني على دسيسة هائلة

فيا للعار ويا للخيانة . . ولكن فلنتكلم عنك اولاً . . ان صوته الاول نطق باسمك متيلدة اما كلماته الاولى فكانت التضرع اليَّ ان اخبرك بان واجبات خطيرة استغرقته ولم تمكنه من تخصيصك ببضعة ايام منذ مشهد المنزل المنفرد — انه عهد لصداقتي بجميع تفاصيل تلك الليلة

المشومة وستعلمين قريبًا لماذا .
انّ الازمة السياسية التي جرت الى الثورة في السنة الماضية وانتصار المبدا الذي يحسب الموسيو دي مورتاني من اشد نصرائهِ تحمسًا له وغيرة عليهِ كل ذلك يدلك على اهمية المصالح التي اشغلتهُ بكليتهِ تقريبًا في اثناء هذه الشهور وقد وصله تحريرك لهُ بخصوص اسراف زوجك وكان مراده ان يجيبك كعادتهِ اما بالتطمين واما بأداء المشورات الفعالة ولكنهُ التزم أن يستعد بمشورات عديدة من رجال اشغالهِ ولم يسعهُ الحصول الا اول امس فقط بمنتهى الصعوبات على نسخة من اتفاقية زواجك . . فوا اسفي يا ابنتي المسكينة انك ذهبت بها ضحية الخيانة فاحشة تامة . . فلا يمكنك التصرف بشيء . . ويمكن زوجك ان يبتلع كل شيء ولا يترك الا الفقر والشقاء لتلك التي اغنتهُ بكرامة . . .
ثم قال الموسيو مورتاني لا باس فلتكن متيلدة بتمام الطمانينة فسيضمن مستقبلها ومستقبل ولدها ولو مهما حصل حيث اومت بالرغم عن تبذير زوجها ثم اخبرتهُ بكل شيء اينها الامراة التعيسة . . وبمواضيع غيرتك العادلة وقساوتهُ وهو لا يرى الا واسطة واحدة ممكنة لانقاذك من هذا الظلم . . اني لا اجسر على كتابة هذه الكلمات لاني عليمة بجنونك الاعمى . . وهذه الواسطة بحسب زعمهِ هي . الافتراق . . . ولم تمر عليك سنة كاملة وانت متزوجة اينها البنية التعيسة اسمعي لصديقنا ولي يا متيلدة وتاملي وتعودي على هذا الفكر . ولا ترتهبي لهُ . . نعم ان الانفراد مكدر ولكنهُ خير من الم دائم . .
واذا أبقى لنا الله بحسب اعتقادي الوطيد الموسيو دي مورتاني فسيذهب هو بنفسهِ اليك ويخلص لك امام زوجك هذه النصائح التي طلب اليَّ برجاء ان اقدمها لك
اما الان فلنرجع الى التكلم في الظنون التي تاتت لهُ عن الكلمات التي سمعتها من الرجلين فهل تعلمين من هو هذا الذي يتهمهُ بالاغراء على هذه الجناية . . مع ابداء التحرسات التامة قبل القطع بالحكم شان النفوس العادلة المستقيمة . هو ذلك الشيطان ليكورتو الذي اشتغل بهمة لضياعك ولم يخبرني الموسيو دي مورتاني بمشهد المنزل المنفرد وتهديدات الانتقام التي ابداها ليكورتو عند سفره الا ليعلمني بموضوع هياج ذلك الشقي الذي اقام بكلامهِ واستعان باثنين من القتلة المستاجرين ارسلها يترقبان الموسيو دي مورتاني ثم انفذا تعليمات سيدهما الجهنمية بان اثارا الغيظ والغضب في صدر صديقنا المنكود الحظ باهانتهما امامهُ تذكارًا يحترمهُ حتى اذا ثبت كون الموسيو دي مورتاني هو البادي بالعدوان وترك بذلك حق اختيار السلاح وتنظيم القتال الى خصمهِ لم يعد ممكنًا لصاحبنا التعس الاَّ ان يفتح صدره بلا سلاح للقتلة المستاجرين من ليكورتو

ومع ذلك فان الموسيو دي مورتاني بالرغم عن شدة انطباق هذا الايضاح على مظاهر الحال ومزيد احتقاره لهذا الرجل ليكورتو لا يصدق انه اهل لان يقدم على مثل هذه الخيانة الفاحشة الدموية فهو بالنظر الى حرية اخلاقه الخشنة لا يصدق الا بالحقائق والبراهين المحسوسة



ان اخفض اعيني امام اعين ذلك الرجل

الحكم بجريمة هي اشد شوماً من القتل لانها مضمونة العقبى وغير خاضعة للقصاص . . وهو يسلم . . . .

«. سوكان تحرير الدوقة دي ريشفيل مقطوعاً عند هذه العبارة . . ثم دفع اليَّ ايضاً تذكرة ورزمة ضخمة من الورق مغلفة بالسواد ومحررة من الدوقة دي ريشفيل بيد فاقدة قواها وهذا نصها .

الساعة الواحدة صباحاً

ما بقي لي قوة تعينني على ان اكتب لك هذه الكلمة الهائلة . . مات . . وذهبت به الغرغرة الاخيرة عن عالم الاحياء . . وليس هذا هو كل شيء . . اني اخشى التهور في الجنون من زيادة الرعب . . فان رجلاً مجهولاً جاءني بحال وصول هذا الخبر الهائل اليَّ بعلبة . . ففتحتها اما بحضوري . . اه يا الهي ما هذا الذي نظرته ضمنها . . نظرت باقة من تلك الزهور السامة الملونة بحمرة الدم التي ارسلت لك بدون علمك من ليكورتو . . وكنت متزينة بها في السنة الماضية في صباح الرقص . وهي مربوطة بشريطة سوداء . هل فهمت المراد من هذا الرمز المرهب اليس المعنى به اظهار اليد التي ضربت . . وانها تتهددنا بانتقامات جديدة . . اه يا الهي الرحمة اذا صح ذلك الاما الرحمة لابنتي . . اضربني في حياتي وجسمي فقط اعفُ عنها . . الحذار الحذار يامتيلدة . . فان روحاً جهنمية تحوم من حولنا . . ولربما يكون صديقنا ضحيتها الاولى . . . . . استودعك الله . . . . اني لااقوى على غير التصريح لك بالف حنو مستغرق بالحزن والكآبة

فيرنولي دي ريشفيل

وكان يصحب هذا التحرير كما مرَّ معنا رزمة من الورق مغلفة ومعنونة باسمي وهي تحتوي على ارادات الموسيو دي مورتاني الاخيرة . . . . وانه يهبني جميع املاكه . . ثم التصريح بسر مقدس سيبقى مدفوناً الى الابد في منتهى اعماق قلبي . .

وما من حاجة للتصريح بشدة تاسفاتي واحزاني . . فان اليد الوحيدة الثابتة المحبة التي لربما كان يمكنها ان توقفني على شفير الهاوية جمدت بالموت

ففي احد الايام اذن وجدت ذاتي منفردة لوحدي بقلب خال حزين . . ونفس طافحة بالتمرمر والبغض

وكنت قد مللت من دوام الاستمرار على الالم والاهانة وسئمت من انقيادي وفضائلي الماضية ففكرت اخيراً في حالة تهيجي العصياني ضد النصيب الذي فرضه عليَّ الرب لتجربتي ان اقابل الشر بالشر

. لا لا تصفح لي ابداً يا الهي عن ذلك ولتسقط اثامي على الرجل الذي رمى بي الى هذه الطريق العاصفة المأيوسة

فما من شفقة . . .ما من شفقة عليه لانه المتلاشي بين السماء الى الجحيم واجزيه موضوع املي الاخير فبغض بغض لايزول لمن قتل ولدي . .

الفصل الثامن والاربعون
التحرير

اني اشرف على اخبار هذا الزمن الجديد من حياتي بتحذر لاني لدى التكلم عن الحوادث التي تتابعت منذ طفوليتي الى زمن زواجي ومن زمن زواجي الى الساعة التي تركني بها الموسيو دي لانكراي بقساوة وذهب للاجتماع باورزيل في باريس كان يسعني ان اثق بلا خوف بجميع تذكراتي والتاثيرات الناشئة عنها فما كان لدي ما يجب السكوت عنه .اوما يستلزم الاخفاء

وكان الاخلاص في صحة الرواية سهلاً عليّ فما كنت اجد في اعمالي شيئاً يستوجب ملامتي لنفسي الا التطرف ببعض الصفات الكريمة وقد قلت للموسيو دي لانكراي اني عالمة بان اوجاعي الماضية على فرض انها علمت من الناس لايمكن ان تكسبني شيئاً من الميل لاني اظهرت شيئاً كثيراً من قلة القوة والشرف بتصرفي معه فكنت على الدوام خاضعة بعناية متبصرة بجبن لااعرف شيئاً من غير البكاء والتألم ومنزلة التالم من الفضيلة كمنزلة الدموع من الحديث ان من العظيم الجميل ان يتالم المرء من اجل صالح شريف ولكن احتمال الاهانة والاحتقار بانضاع من نفس دنية لايكون الا ضعفاً مشيناً مخجلاً لربما يحرك في الصدور الشفقة الباردة ولكنه ابداً . . ابداً . . لايدعو الى الاهتمام الموءثر

وحصلت من هذا الاكتشاف على مثالة هائلة فاني علمت كوني غير مستحقة تقريباً للحصول على الشفقة بعد كل هذه الاوجاع واثبت لي التامل والاختبار ان اورزيل بالرغم عن موبقاتها وضروب احتيالها المهيجة في استمالة القلوب اليها لربما تكون بالنظر الى جميع العالم او بالحري الى القسم الاعظم من الرجال مستحقة لان يعجب بها اما انا فما كان يكفي الادعاء بغير الاعتبار الباهت والشفقة المشينة ولكني كنت متعزية لاعتقادي اني لم احنث ابداً بواجباتي ووجدت في هذه الحاسة نوعاً من الاحتقار المر استعنت به بدوري على الاستحقاق باحكام العالم واضاليل زوجي

عـ خليلة لا يمكنني ان اصرح بما الم بي من خمود العزم والدهشة عندما وجدت ذاتي بعد مرض طويل وحدي ابكي على ولدي المائت قبل ان يولد

وكان من نهاية الموسيو دي مورتاني سندي الوحيد المفجعة ان ضاعفت احزاني وحدتي ففي مدة الشتاء تحملت اوجاعي بتبصر وكآبة ولكن مشهد الايام والزهور الاولى الجميلة من الربيع اوجد فيَّ احساسات مرة لان حالة الشتاء المظلم العابس كانت على الاقل مطابقة لاحزاني ولكن عندما تجلت لاعيني الطبيعة بمنتهى اشراقها ونموها وعاود كل شيء حياتة وحبة واستنشقت النسيم المنعش معطرًا بزهور الربيع الاولى بل عندما سمعت اصوات العصافير المفرحة تغرد في عباب الاوراق تزايد يأسي

فكان مشهد الطبيعة السكونة الباسمة كريهًا لديَّ وشعرت ان خاصة الحب والسعادة ماتت بتمامها من قلبي . .

فماذا تفيدني يا ترى الايام الجميلة المشرقة بحرارة الشمس والبهاء او ماذا تنفعني الليالي المنورة بالنجوم الطافحة بالطراوة والروائح العطرية والاسرار واما في الغالب فريسة لتطرفات الياس المخيف وتهيجات الغيظ العاجزة ولا سيما لدى التفكر بان لو عاش ولدي لكانت حياتي اجمل بكثير من الماضي اذ لو حصل ذلك لوجدت كنوزًا من التعزية في المحبة الوالدية وما امكن الموسيو دي لانكراي ولومها كانت اعماله محتقرة قاسية مجردة عن الشرف ان تؤثر بي في حالة استغراقي بانواع هذا الهناء المعبود

وحينئذ ادركت كم مركزنا نحن النساء حرج ومستنكر اذ لا يمكنا ان نستعيض عن حيوة القلب بحياة العمل

ومن غرائب الجور وقلة العدالة ان نحوًا من الف عوض مقدمة للرجال الذين لا يتالمون الا قليلاً بامراض القلب بينما خاصة الحب فيهم اقل انتشارًا مما فينا اذ طالما سمعناهم يصرحون بان الحب المحسوب قوامًا الجميع وجودنا لا يقدر باكثر من لهو عندهم وبالرغم عن اعمال زوجي المستقبحة لخوي ما امكني ان اسلم بان الخيانة تجيز الخيانة او نصفح بها ولم افكر بذلك احترامًا لكونتران بل احترامًا لنفسي

ولا يبعد ان اكون حاصلة بالنظر الى الناس على جميع الحقوق الممكنة لطلب العوض في حب اثيم ولكني كنت لا ارى شيئًا في الوجود اكثر دناءة وشينًا من هذا النوع من الانتقام ولهذا ظننت بان منابع الحب الحنون جفت برمتها الى الابد من قلبي

وكنت ارتهب في بعض الاحيان من شعائر البغض والشر التي تهيجني وتغيظني اما تذكار اورزبل فكان يخيفني ويشعل احيانًا في قلبي نارًا جنونية للانتقام . .

- وهاك ايها القاري غريبة اخرى من النوائب المشومة المتعصب بها جنسنا نحن النساء فان الرجل يستطيع ان يشفي غليل غيظه من عدوه فيدعوه للبراز ويقتله امام الجميع وينتقم لنفسه بمثل هذا القصاص الهائل . اما الامرأة المسكينة اذا استهين بها من امرأة اخرى وضربت منها بكلما هو عزيز ومقدس لديها فليس لها الا ان تفترس دموعها

ثم يا للغرابة ايضًا فانا نحن النساء اللواتي نتالم كثيرًا بالحب لا يمكننا ان ننتقم لانفسنا بطريقة شريفة جلية ورب قائل يقول انه يمكننا الانتقام لانفسنا بالاحتقار . . فماذا يعمل احتقاري لاورزيل ياترى وهي مجبولة بجميع انواع العار

وكان يخلف هذه الاحساسات الحادة نوع من خلو البال الممتزج بالكآبة وحياتي تمر على هذه الصورة ثم اعترف بحياء كثير ان الصلوة والعناية بفقرائي كان لا ياتاني لي عنها الا راحة موقتة فكانت اعمالي الخيرية موجبة لارضاء قلبي ولكنها لا تملأ فراغهُ

ونصحت لي بلوندو المسكينة مرارًا جمة ان اغير محل اقامتي واتجول على انه لم يكن لي رغبة بذلك ولا قوة عليه وكانت جميع الاشياء المحيطة بي هناك تذكرني باشد التذكرات مرارة والمًا ومع هذا فاني بقيت مستمرة على السكنى في ماران آكابد الضعف والوجل

وكانت تمر الايام والشهور عليَّ وانا على هذه الحالة في نوع من خمود الفكر والارادة اقضي حيوة منفردة كالحبيسة لان جميع خدم الموسيو دي لانكراي وافوه الى باريس ولم يعد في القصر غيري انا وبلوندو وامرأتين وخادم مسن كان في خدمة الموسيو دي مورتاني

وكنت امشي كثيرًا الى ان ينهكني التعب ولدى دخولي الى القصر ابادر عن غير وعي مني الى الاشتغال ببعض اعمال الخياطة وكان من المستحيل عليَّ الاشتغال بالموسيقى لان اعصابي مصابة بمنتهي درجات التهيج ولا يمكنني ان اسمع البيانو بدون ان ارتعش بتوجع وتفيض اعيني بالدموع

وكانت الدوقة دي ريشفيل تكاتبني غالبًا وعندما علمت بذهاب زوجي الى باريس للاجتماع باورزيل عرضت عليَّ ان تحضر لاخذي من ماران ولو كلفها ذلك ان تفارق اما وتتخلى عنها في دير القبر المقدس حيثما كانت مهتمة باتمام دروسها فكتبت اليها اشكرها على هذا التفضل ورجوتها ان لا تترك ابنتها وان لا تعود فيما بعد الى مخاطبتي بشيء عن كونتران واورزيل لاني اريد ان اجهل اعمالهما كل الجهل

وكانت تحارير الدوقة دي ريشفيل طافحة بالحنو والجودة ثم كلفتني لعلمها بكآبتي ومزيد احترامها لاحزاني ان احضر على الاقل لمشاهدتها في باريس ولكني كنت اكره وقتئذٍ شديدًا معاودة الاختلاط بالناس

وعلمت من رجال اشغالي ان الموسيو دي لانكراي يبذر اموالي باسراف يحدر بنا سريعًا الى الخراب وهو حاصل على ملء السلطة المطلقة عليّ لانا تزوجنا على ان تكون الاموال مشتركة فيما بيننا فكان في وسعه اذن بمساعدة الشريعة وبلا قصاص ان يبدد ثروتي

واعترف ان هذه المسائل المالية قلما كانت تهمني وقتئذٍ لان الراتب المعين لي كان كافيًا لاحتياجاتي وفضلاً عن ذلك فان الدوقة دي ريشفيل كانت قد كتبت لي بان الموسيو دي مورتاني وقد فاجأهُ الموت لم يتمكن من اجراء الوسائط الممكنة لوضع الاملاك التي تخلف لي عنها في مأمن من اسراف زوجي ولكنه دفع مبلغًا معتبرًا من المال لضمانة مستقبلي ومستقبل ولدي اذا جار عليّ الموسيو دي لانكراي وصرف جميع املاكي واموالي . . واسفي اني خسرت ذلك الولد . فماذا يهمني المستقبل

ومضى عليّ اكثر من سنتين على هذه الحال بسرعة وعلى نمط واحد وفي نهاية تلك المدة لم اعد اتألم ولم اشعر بشيء لا بفرح ولا بوجع ولربما بقيت زمنًا طويلاً ايضًا في هذه الحالة من خمود الحساسة لو لم يصلني هذا التحرير من الدوقة دي ريشفيل ويظهر لي منه ضرورة العود الى باريس

باريس في ٢٠ تشرين الاول سنة ١٨٣٤

اني مجبورة يا عزيزتي متيلدة بالرغم عن تنبيهاتك المعاكسة ان احدثك باخبار الموسيو دي لانكراي فقد علم امس واحد من اصدقائي باحكام الصدفة الغريبة ان زوجك مهتم ببيع ارض ماران والرجل الذي يريد شراها متمسك على ما اظن بدفع ثمنها من عشرين الى ثلاثين الف فرنك ولعلمي بمقدار تعلقك بهذه الارض لانها تخص املك ولربما لانك تالمت فيها كثيرًا ارسلت رجل اشغالي (بعداذ استشرت الموسيو دي روشكيم وقد وصل الى هنا منذ شهر) يعرض على الموسيو دي لانكراي وهو لا يعرفهُ استعدادهُ لشراء القصر والاراضي المذكورة بثمن ازود من الثمن المدفوع فقبل زوجك بذلك وتحررت اتفاقية المبيع واصبح حضورك الى باريس مما لا يستغنى عنهُ

ان اتفاقية زواجك لاتخولك الحق بالاستيلاء على شيء يكون خاصًا بك فيلزم اذن الالتجاء الى معاملات كثيرة ليتقرر لك هذا الشراء تحت اسم مفترض وتنجو هذه الاراضي من اسراف زوجك في المستقبل واذا وافقتك هذه الاجراآت تكونين قد صرفت في سبيل مناسب الاموال التي ودعها عندي الموسيو دي مورتاني في تلك الليلة المشومة الى الابد . .

لا تواخذيني يا ابنتي العزيزة بهذه التفصيلات المكدرة لانك تعلمين مقدار اهمية ذلك بالنظر اليك فيا للسعادة اذ مكنتني الصدفة ان اخفف عنك احزانًا وتاسفات جديدة

ان حضورك الى باريس اصبح من الامور التي لابد منها ولربما يخرجك من حالة الاوجاع المتألمة بها . .

وابنتاه ان تحاريرك موجبة ليأسي . . فهل يبقى حزنك بلا شفاء . . وهل يجب ان تتركي هكذا فريسة لاستمرار الوجل والكآبة . . وهل تعزيات الصداقة لاتحسب شيئاً بالنظر اليك «فلما هذا الانفراد اذن» بعنادلافكارك الحزينة

اني اعلم من الجميع بموجبات ابتعادك عن الناس لكني اسالك اما من وجود لدرجة وسطى تختارينها بين عزلة مطلقة وغوغاء الاعياد

اني لا اجسر على مخاطبتك بسعادتي ولا اقدم لك حياتي كمثال لاستمالة قلبك الى وجود يصرف بحلاوة بين بعض الاصدقاء المخلصين . . لان اما بجانبي وستقولين لي بحق ان جميع الظروف بوجودها ولو مهما كانت يجب ان تظهر لاعيني بمظهر سعيد

ان هذه الوحدة التي تعيشين بها لايمكنها الا ان تغلظ قلبك الشريف اللهمَّ اذا كان في المستطاع ان يتجرد هذا القلب عن صفاتهِ الملائكية . . فتعالي اذن تعالي الى ما بيننا

اني منذ نهاية تعاليم اما ومبارحتي لدير القبر المقدس اوجدت نوعاً من الصداقة الحصرية الملذة مع نساء يكبرنني قليلاً بالسن لاني اصبحت والحق اولى ان يقال بصريح العبارة امرأة مسنة ذلك ما جرد النساء اللواتي يفترضن كوني حاصلة ايضاً على بعض المدعآت من سلاح المقاومة ضدي

اني ملازمة لمنزلي في جميع السهرات وابواب قاعتي الصغيرة مفتوحة لقبول الزائرين من اصحابي وكثيراً ما يدور الكلام فيها بخصوصك ولكن تصرف زوجك غاية في الشطط المشين وتلك الامرأة المخيفة عارية من الحياء والخجل وصبرك مزدان بمنتهى الشجاعة والشرف بحيث لا يوجد في قاعتي الا صوت واحد يلهج باظهار الشفقة عليك والاعجاب بك

ان الثورة قلبت وفرقت الهيئات الاجتماعية عندنا ولم يعد في باريس الا محافل صغيرة فما عدت ترين الان منزلاً عظيماً مفتوحاً للاجتماع كالسابق ولم يحصل ذلك عن كدر من الحكومة التي قلما يهتمون بها الان بقدر حصولهِ عن استحالة لم شعث تلك الجموع المختلفة .

ففي اثناء الملكية كان البلاط وواجباته وعلائقهُ ومطامعهُ ودسائسهُ هو الرابطة الوحيدة الجامعة بين كل هذه الاجزاء اما الان فما من شيء يحمل على هذا التلاحم وقد انفرد كل بحسب ذوقهِ واميالهِ وتالفت الاجتماعات العائلية ولم يبقَ الا سفارتا النمسا وسردينا كمركزين وحيدين تجتمع اليهما بقايا جمعياتنا المتبددة

* لاتعجبي يا ابنتي العزيزة من دخولي في هذه التفصيلات ذات الظواهر الصبيانية لاقناعك بلزوم الانقياد الى طلبي هذا الخطير

اذلوان العالم كما كان منذ اربع سنوات ولا تزال العائلة المالكة في باريس لما تعجبت من اصرارك على دوام الابتعاد عن الناس لان النساء اللاتي يكن من فطرتك يخجلن من اجل اولئك الذين يحقرون زمامهن ويستهينون بهن وكانت العزلة فرضاً واجباً عليك باعمال الموسيو دي لانكراي السفلة كما كتبت لي انت نفسك حينما قلت ان الامرأة اما ان تتالم لهجرانها من زوجها واما ان لاتتالم وعلى كلتا الحالتين فلا يوافق ان تظهر لاعين الجميع عدم اكتراثها او كدرها ولكني اعيد عليك القول للمرة الثانية

يا ابنتي اني لاأعرض عليك الذهاب الى ما بين العالم لان جمعيتنا التي تتمنى كثيراً مشاهدتك تؤلف من خمسة عشر الى عشرين شخصاً وكلهم تقريباً من اقاربي او اصدقائي

وهذه اسماء بعضهم اريد ان اذكرها لك واومل ان يكون ذلك برهاني الاخير المساعد على مجيئك

فستصادفين عندنا في كل مساء تقريباً البرنس ديريكور الصالح وامرأته الذين تمكنا بقوة العظمة وطيبة القلب من ان يصرفا حيوة طويلة بالسعادة والحنو لم يتكدر صفاؤهما ابداً بشيء من الغيوم السوداء فان الثورة الاولى خربتهما والاخيرة احرمتهما من مركزهما السامي في الحكومة وكل ثروتهما الباقية فانحدرا الى وهدة الفقر وقبلا هذه المصيبة بشرف وشجاعة يرغمان الناس على احترام شقاءهما كما احترموا من قبل هناءهما واوكد لك يا متيلدة ان منظر هذين الشيخين البشوش اللطيف يسكن هواجسك ويفيدك ويمنحك الشجاعة لتحتملي بثبات احزانك

ومنذ يومين ذهبت صباحاً لمشاهدة الاميرة وهي تقطن مع زوجها منزلاً صغيراً بقرب مونسو لان عزلة ذاك الحي وحصولها على جنينة حسنة في المنزل ثم بخاسة الاجر هي التي دعتها الى السكنى هنالك ولا يمكني ان اوضح لك باي احترام دخلت الى ذلك المنزل الوضيع

فما من شيء ابسط من ترتيب غرفه وكان موجوداً فيه صور قديمة شهيرة للعائلة وبعض هدايا مقدمة للامير من الملك في اثناء سفاراته غير العادية يتجلى بها ذلك المنزل بمجالي العظمة الساقطة بشرف انحدرت له دموعي الى اعيني

ففكرت بتمرمران الامير والاميرة متعودان على سعة العيش وسكني المنازل العظيمة

وقلت لربما يتالمان شديدًا لحالة هذا النفر الهائلـة لستها اما هما فما كانا يتفوهان ابدًا بالشكوى ولا بكلمة مرة ضد الدهر واظهرت للاميرة اعجابي بها فاجابتني ببساطة سامية ان هذا التصور الذي تصفينه ياعزيزتي بالبسالة كثير البساطة فانا نفكر بما كان ممكنًا حدوثه من حصول افتراقي عن زوجي في ايام هذه التجارب ثم بالملك الشيخ واولاده ونشكر الرب لانه وقانا من احزان كثيرة كان في وسعه ان يلقبنا بها

اني عالمة يا متبلدة بمقدار استحقاقك لاهتمام القلوب وميلها ولا اطلب اليك ان تشبهي احزانك المزعجة بهذه الاحزان او ان تقتدي بهذه الشجاعة ولكني اقول لك فقط تعالي تعالي الى ما بيننا فقد يكون من التعزية ان يحب المرء مثل هؤلاء الناس ثم قولي لي اخيرًا يا ابنتي المسكينة اي تذكار معزٍ تحملين اليه عندما تقضين النهار بالوحدة والحزن وتطلبين الموت انك لا تجدين تذكارًا صالحًا للتعزية وبالعكس لو كنت حاصلة امام اعينك على مثل هذا المشهد المؤثر اما كنتِ تشعرين انك اقل تعاسة مما انت . . فلماذا لا تعالج امراض النفس كامراض الجسم اذا كان الهواء النقي الشافي قادرًا على اعادة الحيوة . بل لماذا لا تعاود النفس الجريحة قوتها في افق من الشعائر السامية الكريمة

اني عالم بانك صالحة محسنة وديعة ومن اجل هذا لا يمكنك ان تتكلي بالحسنات التي تجرينها وعمل الخير لا يلطف احزانك

تعالي . . تعالي للمعيشة معنا فنسليك لانك تجدين عندنا ايضًا ابنة عمي المحبوبة الذكية الكونتيسة آ . دي سنيور وهي بافكار رفيعة ساطعة مجردة عن الشفقة من نحو كل دني سفل ظالم . ويقال انها تحب الافراط والتطرف وهل تعلمين لماذا . . ليسعها ان تعظم وتغالي بما هو كريم وسام بجميع الافكار وان تذبح بلا شفقة ارباب الاعمال الشريرة الشاذة

هل تذكرين عند ما ذهبت الى صباح الرقص في سفارة النمسا انك نظرت هنالك امرأة غريبة بجمال لا يمثل وهي اللوردة فلورا فيتزـ الان انها لم تنسك قط واشاهدها كثيرًا عندي وهي تكلمني عنك بلا انقطاع ففي ذلك اليوم بينما كانت معجبة بملامح وجهك المسكر الطاهر واذ وفد عليها الناس يخبرونها انك بفكر من اخبث الافكار واشرها في العالم (وكان ذلك على ما قلت لي من وشايات السيدة دي ماران الاولى) فبقيت السيدة المذكورة باهتة من العجب والخوف لدى التفكر بحزن ان وجهًا سذجًا لطيفًا من مثل وجهك امكنه ان يستخدم كبرقع لاخفاء كل هذه الشرور . وقد بادرت في الحال لانارتها بمعرفة الحقيقة فشكرت لي هذا الجميل بتاثر عظيم اذ يعز عليها كثيرًا ان يكون مشهد الطهارة والجمال غرارًا كاذبًا انك ستهيمين جنونًا بمحبة هذه اللوردة اما اللورد فيتزـ الان زوجها فهو عين الكمال

الانكليزي الاتم جامع للاستقامة والشرف

ولا بد ان تكوني صادفت احياناً المركيزة دي سيريني وابنتها الدوقة دي كراندفال فان لم يكن ذلك واردت معرفتها فتصوري منتهى الظرف الاتم مضافاً الى رقة الاساليب الممتازة والزهو البسيط لان الظرف والذوق الحسن والاستحقاق في هذه العائلة من الصفات الارثية في النساء

اما من الرجال فقد تشاهدين عندي في الغالب حضرة سفير . . . . وهو واحد من افاضل اصدقائي القدماء بقلب عظيم وشجاعة نادرة وشعائر كريمة وعقل مترفع من الذين قاتلوا ببسالة في الحروب وهو بسيط طيب لانه شهم باسل . صدقيني يا ابنتي العزيزة انه لا يزورني الا اناس خطيرون وانت تعرفين اني احب المباينات وعليه فستجدين عندي ايضاً زهرة هذا الزمان احد ابناء اختي كاستون دي سينفيل ومن المستحيل ان يوجد ما هو اشد جمالاً وظرفاً وسمواً من هذا الرجل ولكنه مع ذلك لا يضر ابداً او بالحري لا يعبأ به مطلقاً فهو واحد من اولئك الشبان الظرفاء الذين يسيرون براس متعبدة للنساء من ربات الزي الجديد كابطال الاجواق في الناجعات القديمة وقد اظهرت له تعجبي من مجيئه لعندي ولم اعد امرأة من هذا الزي فقال لي انه يحبني كاحسن الاقارب وانه يجد بتردده عليَّ لذة بانتشار افكاره وعقله وتنفذ فيه اشعة جدية تفيده كثيراً وكان لا يومل بها بالنظر الى سنه ومن افكاره الحسنى انه لا يحب مجانبة الناس ويظهر في كل مكان وجهه الجميل واساليبه البديعة فهو يذهب الى ما يدعونه اليوم بالبلاط الجديد ويخبرنا بما يحصل هنالك حيثما يوجد على قوله نساء بديعات بتربية غريبة ورجال فوق العادة فهذه الاحاديث تفكهنا كثيراً ثم من الحسن ايضاً ان يكون لكل منزل من يمازج السلطة الحاضرة لان الانسان لا يعلم ما يمكن حصوله في المستقبل ومن مبادينا ان نتمسك على الدوام بالحكومة الراهنة ولو باية رابطة كانت

اطلت عليك الحديث بتفصيل مثل هذه العوارض ولم اكلمك طويلاً عن واحد من احسن اصدقائنا المحسوب روحاً لجمعيتنا تقريباً اني اخبرتك في سياق الحديث برجوع الموسيو دي روشكيم ولم امدك بشيء من التفصيلات عن ذلك واريد ان اصلح هذا القصور ان حرارة الشمس في الشرق لذعته وغيرت لون بشرته الى حد ان كادت تخفاني معرفته وبعد ان قاتل مع اليونان ذهب عفواً من هناك لمقاتلة الشراكسة مع الروس ومن المستحيل ان نقص الاخبار بما هو ابدع من اخبار هذه الحروب العجيبة وقد حصل هنالك على ما ينقصه بحسب زعمي وهو الطمأنينة والثبات والبشاشة التي رفعت اخلاقه الى درجتها السامية الحقة ولكن هذه البشاشة تاثرت كثيراً بخبر وفاة الموسيو دي مورتاني المولم ونحن نلهج على الدوام بذكر هذا الصديق

الصالح والموسيو دي روشكيم يهتم بك باخلاص عميق وجميع الناس يحبونهٔ من اجل طيبتهِ وعقلهِ واستقامتهِ اللايقة برجال الشرف انهُ والحق يقال بشجاعة ادبية فوق العادة فما من شيء يوقفهُ عن التصريح بحرية افكاره فهو يقول ويجسر على ما لا يقولهُ ولا يجسر عليهِ احد غيره والكونيتسة دي سيمور تقول عنهُ بعدالة — لا يمكن ان يكون المرء باكثر من هذه الجسارة شهمًا مستقيماً — وهو يتكلم غالبًا في مجلس الاعيان ولا يداري بكلامهِ الجارح القاسي لا اصدقاه ولا اعداه عندما يدافع ضدهم عن احد المبادي العظيمة التي يجلها على الرجال والاشياء ومع انهُ شاب يعتمد عليهِ كثيرًا لان نفوذه يعادل استقلاله

فهذه مهمتي اشرفت على اتمامها يا عزيزتي متيلدة فاني صورت لك الاشخاص الذين ستعيشين فيما بينهم اذا اردت ذلك وهم ينتظرونك لا ليحبوك بل ليقولوا لك انهم يحبونك منذ زمن طويل

صدقيني يا عزيزتي متيلدة انهُ بقدر ما العالم عمومًا شرير مفسد في اغلب الاحيان بقدر ذلك الصداقة الحصرية المنتقاة تكون مفيدة ومخلصة للاشخاص الذين تتألف منهم

قلت لك يا بنيتي العزيزة اني ارتكبت هفوات وما زلت اعترف بذلك ولكن الناس لم يقتصروا على مواخذتي بهذه الهفوات التي ارتكبتها بل بالغوا في كل شيء الى منتهى ما يمكن من التهم المستفظعة فاستعنت باسمي وعائلتي واصحابي وثروتي واخلاقي للثبات امام هذا التسخط العام ولكني من حينما انسحبت من هذا العالم العجاج بل من حينما حصلت باحكام السنين والمصائب والعقل والدين على رصانة المبدا والمسلك لم اعد اجد من حولي الا مسامحة وميلاً واهتمامًا

لا لزوم للقول عند ذكر الاشخاص الذين يجتمعون لدى عادة انهم نخبة الافاضل وان وجودهم معي يبرئني من جميع آثامي الماضية ان البرنس والبرنسيس ديركور مع غيرهما يحسبون من اولئك الافاضل الذين قضوا حياتهم جميعها بالطهارة الساطعة بل من ارباب السلطة النافذة الذين يتوقف على مدحهم ومذمتهم منزلة المرء بين الناس ومجمل القول ان البرنس ديركور كلهُ شرف ورقة وشجاعة وسموٌ فهو مع اعتزالهِ عن الناس لربما يكون نفوذه الان على الهيئة الاجتماعية اعظم من نفوذه عليها قبل ان ينكب بالمصائب التي يتحملها بشرف فانت عالمة اذن بمقدار سعادتي وافتخاري بحصولي على اميال هذين الزوجين المحترمين والذي يملأُ قلبي اخيرًا بالفرح والامتنان انهما يحبان اماً كما تستحق ان تحب

ومن الممكن ان يكونا عالمين بسر ولادتها وان اخفيتهُ عنها واظهرت انها يتيمة معهود اليّ بتربيتها ولكن رقة احتراسهما في هذا الصدد هي شهادة لي منهما على المسامحة وحسن

الالتفات وقد نظرت اما ومقدار جمالها العظيم . واذا لم اكن عمياء بالمحبة الوالدية تكون مجملة الان بمحاسن كثيرة زيادة على السابق . فان التربية التي حصلت عليها امامي في القبر المقدس نشرت وانضجت جميع استعداداتها وهي تقضي معي السهرة مرتين او ثلاث مرات في الاسبوع فيسر بها كثيرًا جميع اصحابي وسترينها . . وسترينها

. وا اسفي هل ترينها يا متيلدة وتمتنعين عن حيوة الوحدة والانفراد التي تقضين بها اجمل سنيك . والذي يقال ايتها البنية المسكينة ان اعتزالك المؤلم انما هو كفارة عن الشرور . . . اه يا الهي عن الشرور التي عوملت بها بلا ريب

ولكنه يوجد ما يطمني فانك حاصلة الان على اسباب خطيرة موجبة لمجيئك الى باريز ومن الجنون ان ترددي بالحضور . لانك متمسكة كثيرًا باران ويجب من اجل هذا ان يهمك ايضًا كثيرًا السعي للمحافظة عليه

لا اجسر على الامل باقتدار هذا الاعتبار الاخير الذي ساقدمه لك على تقرير عزمك بالحضور ولكن لا باس من التجربة

انك تعلمين كوني اسكن الان منزلاً في شارع ليل ففي منتهى جنينة ذلك المنزل مسكن معتزل كانت تقطنه المركيزة دي مونتال وقد تخلت عنه وهو قريب فهل تريدين اخذه ولا اظن انه يلزمك محل للسكنى يكون اكثر اعتبارًا من محل سكنها وعلى كلٍ فاني اضع تحت اوامرك اشياء كثيرة يمكني الاستغناء عنها والجنينة واسعة فيمكنك الانفراد في مسكنك عندما تريدين ان لا تشاهدي احدًا ولكني انا واما على الاقل نكون هنالك بجانبك وصدقيني يا بنيتي المسكينة ان من المعزي على الدوام ان يكون للمرء بجانبه قلوب طيبة مخلصة

تاملي جيدًا يا متيلدة فيما اعرضه عليك اني لا اعجب لتكرهك من المجي الى باريس للمعيشة فيها وحدك وانت في هذا السن والمركز لان ذلك مستحيل ولا يمكن من جهة ثانية ان تسكني عند عمتك لان ابنة عمك الفاحشة عندها ولكن اقتراحي يطلب مجيئك للسكنى بجانبي ازال هذه الموانع لاني صرت عجوزًا مسنة وانت تعلمين اني عندما اريد كنت قادرة على الدوام ان اتخذ لذاتي احذابًا من الناس فساكون لك اذن ملجأ امينًا . . بهذه المشاركة في السكنى

اسمعي لي هذه الكلمة ايضًا يا متيلدة فلو لم اكن قد قررت ووطدت مركزي الجديد في العالم ويمكنك ان تجدي بجانبي الراحة والمساعدة لما عرضت عليك ابدًا الحضور اليَّ . . بل لو لم تجعلني علائقي الحاضرة في مأمن من كل وشاية سفلة لما تجاسرت ان اقوم من نحوك بهذه المهمة الوالدية . . لا شبهة انك فهمت كلامي يا بنيتي . . ان هذا الاقرار لا يستدعي

منك العجب لاني صرحت لك بما هو اشد اهانة لكبريائي . . .

صدقيني اذن واذا قلت لك تعالي اليّ فاعلمي انهُ يمكنك المجي بتمام الثقة والطمانينة .

هذه اما دخلت عليّ الان ترجوني ان اذكرك بها وتقول لك انها طالما فكرت بك وهي وان لم تعرفك تمام المعرفة تحبك بقدر ما تحبينني وهذه نفس كلماتها العذبة كثيرًا لقلبي فكيف لا ارددها لك واقول تعالي . . تعالي ان حننا لك يعادل فروغ صبرنا بانتظارك ومني لك الف حب حنون

فيرنولي دي روشفيل

الفصل التاسع والاربعون

روفري

وأثرت فيّ قرأة هذا التحرير تاثيرًا نهائيًا فان السيدة دي روشفيل لم تذكر فيهِ ما عدا مسألة الصالح المتعلقة بشراء ماران الا خلاصة المراسلات التي واصلتني بها منذ سنتين ولكن الدموع انحدرت في الحال الى اعيني عند تلاوة الفقرة الاخيرة من ذلك التحرير التي تكلمت بها بلجاجة عن تغيير سلوكها لتقنعني انها مستحقة لان تقوم بهذه المهمة الوالدية التي تحاول اتمامها بالنظر اليّ ولو لم يكن وقتئذٍ من الضروريات ما يستدعي ذهابي الى باريس لما امكنني مع ذلك الا اجيب طلبها لكيما لا اجرحها برفض يمكن ان تفهمهُ بما لا يوافق كرامتها

ولا انكر ايضًا ان تصويرها لحالة الصداقة الحصرية التي يعيش بها اناس طالما سمعت الالسن تلهج بمدح صفاتهم وافكارهم كان لهُ دخل باعتمادي على السفر وعند محاولة الابتداء بهذه الحيوة الجديدة شعرت ببعض الاسف على ترك هذه الاماكن التي توجعت فيها كثيرًا لاني كنت قد وجدت اخيرًا نوعًا من السهو المفيد اشبه بالنعاس في حالة السكينة التي اخلفت هياجي . . . . فهل كنت عالمة ياترى بما يضمره لي المستقبل

ولم يكن للخوف من مصادفة اورزيل وزوجي في باريس ادنى تأثير بمحافظتي على حياة الاعتزال في هذه المدة لاني كنت حاصلة من نحو زوجي على قلب خالٍ مزدرٍ ومن نحو اورزيل على بغض عميق وكنت على اعتقاد من استحقاقي وموقنة ان جبهتي لا تصفر لدى مقابلتهما بالرغم عن وقاحتهما ولكني حينما تركت من زوجي اعتبرت اني فصلت عنهُ الى الابد اذا لم يكن بالحقوق فبالعمل فهذا المركز المربك لامرأة مثلي فتية وتكرهي من المعيشة وحدي

في باريس هما الموجبان لاطالة اقامتي في ماران على ان السيدة دي ريشنيل ازالت جميع هذه العوائق بما عرضته عليَّ لجهة السكنى معها تقريبًا

فنبهت بلوندو الى انا سنبارح ماران للذهاب الى باريس والسكنى مع الدوقة دي ريشنيل فبكيت من الفرح وعجلت كثيرًا في استحضار جميع معدات السفر مخافة ان اغير عزمي ثم تركنا ماران في اواخر الخريف

وكان لا بد من مرورنا امام روفري ولا اعلم هل يجب ان اقف هنالك لمشاهدة السيدة سيشرين اولا فاني لم احصل على خبر منها ولا من ولدها منذ ذلك اليوم المشوم الذي حضرت به الى ماران تحمل الى اورزيل من زوجها المهان بسلوكها ارادته بالافتراق منها الى الابد

وكنت خائفة من هذه الزيارة فهي لربما تفتح مني ومن هؤلاء المساكين جروحًا مدملة ولكني من جهة ثانية كنت لا اريد التظاهر بعدم الاهتمام لاحزان هذا الرجل الكريم الصالح

وبينما انا في هذه الترددات واذ وصلت بنا العربة الى امام معمل الموسيو سيشرين فامرت السايق بالتمهل في السير للحصول على بعض دقايق ايضًا للتامل واذ نظرت فجأة الموسيو سيشرين خارجًا من ممر ضيق عميق يودي الى الطريق العام

فلمحني ووقف ينظر اليَّ برهة بهيئة وحشية ثم اخفى وجهه بين يديه وسارع بالرجوع فجأة الى الممر الذي خرج منه وكان متغيرًا شديدًا ولا ريب انه عرفني ولم يعد يمكني الاضراب عن زيارة امه فاتجهت نحو المنزل وبقيت بلوندو تنتظرني مع العربة عند بداية ممر السوسن حيثما صادفت سابقًا اورزيل ثم تقدمت وحدي منذهلة من حالة الاهمال الموجودة بها الجنينة وكانت فيما سلف غاية في الانتظام محوطة بمزيد الرعاية والعناية فان جميع ممراتها استغرقتها الاعشاب البرية ولم تعد تقلم كالسابق الاشجار الكبيرة بل تركت وشانها فنمت كثيرًا وبلا انتظام واخفت مشهد اللوار ومناظره المسرة ولم يبق من اثر للزهور في الحياض وكان يسمع للاوراق اليابسة المتساقطة صوت من تحت اقدامي والسماء الرمادية الممطرة المعهودة في اوقات الصباح من الخريف تلقي حجابًا مظلمًا على هذا المشهد المحزن

وكان تمثال الحجر الموجود في صدر الممر المظلل بالاشجار الكثيفة الذي سمعت فيه اورزيل وكونتران يتكلمان بالحب للمرة الاولى خرابًا وعند مدخل الدار وجدت واحدة من الخادمتين اللتين نظرتها قبلاً في روفري فاخبرتني ان السيدة سيشرين في القاعة فتجاوزت الفناء وقاعة الطعام وكان البرد فيهما بدرجة الجليد وبلاط الارض مغطًا بالحشيش نابعًا بالرطوبة وكل شيء في المنزل مهملاً متروكًا . . فما هذا الانقلاب العظيم الذي طرأ على عادات السيدة سيشرين والذي اعهده منها شدة الحرص على اتمام واجبات الخدمة والنظافة

وكانت الابواب مفتوحة فدخلت بقدم متمهل ووصلت الى القاعة بدون ان تشعر السيدة سيشربن بقدومي وكانت جالسة بقرب مغزلها بثوب اسود كالعادة وعلى راسها قناع ابيض وبغاوءها المسنة منكمشة بالبرد ونائمة ويشاهد من وراء زجاج الطاق المظلل بالضباب قضبان الاشجار العارية من الورق يحركها الهواء وفي وسط رماد الموقدة قرمتان مشعلتان من الخشب المسود اما اثمنة الامتعة والستائر فكانت مصفرة بالدخان بعد ذلك البياض النقي وخلاصة القول ان هذا المسكن وكان قبلاً مشرقًا بالنظافة بما يعادل اشراق البذخ تحول الى ما يشبه بيوت الحزن والموت وغير ذلك من المظاهر الدالة على عدم اهتمام الشيخوخة فكانما لسان حالهِ يقول ما الفائدة من الاعتناء الكثير لايام قليلة

ولدى تذكري بحالة الزهو والمسرة التي ظهرت في ذلك المسكن لمدة من الزمان بوجود امرأة في ريعان الصبا ارتعشت بالخوف وقلت اذا كان الموسيو سيشربن يتذكر للان امرائة وهو لا يزال بالرغم عن ذنوبها الجسيمة لنحوه يقابل بين الحاضر والماضي فلا ريب انهُ متقلب على جمر من الحيوة القاسية

ثم بدأ قلبي يخفق بشدة فوقفت بلا حراك على باب القاعة ولدى اعادة التامل باصغاء في وجهها المصفر الباسر داخلني العجب الشديد لكثرة اعداد التجعدات العميقة التي رسمتها الاحزان على وجهها وحركت مغزلها لمرتين اثنين بتمهل كرقاص الساعة الكبيرة الذي يقف تدريجيًا ثم احنت راسها قليلاً على صدرها باعين شاخصة محمرة تنظر ولا ترى وواحدة من تلك الدموع النادرة الوجود في اعين الشيوخ تبلل جفنها الجاف المحمر ثم اضطربت فجاة كما لو انها تنبهت بحركة حادة وجعلت تفتل المغزل بحدة كانها تحاول الفرار من تاملات مشومة واردت ان لا ابقى طويلاً ايضًا غير منظورة منها فحركت المفتاح وللحال انهضت راسها وشاهدتني فدفعت المغزل برجلها بعيدًا عنها ومدت ذراعيها اليَّ بدون ان تلفظ كلمة فقبلت يديها المحترمتين وجلست بجانبها

وبعد سكوت لبرهة من الزمان صاحت اني تعيسة بل اتعس امراة في المخلوقات انما لا تصرحي بشيء من هذا لانهُ لا يعلمهُ

قلت اني صادفته الان وهو متغير كثيرًا

اجابت وولداه انهُ لم يعد يعرف والحزن يقتلهُ وسارعت الى التكلم بهيئة خشنة وقالت انهُ لا يزال يفكر بتلك العاهرة ثم اضافت بتمرمر قولها ما عاملتهُ الا بالشر اما انا يا الهي فاني احببتهُ على الدوام كولدي وثمرة احشائي . . . . نعم احببتهُ ومع ذلك فهو لربما يفكر بها اكثر مني

قلت اومل ان تكوني مخطية بذلك ولا ريب ان ابن عمي مستغرق بالاوجاع لانهُ غش بدناءة لا بتذكار . . . .

فقاطعتني بعنف وصاحت لا تلفظي هذا الاسم المبغوض . . بربك لا تلفظيهِ . . . فانت تريدين تغريبي ولكني لم اعد اغر . . . لا . . لا ليس هذا الذي يشعر بهِ ولدي غيظًا لان الغيظ يهب ويعصف وينزل باللعنات على مسببيهِ وبعد الغيظ يأتي الاحتقار والنسيان وهذا الشقي لم ينس . . لم ينسَ شيئًا قلت اهلي . . اهلي ايضًا فلا ريب ان ابن عمي الان في زمان الاحتقار وقريبًا ياتي النسيان صدقيني اذا احسست منهُ التألم بالاوجاع الشديدة ان الاحتقار قاس في النفوس الكريمة

فهزت السيدة سيشرين راسها بحزن وقالت وا أسفي انك تخطيننى وليت الرب يسمع منك ويكون قلبهُ مشغلاً باحتقارها . . ولكني علمت الحقيقة

فصحت ماذا تقولين

قالت نعم علمت الحقيقة فهو في خجل يفرمني . . وينفرد لذاتهِ . . وفي الاوقات الاولى من حزنهِ ادركت ان ابني يرغب لجنوهِ على الانفراد فقلت في ذاتي انهُ لا يريد ان اشاهد اوجاعه . . لانك لا تعلمين مقدار الدرجة التي بلغتها احزانهُ . . . .

قلت فهل توجع كثيرًا اذن

قالت تساليني عن اوجاعه . . . . اني نظرتهُ ايامًا . . فهمت . . ايامًا وليال برمتها تائمًا على فراشهِ يبكي بدموع حارة ولا ينقطع عن التنهدات الا ليلقي بنفسهِ الى منتهى الهياج الجنوني ويرسل اصوات اليأس والاوجاع التي لاتفتر الا عندما يعض ثيابهُ بجنون . . اني ما زلت اراه للان يا الهي باذرع ممددة وايد مشنجة . . لا يعرف صوتي . . وهو يدعو في حالة غيابهِ وخلطهِ تلك الامراة . . . يدعوها الشقي ولا ينتبه اليَّ وانا هناك بجانبهِ اصلي وابكي . . فاه كم من ليالٍ ياالهي قضيتها كذلك جاثية على مخدتهِ غارقة بدموعي ودموعه خائفة ان يفقد صوابهُ باحدى هذه النوب الجنونية . . . انتظر بمنتهى العذاب ان يعرفني ثم رفعت الام المسكينة محرمتها الى اعينها وقالت لكنهُ عندما يعود الى نفسهِ يعانقني بطيبة واحساس كالولد الصغير ويطلب اليَّ ان اعفو عنهُ لانهُ اخذني ولم يستطع التغلب على اوجاعهِ ففي الايام الاولى لم أيئس منهُ وكنت اقول لنفسي عندما يجيبني احيانًا بكدر وفروغ صبر على ملامتي لهُ انهُ سيرجع اليَّ بعد زمان . . . وابذل المستطاع بمحاولة تعزيتهِ وتسكينهِ وتسليتهِ بلا نجاح واعد لهُ من الطعام الماكولات التي يحبها ولكنهُ لا ياكل ثم طلبت كتبًا مهمة من المدينة وجعلت اقرأوها لهُ مع ضعف نظري فلم يسمع واردت ان يتردد عليهِ لزيارتهِ بعض اصدقائهِ فكان

يسيء مقابلتهم بحيث لا يتجاسرون على معاودة الرجوع وعرضت عليه مع كبر سني ان اذهب واياه للسياحة فلم يقبل وانت تعلمين ان هذا المنزل مقدس لديّ واريد ان اموت فيه كما مات زوجي ولكني مع ذلك خفت ان تكون هذه الاماكن منشأ تذكراته الكثيرة الحزينة فعرضت عليه السكنى بمنزل اخر ولم استفد شيئاً لانه رفض هذا الطلب ايضاً . . رفضه كما يرفض على الدوام كلما يعرض عليه من امر

وكان يستدل من هذه التأوهات السذجة انها ممتزجة بالاوجاع العميقة وظهر لي ان حياة السيدة سيشرين كثيرة التعاسة لدى التفكر بتأسفات ولدها المستعصية فقبضت على يد هذه الام المسكينة وحولت لنحوها نظرًا حزينًا

اما هي فعاودت الحديث وقالت لكني بقيت متصبرة على الدوام وقلت في ذاتي ان هذه التأسفات التي اوجدتها له هذه الامراة المخيفة لا يمكن ان تدوم . . فكنت اصلي الى الرب ليشمل ابني برحمته ويعيده اليّ وطلبت الى الكاهن ان يصلي من اجله . . ولكن ذلك كله وا اسفي ذهب ضياعًا . . كله ضياعًا . . ثم زادت بصوت منقطع بالتنهدات وكلما تقدمت الايام كلما تراءى لي كوني لست شيئًا . . ولم يعد يسعني شيء لولدي ولا اجسر ان اقول له ذلك لانه بمنتهى التعاسة فكنت انتظر دائمًا وفي بعض الاحيان كان يتظاهر بهيئة اقل حزنًا من هيئته العادية رغبة منه بسرتي . . واراد مرة ذلك الولد المسكين ان يتبسم . . . فكان تبسمه طافحًا بالاوجاع وفاضت اعيني لمشهده بالدموع فاليت على نفسي ان لا اعود الى اغتصابه باعمالي على هذا التظاهر . . واحلف لك الان امام الرب الذي يسمعني اني لم اوبخه ابدًا على احزانه ولكن اعماله اضعفت همتي تدريجًا وانهكتني . . ولدي مشاهدته غير منكسر بشيء صرت مثله غير مفكرة بشيء ايضًا فتركت لرحمة الاقدار هذا المنزل . . واهمل كل شيء فانتشرت الاعشاب البرية في كل مكان من هذه الجنينة كما لا تلبث ان تنتشر قريبًا على تربة عجوز مسكينة لم تعد تصلح لشيء على الارض لانه لا يمكنها ان تعزي ولدها . . . .

فهذا الجبن من السيدة سيشرين كان مباينًا تمام المباينة لحال الثبات الخشنة التي اعهدها بها فارتهبت لذلك ولا ريب ان هذا الضعف الادبي يستدل منه على ضعف عظيم مادي فحاولت تعزيتها بذكر مثالي وقلت بلا ريب ان هاتين السنتين طالت ايامها بقساوة عليك انما افكري ان لا بد لكل وجع من نهاية وبقدر ما تأسفات ابنك حادة شديدة بقدر ذلك يقترب زمان نجاته منها بلا علمه فانا ايضًا اينها الام الصالحة تألمت كثيرًا ولم اخسر الرجل الذي اوقفت له حياتي برمتها بل خسرت ابني ايضًا وخسرت معه حظ السعادة الوحيد الذي

امكنني ان اومل بهِ . . ومع ذلك فهذه السكينة اخلفت فيَّ ذلك الاضطراب الهائل . . نعم انها لسكينة مشومة ولكنها بمقام السعادة تقريبًا اذا قابلت بينها و بين كلما شعرت بهِ . . فتشجعي اذن ايتها الام الصالحة تشجعي . . اذ لربما تكونين قريبة من نهاية اتعابك . . . لاني كابنك ذهبت ضحية لهذه الامراة . . . فاخلف بغضي احتقار خشن . . ولا اظن الوقت الذي يشعر بهِ ابنك بما شعرت بهِ بعيدًا

فهزت السيدة سيشرين بحزن راسها واجابت وا اسفي بتعقل ارهبني لا يوجد مشابهة بين الحالتين لان زوجك رجل من مصافك لا ارفع ولا ادني من الرجال الذين اعتدت على مشاهدتهم اما ابني فلم يعرف في حياتهِ امراة يمكن مشابهتها بهذه الشقية ولو بظواهرها على الاقل

ثم ظهر لي كانها عاودت الحصول على شيء من قوتها السابقة فصاحت ولكن هذه العاهرة تكلمت صدقًا في حالة كبريائها المستنكرة عندما تنبأت لي بجسارة لوسيفوروس ان امراة مثلها لا تنسى وان ابني سيأسف دوامًا عليها ويبكيها بدموع من الدم . . . اه يا الهي . . اه يا الهي ان ارادتك لا يمكن معرفتها و يلزم ان يكون المرء بكثير من من الامانة حتى لا ييأس من عدالتك . . وان يحب ابنهُ كثيرًا حتى يداوم حبهُ ولا فائدة من حبهِ . وهكذا عادت السيدة سيشرين الى هذا الفكر الموءلم فاردت تحويلها عنهُ وقلت لا تصدقي ذلك فلولاك ولولا عنايتك الملازمة لكانت حياة ابنك الان اشد شوءمًا بالف مرة من حياتهِ الحاضرة

فعاودت السيدة سيشرين الكلام باصرار مشوم وقالت كيف يمكن ذلك . . من المستحيل ان يأسف عليها اكثر مما اسف ولولا زيادة اوجاعه لقلت انهُ ا ن ردي خائن . . .

فصحت اه يا سيدتي

قالت لم يبقَ للان بجانبي الا اجابة لدواعي الاحترام الانساني ولانهُ حلف بتذكار ابيهِ في الساعة الاولى من غضبهِ انهُ لا يصفح ابدًا لهذه الجانية . . . اني توجعت شديدًا ولم اقل شيئًا . . . ومنذ سنتين . . تحملت كثيرًا . . ففي الماضي كان يظن بفضيلة هذه الامرأة ومع ذلك كنت لا احتمل ان يفضلها عليَّ . . . فكيف الان وقد حصل الذي حصل وهي مداومة التسلط على قلبهِ بهذا المقدار العظيم . . . فمن اللازم ان اصرح اخيرًا بفضلات قلبي ان ذلك يغيظني . . ان ذلك يجرحني

قلت يمكن ان يداخل المرء لزمان طويل الغضب والبغض ضد الذين اغشوه ولا يكون عرضة لنفوذهم ولاسيما القلوب الكريمة فهي جديرة بمثل هذه الاحساسات العميقة و بقدر عماية ثقتها بقدر ذلك تكون الخيانة محرقة وكاوية لها . فصاحت السيدة

سيشرين وهي تمسح دموعها فليكن مجيئك مباركاً اذ امكني ان اقول لك ما لا اقوله لغيرك لان قلبي منذ سنتين طافح بالتمرمر وليسمح الرب ان لا يتدفق وان لا يعلم ابني الى الابد بالاوجاع التي رماني بها . . . ومع ذلك فقد يمكن ان يعلو صوتي اخيراً وان لا يعود يسعني مداومة الامساك من نفسي

فصحت الحذار . . الحذار ان تفعلي ذلك يا سيدتي اذ ماذا تكون وقتئذٍ حياتك وحياته يا الهي

قالت لا يفرغ صبري بذهابي ضحية من اجله لا لعمري لان الايام القليلة الباقية لي تخصه ولكن صبري سيفرغ من مشاهدة اوجاعه كما لو كان وحده متروكاً من الجميع . . سيفرغ من النظر الى تذكار مشين لامرأة فاحشة يربو في قلب ولدي على الجميل والامتنان المديون لي بهما ثم صاحت بمزيد العنف والالم قولي . . قولي . . أليس من الهائل ان تشاهدي ابنك يموت على نار قليلة ولا يمكنك انقاذه . . وما اهملك الرب على الارض الا لهذه الغاية وظهر لي من هذه الحادثة السريعة ان حياة الموسيو سيشرين وامه اشد الماً مما توهمت

واذ ذاك رأيت الموسيو سيشرين يمر بتمهل امام نوافذ القاعة فوقف برهة ينظر اليّ ثم ابتعد فظننته قادماً الينا ولكني اخطأت بذلك وخطر على بالي انه يريد محادثتي سرّاً فجعلت ابحث على وسيلة للذهاب اليه واذ قالت لي امه ان ابني بلا ريب يريد التكلم معك ولكنه لا يجسر على ذلك الان . . وها كه يتمشى في ممر الاشجار

فاستملكت هذه الفرصة لتحقيق عزمي وقلت اسمحي لي ان اذهب اليه لانه يثق بي كثيراً على ما تعلمين فلربما اشجعه واعينه على قمع هذه الاحزان التي لا تحتمل

فمدت السيدة سيشرين يدها اليّ وهي تهز راسها وقالت انت دائماً كريمة صالحة

قلت بل دائماً شفوقة على الاوجاع التي تحملتها

ثم ذهبت فوجدت الموسيو سيشرين في نفس ذلك الممر الذي فاجئت فيه سابقاً تصريحات كونتران واورزيل بالحب للمرة الاولى وعند قربي من ابن عمي تعاظمت دهشتي عن السابق بمظاهر التعبير الطارئة على هيئته فوااسفي لماذا يا ترى يكون للمصاب واليأس وحدهما ان يرسما على الاوجه العادية مظاهر العظمة التي لا يحصل عليها امثال هذه الوجوه بالسعادة والمسرة

فان وجه الموسيو سيشرين وكان قبلاً زاهراً لطيفاً باسماً تحول الى صفرة الرخام بانخذال مخيف وعيناه الجورتان المحمرتان بالدموع كانت تنبعث منها نيران الحمى وعليه من ملامح الاوجاع الخشنة ما يجمله بمظاهر العظمة والسمو وكان قبلاً مجرداً منها

. وعند مشاهدتي اعترته الرعشة ثم رفع اعينه لنحو السماء وصاح بصوت مختنق انها ومثلك انت ايضاً بكثير من الاوجاع

قلت نعم يا ابن عمي بكثير من الاوجاع . . ولكني حاصلة على الشجاعة فقد اصابني ما اصابك من الخيانة والترك . . . وها انذا الان ناسية ومحتقرة للذين اهانوني وقد عادت السكينة الى قلبي وليس لي مثلك ام تسليني

فلم يجب بشيء على هذا الحديث ولكنه مشي بجانبي بخطوات غير متساوية ثم وقف فجأة امامي وشبك ذراعيه على صدره وقال لي بنبهي تهيجات الغيظ واعين تقدح شرار الغضب لم اقتل زوجك بعد . . . ولا ريب انك تنتظرين الى كنزل وانما الصبر . . الصبر . . لان امي العجوز المسكينة ستموت يوماً . . .

ثم عاود المشي بسكوت فكشفت لي هذه الالفاظ عن مسلك الموسيو سيشربن وكان شجاعاً بالرغم عن طيبة قلبه وبساطته فهو ينتظر بلا ريب وفاة امه ليطالب خصمه بترضية دموية وكان قلبي وقتئذ مجرداً من حب كونتران ولكن فكر هذا البراز اخافني فاجبت ابن عمي بقولي ان امك ستعيش طويلاً بما يكفي لاضعاف تاسفاتك . . . ولكن نترك للرب قصاص المجرمين

فاستلقى الموسيو سيشربن على ظهره بقهقهات الضحك الخشن وصاح اترك الانتقام للرب ثم اخفض صوته وقال بلهجة ارعشتني الا تعلمين اذن اني اجد احياناً من اجل هذا الانتقام ان حياة امي طالت كثيراً

فصحت هذا مخيف . . ولاسيما لصدوره عنك . . عنك لانك ابن صالح

اجاب بغضب متزايد . . لم اعد ابناً صالحاً . . وما انا الا مجنون منكود الحظ افضي نصف حياتي منادياً بحرف امراة فاحشة متاسفاً عليها والنصف الاخر متغيظاً العنها واحلم بالانتقام . . وقد تمر عليّ دقايق اكون فيها اهلاً لان اترك امي مع اعتقادي ان هذا الترك يميتها

فسالت ما الذي تريد قوله بهذا

قال نعم اني اهل لان افعل كل شيء عندما افكر ان من الممكن ان يموت زوجك قبلي وان نظن اورزيل كوني نذلاً . . لا اجسر على القتال . . .

فنظرت باهتة الى الموسيو سيشربن لان خوفه من ان تتوهم اورزيل كونه جباناً نبه افكاري الى شدة حبه لها فقلت يجب ان تنسي اورزيل لانها لا تستحق ان تشغل افكارك

فرفع اكتافه وقال انت ايضاً كامي تطلبين اليّ ان انساها . . . انساها . . . الا تقولي

اذن لقلبي ان لا يعود الى الخفقان . . وإلى دمي ان لا يحترق في عروقي . . والى تلك كراتي ان تخمد من افكاري

قلت ولكن هذه الامرأة شقية

فصاح الموسيو سيفرين بخشونة ولكن هذه الشقية معبوده من الناس . . ولكن زوجها تركك من اجلها . . انت التي تساوين نحو الفا من مثلها

فبقيت برهة بلا جواب ولا بد ان يكون لاوزريل قوة لا تغلب على استمالة القلوب حتى امكن ان يتعشقها بكل هذا الوجد رجلان بطبائع مختلفة تمام المخالفة كالموسيو ذي لانكوايي والموسيو سيفرين

اما ابن عمي فداوم الحديث بهيئة باسرة وقال انساها . . اقساها . . ولماذا متى ياترى عاملني بما عاملتني به الى اليوم الذي اجرمت فيه

قلت وامك . . . .

فصاح بغضب لكن امي كانت دائمًا امي . . وامرأتي امرأتي . . ان الايام التي قضيتها بجانب اوزريل ستكون على الدوام اجمل ايام حياتي . . . فهي المترفعة عليّ كثيرًا بالافكار والاداب انزلت ذاتها منزلتي وزد على ذلك كونها جميلة . . جميلة . . فآه كم ليالي قضيتها بهياج الجنون في غرفتي المقفرة ادعوها باصوات عظيمة ثم صاح انساها . . الا تعلمين اذن اني لربما احببتها من اجل افكارها الساحرة باكثر من جمالها المسكر . . انساها ولماذا ياترى . . . . لا اعيش راسًا لراس مع امي . . فما هذا العوض

قلت ان اقوالك هذه مستنكرة الا تجد من الامور المكدرة شديدًا لامك تحزها عن افادتك

قال وما الذي تريده امي لنفسها اكثر من هذا السعادة والسرور . . فاني تركت اوزريل لنصيبها واقسمت بتذكار ابي ان لا اعود لمشاهدتها وتمسكت بوعدي لا احول عنه ولو مهما كلفني ذلك . . فلماذا تريد امي ان تنازعني ايضًا دموعي . . دموعي . . التي اخفيها عنها بقدر استطاعتي ثم اضطربت شفاه الموسيو سيفرين برعشة عصابية وطفحت اعينه بالدموع فاخفى راسه بين يديه وسقط جالسًا على مقعد من الحجر مخنوقًا بالتنهدات فبقيت خرساء مرتهبة لمشهد هذا الحب المستنكر

اما ابن عمي فعاود مسح دموعه وقال اني عالم كوني مضحكًا دنيًا مجنونًا ولكن ما العمل . . والحب قهار . . اويسعني توبيخًا أليمًا استحقه . . لاني احبها ايضًا . .

قلت تحبها

قال نعم ومن المخجل المخيف اني احبها بقدر ما احببتها في حياتي

فصحت هل من الممكن ذلك يا الهي

قال باطلاً حاولت اقناع ذاتي بقولي ان تصرفها مع زوجك هو اشد اثماً ما لو سلمت نفسها للحب ومن اللازم ان تكون متناهية بالغش لتفعل ذلك .. فلولا امي .. فهمت لولا امي لذهبت من زمان مديد الى الموسيو دي لانكراي وقتلته او قتلت منه .. ولو قتلته لارتميت على اقدام اوزريل وصفحت لها عن كل شيء وكان يمكني بلا ريب بقوة المسامحة والحلم ان اردها الى الشعائر الكريمة اذ ما من احد مثلي يحسن معرفتها ثم مسح دموعه وقال .. ان راسها المذنب بهذه الجريمة لا قلبها

قلت لا اريد يا ابن عمي ان استغيب احداً ولكن اوزريل اساءت كثيراً اليّ ويمكني التصريح بافكاري من نحوها لا للتشكي من اعمالها الماضية بل لمعاونتك على قمع هذا الحب الدني فاوزريل كاذبة غرارة بقدر ما هي شريرة لانها ابغضتني بحقد شديد مدة عشر سنوات وفي كل هذه المدة لم تكلمني الا بالفاظ الرياء الحنونة

فلم يجاوبني على حديثي وصاح اقرت انها لا تحب زوجك ولولا امي لامكني الانتفاع بهذا الاقرار لاصفح لها واقطع هذه العلاقة من بدايتها ولكن النساء شديدات التمسك باحقادهن وامي لم تنس كوني ضحيتها مرة لاوزريل .. وبقيت هذه الذكرى خالدة في ذهنها حتى ازالت سعادة حياتي وساموت وإياها بالاحزان لانها الزمتني لشفاء انتقامها ان احلف بان لا اعود اصفح في حياتي لاوزريل ....

قلت فاذن حياتك اشبه شيء بجحيم من العذاب

قال نعم .. نعم هذا هو الجحيم بعينه فامام امي اغتصب ذاتي على اخفاء احزاني ولكني اتألم بالاوجاع الشديدة .. ثم العن ذاتي احياناً لبقائي غير متأثر لانواع التعزية التي تقدمها لي .. واشعر بجميع الاحزان التي اسببها لها ولكني لا استطيع شيئاً .. لاني ضعيف جبان . فحياتي كما قلت جحيم ... والغريب ان امي من احسن الامهات وانا لست شريراً واحبها بحنو كثير ولكني اكدرها واجرحها بلا انقطاع ..... فاه ثم اه ملعون فليكن النصيب الذي جمعني باوزريل لو تزوجت بامرأة من مصافي لما سرى منها الى حياتي وحياة امي هذا السم القتال .. فاه لو تعلمين اية حياة احملها يا الهي اني ما عدت افكر بمصالحي واعمالي ولا اعلم شيئاً عما وصلت اليه ثروتي وقد اتخذت رجلاً لادارة اشغالي حتى لا افكر بذلك .. ثم ما الفائدة من الدراهم الان ومن اجلها .. من اجلها وحدها رغبت الغنى وهي تعرف ذلك جيداً يا الهي فكنت اعمل كلما تريد ان اعمله .. ولا ريب لدي وقتئذ بامكان الحصول على

الواسطة المسهلة لتضاعف ثروتي لان ذلك يسرها .. ولاني اريد ان اشاهد نظراتها الجميلة لامعة سعيدة وهي تشكرني بتبسماتها اللطيفة . . ثم وضع فجأة يديه المطبقتين على اعينه وصاح بصوت اصم ما عدت ارى تبسماتها ونظراتها لا . . لا . . ابداً . . ابداً . . واستحق ذلك لاني لم اجسر ان اصفح عنها . . وسمعت لحقد امي المجرد عن الشفقة ولم اكن رجلاً ونصرفت كولد بل كمجنون . . . .

وبعد ان مشى برهة بهياج عاود الحديث وقال عفوًا . . عفوًا يا ابنة عمي واسفي هذه تفاصيل الايام التي قضيتها منذ سنتين الى الان مع امي في هذا المنزل البارد الاصم كالقبر . . ففي النهار اسير ولا اعلم الى اين اسير . . . ثم اعود للعشا . . . وابقى على طول مدة الطعام ناظرًا الى مكان جلوسها ثم انهض مع امي للقراءة فاقرأ بلا وعي بدون ان اسمع او افهم شيئًا مما اقرأهُ وعند الساعة الحادية عشرة تصلي امي بصوت عالٍ ونفترق . . فادخل الى غرفتنا ولم ارد مبارحتها وحينئذٍ يبتدي عذابي بالقلق الوحشي . . . وحينئذٍ احمل كالايام الاولى جميع عذابات الغيرة الجنونية واليأس . . عندما افكر . . .

ثم انتصب الموسيو سيشرين واقفًا ولم يتمم عبارتهُ وضرب برجلهِ الارض بغضب ورفع قبضتيهِ لنحو السماء وصاح ساقتل هذا الرجل ساقتلهُ ثم عاود المشي بخطوات متسعة

وعند ذلك وفدت علينا واحدة من خادمات السيدة سيشرين ترجونا من قبلها بالذهاب الى القاعة وبدخولنا قالت الام ياولدي لربما تكون ابنة عمك مستعجلة بالذهاب الى باريس فلا لزوم لامساكها

قلت حقًا ان اشغالاً كثيرة الاهمية تستدعي سرعة ذهابي ولولا ذلك لبقيت عندكما بضعة ايام

فارتني ابنها وقالت الامل ان تكوني كلمتهِ بما يعيدهُ الى الصواب

قلت كلمتهُ عنك يا سيدتي وصدقيني انهُ لا يوجد بين الابناء من هو اشد احترامًا وحنوًا منهُ

قالت اصدق ذلك . . لاني لا اريد الا خيره

قلت وهو يعلم هذا ياسيدتي ثم ابديت اشارة للموسيو سيشرين واريتهُ امهُ فكاني احثهُ على التكلم ببعض الفاظ البنوة الحنونة ولكنني ارتهبت لمشهد بروده وخفت ان تستغنم السيدة سيشرين فرصة وجودي لمخاطبتهِ بعبارات اللوم والتعنيف التي تسرها منذ زمن طويل

ثم اقترب الموسيو سيشرين من امهِ وقبض على يدها وقبلها وقال سامحيني يا امي فانت

تعلمين كوني أتألم منذ زمن ولربما تغيرت اخلاقي بالاوجاع وقد اعترفت بهذا لابنة عمي فابنتني شديدًا وساهتم بتحسين سلوكي في المستقبل



ساقتل هذا الرجل ساقتله

اجابت امهُ بقساوة ان ذلك بلا ريب سيكلفك كثيرًا

واوشك ما خفت حدوثهُ ان يحدث فان السيدة سيشرين اظهرت كانها قد جرحت امامي باستحقاقاتها الوالدية ولم يعد لها صبر على اخفاء الاوجاع التي تحملها منذ زمن طويل بمشاغل ابنها المشومة

فارسلت نظر الضراعة الى الموسيو سيشرين متوسلة اليهِ ان يلطف اخلاقهُ ولكنهُ هو ايضًا كان طافحًا بالغيظ ووجودي جدد جروحه فارتعشت خوفًا عندما فكرت ان لربما اكون سببًا عن غير ارادتي لمشهد مكدر على ان الموسيو سيشرين اخفض راسهُ ولم يجب امهُ

بشيء اما هي فعاودت التكلم بصوت عالٍ وقالت ان الابن الصالح يحب امهُ فوق كل شيء

اجاب اني عملت كلما في وسعي لاثبت لك خضوعي يا امي ولو مهما كلفني ذلك . . ولم يعد يمكني ان افعل زيادة عما فعلتهُ

فصاحت السيدة سيشرين انظري الى هذه الحيوة يا سيدتي التي اوصلتنا اليها تلك الفاحشة ولا يزال يأسف عليها ثم التفتت نحوي وقالت بغضب يمكنك ان لا تأسف على امرأة فاحشة

فخفت الوصول الى ما لا يحمد من مواصلة هذا الحديث وقلت اعذريه يا سيدتي . . لانهُ كان يحبها كثيرًا

قالت وهو يحبها ايضًا . . لان الحب الدني يلوث صاحبهُ باقذار الجبن

فانبعث من اعين ابن عمي لهذه الكلمات شرار الغضب وصاح ليس الحب الدني وحده يا امي الذي يلوث صاحبهُ بهذه الاقذار . . فمنذ زمن طويل وانا ساكت واتحمل ومن اللازم ان اتكلم اخيرًا . . .

فصاحت الام مزبدة بالغضب وانا ايضًا منذ زمن طويل وانا اتحمل . . منذ زمن طويل وانت ناسي واجباتك نحوي . . . واكرر لك القول ان تأسفاتك واحزانك الدنية هي ضرب من الجبن . . والاهانة الجارحة لامك . .

فصحت يا ابن عمي اما هو فلم يسعهُ الامساك من نفسهِ وقال ان اشرف الشعائر واقدس الواجبات تحمل صاحبها ايضًا على اظهار الجبن . . .

فسالت الام ما الذي يريد قولهُ اما انا فطلبت من الموسيو سيشرين ان لا يزيد كلمة ثم قلت لهُ بصوت منخفض هل تريد اذن ان تموت امك مرتين بدل المرة عندما تفكر في ساعة موتها الاخيرة . انك معرضًا لاخطار البراز

قال الحق معك . . الحق معك . . فانا مجنون شرير حتى امكني ان اجيبها بهذه القساوة ان احزاني تجرحها وتغيظها لانها تحبني بحنو كثير ثم جثا على ركبتيهِ امام امهِ وقبض على يدها وقبلها وقال اصفحي لي يا امي لاني اخطأت فتنهدت السيدة سيشرين من اعماق قلبها وقالت يجب على الام ان تصفح عن كل شيء ثم قبلت ابنها من جبهتهِ وارسلت اليَّ نظرًا حزينًا

اجاب الموسيو سيشرين بصوت منخفض ويجب على الابن ايضًا ان يتحمل كل شيء ثم حوَّل نظره ايضًا نحوي كانهُ يستشهدني على وفرة اوجاعه . . . .

. . . .

وبارحت روفري بمنتهى الحزن القتال ولا اظن بوجود مركز في العالم . . . اشد شومًا

من يخرك هذه الام وابنها العائشين دوامًا وجهًا لوجه بالتأسفات فالاولى على حب ولده والثاني على حب امراة اثيمة

وما امكنني الا ان اشعر بحركة من الغيظ العميق لدى التفكر اني فقدت زوجي وان ولدي مات وان حياتي تمرمرت وان امراة صالحة وابنًا كريمًا تكدر عيشهما الى الابد وكل ذلك لان اوزريل بغضتني وحسدتني

الفصل الخمسون

الرجوع

وبعد سفري من ماران بشهرين سكنت باريس في المسكن الذي عرضته على الدوقة دي ريشفيل وما زلت اتساءل للان كيف امكنني ان ابعث هذه الامراة على اظهار كل هذه المودة المستديمة لنحوي التي قدمت لي عليها الوفًا من البراهين الجديدة عند رجوعي الى باريس فكانت ساهرة بمزيد الاهتمام الوالدي على اقل رغائبي وهي تحاول وقايتي من اقل الاحزان

ولدى تفكري بالوشايات المشينة التي قيلت عنها ادهشني مشهد الصداقة الودادية التي تعيش بها مع اناس يمثلون بلا ريب نخبة الافاضل في باريس ولم اتعجب لهذا الانقلاب في الافكار من نحو الدوقة دي ريشفيل لان الناس من اصحاب الاخلاق الصارمة يكونون كثيري المسامحة عن الهفوات الماضية المرتكبة ممن يلجأ الى حمايتهم وكانت حياة الدوقة الحاضرة مجردة عن الشوائب الموجبة للوم وهم في حالة افتخارهم العادل بما اجروه من تغيير الافكار العالمية بنفوذهم يدافعون عن المرتد جديدًا الى ايمانهم ويسندونه بمنتهى الحرارة والكرم

فكانت الدوقة دي ريشفيل والحالة هذه حاصلة وقتئذٍ على صداقة واخلاص جميع الذين شفقوا سابقًا باخلاص على مصائبها وحزنوا لهفواتها

وكان منزلها بالنظر الى الضحايا الاخيرة التي تحملتها من زوجها كثير المناسبة ولكنه بعيد عن الزهو والاشراق ولا يمكن ان ينسب لغير الرغبة بشخصها مسارعة الناس الى طلب القبول في منزلها وهي تجري فيه مراسم الاستقبال بمنتهى الظرف

وكانت الاوصاف التي ذكرتها لي عن بعض الاشخاص المترددين عليها مشابهة كثيرًا لم بما يستجلب الانتباه وقد مكنتني الصدفة من الحكم بذلك في نفس يوم وصولي الى باريس لان عربتي كسرت في ايتامب فاوجب ذلك تاخر مجيئي على الطريق ولم اتمكن من الوصول

الى باريس الى الدوقة دي ريشفيل الا في الساعة العاشرة وكانت الدوقة المذكورة قد قطعت الامل من مجيئي في ذلك اليوم ففتحت ابوابها لقبول ضيوفها كالعادة وعليهِ فليحكم القاري على مقدار عجبي عندما وقفت عربتي تحت قنطرة المنزل الخارجية ووجدت هنالك الدوقة دي ريشفيل وبرفقتها البرنس دبركور لان الساعي تقدمني بنحو من ربع ساعة واخبر الدوقة بقدومي فسارعت بالخروج لمقابلتي

ووجدت عندها في ذلك المساء البرنسيس دبركور والسيدتين دي سينور ودي كراندفال فاجرين من نحوي تمام الملاطفة والمكارم ·

ويجب أن يعيش المرء بين هولاء الناس الذين نتكلم عنهم ليسعهُ ان يدرك امثال هذه المقابلة الجامعة بين حسن الالتفات والتحرس · فكن يعرفن احزاني · ويظهرن لنحوي منتهى الاميال الودادية الحادة ولكنهن يتجنبن بنوع من الكتمان الطافح بالرقة كلما يمكن ان يذكرني راساً بالاوجاع التي يرغبن طردها عن افكاري بالنسيان

ان محاولة التكلم بماهية هذه الملاطفات المتناهية بالنعومة من قبيل محاولة المستحيل تقريباً فانهن بفضل هذه الملاطفات كن بدلاً من ان يعاملنني بانواع الشفقة المزاعة يحرصن على معاملتي بانواع الاهتمام الشريف المبهج

وما دامت تقليدات اشرافنا القدماء واساليب معيشتهم محفوظة في بلادنا لا يمكن ان يوجد في اوربا جمعية اهلة لان تشبه الى جمعياتنا برقة الحس ولطافة الذوق الممتاز بهما الفكر الفرنساوي

وهكذا فاني لا انسى في حياتي كلمات البرنسيس دبركور المحترمة التي وجهتها اليَّ عندما عرفتني بها في ذلك المساء الدوقة دي ريشفيل اذ قالت لي اني حصلت على المسرة برويتك للمرة الاولى في هذا اليوم ولكني اعرفك بل اسمحي لي ان اقول لك ايضاً اني احبك من حينما سمعت عزيزتي اميلي (اسم الدوقة دي ريشفيل بالمعمودية) تتكلم عنك وكنا نطلب اليها على الدوام انا واصدقاؤها وهم اصدقاوك ايضاً ان تسعى بتعجيل رجوعك الى باريس لان الوحدة لامراة في سنك خطرة والمرء باعتزالهِ عن كل مودة ينتهي اخيراً بان يتوهم كون العالم محباً لذاتهِ مجرداً عن الاحساس ولكني اوكد لك الخلاف لاني نظرت على الدوام ان اشد الاميال الودادية تاثيراً وشرفاً متجهة بسمادة لنحو الشدائد الشريفة الموثرة ·

ثم تكلمت السيدة سينور فقالت لي ببشاشة وانا ايضاً ياسيدتي اعترف لك ولو انهمت بالمغالاة والتطرف اني اعرفك وانت في ثورين ولكنك بلا ريب كنت خيال احلامنا وكنا نقول للتعزية على عدم مشاهدتك ان الخيال يحلم بهِ ولا يصادف · اما الآن

فانا فقدناك يكون حبنا لك اكثر من السابق واسفنا على فراقك اشد واعظم

و بينما انا اجاوب باحتشام على هذه المدائح واذ قبض البرنس دبركور على يدي وقال لي بصوت متاثر افكري جيداً ياسيدتي انه يوجد لامراة في ريعان الصبا صفات تستدعي الاعجاب بها من غير جمالها وظرفها وفكرها . . . وانت تعلمين الفرق الكائن بين تمليق عادي واحترام جدي مستحق

و بعد هذا التعارف اقتربت من اما وكانت بثوب ابيض بسيط وضفائر شعرها الاشقر البديع الكثيفة المتموجة تظهر نعومة ونقاوة وجهها البيضاوي المورد والذي ترآى لي انها بجمال مدهش وكانت عند مرورها الى ماران في الرابعة عشرة من العمر ولم يقتض لها اكثر من سنتين اثنتين لتكامل قامتها الرشيقة الممشوقة كقامة ديانة (ابنة المشتري وربة الصيد عند الاقدمين)

وقد اجريت هذه المشابهة لان هيئة اما وجميع حركاتها كانت منبعثة عن الظرف الجدي الطافح بالطهارة والتامل والعظمة لو امكن استعمال هذه الكلمة لفتاة في السادسة عشرة من العمر يظهر من عينيها الكبيرتين السماويتين وتبسماتها المنعشة حياء الصبوة

وفي ذلك المساء كانت اما مهتمة كالعادة بملاحظة الشاي وتقديمه للحضور بمعاملات اللطف والمعروف الممتازة فاثر فيَّ كثيراً بعض هذه المعاملات ومن ذلك انها عندما قدمت فنجان الشاي الى البرنسيس دبركور وجدت سبيلاً للانحنا بلطف وقبلت يدها عندما قاربت مس الفنجان والظاهر انها تذكرت كون السيدة دي سينور لا تحب الشاي قوياً فخففته لها . واذا اكثرت من التكلم بمثل هذه التفصيلات الصبيانية فالقصد من ذلك ان اما كانت تعيرهم جميعاً مزيد العناية الدقيقة

ولا يمكن ان انسى ابداً التبسمات السوداوية التي وجهتها الى الدوقة دي ريشفيل عندما قالت لها اما بصوتها المضطرب اللذيذ . هل تتناولين شاياً ياسيدتي

واسفي ان هذه اللفظة الباردة العارية من الاهتمام وهي — ياسيدتي — كانت تجرح هذه الام المسكينة ولكن ما العمل فمن الواجب ان نتصبر لان المعلوم عن ابنتها انها السيدة دي لوستانج وانها يتيمة من اقاربها البعيدين

وفي بضعة ايام تمكنت الصداقة فيما بيني وبين اما وامكنني ان اعجب بكنوز هذه النفس الطاهرة فهي بقلب مخلص مستقيم لا يقبل شيئاً مخالفاً لمبادي تربيتها ولا تعرف في حياتها شيئاً من التنقص والرزيلة

ويحسبه كمال الرذيلة عندها موثرات بلا موثر وعوارض خشنة اما حسابات الشر المستنكرة

والاميال المنشطة للتجر الى السفالة او الجريمة فبعيدة عن افكارها والخلاصة ان امها كانت شواذًا نادرًا في نوعها ندور السيدة دي ماران واورزيل في نوعها

وبعد زمن ليس بطويل ادركت اسباب الحزن المبهم الموجب لزيادة تأثرها بالسوداء فان هذه البنية المسكية كانت حزينة على امها التي فقدتها وهي في مهد الطفولية على ما قيل لها وكان امتنانها بالجميل للدوقة دي ريشفيل غاية في الحنو والاخلاص وهي تقول بمنتهى السذاجة السامية

هذه قريبة بعيدة وتعاملني بهذه المعاملة من الحنو . . فماذا تكون اعمال امي اذن مالنظر اليَّ لو لم تمت

وتحرست كثيرًا بعد الاطلاع على سر هذه الاحزان من التكلم بمثل ذلك الى الدوقة دي ريشفيل واعتمدت ان اعفيها من هذه الضربة الهائلة مخافة ان يعميها الحب وتفشي لابنتها بسر ولادتها وكنت لا اجسر ان افكر بما يطرأ بعدئذٍ من الاضطراب على شعائر هذه الفتاة لنحو الدوقة دي ريشفيل وما يحصل من العراك القاسي في نفس هذه البنية المجملة بالفضيلة والافتخار عندما تعلم ان امها ارتكبت جريمة عظيمة وان ولادتها جناية تقريبًا وكانت اما مظهرًا للصراحة والجلاء ولم تنقصني النيرة فلحظت كونها حاصلة على سر اخر لا اعلمهُ

ومن الغريب اعتقادي انها متاثرة بسرٍ خفي وانما هي نفسها تجهل ذلك السر لانها لا تخفي شيئًا من تاثيراتها وهي لم تصرح للدوقة دي ريشفيل بسبب حزنها المبهم المتعلق بامها لعلمها ان هذا التصريح يكون مكدرًا لتلك التي تعاملها بالعناية الوالدية

فنبهني ضميري اذن الى ان اما اخفت عني شيئًا لا عن تمويه باطل بل عن جهل تام ولا يمكنها ان تشرح او تفصل اكثر مني اسرار هذه الغرائب التي اوجبت انتباه افكاري

وعندما دخل الشتاء ونظرت اما الثلج متساقطًا للمرة الاولى خطف لونها الى لون الثلج ثم ارتعشت وصاحت بتالم ــ الثلج

وكنت واياها وحدنا فسالتها لما هذا التعجب المحزن

قالت لا اعلم . . فاني تالمت لمشهد الثلج في اول الامر اما الآن فما عدت متاثرة لشيء من ذلك

قلت العلك فكرت بالمساكين الذين يتالمون بالبرد حتى اظهرت هذا الالم

اجابت بسذاجة لا ثم قالت انها تتوجع لهم من صميم فؤادها ولكنها لم تتكر وفتئذٍ بذلك وان قلبها انقبض بتوجع لمشهد الثلج ولا تعلم لماذا وان هذا العارض زال بتمامه عنها

وفي احد الايام كنت انا والدوقة دي ريشفيل واما نتكلم ولا اعلم كيف ذكر فيما بيننا

اسم السنونو فطفحت اعين اما بالدموع وقالت لنا بتبسم الطهارة لا اعلم لماذا عند ذكر السنونو تاثرت شديدًا ولذني البكا

وفي يوم اخر مرت فرقة من الجند على صوت النفير من جانب المنزل فنهضت اما بعين لامعة وخد منتعش واعارت سمعها لهذا الصوت الحربي بمظهر عظيم من التغطرس وانبعثت ملامح الشجاعة فجأة من وجهها البديع ثم بعدت الجنود وضعف الصوت فنظرت اما الى ما حولها بدهشة وارتمت حمراء خجولة بين ذراعي الدوقة دي ريشفيل ثم قبضت على يدها ووضعتها على قلبها وقالت بظرف مسكر

سامحيني لاني مجنونة ولكني لا استطيع التغلب على هذا الاضطراب جسي خفقان قلبي

وبالحقيقة ان قلبها كان يخفق شديدًا . فما هذا السر ياترى وما هو السبب الخفي لهذا التهيج والاضطراب . . وا اسفي اني عرفت ذلك فيما بعد ولكن اما وقتئذٍ كانت تجهله مثلي

وما عدا هذه الشعائر غير الارادية التي لا تعرف اسبابها كان يمكن الناظر ان يقف على كل شيء من ظواهر هذه النفس الطاهرة الصافية الشفافة كالبلور ولا يلبث المطالع ان يرى انتشار هذه الاخلاق تدريجًا مع دوام هذا الجهل البديع فمثلها في ذلك كمثل الزهور الفاخرة التي لا علم لها بالروائح الفائحة منها ولا بالالوان الملونة بها . . . .

وعندما كنت في ماران طلبت من الدوقة دي ريشفيل ان لا تكتب لي شيئًا عن الموسيو دي لانكراي واورزيل لاني كنت اهرب من كلما يذكرني بتذكارهما المستقبح ولكني الان وقد صرت في باريس واحاطني اصدقاء جديدون تشجعت عما قبل وكانت الدوقة دي ريشفيل مطلعة على تصرفات زوجي من اناس موثوق بهم فاخبرتني عنها بما يستفاد منهُ ان السيدة دي ماران ضاعفت وشاياتها وشرورها و بعد ان احضرت اورزيل الى باريس اسكنتها عندها واشاعت ان غيرتي الجنونية المجردة عن العدالة سببت افتراق الموسيو سيشرين عن امراته واني وشيت بابنة عمي الى زوجها واريتهُ كبرهان على جريمتها بعض الظواهر الكاذبة وهي تزيد على ذلك ان صدور هذه الاعمال عني غاية في الدناءة لان علاقتي مع الموسيو ليكورنو لا تخولني الحق بالشكوى من خيانة زوجي ولا بالذم من تصرف بقية النساء وان الموسيو دي لانكراي المبتعد بقلبهِ بعيدًا عني بالنظر الى شراسة اخلاقي اكتشف اخيرًا اني تماديت بالجسارة في مدة غيابهِ في انكلترا الى حد ان ذهبت وقضيت ليلة برمتها في منزل الموسيو ليكورنو فتركتني وهي تقول انها بالرغم عن حبها لي لا يمكنها الا ان تعترف بحقانية اعمال الموسيو دي لانكراي وتجد من الواجب عليها ان تاخذ بيد هذه الفتاة المسكينة اورزيل المضحاة لغيرتي وسواد قلبي

فهذه الاكاذيب ولو مهما كانت غريبة ومستحيلة كانت لا تخلو من الاخطار العظيمة لو لم تبادر الدوقة دي ريشفيل الى اخبار اصحابها تحذيرًا لهم من هذه الوشايات السفلة بشهد المنزل المنفرد مفصلة كما اخبرها بذلك الموسيو دي مورتاني على فراش الموت

وكان من هذه الايضاحات مع سوابق الموسيو دي لانكراي وتصرفات اورزيل الحاضرة ان كفت للدفاع عني ضد هذه التهم المستنكرة

.وحصل عن ثورة حزيران ان قسمت المحافل واقفرت المنازل من الاجتماعات وفي جملة ذلك قاعة السيدة دي ماران فلم يعد يزورها الا القليل لان هذه الامرأة لم تحصل على عناية الناس الملازمة واقبالهم عليها في ايام الملكية الا بشدة خوفهم منها ومزيد اقتدارها على المضرة والنفع ولما لم يعد بعد سقوط الملكية ما يخافون او يوءملون منها اعرضوا عنها لان شرورها كانت تتزايد مع السنين وخلا منزلها من جميع انواع المسرة

ثم تحولت فيها اميال الاقتصاد الى البخل الاتم فوجدت ذاتها يومًا منفردة لوحدها لا يزورها احد على الاطلاق

وكان الباعث على سفرها الى ماران انفرادها وقهرها ومن اجل تسلية همومها جاءت بلا ريب لتعذبني بمنتهى ما يمكن من الاوجاع فان السيدة دي ماران بانتصارها لاورزيل في بادي الامر ضد حماتها وتقدمها اليها بطلب الذهاب معها الى باريس كانت مدفوعة الى ذلك باميال حقدها ضدي ولكنها عندما علمت اخيرًا باقتدار اورزيل على استمالة القلوب فكرت ان تستخدمها لاعادة استجلاب الناس الى قاعتها

وكانت عليمة باحوال العالم فاذاعت في كل مكان ان اورزيل انفصلت عن زوجها ويوجد على الدوام نوع من الجذب الذي لا يغلب بامل الحصول على استحسان امراة جميلة في عنفوان الصبوة وفي مثل هذا المركز من الاستقلال وعليه فلم يمر الا القليل حتى عادت الناس الى التردد عليها وما لبثت اورزيل وقد زادت ظرفًا وتفننًا بالدلال والطيش ان وجدت ذاتها محاطة من كثيرين وعلم الموسيو دي لانكراي ذلك بواسطة الرجل الذي بعثه الى باريز فاضاع صوابه من الغيرة . ومن ذلك الحين تركني وذهب للاجتماع باورزيل

بقي علي ان اقول شيئًا لا بد ان يظهر للسامع بمنتهى السفالة . . ولكني لسوء الحظ عند التقدم في الحيوة نظرت كثيرًا من امثال هذه الاعمال الذميمة وليسأل كل تذكراته فيعلم ان الاحوال التي ارغب ايضاحها لاتحوى شيئًا من المبالغة والمستحيل بل بالعكس تمتاز بنوع من الرقة النادرة في امثال هذه السفالات فان اورزيل كانت تحب بتعشق البذخ والمسرات والاعياد ولا تجد شيئًا من هذه الحيوة المشرقة عند السيدة دي ماران لانها وان تكن

غنية بما يكفي لمعيشة الشرف والبذخ كانت ممسكة باكثر من العابق عن المصرف فلا تحتفل بشيء من ليالي الرقص ولا تتخذ غرفًا في التيارات الكبيرة ولا تفكر ابدًا بالحصول على معيشة تكون اكثر زهوًا واعتبارًا من معيشتها الى ذلك الحين

وعند وصول الموسيو دي لانكراي الى باريس وجد اوزريل بخفة وملاطفة مع اثنين او ثلاثة رجال من اصحاب عمتي ومع غاية شهوته كان عليماً باحوال النسا لا تخفاه اذواق اوزريل وكان لا يمكنه احترامًا لها ولنفسه ان يعرض عليها ارضاء اميالها بالبذخ والاسراف لان المعلوم عند الناس انها لا تملك شيئًا غير ستين الف فرنك من مهرها واذا ما علمت يومًا مصادر ذلك البذخ كسيت بالاحتقار المشين واعرض عنها الناس الذين تريد الظهور فيما بينهم بالزهو والبهاء فالموسيو دي لانكراي ولا اعلم هل بالاتفاق مع عمتي اولا وجد واسطة حسنة لتسوية كل ذلك وان تحصل معشوقته على اعظم انواع المعيشة المشرقة بدون ان تخسر اعتبارها عند الجمهور وان يضمن لها ميل جماعة من احسن الرفقاء برياسة السيدة دي ماران ولولا بغض هذه الامرأة لي لما امكنها بلا ريب الا ان ترفض هذا الاشتراك المشين بهذه المؤامرة الدنية

اما كيفية وصول هذه التفاصيل اليَّ فمعلقة بجملة حوادث جديدة خفية علمت منها لسوء الحظ ان روح الموسيو ليكورنو الجهنمية تحوم من حولي وانها بالمرصاد لكلما هو عزيز لديَّ

الفصل الحادي والخمسون

مراسلة

وبعد وصولي الى باريس بنحو من ثلاثة شهور دفعت اليَّ بلوندو علبة صغيرة من الكارتون احضرها الي رسول مخصوص ففتحتها واصفررت بالخوف . . . عندما شاهدت ضمنها باقة من تلك الزهور السامة الحمراء التي ارسلها اليَّ سابقًا الموسيو ليكورنو واصبحت منذ ذلك الحين كدلالة على تذكاره المستقبح لان الدوقة دي ريشفيل حصلت على باقة مثلها يوم وفات الموسيو دي مورتاني

وكان مع هذه الباقة تحرير من زوجي لاحد اصدقائه ولم اعرفه لان الغلاف كان مفقودًا

ولا اعلم كيف استطاع الموسيو ليكورنو ولم يكن وقتئذٍ في باريس بحسب ظني ان يحصل على

تلك الرسالة ولكني لم اتعجب لذلك لان هذا الرجل كان قادرًا بقوة امواله على غش الناس وان يكون له خدم واتباع في وسط المنازل التي يريد ان يلقي الشرك في سبيل اصحابها اما الغاية من هذه الارسالية فلا تحتمل الارتياب لان الموسيو ليكورتو كان جاهلاً خلو قلبي من نحو كونتران فظن انه يجرحني بألم اذا ازاح لي الستار عن تصرفات زوجي واورزيل

نعم ان هذا المقصد لم يتحقق على الاطلاق ولكن هذا التحرير وسوف يرى اوجب ان اتأثر بشعائر مكدرة وعليه فقد اثمرت هذه الخيانة الجديدة من ليكورتو اثمارًا مرة وهذا تحرير زوجي المذكور

من الموسيو لانكراي الى ***

باريس في كانون الثاني سنة ١٨٢٣

اشكر لك تحريرك يا صديقي العزيز ولا ريب ان جوابي لك اوجب عجبك وذلك منذ شهر عندما كتبت اليّ تسألني عن الافادات التي تعرفها وزدت على ذلك قولك

كيف انت امن الممكن ان اصدق بما سمعته بالصدفة في عزلتي . احقيق انك الرجل السعيد المفضل من الامرأة الممتازة على غيرها كثيرًا بتفننات الزي الجديد اعني تلك التي عرفت بقوة العقل والظرف ان تنسي الناس كونها صاحبة هذا الاسم العامي (السيدة سيشرين) احقيق ان السيدة دي ماران عمة امراتك بل اوريديسك (زوجة اورفي وكان قد حصل على الاذن باخراجها من الجحيم بشرط ان لا ينظر اليها الا بعد الخروج من مكان العذاب ولكنه جرى بخلاف هذا الشرط فاضاعها) سارية الى الخراب وانها تنفق الاموال بجنون وان الالسن لاهجة بذكر الاعياد المشرقة التي تحتفل بها واسرافها وبذخها وهلم جرًّا . ان اتباع هذا السبيل في سنها من قبيل الابتداء بالاعمال بعد فوات وقتها . وقد اجبتك بالتطويل على قسم من هذه السوالات واريد الان ان اكمل لك لان قلبي طافح بالحقد والبغض

فانت واحد من اولئك الرجال المجربين الذين يمكن ان يعهد اليهم بكل شيء ويفهمون كل شيء وقد اضعت ثروتين عظيمتين في جحيم باريس وقتلت ثلاثة رجال بالبراز ونجوت من جرح بليغ جرحت به نفسك وانت تحاول اشعال راسك بالرصاص والان وقد ارتجعت عن ذلك الجنون بحسب قولك نعيش كفيلسوف مفكرًا متاملاً في منزل قديم في اعماق بريطانيا سعيدًا بمشاهدة الشطوط وسمع دوي البحر الذي يصادمها بلا انقطاع ويستفاد من

ذلك انك بمزية ثابتة وتلك معرفة نادرة بضعف البشر ولا تتعجب من الافادات السرية الباقية التي اريد ايضاحها لك

اني محاط ببله وحواسد وافضل الموت على التكلم امامهم بما اتحملة لان ذلك يسرهم كثيرًا . ولربما تحتقرني انت ايضًا ايها الرجل المتوحد انما لا يهمني ذلك حيث لم يعد يمكني ان احتمل طويلاً ولا اشكو لاحد عذابي وسعادتي لان سعادتي ايضًا عذاب

وعندما كتبت اليك تحريري الاول تلطفت اوجاعي كثيرًا وقد قلت انك لا تستطيع ان تمدني بمشورة الا بعد الوقوف على تتمة حديثي فاسمع اذن

اني عندما علمت بوجود اورزيل في باريس محاطة بالعشاق احرقتني الغيرة واردت ان ابذل منتهى القوى لمعاودة الحصول على حقوقي غير معتدٍ بتحريرها الوقح الذي كتبتهُ لي وسقط بين يدي زوجها فبارحت ماران وتركت امرأتي وجئت الى هنا فوجدت اورزيل لا تزال جميلة ساخرة متطرفة مفتخرة ثم اردت ان اكلمها عن سعادتي الماضية فاوسعتني سخرًا وتهكماً ولكني صبرت لاني كنت قاطعًا بعزمي

اما السيدة دي ماران عمة امرأتي فاحسنت مقابلتي كثيرًا وقد اخبرتك من قبل بمقدار بغضها العظيم لمتيلدة ومن ذلك تستعين على حل الرموز الاتية . فاني كنت اعرف اورزيل وميلها الشديد للبذخ والمسرات وانهُ يمكن ان تنادي باشباه كثيرة من اجل هذا الميل ولكني اعرف ايضًا انها حاصلة بالرغم عن فقرها ووقاحة مباديها واخلاقها على نوع غريب من الكبرياء والاستقلال يمنعانها من الاقدام على بعض السفالات وان احسن واسطة مع ذلك للتقدم اليها والتسلط عليها انما تكون بوضعها في مركز يمكنها من الحصول على تلك المعيشة المشرقة موضوع احلام حياتها بدون ان تمس احساساتها الشديدة التأثر

ولكيما يمكنك ادراك هذا العزم الذي تقررت عليهِ وقتئذٍ يجب ان تذكر اني لم اتردد ابدًا في حياتي بين مبلغ من المال ولوهما كان عظيماً ورغبة حارة ولوهما كانت جنونية بل يجب بنوع خاص ان تعتقد اني كنت وما زلت احب اورزيل للان بمنتهى الحرارة والجنون المعهودين بالحب القلق المتهيج بالمقاومة الذي لا يرتوي

والان فهذه المشكلة التي اوقفت ذاتي وقتئذٍ لحلها وهي ان اتقرب الى اورزيل واخصها بجميع مسرات الحياة المشرقة بالزهو بحيث لا يعود يمكنها الاستغناء عني وان افعل كل ذلك بدون ان تتاثر شعائرها الرقيقة او يمكن الناس الاكتشاف على هذا السر

وكان من بخل السيدة دي ماران و بغضها لامرأتي (وهي تسر كثيرًا بمشاهدة خرابها) ان

تنفعاني كثيرًا لتحقيق عزمي

ففي احد الايام سالت السيدة دي ماران امام اورزيل وهي ساكنة عندها كما قلت لك عما تنفقهُ سنويًا على منزلها واصطبلها . اجابت اربعين الف فرنك فصحت انهم يسرقونها لانها لا تزار من احد وعرباتها بحالة مستنكرة وتعهدت ان اجعل منزلها بهذا المبلغ احسن منزل في باريس اذا ارادت ان تعهد اليَّ بهذه المهمة وتسري بحسب مشوراتي

اجابت وكيف ذلك

قلت اعطيني اربعين الف فرنك ولا تهتمي بشيء ودعيني اتولى ادارة مصروفك سنة واحدة وسترين كيف تكون معيشتك وقتئذٍ وانما يجب عليك فقط ان حسن لديك الذهاب بضعة شهور الى البرية لاتمكن من اجراء التغييرات الضرورية في هذا المنزل ولك عليَّ ان لا اكلفك الى دراهم جديدة لانهُ يمكني توفير المصاريف المذكورة من اصل الاربعين الف فرنك السنوية فنظرت اليَّ اورزيل والظاهر انها فهمت افكاري لانها قابلتني على هذه الحيلة بالتبسم (اه لو كنت تعرف هذه التبسمات) الا تسمع اذا كلمتك بصوت منخفض ان اورزيل بلا ريب ستمرح بمعيشة البذخ التي ادعيت ايجادها بالاربعين الف فرنك الماخوذة من السيدة دي ماران وقد قبلت هذه السيدة باقتراحي وهي مستلقية على ظهرها بالضحك (لانها تضحك دائمًا عندما تجري شيئًا من ضروب الخيانة) وبعد هذا الاتفاق بخمسة عشر يومًا انتقلت السيدة دي ماران واورزيل الى مسكن بديع في اوتولي كان يقطنهُ رجل انكليزي استأجرتهُ منهُ بلا شيء تقريبًا لانهُ تضجر منهُ وكان منزلاً حقيرًا ولكني لا اعدم الذكاء بسرعة تحويل الشيء من العدم الى الوجود ومن الجحيم الى النعيم اذا وجدت الدراهم

ولا فائدة بالتكلم عن الاموال التي صرفت لتسوية هذا المسكن في اوتولي وكنت اذهب اليهِ في كل يوم وفي اثناء ذلك كانت الاعمال متقدمة بسرعة في منزل باريس وابتدأت بالاصلاح من الاصطبل فاستبدلت عربات السيدة دي ماران القديمة بعربات وخيل من اظرف عربات وخيل باريس ولعلمي بمقدار محبة اورزيل لركوب الخيل سعيت لدى السيدة دي ماران ان توجر خالي الموسيو دي فيرساك دائرة صغيرة من منزلها كانت خالية وبتمام الخراب منذ ثورة تموز وهكذا امكني الانتفاع بالموسيو دي فيرساك لمرافقة اورزيل دفعًا للاشتباه في تنزهاتها معي على الخيل وان يقودها الى ما بين الناس عندما لا تستطيع السيدة دي ماران مرافقتها

وفي بداية الشتاء تحوَّل منزل السيدة دي ماران بعنايتي واهتمامي الى سراي حقيقية وحصل معنا طابق ارضي بديع لاقتبال الزائرين

اما دائرة اوزريل بل هيكل معبودي العزيز فكان غاية في البدخ والزهو لاني ملئتة بالاثاث النادر والخزف الثمين والمروشات البديعة والصور المرسومة من احسن المعلمين والذي تظنة الناس ان السيدة دي ماران جنت لانهم يعزون اليها المصاريف العظيمة التي تنفق بلا حساب في منزلها وهي تلمح الى ذلك وكذلك انا لالف سبب تعرفة

وفي مدة الشتاء احتفلت السيدة ماران بليال فاخرة للرقص وفي الصيام باجتماعات زاهية وفي الربيع بسهرات حفلية في جنينتها الواسعة حيثما اجريت العجائب وهكذا استحال منزل السيدة دي ماران الى اجمل وازهى منزل في باريس وكان لهذه السيدة فضلاً عن ذلك غرفة في الاوبرة واخرى في ملعب الروايات الهزلية وكل ذلك من اصل الاربعين الف فرنك الازلية التي تدفعها في كل سنة

وعندما قدمت لها الحساب في اواخر السنة الاولى طفقت تضحك شديدًا وقالت انت ساحر فاتن وتوسلت اليَّ ان اداوم استلام مصاريفها وكنت قد صرفت حقيقة اكثر من عشرة الاف ليرا فرنساوية وما من حاجة للقول بان اوزريل كانت ملكة هذه الاعياد المحتفل بها من اجلها ومنها تقريبًا لانها كانت تتولى ادارتها بظرف عظيم وشرف لا يمثل وقد اصبحت من مهرة الموسيقيين واظهرت في الاجتماعات التي عقدت في منزل ماران انها في الدرجة الاولى من الذكاء فكانت الناس لا تتكلم الا عنها وعن افكارها اللامعة الجسورة وتهللاتها السامية الساحرة ولاسيما تدللاتها الصريحة التي تعذبني وتثير فيَّ تهييجات الغيرة

وكان نفوذ هذه الامرأة الجذابة ممتدًا على نفس السيدة دي ماران ايضًا لانها تسحر كل من يقرب منها وهي دائمًا ساحرة ساهية مستميلة للنساء والرجال وقد تكون اما متطرفة محركة فجأة للشعائر واما مجردة عن الاهتمام بخشونة صارت بالنظر الى هذه الصفات المتباينة كنوع من المعمى نستطيع ان تخاطر وتجسر على كل شيء بلا قصاص

والعجيب الغريب ان هذه الامرأة التي تتمتع حقيقة بجميع المصاريف التي انفقها عليها باسم السيدة دي ماران عاملتني بمنتهى القساوة والاحتقار المشين لاني اردت مرة ان اقدم لها بعض الحلى بمناسبة عيدها ولكني عند التامل لم اتعجب لذلك لان اوزريل كلها حساسة والمعلوم عند الناس انها فقيرة وان اقل بدخ او اسراف في زينتها الشخصية يمس كرامتها بالارتياب من سلوكها فابتدعت لذاتها زيًا بمنتهى البساطة والزهو . وكانت بعنق بديع وساعد ندي ابيض مبروم ومن فنون الدلال ان تظهر بمثلها بلا عقد ولا اساور

وكانت ملابسها مساء ثوبًا من الكريشة البيضاء بمظهر بسكر وذوق يعبد . ثم زهرة

طبيعية في شعرها الجميل وباقة مثلها في صدرها وفي الصباح تلبس كبوتاً وثوباً من ابسط الثيــاب مع شال كبير من الكشمير وعلى ذلك كانت الستين الف فرنك كافية لسد احتياجاتها الشخصية زماناً طويلاً . .

وكانت مفتخرة كثيراً وسعيدة بحفلات البذخ التي تحيط بها وتتولى ادارتها كما لو كانت حقيقة ولية تلك الاعياد لان هذه الامراة الغريبة تحب التمتع بالخيرات باكثر من امتلاكها.

لربما ترى هذا الفرق دقيقاً باطلاً ولكنك لو عرفت اورزبل لتاكدت حقيقة

اني بالرغم عن كل هذا الاخلاص والضحايا لست سعيداً ومعتقد كوني ضروريّاً لاورزبل ومن يقيني انها لا تمتنع الا بصعوبة كلية عن انفاذ سلطانها عليّ . . واي سلطان يا الهي

وكان من المنتظر بعد ذلك التحرير الذي كتبته اليّ ووقع بين يدي زوجها ان اجدها عند مواجهتها للمرة الاولى بمظاهر الارتباك الشديد والذي حصل عكس ذلك لاني بالرغم عما ينسب اليّ من التجرد عن المبدأ والعوائد ظهرت عليّ وفتئذٍ للارتباك مظاهر لم تشعر بشيء منها . . . لو كنت تعرف ماهية تلك الاخلاق ومرونة وجسارة وسمو ذلك الفكر لما تعجبت لذلك

ثم قلت لها بتمرمر هل انت معتقدة حقيقة بكلما كتبته اليّ فطفقت تضحك لان هذه الامراة تضحك على الدوام واجابت

العلك من اولئك العميان الذين يخلطون بين الماضي والحاضر ان ما كان حقيقة بالامس يمكن ان يكون باطلاً اليوم وما كان باطلاً بالامس يمكن ان يكون حقيقة الان فلا تهتم اذن كثيراً للوقوف على اعتقادي بما كتبته اليك في ظروف مخالفة لهذه الظروف الحاضرة وانت تقول انك تحبني فاسمع اذن لا احبك او لا اتظاهر بحبك لان اجباري على التصنع بحاسة لا اشعر بها موجب لافتخارك باكثر مما لو شعرت حقيقة بحبك لاني اذا احببتك باخلاص يرتضي قلبك واذا موهت بحبك تنتصر كبرياؤك وعلى كل قدورك حسن

ماذا تجيب ياترى لو كنت مكاني على مثل هذه الاقوال الغريبة الجنونية ولاسيما عندما يلقيها الى اذنك بصوت منخفض فم من المرجان باسنان من اللوءلوء وشفاف ندية عذبة بلون الارجوان وقد ظهر على جانبيها منذ قليل زغب اسود لا يحيط بادراكه الحس ولا التصور . . .

بل ماذا تجيب على هذه الكلمات وقد اصحبتها بنظر عميق حاد ملذ . . . واسفي انك لا تعلم اقتدار هذه الاعين الكبيرة الزرقاء التي ترسل عندما تريد سهام الوجد من تحت اهدابها وحواجبها الابنوسية الرقيقة الى اعماق القلب . . . وتجهد المرء احياناً بنظرات الاحتقار والسخر . . ابداً . . ابداً لا يوجد على الاطلاق مثل هذه الاعين . . . .

فما كان يمكني والحالة هذه ان اتخذ امام اية ضحية كانت وحينئذٍ ابتدأت تمرّ عليّ حياة الهياج المستمر . . . لان هذه الامرأة لا يمكن فهم حقيقتها او الاطلاع على شيء من سرائرها ولا اعلم للآن من انا بالنظر اليها

فتارة تتظاهر كانها تشعر من نحوي بحب لا يقهر وتسلم نفسها احيانًا الى ذلك الحب بغيظ وجنون . .

ومن المستحيل ان يسعني التصريح لك بمشهد اورزيل وفتنتها وما تنقلب اليه احوالها في تلك الدقائق النادرة من اوقات السكرة والاهمال

بل يستحيل عليّ ايضًا تصويرها في حالة الذبول والتحرق عندما تسلم نفسها لتلك الحماسة التي ابعثها عليها وهي تلعنني بظرف المسرة والتعشق

فلهذا الفكر وحده ياصديقي يخفق قلبي ويفور دمي وتحترق خدودي مع ان هذه العلاقة بيني وبينها منذ اكثر من سنتين واعتقد تقريبًا ان هذه الامرأة تغشني وفي هاتين السنتين لربما لم احصل على شهر واحد من السعادة التامة لان هذه المخلوقة تغرمني في كل ساعة وتسخر بي وتلقيني من الجحيم الى النعيم وتترك في فؤادي شكوكًا مستنكرة تحسن ازالتها في الغد بنظرة او بسمة

انك لا تعلم ما هو هذا ان يعيش الانسان في مثل هذه المناوبات المستديمة بين الامل واليأس والفرح والدموع والغضب والحب والتحذر والعماية ولا تعلم باي فن جهنمي تسقيني بتمهل من ذلك الشراب الالهي الذي يمكنها ان تسكرني به. تصور مسكينًا بشفاه جافة محترقة يقطر له الماء العذب الذي يبرد ظمأه نقطًا منقطعة تتخللها فسحات مديدة . وقل . . قل الا يجعل ذلك عطشه احر نارًا واشد قساوة . . قل الا يحصل عن هذا الموت بجنون الهياج

فهذه هي حياتي . . . احترق دوامًا بالحب . . ولا احصل ابدًا من اورزيل على ما يكفي لتبريد حبي ولكنها تكثر على الدوام من معاملتي بما يضرم ناري ويزيد سلطانها الظالم عليّ

يا لها من مخلوقة جهنمية . . . فهي تعلم جيدًا ان الامال الحارة تتولد عن تذكار حار وان كلما لا يرتوى منه يبقى على الدوام والى الازل

فهذا هو سر ضعفي وجبني وتخلي بل هذا هو ايضًا سر فرحي الجنوني المقترن بالخلط عندما تتنازل اورزيل وتعاملني كامرأة لا كشيطان وفخ ساحر

ثم تارة تحسن التصرف بما يقنعني او بالحري اقنع نفسي ان اورزيل بالرغم عن كل هذه المعاملات المكدرة تحبني بحرارة وان تصرفاتها الغريبة مستعد عليها لمغالطتي بذلك الحب الذي يثير كبرياها

وتارة اظنها تتصنع بسرعة التقلب والاحتقار من اجل المحافظة طويلاً على قلبي لعلمها ان لربما اسأم منها واملها اذًا لم يعد لي شك بخلوص مودتها . . . وحينئذ تظهر لي جميع هذه المعاملات التي اثارت قبلاً شعائري واغاظتني كبرهان قاطع على مزيد حبها لي

وقد اتصور في ايام شكوكي انها لا تحبني وانها تحتملني من اجل اهتمامي بارضاء اذواقها واميالها

أليس هذا مخيف . . يا للشقية . . انها تعلم جيدًا ان هذه الشكوك المهيجة للغضب هي التي تمنحها كل هذه القوة اذ لو اعتقدت كوني محبوبًا منها بطيبة وسذاجة كما احبتني امراتي وغيرها لا خلف حبي سريعًا الاشمئزاز وعدم الاهتمام . . ومثل ذلك لو اعتقدت بانها تلعب بي بلا حياء لتركتها بلا تردد . . . فيا للعنة . . من ينيرني اذن . . وما هو فكرك انت . . لا لا انا وحدي يمكني ان احكم على ذلك واذا لم انجح بمعرفة الحقيقة فانت ايضًا لا يمكن ان تنجح

والذي يوءلمني ايضًا تهيجات كبريائي وعزة نفسي فان السيدة دي ماران تتجنب باعتناء اتم التظاهر امام الناس بكلما يحسب لديهم تساهلاً اثيماً من قبلها وقد بعت المنزل الذي اشتريته من الموسيو دي روشكيم وسكنت بقرب منزل ماران وفي اوتولي اتخذت مقرًا ايضًا وعلائقي الظاهرة معها لا تخرج عن حدود الصداقة العادية اما اورزيل فمعاملاتها لي بين الناس كمعاملاتها لبقية الرجال الذين يهتمون بها بلا زيادة ولا نقصان . وكثيرون من اصحابي يتساءلون ايضًا عما اذا كنت سعيدًا اولاً

وقد اتهيج تارة لدى التفكر ان مثل هذه السعادة التي تكلفني كثيرًا مجهولة وتارة اخاف ان اكون مغشوشاً منها ومضحوكًا مني فابادر الى طرد هذا الفكر بتعداد اسماء مزاحميَّ

ثم هناك جرح اخر من جروح هذا الحب الدني المحرق وهو اني لا اعلم اذا كانت اورزيل تغشني اولاً وقد اقمت عليها الرصاد ولربما تكون لحظت ذلك لانهم لم يكتشفوا على شيء . . ولكن هذا لا يطمني لان اعتقادي باحتيالها ومهارتها اكثر من اعتقادي بفضيلتها

ومن الامور المستقبحة في امثال هذا الحب ان اعمال السفالة والخيانة التي يرتكبها العاشق تكون موجبة لزيادة تعلقهِ بمعشوقهِ المشوم . فقد اغتاظ في بعض الاحيان لما ان اورزيل لا تعتد بالشر الذي عملتهُ ولا بالاوجاع التي اسببها لان هذه الاموال التي ابددها باسراف كثير هي اموال امرأتي العائشة بالوحدة والتعاسة . . . ولكني بلا شفقة بالنظر الى هذه التاملات لان احزاني وحدها كافية وما من حاجة للتفكر باحزان الاخرين وزد على ذلك كون المسالة متعلقة بالدراهم وما عرفت في حياتي ماهية الدرهم ولا قدرتهُ حق قدره . وكل خوفي منحصر

بالتفكر فيما تأول اليه احوالي بعد نفوذ هذه الثروة وهل تبقى اورزيل راضية بالمعيشة في منزل السيدة دي ماران بعد تجرده من اسباب الزينة والبهاء ان عمة امرأتي شاخت وبدات تعترف بخوفها من معيشة الوحدة ولا يمكن ان تتخلى عنها مطلقًا . فهي لا تريد الان الانفصال عن اورزيل ولو اعطيت ملك العالم . . اما انا . . انا فماذا تكون احوالي يا ترى بعد ذلك

اريد للتخلص من هذه الافكار المشومة ان احدثك بمثال من المواظبة والعناية اللذين اسهر بهما على انفاذ اغرب تطرفات هذه الامراة فمنذ شهرين تقريبًا وهي معرضة عني وفي حياتي لم اشعر اني اكثر تعاسة اي اشد حبًا من هذين الشهرين وهاك السبب . ترآى لاورزيل ان تمثل رواية في منزل ماران فشيد للحال الملعب بسكرة السرور واظهرت هذه الامراة تفننًا غريبًا بتمثيلها لدور سيليمين في رواية (الميزانتروب) ثم ارادت ايضًا بنوع من تلك المباينات التي تحبها ان تلعب بعد ذلك دورًا لفتاة تسمى دجازيت في رواية هزلية ومثلت بما يجعل الناظر عاشقًا مجنونًا بها

فبقي الحاضرون جميعًا باهتين لمشهدها والناس من ارباب الخبرة العظيمة اجمعوا ان بعد السيدة مارس لم يمثل هذا الدور بهذا الظرف والرقة والتعقل ولاسيما بمثل هذه الهيئة العظيمة . . اما في الرواية الصغيرة فعادلت اورزيل على الاقل دجازيت بالخبث والوقاحة السفلة وكان نجاحها والحق يقال في هذين الروايتين المختلفتين مما لم يسمع بمثله

فانضممت الى الجمهور الحاضر بمنتهى الفرح والكبر اسوق اليها كثيري المدائح ولكن هل تعلم ما الذي اجابتني به اورزيل بوقاحتها وسفهها العاديين قالت على عاشق الامراة اذا لعبت برواية ان لا يهنئ نفسهُ كثيرًا بنجاح معشوقته بين الممثلين

ثم اعرضت عني في بضعة ايام وتهورت بعلائق خطيرة تمسها مع اللورد س * * وهو رجل محبوب من رجال الزي الجديد ففي هذه المرة اوشكت ان اقطع علائقي مع اورزيل ولكن بدا لهذه الامراة تجليات غريبة طوحت بي الى مصاريف جديدة باهظة واعادتني صاغرًا الى الخضوع لنيرها بتعشق اشد بكثير من السابق

ويقتضي قبل التكلم عن ذلك ان تعلم باني كنت انشأت في وسط جنينة السيدة دي ماران مصيفًا متسعًا يستخدم في الربيع كقاعة للرقص وجدرانهُ مغطاة من الداخل بالصفصاف ومزينة برسوم من خشب الجزائر الاخضر على مثال الدوالي

فوصلت يومًا عابسًا حزينًا وكانت اورزيل في المصيف مع السيدة دي ماران واللورد س * * وفي اثناء المحادثة قالت اورزيل وقد اشارت الى جدران ذلك المصيف يا لله كم

تكون هذه الجدران جميلة وظريفة لو امكن ان تكسي جميعًا بالزهور الطبيعية ان من الخسارة ان يكون هذا التمني من الاحلام

فصاح اللورد س * * * والسيدة دي ماران معًا حقًا ان هذا الفكر يستحيل تحقيقهُ فالقت عليّ اورزيل واحدة من تلك النظرات التي تعلم اقتدارها وتكلمت بموضوع اخر ففهمت مرادها

وفي الغد اختفت جدار ذلك المصيف الداخلية تحت سطح حقيقي من الزهور الطبيعية وذلك انها كسيت بجدائل متلاصقة من الخيزران غطيت بالياسمين والقرنفل الابيض والورد الابيض وكانت الزهور المذكورة متلاحمة ومنظمة بمزيد العناية والدقة بما يولف سطحًا متساويًا ببياض الثلج يتدلى عليهِ بانتظام باقات كبيرة من الورد الاحمر معلقة بشرائط من الحرير الازرق السماوي

ومن المستحيل ان يستطيع اللسان التصريح بما لزمني من المال والعناية والارادة لاجمع في برهة اربعة وعشرين ساعة هذه الكمية العظيمة من الزهور لان المحل المراد تغطيتهُ كانت مساحتهُ نحو من مائة قدم

وكنا مرة في اوتولي بالبريــة وقد دار الحديث والقمر ساطع بمنتهى انواره عن فتح اوبرة هزلية جديدة بصيت زائع والناس تبالغ كثيرًا في مدح انغامها الجامعة بين العلم والطرب وكان يسر اورزيل استنهاض همتي للاجراء بحسب مطاليبها فنظرت اليّ وقالت يا للخسارة حيث لا يمكن هذه الموسيقى ان تصلنا من باريس على اجنحة هذا النسيم اللطيف الذي يتلاعب باشجار الجنينة

وكانت الساعة السادسة فخرجت برهة ثم عدت ووجدت وسيلة لابقاء اورزيل والسيدة دي ماران ساهرتين الى قرب نصف الليل واذ سمعت فجأة الموسيقى المذكورة تعصف من بعيد وهي قادمة من باريس بحسبما رغبت اورزيل على اجنحة النسيم اللطيف الذي يتلاعب باشجار تلك الجنينة

لربما ترى ذلك عجيبًا ولكنهُ بسيط فان اورزيل لم تأت على تتمة التصريح برغبتها الا ارسلت في الحال اثنين من اتباعي الى باريس فوصلا اليها في عشرين دقيقة وهنالك سار احدهما الى رئيس الموسيقى وحصل بمبلغ عظيم من المال على رضائهِ بالمجيء مع جوقهِ بعد التمثيل الى اوتولي واهتم الاخر بايجاد عربات النقل ووقف بها مهيئة ومسروجة على باب الاوبرة بخيول البوسطة لسرعة المسير بالموسيقيين والآلاتهم وكانت الرواية مدروسة جيدًا فجرى تشخيصها بدون اهمال وانتهى اللعب في الساعة الحادية عشرة وبعد ذلك بنحو من ساعة

كانت الموسيقى بتمامها في اوتولي محجبة بالاشجار المغضة تحقق احلام اورزيل

وفي هذه المرة كدت لا احصل منها على شيء من الفاظ الشكر لاني عودتها على امثال هذه المفاجئات العجيبة التي اجريها بقوة الذهب ثم فرغ صبري اخيرًا بكل هذه الوقاحة ونكران المعروف والقساوة فتجاسرت على توبيخها وجعلت آكلها عن الضحايا المتنوعة التي تكبدتها من اجلها وعن امرأتي التي تركتها وثروتها التي ابددها فاتخذت اورزيل لذلك مظاهر الافتخار الخشن والاحتقار الساحق وسالتني عما اريده بقولي وعما اذا كنت بذوق قبيح الى حد ان اوبخها من اجل ساعة طرب وضمة زهور (وقد ارادت الاشارة بذلك الى زينة الجدران بالزهور والموسيقى المحتجبة بالاشجار) اما بقية خسائري فتظاهرت كانها لا تفهم شيئًا منها . ان السيدة دي ماران كانت متضجرة من معيشة الوحدة ورأت اورزيل منفردة فعرضت عليها المجيء للسكنى معها في منزل ماران وكان المنزل المذكور بلا ريب في غاية المناسبة وذلك بفضل الاقتصاد المعلوم الذي ادخلته على مصاريف السيدة دي ماران المذكورة اما اورزيل فاي امتنان شخصي لي عليها او لم تظهر مرة منتهى الغيظ عندما اردت ان اقدم لها بعض الاحجار الثمينة

فان اورزيل بواحدة من تلك المباينات العديدة الغريبة المتخلقة بها خجلت ان تقبل مني حجرًا كريمًا على سبيل الهدية ولكنها لا تخجل من ان تتولى ادارة منزل اصرف عليه مصاريف باهظة وان تدفعني بنوع من الفرح الشرير الى منتهى الاسراف الجنوني العقيم

واخيرًا عندما اصابني اليأس والغضب بامثال هذه المعاملة وبختها بقولي انها شيطاني المضل فقهقهت ضحكًا واجابتني بجسارة قلت لك ان تحذر دائمًا مني عندما اتظاهر لك بخلاف خلو القلب والاحتقار اذ لربما افكر في بضعة ايام بالانتقام لمتيلدة والان قد حصل ما تنبأت به وهانذا انتقم لمتيلدة

ولكن كلمة حنونة منها في الغد كانت تنسيني جميع احتقاراتها . . وباطلاً كنت اقول عن تصرفي في هذا انه صادر عن انواع الحب الجنوني الكثير الوجود في العالم لاني اظن رغمًا عني . . رغمًا عني ان لا بد من وجود شيء مشوم في ذلك التصرف . . . اني اصبحت من ارباب الاعتقادات الباطلة واقول لك ان هذه الامرأة مشومة ففي مظاهر فرحها شيء من العبوسة وفي اساليب نفوذها وسحرها شيء من الغرابة وقد قالت لي السيدة دي ماران مرارًا اني لم اعلق ابدًا باحد وما من احد احرز سلطانًا عليّ في حياتي .ولكني الان لا استطيع المعيشة بلا هذه الامرأة واعلم انها خبيثة كشيطان على ان هذا العلم لا يوثر فيّ شيئًا ويتراآى لي ان نار عينيها الكبيرتين الزرقاوين تنير كلما حولي

وكانت السيدة ماران مصيبة بذلك لان اعينها تنعث منها اشعة فوق العادة وقد يقول

المشاهد ان الانوار الساطعة بها صادرة عن وقيد أنوار داخلية . . سكت لئلا تضحك مني وتتهمني اني اعتقد بالشياطين

استودعك الله ان راسي متقد بالنار وهذا الفكر المتامل بالسنين الماضية يوثر في كحلم موءلم

ماذا نفكر يا ترى بكل ذلك اجبني انصحني اشفق عليَّ

ك دي لانكراي

الفصل الثاني والخمسون

مصادفة

ولا اعلم بعد قراءة التحرير ما الذي انغلب على نفسي للموسيو دي لانكراي هل الغيظ ام الشفقة ام الاحتقار ولو كان باقيًا في قلبي اثر التاسفات الماضية او بعض شعائر البغض ضد زوجي لحصل لي عن ذلك الكدر او شفاء القلب بالانتقام

ولكني مع ذلك لم استطع الامتناع عن التبسم بتمرمر لدى التفكر بالضحايا التي يقدمها زوجي من اجل امراة تحتقره وكيف عاملني بمنتهى القساوة عندما جئت اليهِ اسأَلهُ ان يغير مكان كلابهِ ويمنحني مبلغًا زهيدًا لعمل خبزي والذي اوجب انتباهي كثيرًا من ذلك التحرير انما هو نوع الخوف والضعف الخرافي الذي اظهره في الاسطر الاخيرة فان ارباب النفوس الردية والارواح المتكبرة ينسبون على الدوام تصرفاتهم بالمعاصي والجرائم الى الاقدار المشومة او اسباب فوق الطبيعة وقلما ينسبون ذلك الى ضعف وفساد فطرتهم

ثم يوجد ايضًا ملاحظة اخرى حرية بالانتباه فان هذا الرجل وكان قبلاً بمنتهى الزهو والتربع والسعادة محتقرًا للدموع التي تسكب من اجلهِ محبًا لذاتهِ مدمنًا على التعشقات اصبح في هذا الحب وضيعًا ذليلاً مضحوكًا منهُ مسخورًا بهِ وهو مع ذلك شاب جميل من ارباب الغنى والذكاء . . حقًا ان انتقام الرب يتخذ مظاهر كثيرة للحلول على الجاني . . فاي مظهر ياترى يتخذ للحلول على اورزيل

وكان لا يمكني بعد هذا ان ارتاب بان الموسيو دي لانكراي سائر باقدام متسعة نحو خرابهِ ولم يبقَ معهُ الا ثمن ارض ماران التي اشتريتها منهُ سرًا وكان القسم الذي وقع بالاشتراك بيني وبين الموسيو دي لانكراي من املاك الموسيو دي مورتاني قد اشرف على

النهاية ايضاً ولا يخفى ان الدراهم اصبحت لا تهمني ابداً بعد وفاة ولدي ولكنني مع ذلك كنت اجرح بقساوة عند مشاهدة اموالي الشخصية تنفق على بذخ السيدة دي ماران وارضاء اميال ابنة عمي الجنونية

ولسوء الحظ كانت اتفاقية زواجي بنصوص صريحة ولا يمكني ان اعارض بشيء اسراف زوجي الجنوني وكان لا يوجد لي الا وجه وحيد للامل وهو تقديم الشكوى وطلب الافتراق ولكنني لا اريد ولا بشيء من العالم ان انحدر الى هذا الحد واشاهد اسمي معرضاً للايضاحات المشينة لاني حاصلة دائماً على حياء الحزن وما عهدت للدوقة دي ريشفيل بسرائر شقاي الا بتألم كثير ولا يمكنني ان افكر باذاعة ذلك الشقاء على العموم فاعتمدت اذن ان احمل بصبر ما لا استطيع منعهُ وكان من انضاع ذوقي وعوائدي ان الطف مفاعيل الاكدار الناشئة عن تلك الضحية

ولم تخط الدوقة دي ريشفيل بظنونها فان عنايتها وحبها وحسن التفات الناس الذين اشاهدهم غالباً عندها محت من احزاني القديمة حتى اثارها فكنت متمتعة بالسكينة والراحة وعلى فرض اني لم اكن وقتئذٍ في حال السعادة كنت على الاقل في حال النجاة تماماً من الاوجاع

وتراءى لي ان حالة هذا الانتقال طافحة بالكمال والبهاء فهي تشبه كثيراً لذلك الخدر الخفيف العذب وتلك الراحة المبهمة التي تخلف الامراض الموملة

ثم حصل بالصدفة اختبار ثبت منهُ ان شفائي كان شفاء صحيحاً تاماً

ففي احد الايام بينما كنت اتنزه بالعربة في حرش بولونيا مع الدوقة دي ريشفيل واذ مر سريعاً على مقربة منا امرأتان على الخيول يصحبهما عدة رجال وكان المارون المذكورون اورزيل والاميرة كسبرنكه والدوق دي فيرساك والموسيو دي لانكراي واللورد س *** واثنان او ثلاثه رجال اخرون لا اعرف اسماءهم

وكانت اورزيل ممتطية جوادنا (ستيلا) بظرفها وجسارتها العاديين وعربتنا سائرة بتمهل فعرفتني ابنة عمي وزوجي تمام المعرفة وارتني اورزيل الموسيو دي لانكراي بنظر ساخر ووقاحة نادرة اما زوجي فاحمر كثيراً وتظاهر كانهُ لم ينظرني

وبعد اذ مر هذا الموكب تأملتني الدوقة دي ريشفيل بقلق . . وكان قلبي قد انقبض قليلاً ولكن هذا الاثر زال بسرعة عني . . . .

وعند الرجوع الى باريس نظرنا اورزيل والاميرة كسبرنكه والدوق دي فيرساك عائدين من حرش بولونيا بعربة مكشوفه يجرها اربعة رؤوس من الخيل ثم اتباع السيدة دي ماران بالملابس الاحتفالية والموسيو دي لانكراي بعربة صغيرة يتبعهم من قريب وعند هذه

التجربة الجديدة عاودت الدوقة دي ريشفيل النظر اليّ . . . . فتبسمت

قالت الدوقة حسن . . حسن . . لقد شفيت تماماً

والذي اذكره ان ذلك اليوم كان الثلاثا وكنت قد اتخذت في ذلك النهار غرفة في ملعب الروايات الهزلية مع الدوقة دي ريشفيل التي اصحبت معها البرنس ديركور وامرأته وبعد وصولنا بقليل دخلت بالصدفة الغريبة اورزيل والسيدة دي ماران مصحوبتين بالدوق دي فيرسالك الى غرفة اخرى من مصاف غرفتنا

وكنت قد رجوت الدوقة دي ريشفيل ان تجلس في الجهة الامامية من الغرفة بجانب البرنسس ديركور واجبرتها على ذلك بالرغم عن تمنعاتها وبقيت تقريباً مختفية في الظلام ولهذا امكني بدون ان اشاهد من احد ان الاحظ المشهد الاتي

فان ابنة عمي كانت كعادتها بثياب متناهية بالبساطة وقد تالفت ملابسها وزينتها في تلك الليلة من ثوب ابيض ثم شارة من الحرير الناعم اللطيف يظهر للمشاهد كانها تحيط بضباب من الثلج كتفيها البديعين وهما بالنظر الى شدة الانوار ببهاء وصقال الرخام ثم وردتين (كاميلباس) بلون الكرز موضوعتين بظرف بين شعرها الاسود المتدلي ضفائر على نهديها وفي صدرها باقة من جنس الزهور الموضوعة على راسها

وعند ذلك علمت ان الغيرة ما اعمتني على الاطلاق لاني وجدت اورزيل وقتئذٍ لربما اكثر جمالاً من السابق فان هيئتها ووقفتها اتخذتا مظاهر الشرف او بالحري السمو بما يعادل جسارة نظرها وحرية خطابها لانها كانت تخاطب احياناً الرجال على ما يقال بلهجة حرة قاسية لا تصدق

اما السيدة دي ماران فكانت مداومة الحرص على ثوبها الاسود وشعرها وقبعتها والذي ظهر لي انها شاخت وتغيرت كثيراً ولكن اعينها وحدها كانت لا تزال تسطع من تحت حواجبها الكثيفة الرمادية بمنتهى حدتها كالافعى

وكانت غرفة السيدة دي ماران في خلال الفصول تزدحم بلا انقطاع بالزائرين من نخبة الهيئة الاجتماعية المتطرفة بالخلاعة والزهو وحينئذٍ شاهدت اورزيل في الدرجة العليا من انتصارها وفوزها لانها قالت بانها تريد ان تكون وستكون الامرأة الممتازة في باريس بالزي الجديد ونجحت بذلك فكانما هي قد ولدت حقيقة لهذا الدور الذي تلعبة

ان النار المنبعثة من اعينها واشاراتها المنعشة البديعة وضحكاتها العذبة اللطيفة وعظمة هيئتها التي تستعيض عنها احياناً بمظاهر السخر والتهكم كل ذلك يعلن كونها مجبولة على البحث لاعجاب الناس بها وان تكون الانظار موجهة اليها

ونظرت بين الرجال الذين جاءوا للسلام على اورزيل الموسيو كاستون دي سينفيل زهرة ذلك الزمان على ما كانت تقول عنه خالته الدوقة دي ريشفيل فقابلته ابنة عمي بامتياز خصوصي وكان زائر اخر اعظم شاناً من الاول واظنه متولي اشغال وكالة ساكسونيا في باريز مشغلاً بالتكلم مع السيدة دي ماران

وكان من الموسيو دي سينفيل ان قبض مرارًا عديدة على نظارة اورزيل بلا تكلف وكلها بصوت منخفض واستغرق معها بالضحك وانحني لينظر بعض من دلته عليهم والخلاصة انه تظاهر معها بعلائق الوداد الحصري التي يسر الشبان على الدوام اجراؤها مع امراة من ربات الزي الجديد

واكثرت ابنة عمي من جهتها ايضًا التظاهر بالخفة والدلال ثم ارادت ان يشم الروائح العطرية من باقة الزهور الناخرة الموجودة بيدها فمالت الى الوراء واماات قامتها الجميلة بالالتفات قليلاً لنحو الموسيو دي سينفيل فاستنشق بلذة الروائح المنبعثة من تلك الزهور العطرية ومع ان هذه الملاطفة المتنازة لم تكن بحصر المعنى عن ذوق حسن من اورزيل لا يسعني الا ان اعترف بان من المستحيل ان تجمل مثل هذه الحركة باكثر من هذا البهاء والظرف الجذاب

وتصادف اني القيت وقتئذٍ نظري على غرفة مقابلة لغرفة السيدة دي ماران فنظرت من وراء النافذة المفتوحة وجه زوجي مصفرًا مكفهرًا وكان واقفًا في الممشى يرقب اورزيل ولا ريب ان منهجها واساليبها وقتئذٍ كانت موجبة لاثارة غيرته

وبعد هنيهة بارح الموسيو دي لانكراي غرفته وحضر بدوره للسلام على السيدة دي ماران وكان زوجي اصغر سنًا من وكيل حكومة ساكسونيا فالتزم الموسيو دي سينفيل ان يتخلى له عن مكانه ولكنه امتشق قبل الذهاب وهو يضحك بضع زهور من باقة اورزيل وضعها للزينة بانتصار في عروة سترته . وعند ذلك ظهر الموسيو دي لانكراي كانه عرضة للعذاب وتبادل بضع كلمات مع السيدة دي ماران

وبعد ذهاب الموسيو دي سينفيل عاودت اورزيل القبض فجأة على نظارتها بهيئة باسرة وجعلت ترقب بها جميع جهات تلك القاعة غير معتدة بالموسيو دي لانكراي كانها لم تره ثم نظرت زوجي يكلمها مرتين ولكنها لم تسمعه او بالحري تظاهرت كانها لم تسمعه والتزم اخيرًا ان يمس بلطف ذراعهـا حتى اظهرت الانتباه اليه فاعطته يدها بافكار مشتتة واجابته بكلمات قليلة ثم عاودت النظر بنظارتها الى جوانب القاعة

فلم يسع الموسيو دي لانكراي اخفاء حركة من فروغ الصبر والغضب ثم عاود

التكلم مع وكيل ساكسونيا والسيدة دي ماران

وكنت في الصباح لم اتمكن من تامل الموسيو دي لانكراي جيداً وذلك بالنظر الى سرعة عدو الخيل فعاودت وقتئذٍ النظر اليهِ باصغاء وكان وجهه الضعيف التعب يترجم عن وفرة احزانهِ وغيرتهِ المستدل عليها من تحريره وقد تغير كثيرًا فلم يعد كالسابق لامعاً خفيفاً لخلو قلبهِ من الحب ولا ساحرًا جسورًا لاعتقاده انهُ قادر ان يعجب ويسود بل بالعكس كان حزيناً قلقاً خضوعاً متصبرًا لانهُ يحب بتعشق وقد تسلط عليهِ من يسخر منهُ بدوره

وعندما تعبت اورزيل من النظر عاود الموسيو دي لانكراي مخاطبتها مجدداً وإنما بنوع من الكآبة والحزن وكنت اعرف هذه الامراة حق المعرفة فامكني ان افهم من مظاهر هيئتها المتفاخرة وتبسمات السخر التي ظهرت على شفتيها انها تجيب بالتهكم على ملامات زوجي الموجهة منهُ اليها بطريقة غير راسية . ثم دخل اخيرًا الموسيو دي فيرساك وعند ذلك رفع الستار وانتهى ذلك المشهد المكدر شديداً للموسيو دي لانكراي ببداية الالحان فألم بقلبي شعائر حادة من الغيظ لدى التفكر باليأس المخيف الذي يقضي بهِ الموسيو سيشرين ايامهُ بالوحدة والانفراد غير منتفع بالتعذيات الوالدية الحنونة بينما امرأتهُ منقطعة للضحك والسعادة وهي منصبة بوقاحة على اجراء اميالها للخلاعة والمسرات

وكنت قد اجريت كل هذه الملاحظات من اعماق الغرفة حيثما كنت مختفية تقريباً وادركت الدوقة دي ريشفيل والبرنسس الافكار التي لا بد من دخولها عليَّ لمشهد اورزيل فتشاغلا بالمحادثة سوية حتى لا يقلقاني وكان البرنس ديركور قد خرج فامكني والحالة هذه ان استغرق بالتاملات المكدرة

ولم تذهب تلك الليلة ضياعاً لاني علمت يقيناً منها اني لم اعد اشعر من نحو الموسيو دي لانكراي الا بالشفقة الممتزجة بالاحتقار مما يداخلني لكل غريب احده في مثل هذا المركز الباطل المشين ثم راقت افكاري تدريجاً وتذكرت بما يحملهُ الموسيو دي لانكراي كلما تحملتهُ وباركت الرب لانهُ انقذني من هذه العذابات المخيفة بان اعدم من قلبي كل منبع للحب لان ضمانة سعادتي كانت قائمة بما اظنهُ من استحالة العود الى التأثر بهذه الحماسة

وكان الموسيو دي روشكيم قد سافر باشغال الى بعض اراضيهِ قبل مجيئي الى باريس بايام ثم عاد منها بعد مصادفتي لاورزيل بقليل . وتذكار هذا الرجل بقي على الدوام في افكاري مرتبطاً بتذكار الموسيو دي مورتاني وهو مخلص كثيرًا لي باخلاق جدية محب للانسانية والناس مجمعة عموماً على احترامهِ وكنت قد اعتدت بالرغم عن شبوبيتهِ على اعتبارهِ

كشيخ مسن لانهُ حاصل من الشيوخ على صفات الثبات والرزانة

وكانت السيدة دي ريشفيل قد قالت لي في اثناء تكلمها احيانًا عن الموسيو روشكيم انهُ اتخذ بين العالم منذ عوده من الشرق منهجًا ثابتًا جسورًا لايقًا باستقلال وشرف صفاتهِ ولم يعد ملازمًا كالسابق جانب التحرس البارد فكنت انتظر مشاهدتهُ بفروغ صبر وسرني كثيرًا خبر رجوعهِ الى باريس

ففي مساء احد الايام في نحو الساعة العاشرة سرت من مسكني الى منزل السيدة دي ريشفيل بممشى من الزجاج يصل بين المسكنين وقد انشأتهُ من اجل هذه الغاية

ولا اعلم كيف يوجد بين القاعات الممتازة ما يكون ترتيبها وتنسيقها داعيًا لاحاديث المودة وحصر علايق الالفة ومن ذلك قاعة الدوقة دي ريشفيل وقد قضيت فيها سهرات لذيذة ولا يمكني ان امتنع عن المسرة برسم صورتها ولا ريب ان مشهد الاماكن المحبوبة لا يبرح عن الاذهان فكان يقود الى قاعة الدوقة دي ريشفيل المذكورة دار مزينة برسوم قديمة حسنة وهذه القاعة مفروشة بالحرير الاخضر فمن ذلك الفرش وستائر النوافذ والابواب والاثاث الخشبي المذهب المنقوش بما ينطبق على احسن الاذواق في عصر لويس الرابع عشر

وكان موضوعًا في زاوية الموقدة مقعد عريض يتقاسمهُ في ذلك المساء الدوقة دي ريشفيل والبرنس ديركور وهو شيخ عظيم جميل بشعر ابيض ووجه طافح بالشرف والسكينة والوقار وفي الجهة الثانية من الموقدة البرنسس ديركور بوجه لطيف مصفر مستجمع لصفات الشرف والطهارة . وقد وضعت شعرها الرمادي مضفورًا تحت طربوشها بنوع من تربيع الشيخوخة وهي تحادث السيدة دي سينور وتنظر احيانًا الى البرنس زوجها بنظرات الحنو والارتضاء

وكنت دائمًا متاثرة لمشهد هذين الشيخين اللذين تجاوزا بقدم ثابت ازمنة كثيرة صعبة متكئين على بعضهما ووصلا الى نهاية خطتهما الطويلة بجبهة مرتفعة وشفاه باسمة واعين متجهة نحو السماء

وكانت السيدة دي سينور جالسة بجانب البرنسس تختلف عنها اختلافًا بينًا فهي امرأة لا تتجاوز الاربعين من العمر يظهر من هيئتها الشريفة المتعشة كانها بمشاغل لحل مشكل عضل جامعة بين عظمة المظهر وحدة الافكار الساطعة وكان جالسًا اخيرًا بقرب طاولة لشاي بين نافذتي القاعة المذكورة السيدة اما مشغلة بالخياطة

وكانت هذه القاعة مضيئة بعدة من قناديل الخزف الصيني ونورها الحاد المتلطف بشعريات النوافذ يلمع بهِ هنا وهنالك بين الاشعة والفي ذهب الاخشاب البيضاء وبراويز

الرسوم والبرونز والوان الحياض والزهور المتنوعة التي تحواها وكانت اشعة الانوار الفرحة تتلاعب على الابسطة الثخينة الارجوانية وهي معطرة قليلاً (بخلاصة الباقة) من الروائح الانكليزية التي تحبها كثيرًا الدوقة دي ريشفيل وكان لا يمكني استنشاقها وقتئذٍ الا وتعود الى افكاري فجأة تلك الازمنة الاولى البعيدة من حياتي (لان بعض الروائح العطرية والانغام الشجية كانت تضاعف قوة تزكراتي) واذا ماطالع المرء كل ذلك علم حقيقة هذا المنزل وانه ابدع مكان يمكن وجوده في العالم لاجراء المحادثات الطويلة العذبة بين جمعية مختارة مرتبطة بالمودة



الفصل الثالث والخمسون

الخبر

وعندما دخلت الى القاعة نهضت اما لتقدم لي مقعدًا كانت تخصني به وتقول انه مقعدي لاني كنت افضله لجلوسي على غيرهِ وهو عبارة عن كرسي عريض واطىء فقبلتها من جبهتها على هذا الاهتمام وشددت بتودد على يد البرنس دبركور

فقابلتني الدوقة دي ريشفيل بقولها خسرت كثيرًا يا عزيزتي متيلدة بتاخرك عن المجي الى هذا الحين لان البرنس كان يحدثنا بخبر من اعظم اخبار البسالة عن احد اصدقائنا ولا ريب ان ذلك يهمك كثيرًا

فسالت وعمن يتكلم ياترى

قالت السيدة دي سينور عن الموسيو دي روشكيم فهو سيد زمانهِ (بطل ولد في بوركوس سنة ١٠١٠ وامتاز بخدمة سانش ملك الكاستيل ثم الفونس السادس في حروبهِ ضد المغاربة) ويستحق ان يذكر في القصص الحديثة

فتبسم البرنس وقال لا باس ساعود الى مراجعة الخبر من اجل السيدة دي لا نكراي لانها ستشكرني على ذلك

قالت السيدة دي سينور وانا ايضًا لاني في المرة الاولى تاثرت رغمًا عني ولكني في هذه المرة ساكون على حذر ويمكني ان اسخر من بطلك حيث من الامور التي لا تحتمل ان يسمع المرء اعمالاً تستدعي زيادة الاعجاب بها الى مثل هذه الدرجة

قالت الدوقة دي ريشفيل باسمة للبرنسيس هل سمعتها . . وهل يمكن ان تنكري بعد هذ تعشقها للغرائب

اما السيدة دي سينور فداومت حديثها وقالت لكن الامر سهل فان المرء عند خروجه من امثال هذه الاخبار الحمسة يكون اشبه شيء بواحد من عموم الناس خارج من بلاط الملك فتكرم علينا اذن يا حضرة البرنس باعادة هذا الخبر الجميل لاضحك منهُ

قلت اني انضم الى السيدة دي سينور بالرجاء واتوسل اليك ان تعاود قص ذلك الخبر . ومن يقيني ان هذه الملاطفة من قبلك لا تكلفك كثيرًا . . لان الرجال من اصحاب الشرف يسرهم كثيرًا على ما يقال ان يتصرفوا بما يرضي النساء

اجاب الامير متبسماً فهمت فانت تخاطبينني بكل هذه المدائح المسرة لمنعي من التصريح بجميع افكاري من نحوك ولكن لا بد من حلول الفرصة المناسبة وحينئذٍ لا اشفق عليك ويذهب تمليقك ضياعًا . . والان فما دمت ترغبين ساعاود قص الخبر الذي باشرت بقصهِ للسيدات ثم بدا البرنس بالحديث فقال

لا يخفاكن ياسيداتي ان روشكيم قاتل بهمة لنصرة اليونان وانهُ سمي كولونيل لواحد من جيوشهم الثلاثة الخيالة وانهُ هو الذي انشأ ذلك الجيش وجهزه باموالهِ الخاصة والبسهُ بفكر الصداقة المؤثرة ملابس الهوشار وهو الجيش الفرنساوي الذي انضوى تحت رايتهِ الموسيو دي مورتاني في ايام الامبراطورية وتولف الملابس المذكورة على ما اظن من ثياب بيضاء مقصبة بقبيات زرق واذا اكثرت من هذه التفصيلات فما ذلك الا لاهيئكن لتذكار اخر ليس باقل تأثيرًا من هذا وهو والحق يقال باهمية جميلة وعظيمة . . .

ثم التفت لنحو السيده سينور وقال ستجبرين على الاعجاب بهِ ياسيدتي اعجابًا مجردًا عن الاسف

اجابت سوف نرى . . سوف نرى لاني صاغية لك بمزيد الانتباه وقد نبهتك بجميع انواع التحذر الا ان الناس تحكم على المحامي من الدعوى التي يدافع عنها

قال البرنس ديركور ضاحكًا فلنهتم اذن بكسب دعوانا ثم عاود اتمام الخبر فقال وعندما توطد وتقرر استقلال اليونان توجه الموسيو دي روشكيم الى روسيا وكانت الحرب وقتئذٍ منتشرة بين هذه الدولة والشركس فرغب الاشتراك بالحرب المذكورة فضولاً منهُ وانخرط متطوعًا في حملة القوزاق واظهر شجاعة عظيمة في مقاتلة حصلت مع فرقة من الخيالة ولكنهُ جرح فيها جرحًا بليغًا وقتل جواده من تحتهِ فخارت قواه بنفاذ الدم الذي خرج منهُ ولم يمكنهُ النجاة فبقي مجندلاً بلا وعي على ساحة القتال وعند رجوعهِ الى الصواب كانت الساعة هائلة

جداً فانهُ وجد ذاتهُ وحده في فياف رحبة قفرة ينيرها القمر بضوءه الباهت والثلج يتساقط بتهطل عليهِ وقد غطي بهِ نحو اكثر من نصفهِ

قالت الدوقة دي ريشفيل يا للبلاء ان تلك الفيافي القفرة المغطاة بالثلج اثرت فيهِ وفتنتهُ كما لو كانت كفنًا رحبًا ادرج فيهِ وقد قال لي الموسيو دي روشكيم ان هذه هي التاملات الاولى التي خطرت على افكاره لانهُ اخبرني بذلك وحدثني بخبر جرحه ولكنهُ اخفى عني تتمة هذه الحادثة الغريبة

قالت البرنسيس اصدق ذلك لانها تتمة مويدة لزيادة شرفهِ

قال البرنس وانا ايضاً لم يتصل بي هذا الخبر قبل امس والذي اخبرني بهِ احد معاوني حرب الامبراطور فان هذا الضابط كان مرافقاً للموسيو دي روشكيم في هذه الحرب ومنهُ علمت كل هذه التفصيلات فصاحبنا اذن عند رجوعه الى صوابهِ وجد ذاتهُ وحده ليلا في وسط ذلك الخلاء المقفر لا يستطيع حراكًا بالنظر الى جراحهِ وشدة البرد وليس لهُ قوة للتخلص من الثلج المتراكم عليهِ وبينما هو على هذه الحال واذ سمع عن بعد صوت وقع حوافر الخيل فاستدل من ذلك على قدوم كتيبة من الخيالة وكان لا يعلم هل هم اصدقاء ام اعداء ولكنهُ فضل الموت على البقاء في هذا المركز الهائل ونادى بكل قواه بعضهم وكانوا مارين بجانبهِ فسمعوهُ واقتربوا منهُ وانقذوهُ لان هولاء الخيالة كانوا من عساكر القوزاق وقد تأخروا موقتًا عن الجيش بمقتضيات القتال وهذا الصنف من العساكر بلا نظام وهم خشنون كخيولهم ولكنهم يخضعون بعناية الى الامير الشيخ الذي يقودهم فسير روشكيم الى الامير المذكور الذي اركبهُ من خلفهِ بعد ربط ومعالجة جروحهِ وكان هذا الامير على ما قال لي معاون الحرب بطريق من بطارقة القتال بشجاعة وهيئة عظيمة وقورة فصار روشكيم مديونًا لهُ بحياتهِ وارتبط معهُ من ذلك اليوم بصداقة الاخوة . ثم ترك الجيش الذي نعين بهِ اولاً وانضم منذ ذلك الحين الى خيالة الامير يقاسمهم حياة الاخطار المزعجة التي يعيشون بها لان مصلحتهم دوام المطاردة والاكتشاف فلا يرتاحون ابدًا تحت خيمة وما من فراش لهم الا الارض والثلج وفضلاً عن ذلك فهم معرضون لاعظم الاخطار لانهم يباشرون حروبًا بلا رحمة ولا اسر تقريبًا فهم لا يخونون الاعدا ولا يسالونهم رحمة وينجون مثلهم كل من يقع في يدهم من اطفال ونساء وشيوخ

فضحكت السيدة دي سينور وقالت العفو ياحضرة البرنس اذا قاطعت حديثك فاني كنت على يقين ان بتكرارك لهذا الخبر يقل اعجابي باعمال صديقك الا ترى انهُ حبًا بالاجراآت انضم الى جيش من اللصوص والقتلة وبقي ينظر الى فواحشهم واعمالهم البربرية قيامًا بمعرفة الجميل فاستغرق البرنس بالضحك وقال وحرمة الحق ان اعجابك

الموسيزداد كثيرًا وما ذلك الا من اجل هذه الاعمال البربرية والفواحش التي بقي ينظر اليها

فسالت ماذا تقول

اجاب ان هذا من العجائب

— قالت السيدة دي سينور كمل كمل اذن واطلعنا على هذه النهاية التي نجهلها جميعًا لانك في المرة الاولى اوصلتنا بالحديث الى هذا الحد

فعاود البرنس الكلام وقال ان الموسيو دي روشكيم كان معتمدًا ان لا يترك ذلك البطريق الا بعد ان يقدم له خدامة تعادل الخدامة التي حصل عليها منه ولكنه لم ينتظر طويلاً حلول الفرصة لوفاء هذا الدين بشرفه وقد برح عن بالي ان اقول لكن بان هذا الامير كان له ولدان من افراد الخيالة العاديين في جيشه وهو يحبهما كما يحب الذئب اولاده فيلقي بهما في اثناء الحرب بلا قلق الى اعظم الاخطار ولكنه عند نهاية العمل يضمهما الى صدره بنوع من الفرح الخشن والتلهفات الوحشية وكان من شجاعة الموسيو دي روشكيم ومزيد ميل الامير ومحبته له ان اوجدا له في وقت قريب نفوذًا عظيماً على تلك الزمر العسكرية

— ففي احد الايام سقطت كتيبة كشافة من طلائع ذلك الجيش وفي جملتها ولدا البطريق المذكور في كمين نصبه لهم الاعداء بقرب احد الانهر فذبح جميع القوزاق تقريبًا في ذلك الكمين وحملت المياه الجثث التي لم تسحق بمصادمة الصخور الى معسكر الامير القوزاقي

فصاحت السيدة دي سينور يا للهول ·

— قال اسمعي تتمة الخبر فان ذلك القائد الشيخ عندما علم بحلول هذا المصاب بقي باهتًا جامدًا لا يبدي حراكًا وفي ذلك الحين ركض معاون حربه ثاني المارشال (وهو الضابط الروسي الذي اخبرتكم عنه) يامره بالذهاب سريعًا مع خيالته الى جهة عينها له فابدى الامير بلا وعي اشارة من راسه وكان الضابط المذكور من ارباب الثقة العظيمة بذلك الجندي الباسل المسن ومعه اوامر اخرى كثيرة يريد ايصالها الى محلاتها فلم يجد من الضروري البقا لديها يشاهد بمراى العين انفاذ الاوامر التي ابداها واتجه غارة لمكان اخر

وكان الموسيو دي روشكيم خبيرًا بالحروب لانه باشرها مع صغر سنه منذ زمن طويل فعلم مزيد اهمية هذه الحركة العسكرية المتوجب اجراؤها بسرعة الصاعقة وبقي باهتًا لجمود الامير ثم جعل يكلمه ويذكره بالامر الصادر له . . . وهو ساكت لا يبدي جوابًا وكان تاخر انفاذ هذه الحركة دقيقة من الزمان كافٍ لان يمس سلامة الجيش باسره وحياة الامير نفسه لان وقوفه عن العمل في مثل هذه الظروف يستوجب الموت واراد الموسيو دي روشكيم اخراجه من هذه الغيبوبة والتضعضع المستغرق بهما لخبر ذبح ولديه فلجأ الى

معاملات الياس وصاح بالامير الى الجواد ـ الى الجواد فنظر الشيخ اليهِ وهز راسهُ اما صاحبنا فعاود الصياح وقال لايجاد ولديك فانبعثت الاشعة للحال من اعين الامير كشهاب ... وصاح ولديَّ واين هما قال اتبعني فتجدها

ثم وثب على جواده واتجه جريًا لنحو المكان المعين من اركان الحريب فاقتدى بهِ الامير وامتطى جواده وثبًا ايضًا ولحق بهِ وهو يصيح ولديَّ . . ولديَّ . . فتزاحم القوزاق ركضًا على اثر اميرهم والموسيو دي روشكيم يقودهم ويتقدمهم وعلى مقربة منهُ الامير وهو مداوم الصياح ولدي . . ولدي . . والموسيو دي روشكيم يجيبهُ اتبعني

وعندما صارت صفوف الاعدا على مشهد منهم اراها روشكيم للامير وقال اولادك هنالك فارسل الشيخ القوزاقي صوت الغضب وحمل على العدو فاختلطت الرجال بالرجال واشتبك بينهم القتال بشدة وعندما صار الامير في وسط النار رجع الى صوابهِ وكان روشكيم ملازمًا لهُ فاعلمهُ الحاصل بكلمتين وعند ذلك تدرع القائد القوزاقي بالحزم وطفق يقاتل بحماستهِ المعتادة وحصل بالصدفة العجيبة ان الموسيو دي روشكيم صادم كتيبة من الشركس فدحرها وبددها والجأها ان تترك بفرارها جوادًا كان مربوطًا عليهِ الاميران

فصاحت الدوقة دي ريشفيل ولدا الامير ما هذه السعادة

اجاب البرنس نعم ياسيدتي ولداه وكانا مثخنين بالجراح الكثيرة فان العدو ابقاهما وحدهما في قيد الحيوة كرهينة من جميع الذين سقطوا في فخهِ من القوزاق في ذلك الكمين ولا حاجة لان اشرح لكنَّ مقدار فرح الموسيو دي روشكيم عندما سار بالولدين الى ابيهما وعند هذا المشهد المفرح شبك الاب ذراعيهِ على صدره ثم جثا ركبة واحدة الى الارض وقبل بخشوع يد روشكيم ويجب لادراك اهمية ذلك العمل ان يعلم بان هذا الاحترام لا يقدم من امثال هولاء القواد لغير الامبراطور وحده وزد على ذلك ان ما لم يسمع بهِ بين هذه الامم المتوحشة ان يجثو شيخ مسن امام رجل في عنفوان الشباب ثم وجه الشيخ القوزاقي خطابهُ الى الموسيو دي روشكيم وقال خلصت لك حياتك فخلصت لي شرفي ومن اللازم ان اخلص لك حياتك مرة ثانية لوفاء جميلك ثم رددت عليَّ ولديَّ ايضًا فما الذي افعلهُ اذن لمكافاتك

فاجابهُ صديقنا الموسيو دي روشكيم بالكلمات الاتية وذلك بحسبما اخبرني حرفًا بحرف معاون الحربي الذي جاء بنفسهِ ليمدح ويثني على الامير ورجالهِ بمناسبة ذلك الانتصار اللامع اما الكلمات المذكورة فهي

احلف لي انت واولادك بان تعفوا من الان وصاعدًا عن النساء والاولاد والشيوخ

الذين يسقطون بين ايديكم وان تتولوا لهم عيشوا باسم . . . . . وهنا وقف البرنس عن اتمام الكلام

فصحنا جميعًا باسم من

فتبسم البرنس واجاب لا يجوز لي الاباحة باسرار الناس ويكفي ان تعلمن بان الامير واولاده حلفوا ذلك اليمين وجروا بموجبها والذي قالهُ الضابط الروسي ان الاسم الذي لفظهُ روشكيم وفتشر لم يبرح ابدًا عن افواه تلك الزمر العسكرية

وفي السنة الماضية عند اواخر الحرب كان مقدسًا عند الامير كاليمين التي حلفها لمواطنينا الباسل

قالت السيدة دي سينور ان ذلك لجدير بالابطال ولا ريب ان ذلك الاسم هو اسم لجمال فاضح وان . . .

قال البرنس بهيئة جدية اسمحي لي بقاطعة حديثك واعلمي ان هذا الاسم استحق ويستحق ان يلفظ على الدوام بمزيد الاهتمام والاحترام ولهذا اترك لك التكلم بما تشائين عن صديقنا روشكيم ولكني اطلب منك الرحمة لهذا الاسم الخفي . . الذي تعرفينهُ . . .

فصاحت السيدة دي سينور اعرفهُ

قال نعم يا سيدتي تعرفينهُ وقد لفظتهُ نحوًا من عشرين مرة لانهُ اسم لشخص تحبينهُ والخلاصة انهُ اسم يستحق لانهُ يستعمل كدلالة على عمل كريم وروشكيم لا يمكنهُ ان يقدم لصاحب هذا الاسم احترامًا اعظم من هذا الاحترام . . .

قالت الدوقة دي ريشفيل بالله ما اقساك ياحضرة البرنس الا فقل لنا اذن

اجاب يستحيل عليَّ ذلك ياسيدتي وستصادقين انت نفسك على سكوتي اذا علمت السبب لاني لا اريد ان اجرد الموسيو دي روشكيم من حظ اخباركم بهِ

قالت السيدة دي سينور ولكن لا يبعد ان نموت من شدة الفضول قبل ان يحضر فتحنن علينا اذن ياحضرة البرنس واعلم اني والحق يقال اجد تصرف الموسيو دي روشكيم في هذه المسالة حريًا بالاعتبار فان الطريقة التي استعملها لاعادة الامير الى صوابهِ بقولهِ اتبعني فاني اعلم مكان ولديك لا تصدر الا عن فكر كريم يعرف اهمية الحب وصدى رنانة في القلوب

قالت البرنسس ديركور وهل فكره بالانتفاع من امتنان الامير لهُ لنشر مبادي الرحمة بين اولئك البرابرة لا يحسب من الاعمال العظيمة ايضًا

قال البرنس ان عملهُ هذا غاية في الجمال والعظمة وسوف يظهر لكنَّ اذا لم نقل اكثر

جمالاً فعلى الاقل اشد تاثيرًا عندما تعرفن الاسم . . . .

قالت السيدة دي سينور آه ما اقسى قلبك ياحضرة البرنس انا معجبون بكل شيء على الاطلاق وما من شيء يقوى على تحنين فوادك

قال البرنس اني سامع دخول عربة الى الدار ولربما تكون الصدفة قد ساقت الينا الموسيو دي روشكيم فتتقدموا اليه بالسوال عن ذلك الاسم

قالت السيدة دي سينور فليبارك الرب هذه الصدفة اذا صدق الظن وكان الموسيو دي روشكيم هو القادم حقيقة ان الصدفة تخطي احيانًا كثيرة ومن اللازم ان تصيب مرة على الاقل . . . . .

ثم قطع حديث السيدة دي سينور بدخول الموسيو دي روشكيم

وكانت حرارة الشرق قد لونته بلون البرونز وتغيرت ملامح هيئته فلم يعد يعرف وحصل عن اشتداد سمرته ان ظهرت عيناه الكبيرتان الرماديتان بلمعان شديد تحت سواد حاجبيه وهو بوجه حليق وشارب اسود يظهر احمرار شفتيه الغامق وبياض اسنانه بهيئة شرقية جلية وكان من المستحيل ان تنسى تلك الصفات الواضحة اما قامته العظيمة الرشيقة وثيابه السوداء وهيئته الشريفة التي يرفع بها بافتخار جبهته السمراء وشاربه الاسود فكانت تجمله بمظاهر الفروسية والبسالة

وهو بمشية مرتبة خالية من مظاهر الوقاحة والادعاء يستدل منها على فطرة سكونة قوية مدركة عزومة ثم يظهر للناظر من حدية شفتيه المعطوفتين قليلاً الى الامام ان التهكم المر يخلف عليهما احيانًا تبسمات الملاطفة الكريمة وكنت بمنتهى السرور لمشاهدة الموسيو دي روشكيم فصرحت له فوادیًا بفرحي واشترك معي بذلك الفرح وعندما حدثني باخبار الماضي ظهر لي كأن سحابة كثيفة من الاحزان انتشرت فجأة على وجهه فعلمت من ذلك انه يفكر بالموسيو دي مورتاني ولكنه لم يجد الوقت ولا المكان مناسبًا لمخاطبتي عن ذلك الصديق العزيز

ثم تكلمت الدوقة دي ريشميل فقالت للموسيو دي روشكيم الا تعلم انك والحق يقال كثير الحرص على الاخفاء

. اجاب وكيف ذلك ياحضرة الدوقة

قالت نعم كثير الحرص لانك حدثتني عن جرحك وكيف انك لم تمت مدفونًا تحت الثلج وتخلصت من الخطر ولكنك اقتصرت على ذلك ولم تلفظ كلمة واحدة عن بعض امراء القوزاق الشيوخ

قالت السيدة دي سينور ولا كلمة واحدة عن الخدمة العظيمة التي قدمتها لذلك الامير بانقاذ شرفهِ

قالت البرنسس وتخليص اولاده

قالت السيدة دي سينور والحصول على وعد الامير وولديه بان يعفو من الان وصاعدًا عن النساء والاطفال والشيوخ وان يطلقوا لهم سراح الحريه باسر . . . .

قالت الدوقه هذا السر العميق الذي نرجو معرفته فان هذا البرنس الردي لا يريد ان يخبرنا باسم من . . تلطفت خشونة اولئك البرابرة

وتوجهت الى الموسيو دي روشكيم كل هذه الاقاويل بسرعة متتابعة فما امكنه المجاوبة بكلمة ثم بدلاً من التصنع باظهار الاحتشام والارتباك . قال بشرف وبساطة كل ذلك حقيق وانما اسمح لي ياحضرة البرنس ان اسألك من اين نعرف ذلك . . .

فصاحت الدوقة دي ريشليل لانخبره بشيء من هذا ما لم يصرح لنا بهذا الاسم الخفي

ثم صاحت السيدة دي سينور ضاحكة انظروا . . انظروا . . كيف احمر لونه وكان الموسيو دي روشكيم حقيقة قد احمر كثيرًا فاعترف بذلك علانية وقال متبسماً نعم احمررت حيث لا يمكنني الا احمر بالامتنان عند استماعي لهذا الاسم الذي اولاني السعادة على الدوام بل هذا الاسم المحبوب علامة لتذكار قادني وظللني بحمايته وارشدني في ظروف كثيرة خطيرة من حياتي فمن حينما لفظت هذا الاسم للمرة الاولى صار كطلسم لي وعبدته عبادة عمياء وقد قيل لي في هذا الصباح اني القيت خطابًا حسنًا في مجلس الاعيان فما ذلك وحرمة الحق الا لاني لجأت بافكاري اليهِ في ساعة التكلم

قالت الدوقة دي ريشليل انا من اجل كل هذه العجائب نتحرق لمعرفتهِ

قالت السيدة دي سينور ان هذه الاقوال التي تلفظت بها الان افرغت منا الصبر للاطلاع على هذا الاسم

فصاحت الدوقة دي ريشليل تكلم اذن انا لا نكل عنك ما لم تصرح لنا بهذا السر لان الامير يقول بانا نعرف صاحب هذا الاسم . . وانا نحبهُ . .

فعاود الموسيو دي روشكيم الكلام بمظاهر الجد وقال يعز عليَّ كثيرًا ان تتوهمن ياسيداتي باني اخاف من ذكر هذا الاسم وتكراره لان الحاسة التي دفعتني الى مباشرة هذا العمل الذي اجريته شريفة جدًا واحلف لكنَّ باعظم الاعيان اني افتخر بقولها علانية في كل مكان وبصوت عالٍ ولكني معتقد بان البرنس يفكر مثلي بان هذه الساعة لا توافق لارضاء

فضولكم وإذا بالعكس ذهب البرنس الى خلاف ذلك فمستعد لاتمام ارادتكم . . . .

قال البرنس كان بودي ان ارجوك التصريح بهذا الاسم لانتقم بذلك من . . . . .

وشاهدت السيدة دي سينور تردد البرنس فصاحت ممن

فاكمل حديثة متهللاً وقال منك ياسيدتي بزيادة عجبك . . ولكني كريم واوافق الموسيو دي روشكيم على فكره

فصاحت الدوقة دي ريشفيل ان هذا لمستنكر فيا لله كيف اتفق الاثنان . . . ولكن لا باس ننتظر الى وقت اخر وإنما يلزمك الان ياحضرة الموسيو دي روشكيم ارضاء فضولنا بطريقة اخرى

قال اني طوع لاوامرك ياسيدتي

اجابت حسن . . ما دمت طوعاً لاوامري فارسم لنا كتذكار صورة الامير الشيخ القوزاقي على دفتر التصوير المختص باما

فلم تنتظر اما الى ان يجيب الموسيو دي روشكيم على هذا السوال بل نهضت للحال بقلب طافح بالفرح وخدود قرمزية وقدمت من الموسيو دي روشكيم طاولة عليها كلما يلزم من ادوات الرسم الملون

قالت البرنسس ويقتضي ايضاً لقصاصه على هذا الكتمان ان يرسم لنا اغنية السنونو الالبانية

قالت الدوقة واما تساعده بذلك لان السيدة دي لانكراي ستسر كثيراً باستماعها

فبادرت اما بنفس الاهتمام الاول الى البيانو وفتحته بفرح عظيم وظرف كثير

فوجهت الدوقة خطابها لنحو الموسيو دي روشكيم وقالت هيا اذن ايها الرجل الكتمة وارنا حالاً وجه ذلك الشيخ القوزاقي لاني احبه كثيراً ولا اعرفه

قالت السيدة دي سينور واكرم علينا باغنية السنونو التي احبها كثيراً لاني اعرفها

فسالت الدوقة دي ريشفيل وباي الاثنين يبتدي ياعزيزتي البرنسس

اجابت بالاغنية فهي تستمر لزمان طويل مسموعة بعد الغناء لان نغمتها البسيطة الموثرة يبقى لها صدى في القلوب

فجلست اما على البيانو وبدا الموسيو دي روشكيم بالغناء

وكانت هذه الاغنية لحناً البانياً وفقة الموسيو دي روشكيم نفسه على روابط الالحان الاوربية وترجم الفاظة وما من شيء اشد سذاجة وبساطة من هذه الاغنية السوداوية المسكرة ثم لم يسبق لي في حياتي ان سمعت صوت الموسيو دي روشكيم وكان رنانا لطيفاً موثراً جداً

فسرني كثيرًا هذا اللحن وطلبت اعادتهُ فبادر الى تلبيتي وجدد الغناء بمنتهى الظرف واما تساعده باطرب الاصوات وهكذا تم الجزء الاول من مهمتهِ على احسن حال واهتم الموسيو دي روشكيم بانفاذ الجزء الثاني منها فجلس على طاولة الرسم وفي نحو من نصف ساعة رسم صورة الامير القوزاقي باسلوب بديع وكان يزيد في ملامحهِ الخشنة الوحشية مظاهر ثيابهِ الموجبة لانتباه الانظار

وكنت اجهل حصول الموسيو دي روشكيم على مثل هذه الافكار الفريدة ولكني لم اعجب بها اعجابي بمقدار السهولة والظرف اللذين بادر بهما الى اجابة جميع الرغائب التي عرضت عليهِ ووجدت من المدهش البديع معًا ان يجمع مثل هذا الجندي الجسور والخطيب المفلق الفصيح والرجل المحسن (لانهُ كان مواظبًا في ارضهِ على تقليدات ابيهِ المتعلقة بخير الانسانية والاحسان الى البشر) بين هذه المواهب الحسنة والصفات الممتازة النادرة ثم ظهر لي ان المرء يسره كثيرًا من ارباب الذكاء العظيم والقوة والشجاعة ان يتظاهروا بالبساطة والطيبة والمؤانسة

ولم تكن هذه الشعائر محصورة بي وحدي فان الموسيو دي روشكيم كان يحاول بلا تصنع ان يضع من قدر نفسهِ ويعظم الاخرين ولكن من السهل ان يرى الناظر بنحو من الف اسلوب وعرض ان الناس تزيده اجلالاً وتعظيماً بصفاتهِ السامية التي يحاول بجهده ازالتها من الاذهان

اني لا انسى على الدوام تلك السهرة اللطيفة التي صرفت بالفنون والاشعار والاسفار وقضيت بسرعة عظيمة بالنظر الى ظرف المحادثات الودادية التي دارت وقتئذٍ ممتزجة بحسن الالتفات والرغبة التامة من كل فرد بمسرة الاخرين

وعندما سارت الدوقة دي ريشيل لمرافقة البرنسس دبركور سالني الموسيو دي روشكيم هل يجدني صباحًا في مسكني ويمكني اقتبالهُ

فاجبتهُ متبسمة انك لم تطلب شيئًا ثمينًا ولكني ارهن وفاء هذا الطلب بدوره مع بخاستهِ على شرط لاني اشد فضولاً او بالحري عنادًا من السيدة دي ريشيل ويسوءني كثيرًا الانتظار الى غد للوقوف على هذا الاسم الخفي الذي تجري من اجلهِ وبهِ كل هذه الاعمال الشريفة

قال الموسيو دي روشكيم وانا ياسيدتي لا يمكني ان اقولهُ . . ولا امام اعز اصدقائك ولا تظني مطلقًا ان هذا الامتناع من اجلهم فانهم بلا ريب سيصوبون اعمالي ولكن من اجلك انت

قلت من اجلي ولماذا

فكرر هذه الكلمة لماذا ثم قال بهيئته العادية كما لو كان قوله بسيطاً لان هذا الاسم هو اسمك لان هذا الاسم هو متيلدة

الفصل الرابع والخمسون

صديق قديم

وكان من تاثير هذا الايضاح من قبل الموسيو دي روشكيم ان عدت الى مسكني قلقة منقبضة كما لو صرح لي فجأة بشكوى الغرام ولم يكن منشأ هذا الارتباك التحرس الباطل بل الخوف من ان تفقد علايقي مع الموسيو دي روشكيم في المستقبل مزيتها الاخوية وبدلاً من ان تكون كالان موجبة لمسرتي تستحيل الى علايق مصايقة ومكدرة لانها تلجئني وقتئذٍ الى اظهار المجانبة والتحرس

ولكن افكاري مع ذلك عادت الى الطانينة بعد اجراء التامل برهة من الزمان لاني تذكرت كلمات البرنس ديركور المحترم وكيف لعلمه اني انا المقصودة بتلك الحادثة سكت عن التصريح باسمي مداراة لي ولكنه مدح علانية بالموسيو دي روشكيم من اجل هذا العمل والموسيو دي روشكيم نفسه تكلم ايضاً في هذا المعنى بمزيد الحرية والجلاء فهمدت لذلك ظنوني

وما امكنني ان اصدق من وجه اخران الموسيو دي روشكيم اراد معاملتي بخفة لان علايقنا كانت غالبًا بمنتهى الرقة ولم يخطر على بالي قط مثل هذا الظن فانه قدم لي خدامات عظيمة الاولى منها عند بداية زواجي وذلك عندما جاء واخبرني بالاشاعات المستنكرة التي يذيعها عني الموسيو ليكورتو ويحاول اثباتها بمداومة تردده عليَّ وتقربه مني والثانية عندما اعان الموسيو دي مورتاني على انقاذي من الفخ الذي طرحني به ذلك الرجل اللئيم ولم يخرج الموسيو دي روشكيم ابدًا بمناسبة هذه الظروف عن خطة التحرس التام ولا اذكر انه تكلم بشيء لجهة امله بالحصول على يدي او احساساته من نحوي

وبعد تلك الليلة المشومة التي قضيتها في منزل ليكورتو المنفرد بايام قليلة توجه الموسيو دي روشكيم الى اليونان ثم ذهب من هنالك الى الروسية وفي اثناء هذه الحرب الدموية قدم

نوعاً من احترام العبادة العميق لاسمي وتذكاري وهو لا يعلم وقتئذٍ هل يعود لمشاهدتي او لا . فهل يمكن والحالة هذه ان اجرح من هذا البرهان الغريب الذي اداه على تعلقه بي . لا لعمري ولهذا تطمنت بسهولة عن الحب الذي توهمته لبرهة بالموسيو دي روشكيم واعتقدت كوني مجردة عن كل ميل حنون من نحوه نعم كنت معجبة بسجاياه النادرة واخلاقه الشريفة وممتنة له كثيراً بالجميل وقد ظهر لي منه محاسن جديدة ولكني كنت شاعرة على الدوام بالفرق العظيم الكائن بين هذا الحب والحب الذي داخلني سابقاً للموسيو دي لانكراي

وكنت معتادة ان انوغل بالبحث عن تاثيراتي فقلت في ذاتي هلا يكون من المكدر لامراة في نحو العشرين من العمر ان تفكر بوجوب الامتناع عن الحب . . ولكني وجدت الامر بالعكس — ولا اعلم هل منشأ ذلك قوة المبادي او ضعف القلب — وان في هذه المستحيلات الباردة ضمانة سعادتي في المستقبل

وكنت منذ عودي الى باريس بتمام السعادة لان الجمعية الحصرية المنتقاة التي اعيش بينها كانت تكثر من معاملتي بالعناية والمعروف وكان قلبي مشتغلاً بحب السيدة دي ريشفيل واما عن بقية انواع الحب الحاد وقد رح عن بالي ان اقول اني كنت اقضي تقريباً جميع مدة الصباح في مسكني حيثما يزورني في الغالب اصدقاء السيدة دي ريشفيل الذين صاروا اصدقائي ايضاً وعليه فلا تكون زيارة الموسيو دي روشكيم لي بالنظر الى ترتيب معيشتي من العوارض الشاذة فانتظرته بفروغ صبرٍ الى ان حضر وكان حضوره على ما اظن في اليوم الثالث من تاريخ مقابلتي له للمرة الاولى بعد تلك الاسفار التي اجراها وكنت وحدي فمد لي يده وقال لي بحزن ما امكني اول امس ان اكلمك عن صديقنا المسكين نعم كنا في منزل الامرأة التي احبها اكثر من جميع العالم ولكنك شعرت مثلي بعدم مناسبة الوقت وقتئذٍ للتكلم عن تلك الفاجعة القاسية . . . اه لو كنت تعلمين كلما خسرته بخسرانه

ثم انحدرت من اجفانه دمعة على خده ولم يحاول الموسيو دي روشكيم اخفاها فاجبته باضطراب شديد لقد اسفت عليه كثيراً مثلك وفي كل يوم يتجدد اسفي ولاسيما عندما افكر بان جميع افكاره وتصوراته كانت متجهة بدقايق حياته الاخيرة لنحوي ثم تاوهت وقلت ما هذا الموت الهائل ما هذا الانتقام الجهنمي

فقطب الموسيو دي روشكيم حاجبيه وقال بهيئة عابسة اني استعملت جميع الوسائط الممكنة لاعلم ابن ليكورتو واكتشف على الالات الدنية التي استعملها لانتقامه ولاني من راي الدوقة دي ريشفيل لجهة هذا البراز ودسيسته المخيفة ولكني لم استفد شيئاً وقد قال لي البعض ان ليكورتو في اميركا

او البرازيل

فاخبرت وقتئذٍ الموسيو دي روشكيم عن الصدفة الغريبة التي اوصلت اليَّ التحرير المرسل من الموسيو دي لانكراي الى رجل مجهول

فبهت كثيرًا لذلك وقال انهُ يتخذ جميع الاحتياطات الضرورية للاطلاع عما اذا كان الموسيو ليكورنتو موجودًا سرًّا في باريس

قلت وهل تظنهُ يجسر على العود الى هنا

اجاب اخشى ذلك لانهُ كثير الجبن فلا يرضى بمقاتلتي واعترف اني لا اقدم على انفاذ التهديد الخيف الذي توعده بهِ الموسيو دي مورتاني

قلت ولكن الموسيو دي مورتاني نفسهُ كان لا يبعد ان يحجم متاخرًا امام هذا الوعيد المتطرف

اجاب لا اعلم لانهُ باخلاق صلبة . . . والذي يزيد في جسارة الموسيو ليكورنتو ان جرائمهُ غير ثابتة بالبراهين الشرعية فيمكنهُ الالتجاء الى القوانين وينازل اخصامه بالدعوى التي تصدر ضده بخصوص انتشالك

فصحت ابدًا . . ابدًا لا اقبل بذلك لان المحاكمة تستلزم الافشاء بمسائل كثيرة مشينة للاسم الذي انسب اليهِ ان هذا الماضي المشوم لا اشعر بهِ الان الا كحلم مكدر لي وكل ما يذكرني بالحقيقة يخيفني

قال الحق معك اتركي لنا الاعتناء بالسهر عليك انسي . . انسي الماضي وسوف نتوصل الى طرده عن افكارك بقوة العناية والحب فمورتاني عهد بك اليَّ والى السيدة دي ريشفيل والى كل من لهُ نفس كريمة وسنهتم بان نقوم مقامهُ من نحوك وان تثبت لك وجود قلوب طيبة على الارض . . انك تحملت كثيرًا ايتها الامراة المسكينة وصادفت في حياتك كثيرين من الادنياء السفلاء بحيث لا تطلبين الان الا ان يصدق كلامنا وتحيي اليس كذلك

ولا يمكني ان اشرح باية الشعائر الفوادية البسيطة الموثرة لفظ الموسيو دي روشكيم هذه الكلمات فقلت ما اطيب قلبك وما اكثر امتناني لك بدين الجميل . . تذكر . . ألم تسبق الموسيو دي مورتاني باجراء رغائبهِ منذ ثلاث سنوات

قال دعينا من التكلم عن امتنانك ودينك لاني انا ايضًا مديون لك وحياتي بكثير من الافكار العذبة الحنونة

فظهرت عليَّ رغمًا عني مظاهر طفيفة من الارتباك ورأى ذلك الموسيو دي روشكيم فقال متبسمًا هاك مشابهة تفهمين منها المراد بما قلتهُ ويسوءني كثيرًا ان تتخذي كلامي من قبيل

الملاطفة والتمليق فانت تحبين كثيراً الرسوم والتماثيل الجميلة والموسيقى الحسنة أليس كذلك

قلت بلا ريب

قال وتعلمين ان المرء يصرف ساعات برمتها وهو يتامل صورة ظهور المسيح بمجده على جبل تابور

قلت نعم

قال وتعلمين ايضاً انهُ يصغي بسعادة وامتنان لموزارت وكلوك وبيتوفن (من مشاهير موءلفي الموسيقى) ثم تعترفين اخيراً ان المرء يمكنهُ ان يجد بمثل هذه المنتخبات الممتازة اعظم الملذات الالهية واسمى الالهامات

قلت ولكن اية علاقة

قال فهذه الملذات الالهية والالهامات السامية وجدتها بمتخب من منتخبات الفداءة اعني صورة المكارم والظرف والشرف وحصلت عليها وكان من رغائب ابي والموسيو دي مورتاني الاخيرة واحترامي لحزنك ان أكثرا فيَّ من اميال التعبد والحب التي اوقفتها لك وصرت لي كوسيطة بين الالهيات فمن حينما عرفتك وجميع اميالي الغريزية الحسنة مرجعها اليك لانك انت مصدرها على الدوام وعندما اجري اعمالاً كريمة باسمك لا يكون ذلك من قبيل الملاطفة والتمليق بل وفاء للحقوق المديون بها لشخصك

واردت ان اغير مجاري هذا الحديث فقلت ولكنك حاصل على تذكار اخر غير تذكاري يجب ان تكرمهُ باعمالك وهو الرجل الكريم الذي رباك بمثل هذه الشعائر الشريفة

اجاب الموسيو دي روشكيم بخطارة ان ابي شعر من قبل بما ستكونين واملَ ان يضمنا الى بعضنا بالزواج فاذا فكرت بك كاني فكرت بهِ وتذكاره العظيم المقدس يحوم من حول انعطافي اليك . . . . فاطمئني اذن ولا يخطر على بالك مطلقاً اني اخاطبك بالفاظ التمليق او ان مرادي كما يقال ان اطارحك الحب ان امراة مثلك لا تطارح الحب لانها من حينما نعرف تحب كما تستحق وهذا الذي اصابني

قلت روشكيم

اجاب ان هذا الاقرار لا يحط في شيء من شانك ولا يجب ان تتعجبي منهُ

فصحت ومع ذلك

قال انك ستشكرين من هذا الاقرار عندما تعلمين ما الذي اريد ان اكونهُ بالنظر اليك وان تكونيه بالنظر اليَّ

ولم يسعني الا ان اتبسم لمظاهر حدتهِ ثم سالت اصحيح ذلك ياسيدي

اجاب وقد يمكن ايضاً ان تكوني سعيدة بهِ

قلت سعيدة

اجاب ومفتخرة ايضاً

قلت ومفتخرة . هذا هو البديع تكلم اذن فاني صاغية لك

قال ما من شيء ابسط من ذلك فانت امراة شجيعة غيورة على شرفك كرجل لا يمكن ان ترتكبي هفوة بالنظر الى قوة مباديك ولان هذه الهفوة تكون بمظهر الانتقام المشين وتستخدم كشبه معذرة لتصرفات زوجك الدنية اليس ذلك صحيحاً

قلت صحيح وهذه هي افكاري

قال لقد نظرت كيف اوضحت قسماً عظيماً من رفعة شعائرك اني ادرك هذه الشعائر لاني مشترك بها ولكنك في نحو العشرين من العمر وامامك حياة منفردة بلا عائلة ولا علاقة نعم ان صداقة الدوقة دي ريشنيل تكفيك الان لانك في فترة الانتقال وتتوهمين انقطاع الاوجاع سعادة ولكن هذه الحالة السلبية لا تدوم طويلاً وسوف ينتبه قلبك وتحبين . . .

فقاطعت الموسيو دي روشكيم وقلت تكلمت الى الان بمنتهى الصواب والحقيقة ولكني لا اوافقك على هذه المادة الاخيرة وثق اني ما عدت احب لان حباً حاراً مشوماً امات الحب من قلبي

فصاح ماذا تقولين امات الحب من قلبك انك ما احببت ابداً في حياتك

قلت ما احببت في حياتي

اجاب ابداً

فسالت الموسيو دي روشكيم هل تتكلم جدياً ام مرادك الممازحة بمبالغات السيدة دي سينور الجنونية

قال انكلم جدياً واعيد لك القول انك ما احببت في حياتك على الاطلاق

قلت ولكن ياسيدي

قال ولكن الله ياسيدتي لا يريد ان يتوقف على اول شقي يتقدم اليك اشعال او اخماد اقدس الشعائر في قلب كقلبك

فنظرت الى الموسيو دي روشكيم بتعجب وقلت ماذا تقول . . لم احب على الاطلاق فما هذا الذي شعرت به اذن ولما هذا التلاشي الذي ألم بقلبي وهذا الموت المنذرة به جميع آمالي

قال ان هذا الذي تظنينهُ تلاشي القلب انما هو نفاذ الاوجاع ثم سال هل يمكن ان يتلاشى القلب او يقطع المرء املهُ من العالم وما من شيءٍ لديه يستدعي اسفهُ

قلت ما من شيءٍ لديَّ يستدعي اسفي ياسيدي

اجاب نعم لديك اشياء كثيرة تستدعي حزنك وبكاك ولكنك لحسن الحظ غير حاصلة على شيء يستوجب اسفك والمستقبل بكليتهِ مفتوح امامك بافاق لا تحد . . . .

فصحت المستقبل

قال نعم المستقبل من ياترى يمكنهُ ان يقفلهُ في وجهك فلو قلت لي ان حبًا شريفًا عظيمًا عميقًا مشتركًا بين اثنين بكرامة وقد فصم فجأة بحوادث فوق العادة يكون لهُ في النفس تاسفات ابدية تسد بها ابواب الامل لصدقتك . نعم ان هذه التاسفات تكون ابدية لان سببها طاهر الهدية لانها بدلاً من ان تزول يحافظ عليها بطهارة امدية لان الاسف يجدبها اللذة المرة التي تحصل عن وجع لا يقبل التعزية وذلك لان السعادة المفقودة لا يمكن التعويض عنها ولكن هل يستدل ياترى من هذه الامانة الخشوعية للتعبدات الماضية ان جمرة الحب خمدت من القلب . لا لعمري بل بالعكس يستدل من ذلك ان فؤاده لم يصلى قط بما هو اشد طهارة وحرارة من ذلك الحب . . فاخبري الان هل شعرت بشيءٍ من هذا ان جوابك بلا ريب سيكون ابدًا لانك توجعت شديدًا ايتها الامراة المسكينة المنكودة الحظ ثم فررت بخوف من تذكرات اوجاعك وشكرت الرب لانهُ انقذك من ايدي جلادك

قلت صحيح ان قلبي بعيد عن ان يسر بهذه التذكرات المبغضة وقد فررت منها ولكن هذا الحب الذي احببتهُ ولو مهما كان مشومًا دنيًا لا يمنع كوني احببت ولولا ذلك لما اقترنت من الموسيو دي لانكراي

قال ولكن القلب يوخذ احيانًا فجأة بالغرور كما يوخذ العقل فان مظاهر زوجك الغرارة وكلماته العذبة الموهة واهتمامك الطبيعي بالفرار من وصاية عمتك وثقتك العمياء برجل كنت تظنينه مخلصًا مستقيمًا وكرامة اخلاقك الفطرية وعدم وجود من تجرى بينهُ وبين زوجك المقابلة كل هذه الظروف دفعتك الى الرضاء بزواج لا يليق بك وعندما تزوجت ونفررت تعاستك اتخذت خضوعك الاعمى لسلطان زوجك وشجاعتك بالمواظبة على واجباتك كاخلاص شريف للحب . . والخلاصة كنت عفيفة متصبرة فتوهمت كونك عاشقة

قلت ولكني شعرت بعذابات الغيرة

قال انك غششت بالغيرة كما غششت بالحب لانهما متسلسلان

قلت غششت

قال ان نكران زوجك الجميل هو الذي اهاجك واغضبك باكثر من قلة امانته

فسالته لماذا يا ترى لم احب الموسيو دي لانكراي

اجاب لانه لا يستحقك

قلت كيف . . هل تعتقد ان المرء لا يحب حقيقة الا الذين يستحقونه

قال نعم اعتقد انك انت متيلدة دي ماران لا يمكنك ان تحبي حبًا حقيقيًا الا الرجل الذي يستحقك

قلت ولكن انظر الى الموسيو سيشرين فهو طيب كريم بقدر ما امرأته فاسقة وقد غشته بدناءة ولكنه يحبها بتعبد

قال ما تكلمت عن الموسيو سيشرين وقد خصصت ولم اعمم وقلت لك انت متيلدة دي ماران لا تستطيعين ان تحبي حبًا حقيقيًا الا رجلاً يستحقك

قلت ولكن لماذا ياترى خصصتني انا دون غيري من الناس بهذه الشعائر

قال لان الحب يجب ان يكون لك ولجميع النفوس الممتازة ضربًا من مبادلة الشعائر الكريمة

قلت ان احكامك هذه بمظاهر جميلة صادقة والكبرياء الباطلة تساعد على الاقتناع بصحتها ولكني لا اعتقد بها

قال سوف تعتقدين

قلت ولكن لماذا تريد ان اعتقد بان قلبي اخذ فجأة بالغرور واني لم احب حبًا حقيقيًا ويجب ان احب رجلاً يستحقني

قال اريد ان تعتقدي هذا الاعتقاد لتكوني سعيدة ومفتخرة باقراري كما قلت لك

قلت اوضح افكارك

قال اثبت لك انك ما احببت ابدًا في حياتك وانك لا تحبين الا رجلاً يستحقك لاحملك على الاعتراف بانك ستحبين يومًا

قلت لا اعترف بذلك مطلقًا . . ثم من قال لك اني ساجد هذا الرجل الذي يستحقني ومن قال لك ايضًا اني ساحبه

اجاب كل شيء ينطق بهذا فان هذا الحب من الضروريات اللازمة لك بالنظر الى مركزك ولكنك باخلاق ومبادئ كريمة ولا تقتصرين فقط عندما تحبين على الاعتراف علانية بحبك ولكنك ستفتخرين به ايضًا امام الناس

قلت ان هذا الحب نادر الوجود

قال والرجال المستحقون لان يشعروا بمثله اندر منه وجوداً وعندما تجمعك الاقدار بواحد منهم تحبينه عنوة لان كل شيء يدفعك وقتئذٍ الى حبه احتياج قلبك والافتخار بمن يحبك والاسرار الخفية التي تقرب بين النفوس السامية

فصحت ولكن هذا الرجل . .

قال ان هذا الرجل سيكون انا اذا اردت

قلت انت

قال نعم انا . . . واقول ذلك لاني مستحق لك

فمددت للموسيو دي روشكيم يدي وقلت له بخطارة لو صدر هذا التاكيد عن احد غيرك لما تصورت به شيئاً من غير الحماقة ولكن كلامك مصدق عندي وقد اصبحت فاني سعيدة ومفتخرة بهذا الاقرار

اجاب بمنتهى البساطة قلت لك ذلك

فوجهت خطابي لنحو الموسيو دي روشكيم وقلت ساقتدي بحرية ضميرك فقد يمكن ان يتنبه قلبي واذا شعرت لك في حياتي بمثل هذا الحب الذي صورته اريد ذلك الحب الذي يمكننا نحن الاثنان ان نفتخر به فحينئذٍ . . . . اسلم نفسي اليه بسعادة وامن واحلف لك على ذلك باعظم الايمان . . . ولكن واأسفي . . . هل يسلم هذا الحب المقدس الطاهر من رجوم العالم

اجابه لا اريد ان ابرىء الناس ولكني اعتقد بان منشأ الشرور التي يرتكبونها تقريباً على الدوام انما هو ضعف المتظلمين وحرصهم على اطراد خطة الاخفاء فهم بضمائر مشوشة ومن اجل هذا تنقصهم الشجاعة حيث لو كانوا شاعرين بجاسة موجبة لافتخارهم ويمكنهم الاعتراف بها امام الناس لما رأوا اخفاءها واذا اخفوها يأتون جبناً ويستحقون ان تسلقهم الناس بالسنة حداد لانهم لم يفعلوا شيئاً يستوجب اللوم فلماذا يلجئون الى التمويه الباطل وانواع التلصص التي لا تنفك عن التصرف الاثيم . . . لماذا لا يكون للفضيلة الجسارة التي يستعملها ارباب الرزيلة بل لماذا امراة مثلك ورجل مثلي لا يعرضان بشجاعة امام الهيئة الاجتماعية حبهما الصادق الطاهر كما يعرض زوجك واوزريل فسقهما ورزيلتهما ان العالم يحب الحزم والبسالة واذا اظهر الكرماء حزماً وبسالة كحزم وبسالة الفاسقين فلا ريب وقتئذٍ وقد تعادلت القوى ان العالم يفضل الكرماء

فادهشني اذ ذاك من الموسيو دي روشكيم ملامح العظمة التي ظهرت على وجهه وكان من هذا الفكر الكريم ان جذبني اليه فقلت الحق معك فمن الجميل ان يبطل المرء مفاعيل

الوشايات بان يتجاوز علانية منتهى الحدود التي يمكن ان تشير اليها بتلميحاتها الشريرة

وبعد اذ تاملت دقيقة من الزمان قلت للموسيو دي روشكيم اريد ان اعطيك برهاناً على حرية ضميري وثقتي واسالك هذا السؤال الغريب وهو لماذا ياترى لم تخاطبني بمثل ذلك منذ ثلاث سنوات

قال لاني منذ ثلاث سنوات كنت صبياً ولست على يقين انم من ذاتي لاتجاسر علي مخاطبتك بمثل هذا الحديث وكان مورتاني يعرف حبي فالح عليَّ بمبارحة فرنسا ومواصلة الاسفار وان اشغل حياتي بالانتصار لمبدا شريف الى ان اصير ولي نفسي واجرد الذهب على قولهِ من الاوساخ او بالحري اطهر هذا الحب الذي اقدمهُ لك الان بلا تخجل

فسالتهُ وماذا كنت تفعل ياترى لو وجدتني عند رجوعك متعزية على فراق زوجي وقد احببت بشرف قلباً مستحقاً لقلبي

قال ان الاحساسات السامية البعيدة عن التلوث بالاغراض لا تضعف بمفاعيل الخيبة المولمة لعزة النفس في مثل هذه الظروف وعليهِ فلو حصل ذلك لقلت لك وقتئذ ما اقولهُ الان وعرضت عليك ما اعرضهُ على مسمع من ذلك المحبوب حيث يكفي ان يكون الرجل المذكور محبوباً منك لاثبات كونه اهلاً لان يفهم كلامي

قلت ولو بالفرض احببت رجلاً لا يستحقني

اجاب لا يمكن ابداً حيث يوجد مستحيلات ادبية كما يوجد مستحيلات مادية ولا يمكنك الا ان تحبي حباً لا يخجلك

قلت ولكن اذا حصل عكس ذلك ايها الرجيل العنيد

فتاملني الموسيو دي روشكيم برهة بسكوت ثم قال بملامح مجيدة هذه الكلمات اشك بنفسي

فهذه هي الحادثة الاولى الغريبة التي حصلت بيني وبين الموسيو دي روشكيم



الفصل الخامس والخمسون

المبارات

وبقيت زمانًا طويلاً قبل ان شعرت بتاثير هذه المحادثة مع الموسيو دي روشكيم وكان حر الضمير مستقيمًا فلم ادخل على علايقي معهُ شيئًا من التحرس المتوجب عادة في مثل هذه الظروف واستمررت اشاهده في كل يوم تقريبًا عند السيدة دي ريشفيل وكان مواظبًا ثمة على الحضور مع بقية اصدقائها ثم عندي صباحًا في اغلب الاحيان وكان لي ثقة عظيمة بهِ وبنفسي الى حد ان سلمت ذاتي بلا خوف الى ذلك الوداد النامي ولا اخفي اني كنت مفتخرة بعدل من براهين الارتباط التي قدمها لي الموسيو دي روشكيم ومن النفوذ الشريف الذي اجريته بلا علي على حياتهِ وكنت اتهلل بنجاحه المتزايد في كل يوم وهو يتكلم نادرًا في مجلس الاعيان ولكن بفصاحة توثر تأثيرًا شديدًا بجميع النفوس الكريمة ولكلماتهِ نفوذ عظيم يقارب استقلاله المطلق وكان لا ينتسب الى حزب من الاحزاب او بالحري ينتسب لكل ما هو شريف وسام وقد اشتهر بالانتصار لجميع المبادىء العادلة الانسانية العظيمة الوطنية الحقة وكان مجردًا عن الشفقة من نحو الدناءة والرياء وحب الذات لا ينتمي لاحد على الاطلاق وقد جعل لهُ بذلك مركزًا فوق العادة لا ينفعهُ بشيء من الفوائد الشخصية ولكنهُ مصدر للحقايق المجيدة المنتشرة منهُ في فرنسا واوربا

وذاع وقتئذٍ اسمهُ وسجاياه الحسنة في الافاق حتى ان احد ملوك الشمال وكان قد قاوم شديدًا رجال السياسة الفرنسوية ورفض التساهل معهم ببعض المطالب ارسل يومًا الى الموسيو دي روشكيم كتابًا قال لهُ فيهِ انهُ لا يعرفهُ شخصيًا ولكن يسره ان يمنح الحكومة الفرنسوية ما منعهُ عنها الى ذلك الحين اعتبارًا لاسمهِ وللخدامات الكثيرة التي يقدمها للانسانية

والذي يظهر لي انهُ يوجد كثير من الاعتبار الموثر وحسن الالتفات السامي بتوجيه مثل هذا الاحترام الى الموسيو دي روشكيم من ملك لا علاقة لهُ معهُ سيما وان هذا المركيز غريب عن هذه المهام والملك يعرف خلو غرضهِ بالنظر الى المصالح العمومية ولكنهُ مع ذلك اهتم بايجاد هذه الواسطة وجعل لهُ دخلاً شريفًا في اعمال البلاد بان تنازل لفرنسا اعتبارًا لسجاياه الكريمة عن منحة من اهم المنح

اني لا انسى الى الابد فرح الموسيو دي روشكيم عندما جاء وعهد اليَّ بهذا الخبر المسر

ولا مظاهر الظرف المؤثر التي اراد ان يقنعني بها بان جميع الماماته الشريفة صادرة عني وانه مديون لي بهذه المعاملة الكريمة الموجبة لافتخاره

وكانت هذه المعاملة الحسنى غير منتظرة من احد ومع هذا فلم يكن عجب اصدقاء الموسيو دي روشكيم لذلك بقدر مسرتهم لان احساناته للجنس البشري ومزيد فصاحته كخطيب والحروب التي اجراها ومعارفه المختلفة جعلته من اعاظم الرجال الممتازين كثيرًا

وكان الاجانب من ارباب الامتياز سواء بالنظر الى كرامة الاصل او المعارف يهمهم كثيرًا ان يقبلوا في منزل الدوقة دي ريشفيل ومن السهل ان يلاحظ الناقد اهتمام الهيئة المجتمعة هنالك برفع شان الموسيو دي روشكيم وهو محاط منها باسمى انواع الوداد والملاطفة

ولكن قل من يحسن كالموسيو دي روشكيم الاتضاع بين اصحابه وان ينسيهم بمظاهر البساطة المسكرة والبشاشة العذبة ذلك السمو والترفع وهو بافكار لا تستحسنها الناس فقط ولكنها تحملهم ايضًا على صرف العناية للحصول على استحسانه

وكانت تودداته اليّ ولما لا اقول توددانى اليه (لان الشعائر الباعثة على ذلك مجردة عن كلما يحملني على الخجل) من الامور العادية لدينا ولطالما اعترفنا بها بصراحة بين جمعية الدوقة دي ريشفيل فاصبح الحاضرون يتحاشون حرمان الموسيو دي روشكيم من المسرة بالحصول على ذراعي والجلوس بجانبي وهذه المسامحة المقرونة بمزيد الملاطفة والرعاية من اناس لا يتسامحون بشيء يثبت منها مقدار شرف هذه العلاقة

وكنت احب بحنو الدوقة دي ريشفيل وهي تخصني في كل يوم بمكارم جديدة واعز اما كشفيقتي . . فابدًا . . ابدًا لم اشعر باكثر من هذه السعادة

وكنت اقضي جميع سهراتي تقريبًا عند الدوقة دي ريشفيل ما عدا ايام ذهابي للروايات الهزلية وبعض ايام اخرى اقضيها وحدي في الاحلام

وفي الصباح كنت اذهب للتنزه او لبعض الزيارات الحصرية واحيانًا اصرف الوقت بالضرب على البيانو

ووجدت راحة كبرى بهذه الحياة السكونة الحصرية الى حد ان تمنعت مرارًا عن الذهاب الى ليالي الرقص

ثم حصل امر لربما لم يسمع بمثله في تاريخ الهيئة الاجتماعية وكان منه ان اظهر مزايا الموسيو دي روشكيم المخالفة كثيرًا للعوائد العامة بمظهر جديد

ويجب لتفهم القراء الحوادث الاتية ان اصرح بما نسيته بسهولة عظيمة وهو ان الموسيو كاستون دي سينفيل ابن اخت الدوقة دي ريشفيل كان مشغلاً بي ظنًا منه ان عناية الموسيو

دي روشكيم العلنية بي ثم مقابلتي له بمثل ذلك دليل على ارتباطي وإياه بالحب الاخوي وان هذا النوع من الحب يخوله جميع الحظوظ الممكنة لاستمالتي اليه بحب حنون

وكان الموسيو دي سينفيل غض الشباب في نحو العشرين من العمر والسيدة دي ريشفيل تقبله بمزيد الاكرام وهو بتمام الزهو والظرف الاتم وله اساليب حسنة وكان يستعيض عما ينقصه من كمال العقل بمعاملات لا تنطبق على صبوته وقد تظاهر بها قبل الاوان المناسب بالنظر الى عمره فان اساليبه الرسمية كانت بمباينة مضحكة مع وجهه الجميل المشرق بانوار الصبوة ولا علم لي بعد الاولاد الاحدث المتظاهرين بمظاهر العلماء والبنات الصغيرات المقتديات بالنساء الكبيرات بما هو ادعى الى الكدر من الشبان الاغرار الذين يستبدلون البشاشة وطيش الشبيبة بالرزانة الجدية والاحتقار العميق لانواع الافراح والملاهي والمسرات ولكن هذا ايضاً والحق يقال مفضل على معاملات رفع التكليف الخشنة التي يجريها كثير من الرجال ولهذا كنت انا والدوقة دي ريشفيل نضحك سوية من حماقة ابن اختها باظهار كل هذه الخطارة والدقة في اعماله وكنت اقابله بمزيد الالتفات وهو يعاملني بانواع الاحترام المتوجب على كل رجل شريف لامرأة ولكن ارباب المعاشرة الحسنة في ايامنا قليلون والرجال لا يهتمون بالنساء الا نادراً بحيث ان اقل الملاطفات الموجهة لاحداهن تكون داعية لمسها فكانت المعاملات المحسوبة في جمعية الدوقة دي ريشفيل من قبيل العيش بالملاطفة لا يمكن ان تحمل في جمعية اخرى اقل شأناً وانتقاء من جمعيتنا على غير المداعبة بمسرات الحب ومطارحة الغرام ولم استنر بالاطلاع على النوايا المنسوبة الى الموسيو كاستون دي سينفيل او التي اذاعها هو نفسه ولم تخطر لي في بال الا من هذا المشهد واليك اخباره

دخلت عليّ في صباح احد الايام الدوقة دي ريشفيل وكنت وحدي في المسكن فقبلتني وقالت اني مجنونة من الفرح فقد جرى حديث بخصوصك لم يسمع بمثله ولا يمكن ان يصدق والناس يحبونك ويعجبون بك الى ما فوق التصور ويريدون ان يعوضوا عليك عن جميع الاوجاع الماضية التي تحملتها الا تذكرين ايام كنت اقول لك ان العالم لا يخلو من الاخيار . . وسوف ينصفونك

وظهر لي من الدوقة دي ريشفيل انها طافحة بمظاهر التحمس فقلت تكلمي الآن صرحي كيف صرت موضوعاً لحديث لم يسمع بمثله ولا يمكن ان يصدق

قالت الدوقة دي ريشفيل ساخبرك بذلك ولا بد ان يعبق وجهك باحمرار الحياء لانك حصلت على نصيب عظيم من المدائح والابدع ان الذي دعى الموسيو دي روشكيم الى التكلم بتلك الفصاحة انما هو حماقة ابداها ابن اختي كاستون دي سينفيل . . ثم قاطعت نفسها

وقالت ساخبرك بكل شيء فامس مساء كما لا يخفاك اقفلت منزلي للذهاب الى السيدة دي لونكبري بمناسبة يوم الخميس وكان لا يمكنني الاضراب عن ذلك حيث مضى عليّ زمان طويل ولم اذهب لزيارتها في مثل ذلك اليوم وكذلك البرنس دبركور وامراتهُ كانا مقصرين في زيارتها فاتفقت واياهما على الذهــاب واتجهنا سوية الى عند السيدة لونكبري المذكورة وانا لا احب سجايا هذه الامراة لانها على عظمة افكارها تنقصها الشجاعة وتترك الحضور يرمون بالوقيعة امامها اشد الناس اخلاصاً ممن تدعوهم اصدقاءها وتقتصر من الدفاع على هذه الكلمات اه يا الهي ما هذا الذي تقولونهُ ــ ما كنت اصدق ذلك ــ ولكن هل صحيح هذا ــ ان هذا الكلام بلا ريب لا يخلو من المبالغة وهلمّ جرّا ولا يخفى ان البرنس ديركور لا يخرج في الاوقات الحاضرة لزيارة الناس الا قليلاً فكان لوصولهِ شان عظيم ولا يمكن ان تصدقي ياعزيزتي متيلدة بمقدار تاثيرات الوقار التي حصلت عن حضوره وكيف تغير فجاة مظهر القاعة بدخولنا فان الكلام كان دائراً فيها بجلبة عظيمة ولكن عندما لفظ اسم البرنس انتشر فجأة السكوت العميق وجميع الرجال مع بعض النساء ايضاً نهضوا وقوفاً على الاقدام

قلت اني افكر مثلك بامكان الاصطلاح مع العالم لدى التامل بهذه الاحترامات العظيمة المسوقة لرجل خسر كثيراً من موجبات افتخاره واشراقهِ الماضية ولكنهُ لا يزال محافظاً بمنتهى السمو على اسم من اعظم اسماء فرنسا

فسالت اليس كذلك يا بنيتي ولكن اسمعي النهاية فما من حاجة للقول بان السيدة لونكبري تزورها باريز باسرها ومنزلها في جملة الغرائب لان المرء يجد فيهِ جميع انواع الهيئة الاجتماعية على اختلاف مشاربها وافكارها فبعد وصول البرنس وامراتهِ لم تنشط هذه الامراة كعادتها بمحادثات الشر بل بالعكس ارادت المحادثة بلهجة شريفة تليق بضيوفها الجديدين ثم وصل بعد دقائق قليلة الموسيو دي رروشكيم وكان لخطابهِ اول امس في مجلس الاعيان صدى عظيم بين الناس فتحولت اليهِ جميع الابصار اما الامير فمد لهُ يده وقابلهُ كالعادة بذلك الاحترام الفوادي المتاز ثم وصل اناس اخرون وفي جملتهم ابن اختي العزيز كاستون دي سينفيل بربطة رقبة بديعة وفي عروتهِ باقة مسكرة من الزهور وقد تقدم كما تعلمين بتلك اللطافة المرتبة والظرف المستعد عليهِ وكلاهما يضحكانك

قلت و يوجان ياسك

اجابت بلا ريب لاني قريبة محبة وفي هذه الاعمال ما يدعو الى الكدر والحزن .... ثم عادت الى حديثها فقالت وخلاصة الامر ان القاعة كانت مزدحمة بالناس و يجب ان اعدد لك الاشخاص الموجودين هنالك . . وستعلمين لماذا . . فكان موجوداً

مع اناس اخرين الاميرة كسيرنكة وذلك الوحش زوجها وقد سرني ذلك وسوف تعلمين لماذا ايضاً . . . ثم سفيرة النمسا التي انشرح صدري كثيراً لوجودها حيث لا يمكن ان يفوتها شيء من كلما هو عظيم ودقيق ثم رجل الحكومة العظيم الذي قال عنه الموسيو تاليران انه جامع بين الانس والوقار

قلت من المستحيل ان ترسم صفاته بما هو احسن من هذا الرسم ولكن هلا تستصوبين ايضاً تلك الاوصاف التي وصفه بها البرنس ديركور منذ ايام حيث قال انه بخلاف جميع الناس تقريباً يعرف ان يحب بثباته الخطير ويحترم بظرفه العظيم ويسبي بسجاياه الجدية ويستميل الشعب اليه بشرف اصله العريق

قالت الدوقة دي ريشفيل ان هذه الصفات مشابهة لصفاته ايضاً وان تكن بعيدة عن الاصل لان من الصعب الكثير اعطاء الوصف المناسب تماماً للاخلاق الشريفة . . فما الذي اقوله لك . . كان مجموعاً عند السيدة لوتكبري نخبة باريس وسرني كثيراً ان يكون كل هولاء الناس شهوداً لهذا المشهد الذي اريد اخبارك به

قلت اخبري اذن حالاً فقد فرغ صبري

قالت كان الموسيو دي روشكيم يتحادث بجانب الموقدة مع السيدة دي لونكبري ثم دار الحديث على سهرة الغناء في دار الموسيقى حينما كنا سوية وسئلت عما اذا كنت تحسنين الضرب على آلات الطرب وهذا الذي اوجب ان تدور المحادثة بخصوصك فاجبتهم بلا ريب ولكن من سوء بخت اصدقاء السيدة دي لانكراي كونها بحالة من القنوط تحرمهم غالباً من استماعها ولكنها بتفنن تام وذوق تام

قال الموسيو دي روشكيم من المرة الاولى التي سمعت بها السيدة دي لانكراي تتكلم تاكدت انها من ابرع الناس في الغناء لان نغمة صوتها موسيقية والغناء ليس فناء لديها بل لهجة عادية . ولا ريب ان الاميرة كسيرنكة لا تصفح لك ابداً يا عزيزتي متيلدة عن الشرور التي حاولت الاساءة بها اليك فتبسمت بمظاهر الخيانة ثم ارادت ارباك الموسيو دي روشكيم فقالت له بلطف العلك من عداد المعجبين بالسيدة دي لانكراي يا سيدي اجاب نعم ولكني احبها بحنو يمتاز كثيراً على اعجابي بها وقد لفظ الموسيو دي روشكيم هذه الكلمات بصوت ثابت ولهجة حرة وفورة متعشقة بحيث ان هذا الاقرار العلني ظهر مع غرابته انه في جملة الامور المالوفة الموافقة

فعبق وجهي بالاحمرار وقلت للدوقة دي ريشفيل اني عليمة باستقامة الموسيو دي روشكيم ولا باس اذا تكلم امامك وامام اصدقائك بحرية واظهر انعطافه اليّ ولكن امام

اشخاص لا يعرف حسن طويتهم من يحوي . . . . . .

قالت الدوقة دي ريشفيل انك بلا عدالة يا عزيزتي متيلدة وسيثبت لك من ختام هذه الحادثة كون الموسيو دي روشكيم احسن التصرف فان السيدة كسيرنكة كررت هذه الكلمة بجنون ثم تهيئت بمظهر حسن وحاولت طعنه بالالفاظ الجارحة الخطرة فقالت تهورت باذاعة الاسرار وقد يمكن ان تصل ايضاحاتك الى اذان السيدة دي لانكراي قال الموسيو دي روشكيم صدقيني ياسيدتي اني منذ زمن ليس بطويل صرحت للسيدة دي لانكراي بهذا الايضاح وقلت لها اني احبها بعشق فظهرت لذلك على الاميرة كسيرنكة مظاهر العجب واخفضت اعينها ورفعتها ثم اخفضتها ثانية بملامح الحياء والاضطراب وقالت اخيرًا يسوءني كثيرًا ياسيدتي صدور هذه المازحة عني لانها كانت السبب بجواب يمكن ان يكون بنتائج خطيرة بالنظر الى سمعة السيدة دي لانكراي و . . . . . فقاطع حديثها الموسيو دي روشكيم واجاب لماذا باترى تشان سمعة هذه السيدة بما قلته الا يجب بالعكس ان يفتخر المرء و يتعظم بما يشاهد من اعجاب الناس به وحبهم له اليس من الجيد ان يتأثر لكلما هو شريف وعظيم او هل يجب ان يخفي تحمسات فؤاده لان الامراة التي يحفل بها شابة وبديعة وهي بنفس شريفة عظيمة اجابت الاميرة بتبسمات الخيانة والشر لا ياسيدي ولكن الخوف ان يتوهم الوشاة كون الامراة التي بعثتك على هذا التحمس ليست بعيدة عن التاثر بمثله

فصاح الموسيو دي روشكيم وقد القى على الاميرة نظر الاحتقار الخشن ان كل ما ارغب فيه ان يعتقد اولئك الوشاة بان السيدة دي لانكراي ليست ابدًا ولا بوجه من الوجوه بعيدة عن التاثر باعجابي بها ثم كرر قولة الوشاة . . اذا كنت تعرفين بالصدفة ياسيدتي بعضًا منهم فقولي لهم ان السيدة دي لانكراي تعرف مزيد حبي لها وهي مرتبطة باخلاص بي واراها في كل يوم وما من سعادة يمكن مشابهتها بالسعادة التي اذوقها بهذه الصداقة المسرة

وهكذا اعترف الموسيو دي روشكيم بافتخار وبسالة بالصداقة التي حاولت الاميرة كسيرنكة ان تجعلها موضوعًا للشك فحبطت بذلك مساعي هذه الامراة الشريرة وبقيت باهتة لا تبدي حراكًا ثم ارادت الاستنجاد بابن اختي كاستون دي سينفيل والذي يظهر انه يدعي بحبك وانه يلمح بما يحمل الناس على الظن بانك لا ترفضين حبه

فصحت ولكن الموسيو دي سينفيل لم يصرح لي ولا بكلمة من هذا القبيل وانا ايضًا . . . .

فقاطعتني الدوقة دي ريشفيل وقالت اعرف ذلك جيدًا يا ابنتي وسوف ترين كيف نال ابن اختي جزاءه على هذه الدعوى الباطلة فان كلمات الموسيو دي روشكيم المستقيمة جعلته بمركز مستقبح فتلون بحمرة الارجوان وللحال نظرت اليه الاميرة كسيرنكة بعين ساخرة

وقالت ما هو رايك ياحضرة الموسيو دي سينفيل بافكار الموسيو دي روشكيم لجهة اذاعة الاسرار وكان ابن اختي لا يحسن كثيرًا التكلم بديهًا ولكنهُ خاف السكوت وقتئذٍ لئلا يرمى بالجهالة والحمق وسوف ترين انهُ لم يكسب كثيرًا بالتكلم فاجاب على سوال الاميرة بقولهِ الظاهر ياسيدتي ان الموسيو دي روشكيم لا يختار الكتمان بالحب ولا يمكن ان اكون من رايهِ ففي الظلمة لذة عظمى لا يجدها العاشق في النور . . . .

وهنا ضعف صوت الموسيو كاستون دي سينفيل وتحولت اليهِ الانظار فلم يعد يمكنهُ الذهاب بكلامهِ الى اكثر من ذلك فلغلم وعطس وشفق عليهِ الموسيو دي روشكيم فاجابهُ في اول الامر بنوع من الملاطفة الابوية ولكنهُ تحمس تدريجًا

قال اكد ياعزيزي دي سينفيل اني علم بمنافع الظلمة والكتمان لجمال مشكوك فيهِ وخيانة دنية وحب كاذب اثيم ولكن عندما يكون المراد جمالاً نقيًا ساطعًا كرخامة قديمة جميلة مضيئة باشعة الشمس الاولى (اقول هذا عن السيدة دي لانكراي) وقد لفظ هاتين الكلمتين بتهكم كحاشية منفصلة وشخص بنظره الى الاميرة كسبرنكة ثم عاد الى اتمام حديثهِ فقال ولكن عندما يكون المراد حاسة موجبة لعظمة وسعادة الرجل الذي يشعر بها (اريد التكلم بذلك عن حبي) فحينئذٍ لا اجد نهارًا صافيًا ولا سماء نقية ولا صوتًا رنانًا ولا تعبدات ذائعة تفي باظهار ذلك الحب والجمال . . . ولا يسعني عند اجراء المشابهة بين الملذات الالهية التي يذوقها المرء بقلب مفتخر وجبهة مرتفعة وعين جسورة والمسرات المظلمة المشينة المكدرة بالخوف الا ان اسال نفسي قائلاً من ياترى امكنهُ في حياتهِ ان يشبه النسر للبوم والجندي للقاتل والشرف للعار ومن يعترف لمن يخفي وما يقال لما يسكت عنهُ ثم اسالك انت نفسك ياسيدتي الا تجديني الان وقد امكني ان الفظ علانية اسم الامراة التي احبها اسعد بكثير مما لو كنت مجبرًا ان اتمم بذكر هذا الاسم العزيز محمرًا بالخجل او ان ادنسهُ بجهلي ثم صاحت الدوقة دي ريشفيل بعظمة انهُ لا يمكنك ان تتصوري ياعزيزتي متيلدة الملامح البديعة التي ظهرت على وجه الموسيو دي روشكيم في اثناء تكلمهِ بذلك ولا النار المبعثة من اعينهِ ولا قوة وعظمة اشاراتهِ ولا لهجة صوتهِ المتاثر ولا اساليبهُ الجامعة وقتئذٍ بين المسكينة وصفات الامر فما الذي قولهُ لك ان الحاضرين تاثروا من ذلك تاثيرًا عظيمًا كما لو كان ذلك التاثير كهربائيًا واشتركوا جميعًا وفي جملتهم الموسيو كاستون نفسهُ بتحمسات الموسيو دي ريشفيل الشريفة وليس هذا هو كل الحاصل فان البرنس ديركور ولصوتهِ سلطان عظيم وانت تعلمين لجهة المبادي والشرف اراد المصادقة على كلمات الموسيو دي روشكيم فقبض على يديهِ وصاح من الحسن ياصديقي ان يظهر ويثبت ولو مرة واحدة امام العالم وجود حب عظيم شريف يمكن

ان يبح المشتركون به بسره لجميع الناس من ارباب الشهامة والقلب وأكد ان هذا الحب يجل من الهيئة الاجتماعية محلة من الاستقامة فلك ياصديقي ولامراة شابة لا النفظ اسمها الا بمزيد الاحترام والوقار المستحقة لهما ان تعيدا الى ايامنا الحاضرة انواع الوداد الطاهر المقدس الذي يرفع النفوس الى مقام العظمة

فصاحت البرنسيس الحق معك ياصديقي وستعلم بذلك على الاقل تلك الامراة التي تالمت كثيرًا بان العالم وان عجز لسوء الحظ عن ان يكفيها مونة الاحزان الوافرة التي تراكمت عليها فلا ينسى على الاطلاق الشجاعة والصبر اللذين اظهرتهما ويخلص لها الميل باحترام الحماسة الموجبة لتعزيتها وللافتخار اعظم الناسكين

قال البرنس بصوت صارم مهيب واملنا ايضًا ان يكون لما نحكيه الان صدى السلام . . وان تصل هذه الكلمات الى الذين يظنون بان الهيئة الاجتماعية غير حاصلة على القوة للاقتصاص من المعاصي الدنية التي لا تصيبها العدالة الانسانية وهي ان الصوت العام يستهين بالرجل الدني ويلفظ ضده نوعًا من الطلاق الادبي وان هذا الصوت يقول لامراة هذا الرجل التعيسة الشريفة لست مطالبة بشيء لذاك الذي جرعك غصص الحزن والعار وانفصل عنك ليتدنس بحياة السفه الموجبة للغيظ نعم انت حرة منهُ ولست مديونة لهُ بشيء على الاطلاق الا بالمحافظة على اسمهِ بلا دنس لان اسمهُ من الان وصاعدًا هو اسمك . ان قلبك انتها الامراة المسكينة مجروح بعد اذ تالمت لزمان طويل وبكيت بالسر ولك نوع من التعزية العذبة بمثل هذا الانعطاف المخلص الدقيق فلا يمكن ان يلومك على ذلك الرب ولا الناس ثم زاد الامير على ذلك قولهُ ان هذه الحماسة شريفة طاهرة حرة فالعالم يصوبها ويستحسنها والوشاة تخرس السنتهم عنها ثم شد على يدي الموسيو دي روشكيم للمرة الثانية بتهيجات الوداد وقال المجد والشرف لك ياصديقي فمن الان وصاعدًا تقدر القلوب التعيسة المنفصلة بالشرائع البشرية ان تطلب السعادة بلا خوف بحماسة شريفة مجردة عن الخجل ومثالك يكون دلولهم ووقايتهم فانا وثق بهم يذكرون اسمك فتقف الوشاية على السنة الوشاة

وكنت قد تاثرت كثيرًا بهذه المحادثة فمسحت دموعي وقلت اه يا الهي . . اه يا الهي اني متاسفة كثيرًا لحصول كل هذه الاقوال عني حيث لا يمكني بعد هذا ان اصرح بمقدار اعجابي بها

قالت الدوقة دي ريشفيل ولكني قصرت كثيرًا في النقل ثم سالت كيف يمكني ياترى ان اصور لك ذلك الجلال الذي تجمل بهِ وجه البرنس والغضب الشريف الذي احمرت بهِ جبهتهُ تحت شعره الابيض عندما وصف تصرف زوجك الدني

ثم ملامح الجودة والمكارم الوافرة التي تكلم بها عنك وما من حاجة لان اخبرك يا ابنتي العزيزة المرة الثانية بتاثير ذلك المشهد فانت تعلمين ان البرنس وامراتة يتخصان الشرف والدين والاستحقاق وكرامة الاصل فاحكمي اذن والحالة هذه على عظمة ذلك المشهد الوقور الذى حضره نخبة باريس ثم افيدي ألك شجاعة بعد هذا على ملامة الموسيو دي روشكيم لجهة كونه مذياعاً

فقبضت على يدي الدوقة دي ريشفيل بين يدي وصحت ابداً . . ابداً . . لان هذه الاذاعة جعلتني مديونة له بالطف دقايق حياتي

فصاحت الدوقة اليس كذلك

قلت لولم تكني انت ياصديقتي التي اخبرتني بذلك لاوشكت ان لا اصدق اذاني بما اسمعهُ لان هذا المشهد بعيد عن عوائدنا واخلاقنا وزماننا

فصاحت الدوقة دي ريشفيل وهل تظنين البرنس والبرنسيس والموسيو دي روشكيم لهم امثال كثيرون من ابناء هذا الزمان . . اني لا اتكلم عنك ايتها البنية العزيزة لئلا تظهرين التمرمر ولكن هل يمكن ان يوجد رجل بمثل هذه الاستقامة يشرفك ويرفعك في الافكار العامة الى اسمى من ذي قبل باقرار لو لفظة رجل غيره لمس بهِ صيتك وسمعتك الى الابد ان ثقة الناس بهِ عظيمة جداً واخلاقه الشريفة متسعة السلطان الى حد ان نخبة الهيئة الاجتماعية من اعاظم الناس واشدهم احتراماً صوبوا حب هذا الرجل لامراة ليست امراتهُ باعتبار ان هذا الحب بمنزلة تامة من الشرف وان هذه الامراة مستحقة لمثلهِ ثم صاحت الدوقة دي ريشفيل بلهجة من المكارم وتبكيت الضمير جرح بها فوادي اه يامتيلدة . . اه يامتيلدة . . ابداً . . ابداً . . لم اشعر كالان بمقدار الفرق الكائن بيني وبينك . . ولم آسف بمثل هذه المرارة على الهفوات التي ارتكبتها

فصحت ما هذا الذي تجسرين على قولهِ هل تريدين ان تمزجي هذه الاحترامات التي لا استحقها الا قليلاً بالتمرمر . . . فما الذي فعلته يا الهي حتى استوجبت كل هذا المدح والاهتمام المديونة بها لمحبتك الثابتة السليمة افلست انت التي وضعت جميع قوى قلبك لتعظيم صفتي الوحيدة السلبية واسفي وهي التصبر فهل من الصعب يا الهي على المرء ان يتحمل ويتصبر ثم اسال نفسي قائلة هل جاهدت يا ترى بالعراك وهل ابدت حبي بشيء من ضروب الاخلاص لا لعمري . نعم كنت لا اتاخر مطلق عن اجراء ذلك على ما اظن ولكن الفرصة لم تحن ولم اظهر كوني واحدة من ربات العزم اللواتي يضحين انفسهن بشجاعة للمصائب الشريفة ولا يترددن ابداً بين سعادتهن الخاصة وسعادة الاشخاص الذين يستحقون اهتمام ومحبة الكرماء . . لا . . لا

. . ابداً . . لم اكن منهن ولكني كرت بذاتي واحببت رجلاً لا يستحقني ولهذا خسرت اوجاعي صفات العظمة فلا تتيهي اذن بيني و بينك انت التي عرفت ان تكسبي ببسالة ازود مما خسرت بنحو من الف مرة ثم اسالك ايضاً ضد اية البواعث الجذابة اصليت نار المقاومة والعراك وهذا الحب نفسهُ الذي افتخر بهِ الان ماذا كلفني يا ترى انهُ لم يكلفني شيئاً من غير التعرض للحب وليس اتضاعي الباطل هو الذي اوجد فيَّ هذا الاعتقادات ولكني احلف لك ياصديقتي ان لا علم لي للان بهذا الحب الذي بعثت عليهِ الموسيو دي روشكيم

نعم اني شاعرة من نفسي باميال غريزية كريمة ولكن هذه الاميال ليست هي التي يحبها فيَّ الموسيو دي روشكيم فالناس ياصديقتي يمدحون رقة هذا الحب وطهارتهِ ولكن هذه الرقة والطهارة لم يكلفاني شيئاً وما من حاسة فيَّ من الحاسات الحارة تستلزم المقاومة ضدها واذا شابهت بين احساساتي للموسيو دي روشكيم الان وما كنت اشعر بهِ للموسيو دي لانكراي قبل زواجي وفي دقائق السعادة النادرة التي ذقتها بقربهِ اجد فرقاً عظيماً فبجانب الموسيو دي لانكراي كنت اصادف على الدوام نوعاً من القلق والارتباك اما بجانب الموسيو دي روشكيم فلا اصادف شيئاً من ذلك وعندما يقرب مني اشعر بالسعادة والصفاء وبدلاً من ان يخفق قلبي بشدة تنتظم دقاتهِ لحضور ومحادثة واقرارات هذا الصديق لا تذعجني على الاطلاق وقد احس ايضاً لوجوده بحرارة المسرة التي تنتشر فيَّ على الدوام عند الاعجاب بكلما هو كريم وحسن او قراة كتاب جميل او النظر الى مشهد شريف او استماع حادث من حوادث البسالة والشرف

فنظرت اليَّ الدوقة دي ريشفيل في بادي الامر بتعجب ثم هزت راسها وتبسمت بحزن وقالت كل ما ارغب فيهِ ان تدوم طويلاً هذه السكينة ياعزيزتي متيلدة لاني اعرفك وقد عظم شان حبك الان امام الجميع والموت لديك خير واولى من الامتناع عن هذا المجد الوحيد او المساهلة بتدنيسهِ فاحمررت بالحياء وقلت اني خائفة لاني لا اشعر من نحو الموسيو دي روشكيم باكثر من هذا الميل والاجلال مع اطلاعي التام على صفاتهِ النادرة ان الحب الحار لا ينتشر فجاة كالنباتات الوقتية التي تنبت وتنمو وتموت بيوم واحد . . . ولكنهُ يمد جزوعه تدريجاً الى اعماق القلب اعني ذلك الحب الذي ينمو سراً ولا ينتبه اليهِ لانهُ يربو و يفيض بهيئة خفية عن الادراك . . . فقد اخشى في بعض الاحيان ان يظهر من تحت هذه السكينة حاسة حارة اشعر قريباً بحرارتها النامية . . وحينئذٍ ياصديقتي اذا ثبت امام هذه الجواذب وانتصرت عليها اكون مستحقة لهذه المدائح اما الان فالفضيلة سهلة عليَّ جداً ولا يحق لي ان افتخر بالمحافظة عليها

الفصل السادس والخمسون

مراسلة

وبعد هذه الحادثة بايام وصلني تحريران جديدان من الموسيو دي لانكراي بالطريقة السرية التي اخبرت عنها وهما مرسلان لنفس الرجل المجهول الذي ارسل اليه التحرير الاول ومصحوبان بباقة من الزهور السامة دلالة على تذكار الموسيو ليكورتو وهذا نص التحريرين المذكورين

من الموسيو لانكراي الى ***

كل شيء يثقل عليّ دفعة واحدة واوشك ان اصاب بالجنون من الغيظ والعار وقد بدا العالم يتكلم بالادبيات وينبهني الى بعض العلايق الحسنة المتطرفة بالتعقل ولو لم يكن لتلك الخطب الحارة الموجهة ضدي بعض التاثير في هذه الامراة التي خلقت لعذابي وما زلت احبها بجنون اشد من الاول لسخرت منها

انك بلا ريب عندما تطالع هذه الاسطر في اعماق الاماكن المعتزلة الوحشية التي تسكنها ستبادر الى السوال من نفسك عما اذا كنا في زمان الاماديسيين (نسبة الى اماديس وهو بطل قصة من اشراف الجيل الرابع عشر)

لا اعلم هل جمعتك الايام قبل الان بالمركيز دسي روشكيم وهو رجل غريب الاطوار كثير الغنى محب للانسانية كابيه من ارباب التخيلات الغريبة يضرب في الارض تائهاً ومحارباً هنا وهنالك ناسل لا ينقصه العقل ويتكلم في مجلس الاعيان بحرية فاليوم ضد اصدقائه وغدا لاعدائه اذا عارض فريق منهما مباديه وهذا المركيز بلا زهو لا يحسن التمتع ولا الحصول على الشرف باموالهِ لان مدخوله السنوي ثلاثمائة الف فرنك ولا يصرف منها الا ستين الفاً فقط ولكن يقال انه يعطي حسنات كثيرة وانما بالسر التام وهذا ضرب من زيادة الاقتصاد اما وجهه فلا يخلو من الانتظام ولكنه خشن وبلا بهاء ومع هذا فالنساء غريبات الاطوار وقد حصل له في ايطاليا واسبانيا وباريس حوادث كثيرة تخوله الادعاء بالفوز

وبعد اذ اجرى اسفاراً طويلة مدة سنتين او ثلاث سنوات رجع في هذا الشتاء الى باريس وقد حرقته الشمس في الشرق فتلون وجهه بلون البرونز واذا اضفت الى ذلك

شاربه الكبير الاسود وما يوجد في اساليبهِ من الرفعة والخشونة فلا نفرق هيئتهُ عن رجل ايطالي ولكن العالم يعجب على الدوام بالجديد وقد انعطف بكليتهِ لنحو هذا الحسن المستبسل والجندي المتشرع وصاحب الملايين النجيل والان لا تحلف الناس الا بهِ

واذا سالتني لماذا اكثر من الاسهاب في ايضاح صورة هذا الرجل بكل هذه العناية فالجواب على ذلك ان الموسيو دي روشكيم هو عاشق امراتي . . . لا تاخذ كلامي هذا من قبيل الاعتدا بالسفه وثق انني لا اتكلم الان الا بصدى الاقوال التي تلفظ بها اكرم الناس واكثرهم تدينًا من الذين اتخذوا ذلك الحب الجميل المؤثر تحت حمايتهم . . فقد صرحوا علانية بان السيدة دي لانكراي حرة لا يربطها بي شيء على الاطلاق والشرط الوحيد الذي قيدوا بهِ ذلك الطلاق انما هو ان تحافظ على اسمي نقيًا وغير ملطخ بشيء من العار وما عدا ذلك فلها الحق ان تذوق بسلام وعلى مراى من الناس جميع ملذات الحب الطاهر مع الموسيو دي روشكيم بدعوى اني شقي واني تركت امراتي لاعيش مع معشوقة سمعه مهيج

وهل تعرف من هذا الذي قدم ضدي هذه الشكوى العلنية امام الهيئة الاجتماعية هو الشيخ المسن البرنس ديركور السيد العظيم بل الرجل الطاهر الشريف ولا اظنك تنكر انهُ لعب بذلك دورًا غريبًا والاغرب ان هذا الحكم الادبي صدر منهُ بمناسبة عمل جديد شاذ اجراه الموسيو دي روشكيم يومًا اذ اعلن امام باريس انهُ يحب بتعشق امراتي وانها هي ايضًا تقابلهُ بمثل هذا الحب

وعند ذلك جعل البرنس الشيخ والبرنسيس (وهي من اصحاب الحرص الشديد على الدين والعبادة كملاك) يصيحان باصوات التصويب والاستحسان ويهنئان الموسيو دي روشكيم بحرية ضميره ثم بلغ التحمس او بالحري الهوس المضحك بمناسبة ذلك مبلغًا عظيمًا واعترفت لي امراة من صديقاتي وهي تضحك من نفسها انها لم تقوَ لدقيقة من الزمان على مقاومة اللهجة العامة المفتخرة بهذه الاعمال

وانت تعرف ان كل شيء في باريز زي فالمدينة الان مضطربة بما يدعونهُ استقامة الموسيو دي روشكيم الشريفة ان النساء اضعن بهِ عقولهنَّ والرجال يحسدونهُ او يخافونهُ والسيدة دي لانكراي تذكر اليوم كمثال حسن للحب العفيف . ولكن هذا الحب والتعزيات الطاهرة يبعثان على الخوف وقد انظر في بعض الاحيان مع كل هذه الطهارة الى الموسيو دي روشكيم كالثم الناس حيث ما من وسيلة انسب من هذه الوسيلة التي اختارها لنجاح علايق الحب وهو ان يشهر المرء حب الامراة بتمام الحرية والفضيلة ثم يستتر بتلك المظاهر الغرارة ويضحك من الله وارباب النفوس الكريمة . . . .

ولكن لا لا ابدًا اني اعرف امراتي فاما ان تكون تغيرت تمامًا بما لا يصدق واما ان يكون اسمي باقيًا بلا دنس وزد على ذلك ان الموسيو دي روشكيم من ذوي الاطوار الخشنة وقد لا يجد شيئًا ناخسًا في ذلك الحب الشريف الطاهر وغير المادة يدوم الى ما شاء الله

ولكن هذا كلهُ ليس شيئًا بالنظر اليَّ ولربما اوجب ضحكي وسخرت منهُ كثيرًا لو لم يحصل لي عن كلمات البرنس ديركور الخشنة الجارحة نتائج قاسية ولا انكران كلمات هذا الرجل معتبرة ومسموعة من الجميع كالوحي المنزل فانهُ قدح بتصرفي نحو امراتي ووصمهُ بالدناة وقال يجب على الهيئة الاجتماعية ان تنتقم للسيدة دي لانكراي بان تعامل زوجها بالبرود والاحتقار ولسوء الحظ كان لهذه الكلمات صدى الاعتبار لان جميع مزاحمي الذين يحسدونني والحمقاء المجروحين مني بعزة نفوسهم والنساء اللواتي غششتهن والشنيعات اللواتي احتقرتهن بادر والانفاذ هذه الاحكام الصادرة ضدي وصرت منذ بضعة ايام لا تقابلني الناس الا بسكوت مظلم وتادب خشن يجرحني بما هو اشد كثيرًا من معاملات السفه وقلة الادب حيث لا يمكني ان اجد على هذه الصورة حجة للكدر او وسيلة للشكوى ولو لم يكن البرنس ديركور شيخًا مسنًا لسرت اليهِ لانهُ مصدر هذا الاعتصاب ودعوتهُ للبراز ولكن السن لا يسمح بذلك بقي عليَّ الموسيو دي روشكيم ففي كل يوم احاول نحوًا من عشرين المرة الذهاب لمقاتلتهُ ولكني اخشى التهكم اذ لربما تتوهم الناس ان الغيرة هي التي حملتني على هذا البراز ومع هذا فاني احب كثيرًا التنكك بهذا الرجل لاني ابغضهُ وكان قلبي في جميع الازمان نافرًا منهُ لانهُ صديق الموسيو دي مورتاني الذي تخلص من بغضي بالموت وقبل زواجي كنت لا احتملهُ ايضًا بالنظر الى تصنعاتهِ باجراء الحسنات المظلمة واعمال الخير الخفية ولكنهُ على الاقل لم يكن وقتئذٍ بمثل هذه الهيئة الامرة والمسلك الوقح

ومنذ ايام صادفتهُ وكان راكبًا جوادًا وانا كذلك فتصاعد الدم الى وجهي واملت ان لا يحييني ولربما دفعني الجنون الى مشاجرتهِ لو فعل ذلك فيااللعنة ويا لخيبة الظن انهُ حياني ولكن تحيتهُ كانت كواحدة من تلك الاهانات الجارحة التي لا يعرف لها اسم ولا هيئة وقد تؤثر شديدًا بالناظر ولا يمكنهُ الشكوى منها وقد ظهر لي كأني اقرا على هيئتهِ الخشنة التي لا تتالم ونظره النافذ الصارم انهُ يحيي بي الرجل الذي تحمل السيدة دي لانكراي اسمه ولربما زوج معشوقته لاني كثير الحمق وما زلت اعتقد بفضيلة امراتي . . ولكن لا . . لا . . ابدًا ابدًا اني اريد احيانًا بالرغم عني ان اصدق بكونها اثيمة وقد يفرح بذلك روحي ويظهر لي كان اثامي اقل قبحًا واستنكارًا مما هي ولكن ضعفها لا يتكل عليهِ فابدًا ابدًا لا تستطيع هذه الامراة ان ترتكب هفوة فهي تعرف ان تبكي وتئن ولكنها لا تعرف ان تنتقم . . واحب لديَّ عند التامل ان اعتقد بفضيلتها وان لم يكن لها في قلبي اثر الحب اذ لربما يكون الاعتقاد باثمها

موجبًا لكدري باكثر مما اظن لانهُ يجرحني جرحًا جديدًا زيادة على بقية الجروح المتالمة بها عزة نفسي والذي يغيظني ويعذبني كثيرًا انهُ لا يوجد من يسخر بالموسيو دي روشكيم في مثل هذه الظروف التي تستوجب السخر ولو فعل ذلك احد غيره لقوبل باصوات التفنيج والاحتقار فما الذي صارت اليهِ يا ترى شرور العالم واي سلطان لهذا الرجل الذي يلعب بالنار وينجح حيثما يخيب الاخرون وما الذي فعلهُ يا ترى حتى رفع ذاتهُ الى هذا المقام ومو علانية بمبادئ تعيد للحب الطاهر ولو وقتيًا بهاه اريد ذلك الحب غير المالوف سريع الزوال الذي يحلم بهِ الاحداث واولاد المدارس والشيوخ . . لا لا من المستحيل ان يعمل الموسيو دي روشكيم بصراحة مثل هذا العمل

ثم على فرض ان هذه الاعمال تمويه منهُ الا يكون ذلك داعيًا لزيادة عجبك منهُ واستغرابك لهُ اليس من العجب ان يغش هذا الرجل اناسًا كالبرنس ديركور وامراته ويتخذهم انصارًا لهُ مروجين لاعمالهِ . . حقًا ان هذا الرجل لمن الغرائب ولكني ابغضهُ بغضًا شديدًا ولا سيما منذ زمان ولا اعلم لماذا . وبغضي لهُ خشن اصم ولا ريب انهُ الهام لي من فوادي ينذرني بان هذا الرجل سيسيء اليَّ وسيجرحني بكل ما هو عزيز لديَّ . . ولماذا يا ترى كل هذا الاخفاء والمحاولة على حين لا اكتب اليك الا لاصرح بمرارة فوادي واخلص من عذابات افكاري ونفسي الا فاعلم اذن ان اورز بل منذ ذلك اليوم الذي تسبب بهِ هذا الرجل باسقاط اعتباري واظهرت الناس برودًا بمقابلتي وهي تعاملني بالخشونة ولا اعلم هل شعرت انها محتقرة بهذه الاحتقارات الخشنة الموجهة اليَّ او تاثرت عزة نفسها بذلك من اجلها ومن اجلي ولكنها تجاسرت يومًا وقالت لي اني مستحق لهذه المعاملة بالنظر الى تصرفي المستنكر نحو امراتي وان الهيئة الاجتماعية تفعل حسنًا باهانتي واحتقاري ومن اللازم ان يستعمل في اغلب الاحيان هذا النوع من الانتقام قصاصًا للرذائل والجنايات التي لا تدخل تحت طائلة القصاص الشرعي

فبهت لهذه الجسارة وصحت ولكنك انت ايضًا شريكتي بكل هذه الاهانة ولكنك انت الان مشاركة لي بهذا الاحتقار

اجابت وهل سمعت لي صوتًا مرتفعًا بالشكوى ان العالم عادل لاني اردت باي ثمن كان (واي ثمن يا الهي) ان اكون امراة من نساء الزي الجديد وتشرق انواري بسطوع في باريس واكون زهرة الاعياد الزاهرة وحصلت على كل ذلك والناس يظنون اني انتشلتك عن امراتك بالحب ويقبحون اعمالي المستنكرة بحق ولكن اذا عرفوا اني ما احببتك على الاطلاق فلا ريب انهم يجدونني اقبح بكثير مما انا الان ولهم الحق بذلك ايضًا

اسالك الا يشفع بي هذا الكلام اذا قتلتها بيدي ولكنها عودتني منذ زمن

طويل على مثل هذه السهام ولو لم يظهر لي اخيرًا كونها كئيبة قليلة الكلام لما علقت اهمية كبرى على قساوتها .

اني لا اجسر ان اصرح حتى ولا لك ايضًا بالاعمال الجنونية التي اجريتها لاخراجها من لجة هذه السويدا المظلمة المستغرقة بها ولكن اتعابي ذهبت سدى وهي ترفض الان النزول عند السيدة دي ماران التي ظهر عجزها مثلي عن طرد هذه الاحزان عنها اما اورزيل فتقابلها تارة بلا اكتراث واخرى باحتقار وتقضي ايامًا برمتها وحدها مشغلة بالقراة والاحلام وقد قالت لي خادمة غرفتها وهي مكتبة الي لا بد ان يكون متسلطًا على هذه الامراة حزن عميق لانها لم تعد تعرها وانها تمشي احيانًا ساعات طويلة بهياج في غرفتها ثم تسقط مثقلة بالاتعاب وتغطي راسها بيديها .

وبالحقيقة انها متغيرة كثيرًا فانها انهزلت وفقدت لونها المنعش وسمنها اللطيف وتحورت اعينها ومنذ اكثر من شهرلم تعد تضحك ضحكات السخر والجسارة التي تسبي وتخيف

ولا اعلم باي مقصد تريد ان تبقى غالبًا في الظلمة التامة وترفض مقابلة الناس وعندما شاهدت منها هذه الاحزان التي اجهل اسبابها املت ان يلين الحزن اخلاقها القاسية ففي حالة سعادتها وفرحها انفقت الذهب لارضاء اهوائها اما الان فبمناسبة هذه الاحزان والسويدا اردت ان اقدم لها كتعزية كنوز حبي الحار اريد هذه الكنوز التي مضى عليَّ زمان طويل وانا اجمعها في فوادي وكنت لا اجسران اكشف لها عنها تقريبًا لاني اخاف كثيرًا معاملاتها السخرية فقلت في ذاتي اخيرًا هذه هي الساعة التي لربما يمكني بها ان اسودها بمعاملات الاخلاص والحنو ولكني خبت ظنًا واملاً فباطلاً كنت اجثو على ركبتي امامها وابلي يديها بالدموع — لان هذه الامراة تبكيني كطفل — واصيح قائلاً بربك قولي ما الذي يحزنك صرحي لي باوجاعك لاشاركك بها قولي لي انه يمكني ان اومل ولو قليلاً بتعزيتك وحينئذٍ تجدين قلبي فائضًا بينابيع لا تحد لارضائك . . لا . . لا . . لا يمكن ان ترتابي ابدًا باقتداري على طرد الاوجاع عن قلبك انك تتعجبين احيانًا للاسرافات التي اجريها لارضاء رغائبك الجنونية ولكن هذا لا يكون شيئًا بالنظر الى عجائب الحنو التي تظهر مني اذا وثقت بي واملت باقتداري على انقاذك من بعض الاوجاع . . . .

صدقني اني كنت اشعر وقتئذٍ بصحة هذه الاقوال التي تلفظت بها باكيًا على اقدام هذه الامراة واحسست بما لم يسبق لي ان شعرت بمثله قبلاً من الالم العميق وانسحاق القلب وذلك لاني نظرت اورزيل متضعضعة وكنت اجهل اسباب حزنها ولكنها كانت تتالم واتالم . . وفي ذلك دلالة على استمرار انعطاف روحي لنحوها

ولا اخفي عنك اني في هذه المرة كنت صادقًا وان توسلاتي كانت صادرة عن اعماق قلبي وتنهداتي من اعماق احشاي . . . . وكانت دموعي حارة محرقة كدموع الياس المحقة . . ولكن هذه الامراة بقيت امامها خرساء باسرة وغير مكترثة كما لو لم تسمعني ولم تفهم كلامي

ان هذه الامراة ولا ريب حمقاء او مجنونة . حتى امكن ان لا تشعر الى الان بمقدار حبي لها الا تعلم هذه التعيسة ما هو هذا ان يحصل المرء على قلب يمكنه ان يتكل عليه الى الابد الا تعلم انه من النادر ان تحب امراة مثل هذا الحب الذي دعتني اليه . الا تعلم اذن ان حبًا كحبي ولو مهما كان اثيمًا لا يجوز ان يطرح الى الهواء الا تفكر هذه الامراة بالمستقبل وان سياتي يوم لا يكون جمالها وشبيبتها فيه الا تذكار وحينئذٍ يكون من السعادة لديها الحصول على مثل هذا الوداد الذي تحتقره الان اريد هذا الوداد الذي لا بد ان يكون ازليًا لانه ثبت امام اهوائها واحتقاراتها ونكرانها للجميل . . . حقًا ان هذا مخيف وقد صرت مجنونا من الغيظ ضد ذاتي وضدها ولا يمكني ان اكمل هذا التحرير . لان الغضب والوجع اعمياني . . . .

. . . . باريس

كان من المستحيل عليَّ امس ان اكمل هذا التحرير فعدت اليه اليوم وقد حصلت حوادث جديدة وكل املي ان انور افكاري بكتابتي اليك لان راسي في حال الاختباط التام وافكاري متلاطمة فيه بلا نظام ولا نهاية

ولنهتم قبل كل شيء بجمع تذكراتنا فامس بعد الانقطاع عن مواصلة الكتابة في هذا التحرير ذهبت لمشاهدة اورزيل فقيل لي انها متوجعة وانها لا تقبل احدًا فتقدمت نحو من ثلاث مرات احاول الدخول عليها ولكني حبطت عملاً حيث من المستحيل السماح بتجاوز عتبتها ثم رجعت في هذا الصباح فاعلمتني السيدة دي ماران انها متاثرة (ولا نعلم ما هو هذا ان تتاثر هذه الامراة) لان اورزيل ترغب مبارحة منزل ماران وان تعيش وحدها من الان وصاعدًا فاصابتني الدهشة لذلك وركضت مسرعًا لمقابلة اورزيل ولم اسمع لخادمة غرفتها التي منعتني من الدخول بل دخلت الى القاعة بالقوة تقريبًا فوجدتها ترتب بعض الاوراق في مكتبتها

فصحت بافكار مشوشة أصحيح ذلك ولم انوه الى شيء من المقصود بهذا السوال فنظرت اليَّ بهيئة عابسة وسالتني ماذا تريد

قلت اعلمتني السيدة دي ماران انك ستبارحين هذا المنزل . . وهذا مستحيل

فرفعت اكتافها وداومت ترتيب اوراقها وقالت هذا قريب بل هذا هو الحاصل

فصحت مجردًا عن الوعي ان هذا لا يحصل ابدًا لاني امنعك عن ذلك ان هذا لا يحصل

ابداً فكررت قولي تمنعني عن ذلك ولا يحصل ابداً . ثم نظرت اليَّ بافتخار وسالت باي حق تكلمني بهذا الحديث ياسيدي

قلت لي حقوق عليك ولا يهمني سواء كانت تلك الحقوق شرعية او غير شرعية واريد ان اثبتها

فسالت وامام من ياسيدي تريد ان تثبت هذه الحقوق

فصحت قلت لك ان لا تبارحي هذا المنزل والا رافقتك الى حيث تذهبين

اجابت سابارح هذا المنزل ياسيدي ولا يمكن ان ترافقني

قلت لا تدفعي بي يا اورزيل الى نهاية الصبر وتذهبيني وساقول لك بكلمتين لماذا لا يمكنا نحن الاثنان ان نبارح بعضنا بعد الان فمن اجلك تجنست امراتي وصرت مهانًا ومحتقرًا بين العالم. انظرت بعد هذا كيف لا يمكنا ان نبارح بعضنا وانا مرتبطان باحكام التقادير من الان وصاعدًا الى ما شاء الله وستشاركينني بحظي ولو مهما كان مصيره فهمت كلامي جيدًا

وكنت اتكلم بذلك واشد بغيظ على يديها لان مظاهر الجمود وعدم التاثر الذين سمعت بهما حديثي اخرجاني عن طور التعقل فقابلتني على ذلك بنظر نفذ فيَّ الى اعماق نفسي ولم تخفض اعينها امام اعيني ثم قالت وانا ايضًا اريد ان اقول لك بكلمتين لماذا يجب ان لا يكون شيء مشترك فيما بيننا فما من احد في العالم له حق عليَّ وسابارح هذا المسكن عندما اريد واذا تبعتني انقدم بالشكوى عليك الى محل الايجاب واطلب الحماية ضد ملاحقاتك

فصحت مقهقهًا بضجات الضحك العصابية سترفعين الشكوى بلا ريب الى الحكومة والبوليس ثم حانت مني التفاتة بلاوعي الى ما حولي واذا على احد المقاعد لباس استخفاء من الحرير الاسود

فتجاوز فكري شهاب من الغيرة وتذكرت ان البارح كان نصف الصيام فقبضت على اللباس المذكور اريه لاورزيل ثم صحت كنت ليلة امس في سهرة الرقص في الاوبرة بالرغم عن اوجاعك واحزانك الكاذبة

قالت نعم ذهبت امس الى سهرة الرقص في الاوبرة بالرغم عن اوجاعي واحزاني الكاذبة واومل ان يثبت لك من ذلك بان رغبتي بالذهاب كانت حارة

فصحت انجلى الامر وفهمت كل شيء انك تحبين رجلاً ولك عاشق ولكن هذا العاشق ونار الجحيم الذي تريدين الذهاب لمقابلته بكل هذه الوقاحة لا يخلو حيًا من يديَّ ثم جلست على مقعد وقلت سابقى هنا ولا اتزحزح من هذا المكان

فقالت افعل ما يروق لخاطرك ياسيدي ثم داومت عملها كانها غير منتبهة لحضوري

واذهقني منها هذا البرود والقساوة والسفه فانتشلت من ايديها الاوراق التي تمسكها والقيتها في وسط القاعة

فنظرت اليّ بلا تاثر ثم رفعت اكتافها وهمت الى الخروج فقبضت عليها بخشونة من ذراعها وصحت انك لا تخرجين ما لم تصرحي لي لماذا ذهبت في هذا الليل الى سهرة الرقص في الاوبرة بدون ان تعلميني وانت متوجعة كما انت الان لانك مصفرة ومتغيرة . . . . ايتها الامراة التعيسة

ولم يسعني التغلب على حنوي ودموعي عند مشاهدة وجهها الضعيف فارتفع صوتي بالبكاء وقلت اي سبب خطير اوجب عليك الذهاب الى هذه السهرة .

فلم تقل كلمة ولكنها تخلصت بلطف من يدي وكنت امام الباب سادًا بوجهها الطريق فجلست واسندت عنقها على سنادة المقعد ثم وضعت يدها على ذقنها وبقيت هكذا خرساء وبلا حركة وكنت اعرف هذا النوع من اصحاب الاخلاق المستعصية واعلم ان الملاطفة والرجاء لا يثمران معها اكثر من التهديد والوعيد ولكنني تذللت لها بجبن مرة ثانية ايضًا لان العزم الذي اعتمدت عليه ظهر منها فجأة وسحق بخشونة امالي فاردت ان اصرف الاجتهادات الاخيرة لتحنين هذه الامراة وكلمتها بكلما يمكن ان يلهم اليه الحب المفرط والاخلاص الاعمى والباس الحقيقي المولم . . ولكن جميع تهيجاتي وتنهداتي وتوسلاتي ذهبت ضياعًا ولم توثر شيئًا بهذا القلب الصخري ثم اردت باي ثمن كان ان اخرجها من هذا السكوت الذي اذهقني فتطرفت معها بالخطاب الى الشتائم والتانيبات المريبة السفلة بلا فائدة لانها بقيت مستمرة على السكوت لا تلفظ كلمة فكانما هي وقتئذٍ صنم والاغرب انها كانت لا تسمعني ايضًا وفكرها غائب عنها في مكان اخر وقد ظهر لي كأن اعينها المغرورة الساهية تتبع فكرًا لا اعرفه في الفضاء ثم ظهر لمرتين على شفتيها تبسمات الطيفة حزينة وهزت راسها بحركة طفيفة كما لو انها تجيب على فكر داخلي

فنزلت مايوسًا الى السيدة دي ماران وهي على الدوام محبة لذاتها لا تنظر في اعتماد اورزيل على الذهاب الا الى ما يمسها شخصيًا فصاحت بمنتهى القهر والغيظ ان منزل ماران متى ذهبت اورزيل سيقفر وانها تعودت على اهوائها ومعاملاتها ولا يمكنها ان تحتمل الان فكر الانفصال عنها لان الوحدة تخيفها ثم طلبت اليّ بلجاجة ان اضيف اجتهاداتي الى اجتهاداتها لتحويل اورزيل عن هذا العزم كما لو لم يكن ذلك رغبتي الوحيدة ثم صاحت السيدة دي ماران مع ما هو معلوم عنها من البخل الشديد انها لا تقف امام اية ضحية كانت للمحافظة على اورزيل عندها وانه اذا كان الاربعون الف فرنك التي تدفعها لي في كل سنة لا تكفي للمصروف على منزلها بما يجعله موافقًا فهي مستعدة لان تدفع اكثر من ذلك وتاتي بكلما هو ضروري ولو

اقتضى الحال ان تنفق اموالها ثم قالت ان سنيها الباقية قليلة ويمكنها ان تباشر هذا الجنون.

والمراد بهذه التفصيلات ان اظهر لك عظمة نفوذ اورزيل وكيف امكنها ان تتغلب على بخل السيدة دي ماران التي افرطت الى ذلك الحين من الانتفاع باسرافي وكانت لا تعطيني الا بتعب جزيل الاموال السنوية التي وعدتني بها لمصاريف بيتها

فصعدت معها لمقابلة اورزيل وهناك تضرعت اليها السيدة دي ماران بلجاجة واستعملت جميع ضروب الملاطفة والتمليق لاقناعها بالامتناع عن الرحيل ولكن هذه الامراة بقيت مصرة على عزمها لا تحول عنه فبكت السيدة دي ماران (السيدة دي ماران تبكي) وصاحت ان من الشقاء المخيف ان تترك امراة مسنة وحدها لعناية خدمها وانها تعترف بانها شريرة مسيئة ولها اعداء كثيرون ومتى ذهبت اورزيل لا يعود ياتي احد لمشاهدتها وان ثورة حزيران بددت العلائق القديمة التي يمكنها الاعتماد عليها ولكن هذا جميعه لم يجد فائدة وبقيت اورزيل كصخر لا يلين ولا يتحرك

وحينئذٍ اصيبت السيدة دي ماران بمنتهى الغيظ الجنوني فاوسعتها تانيبًا جارحًا وجعلت تكلمها عن سوء تصرفها ونكرانها للجميل اما اورزيل فتبسمت ولم تقل كلمة ثم سالتها كيف يمكنها المعيشة بلا دراهم فاجابت انه متبق لها نحو ثلاثين الف فرنك من مهرها وان هذا المبلغ يكفيها

فهذا هو المركز القاسي الذي طرحتني اليه الاقدار ومن الموكد لديّ بالنظر الى معرفتي التامة لاورزيل انها لا تغير شيئًا من مقاصدها الا باعجوبة وقد بارحتها منذ ساعتين ولم استطع الحصول منها على كلمة وباطلاً اجهدت فكري للوصول الى معرفة السبب الذي الجأها الى التقرر في هذا العزم الفجائي فلم انجح بذلك ولا بمعرفة اسباب الحزن والتضعضع المصابة بها منذ زمن

ثم لا يمكن ان يكون منشأ ذلك عند امراة مثلها تبكيت الضمير وقد ظننت في اول الامر انها مشغلة بحب حقيقي عميق ولا انكر اني نظرت اورزيل بملاطفة ومداعبة مع كثير من رجال جمعيتنا وكان يداخلني في الغالب شكوك لجهة امانتها ولكنني لم اجد والحق يقال في علائقها العالمية مع اشد الناس تحببًا اليها بما يضرم الغيرة الشديدة في فوادي ما يستدل منه على شيء من الحب الصادق فكانت معهم كما كانت معي غريبة مترفعة متقلبة وبلا اهتمام ولكني . . ابدًا . . ابدًا . . لم ارها كالان حزينة وباحلام كثيرة

هاك فكر خطر على بالي الان ولماذا لا يصدق ياترى ــ بربك لا تضحك ــ لماذا لا تكون احزان اورزيل المتزايدة ناشئة عن الاسف لانها تسببت بضياع نحو من نصف ثروتي ان

الفكر الذي مكنني في حبها على الدوام بالرغم عن انفتها واهوائها انما هو الاعتقاد انها تشعر من نحوي بحب حاد لا تعترف به وانها تخفي ذلك كبرًا وخوفًا من اطلاعي على مقدار نفوذه عليها ظنًا منها انها تقرر سلطانها عليّ بهذه الاساليب المترددة بين الحنو والبرود والاحتقار

لماذا ياترى لا يكون مراد اورزيل بمبارحة السيدة دي ماران فجأة بدون ان تعلمني باسباب ذلك ان تثبت لي انها تحبني وتريد الامتناع عن تلك المظاهر المشرقة التي احيطت بها الى الان . . قل لي لماذا لا يصح ذلك . . الا يمكن ان تكون هذه الامراة وقد غلبت اخيرًا بكثير من براهين الحب تغيرت اخلاقها وصارت تحتقر ذلك البذخ الذي استولى على افكارها في اول الامر . . . وهي لربما تحلم الان بحياة مظلمة سكونة في بعض زوايا فرنسا او البلاد الاجنبية البعيدة . . فاذا صح ذلك . . اذا صح ذلك اموت فرحًا ان هذه الامراة غيرت اذواقي وعوائدي فصرت ابغض العالم الذي كنت احبه ولم يبقَ لي الا هذه الرغبة الوحيدة وهي ان اقضي ايامي بجانبها في بعض اعماق العزلة المجهولة فهنالك على الاقل تكون كلها لي مع جميع دقائق حياتها

لا تخذ حديثي كغيره من الاحاديث الباطلة المبالغ فيها فقد مضى نحو من سنتين على هذه العلاقة وانا احب اورزيل بحرارة وباس اشد من حرارتي وباسي في اليوم الاول من حبها اني اعرف ذاتي جيدًا واعرف منابع افكارها الناخسة الغريبة او ليس جمالها المهيج على الاطلاق جديد على الدوام والحصول على مثل هذه الامراة كالحصول على سراي برمتها

اني صرفت شهر العسل مع امراتي ففي نحو من خمسة عشر يومًا انقضى كل شيء واصبحت الايام الباقية كاحمال لا تحتمل من الحنو الملّ بلا جاذب ولا انعطاف ولكن اه لو يصح لي ان اصرف مثل هذه الحياة مع اورزيل . . مع اورزيل لاني اجن وقتئذٍ من شدة الفرح

لا لا ما اخطات ابدًا وكل شيء وضح لديَّ الان فان اورزيل بعد ان اخفت لزمان طويل احساسأتها لم يعد يمكنها المداومة على الاخفاء ولا تلبث ان تصرح علانية بحبها لي ثم من جهة ثانية هل يمكن او هل سمع عن امراة ولو مهما كانت فاحشة ومتحجرة الفؤاد ان لا تتاثر اخيرًا بكل هذا الحب

ان الكبرياء لا تعميني وقد اعترفت لك باشياء كثيرة مشينة وصار يمكني من وجه اخر ان ارفع شاني قليلاً فاني شاب وحصلت على فوز كثير ولا ينقصني الاختبار ولا العقل وقد احبني نساء اعظم بكثير من اورزيل بالنظر الى العالم وفي اولهن امراتي وصديقتها الحصرية

الدوقة دي ريشفيل . . . . فلماذا ياترى اورزيل لا تقاسمني هذا الحب المتحرق به لا . لا عبثاً تقول انها لا تشعر بشيء من نحوي والسبب الباعث على ذلك كوني مسلوباً بحبها فهي تتكلم بمثل هذه الاقوال المتطة الغير العادية لاخماد غيظها لانها تشعر اني متسلط عليها بحبي ولا تريد ان تعترف بذلك

ولكن ما المراد ياترى بذلك اللباس الذي نظرته عندها على المقعد . . . لربما تكون اورزيل غيورة علي . . نعم . . الان تذكرت اني قلت لها منذ ايام اني ساذهب الى حفلة الرقص لنصف الصيام ولكن حوادث الامس منعتني من الذهاب ولم تعلم اورزيل بتغيير قصدي فارادت الذهاب لمراقبتي لانها تستعمل احياناً امثال هذه الاجراءات الخفية

اني مسرور كثيراً لاني كتبت اليك واحس كوني احسن واروق بالاً عند ختام هذا التحرير من حين الابتداء به وقد عاودني الامل اني كلما تاملت في هذه المسالة كلما ظهر لي هذا السكوت من اورزيل عن اسباب ذهابها من ماران بمظاهر حسنة فهي لربما تخاف التكلم لئلا اصل منه الى الاكتشاف على ضميرها فلازمت السكوت وقد نفعتها كثيراً حالة التصعضع والسهر التي تظاهرت بها

فبعد علاقة سنتين (نعم انها علاقة مكدرة غالبًا بالغيرة والبرود ولكنها متتابعة) لا يمكن ان يترك رجل بدون ان يعطي سبباً عن هذا الترك اليس كذلك ان حصول هذا العمل ولا سيما بعد الضحايا التي اجريتها يكون من اعمال الدناءة والبربرة والجنون

ثم من اجبرها اخيراً على المجيء الى باريس . . ان زوجها يحبها شديداً ولا يمتنع عن استرجاعها بعد مشهد ماران . . . . الذي فكرته في اول الامر ان مرادها الرجوع الى زوجها لان هذه الامراة غريبة . ولكن لا لعمري ان هذا مستحيل . . ويمكنني بلا كبرياء باطلة اعتبر ذاتي على الدوام افضل بكثير من الموسيو سيشرين

وقد تذكرت الان بعض الملاحظات ولم انتبه اليها في اول الامر وذلك عندما تطرفت معها في الحديث الى حد الاهانة الجارحة فانه لم يظهر عليها شيء من اشارات البغض او الغضب واورزيل كثيرة الحدة والافتخار ولا ريب انها شعرت بهذه الاهانة ولكن سبباً قديراً اجبرها على السكوت فما هذ السبب ياترى غير اهتمامها بي . . اوليس هذا الغضب الذي اظهرته برهاناً اكيداً ايضاً على فرط حبي

ثم اكرر لك القول للمرة الثانية انه لا يمكني ان اصرح بمقدار السرور الذي يشعر به قلبي بكتابتي اليك فاني بالتنقل هكذا علانية وبثقة من برهان الى برهان ومن نتيجة الى نتيجة خرجت من تاثيرات الحزن والخوف وتوصلت الى الامل اني اختم هذا التحرير بسرعة احبني بزيداً فريد

ايها الكسلان لان تحاريري الثلاثة بقوا بلا جواب ولكني لست متكدراً كثيراً لذلك لان ارائك ستكون صائبة بالاطلاع على مجموع الحوادث ان اخبارك الطويل في العالم وخلو غرضك في كل هذه الاشياء وفكرك الرائق الثابت كل ذلك يسمح لك ان تقدر جميع هذه العوارض بمقاديرها وتمدني باراء جدية ثم اخبرني بنوع خصوصي عما اذا كنت تفكر بعدالة تخميناتي الاخيرة لان هذا هو كل شيء لديّ ومستقبلي يتوقف على اعتماد اورزيل الذي اخافني كثيراً في بادىء الامر اما الان فبالعكس يتراءى لي بمظهر جميل تنبعث منه لاعيني اشعات الامل سوف تجد كوني جباناً ولكني استحلفك بالله ان لا تخيب امالي بدون ان تسند ذلك على ادلة معتبرة صريحة لاني متصلب بالمحافظة على هذا الامل الاخير . . . .

. . . .

الساعة الرابعة

اللعنة والرجس عليّ . . وعليها . . . لا بل عليها اني حصلت الان على تحرير من السيدة دي ماران وفيه ان اورزيل بارحت المنزل ولا يعلم الى اين ذهبت وقد نبهت السيدة دي ماران بتذكرة منها انها لا تعود تشاهدها الى الابد . . ان هذا لمستكر . . فما العمل يا الهي . . ما العمل . . الوداع الوداع يا الهامات فوادي . . الوداع . . الوداع يا امالي الجنونية . . الان انضح كل شيء . . ولكن لا بد ان ينتقم لي اجنبي برك اجبني . . اه ثم اه اني كثير التعاسة فيا للغيظ ويا للجحيم . . . . سينتقم لي ك دي لانكراي



الفصل السابع والخمسون

رقص تحت الحجاب

وكان هذا التحرير الذي اخبر به الموسيو لانكراي احد اصدقائه المجهولين باختفاء اورزيل الفجائي يتضمن باساليب عديدة موجعة للاشتباه تتمة اخبار ذلك الحب المشوم بين ابنة عمي وزوجي

ولم انته من قراءته الا دخل عليّ الموسيو دي روشكيم وكنت لم اشاهده بالامس لاني قضيت النهار مع بلوندو بتحولات خشوعية و بقيت مساء لوحدي عرضة لتاثيرات الميلانخولية فمد يده اليّ وقال كيف انت الان وهل انت شجيعة

قلت نعم شجيعة لاني لا اخشَّ التسليم بذاتي الى منتهى درجات الاسف الناشئ عن التفكر بصديقنا الصالح الذي فقدناه ولكني حصلت في احزاني على فكر مكدر قريب من نكران الجميل فسال وكيف ذلك

قلت فكرت ان لربما كان بكائي على الموسيو دي مورتاني آكثر من الان لو لم اعرفك

قال الموسيو دي روشكيم وانا كذلك فكرت هذا الفكر ثم فطنت اخيرًا ان حبنا ومحاماتنا عمن يحبهُ ويحامي عنهُ صديقنا لا يفيدان سياننا لذلك الصديق الامين وقد اتذكر احيانًا بحزن مقدار افتخاره وسروره بسعادتنا لو كان حيًا

قلت اه لو كان حيًا لحصلنا بهِ على اعظم نصير ياصديقي

قال وهل نحن في حاجة الى نصير او لم يحصل حبنا على قبول العالم الذي قلما يؤمن بالشعائر الطاهرة المجردة عن الغرض ثم صاح اه لو تعلمين مقدار الظرف المودع في هذه الكلمة — حبنا — لانك تحبينني يامتيلدة . . تحبينني

قلت نعم احبك . . نعم احبك واكاد اسال نفسي احيانًا باي انقلاب غريب اخلف هذا الحبُ صداقتي العميقة الوقورة لنحوك

قال اسمعي يامتيلدة . . هل تريدين رفعي الى افق السعادة

قلت تكلم . . تكلم . .

قال حسن اسالي قلبك بصوت عالٍ ودعيني اطلع اليوم وفي هذه الساعة على جميع شعائرك لنحوي من طيبة ورديئة قولي لي كل شيء بتمام الحرية ولك عليَّ ان اخاطبك ايضًا بمثل ذلك

قلت ولا احسن من هذا الفكر لاني احب كثيرًا ان اتحقق من وقت الى اخر غنانا بالحب

قال وقد يحصل عن ذلك في كل مرة ان يثبت لدينا زيادة كنوزنا وهذه هي المسرة الحقيقية لصاحب الملايين

قلت وزد على ذلك اني افكر ياصديقي ان لربما ينيرنا يومًا هذا النوع من اعتراف القلوب بالاخطار التي نحاول جهلها بالضعف والخجل الباطل . . وانت تعلم كيف يمكننا استعمال الصرامة من نحو بعضنا لدى التفكر بالضمانة الشريفة المستظل بها حبنا

قال ان القلوب المنحطة عن قلوبنا بالبسالة تاسف على هذا المركز الاسمى الذي رفعنا اليهِ يامتيلدة ولكن يوجد من المراكز ما هو اشبه بالممالك المتهددة . . . فلا يمكن التنازل عنها بلا عار وكلما اكثرنا من القتال بالدفاع عنها كلما كان قتالنا شرسًا

قلت وكلما فعلنا ذلك كلما عظمت سعادتنا ايضًا ان البرنس ديركور اخبرنا منذ مدة بامر استوجب انتباهي وسوف تقف على وجه المقابلة التي اريد استخراجها منهُ فان البرنس المذكور عهد اليهِ يومًا بمهمة من اصعب المهمات لان المراد بها وقتئذٍ المدافعة عن احسن المبادي وكان ملزومًا بالمخابرة على ذلك مع رجال من دهاة السياسة المراوغين فبدلاً من ان يسلك معهم طريق التحيل والمراوغة جرى بحسب المعتاد من اخلاقهِ الشريفة واستعمل الصدق والحرية بما ادهش الخصامة واحبط مساعيهم فحصلت ماموريته على اسعد النتائج وهكذا كان يقول لي ان سلوك الطريق المستقيم في هذه الحياة لا يكون فقط اشرف للمرء من سلوك غيره بل اربح وآمن ولربما امهر ايضًا لو امكن ان يعمل الخبر بالمهارة

قال الموسيو دي روشكيم متبسمًا هذا الذي يدعوه البرنس برقة رجال الشرف وانا من رايهِ في ذلك ولكن ارينا الان وجه المقابلة التي تريدين استخراجها من هذه المسالة

قلت امهلني قليلاً . . فمن اللازم قبل كل شيء ان انبهك اني في حاجة اليك اليوم

قال صحيح ما هذه المفاجئة اللطيفة

قلت اما في الساعة الثالثة ومرادي ان اشتري بعضًا من قطع البرونز القديمة وان انتقيها بحسب ذوقك وهذا الطقس جميل جدًا فيمكننا الخروج سوية مشاة وتعطيني ذراعك

قال ولا ابدع . . . .

قلت انتظر الى ان اكمل . . . وفي هذا المساء ساجدك ايضًا عند السيدة دي ريشفيل حيثما نتناول ثمه العشاء سوية ثم نذهب معها ومع اما والسيدة سينور والدوقة دي كرانفال وزوجها الى حفلة الطرب وبعد ذلك نعود لمناولة الشاي عندي لاني احتفل بهذا المنزل الصغير وانت وحدك تعرف هذا السر العظيم . . .

قال اعترف بخجل يا امتيلدة انهُ لم يعد يهمني الان الوقوف على وجه المقابلة المراد استخراجها من كلام البرنس الصالح

قلت ولكن يجب مع ذلك ان تسمع تتمة حديثي فاني متشوقة كثيرًا لمشاهدة تصاوير المعرض القديم وانت تتكلم عن التصوير كشاعر ويسرني كثيرًا ان ترافقني في هذه الزيارة

قال لطالما فكرت بان من اللازم ان يكون المرء عاشقًا ومعشوقًا ليشعر بجميع المحاسن المودعة بمنتخبات الصناعة والفنون لانهُ حينئذٍ يراها من خلال اشعة لا تدرك من الذهب والنور . . ولكن يلزمنا ايام كثيرة للاعجاب بكل شيء

قلت وهذا الذي اظنهُ يا صديقي لانا ستتكاسل وقتئذٍ كثيرًا اولا تراني من الان بذراع

مسند على ذراعك نقف لزمان طويل بسكرة الاعجاب امام صورة من عمل روفائل او تيتيان ان تلك الصورة بلا ريب ستكون موضوعاً لمحادثات طويلة عذبة

قال الموسيو دي روشكيم انك بافكار حساسة شديدة التاثر وقد وهبك الله من الشعائر اعظمها لمعرفة الجميل

قلت وانت ياصديقي لا اعلم باي ظرف تحسن صرف كل شيء الى مايوافق حبنا ومن الموكد لديّ انهُ لا يعصاك في المعرض ان تثبت لي بان تيتيان وفمرونيز وروفائيل لم ياتوا بمثل هذه الاعمال الفريدة الا ليجعلوا لحنونا مجالاً للتخيل

قال بلا ريب ان ثمرة الافكار الفريدة تحادث الجميع وكلا بمفرده فهي تجيب على جميع الافكار كما يجيب الرب على جميع الصلوات

قلت لا بريك شيء على الاطلاق عن تأييد رايك وساساعدك من جهة ثانية على ذالك . . اما الان فهاك وجه المقابلة المراد استخراجها من كلام البرنس ديركور فهل كان من الممكن ان نحقق كل هذه المقاصد البديعة ونعيش بلا مضايقة ولا مخاوف في هذه المواصلة السهلة المحبوبة المستديمة على ممر الايام والدقايق لو لم يكن حبنا كما هو الان ولم يسعني وقتئذٍ الامساك عن دموع السعادة فقلت اه ياصديقي يجب ان تكون امراة لتشعر بمقدار الحنو والامتنان الذي تطفح به قلوبنا لمن يعرف برقتهِ ان يعفينا من خجل الحب وتبكيت الضمير

قال ويجب ان يكون المرء محبوباً منك يامتيلدة ليعلم بوجود افراح سموية تصعد اليها النفس بتحرق الحب وملذات نقية حارة ترفع الاميال الغريزية الارضية الى منتهى التاملات الالهية السامية . . اه يامتيلدة الان صدقت بملذات اتحاد النفوس

قلت والذي يفرحني ايضاً من هذا الحب انهُ لا يطرأ عليهِ التغيير والانقلاب المشهور حصولها بالحب العادي فهو في مامن على الدوام في الحياض المرتفعة التي ينبت فيها من ان يصاب بالذبول والزوال . . فلماذا ياترى لا يدوم الى الابد

فكرر قولي الى الابد نعم يامتيلدة الى الابد تكلمت بالصواب ان حبنا مجرد عن كلما هو مشوم وقتال ولنا من الحرية الثمينة التي نتمتع بهاجزاء حسن . . اه لو تعلمين ما اسعد وما اجمل هذه الحيـاة المقضية بقربك . . بل اه لو تعلمين جميع المقاصد التي اولدها بافكاري

قلت وانا ايضاً ياصديقي لا يمكن ان تصل بالقول الى الاحاطة بمقاصدي وقد توجب لي احياناً هذه المقاصد قلق البال بالنظر الى مستقبلك

قال ان هذا المستقبل لك يامتيلدة ولا يخصني منهُ شيء اما قلقك . . . .

قلت اما قلقي فهو من قبيل الارتباك الناشيء عن زيادة كنوز الثروة فلي نحو من الف

مقصد وما كنت اعتمد على مقصد انك لا تعلم جميع القصص التي تمر على تصوراتي وانت تطلها ... ولكني اعتمدت في هذه السنة على التسوح في ايطاليا وسنباشر ذلك مع الدوقة دي ريشفيل اما البرنس والبرنسيس ديركور فسيوافياننا الى فلورانسا عند رجوعهما من كورتيز

فنظر اليَّ الموسيو دي روشكيم مندهشاً ثم قال متبسماً ما الموجب لعجبي يا ترى انك تكلمت بافكاري وهذا الذي تقولينه هو منتهى رغبتي في العالم وما من شيء في هذا العزم فوق العادة

قلت مامن شيء فوق العادة

قال نعم فقد تتولد امثال هذه المقاصد عن حاسة ضعيفة وكلما عظمت هذه الحماسة كلما انصرفت الى التصورات وصارت هذه الاميال الخفية للارادة متمردة واصولية — اصفحي ياسيدتي عن هذه الكلمة الهائلة

قلت اني اصفح لك عنها اكراماً لهذا التفصيل الذي اجريته وهو وان يكن جنونياً اعجبني كثيراً وعليه فان سفرنا الى ايطاليا ....

قال يفرح فؤادي .. الا فافكري اذن اني اطوف واياك ارض الفنون

قلت ولربما نقيم زماناً ايضاً في تلك البلاد فما قولك بشتاء نقضيه في نابولي او رومية ان الدوقة دي ريشفيل ستسر كثيراً بمثل هذه الاقامة

قال لا اقول شيئاً يامتيلدة ولا اريد شيئاً ولا افكر بشيء وهذه حياتي بين يديك فتصرفي بها كما تريدين ...

قلت فاذن نقضي الشتاء في نابولي ثم نعود من ايطاليا الى المانيا لمشاهدة شطوط الرين مزينة بجمال الربيع ولربما نبقى ايضاً اياماً في احد القصور القديمة المشرفة على ذلك النهر الجميل

قال ان هذا الفكر جاءني ايضاً فاني لدى رجوعي من رومية استاجرت قصر ارنيسبورج وهو بمركز بديع مسكر وقضيت فيه ثلاثة شهور .. ولا ريب انك ستعرفينه لانك سكنته معي زماناً طويلاً .. فما هذا المستقبل المعبود يامتيلدة .. ما هذه السعادة بالمعيشة معك بملاصقة الاسفار الحصرية وان نتبادل في كل يوم شعائر افراحنا واحلامنا واحزاننا

قلت واحزاننا

قال نعم لان رغبة ابي امكن تحقيقها اخيراً

قلت كن عاقلاً ياصديقي الا يجب بالعكس ان نشكر الرب على السعادة الغير المنتظرة

التي استنقذنا بها

قال ان هذا الحزن يامتيلدة يكون طافحًا بالنعمة وبلا تمرمر ومثالنا في ذلك كرجل بتمام السعادة والسلطان على الارض . . ولكنهُ يحلم بالسعادة السموية

قلت ولكن انظر قليلاً كيف بعدنا بكلامنا كثيرًا عما يتعلق منهُ بخصص قلوبنا ولا يمكن ان اعفيك من ذلك

قال صرحي اذن يامتيلدة ما الذي تشعرين بهِ من نحوي في هذهِ الساعة فاني صاغٍ لاقوالك بكبرياء الشاعر الذي يتلى مولفهُ على مسمع منهُ لان حبك مولفي

وبعد ان تاملت لعدة دقائق استطلعت فيها سرائر فوادي باخلاص اجبت الموسيو دي روشكيم بقولي يوجد فرق عظيم بين ما كنت اشعر بهِ من نحوك منذ زمن وما اشعر بهِ الان ولا يكفي ايضاح ذلك الا بمشابهة فمنذ هنيهة كنا نتكلم عن السفر وعن قصر جميل على شطوط الرين فانا السائحة التي تصبو افكاري بسعادة لمظهر من الطبيعة فاخر مدهش بديع يستوجب اعجابي قلت في ذاتي يالله ماالطف الحياة في وسط هذهِ الوحدة المنتعشة بمشاهد الطبيعة العظيمة حيثما كل شيء يسبيني خطوط الجبال المنتظمة ونضارة البراري الباسمة وكثافة الغياض وصفاء الماء ومشهد الابراج الشاهقة اني اعجب بذلك وهذا الاعجاب لا يخلو من التمرمر لانهُ مقرون بغيرة خفية ولكن اذا سمح النصيب بان تكون جميع هذه المفاخر لي وحصلت على اليقين بالمعيشة الى الابد في هذا النعيم فحينئذٍ يكون اعجابي مجردًا عن الشوائب وتصير هذهِ المحاسن لي فافتخر واتزين بها ويحق لي الادعاء بان هذا قصري

فصحت انت صالحة وحنونة يامتيلدة الا ليت الرب يعوضك بضمانة الحصول على هذا الملك عن الصفات الفاخرة التي تنقصة ليكون اهلاً لك

قلت ان ثقتي تامة ياصديقي ولا يمكن ابدًا ان اشعر من نحوك بشيء من الغيرة حيث من المستحيل ان يداخلك لاية امراة كانت الحاسة التي تختلج بك من نحوي

قال احلف لك اني لا اشعر من نحو غيرك لا بتلك الحاسة ولا بغيرها

قلت فلنتكلم ياصديقي بما هو ممكن وقريب الحصول فقد يوجد بين تلك النذور الازلية ما لا يمكن طلبة الا من امراة وهي وحدها دون غيرها على يقين من اتمامهِ

قال اسمعي لي يامتيلدة اني لا اريد المبالغة بشيء ولا اقتصر على التكلم باخلاص ولكني حاصل لحسن الحظ على برهان يويد كلامي

قلت صحيح

قال حقًا يامتيلدة من حينما علمت انك تحبينني لم يعد لي في العالم امراة غيرك فانت بالنظر

الى نقطة المشابهة التي ينتهي اليها الكل والكل كلا شيء لديّ وعندي البرهان على ذلك كما قلت لك وهذا البرهان لا يزال جديدًا

قلت متبسمة ما هذا البرهان اعهد اليّ سريعًا بهذا السر لارى هل يصدق قولي ولا اشعر بالغيرة

قال اول امس عند خروجي من عند الدوقة دي ريشفيل حينما قضينا السهرة سوية اتجهت الى منزلي فوجدت ثمه تذكرة محررة اليّ تقريبًا بهذه الصورة

شخص تعيس مستحق لشفقتك يتوسل اليك ان تمنحه دقيقة للمحادثة معك ولكن الظروف لا تمكنه من مقابلتك الا في هذه الليلة في حفلة الرقص في الاوبرة

ولا اعلم اي فكر جنوني مشوم خطر على راسي عند استماع هذه الكلمات من الموسيو دي روشكيم

فان الموسيو دي لانكراي في تحريره الاخير الذي قرانه شدد النكير على اورزيل بدعوى انها ذهبت سرًا الى حفلة الرقص المعتاد اجراؤها في نصف الصيام فتصورت ان ابنة عمي هي الشخص المراد بهذه الحادثة الذي يحدثني بها الموسيو دي روشكيم واخذتني الرعدة لذلك فصحت الى حفلة الرقص في الاوبرة . . اول امس

فنسب الموسيو دي رشكيم عجبي واضطرابي الى سبب اخر وقال تستغربين ذلك وهل نسيت ان ليلة الجمعة هي ليلة نصف الصيام ثم عاد الى حديثهِ فقال اني وجدت هذه المقابلة غريبة واعتمدت في اول الامر ان لا اذهب اليها ولكني ارغمت ذاتي اخيرًا على الذهاب لاني فكرت بان لربما لا يجسر ذلك التعيس على شكوى احواله اليّ الا بمناسبة حصول التخفي في تلك الحفلة وقد برح عن بالي ان اخبرك بان الشخص المذكور كان معتمدًا على انتظاري بجانب الساعة الكبيرة من نصف الليل الى الساعة الرابعة صباحًا وكان من هذا البرهان الدال على الصبر والعناد ان اثبت ظنوني فذهبت الى تلك الحفلة وبدخولي اجتمعت بالسيدة لونكبري ولم اعرفها الا بعد المحادثة معها نحوًا من ربع ساعة ثم بامراة اخرى فرحة محبة للسخر ما امكنني معرفتها ولربما كنت سررت وتفكهت كثيرًا بحديثها لو لم اكن معتقدًا بوجود من ينتظرني على مقالي الجمر ثم وصلت اخيرًا الى امام الساعة الكبيرة واذ دقت الساعة اثنتين ونصف . فحاولت التبسم لاخفاء اضطرابي وقلت للموسيو دي روشكيم وحينئذٍ

قال وحينئذٍ نظرت عند جدار الساعة امراة منتصبة وهي متخفية بثوب من الحرير الناعم الاسود راس منحنٍ على صدرها ولا ريب انها كانت مستغرقة بالتامل العميق فلم ترني واردت ان اتحقق هل هذه الامراة هي الشخص الذي يطلب مقابلتي اولا فاقتربت منها وقلت لها اذا

كنت تنتظرين احداً ياسيدتي فالذي تنتظرينه كثير السعادة والاثم

فارتعدت الامراة المذكورة ثم رفعت راسها وقالت لي بصوت متاثر فلنخرج ياسيدي من القاعة العامة بربك فلنخرج

وكان المكان مزدحماً بالناس فمضى علينا دقايق ونحن نجاهد بالخروج قبل ان نتمكن من شق الجماهير المذكورة وكان من كثرة الازدحام ان اقتربت كثيراً من هذه الامراة المجهولة بحيث امكني ان اشعر وقد اعطيتها ذراعي ان قلبها يخفق بشدة تشف عن هياج حاد

فسالته وهل كانت هذه الامراة طويلة

اجاب اطول منك بقليل يامتيلدة ممتلئة والذي ظهر لي انها بقامة بديعة فصعدنا لجانة الناس الى ممشى غرف التفرج وكانت الامراة المذكورة مضطربة بكليتها فعرضت عليها الجلوس ولكنها ابت وصاحت بصوت متاثر وهي تشد على ذراعي برعشة عصابية . . لا . . لا . . فهذه هي المرة الاولى التي امكني الاتكاء بها على ذراعك الشريف وستكون الاخيرة ايضاً . . فلنتمشى بربك فلنتمشى

فصحت ولكن اخبرني اخيراً ما الذي قالته لك هذه الامراة واي شيء كان مرادها

قال ان تحدثني عنك

قلت عني

قال نعم وبمنتهى الاعجاب

وكان قد داخلني الاعتقاد ان هذه الامراة الخفية هي اورزيل فصحت وهل كان مرادها ان تحدثك عني انا . . انا . .

قال نعم عنك انت يامتيلدة وقد تكلمت باساليب حسدتها عليها فابداً . ابداً لم يمدح عقلك وقلبك وصابك بمثل هذه الفصاحة الموثرة اني ثملت بالمسرة عند استماع هذه الامراة المجهولة وسلب عقلي بالاعجاب والتحرق الذي تكلمت به عن حبنا وسعادتنا . فمن اللازم يامتيلدة ان تكون هذه الامراة من اللواتي يشعرن بمثل هذه الاحساسات السامية حتى استطاعت ادراكها

قلت هل تظن ذلك ياصديقي

قال ولا اشك بوفا الذي اقوله لك يا ترى انه من حينما بدا الحديث متفيئاً بجلال اسمك وانا لا اريد الوصول الى نهايته . فابداً . ابداً . . لم اصادف فكراً احد واسرع وامضى من فكر هذه الامراة لانها اظهرت اولاً اعجابها بحبنا ثم انتقلت الى التكلم عن حساده بالتهكمات الجارحة فالان اما ان اكون متهوراً بالغش المفرط واما ان تكون هذه الامراة بصفات نادرة لان ذلك

الصوت الذي تكلم بلهجة عذبة موثرة عن حبنا استحال فجأة بنوع من المباينة الغريبة الى العظمة والخشونة عند التكلم عن اعدائنا وحسادنا اني لا انسى الى الابد الاقوال التي وصفت بها زوجك وابنة عمك الجهنمية

فصحت وهل كلمتك عن اورزيل اذن

قال نعم كلمتني عنها طويلاً بمنتهى الغيظ والاحتقار وذبحتها مع زوجك بلا شفقة ولربما جارت بالمطاعن على ابنة عمك باكثر من زوجك وتراءى لي كأن الامراة المذكورة تتهيج بنوع من الفرح الخشن عند القدح بتصرفات اورزيل المشينة ثم اغلظت الطعن ايضاً بالسيدة دي ماران وكل ذلك بتحمس وجلاء واقتدار موجب للحيرة بحيث لو حصل ذلك في غير هذا الوقت يامتيلدة لسلب عقلي بهذه الامراة المجهولة وصرت مجنوناً من ذلك الفكر الجسور الجارح عندما يراد الطعن بالرذيلة والدناءة والملو بالظرف والحاسة عند المدح بكل ما هو شريف وجميل فهذه المباينات الممتازة في هذه الامراة اوجبت انتباه افكاري شديداً في الحال ولكنها تركتني بعدئذٍ في حال من الفضول وعدم الاكتراث واعيد لك القول باني لو كنت في غير هذا الوقت لما اهملت شيئاً للاطلاع على حقيقة اخلاق هذه المخلوقة الخفية اما الان فلا يهمني ذلك والاسباب بسيطة يامتيلدة فان كل شيء سواك لا يميل اليهِ فوادي فقد صيرتني صعباً وطهرت بل الهت اذا امكن ايراد هذا التعبير ذوقي وقلبي فانا الان كاولئك المتعبدين للفنون الذين لا يحولون اعينهم عن الرسوم العظيمة المنقولة الينا من الاقدمين فمتى وصل المرء الى عبادة البديع ونعود على مشاهدة صفائهِ الوقور وتعشق عظمته وبساطتهِ فحينئذٍ يسئم ويتكره من كل شيء خلاف ذلك الموضوع الوحيد الفاخر المنصرفة اليهِ افكاره فانظري يامتيلده الست محقاً بقولي ان كل شيء سواك عدم لديَّ . . .

قلت وهل تظن ان هذه الامراة شابة وجميلة

قال لا اعلم اذا كانت جميلة او لا ولكنها شابة فان عذوبة حديثها ورشاقة قامتها وخفة خطواتها كل ذلك يحملني على الظن بشبوبيتها ثم راجع ذاتهُ فجأة وقال ما هذا الذي قلتهُ فهي شابة ولا اشك بذلك اني نسيت كوني شاهدت يدها معراة ولو لم ارَ يدك لقلت انها اظرف يد في العالم

فسالت وكيف انتهت هذه المحادثة . وما هذا الذي تريده اخيراً هذه الامراة

قال الحصول على محادثتي وان تحكم بنفسها عما اذا كانت الاقوال التي تذاع عني صحيحة او لا . . . وتصرح لي بما لتمنيات التي تجريها لسعادتنا ثم . . . . وهنا قاطع حديثهُ وقال لكنك ستسخرين مني ومن هذه الامراة المجهولة . . . ويحق لك ان تسخري . . .

فصحت قل . . قل . . بربك قل

قال اعلمي قبل كل شيء يامتيلدة اني فوجئت منها بذلك وحرمة شرفي اني كنت لا انتظر ان يصدر عنها مثل هذا البرهان الغريب على اعجابها

قلت اوكد لك ياصديقي اني لا اسخر منك فصرح بحقك صرح

قال ان هذه الامراة الغريبة عندما ارادت الذهاب مدت يدها اليّ بتودد كثير فقبضت عليها وحينئذٍ . . . . حقًا ان التصريح بهذه الخذعبيلات يستوجب الضحك باكثر من ارتكابها

قلت اريد ان اعرف كل شيء

قال استعدي اذن للضحك . . ثم عاد الى حديثهِ فقال وحينئذٍ رفعت تلك الامراة يدي الى شفتيها من تحت الحجاب بظاهر عظيمة من الخضوع والخوف والتعشق بما ادهشني وحير افكاري وكانت براس منحنٍ فانحدرت دمعة من عينها على يدي ثم اختفت فجأة بين الجموع . . . .

. . . .

فاجلت تجة واهية الذهاب للتنزه مع الموسيو دي روشكيم الى ما بعد الغد وبقيت وحدي

الفصل الثامن والخمسون

التنبه

وهممت مرارًا ان اصرح للموسيو دي روشكيم من هي هذه الامراة الخفية التي صادفها في الاوبرة ولكني خفت التصرف بخفة واردت ان ابقي لي وقتًا للتامل

وكنت اعرف قلب وطباع الموسيو دي روشكيم وانهُ يبغض اورزبل ويحتقرها ولكن هذه الامراة بظاهر غرارة قديرة . . . ولي على ذلك براهين مشومة وقد احسنت الانتفاع بالتفرغ لمدحي امامهُ بمهارة وكان من ذلك ان سمع لها الموسيو دي روشكيم بسرة وعجبته واهتم بها وحركت فضولهُ بحرارة وجذبتهُ اليها وما كنت على يقين من زوال كل هذه الآثار

باخباره ان هذه الامراة هي ابنة عمي ففضلت الاخفاء وقلت لربما ينسى بالسكوت هذه المواجهــة الخفية

ولا يخفى ان الموسيو دي لانكراي تكلم في تحريره المرسل الى صديقه المجهول عن الحزن المثقل على اورزيل منذ زمن والتغيرات الغير العادية التي طرأت على معيشة هذه الامراة فانها اعتمدت وكانت حياتها الى ذلك الحين بالخفة وخلو ابال على ترك منزل ماران الساطع الفرح وحققت با لعمل ذلك الاعتماد وعند المقابلة بين هذه الاخبار وحادثة الرقص في الاوبرة تسالت عما اذا كانت اورزيل وهي لا تعرف الموسيو دي روشكيم الا بالنظر لم يستولى عليها حب هذا الرجل

وتذكرت تلك الفقرة من تحريرها الوقح لزوجي وهي تصور له بفصاحة محرقة الحب الذي لربما تشعر به يومًا للرجل الذي يسودها باستبداد

وخلاصة الامر ان هذه الامراة كانت قد جرحتني وضرتني بمودات كثيرة عزيزة فهلا يمكن ياترى ان تستمر على حقدها وتحاول العود الى جرحي ومضرتي ايضًا بامور جديدة وكنت لا اشك بالموسيو دي روشكيم ولست ممن يظهر العجز باقناع باطل . . ولكني مع ذلك نبهني قلبي بابهام الى قرب حصول مصاب جديد او ضربة غير منتظرة ولم يخطني فكري لان ذلك المصاب حصل وتلك الضربة اصابتني اذا لم نقل من اورزيل فعلى الاقل بنفوذها كأن من اللازم ان يكون هذا النفوذ مشومًا عليّ الى الابد

والذي بقي عليّ الاعتراف به انما هو شرح دقيق لنوع من سرائر النفس المتناقضة وقد اقتضى لي السوال من تذكراتي طويلاً للوقوف على هذه الخيوط الدقيقة الموصلة الى اهم عوارض حيــاتي المولمة

اني اليت على نفسي ان اصرح بكل شيء من ضعف مخجل وخطاء مشين وان لا اتوقف امام اية الاقرارات والشروحات ولو مهما كانت مكدرة وغريبة

فهل يعرف القاري ياترى ما الذي استجلب انتباهي باكثر من كل شيء من مواجهة اورزيل للموسيو دي روشكيم هل يعرف ما الذي جعلني ان اشعر باضطراب عميق مجهول . هل يعرف ما الذي استولى على جميع افكاري وضعضع حواسي فجأة هل يعرف اخيرًا ما الذي نشأ عنه الاحمرار الاول الذي تصاعد الى وجهي والخجل الاول الذي الم بقلبي وجعلني اشك بنفسي وشجاعتي وفضيلتي وحقوقي بالحصول على الاعتبار الاسمى المحاطة به هل يعرف ذلك ياترى

ان السبب الباعث على كل هذه الشعائر المولمة انما هو القبلة التي افرغتها اورزيل على يد

الموسيو دي روشكيم . . .

ومن المعلوم الذي لا تخفاني معرفته ان ذلك جنون بل شقاوة لاني في هذه الدقيقة ايضاً التي اكتب بها هذه الاسطر في الوحدة اخفض اعيني كما لو كان قلقي وخجلي على مشهد من جميع الناس

نعم عندما اخبرني الموسيو دي روشكيم بهذه القبلة احمرت خدودي وشعرت كاني اصبت بصدمة كهربائية واستولى عليّ اضطراب مجهول بمزيد الحدة والالم تاتي لي عنه رعشة الغضب فتراكض الدم الى قلبي رغماً عني وبقيت اعيني جامدة تنظر الى يده كما لو انها تبحث فيها بمزيد العذاب على اثر هذه القبلة الملتهبة واذ ذاك لاحظت للمرة الاولى او بالحري سرني ان الاحظ ان يده بجمال اتم وشعرت باحساسات الغيرة القاسية التي لا اجسر ان اتصور مصدرها ولا نتائجها

ان هذه الاحساسات ولو مهما كانت صبيانية اخافتني حيث لو كان حبي كما يظهر نقياً صافياً لما اكترثت بهذه القبلة . . . نعم لا يبعد ان تغيظني هذه الوقاحة من اورزيل ولكن لا يمكن ابداً ان تسبب لي هذا الاضطراب

وا اسفي اني لا اريد القول بذلك ان لولا هذه المواجهة بين الموسيو دي روشكيم واورزيل لامكني النجاة الى الابد من هذه الشعائر

ولربما لم يحصل شيء وقتئذٍ من غير تقريب تلك الساعة المشومة التي يجب ان اعرف فيها بطلان مقاصدي الشريفة وضعف اخلاقي واقتدار الحب الاثيم . . . ولكني احلف بكل ما تحملته ان هذا الاكتشاف كان قاسياً بالنظر اليّ والذين عولوا بكبر لزمان طويل على انفسهم وسمو مبادئهم ورفعوها الى ما فوق المبادىء العامة اولئك يعلمون مقدار حزني

اني لم اغش وقد كفتني هذه التاثيرات لانارتي فجأة بمعرفة حبي كما تكفي شرارة لاشعال الحريق فماذا تكون حياتي ياترى من الان وصاعداً

فعلى فرض اني شجيعة لمقاومة هذا الانعطاف الذي تحول الى انعطاف اثيم فكم يكلفني ذلك من العراك والاوجاع الخفية والدموع المحرقة المخجلة المفترسة بالسكوت . واي عذاب دائم يتأتى لي وقتئذٍ عن هذه المودة التي اخلصتها للموسيو دي روشكيم بسهولة الى الان . . . ثم يا للقهر ان يسهر . . يسهر . . بلا انقطاع على هذا السر التعيس الذي يكفي لافتضاحه خيانة الصوت او النظر وان تذبل وتضنى بالخوف وان تحرس تلك المودة التي بقيت الى الان وثيقة طاهرة مقدسة . . . ولا ريب لتتمة التمرمر اني انا البادية بتدنيس هذا الحب بالفكر . . ولربما احمل الناس على الاشتباه بها ايضاً ثم صحت لا . . لا . . ابداً . . ابداً . . فالموت افضل لديّ كثيراً من

هذه المذلة . . . .

ثم على فرض اني تعيسة ولا يمكني المقاومة وكبوت في مجال العراك فلا ريب ان زوجي يكون وقتئذٍ محقًا بتركي واكون قد جرت بسفالة على اشد الحمايات احترامًا فان اصدقائي عندما راوني وحدي متروكة مسحوقة باليأس ومعرضة لاشأم الوشايات المشينة تراكضوا نحوي ومدوا اليَّ ايديهم بكرامة ودافعوا عني واحاطوا بي بالعناية والاخلاص ونظروا بعين الشفقة الى مصائبي الماضية ثم شاهدوا ميلي لرجل يستحقني فقالوا لي انك تحملت كثيرًا ومزق فؤادك ولكن تشجعي ولا تقطعي املك من الايام الحسنة فامراة مثلك محرومة من المودة منذ زمن طويل لا تكفيها الصداقة الحنونة التي نعاملك بها وستشغل حياتك بحماسة احد تكون طاهرة نقية بما يعادل حرارتها اما نثق بك وبالرجل الذي يحبك تمام الثقة ومن اجل هذا نتخذ بافتخار ذلك الحب الشريف تحت حمايتنا . . . وانا . . انا الغير المستحقة لهذا الدور الذي لربما يكون وحيدًا في العالم اتطرف بالفحش والدناءة الى حد ان اتلاعب بتلك الثقة السامية وارتكب الجبن والنذالة بان اخفي حبي الاثيم وراء هذه الضمانات العظيمة

اه يا الهي الا يكون ذلك عبارة عن انحطاطي كثيرًا عن اورريل بالفحش والسفالة لان اورزيل على الاقل متمسكة بشجاعة هفواتها المخيفة نعم انها تدوس باقدامها شرائع العالم ولكنها تصادم وجهًا لوجه احتقارات العالم اما انا فافر منها بالخبث والرياء المستنكر ثم صحت مكررًا قولي لا . . لا ان الموت خير لديَّ من هذا الانحطاط والدناءة

فهذا هو المستقبل الذي بسطهُ امامي فكر وحيد محرق انقض على تصوراتي بسرعة كالصاعقة

وفي اول الامر تهيجت من هذه الافكار واردت طردها عني ولكنها عادت بلا انقطاع وبوطأة اشد وكان لا يمكني الامتناع عن التفكر بهيئة الموسيو دي روشكيم ومحاسن شخصه وكنت قبلاً لا التفت الى تلك المحاسن ولا اعجب الا باخلاقهِ وصفاتهِ العظيمة

ولست اعلم الى الان كيف ان هذا العرض الطفيف الذي اخبرت بهِ اوجد فيَّ كل هذا الاختباط والتضعضع فلا ريب اني كنت حاصلة بلا علمي منذ زمن طويل على جزوع هذه الافكار وكانت لا تنتظر للظهور الا مجي وقت النمو . . .

انهُ لا يمكني التصريح بمقدار الخوف الذي يلم بي لدى التامل بالمستقبل وبافتراضاتي المظلمة ومخاوفي المبهمة ومن اللازم ان اعترف بكل شيء فوا اسفي اني تاسفت في حالة اليأس لما اني رفعت في الافكار العامة الى مثل هذا المقام الاسمى حيث لا يمكني السقوط منهُ الا وتعتبر جريمتي مضاعفة

نعم وددت احياناً لو اكون بمصاف غيري من عموم الناس اذ لو حنثت وقتئذٍ بواجباتي لما امكن ان يعاملني العالم بشدة وصرامة لا يعامل بها غيري من النساء الكثيرات بل لربما صفح لي ايضاً تصرف زوجي المستنكر ثم قلت في ذاتي ما العمل ما العمل هل افر واترك من احبة . . . ولكن هذا يعيدني الى الوحدة والدموع واليأس . فابداً . . ابداً لا ارضى بذلك لاني تعبت من الاوجاع . . ثم كيف يمكني ان اترك اصدقاء طيبين مخلصين بل كيف يمكني ان اتركه هو . . لاني احبه . . احبه واشعر ان حبي له بتعشق وعبادة

فوا اسفي هل كان هذا الحب اذن من انواع الحب الذي تكشف الاحزان الاولى عن سعة اقتداره القاهر . . . ففي المرة الاولى الذي شعرت به كلفني دموعاً وعرفت كونه عظيماً .

. . . .

وكنت انتظر بقلق مولم حلول الساعة المناسبة لان اتحقق هل اضطرابي موسس على اسس راهنة وقلت لربما تكون تصوراتي قد بالغت كثيراً في تحديد شعائري فاذا لم انتبه لدى مشاهدة الموسيو دي روشكيم مرة ثانية الى حصول شيء من التغيير في تاثيراتي فلا ريب وقتئذٍ بلزوم الرجوع الى الطمانينة

وفي نحو الساعة السادسة صعدت الى عند السيدة دي ريشفيل وكنا متفقين على مناولة العشاء مع الموسيو دي روشكيم عندها ثم الذهاب بعدئذٍ الى حفلة الطرب فقالت الدوقة اخبريني هل ذهبت يا عزيزتي متيلدة بهذا النهار الجميل البارد لمشترى لوازمك وما هو راي الموسيو دي روشكيم بقطع البرونز القديمة فهو خبير جداً بمثل هذه الفنون ولي ثقة عمياء بذوقه

وعند ذلك شعرت للمرة الاولى اني احمررت لدى التكلم عنه ولكني حاولت الجواب بصوت ثابت وقلت لم ابارح المنزل لاني شعرت بقليل من وجع الراس

فتبسمت الدوقة دي ريشفيل ثم اشارت اليَّ باصبعها اشارت التهديد وقالت اه من الكسلانة انها نسيت ذاتها في احدى قراني بيتها الدافئة تحادث مع صديقها ولم تهتم بالبرونز فصحت لا . . لا . . صدقيني اني . . . .

اما الدوقة دي ريشفيل فقاطعت حديثي وقالت الحق معك والكلام بيننا فمن الصعب الكثير على المرء الانقطاع عن محادثة حنونة بهجة . . ولكن آمل ان لا تكوني ابقيته عندك طويلاً . . . لان حفلة الطرب ستبدأ باغنية ينهوفن ويهمني الذهاب باكراً لاستماعها

قلت ان الموسيو دي روشكيم تركني باكراً جداً

قالت لا بد له اذن من اشغال مهمة خطيرة حتى ذهب قبل الاوان ولم يقض معك كعادته

بقية الصباح . . حقاً ياعزيزتي متيلدة اني اظن احياناً كوني احلم لدى التفكر بوجود مثل هذه الصداقة الحصرية بين امرأة في العشرين من العمر ورجل في الثلاثين ولا يتجاسر الوشاة على التلفظ بكلمة لان العالم حاصل على هذه المزية الحسنى وهي الاحتفاء بكل جديد ولهذا فلا اظن ان المقتدين بكما يحصلون على نصيبكما من السعادة وزد على ذلك فمن الصعب الكثير ايجاد شخصين مستجمعين لجميع الضمانات التي يمكنك انت والموسيو دي روشكيم ان تدفعابها عنكما الوشايات العاديـة

فهذه الكلمات من السيدة دي ريشفيل التي لو قيلت لي صباحاً لاستوجبت مسرتي كالعادة اربكتني فاحمر وجهي لكن الدوقة دي ريشميل غيرت لحسن الحظ موضوع الحديث ولم تنتبه الى شيء من اضطرابي فقالت ان رجال القلب والشرف قليلون جداً ولا يمكنني الامتناع عن التامل بذلك عندما افكر بان اما لا بد من زواجها يوماً

قلت وما الذي يخيفك ياصديقتي بل ما الذي ينقصها لايجاد رجل يستحقها

قالت اذا لم تعمني المحبة الوالدية تكون ابنتي كاملة ولا ينقصها شيء على الاطلاق ولكن وا اسفي ياعزيزتي هل يكفي الانسان كونه مستحقاً للحصول على مرغوبه

قلت الا افكري اذن بمقدار جمالها والمحاسن البديعة المتزينة بها

فتنهدت الدوقة وقالت نعم ولكن ولادتها . . والذي يخفني اني ساجبر بلا ريب على تزويجها برجل اقل منزلة من طبقتنا وهذا الخوف ليس مصدره الكبر بل الحنو حيث يوجد في الطبقة العليـا من العالم نحو الف من اساليب الرقة واللطف في المعيشة يندر وجودها كثيراً بين الطبقات الثانية من الناس واما كلما انتشرت اخلاقها كلما استحـال عليها ان تحتمل بعض الاساليب والمعـاملات ويسوءني تقريباً انها حاصلة على مثل هذه الاحساسات المتناهية بالتاثر . . وحيث قد باشرنا الكلام عن هذه السيدة فمن اللازم ان اصرح لك بشيء لم اكلمك به الى الان

فنظرت الى السيدة دي ريشميل بتعجب فقالت لربما اكون مخطية لان الملاحظة التي ابديتها لم تستجلب انتباهك وهي تهمك وحدك بنوع خصوصي

فصحت انا اوضحي اذن

فعاودت الدوقة دي ريشفيل التكلم بتردد طفيف وقالت الم تلاحظي منذ زمان دخول بعض التغيير على تصرفات امامن نحوك

قلت لا لا ابداً . . او بالحري نعم . . . نعم تظهر لي انها ضاعفت من معاملتي بمزيد العناية والملاحظة وقد سهي عن بالي ان اخبرك بعمل صبياني يثبت منه مقدار ودادها وحنوها فمنذ

عشرة ايام وجدتها مستغرقة بالاحلام كما ترينها غالبًا اليوم فسالتها بماذا تفكرين يا اما اجابت ان أُسمي متيلدة مثلك قلت ولماهذا الفكر اليس اسم اما بديعًا اجابت بلى ولكني افضل عليهِ اسم متيلدة قلت ولاي سبب يا ترى قالت افضلهُ لانهُ اسمك والذي اعتقد بهِ حقيقة ان هذه الفتاة تشعر فعلاً بما صرحت بهِ لان هذه النفس الملاكية ما كذبت ابدًا في حياتها ولا سبق لها ان ترددت باخلاصها

قالت الحق معك يامتيلدة لاني اختبرتها جيدًا فحرية الفكر لديها اختيارية وبلا ارادة وقد كشف لي ذلك عن كثيرمن امورها الظاهرية اذ قلما تحسن التصنع فهي في حاجة كبرى لانفراج القلب تكشف عن افكارها بحالما تخطرعلى بالها بدون ان تعرف الغاية المصوبة اليهـا وخلاصة القول ان شعائر هذه الفتاة كما يقال علانية ولكن يفوتها في الغالب معرفة السبب والغرض من هذه الشعائر وقد اخشى احيانًا ان تكون هذه الحالة الغريبة عن ضعف في قواها العقلية

قلت هل يمكن ان يصدق ذلك عن اما التي طالما ادهشتك انت واصدقاك بسهولة فهمها العجيب لكل شيء وظرف اجوبتها البديعة لا لعمري ان النفوس الطاهرة الملاكية الطيبة السليمة هي التي يمكنها ان تكشف عن جميع تاثيراتها لان ضميرها يقول لها ان هذه التاثيرات لا يمكن ان تكون الا كريمة وشريفة ثم سالتها الا تجدين بالعكس كثيرًا من العظمة بشخص لا يتنازل الغالب الى السوال عن سبب وغاية افكاره

قالت الدوقة الحق معك لقد طمنت فوادي فانت تحبينها كشقيقة وهذه البنية المسكينة تحبك بمثل هذه الشعائر انهُ لا يمكنك ان تحيطي علمًا بمقدار تعبدها لك فقد توسلت الى ان اصرح لها الاقتداء بك بان تقنع نفسها وتجعل مقنعتها كمقنعتك ولم اعجب لذلك لان مقنعتك بمنتهى الظرف والمناسبة ثم طلبت اليَّ ايضًا ان تلبس مثالك بما في الامكان

فصحت واعزيزتي اما انها تحبني كثيرًا لانك عودتها على المبالغة شديدًا بما تدعينهُ صفاتي الممتازة وهي تظن بالنظر الى سذاجتها انها لا تقدر على اثبات مزيد اعجابها بي الا بالاقتداء

قالت لربما تكونين مصيبة ياعزيزتي متيلدة ولكن يوجد شيء استجلب انتباهي . . وهو . . . .

وعند ذلك دخلت اما الى القاعة فاشارت الى الدوقة دي ريشفيل ان ابقى صاغية

— - - - -

الفصل التاسع والخمسون

حفلة الطرب

فاقتربت اما من السيدة دي ريشفيل فقبلتها من جبهتها ثم بعد اذ عانقت الفتاة امها كعادتها جاءت اليّ ولكنها وقفت بغتة كما لو انها اصيبت بفكر فجائي وتلون وجهها البديع وعنقها المرمري بحمرة الورد وحولت اليّ برهة اعينها الوسيعة بمعنى لا يدرك ثم اخفضتها تحت اهدابها الطويلة وتزايد احمرار وجهها

فاشارت اليّ امها بمعنى ان انظري اما

اما اما فبعد برهة من السكوت وضعت يديها على قلبها وقالت بلهجة صافية بديعة يا لله كيف يخفق قلبي شديداً ثم نظرت الى امها وقالت لا اعلم لماذا لا يمكني الان الا ان احمر لدى مشاهدة السيدة دي لانكراي واحس كوني متاثرة الى حد ان اتردد لبرهة قبل معانقتها

وظهر لنا كانها تغلبت وقتئذٍ على مقاومة داخلية عنيفة يستدل عليها من ملامح وجهها المنقبض فرمت بذاتها على عنقي وقالت بظرف مسكر زال العرض والحمد لله . . . ولكنه المني برهة

فارسلت اليّ الدوقة دي ريشفيل نظرة ثانية ثم سالت اما بماذا تشعرين يابنيتي وما هذا الاضطراب

فاحنت الفتاة راسها بهيئة الطهارة الملائكية وقالت لا اعلم فقد اصل فرحة ولكني اشعر للحال عند مشهد السيدة دي لانكراي ان قلبي يخفق وينقبض بتالم على ان هذا الاثر والحمد لله يزول سريعاً وتعود اليّ السعادة بمعانقتها وهنا عاودت معانقتي مرة ثانية فشددت على يديها بين يديّ وقلت كم مضى عليك وانت تشعرين بذلك يابنيتي العزيزة

اجابت لا اعلم اني شعرت بهِ تدريجاً ومن الامور التي لا افهمها ان متاعبي ومسرتي بازدياد دائم في كل يوم ثم زادت على ذلك بمظهر المستفهم لا لعمري ان ما اشعر بهِ بعد التعب المتسبب لي عن وجودك اكثر من مسرة

فبادرت امها بمزيد الاهتمام الى السؤال منها عن ذلك وقالت ما هذا الذي تشعرين بهِ اذن

اجابت بتردد اشعر كما لو اني معتقدة بعمل حسب اجريته . . او كأني انتصرت على فكر شرير

قلت ولكن ما هذا الفكر الشرير يا ترى

اجابت لا اعلم واظن اني ما حصلت عليه مطلقًا ولكن يتراى لي انه مضر

فتبادلت بيني وبين الدوقة دي ريشفيل النظرات بسكوت ثم اخبرنا بحضور السيدة دي سينور والدوق والدوقة دي كراندفال فدارت المحادثة العمومية ولم يعد ينقصنا الا الموسيو دي روشكيم ولكنه ما لبث ان حضر سريعًا وبعد ان سلم بالايدي على الدوقة دي ريشفيل تقدم لنحوي فكانت افكاري الاولى عن غير ارادة مني وخلافًا لعوائدي ان ارفض اليد التي مدها اليَّ ولكني نظرت عجبة فسارعت الى التسليم عليه ماليد التي حاولت منعها عنه ولا اعلم هل وجدها ملتهبة او مجلدة وهل انتبه الى احمراري ورعشتي وهل ادرك قوة الاضطراب المتعذب به جسدي وقتئذٍ ولكني اعلم فقط انه ابقى يدي في يده نحوًا من ثانية زيادة على المألوف فسحبتها فجأة منه اما هو فقال لي باهتمام كيف انت اليوم . . وهل زال وجع راسك

قلت اشكرك كثيرًا على هذه العناية يا سيدي اني ما زلت اتوجع قليلاً

فتجدد عجب الموسيو دي روشكيم بهذا الجواب لان معاملتي مع هذا الرجل المجردة عن التكليف كانت لا تخفى على احد من جمعيتنا عند السيدة دي ريشفيل فكنت لا اخاطبه ابدًا بهذه اللفظة يا سيدي وهو ايضًا لا يقول لي يا سيدتي وكانت هذه هي المرة الاولى التي ارتبكت بها عند مخاطبة الموسيو دي روشكيم واحجمت عن استعمال الالفاظ الدالة على وحدة الحال ووجود العلائق الحصرية ثم اخبرت الدوقة بتهيئة الطعام فمد الموسيو دي كراندفال ذراعه الى السيدة دي ريشفيل لانه اكبر سنًا من الموسيو دي روشكيم وقدم الموسيو دي روشكيم ذراعه اليَّ فقلت له بصوت منخفض ولهجة لا تخلو من التوبيخ والسيدة دي سينور وكان الوقت وقتئذٍ قد فات لان السيدة دي سينور تقدمت امامنا وقبضت بتهلل ذراع اما

فالان عندما اتذكر كل هذه الاعمال واحدة فواحدة او بالحري كل هذه الاقرارات الغير الارداية لا يمكنني الا ان اعزوها لقلقي الشديد وتجردي التام عن صفات التمويه والاخفاء فكنت لا اعتقد اني اثيمة ولكني فقدت راحة ضميري وصرت انكره من التمتع بالامتيازات التي احسست وقتئذٍ اني لا استحقها

ولو لم يقنعني التامل باعمال الطيش التي ابديتها لكفتني ملامح وجه الموسيو دي روشكيم ولهجة صوته (وكان جالسًا بجانبي على المائدة) لتنبيه افكاري الى ذلك فانه قال لي بصوت

عذب حنون اه يا الهي ما الذي اصابك منذ هنيهة

فرجعت بهذه الالفاظ الى نفسي وعلمت وقتئذٍ للمرة الاولى من حياتي بضرورة التمويه فسلمت اموري لاحكام الصدف وتركت للتقادير تحقيق جوابي وقلت لم يصبني شيء فهذا امر صباني وساشرحهُ لك واحس بقليل من وجع الراس ولا يلبث ان يزول

فاطمأَن الموسيو دي روشكيم بهذه الكلمات واشترك بالحادثة العمومية بحرارته العادية

اما انا فتما لكت روعي تماماً ومن الغريب اني صادفت مرارًا عديدة نظرا اما متجهاً نحوي كانهُ يحاول ان ينفذ الى اعماق افكاري ففي اول الامر قابلت ذلك النظر بالتبسم ولكن هيئتها بقيت غير متاثرة كما لو كانت ملبسة بالرخام وشخصت بنظرها شديدًا حتى شعرت اخيرًا انهُ يزعجني وصرت اتجنبهُ

ثم عاودني الضعف والوجل لاني ظننت بجنون ان اما ادركت الافكار التي تهيجني ولكني ترفعت بمجاهدة جديدة الى ما فوق هذه المشاغل واخلف هذه المجاهدة والاغتصاب لا اعلم اي انجذاب ما قدرت على مقاومتهِ وبدلاً من ان يجلني الاضطراب الذي داخلني بجانب الموسيو دي روشكيم سلمت ذاتي اليهِ بعناية وشعرت ان خدودي متاثرة بحرارة طفيفة ثم اضمحل بتحرسي تمام الاضمحلال وانطلق لساني بالحديث واظهرت السيدة دي ريشفيل وبقية اصدقائي عجبهم غير مرة من تلك المسرة التي اظهرتها واوجبت عجبي انا ايضاً

وكان العشاء مسرًّا فسرنا من بعده على عجل الى حفلة الطرب وفي هذه المرة قبلت ببسالة ذراع الموسيو دي روشكيم فاني قطعت بعزمي واردت ان اجري عملاً فاصلاً في مدة هذه السهرة التي ساقضيها بجانب الموسيو دي روشكيم فلا اغير شيئاً من عوائدي بالنظر الى معاملات رفع الكلفة الجارية فيما بيننا ولا امتنع عن شيء من التاثيرات الجديدة التي يمكن ان تداخلني بجانبه حتى اذا تاكدت كون مخاوفي موسسة على الحقايق لجأت ببسالة الى التمسك بعزم قطعي

ثم وصلنا الى حفلة الطرب وتصادف جلوسي في الصف الاول بين السيدة دي ريشفيل والسيدة دي كراندفال اما رجال جمعيتنا فكانوا جلوساً من خلفنا

ولا اعلم هل اضطراباتي التي قاومتها والتهييج العصبي الذي الم بي وقتئذٍ هما اللذان دفعاني الى المسرة اكثر من السابق بملذات الموسيقى فاني شعرت بلذة لا توصف ونفسي التاملة غرقت بين امواج الطرب التي اغانتني عن الوجود

واذكر بنوع خصوصي دقيقة اجتمع بها كل شيء لزيادة تهيجي فان روبيني كان يغني بلذة اغنية مطربة فقبضت الدوقة دي ريشفيل عن غير ارادة منها وذلك لمزيد اعجابها وطربها على يدي وقالت اه يا الهي ما اسمى هذه النغم

وكان الموسيو دي روشكيم جالسًا ورائي وقد تقدم قليلاً لاستماع روبيني وانفاسه اللطيفة تمر على كتفي العاري ثم تتلاعب بحلقات شعري فاحس كونها ترتعش . . وزد على ذلك اني كنت استنشق عند استماع هذه الاغاني المعبودة المحرقة بالعشق باقة من الورد اعطيت اليَّ من يد عزيزة وهي براحة عطرية شديدة

فابدًا ابدًا لا انسى مدى حياتي تلك الدقيقة التي تكاملت بها سعادتي فكنت حاصلة على افضل صديقة بجانبي وعلى مقربة مني الرجل الذي احبهُ والاصوات المسرة تهزني طربًا وقد سكرت بالروائح العطرية المعطاة لي من محبوب . . اليس هذا هو عبارة عن اشتراك جميع الحواس بسكرة الملذات

وعدت ان اصرح بكل شيء ولا يمكنني الا ان اقول اني بوعدي اني عرفت وقتئذٍ بنوع من العذاب الملذ اني لم اشعر من قبل بمثل ذلك فابدًا . . ابدًا لم يهيجني حضور الموسيو دي روشكيم ولم يوثر بي بمثل هذه الحرارة واللذة ثم عرفت اخيرًا ان هذا التغيير الذي طرأ على حبي ولومها كان اثيمًا جرح جميع تاثيراتي وكانت قبلاً عذبة وهنية بجروحات محرقة ومسرة تسرني وتخيفني معًا

ولا يخفى اني قليلة الكبر ولكني شعرت وقتئذٍ بكبر كوني جميلة والظاهر ان وجهي ترجم بمظهره عما في ضميري لاني التفت مع الدوقة دي ريشنبل بعد نهاية قطعة روبيني لجهة الموسيو دي روشكيم واذ ذاك تاملتني الدوقة برهة بسكوت ثم قالت بصوت منخفض لصديقنا انظر الى متيلدة اني لم ارها ابدًا بمثل هذا الجمال

فالقى الموسيو دي روشكيم اعينهُ على اعيني بسمات التعجب والتهلل ثم ارتعش قليلاً واظهر باشارة من راسهِ انهُ يشارك السيدة دي ريشنبل باعجابها

فقلت للدوقة بصوت منخفض هل تريني حقيقة جميلة ثم شخصت بنظري الى الموسيو دي روشكيم وقلت يسرني ان يصدق كلامك فابدًا لم اشعر كوني سعيدة كالآن بالحصول على الجمال

فشخص اليَّ الموسيو دي روشكيم ايضًا نحوًا من ثانية ومن المستحيل التكلم عن قوة ذلك النظر الكهربائية التي حركت جميع خوافق فوادي ففي برهة لا يحصر تصورها الفكر شعرت بالسكرة والوجل والاندهال والمخاوف وتجردت عن الماضي والحاضر والمستقبل وظهر لي اخيرًا من تلك النظرة القصيرة التي اجاب بها على نظرتي ان نيران العشق الحار تشتعل بها فجأة

ثم داوم المغنون الغناء فاحنى الموسيو دي روشكيم راسهُ كما لو كان مثقلاً بالاوجاع

واسند جبهته بين يديه ثم التفت راسي مراراً عديدة لمشاهدته فاذا هو مستمر على تلك الحال

وعند نهاية الطرب اتفقنا على الذهاب عندي لمناولة الشاي فدعوت الى ذلك بعضاً من اصحابنا الذين اجتمعنا بهم في تلك الحفلة وعدت بالعربة مع الدوقة دي ريشفيل واما والموسيو دي روشكيم وهو بفكر وشواغل كثيرة

ثم سالت اما هل سرتها الموسيقى فاجابت بلطف لا بل بالعكس ساءتني كثيراً . . فاني تالمت شديداً و تحملت مزيد العناء للامساك من دموعي وظهر لي كأن الغناء يستحيل في اذاني الى نغمة محزنة جارحة

وعند وصولنا الى المنزل مررت بجانب المرأة فانتبهت الى ملامح وجهي . . لماذا لا اصرح باترى بتلك الافتخارات الباطلة اني وجدت كوني اجمل بكثير من العادة واتذكر اني كنت لابسة وقتئذٍ ثوباً ازرق بلون السماء الزاهية مزيناً بالزراكش والقياطين الوردية وبين شعري الاشقر المتدلي الى اكتافي ورد من نفس ذلك اللون

وظهر لي في ذلك الوقت السريع الذي تاملت به ذاتي بنوع من ارتضاء المسرة اني بقامة رشيقة واعين لامعة وشفائف قرمزية و بشرة شفافة ومشية مستوية وشعرت كاني منتعشة ومسودة بقوة سامية وكانت تبرق لاعيني اشعة الامل بمنتهى السعادة الفكرية عندما اصادف اعين الموسيو دي روشكيم العاشقة

وكان يسرني الاعجاب بهيئته الشريفة الدالة على القوة والجسارة و عجبت لاني لم الاحظ الى ذلك الحين مقدار جماله المهيب المحسوب للرجال كالظرف للنساء وكل نظرة من نظراته كانت تصل الى قلبي وتضعضعني

لا . . لا لعمري لم يعد يمكني التمويه على ذاتي وهذا الاختبار المشوم كشف لي عن مقدار عمق هذه الحاسة العشقية

ثم مضت هذه السهرة كحلم ومن الغريب اني بالرغم عن مشاغل افكاري احسنت كثيراً موانسة ضيوفي وعندما بارحتني السيدة دي ريشفيل قبلتني وقالت اريد ان اتكلم عن افكارك بما تكلمت به من قبل عن وجهك فابداً لم تظهر لي افكارك بمثل هذا الظرف الذي ظهر لي منك في هذا المساء

ومع مزيد ميلي ومودتي للدوقة دي ريشفيل كان جل رغبتي ومشتهاي ان تهم بسرعة الخروج من عندي لاني شعرت بان تلك القوة الساحرة التي اسندتني الى ذلك الحين اشرفت على مفارقتي

وكانت اضطرابات النهار قد اثرت فيَّ كثيراً فلم تبارحني الدوقة الا شعرت بخوار قوتي

وسقطت للحال بلا وعي تقريباً بين ذراعي بلوندو المسكينة

ان هذه التجربة التي تعمدت اجراءها لم تدع لي سبيلاً للشك وظهر منها جلياً ان ذلك الحب الطاهر الشريف لم يكن الا حلماً موهوماً ولا اعلم هل الضعف وحرارة الشوبية هما السبب في اضمحلال تلك التخيلات البديعة او ان هذا الحب هو واحد من تلك الاوهام والتصورات التي تخفي من خلفها هاوية

هل يمكن غوري ياترى من النساء ان يحافظن على موازنة حكيمة عادلة بين الانعطاف والبرودة وهل يوجد من تلك الاخلاق الثابتة وتلك الفضائل السامية ما يسع المرء معها التغلب على الرغبة السرية المتذبذبة اني اجهل ذلك ثم هل يمكن استمرار الحب الطاهر بين اثنين يحبان بعضهما بمنتهى حرارة الشباب . اني كنت اومل ذلك واظنه واحب لديّ ان اشك بذاتي من ان اشك بالاخرين وامس تخيلاً ادبياً لا يخلو من التعزية ... والذي اخافني كثيراً انما هو السرعة التي استولت بها الافكار الردية على نفسي والنظر الى الاشعة الباهتة الملقاة منها على المودة السكونة التي كانت تكفي بالامس لسد احتياج قلبي وحينئذٍ ظهر لي ذلك القلب سقيماً ومجلداً فبابي نكران للجميل امكني ياترى ان احتقر الايام الماضية التي ذقت بها مثل هذه الملذات الشريفة

ان هذا التغيير الفجائي كان ولا يزال للان مشكلة عويصة بالنظر اليّ فقلت في ذاتي اني اذا نسيت واجباتي للموسيو دي روشكيم فلا يكون كلامه ومعروفه وعنايته نحوي اشد حنواً ورقة وحرارة من ذي قبل ثم سالت هل يوجد ياترى في الجريمة وتبكيت الضمير الصادر عنها جواذب مشومة وهل تحوى تهيجات الضمير المضطرب الحارة على نوع من الظرف القاهر ام لعل الحب في عرفنا لا يمكن اثباته مطلقاً الا بخسارتنا من اجلهِ اجل الضحايا ... اي فضيلتنا وراحة حياتنا

. . . .

وقد اصابني المذلة والانكسار بمرارة عند التفكر بان لربما اكون انا وحدي التي دنست ذلك الحب بالفكر وان الموسيو دي روشكيم حاصل على ما يكفي من الارادة والعقل لتذليل شهواته وتفضيل السعادة النقية الدائمة على عذابات الحب الاثيم الوقتي المحتقر

نعم وقتي ومحتقر . . لان الضمير عند ارتكاب الجريمة الاولى يحصل على هذه المشاغل المخيفة وهي الشك والتحذر من نفسه كيف لا وقد احنث باشرف المقاصد فلماذا ياترى لا يحنث بغيرها والذي ظن في اول الامر بتسلط النفس على الحواس وغش بذلك لماذا لا يغش ايضاً بمدة استمرار حبه وثباته

انه ما من شيء والحق يقال اشد ارهاباً من فكر هذه المذلة المنطقية التي لا بد من حصولها

المرء عند انحرافهِ للمرة الاولى عن الفضيلة

الفصل الستون

البث

لربما يتعجب المطالع لاني شعرت وقتئذٍ كوني اثيمة فاني فكرت بانهُ اذا كان الموسيو دي روشكيم ضعيفاً مثلي فلا شبهة حينئذٍ بعدم استطاعتي على مقاومة انعطافي اليهِ ولهذا كانت نتائج تلك الهفوة الادبية في ذلك الحين سواء لديَّ ولا فرق عندي بين الاعتقاد بقرب ارتكابها او حصولي على تبكيت الضمير لاني ارتكبتها

ولم يعد يمكني الاتكال الا على رقة وشرف الموسيو دي روشكيم فما كنت افكر والحالة هذه الا باخفاء شعائري عنهُ ولو مهما كلفني ذلك . . لان ضياعي متوقف على افتضاح امري وكنت اتوقع مقابلة الموسيو دي روشكيم في ثاني يوم تلك الحفلة فحضر في نحو الساعة الثانية وتوسل اليَّ ان اسمح لهُ باقفال الباب وكان مصفرًّا حزينًا متضعضعاً وعلى وجههِ ملامح الكآبة المؤثرة

فعلمت ان هذه الدقيقة من دقايق حياتي الفاصلة وان نصيبي بكليتهِ متوقف على حزمي فجمعت قواي ودعوت لمساعدتي جميع انواع التمويه التي يسعني اجراءها لا تمكن من التظاهر بالمسرة وخلو البال ثم اسرعت الى مخاطبة الموسيو دي روشكيم وقلت الم تجد بالامس صباحاً كوني قليلة الذوق لاني طلبت ذراعك للخروج ثم اخلفت بطلبي الاصرح اذن اني كثيرة الاهواء

فلازم الموسيو دي روشكيم لدقيقة السكوت ثم قال لي متيلدة هل تعتقدين كوني شهماً

قلت اه يا الهي ما هذه البداية الخطيرة

اجاب نعم خطيرة . . نعم خطيرة ومن اللازم ان تكون كذلك

قلت ولماذا

فعاود السكوت برهة ثم قال متيلدة اني لم اكذب في حياتي وقد حلفت لك بالامس ان اعهد اليك بجميع افكاري من حسنة وردية وما نطقت اني التزم بتحقيق هذا اليمين بكل هذه

السرعة

قلت حقًا ياصديقي انك تخيفني فما هذا الانقلاب الفجائي

قال يظهر لي يامتيلدة كاني في حلم ومن المستحيل عليّ شرح احساساتي اني منقاد ولا اعلم لاي ظرف مشوم شوش منذ امس افكاري الوطيدة ومبادئي الثابتة فما عدت اعرف ذاتي ولا اعرفك

قلت ماذا تقول

قال منذ امس ظهرت لي بمظهر امراة ما نظرتها قبلاً

فحاولت التبسم وقلت ما فهمت المراد من كلامك ولا اعلم كيف امكن ان اظهر لك منذ امس بمظهر جديد

قال باطلاً اردت ان اشرح لذاتي اسباب هذا الانقلاب فلم اهتدِ الى معرفة شي وعبثًا تسالت لماذا منظرك سبب لي بالامس اضطرابًا لم اشعر بمثلهِ في حياتي ان وجهك كان مختلفًا كثيرًا عن العادة ولا ريب ان السيدة دي ربشفيل لحظت ذلك مثلي حيث قالت لك انها لم ترك ابدًا بمثل هذا الجمال المفرط . . وقد صدقت فان نظرك العذب السكون الصافي كان يلمع من وقت الى اخر ويطفح بالقلق والفتور وكذلك صوتك كان اشد اضطرابًا وبشرتك اشد تلونًا وتبسماتك اكثر سطوعًا من ذي قبل وعندما كنت منحنيًا على كتفك توهمت كما لو اني اراه يرتعش من نفثاتي . . . وتراءى لي إنك محاطة ولا اعلم باي فضاء مغناطيسي يجذبني ويسكرني

ثم صاح لا . . لا . ليس هذا تخيل كاذب فقد كنت وفتنني ولا زلت الان احمل بكثير من السابق . . . او بالحري زادك الله جمالاً على جمالك

قلت وانت ايضًا ياصديقي صرت شاعرًا اكثر من العادة وتريد مخاطبتي بانواع جديدة من التمليق . . . فلربما كنت بالامس مسرورة وبظروف مناسبة وهذا هو السر الباعث على كل هذا التغيير ولكن الاشياء التي لم تتغير فيّ ابدًا انما هي الشعائر التي اوقفتها لك صديقتك بل شقيقتك

فصاح مكررًا قولة شقيقتي . . شقيقتي لا . . لا . . ما احببتك ابدًا كشقيقة ولكني حصلت فقط على الشجاعة والارادة الى الان وفكرت من الممكن ان نحب امراة مثلك بلا قصاص وان هذه المودة الحصرية التي نعيش بها تكفيني وان سمو حبنا التصوري واعجابي بهِ يقياني من السقوط في الهفوات البشرية اما الان يامتيلدة فلم تعد لي هذه الشجاعة وتجردت من هذه الافكار ونسيت كل شيء من اقسام ونذور ووعود وها قد وضح اخيرًا وجدي المحصور

منذ زمن طويل ثم صاح متيلدة . . متيلدة . . اني اعترف صريحًا بانهُ لايوجد الا جبان واحد وهو انا وانيم واحد وهو انا ولكن الشفقة . . الشفقة على الاقل لحب محرق جنوني اضل صوابي

فارتعشت للخطر الذي يتهددني لان اقوال الموسيو دي روشكيم عن اضطرابهِ كانت تترجم عن نفس الشعائر الملمة بي ولم استطع التغلب على حاسة سرية من السعادة والكبرياء عند ما نظرت كوني محبوبة بمثل هذا الجنون ولكني استنجدت للحال بشجاعتي وشعرت كوني قوية عند مشاهدة الموسيو دي روشكيم ضعيفًا وقلت في ذاتي كم يكون حسنًا لو يسعني ان ارفع هذه النفس العظيمة الى درجتها من السمو وانقذ ذاتي وانقذه لاني كنت لا اخشى من سكرتي الا اذا شاركني بتلك السكرة

وبعد برهة من السكوت قلت لهُ بصوت ودادي ولكن بمنتهى السكينة والخطارة سامحني ياصديقي لاني اجبتك بخفة في اول الامر انك اعطيتني بهذا الاقرار برهانًا موثرًا على مزيد ثقتك بي واشكرك على ذلك ثم مددت لهُ يدي باستحقاق وكان من هذه اللهجة المتحرسة التي تكلمت بها ان ادهشتهُ فعدت الى مداومة حديثي وقلت بلا ريب ان كلامك هذا لايخلو من الغلو ولكني لم اتعجب لذلك لاني كنت متوقعة حصولهُ

فصاح انت يامتيلدة

قلت نعم ياصديقي تذكر محادثتنا بالامس الم تقل لي ان المودة الحصرية التي نتمتع بهـــا لم تكتسب الا بفوة الضحايا وكلما عظمت تلك الضحايا كلما حسبت لنا

فصاح بمزيد الاضطراب متيلدة لا تكلميني عن الماضي فبين الامس واليوم هوة عظيمة

فتبسمت بلطف وقلت سالقي اذن ياصديقي كالامراة السموية جسرًا غير منظور على تلك الهوة ثم اقبض عليك من يدك واقودك الى مقاطعتنا السموية المشرقة بالطهارة والعظمة والشرف حيثما تسطع ارواحنا كالماضي بمظاهر الافتخار الزاهر

وكان قلبي وقتئذٍ فريسة للاحزان ولكني تظاهرت بالتبسم وتراءى لي ان الموسيو دي روشكيم تالم بتوجع من كلامي فبقي برهة محافظًا على السكوت ثم تكلم بحزن لا يخلو من الوجل والخوف وقال الحق معك يامتيلدة كان الماضي كما تقولين كنت حاصلاً على تلك الظنون الكريمة والالهامـــات الشريفة واحببتك بمزية حزومة وارادة ثابتة وكلام مقدس وقلب حمس باسل ولكني لا اعلم باية اعجوبة طرأ الانقلاب والتغيير على كل ذلك . . وقد قلت لك بالامس اني لا ارى من فوق السعادة التي انتمع بها بجانبك الا تحقيق ارادة ابي

الاخيرة فبيوم واحد اذن تزايد طمعي الى درجة الخلط ولكن هذا الطمع لم يسقطني من اعتباري الخاص بل رفعني

قلت ما الذي تريد قوله ياصديقي الا نكون قد دنسنا حبنا اذا . . . .

فلم يدعني اتم حديثي وقال بهيئة خطيرة تدنسهُ . . لا . . يامتيلدة لا تخذي قولي من قبيل التلطيف الكاذب والاعتذار المموه لحب اثيم اني ابث لك مع رغائب الشبوبية المحترقة بالعشق اشرف التمنيات التي اودعها الله قلب الانسان اي السعادة الدائمة التي لا يمكن ان يذوقها المرء الا بمسرة الاجتماع العائلي العذبة وخلاصة القول اني لربما احبك يامتيلدة كزوجة باكثر من معشوقة فانت جميلة وصالحة معاً ولا ريب ان سكرة حبك تكون طاهرة وجدية ويكفى فكرك يامتيلدة لتطهير كل شيء واعطاء الحب الاثيم غاية ومزية الاتحاد الشرعي

قلت حسن ياصديقي استحلفك اذن باسم هذه الشعائر ان تمهد افكارك

قال لا لا ان السعادة التي اتمتع بها بقربك لا تكفيني لانها غير كاملة وانا لا اطلب الان الحصول على الحرية لمشاهدتك ولكني اريد ان اقضي حياتي جميعها بجانبك . . فهمت يامتيلدة . . اريد ان يكون بيننا روابط لا تحل لابقى على الدوام مقيداً بك اريد جميع الحقوق لاظهر لك جميع الاخلاص وكل انواع السعادة لاكون مديوناً لك بجميع انواع الجميل

قلت ولكنك عاملتني ياصديقي الى الان بمنتهى الجودة والاخلاص

اجاب وماذا يكون ذلك في جنب هذه الحياة الحصرية المحاطة بالهناء حينما يتمتع المرء بجميع العطايا المفرغة من الرب على المحبوبين منهُ ويستعيض عن الحب بالعبادة ويزيد الجمال الادبي بقيمة الجمال المادي لان الله سبحانهُ وتعالى ما اراد ان تغلف النفس الجميلة بغلاف جميل الا ليتمازج الظرفان ويتحولان الى ظرف واحد اما الفصل بينهما فاهانة للفطرة

فصحت اه يا الهي ما هذه اللهجة

قال لا انكر انها مباينة تمام المباينة لما تكلمت بهِ بالامس ولكني اليوم كامس تكلمت صدقاً

قلت ولكن هذا التغيير الفجائي . . .

اجاب يضعضعني وينهك قواي يامتيلدة ويجب لايضاح افكاري ان الجأ الى هذه المشابهة العاميّة العادلة المتعلقة بكفاية نقطة واحدة من الماء لفيضان الكاس الممتلي فقد تكفي عند حلول الساعة اخف الظروف الطفيفة لتقرير اعظم الحوادث الخطيرة ولا ريب عندي غدا ان قبضة

يد او اهتزاز في الصوت يكون سبباً باظهار اقوى المفاعيل العنيفة التي يمكن صدورها عن هذا الحب المحصور منذ زمن طويل وامس عند تكلمي عن الضحايا ياميتيلدة لم استعمل النص الحقيقي ولكن الشجاعة لها حدود ولا يوجد امامي الان الا فكر واحد وهو المعيشة معك في احد اعماق الوحدة لان مسرات العالم باطلة لي ولك ياميتيلدة . . . فاه لو كنت تريدين ثم قاطع ذاته بذاته ووقف عن اتمام الحديث مخافة ان يكون تكلم كثيرًا

ففهمت مراده جيدًا لاني شعرت انا ايضًا بمثل هذه الرغبة ولكني اردت ان تداوم شفتاي تكذيب افكاري فاجبت على هذه التلهفات العشقية التي شعرت بتاثيراتها الى اعماق قلبي بهذه الكلمات الخشنة الباردة حقًا ياصديقي ما عدت اعرفك هل هذا انت الذي تعرض عليَّ ان ندوس باقدامنا جميع الاداب والواجبات وان نغش صداقة وثقة اصدقائنا . . الا فافكر جيدًا بهولاء الاصدقاء واخبرني الا يصبحون موضوعًا لامر التهكمات فهل تريد ان نجعلهم شركاء لنا بالجريمة ونسلمهم الناس بالسنة السخر لانهم حاصلون على ثقة عمياء بشرفنا كن حرًا واجب ماذا تكون افكار البرنس ديركور وامراته من جهتنا بعد ان دافعا باستقامة عن حبنا اذا رضيت بالفرار معك

فاصيب الموسيو دي روشكيم بالجمود وبقي ممتنعًا عليهِ الكلام لعدة دقائق وساني اني وجهت اليهِ مثل هذا السوال حيث تراءى لي واسفي انهُ لا يمكن المجاوبة عليهِ

وشعرت في هذه الحادثة بالرغم عن مظاهر الخرس التي اظهرتها اني اكثر اضطرابًا ووجدًا من ذي قبل فاني كنت واسفي اشد تمسكًا من الموسيو دي روشكيم بافكاره وشغفي بذلك حتى فاوشكت في كل ساعة ان اقول لهُ هذه الكلمة فلنهرب

اما الموسيو دي روشكيم فعاود الحديث بحزن وقال ما كذبت في حياتي ياميتيلدة ولست اكذب ابدًا وسوف اذهب اذا رضيت بالفرار معي الى البرنس ديركور واخبره بكل شيء

قلت واية كلمة مسيئة ياترى لا يحق لهُ وقتئذٍ ان يرميك بها

فصاح الموسيو دي روشكيم متالمًا بفروغ الصبر ماذا يهمني البرنس واحكام العالم هل نُحاول مقاومتها ياترى ثم اسالك الا تكون قد حكمنا على انفسنا بابتعادنا عن الناس وحرمنا اعتبارهم واهتمامهم فما الذي يريدونهُ منا زيادة على ذلك الم يكن في وسعنا ان نتصرف بدناءة ونسيء الانتفاع بالثقة التي يظهرونها لنا وهل من الصعب ان نغش الاعين الواثقة

قلت لا انا ولا انت لم نخلق لنرتكب مثل هذه السفالة

قال اعرف ذلك فلنتشجع اذن ونتخلى ببسالة عن المركز الاسمى الذي رفعنا اليهِ الم نظهر

ياترى استحقاقنا لهُ في جميع المدة التي قضيناها بالمحافظة عليهِ ان السقوط المشين لا يجردنا من ذلك الاستحقاق وما هو الا تنازل اختياري حر وغاية ما يقال انا فضلنا سعادتنا على اعجاب العالم وليس في ذلك شيء من الجبن او الخيانة وساصرح بهِ امام الجميع كما صرحت ....

فقاطعت حديثهُ وقلت واسفي ياصديقي كي نرتكب الاثم باعترافنا علانية انا اتيان فمثل هذا الاعتراف لايعتبر جسارة كريمة بل وقاحة خشنة ثم تاوهت وقلت صدقني اذا تخلى عنا الرب وكبونا بان من اللازم ان نهرب بخجل ونختفي كمجرمين

قال صدقيني يامتيلدة ان جبهتي لا يمكن ان ترتفع بافتخار يعادل افتخارها بذلك اليوم السعيد

قلت كيف يسعك التكلم بمثل ذلك وما قولك بخجلي وعاري وفتنتي

فكرر قولي خجلك وعارك الست حرة اولم يلفظ العالم نفسهُ نوعاً من الطلاق الادبي بينك وبين زوجك وهل يمكن ان يمثل مركزك بمركز غيرك من النساء

قلت نعم اليوم وفي هذه الساعة ايضاً لايمكن ان امثل بغيري ولكن اذا نسيت واجباتي فلا البث ان اصير غداً كبقية النساء الكثيرات اللواتي ينتقمن من الغش بالغش وبعد انخراطي في سلك النساء المترفعات على الضعف البشري انحدر من ذلك المقام العظيم الى هاوية الاحتقار العام ....

قال وكيف تصيبك هذه الاحتقارات .. تعالي .. يامتيلدة ان حبي يقيك منها .. والسعادة تنتقم لك ممن يحاول اهانتك فمن يعيش للعالم وبالعالم يحق لهُ ان يخشى العالم ومن يعيش بنفسهِ ولنفسهِ في عزلة الانفراد يحتقر العالم وبفحمهُ اني نسيت الاصدقاء والكبرياء والطمع والواجب ولا اعيش الا لفكر واحد ... وهو انت انت دائماً انت

فصحت وماذا تعمل بخطتك ومستقبلك والمساكين الكثيرين الذين لا يعيشون الا بك وبلادك التي تنتفع غالباً بصوتك

فرفع الموسيو دي روشكيم اكتافهُ وقال ان هذه السياسة الباطلة ليست الا احلاماً فارغة رنانة واوهاماً عقيمة اما الفقراء المساكين فسنسهر عليهم من اعماق عزلتنا ونكون لهم بحكم عناية الله الخفية ولا يخسرون بذلك شيئاً .... وعلى فرض انا لم نكن قبل الان من محبي الخير الا يكفي حب كحبنا ليجعلنا من الكرماء المحسنين ... انك تنظرين اليَّ بدهشة يامتيلدة .. وتتعجبين لاستماعي اتكلم بهذا وكنت قبلاً متعبداً لما احتقره اليوم .. فانا ايضاً اتعجب لذلك واسر به

قلت ماذا تقول

قال نعم ان هذا التغيير الفجائي الذي طرأ على افكاري يثبت لي منهُ ان نفوذك عليَّ بازدياد

دائم

قلت كنت فبلاً افتخر كثيرًا بهذا النفوذ لانهُ كان يبعث على منتهى الاعمال الكريمة فيما اليوم فاخجل بهِ لانهُ يدفعك الى التمسك بمقاصد لا تليق بك . . .

فسال ومن قال لك ذلك . ومن قال لك انهُ لا يبدو من تحرقاتنا هذه المستعجلة بعض الامثال العظيمة والاخلاص الاسمى لست اعلم ما الذي يحفظهُ لنا المستقبل ولكن الرب سبحانهُ وتعالى لا يقربنا من بعضنا عن عبث فلا ريب ان سقوطنا الظاهر من ورائهِ نهضة عظيمة ان نفسين كنفسينا لا يمكن ان يجمعهما حب حقيقي ساطع عميق الا ويتركان من بعدهما تذكارًا مجيدًا وصوت لم يغشني في حياتي يقول لي ان اصحابنا بالرغم عن توبيخاتهم لنا وابتعادهم موقتًا عنا سيعودون الينا بقوة الحوادث باخلاص اشد من السابق حيث يتاكدون وقتئذٍ انا مستحقان لهم باكثر من جميع الاوقات الماضية

قلت كيف

اجاب لا اعلم ولكني على يقين من ذلك واقول لك للمرة الثانية يامتيلدة ان هذا الحب ولو مهما كانت مظاهره شريف عظيم وسوف ينبت ذلك المستقبل وكان يظهر لي من هيئة ولهجة الموسيو دي روشكيم انهُ على ثقة تامة من كلامهِ وشعرت انا ايضًا كاني على اعتقاد بان حبنا سيكون لهُ بلا ريب حظوظ مشرقة فما امكني والحالة هذه بالرغم عن توطيد عزمي على البقاء في حالة الرود والتحرس ان اقاوم بواعث انجذابي وصحت نعم نعم صدقتك وما تقولهُ اشعر بهِ ويظهر لي كانك تتكلم باسرار فوادي

فسقط الموسيو دي روشكيم على اقدامي وقبض بيديهِ على يدي بهياج العشق وصاح متيلدة فلتم ربب اذن . . تعالي . . تعالي ياصديقتي تعالي ياشقيقتي تعالي يامعشوقتي تعالي يا امراتي

- وكان من هذه الكلمات ونظر الموسيو دي روشكيم الشمل ان رجعت الى صوابي فنهضت مذعورة

وللحال اخفى الموسيو دي روشكيم راسهُ بين يديهِ وصاح متيلدة . . سامحيني لاني بلاعقل ثم سكن اضطرابي بعد دقايق قليلة فقلت لهُ بما يمكن من السكينة حقًا انك بلا عقل حتى صدقت اني اعرض ذاتي للخجل من اجلي ومن اجلك

فالقى عليّ نظرًا حزينًا ثم تاوه وصاح بصوت يمزق الفواد انت لا تحبينني كما احبك . وجعل يبكي

واعترف يا الهي اني ما حصلت على القوة لمداومة التمويه وما قدرت ان اخفي عنهُ اني مشاركة

له في ذلك الحب الجنوني وتلك الافكار من عادلة وبلا عدالة ومرتفعة واثيمة الا لاني كنت معتمدة وقتئذٍ على الفرار معهُ اذا ما امكني بعد التجربة الاخيرة إن انغلب على هذا الانجذاب المشوم

وكان من الواجب عليَّ وقتئذٍ لاحفظ لنفسي حرية العمل ان اجرده من كل امل واتخذه بلا علمه مساعداً لي في المقاومة الشديدة التي احاول اجراءها ضد شعائري فسالتهُ ماذا تقول لست احبك هل يسعك ان توجه اليَّ مثل هذا اللوم القاسي فلو لم احبك بجنوكثير لماحصلت على هذه الشجاعة ووفرت عليَّ وعليك تبكيت الضمير الى الابد

وعند ذلك نهض الموسيو دي روشكيم وجعل يتمشى بهياج ويمسح دموعه

ثم عرضت عليَّ ايضاً تجربة جديدة فان بعض حلقات شعره تشوشت وقتئذٍ فنظرت على جبهتهِ اثر الجرح الذي اصابهُ سابقًا عند مجيئهِ في اثناء مرضي للحصول على اخباري وسقط في ذلك الكمين الذي نصبهُ لهُ الموسيو ليكورتو

ولدى مشاهدة هذا الجرح تذكرت اخلاص الموسيو دي روشكيم لي منذ القديم وازعجني كثيرًا فكر اعتمادي على اخفاء شعائري عنهُ

اما هو فوقف فجأة امامي وقال لي متيلدة هل تظنين ممكنًا ان اخفي عن اعين اصدقائي الاضطرابات التي تهيجني

قلت اظن ان لدى التامل بالنتائج القاسية . . .

فقاطعني وقال ان التامل والارادة لا يقويان على حصر واخفاء مثل هذه الحاسة الحادة ومن جهة ثانية الا يرى الناظرون الينا في كل ساعة انا في حال من الاغتصاب والتحرس المصنع مخالف لعوائدنا

قلت لربما ياصديقي . . ولكني آمل ان يهمد قريبًا هذا الهياج الوقتي وان تتغلب شجاعتك على هذه السكرة الجنونية

اجاب ان ثباتي وشجاعتي هما الباعثان على اعترافي بمزيد اقتدار هذه الحاسة المتسلطة عليَّ . . وحيث اني ثابت وشجاع . . . ثم تردد عن اتمام الحديث

قلت تكلم ياصديقي تكلم

قال حيث اني ثابت وشجاع فلا اعدم قوة لسلوك الطريق الوحيد الذي يمكنهُ ان يخلصنا نحن الاثنين ثم قال بشفاه ملتصقة بالياس وصوت خائر ساحصل على القوة لمبارحتك

وكانت هذه الضربة هائلة ولست على استعداد لها فضممت يديَّ الى بعضهما وصحت تبارحني . . ان هذا مستحيل . . اه يا الهي . . لا اظنك تفكر بذلك

قال ولكن ماذا تريدين اذن ان افعل ايتها الامراة التعيسة . . . ان الانقطاع عن مشاهدتك ينبه الظنون ويدفع اصدقائنا الى السوال منا عن اسباب ذلك بلجاجة لا يسعنا معها الا التصريح بكل شيء والمعيشة بجانبك كالسابق مستحيلة عليّ كما قلت لك فسامح اذن بالسفر واسافر

فصحت لا . . لا . . لا تسافر ابدًا لست اريد ذلك فانا احبك وقد وضعت بك كل امل ومستقبل حياتي ومن المستحيل ان تاركني وتظهر كل هذه القساوة

قال ولكن ما العمل اذن وكيف السبيل للخلاص

قلت لا اعلم . . ولكن استحلفك باسم الرب وتذكار ابيك ان لا تفارقني . . حيث لا يمكني المعيشة من بعدك . . فقد رميت بمصائب كثيرة يا الهي ولم يعد لي اقتدار على احتمال اوجاع جديدة

قال اصغي يامتيلدة فانت تعلمين جيدًا اني لا اتهددك بالسفر بقصد اجبارك على مرافقتي . . واني لا اتكلم ولا انصرف ابدًا بخفة . . ولكني تاملت كل شيء بعين بصيرة ووجدت انهُ لم يبقَ لي الا ان اسافر . . وساسافر . . فليساعدني الرب

وظهر على وجهه وقتئذٍ ملامح مشومة فاضطربت لها وصحت اه يا الهي . . . انك تخيفني

ففهم المراد من كلامي واجابني بقوله اني حاصل بخصوص الانتحار على افكار لا تتغير مطلقًا فالانتحار جبن لديَّ ولا يمكن ان ارتكب الجبن وساكون من الان وصاعدًا من اشقى البشر حيث لا يمكني ان انتحر

ثم عاود اخفاء راسه بين يديهِ وارتفع صوتهُ بالبكاء والنحيب

فاثرت في دموعه كثيرًا وهممت ان اعترف لهُ بكل شيء وان امتنع عن اجراء المقاومة الاخيرة وابح لهُ بمقدار تعبدي لهُ واذ رفع راسه بعد سكوت لعدة دقايق وقال نحن بلا عقل حيث نريد ان نقرر بساعة مستقبل حياتنا بتمامها . . فبربك يامتيلدة لا تزيدي كلمة عما قلناه لانا الان بمنتهى التاثيرات الحادة ولا يمكنا الاستمرار على هذه المحادثة وساسافر اليوم واعود بعد خمسة عشر يومًا بنفس هذه الافكار . . . وبذلك تحصلين على الوقت الكافي للتامل مليًا . . فساعود اذن اما لاوقف لك حياتي باجمعها واما لاهديك وداعًا ازليًا ولا اكتب لك في مدة غيابي . . بل ادعك لذاتك وكل املي ان يكلمك الماضي عني والمستقبل من اجلي . .

وهنا مد يده بمظهر محزن وقال لي بصوت مستغرق بالتاثر . الى خمسة عشر يومًا فشددت على يده وقلت الى خمسة عشر يومًا ثم وذهب

الفصل الحادي والستون

زيارة

وبعد سفر الموسيو دي روشكيم جعلت اسكب الدموع وبخت ذاتي كثيرًا على تظاهري بالقساوة وقلة التاثر وخفت ان يصاب لذلك بالياس واكون قد خاطرت بابعاده عني ثم اسفت بمرارة لاني لم اتبع الهامات قلبي الاولى التي كانت تحثني على ترك كل شيء والتعلق بالموسيو دي روشكيم وقلت على فرض انهُ تركني . . . فهل اعتبار العالم البارد يعوضني شيئًا عن خسارة ذلك الحب الذي تدور عليهِ كل امال وسعادة حياتي

وتسالت في وسط هذه التحيرات المزعجة عما اذا كانت مقاومتي ناشئة عن الكبرياء باكثر من حب المحافظة على الواجب وحاولت ان اقنع ذاتي بهذا الفكر لاجد بذلك حجة للتسليم برغائب الموسيو دي روشكيم وحينئذٍ استولت على افكاري الاحلام الجنونية بخصوص الحياة التي تنتظرني بجانبهِ وتصورت كوني حاصلة بقربه على اسعد انواع المعيشة لدى التفكر باخلاقهِ وافكاره وحنوه

ثم ظهر لي تدريجيًا صدق كلمات الموسيو دي روشكيم وان حبي للموسيو دي لانكراي كان حقيقة من قبيل انبغات القلب واني ما حصلت على سبب جدي لحبهِ قبل زواجي ولكني اخذت فقط بظواهره الغرارة وكان عنادي بطلب الاقتران منهُ بالرغم عن مشورات الدوقة دي ريشنيل والموسيو دي روشكيم صادرًا عن القطع بالعزم والطيش ورغبة التخلص من السيدة دي ماران باكثر من الحب الحقيقي ثم عندما تحولت اثام زوجي بعد ذلك الى ذنوب مستنكرة بقيت مصرة على حبهِ باحكام العادة وقوة الادمان على الوجع والكفر بالذات ولا سيما بذلك النفوذ القاهر الذي يستولي دائمًا على الفتاة للرجل الاول الذي تحبهُ

وكنت في وسط احزاني اكره هذا الرجل المجرد عن الفضيلة واخجل بهِ كما لو كنت اخجل من عمل شرير ومع ذلك فاني بحبي لهُ على هذه الصورة كنت اتمم واجبًا مقدسًا وعندما دفعني اخيرًا الى الياس بخيانة عظمى خسرت بها ولدي ونجوت بذلك من سلطانهِ المرهب لم يعد لهُ في قلبي الا احتقار خشن

ويوجد اختلاف عظيم بين هذه التقلبات التي طرات على علاقتي بالموسيو دي لانكراي

وتلك التي المت باميالي لنحو الموسيو دي روشكيم فان اخلاصة الكريم لنحوي واعجابي بصفاته النادرة القيا اولاً في قلبي وبلا علي تقريباً جزوع هذا الحب العميق ثم عندما وجدت ذاتي ادبياً حرة شعرت ببراهين جديدة موثرة من المودة الثابتة وحينئذٍ اضافت هذه الحاسة الصارمة المهيبة الى اعجابي بهِ صداقة ودادية حنونة . . . ثم الحب الطاهر الادبي . . ثم الوجد المحرق

والذي يوكد استمرار هذه الحاسة طويلاً انما هو نموها الثابت على الصورة المتقدم ايضاحها فان هذا الحب كغيره من الاشياء العظيمة القديرة المعمرة له جزوع وطيدة فهو كالسنديانة العظيمة التي تسحقها الصاعقة ولا تقتلع جزوعها بنمو ويعظم تدريجا ويتهل وقد يمكن الزوابع والفصول ان تجرد اغصانها الندية من الاوراق ولكنها لا تقوى ابداً على اقتلاع اصولها من الارض التي نبتت فيها

ولنظهر بكلمتين حقيقة الفرق الكائن بين الحبين فاني بحبي لزوجي واخلاصي له بمنتهى الجنون الاعمى كنت اشعر بنوع من الخجل واني اتعس امراة في العالم وكان من صبري وشجاعتي ان اصبحت الناس لاتبالي باوجاعي وحملت تصبري على محمل الحماقة

وبالعكس كنت سعيدة ومفتخرة بحبي للموسيو دي روشكيم وكان العالم يصوب اعمالي وقد شعرت اخيرًا كوني عظيمة ومرتفعة بهذه الحاسة التي تصادق عليها اسمى الافكار الادبية

وكان يتراآى لي تارة ان هذه التاملات بمثابة المجدات القوية لنصرة الموسيو دي روشكيم وتارة استمد منها قوة لمقاومتهِ . . وظهر لي اخيرًا اننا نحن الاثنين بمركز عظيم فاخر ولا يمكني التسليم بخسرانهِ وحينئذٍ قابلت رغماً عني بين مسرات الحياة العشقية المجهولة والضحايا التي يفرضها عليَّ اكليل الطهارة اللامع وسلطان الفضيلة وعظمة الاحجام والامتناع ووجدت من الجنون ان افضل الانفراد بقصر متسع بارد من الرخام والذهب على عزلة لذيذة يختفي فيها الحب السعيد في وسط الخضرة والزهور

وا اسي يجب ان يكون الانسان ادراة ليفهم مقدار اهمية هذه المقاومات الهائلة بين الحب والواجب

ان الرجال لا يحملون مثل ذلك وتمنياتهم تنحصر بالحصول على الشيء او عدم الحصول عليهِ اما نحن فلا نسمح غالبًا بالمطلوب الا بعد عذابات مخيفة نعم لا ننكر ان الرجال يشعرون بهذه العذابات الهائلة من اجل شرفهم ولكنهم ابداً لايشعرون بها من اجل شرفنا فان الموسيو دي روشكيم كان زبدة رجال القلب والشجاعة والاستقامة والشرف ولكنهُ مع ذلك لم يتردد دقيقة بين حبهِ والابتعاد عن اصدقائهِ . . . وشهوتهِ وخجلي

. . . .

. . . .

ودامت هذه المقاصد من ضعيفة وقوية عدة ايام وقد انهكني سفر الموسيو دي روشكيم واضعف قوتي وادركت من هذه البعاد مقدار الاوجاع التي تصير اليها حياتي اذا عشت بدونه فنفر قلبي بعيداً عن هذا الراي وفضلت القبول بكل شيء على فراقهِ ولكنني كنت آمل فقط ان اقنعهُ بمحاولة العيش بجانبي كالماضي وان يهتم بالتغلب على ذاتهِ عسى يمكننا بعد زمن الامتناع عن هذه المودة الحصرية

ثم قلت في ذاتي على فرض اني وضعت في مركز يقضي عليَّ بالاختيار بين اتباعهِ وخسرانهِ فما الذي اختاره ياترى . . هل القي ذلك الرجل المخلص لي على الدوام ومنذ زمن طويل . . اريد ذاك الذي احسن اليَّ من كل قوى بنفسه الى هاوية الياس لا . . لا لعمري ابداً . . ابداً . .

وقد اوشكت عند هذا الفكر ان اكتب اليهِ احضر . . احضر . . نسافر

وهكذا كانت تمر الساعات والايام والليالي وانا في هذه المشاغل التي اضعفت شجاعتي تدريجًا بحيث لم اعد اتجاسر على السوال من قلبي لاعتقادي الاتم ان جوابهُ يكون موافقًا للموسيو دي روشكيم . . . .

. . . .

وكان الموسيو دي روشكيم قد احتج لسفره باسباب عادية واخبر الدوقة دي ريشفيل ان اشغالاً مهمة توجب عليهِ الذهاب سريعًا الى احدى اراضيهِ وتظاهرت انا ايضًا بوجع شديد في راسي ليسعني البقاء وحدي في ذلك المساء

وفي احد الايام ذهبت كالعادة لزيارة السيدة دي ريشفيل فاخبرتني ان اما منحرفة المزاج منذ ايام وانها متوجعة كثيرًا في ذلك اليوم وهي مستغرقة بالهواجس اكثر من العادة فطلبت مشاهدتها وكانت نائمة فلم ارد ايقاظها

ثم ارسلت بلوندو مرارًا عديدة اسال عن صحتها واستفدت من ذلك ان النهار مضي عليها بسلام

وفي اليوم الثاني عند الفجر دخلت عليَّ السيدة دي ريشفيل فاضطربت لمشهد انقلاب وجهها وقلت ما بالك . . يا الهي

اجابت اني قلقة شديداً لصحة اما فاني قضيت الليل بجانبها وقد نامت قليلاً الان ثم لم يسعها الامساك من دموعها فصاحت اني استملكت هذه الفرصة للمجيء اليك لابكي بجانبك حيث لا اجسر على البكاء امامها ثم علا صوت الام المسكينة بالبكاء

قلت اطمئني بربك اطمئني حيث لا يمكن ان يكون لمرض اما اهمية خطيرة . . ثم سألتها ما الذي قاله لك طبيبك بالامس انه لا يوجد بين الاطباء من هو اشد مهارة واخلاصاً من هذا الطبيب

قالت اني ما خفت كل هذا الخوف الا لاعتقادي بمهارة الطبيب ولانه اعترف لي بجهله لهذا المرض فهو لا يجد سبباً ظاهراً لهذا الضعف المتزايد على هذه البنية المسكينة ويقول انها مصابة بحمى متمهلة عصابية . . لكن لربما يجد عليها من وقت الى اخر عرض حاد

قلت اخبريني هل تحس بالم

قالت لا . ولكن لربما تقول ذلك خوفاً عليّ من الكدر

قلت ما الذي اصابها اذن في هذه الليل ولما انت اليوم بكل هذا الاضطراب

قالت انها قضت ليل امس بهياج كثير . . . وامس مساء كنت بجانبها وكان وجهها مصفراً ولكنه مظلل بالسكينة ولم تذق النوم فسالتها هل تريد ان اقرا لها تاملاً من تاملات لامارتين فشكرتني على ذلك بحنو وبعد اذ سمعت باصغاء قراءة التامل المذكور قالت لي بذلك الظرف والسذاجة الذين لا يعهدان الا بها . اه يا الهي ما هذه الابيات العذبة العجيبة فالشكر الشكر لك على هذه المنة اني احس كوني احسن ويظهر لي كأن صدري اقل ضيقة من ذي قبل . . وحيث ان لهجة النفس هي التي افرجت عني كل هذا الضيق فلا ريب اذن ان نفسي هي المريضة

قلت يا للمسكينة ان ذلك غريب

اجابت نعم كثير الغرابة يا امتيلدة وقد نبهت مني هذه الكلمات شعائر الخوف المستنكر

قلت واي خوف يا الهي

قالت ان فكراً قاسياً لم يفارقني مدى الليل حيث تراءى لي عندما عاود اما الهياج واشتدت عليها عوارض الحمى وشخصت اليّ مراراً عديدة بنظرها الساطع ان هذه النظرة لا تخلو من اللوم

قلت اشرحي عن افكارك يا حبيبتي حيث ما فهمت المراد بحديثك

قالت لا اعلم كيف يسع اما الاتصال الى هذا السر المشوم . . ولكني خائفة كثيراً ان تكون عالمة بسر ولادتها واني امها . . اه يا امتيلدة ان نفس هذه الفتاة بمنتهى الطهارة ولا ريب ان تنورها بذلك يقضي عليها

فنظرت الى الدوقة دي ريشفيل بدهشة لان هذا الفكر استجلب انتباهي كثيراً وشرح لي عن احلام ومشاغل اما المحزنة

وكنت لا اشك باهمية الهياج المشوم الذي ينقض على هذه الفتاة بمجرد اطلاعها على هذا السر لانها كانت ترتاع من جميع الاعمال الاثيمة المخجلة وقد بقيت محافظة على ذلك الجهل الملائكي الثمين بعناية والدتها وترفعت شعائرها بالتعاليم التي كانت تستمدها على الدوام من محادثات اصدقاء السيدة دي ريشفيل ولا يمكن ان تعلم بان هذه الدوقة هي والدتها . . الا وتجبر على احتقارها

ثم عاودت السيدة دي ريشفيل الحديث فقالت والان يامتيلدة اليست مخاوفي في محلها . . وهنا صاحت ان هذا لمستنكر . . فهي تعرف كل شيء . . وما عدت اجسر على النظر اليها بلا خجل فما هذا القصاص الهائل . . . وكيف يصبغ وجهي بحمرة الخجل امام ابنتي . . . ثم تاوهت بوجل وقالت ان انتقام الرب لم ينته بعد وكاسي لا تزال طافحة بالمرارة

قلت لا تصدقي ذلك اني مشاركة لك في مخاوفك واعرف اخلاق اما والتاثيرات التي تصيبها بمثل هذا الاكتشاف ولربما هي حاصلة على شكوك . . ولكن ابداً لا يمكن ان تكون على يقين من شيء . . اذ لو كان ذلك لتاثرت صحتها باشد العوارض الخطرة

قالت انت تحاولين تطمينى يامتيلدة فبحق السماء اصدقيني

قلت تدري الامر بعين البصيرة ياصديقتي المسكينة فانت تعرفين مثلي قلب اما وصراحة افكارها وانها تصرح بجميع تاثيراتها حالما تشعر بها وان لم تعلم الغاية التي تودي اليها فهل تظنين ممكنًا لديها والحالة هذه ان تحجب عنك سرًا بمثل هذه الاهمية وتخفي تهيجاتها . والان اريد ان اذهب بحديثي الى اكثر من ذلك فلا يبعد ان تكون الهامات قلبها نبهت فيها بعضًا من الشكوك المبهمة ولكنها لم تتصل الى فهمها بعد . . . . .

فصاحت الدوقة دي ريشفيل ولكن ما الفائدة فان الخطر من ايضاح هذا السروان كان بعيدًا يتهددنا على الدوام ولو كانت معرفة هذا السر مقتصرة عليّ وعليك وعلى الموسيو دي روشكيم لما خفت شيئًا ولكنهُ معروف ايضًا من زوجي وذلك اللئيم ليكورتو وتلك الامراة الدنية التي باعتهُ ويخشى عليّ من دقيقة الى اخرى ان اصاب بتلك الضربة

قلت لا تتفألي بالشر وهو بعيد عنك ياعزيزتي ولا ريب انك ستحكمين اني من ارباب التصورات التي لا تحلم الا بالخير فاني اجد من الاصوب لدى التامل مليًا في هذه المسالة ان نتنبه من اما تدريجًا تلك الشكوك ولربما يكون خيرنا وسلامنا متوقفًا على ذلك . . وحينئذٍ يمكن ولربما يجب ايضًا ان يرفع الحجاب بمزيد المداراة عن سر ولادتها وبذلك نقيها غائلة الايضاح الفجائي لاني اخافهُ . . ولا اخفي عنك ياصديقتي انهُ خطر عليها

قالت انت ملاكي الحارس يامتيلدة وكلماتك الطافحة بالحنو والتعقل يغتذي بها العقل والنفس معًا وقد صدقت رايك المملو بالحكمة . . نعم لربما يمكن ان نهيئها بمزيد المداراة والعناية لاستماع ذلك الخبر المشوم ونبطل بذلك تاثيراته . . . . وحينئذٍ . . وحينئذٍ احصل على السعادة العظمى بقولي لها يا ابنتي . . . . فاه يا الهي . .اه يا الهي ثم زادت على ذلك بمزيد الحزن لا . . لا لعمري فمثل هذا الهناء لا يمكن ان ينتظرني لانهُ سعادة كبرى ومن الواجب ان اكبر عن ولادة اما . . .

قلت الم تكف بحياتك كل هذه الاحزان التي تحملتها للتكفير عن هذه الولادة

قالت الدوقة كل خوفي ان اتمسك بعماية برايك لانهُ يهمني كثيرًا . . وان شاء الله عندما يعود الموسيو دي روشكيم نتباحث بذلك فاذا ذهب الى ما ذهبت اليهِ نتدبر الوسائط الواجب استعمالها لاطلاع اما على الحقيقة ثم شدت على يدي بين يديها وصاحت اه ايتها الصديقة الصالحة المخلصة فانت تستحقين السعادة المتمتعة بها الان

ثم راجعت ذاتها وقالت لا . . لا . . بل يقتضي لك غير هذه السعادة لان مصائب الاشرار لا يمكن ان تسرك وتسعدك . . هل تعلمين ما الذي اصاب السيدة دي ماران

قلت لا . . فما الذي اصابها

اجابت انها ضربت بالفالج منذ بضعة ايام لانها تاثرت كثيرًا من غياب ابنة عمك الجهنمية والظاهر ان هذه الضربة كانت شديدة القساوة بالنظر اليها وظهر فضلاً عن ذلك انها مبغوضة من جميع الناس لانهم انقطعوا عنها ولم يعد يحضر احد لعيادتها على الاطلاق وتركت لرحمة خدمها

قلت اني اشفق عليها لان كبير خدمها واقدمهم كان خوفًا لطفوليتي وما زلت ارى للان ذلك الوجه المشوم ملطخًا بالنبيذ

قالت اما ابنة عمك فيظن انها بارحت باريس وقد ذهبت جميع مباحث زوجك عليها لايجادها عبثًا ويقال انهُ انكب على المقامرة بجنون للتسلي على فراقها

فهممت ان اخبر السيدة دي ريشفيل بحادثة الرقص تحت الحجاب وان اصرح لها بالاسباب التي تحملني على الظن بان الموسيو دي روشكيم تقابل ثمه باورزيل ولكن هذه الحادثة لها علاقة كبرى بحيرتي الحاضرة وكنت لا اريد ايضاحها لاحد وقد اعتمدت ان لا استمد المشورة الا من ذاتي فسكت وقلت للدوقة والموسيو دي لانكراي

قالت ظن في اول الامر ان اورزيل رجعت الى زوجها فاسرع سرًّا بالذهاب الى روفري وتاكد هنالك ان هذه الامراة المستنكرة لم تعد الى الموسيو سيشرين والناس مجمعون على القول انها

ذهبت سرًّا الى ايطاليا للاجتماع ثمه باللوردس . . الذي شغل بها كثيرًا في هذا الشتاء ولا يبعد ذلك لان اللورد س . . من اصحاب الثروة العظيمة

واردت كالسيدة دي ريشفيل ان اصدق بسفر اورزيل ولكن الهامًا محزنًا كان يقول لي ان ابنة عمي غير بعيدة عنا وكنت لا اخشى مزاحمتها عند الموسيو دي روشكيم بل غيظها عندما تجد ذاتها محتقرة ولا بد من حصول ذلك اذا تجاسرت على اظهار ذاتها له ثم وجهت خطابي الى الدوقة وقلت اتمنى ان يكون كلامك عن مصادر صادقة وان تكون اورزيل قد بارحت باريس . . . والان هل تريدين الذهاب لمشاهدة اما . . . هيا ننتظرها عندك لبينما تستفيق وفي هذا اليوم سانوب منابك بالسهر عليها ولا سيما في هذا الليل اذا بقيت متوجعة

قالت لا . . لا . . ياعزيزتي فانت ايضًا منحرفة المزاج

قالت احس اليوم اني احسن واذا اردت ان احصل على الشفاء التام فدعيني اقاسمك بالسهر على هذه البنيــة العزيزة ثم لا يخفاك اني لا اعدم النيرة وسالاحظ وادرس واكاشف اما بمزيد الاصغاء ولا ريب ان ذلك يفيدنا كثيرًا اذا وجدنا اخيرًا من الضروري ايضاح ذلك السر .

قالت اعلم جيدًا انك لا تقصرين عن ايجاد احسن الاسباب لاجباري على قبول هذا البرهان الجديد من الاخلاص . . . فلا باس اذن اني اقبل ما تعرضينه بسعادة

قلت دعيني بربك ياصديقتي من ذكر الاخلاص . . فاي شيء يا الهي لست مديونة لك به وكيف يسعني الايفاء

فصاحت متبلدة . . .

قلت يا للندامة عندما افكر انك جئت قبل زواجي بدون ان تعرفيني وقدمت لي تلك الخدامة الوالدية واني قابلتك على ذلك بخشونة . . وقســاوة . . وتجاسرت على اهانة كلما هو بديع وحسن في ذلك السعي الحميد . . . اه ياصديقتي اني لا اصفح لذاتي ابدًا عن تلك الخطيئة وسيصحبني من جرى ذلك تبكيت الضمير الى الازل

قالت الدوقة دي ريشفيل وانا ايضًا . . اذ لو سمعت لي لكنت الان السيدة دي روشكيم . . . اني عالمة بان التقــادير جعلتك قريبة من ذلك النصيب الذي تصورناه لك انا وذلك المسكين الموسيو دي مورتاني . . ولكني اعلم ايضًا ياامتيلدتي الشجيعة الشريفة الفرق العظيم بين الحب المقيد بواجباتك وثباتك والحيوة المسكرة التي كانت تنتظرك بجانب الموسيو دي روشكيم ثم تبسمت وقالت اعترفي الان وقد اختبرته واصبح يمكنك تقديره مثلي واكثر مني ايضًا انه رجل المودة الحصرية وفي مثل هذه المودة فقط يسع المرء ان يقف على ظرف مباديه

وافكاره لانهُ لا يرضى باستعمال الافضليات لتحبية الجمل بها الا في الاجتماعات الحصرية فهل يوجد وقتئذٍ محادثة اكثر انسجاماً من محادثتهِ واطلاع اتم من اطلاعهِ فكم لديهِ من الفنون المتنوعة ثم ما هذه الاخلاق الكريمة المتصف بها وهل يوجد ما هو الطف وابش من تلك الاخلاق اريد تلك البشاشة التي يستدل منها على طهارة النفس فما اكثر منابع افكاره اني قبل رجوعك كنت اقضي احياناً ساعات برمتها انا وهو واما فنشمل لحديثه بسكرة الاعجاب وقد يصرف المرء اياماً بل سنين بجانبه ولا يشعر بشيء من الملل بل لا ينقص اهتمامهُ من نحوهِ . . . ومن اللازم التصريح بكل شيء. ففي السهرات الطويلة المذكورة كان يتكلم عنك بلا انقطاع ويقول ببشاشة لا اذكر اني تكلمت بفصاحة كما اتكلم الان معكم لانكم تحبون وتعجبون بالسيدة دي لانكراي وهي على الدوام في اعماق افكاري فلا يلزمكم والحالة هذه زيادة ايضاح لفهم كلامي انا نتكلم على ما يقال لغة واحدة

فاحمررت وقلت اعرفهُ بتلك الصفات الكريمة وانت ايضاً مثلهُ ياصديقتي تتكلمين على الدوام بلهجة طافحة بحسن الالتفات والاخلاص الشريف . . ولكن هيا الان لمشاهدة اما لان افكاري قلقة كثيراً من نحوها

قالت تعالي فلربما تكون استفاقت فتبعتها وانا بمزيد الاضطراب من الحادثة الغريبة التي ذكرت بها السعادة التي يذوقها المرء باجراء العلايق الحصرية مع الموسيو دي روشكيم بتلك المظاهر المسكرة

وعند وصولنا اعلمتنا احدى خدم السيدة دي ريشفيل ان اما لا تزال نائمة ولعلمنا ان النوم يفيدها لم نرد اقلاقها

وبعد برهة حضر خادمي وكنت قد ادخلتهُ جديداً في خدمتي واخبرني ان رجلاً يريد محادثتي بامور مهمة وهو ينتظرني في المنزل لانهُ علم بوجودي عند الدوقة دي ريشفيل

قالت الدوقة ان هذا الرجل بلا ريب من وكلاء اعمالك فاذهبي اليهِ باعزيزتي متيلدة وسوف ارسل بطلبك عندما تستفيق اما من الرقاد

فعدت الى منزلي وهنا فليحكم القاري على مقدار الرعدة والمخاوف التي استولت عليَّ عندما شاهدت في قاعتي الموسيو دي لانكراي . . زوجي جالساً يقرأ بجانب الموقدة

الفصل الثاني والستون

المواجهة

فاخذتني الدهشة وبقيت بلا حركة على باب القاعة وقد القيت باليد الواحده على احد المقاعد لاسند ذاتي ورفعت الثانية كاني اريد ان الطف بها دقات قلبي

اما الموسيو دي لانكراي فنهض ووضع كتابة بسكينة على طاولة هنالك ثم جلس امام الموقدة ودعاني باشارة الى الاقتراب منة

وكان وجهة بملامح قاسية خشنة تشف عن ارتضاء سري لا يدرك فلم اتجاسر على التقدم وظننت اني في حلم فاقترب الموسيو دي لانكراي مني وقال ما هذه المقابلة بعد ذلك الفراق الطويل ثم حاول القبض على يدي فتاخرت فجأة الى الوراء

فتبسم بهيئة ساخرة وقال ان هذا لمنتهى البغض ياعزيزتي

وكان من هذه الكلمات ان حركت غيظي وشجاعتي معًا فتقدمت بقدم ثابت الى وسط القاعة وقلت ماذا ترغب ياسيدي

قال ارغب اشياء كثيرة وحيث هذه الاشياء تقتضي شرحًا طويلاً فاكلفك قبل كل شيء الى الجلوس

فصحت ياسيدي

قال لا باس اني واقفة وجلس

وبعد ان استغرق برهة بالتامل والسكوت رفع راسه وقال اعرفي ياعزيزتي اني زوج كثير المساهلة وقلما اضايق

قلت انك ما حضرت الى هنا لتخبرني هذا الخبر المشين ولا ريب انك حاصل على سبب خطير حملك على المجيء لاجراء هذه المواجهة المكدرة . . فتكرم باختصارها

فقال هل تنتظرين بالصدفة الموسيو دى روشكيم

فعبق وجهي بالاحمرار ولم اجاوب

اما هو فداوم الحديث وقال انا لا ارى اهانة وهو ايضا سيسر بهذه المصادفة فانظري ما احسن المراكز الحرة بل انظري الى فوائد الحب العفيف الطاهر حيث لا يرتبك به احد لا

الامراة ولا الزوج ولا العاشق ثم القى نظرًا الى ما فوق وقال حقًا ان هذا المسكن لفي غاية المناسبة لانهُ معتزل خفي

قلت اسالك للمرة الثانية ياسيدي هل يمكني ان اعرف ما الذي تريدهُ مني

فلم يجب على سوالي ولكنهُ تاملني باصغاء وقال اراك كثيرة الجمال ان منزلتك كامراة متروكة تحسنك والذي يظهر لي انك قطعت بعزمك فما عدت تبدين شيئًا من الحنو والاضطراب والبغض واللوم وغاية ما تظهرين لحضوري بعد فراق ثلاث سنوات احتقار مقرون بالضجر

قلت اذا كان الامر كذلك ياسيدي فلا حاجة لاعلامك اذن انهُ يهمني كثيرًا الاستعجال للتخلص سريعًا من هذه الحادثة التي لا اعلم لها غاية ولا سبب

قال لست اعجب من هذا الاستعجال وان يكن بعيدًا عما يتطلبه التمليق وواجبات الادب والزيجة لانك امراتي ياصديقتي العزيزة . . والامل ان لا تنسي هذه الحالة ولو مهما تراءى لك ان اهميتها قليلة بالنظر اليك

قلت الحمد لله ياسيدي نسيتها ولولا حضورك لما تذكرتها

قال ولا ريب ان غيابي كان كافيًا لمحو هذا التذكار المشوم من ذهنك اليس كذلك ان سكوتك جواب اما انا فلحسن الحظ ياسيدتي لست مثلك كثير النسيان واتذكر جيدًا اني زوجك ولا سيما عندما اراك بمثل هذا الظرف البديع واسالك عفوًا لاني اهملتك زمانًا طويلاً . . . .

قلت من العبث ياسيدي ان تسالني العفو عن تركٍ ما شعرت ولست اشعر بهِ . . .

قال اعلم ذلك جيدًا وليس اعتذاري لك الا لراحة ضميري او بالحري واسطة للحصول على طلبي

قلت اني سامعة لك ياسيدي ولكنك حتى الان تتكلم بالالغاز

فارسل اليَّ نظرًا مستغرقًا بالشر وقال صحيح . . صحيح . . اني اتكلم بالالغاز وهذا تفسيرها ان من المستحيل عليَّ بعد الان المعيشة بدونك . . وارجوك ان تضعي حدًّا لهذا الفراق الطويل

فرفعت اكتافي بمظاهر الشفقة ولم اقل كلمة

قال لربما تظنينني امزح

قلت ليس لك جواب عندي على هذا الكلام ياسيدي

فصاح اقول لك ياسيدتي اني اتكلم معك بالجد

قلت وانا اقول لك ياسيدي ان هذه المحادثة طالت كثيرًا ولا أصدق انك جئت عندي لتحدثني بامثال هذا الحديث

فاستغرق بالضحك العصبي وكرر قولي جئت عندك . . جئت عندك انك بلا ريب فقدت صوابك وسيكون كثيرًا مني ايضًا كرئيس مفوض على الاموال المشتركة فيما بيننا ان اسمح لك بان تقولي عندنا . . لانك انت هنا عندي وفي ملكي

فصحت ولكن ياسيدي . . .

قال ولكن هل قرأت القانون المدني ياسيدتي . . انك بلا ريب ستجيبيني بالسلب فقد اخطات اذ لو قراتِه لعلمت ما هي حقوقي . وللحال خطر على بالي اني فهمت الغاية المستنكرة من هذه الزيارة واحمررت لذلك من الغيظ فوجهت اليه نظرًا طافحًا بالاحتقار الساحق وقلت انك بلا ريب تريد دراهم

فانقلب وجههُ بالغضب ونهض بحدة وصاح الحذار ياسيدتي

قلت وقد جئت تعرض غيابك عليّ بالدراهم . . . ولهذا تراني اليوم بمزيد الاسف على خرابي وضياع اموالي التي انفقتها حيث لم يبقَ لي لسوء الحظ من الدراهم ما يكفي لان اشتري منك هذه النعمة

فصاح باعين ينبعث منها شرار الغيظ والبغض يا لك من تعيسة وصلت الى القدح . . . الا تعلمين اذن انك عائشة بجبري واني موجود الان في بيتي وانك امراتي . . . دائمًا امراتي وانصرف بك كيفما شئت وليس لك ان تعترضي بكلمة لان القانون يساعدني وغدا او اليوم يمكنني ان اسكن معك هنا او آخذك اليّ

قلت اعلم ياسيدي انك تريد ارهابي بهذا التهديد ولا ريب انك اخترت اعظم وسائط الارهاب حيث لا يبعد ان اموت خوفًا لهذا الفكر وهو لربما يحكم عليّ بالمعيشة بجانبك ولكن برح عن بالك ان فواحش تصرفاتك تعاظمت الى حد ان خسرت جميع حقوقك عليّ

فقال صحيح خسرت جميع حقوقي عليك

قلت اما زيارتك ياسيدي فحيث لا يمكن ان يكون لها غاية اخرى خلاف مطالبتي بشيء من الدراهم ويكـاد ما تركتهُ لي منها لا يكفي لمعيشتي فاكرر لك القول بان لا فائدة لك بالانتظار

فاظهر برودة اخافتني باكثر من تطرفات الغضب وقال اني اشفق عليك ايتها المجنونة المسكينة فاسمعي لي ان هذه الشقشقة باللسان لا تفيدك فانت بلا ريب تريدين بتصرفاتي الفاحشة علاقتي

الحبية مع اورزيل الا فاعلمي اذن انه يمكني بمقتضى القانون ان احصل على عشر معشوقات ولا يجوز لك التلفظ بادنى كلمة للشكوى مني بشرط ان لا ادخلهم الى مسكني ولا يسعك ابداً ان تثبتي بان اورزيل داست مسكني

قلت ان المسالة ياسيدي لا تقتصر على اورزيل فقط

قال حسن فاذن تريدين التكلم عن اسرافي وتبذيري للاموال وحينئذٍ اكرر ما قلته لك سابقاً بمناسبة اعمال الخير التي تصورت اجراءها وهو ان القانون يخولني دون غيري حق التصرف باموالنا وسواء كانت تصرفاتي بذلك المال رديئة او حسنة فلا يجوز لاحد ان يراقب عليّ او يعترضني بشيء . . . ولست ملزوماً ان اقدم حساباً لاحد . . فآمل والحالة هذه ان يكون مركزنا قد اتضح جلياً لاعينك وحتى في تقريرك لديك

قلت بمزيد الوضوح ياسيدي و . . . . .

قال والنهاية ان ارادتي انما هي ان تعودي من الان وصاعداً للمعيشة بجانبي ولك مني فرصة ثمانية واربعين ساعة للاستعداد فاليوم الجمعة والاحد صباحاً احضر للذهاب بك . . . وكان يمكني ان آخذك في مساء هذا النهار . . وفي هذه الساعة ايضاً ولكني لا اريد ذلك . . وحيث لا يبعد ان تلتجئي الى الفرار بالسفر من الان الى الاحد فساترك احد خدمي الامناء لك بالمرصاد يتاثرك الى حيث تذهبين لاعرف دائماً مكان وجودك واذهب اليك . . اما محبك العفيف الطاهر فقولي له من قبلي اني اعفيه من زياراته لك ما لم يحضر لزيارتي شخصياً . . . وحينئذٍ . . وحينئذٍ . . لا تعود النقية تتعلق بك

قلت انك تتكلم بمزيد الصراحة ياسيدي وساحاول مجاوبتك بمثل هذه الصراحة ايضاً فكن براحة لجهة سفري حيث لا يخطر على بالي مطلقاً ان اتحمل ثقلة الفرار من اجلك ولكن ابداً . . ابداً . . لا اذهب معك باختياري ولاغتصابي على الذهاب يجب ان تستعمل القوة ومتى تداخلت الحكومة بيني وبينك فلا شبهة حينئذٍ يبت هذه المسالة سريعاً

فقهقه ضحكاً وقال حقاً انك لمن امهر المحامين واحذقهم ياسيدتي لكني اخشى كثيراً ان تخسري دعواك الاولى فانت بلا ريب تريدين القول بانك تطلبين الافتراق عني وقد فكرت بذلك لكن لا يكفي الزوجة بحسب القانون ان تطلب الافتراق للحصول عليه وسنلتزم ولو مهما ساءت الاحوال للمرافعة فتقولين لي اورزيل اجيبك روشكيم . . ولا ريب ان الفكر العام سيشكو مني ولكنه سيشكو منك ايضاً وينتهي الحال بارجاعنا الى بعضنا كالسابق بالنظر الى المشابهة الحاصلة بين مركزينا

فصحت ياسيدي لا تتطرف بالاهانة الى اجراء هذه المشابهة

قال ياالله ما اظرف وما ابدع هذا الحديث ولماذا ياترى . . لان شيخًا مسنًا في حالة الخرف وامرأته المتنسكة او بالحري راهبة متدينة كالدوقة دي ريشفيل يصرحون بطهارة هذه العلايق مع الموسيو دي روشكيم وهل تتصورين كون ذلك كافيًا لاثبات هذه الطهارة فانا ايضًا يمكني الادعاء بطهارة حبي وعند الحاجة تشهد السيدة دي ماران واصحابها جميعًا بطهارة علايقي مع اورزبل وشرفي ان هذه المحاكمة لمن اطرب ما تسمع بهِ الاذن ولا يخفاك أن ذلك كله بالنظر الى المستقبل اما في الحاضر فيكلفك احد وكلاء البوليس بالذهاب موقتًا لبينما تنتهي الدعوى الى منزل زوجك ايتها الشاة العزيزة الصغيرة الضالة

قلت لا اظن ذلك ياسيدي

فاظهر سمات السخر وسال باية قوة من قوات الحب وباي ظرف ساحر ياترى يمكنك استمالة وكيل البوليس وتحويله عن انفاذ ماموريتهِ

قلت باسهل الوسائط وهي ان اطرح امام اعينه البراهين الثابتة على وجود العلايق السفلة بينك وبين السيدة سيشرين وتصرفك الاثيم بثروتي

قال ان هذه البراهين هي بلا ريب عبارة عن تصريح من البرنس دبركور او شهادة من تلك الدوقة الجميلة النادمة

قلت لا اظن ذلك ياسيدي

قال فاذن بعض الشكاوى من ذلك المسكين الموسيو دي سيشرين أو امه الامرأة المنفقة على قول السيدة دي ماران لاحكام العناية

قلت الحذار ياسيدي الحذار فقد يمكن ان لا يخلو حقيقة نصيب هذه العائلة المشوم من مقاصد المنية

ولم يسعني وقتئذٍ ان امتنع عن التفكر بتهديدات الموت التي لفظها الموسيو سيشرين ضد الموسيو دي لانكراي

قال حقًا ياسيدتي لا بد من ذلك حيث يتراءى لي بغرابة ان ذلك المسكين الموسيو سيشرين مختار من الله لاجراء اعمال عظيمة

وكان زوجي يتكلم بذلك وهو يتبسم بمظاهر المازحة الخشنة فقلت لا اعلم ياسيدي ما الذي تغلب عليَّ الان هل الغيظ او الاشمئزاز فبكلمة اذن اريد أن انهي هذا المشهد ان البراهين التي ساطلب باسمها من وكيل البوليس الانسحاب موقتًا الى دير القبر المقدس لبينما يحكم بفراقنا . . .

قال صرحي . . صرحي . . . ما هي هذه البراهين

قلت ان هذه البراهين ياسيدي هي تحارير كتبت بيدك الى احد اصحابك في بريطانيا عن علاقتك مع اورزيل

فنظر اليَّ الموسيو دي لانكراي باهتًا مندهشًا وقد انقلبت هيئته بالغضب والخجل والغيظ والبغض ثم قبض على ذراعي وصاح بصوت هائل الويل لك اذا كنت قرأت هذه التحارير . . الويل لك

فشعرت للحال ان الشجاعة وصلت بي الى منتهى درجات التحمس فتخلصت من يده وقلت قرأت هذه التحارير ياسيدي

فصاح قرأتها . . واين هي . . اين هي الان

قلت في قبضة يدي

فارسل نظرًا الى ما حوله كما لو كان يبحث بنظره عن مكان وجودها وصاح خيانة . . خيانة دنية وستكلفة بلا ريب خسارة حياته

ثم رفع يديهِ مطبقتين الى جبهته بملامح من الغضب المخيف وضرب الارض برجلهِ وصاح لا تكرري على مسمعي انك قرأت هذه التحارير والا فلا اكون مسئولاً عن اعمالي

فبادرت سريعًا الى قرع الجرس وللحال دخل خادم غرفتي فقلت لهُ بصوت ثابت اجلس في القاعة الصغيرة حيث لديَّ اوامر مهمة اريد ان اصدرها لك

وكان من هذه الكلمات ان اعادت الموسيو دي لانكراي الى صوابهِ فمشى بعض خطوات بهياج ثم رجع لنحوي وسال كيف حصلت على هذه التحارير فمن اللازم ونار الجحيم ان اعلم ذلك في هذه الساعة

قلت وماذا يهمك معرفة المصادر التي وصلتني منها هذه التحارير . . . فمن المقرر الاكيد انها في قبضة يدي ولا البث ان اظهرها للعيان اذا اجبرتني على ذلك

فصاح الموسيو دي لانكراي بمنتهى الخجل والياس بلا ريب انك اظهرتها وعرضتها على جميع اصحابك ومعارفك ليعلموا الى اية درجة تزدري بي اورزيل وتستحل تعاستي اليس كذلك ان فوزك واصحابك وقتئذٍ كان عظيمًا ولا شبهة انك ضحكت واياهم كثيرًا من جروحات نفسي الداميــة بحقك قولي الم يكن ذلك جنونًا موجبًا للضحك مني اليس من الجنون ان اخرب ذاتي من اجل امراة تسخر بي ثم زاد على ذلك وهو يضحك برعشة عصابية قولي كم نسخت نسخت عنها انت والموسيو دي روشكيم وكم وزعت منها على الناس في تلك الساعة

فاهاجتني منهُ هذه الشكوك السفلة وقلت اني حاصلة على الشقاء والعار بمشاركتي لك باسمك وهذا القصاص وافٍ بمذلتي ولا يمكن ان اسعي بما يزيد هذه المذلة

قال ليس هذا جواب كلامي صرحي من دفع اليك هذه التحارير ومتى وصلتك

قلت لا اجد مانعاً من التصريح لك بمطلوبك فان التحريرين الاولين وصلاني بعلبة من الكارتون وفي ضمنها باقة من الزهور شبيهة بالزهور التي قدمها لي سابقاً الموسيو ليكورنتو بواسطتك ولا ريب انهُ هو الذي ارسل اليَّ هذه التحارير ولكن لا اعلم كيف اتصل اليها اما التحرير الاخير فوصلني بالبوسطة

فصاح الموسيو دي لانكراي فاذن ليكورنتو هنا ولم يعد لي ريب بذلك والذي اخبرني لم يغشني فانهُ نظره برأى العين . . لكن الخادم الذي عهدت اليهِ بايصال التحارير الى البوسطة من احسن خدمي الموثوق بامانتهم وزد على هذا ان الرجل الذي كتبت اليهِ اجابني كما لو كانت التحارير المذكورة قد وصلتهُ

قلت ليست هذه هي المرة الاولى التي قلد بها الموسيو ليكورنتو خطك وغش اتباعك

فصاح نعم . . نعم صدقت . . صدقت . . ولكن لماذا يخفي ذاتهُ ياترى . . اه لو اعرف مكانهُ ثم اذا كانت غايتهُ زيادة بغضي القديم ضدك الى منتهى الحقد المجرد عن الشفقة فلا ريب انهُ احرز هذه الغاية ونجح بمقصده الى اكثر من مرغوبهِ . . وهنا صاح يا للموت ويا للجحيم كيف اطلعت على افكاري الخفية المشينة ولم تخفي عني ذلك الا تعلمين اذن أن بغضي يتزايد بما تحرزين عليَّ من الافضلية بهذه التحارير . . فهذه التحارير . . هذه التحارير يجب ان احصل عليها في الحال

قلت لا يبرح عن بالك ياسيدي ان هذا التهديد يزيدني حرصاً عليها وتمسكاً بها

قال اسمعي يامتيلدة لا تدفعي بي الى النهاية وحيث قراتها فلا يخفاك ان نفسي وقتئذٍ كانت غارقة بالمرارة ولكن ذلك كلهُ لا يحسب شيئاً في جنب مرارتي الحاضرة فبحقك يامتيلدة لا تدفعي بي الى النهاية . .

قلت فلنعش كالماضي ياسيدي منفصلين عن بعضنا فتبقى هذه التحارير مجهولة الى الابد

فصاح قلت لك يجب ان تحضري للسكنى معي وان الضرورة تقضي بلزوم اجراء هذا العزم الان . . .

قلت ساستعمل جميع الوسائط الممكنة للتخلص من هذا النصيب المخيف الذي تهددني بهِ

فصاح انت مجنونة ولا ريب ستجبرين بادىء بدء على الذهاب معي بالرغم عن هذه التحارير وان تنتظري عندي نهاية المحاكمة

قلت سوف نرى ياسيدي اذا كانت الحكومة لا تسمح لي بوجود مثل هذه الادلة ان اذهب

الى مكان متحايد كالدبر وعلى كل فاني مستعدة ياسيدي للرضاء بما يحكم به النصيب

فسال هل هذه هي كلمتك الاخيرة

قلت نعم هذه هي كلمتي الاخيرة . . ومع هذا اسمع لي جيدًا من اجل خيري وخيرك حيث لا اخفي عنك اني استنكر من اعادة التكلم باعمالك الماضية ولا ريب ان الحاحك عليّ بطلب السكنى معي ليست الا تهديدًا او بالحري واسطة لحملي على القبول ببعض مطالب مالية ولربما يكون مرادك ان اتنازل لك عن المعاش الشهري الذي خصصتني به فاذا كان ذلك كذلك فلا امتنع عن القبول لاوفر عنك تمثيل هذا الدور المشين المستقبح

فقاطعني بحدة جديدة وصاح لو وصلت الى منتهى درجات الفقر واثقلت ظهري بالذهب لا امتنع عن انفاذ حقوقي عليك ولولا الظروف القاضية التي تمنعني . . لما امهلتك الى بعد غد بل قدتك معي في هذه الساعة

فصحت ان هذا جنون وحشي فمن المستحيل ان يحصل التقرب بيني وبينك ومنذ هنيهة صرحت لي علانية انك تبغضني بقدر ما احتقرك فما الذي تريده مني اذن ان هذه المسالة لا تخلو من سر هائل لكني والحمد لله لست وحدي الان بل حاصلة على اصدقاء ويمكنهم المدافعة عني

وحينئذٍ دقت الساعة الثالثة

فصاح بفروغ صبر دقت الساعة الثالثة وصرت ملزومًا بالذهاب فاخبريني الان للمرة الاخيرة هل ترفضين المجئ بعد غد للسكنى معي

قلت ارفض ذلك

قال تحذري جيدًا

قلت ارفضهُ كل الرفض ولا اسلم الا للقوة

قال هل ترغبين اذن العار والفضيحة

قلت لا اعلم ياسيدي ما الذي تريد ان تفعلهُ معي ولكني تاكدت الان انك اهل لان تقدم على كل شيء

فصاح بنوع من الغيبوبة . . نعم . . نعم سافعل كل شيء ولا ابالي لاجبارك على اتباعي حيث يتوقف على ذلك اكثر من حياتي ثم ظهر عليهِ كانهُ ندم على ما فرط منهُ بهذه العبارة الاخيرة فتبسم بتمرمر وقال نتوقف على ذلك سعادتي . . سعادتي الداخلية . . ياامتيلدتي اللطيفة لان اياما جميلة كثيرة تنتظرنا فالى الاحد اذن

ثم خرج ركضًا

وبعد ذهابهِ فارقتني القوة السحرية الدفاعية التي اسندتني فبقيت مدة بلا حراك لا اقدر على جمع افكاري لانها تبددت بذلك المشهد الساحق فلزمني بعض دقايق من الراحة والتامل لجمع شتاتها وتصور نتائج تهديدات الموسيو دي لانكراي والى اية درجة يمكنهُ انفاذها اما الاسباب التي حملتهُ على طلب الافتراق مني فلم يسعني معرفتها ولكنها بلا ريب اسباب مشومة ومع هذا فقلما قلقت لها لاني كنت ثابتة في عزمي لجهة عدم الرجوع ابداً للمعيشة بجانبه بقي عليَّ ان اعرف هل يمكنهُ ان يجبرني على مخالفة عزمي

وكانت رجال اشغالي قد نصحت لي مراراً عديدة ان اطلب الافتراق عنهُ وهم لا يشكون بسهولة حصولي على هذا الافتراق ولكني انفت من ذلك فراراً من العار والانتصاح ولم يخطر على بال احد مطلقاً ان الموسيو دي لانكراي تصل بهِ يوماً القحة الى حد ان يطلب اليَّ الرجوع للسكنى معهُ في منزل واحد وترآى لي من المستحيل ان اجبر لدى اظهار التحاشي المتقدم بيانها على البقاء مع الموسيو دي لانكراي ولو موقتاً ولكني فكرت من جهة ثانية ان القانون يكون في الغالب مجرداً عن العدالة باسلوب غريب من نحونا نحن النساء فلم تحصل افكاري على تمام الطمانينة وكتبت سريعاً الى متشرع من ارباب الامتياز كان مكلفاً بادارة مصالح الدوقة دي ريشفيل ارجوهُ الحضور باسرع ما يكن للمخابرة معي

وبعد اجراء التاملات الدقيقة العميقة ظهرت لي نهاية ذلك المشهد الهائل بمظاهر سعيدة واستقرت افكاري المشومة بخصوص الموسيو دي لانكراي وكان قد ظهر لي منذ هنيهة بمشهد ينفر القلوب وادعاآت مستنكرة ومخيفة معاً الى حد ان اغتظت لاني اجريت لبرهة من الزمان الموازنة بين تصرفاتي وتصرفاتهِ ومن ذلك الحين وجدت بيني وبينهُ مسافة شاسعة ثم انتبهت اخيراً باظهار الشفقة على مزيد دقتي وتحرسي بالمحافظة على الواجب

وكانت الطريق المفتوحة امامي التي اعتمدت على اتباعها كثيرة البساطة وهي ان اطلب الافتراق عن الموسيو دي لانكراي جسداً ومالاً ومتى تمَّ ذلك اتبع تمنيات فوادي واذهب الى بعض الاماكن المعتزلة المجهولة حيثما انتظر الموسيو دي روشكيم واوقف لهُ بقية حياتي لان الافتراق الشرعي التام بمعنى الطلاق وساعتبر ذاتي من بعده بتمام الحرية المطلقة

وكان من الاشرف بلا ريب ان استمر على تمثيل ذلك الدور السامي المتعلق بالكفر بالذات الذي حكمت بهِ على نفسي ولكني وجدت اخيراً من البلادة ان ابالغ بالمحافظة على واجباتي الى هذا الحد

ولو تركت وشأني لما طلبت في حياتي هذا الافتراق ولربما بقيت اراعي مقتضيات الدقة والتحرس الى الازل ولكن الموسيو دي لانكراي الجأني الى هذا العمل المتطرف ومع انهُ مكدر

لي بمناسبة بعض الظروف اقتبلتهُ بمزيد الفرح اذ بهِ الحصول على سعادة البقية من حياتي . . وذلك المستقبل الزاهر الذي اشرفت على تضحيته

ولم اشعر ابدًا ان افكاري تجملت بمثل هذا الثبات والصراحة والسكينة والحزم مما حصل لي بعد هذه الصدمة ولا اذكر اني قطعت بعزمي ابدًا بمثل هذه السرعة

فما تعاميت عن معرفة شيء وما احجمت عن اي تصور ولو مهما كان مكدرًا فافترضت اني اجبرت على السكن مع الموسيو دي لانكراي الى صدور الحكم وكنت متيقنة اني احتمل بثبات هذه التجربة ويساعدني على ذلك الاعتقاد بالسعادة التي تنتظرني بعدئذٍ

ثم ذهبت بالتصور الى اكثر من ذلك وافترضت اني خسرت دعواي وان الموسيو دي لانكراي اصبح ولي امري فقلت اذا حصل ذلك يكون الظلم من هذه المحاكمة جليًا لا يحتاج الى دليل ولسان حال الهيئة الاجتماعية المختص بذلك الحكم متشيعًا ضدي ولا اعود مرتبطة بشيء من الاحترام او الواجب لنحو هذه الهيئة المتشيعة فاعهد بمستقبلي وحياتي لحنو الموسيو دي روشكيم وقد افعل ذلك بلا خوف ولا تبكيت ضمير امام وتحت عناية الله مستانفة حكم العالم الى مجلسهِ الاعلى ملجأ وامل المظلومين الاخير

وكنت على يقين اتم من عزمي ولكني اردت من اجل الارتباط مع الموسيو دي روشكيم والحصول على مشوراتهِ وسنده بمثل هذه الظروف الخطرة ان احرر لهُ فكتبت اليهِ هذه الكلمات

عد . . عد سريعًا . . ياصديقي الحنون . . ففي هذه المرة ساكون لك دائمًا والى الابد . . ان حياتي تخصك

ثم استدعيت بلوندو وقلت لها اذهبي الى منزل الموسيو دي روشكيم وادفعي هذه التذكرة الى تابعهِ وقولي لهُ من قبلي ان يرسلها سريعًا الى سيده مع ساعٍ مخصوص ولم تخرج بلوندو من غرفتي الا دخلت عليَّ امراة من اتباع السيدة دي ريشفيل غائبة عن الوعي غارقة بالدموع وصاحت بحق السماء يامولاتي تعالي . . لان السيدة اما في حال النزع والسيدة دي ريشفيل تهذو كالمجانين

الفصل الثالث والستون

مشورة

يالهُ من مشهد مولم تراآى لي وقتئذٍ عند دخولي على اما وحفرت تفاصيله على لوح تصوراتي باحرف لاتمحي الى الابد فان الغرفة كانت مفروشة بالكتان الابيض ومن ذلك الستائر وافرشة السرير وكانت المنافذ مقفلة تقريباً بحيث لاينفذ النور الى الداخل الا ضعيفاً ولا يمكن الناظر ان يميز وجه اما المصفر الملائكي المحاط بضفائر شعرها الاشقر من وسط الاغطية البيضاء المحدقة بهِ وكانت اعينها الواسعة وقد فقدت تقريباً خاصة النظر مغرورية تحت اهدابها الطويلة التي تظلل خديها المجورين بظل شفاف وشفتاها تضطربان احياناً بضعف وهي مشبكة يديها على صدرها بمظهر الظرف والاحتشام الغريب

وكان قد مضى عليَّ يومان كاملان ولم اشاهد اما فخفت من مظاهر التغيير الطارئة على وجهها

وكانت السيدة دي ريشفيل جاثية على وسادتها تضمها اليها برعشة عصابية وتقبل اعينها وخديها وجبينها وشعرها وتغرقها بالدموع وامراة من اتباعها مجالدة على حصر تنهداتها منحنية على الفراش وفي يدها كاس

فركضت نحو السيدة دي ريشفيل وجثوت على ركبتي بجانبها وصحت ماذا حصل يا الهي فلم تجب بشيء ولكنها ضاعفت تقبيل ابنتها وذرف الدموع

فقبضت على يد اما واذا هي جافة محرقة وتراآى لي ان تنفساتها المرتفعة المحصورة لا تصدر عنها الا بصعوبة وان ذلك هو الباعث على اضطراب السيدة دي ريشفيل

فقلت بصوت منخفض لامراة الغرفة هل ارسل وراء الطبيب

اجابت لا واسفي ياسيدتي ان هذا العرض الحاد طرأ فجأةً على مولاتي فتضعضع صوابنا ولم نعِ على شيء

قلت اعطيني اذن هذا الكاس وانطلقي سريعاً لاستدعاء الموسيو جيرارد فاطاعت الفتاة المذكورة وخرجت ركضاً وعند ذلك صاحت السيدة دي ريشفيل من خلال تنهداتها يا اما . . يا اما . . يا ابنتي الا تسمعينني اذن يا الهي ولا ترينني . بحقك اشربي قليلاً

ثم التفتت لتاخذ الكاس فشاهدتني وعند ذلك ارتني ابنتها بنظر مايوس وتممت الم اقل لك . . فقدتها . . فقدتها . . . ولا يمكني ان اعيش من بعدها

فصحت السكوت بربك السكوت من اجلك ومن اجلها

قالت الدوقة واسفي لم تعد تعرفك ولا تريد ان تاخذ شيئًا من يدي . . ولربما كان يفيدها العلاج . . .

ثم قربت الملعقة من شفاه الفتاة فحولت راسها بلطف عنها وللحال صاحت الدوقة قلت لك انها تعرف كل شيء فهي تحتقرني وتبغضني وسوف تموت وهي تلعن امها

ثم غابت الدوقة دي ريشفيل عن الصواب وجعلت تحرك اذرعها حركات اليأس وتحولت تنهداتها الى شهقات عصابية ثم انقطعت فجأة ووقف سيلان دموعها وسقطت في الحال فريسة لفاجئ عصبي مخيف

وعند ذلك قرعت الجرس لنسائها فحملنها الى غرفتها وبقيت وحدي بجانب اما وفي تلك الساعة تقريبًا دخل الدكتور جيرارد فاعطي له الايضاح الكافي عن ليل البارح وكانت اما قد صرفتهُ بكثير من الهياج وفي الصباح رقدت قليلاً وعند ما استفاقت نظرت طويلاً الى الدوقة دي ريشفيل ثم تكلمت بالفاظ غير مفهومة في اثناء الهذيان الناشيء عن اشتداد الحمى وعندما زالت عنها هذه العوارض سقطت في حال الغيبوبة وضياع الحواس كما هي الان

فاقترب الموسيو جيرارد من فراش المريضة وتاملها هنيهة ثم سمع باصغاء الى تصعيد انفاسها اما انا فبقيت انظر الى هيئتهِ بمنتهى القلق لان وجههُ كان مكفهرًا ويستدل من مظهره انهُ بشاغل قوية وبعد ان اكتفى الطبيب من التامل والفحص قال ارغب ياسيدتي ان اختلي معك وحدي في هذا المكان لان السيدة دي ريشفيل لسوء الحظ في حال من الصحة لا تمكنها من استماعي

فابديت اشارة للنساء فخرجن وعندما خلا بنا المكان صحت اه يا الهي ماذا حصل ياسيدي

اجاب ان الخطر عظيم . . عظيم جدًا

فصحت اجب بربك ياسيدي هل فقد كل امل اذن

قال اخشى ان يكون كذلك لان العلم لسوء الحظ عاجز عن مقاومة الاسباب الادبية التي يتاتى عنها عوارض مادية بتزايد مستمر فباطلاً يعالج الطبيب مسببات المرض عندما تكون مصادره مجهولة ولهذا فبالنظر الى الحالة الخطيرة الموجودة . . الان السيدة اما

. . يلزمني . . ويحبني . .

وشاهدت وقتئذٍ تردد الموسيو جيرارد فقلت اني احسن صديقات السيدة دي ريشفيل ياسيدي واحب اما كشقيقتي ويمكنني ان اجيب على جميع سوالاتك

قال ومن اجل هذا طلبت اليك ان تصرفي عنا نساء السيدة دي ريشفيل لان ما اريد قولهُ لك سر خطير

ثم وقف برهة وعاود اتمام الحديث فقال اني توليت دائمًا معالجة اماسولي في دير القلب المقدس او هنا والذي ترآى لي بالاختبار انها بمزايا مترفعة خفية وتصور حاد وفكر كثير التاثر وطهارة عميقة ولا اعلم اذا كنت مخطئًا بذلك

قلت ابدًا ياسيدي . . ولكنها مع السيدة دي ريشفيل ومعي بافكار متناهية بالحرية المستديمة لا تخفي عنا شيئًا على الاطلاق

فتامل الموسيو جيرارد برهة ثم قال ان السيدة دي ريشفيل كانت تخاطبني غالبًا عن اما بمثل كلامك وهذا الذي الجأني الى تكذيب بعض الشكوك التي داخلتني بخصوصها ويسوءني كثيرًا اني لم اعهد اليك وقتئذٍ بهذه الشكوك

قلت وكيف ذلك ياسيدي

قال سوف اخبرك لماذا اسباب مرض هذه الفتاة ادبية محضة فان احلامها المتزايدة وحالة ذبولها وسقمها ابتدات معها منذ زمن طويل لكن هذه العوارض اتخذت مزية جدية منذ بضعة ايام ثم وصلت الى ما يوجب القلق والخوف منذ امس والان ما اريد قولهُ لك دقيق جدًا لكن نتوقف عليهِ تقريبًا حياة هذه البنية

فصحت بربك ياسيدي . . . . .

قال اخبريني انت التي تشاهدين في كل يوم السيدة اما وتعيشين معها بمنتهى العلايق الحصرية الم يظهر لك منها ما يستدل منهُ على شيء من الميل . . او الانعطاف

فصحت لا ياسيدي . . لا شيء من ذلك . . من اين اتاك هذا الظن

قال اعيد لك ياسيدتي ان ظواهر مرضها تشف عن عوارض السقم الناشئة عن احزان خفية في القلب وقد حاولت مرارًا ان اصرح لك بشكوكي ولكن كلامك مع حضرة الدوقة عن حرية ضمير هذه الفتاة ابعد عني هذا الفكر . . .

قلت لا ياسيدي ان اما غير حاصلة على شيء من هذا الحب ولو كنت مثلي عالمًا بطهارتها وجهلها الصبياني لما امكن مطلقًا ان يخطر على بالك مثل هذا الفكر وفضلاً عن ذلك فمن المستحيل عليها ان تخفي سرًا كهذا عن السيدة دي ريشفيل او عني

قال ان هذه الطهارة والجهل الصبيانيين هما الذين يدفعاني الى زيادة التمسك والاعتقاد بهذه الظنون

قلت وكيف يمكن ذلك ياسيدي

قال لربما تجهل هي ذاتها ايضاً شعائر فوادها الا تذكرين ياسيدتي لدى التفكر ببعض تصريحاتها واقوالها انها تلفظت بشيء نتوصل بتفسيره وتاويلهِ الى التنور في هذه المسالة

فعدت الى التامل برهة ثم قلت لا ياسيدي وكلما بحثت في هذه الافكار كلما ظهر لي فساد هذا الافتراض ولكني مع مزيد التحرس بالمحافظة على بعض الاسرار التي لا يتعلق بي امر المساهلة بايضاحها لاارى بدًا من التصريح لك باني والسيدة دي ريشفيل في خوف من ان تكون اما قد اطلعت على سريهما كثيرًا وهو يتعلق بعائلتها ويكون هذا الاكتشاف هو الباعث على مرضها

فزاد الموسيو جيرارد ارتباكًا وترآى لي ان اقوالي لم توثر بهِ شيئًا فهز راسه بمظاهر الارتياب وذهب من جديد الى قرب اما يسمع تلهثاتها وكانت قد همدت قليلاً ثم جس نبطها وقال لي انها في حال رديئة . رديئة جدًا ولا ريب ان سببًا ادبيًا هو منشأ كل هذه العوارض ولا يمكن الاتكال في مثل هذه الظروف الا على علاج ادبي ويوجد امثلة كثيرة عن اناس عادوا الى الحياة بعد اذ اشرفوا على الموت وذلك بحضور الشخص المأسوف عليهِ او المرغوب بمشاهدته منهم . ولا اخفي عنك ياسيدتي انهُ يقتضي لخلاص اما عجيبة من هذا النوع

وشاهدت وقتئذٍ ملامح الحزن على وجه الطبيب فصحت اه ياسيدي انك تخيفني

قال ان هذا هو الاكيد ياسيدتي ويهمني ان اقنعك باهمية الخطر الذي يتهددها وذلك بالكشف لك عن بلاغ غريب وصل اليّ بطريقة غير مالوفة •

قلت ما الذي تريد قولهُ ياسيدي واي بلاغ تريد بحديثك

قال في هذا الصباح جاني رسول مجهول بعلبة صغيرة فيها عشر اوراق بالف فرنك الورقة وتحرير لا بد من اطلاعك عليهِ ولو مهما كلفني ذلك ثم اخرج الموسيو جيرارد التحرير المذكور وقرأ ما ياتي

ان هذه العشرة الاف فرنك هي لك اذا تعهدت باخبار السيدة دي لانكراي بان السيدة اما دي لوستانج تموت حبًا بالمركيز دي روشكيم

. . . انهُ يوجد بين الاضطرابات الادبية ما هو اشبه الاشياء بالطوارئ المادية فهي كالضربة العنيفة تصيب راسك فترميك الى الارض ولا تشعر في اول الامر الا بتضعضع شديد . . ودوار مولم تخمد في اثنائهِ جميع افكارك فتسقط وانت معتقد بابهام انك في خطر عظيم

وقد الم بي مثل ذلك بالاطلاع على هذا الايضاح الساحق فان قلبي اصيب وقتئذٍ بضربة هائلة فاضطربت افكاري بدوار مزعج وبقيت نحواً من ثانية لا ارى ولا اسمع شيئاً

وكانت الغرفة مظلمة فلم ينتبه الطبيب الى تغيير هيئتي وداوم الحديث فقال ولا حاجة الان اقول لك ياسيدتي بان العشرة الاف فرنك ارسلت حالاً الى المستشفيات ولا يمكن ان اعتبر كاني خدمت صوالح خفية بايضاحي لك او للسيدة دي ريشفيل عن اعتقاد او بالحري ظن خطير داخلني منذ زمان ولم اسكت عنهُ الى الان الا للاسباب التي اخبرتك عنها وهذا الاعتقاد يتعلق بحب اما لا بموضوع ذلك الحب لاني لم اتشرف بمعرفة الموسيو دي روشكيم الا بالاسم وصدقيني ياسيدتي اني لو لم احصل في هذا الصباح على هذا البلاغ الغريب لما تاخرت ايضاً عن التصريح بمخاوفي واعتقاداتي وذلك بالنظر الى اشتداد المرض على اما والان هل تظنين ياسيدتي ان ذلك الحب الذي تتعذب بهِ هذه الفتاة هو للموسيو دي روشكيم وهل تراه غالباً

قلت نعم ياسيدي تراه تقريباً في كل يوم

قال وهل تظنين ان الموسيو دي روشكيم يقاسمها ذلك الحب او لهُ علم بهِ

قلت لا اظن ذلك ياسيدي . . لا . . لا . . لا اظن ذلك

وبعد سكوت برهة قلت فجأة للطبيب بصوت خائر فاذن هذه البنية تحت خطر الموت . . والذي يقتلها حب مكتوم

قال اظن ذلك ياسيدتي وشرفي اظن ذلك ولم يبقَ لانقاذ هذه الفتاة الا سبيل واحد وهو احياء الامل فيها بان يقال لها ان الموسيو دي روشكيم يحبها ايضاً . . فقبل كل شيء يجب خلاصها

قلت بقي عليَّ الانْ ياسيدي من اجل خلاص اما ان اسالك خدمة بمركز عظيم من الاهمية

قال مري ياسيدتي

قلت تفضل باعطائي هذا التحرير وعدني بشرفك ان لا تقول لاحد على الاطلاق والى الابد انهُ وصلك شيء من ذلك

فبقي الموسيو جيرارد يشاور افكاره برهة حتى لا يكون تصرفه بخفة وقال ان ضميري لا يبكتني بشيء فان العشرة الاف فرنك انتفع بها الفقراء وما قلتهُ لك لا يخالف اعتقادي ولا اجد مانعاً من اعطائك هذه التذكرة والارتباط معك بالوعد الذي تطلبينهُ مني

قلت اشكرك ياسيدي

فرجع الطبيب لنحو فراش اما وقال بصوت خطير مهاب لا يبرح عن بالك ياسيدتي انك

مكلفة بمسئولية خطيرة . . والدقائق ثمينة وقد شاهدت الان الدوقة دي ريشفيل وتركتها في حال من الصحة لا تمكنها من الاهتمام بقريبتها . . فحظ هذه الفتاة يتوقف بكليته عليك . . واذا كان لديك ما يبعثها على الامل فعجلي بايضاحه لها بمزيد المداراة ثم جس نبطهـا وقال ان عوارض الحمى المتطرفة بالحدة تناقصت عنها وقد نامت قليلاً ولربما انقطع عنها الهذيان . . فاذا امكنها ان تسمعك وكان نخاعها لا يزال سليماً لا نعدم املاً من انقاذها

قلت بتمرمر الحق معك ياسيدي ان مسئوليتي الحاضرة لمن اعظم المسئوليات

ثم عاود الطبيب التامل في وجه اما وقال ارى دمعة تترقرق من تحت اهدابها وهذا دليل على انفراج الازمة وتحسن الاحوال تحسنا طفيفًا فبادري عندما تستطيع استماعك الى مكالمتها عن الموسيو دي روشكيم بتحرس في اول الامر ثم لاحظي بمزيد الاصغاء التاثيرات التي تظهر عند ذكر هذا الاسم عليها وعلى هيئتها

قلت نعم ياسيدي نعم سا لاحظ ذلك

قال واذا نظرت ان هذا الاسم ينبه منها بعض شعائر الاضطراب ولو مهما كانت طفيفة فيمكنك ان تومليها بقرب مشاهدته . . . ثم سال اليس الموسيو دي روشكيم هنا

قلت لا ياسيدي انه متغيب منذ عدة ايام

قال وصحة اما تفاقمت احوالها ايضًا منذ عدة ايام ولا ريب ان هذا السفر هو منشأ هذه الازمة الاخيرة فيمكنك والحالة هذه ان تكلمي اما عن قرب رجوع الموسيو دي روشكيم وتقولي لها انه يشاهدها بسرعة ولربما يكون من المناسب ايضًا ان تعرف بان الموسيو دي روشكيم عالم بحبها وانه يحبها . . لان المهم قبل كل شيء انما هو خلاص هذه البنية

فاجبته تقريبًا بلا وعي بلا ريب ياسيدي يجب انقاذها

قال واذا تاتى عن كلامك مثلاً نتائج غير مامولة فلك ان تخاطبيها بالقول الفاصل وتومليها بالاقتران من الموسيو دي روشكيم . . لانها كما قلت لك تحت خطر الموت والمراد انقاذها . . واذا كان هذا القران من المستحيلات فيمكن اعلامها بالحقيقة فيما بعد ولربما لا يحصل عنها وقتئذٍ اخطار كهذه حيث لا يمكن ان يصاب المرء مرتين بمثل هذه العوارض الشديدة

فسالته هل تظن ذلك ياسيدي

اجاب بلا ريب واذا عادت باعجوبة الى الحياة يجب ان تترك في حال الطمانينة والثقة الى ان تحصل على تمام العافية وسيكون ذلك بوقت قريب ان السعادة من اعظم العناصر المساعدة على الخلاص في الامراض الادبية وقد تفعل غالبًا عجائب . هيا ياسيدتي لا اجسر ان اوملك ولكني اقول لك تشجعي ولا ريب ان مسئوليتك عظيمة ولا يمكن احد مثلك ان يباشر هذه

التجربة التي تستلزم كثيرًا من الدقة والملاطفة والاخلاص .فانت صديقة السيدة دي ريشفيل الودودة ومحسوبة تقريبًا شقيقة لهذه البنية المسكينة ولا يمكن ان يعهد بالوسائل الاخيرة التي تربطها بالحياة الى ايد آمن من ايديك فاستودعك الله ياسيدتي الان وساعود لرؤياك في هذا المساء

ثم امر ببعض المعاملات وخرج فدخلت بعض نساء السيدة دي ريشفيل تخبرني ان الدوقة لا تزال في حال عصابية مشومة فقلت لها ان تعود الى سيدتها وان اما نائمة فانصرفت وبقيت وحدي . . وحدي مع هذه الفتاة التعيسة التي ضربتني بمنتهى ما يمكن من الضربات القاسية وهي بريئة منها . . .

فاه يا الهي انت تعلم اني جثوت على ركبتي وقتئذٍ بجانب فراشها وتوسلت اليك بحرارة ان تطرد عني جميع الافكار الشريرة والاميال القتالة . . نعم القتالة . . اذ قد يقتل المرء احيانًا بالكلام والسكوت كما يقتل بالسلاح

فاه يا الهي . اه يا الهي يامن لا يخفاك شيء على الاطلاق انك بلا ريب نظرت وقتئذٍ في اعماق قلبي الخفية بعضًا من تلك الشعائر القريبة من الجرائم



الفصل الرابع والستون

استطلاع

وبقيت هنالك وحدي . . وحدي مع اما انتظر انتباهها بل دقيقة صحو من اوقات نزعها لاستكشف قلبها واكلمها عن حب لربما تشعر به وتجهله

وعندما فتح امامي هذا السبيل الهائل وهو فكر حب اما للموسيو دي روشكيم انطلقت فيه بسرعة مخيفة ولم يعد يسعني ان اتصور عابتي الماضية في هذا الصدد

فاتضحت لديَّ جليًا بعض تصرفات اما واقوالها الغريبة وخطر على افكاري وقتئذٍ نحو الف تذكار وفي جملتها ان اما كانت تضطرب لمشهد الثلج وسبب ذلك ان الثلج كاد يكون كفنًا للموسيو دي روشكيم

ثم ظهر لي اخيرًا كبرهان مشوم على ذلك الحب ان اما كانت تشعر بلا علمها بجاسة حادة

من الغيرة ضدي وقلت في ذاتي الا تظهر قوة ذلك الحب من مظاهر الاعراض التي كانت تقابلني بها اما في اول الامر وهي محمرة ثم تتغلب عليها اخيرًا

ومن جهة ثانية الا يحسب ذلك الحب من الامور الاضطرارية التي لا يمكن مجانبتها . . وهل يمكن فتاة مثلها ان ترى على الدوام رجلاً كالموسيو دي روشكيم لا تسمع الا مدائحه وتمتنع عن حبه

وشكوت لبرهة برارة من قلة تروي الدوقة دي ريشفيل . . تلك الام المسكينة التعيسة

ثم سقطت اخيرًا جميع صواعق لعنتي ورجزي على الموسيو ليكورتو لانه انتقم واسفي عن الشرور التي عاملني بها بمنتهى الخشونة والقساوة

وقلت كيف اتصل هذا الرجل وهو بعيد عن اما الى الاكتشاف على هذا السر الذي لم يفكر به احد الا الدكتور جيرارد وحده والاغرب ان الدوقة على يقين من امانة خدمها ولكن هلا يقدر الموسيو ليكورتو على استمالة بعضهم وفضلاً عن ذلك كيف استطاع هولاء الخدم ان يكتشفوا على سرائر قلب اما اكثر مني ومن امها

ولدى التفكر مليًا في الامر لم يصعب عليّ حل هذه المعضلة . . فاني كنت مشغلة بحبي على الدوام والدوقة دي ريشفيل مهتمة كثيرًا وبحرارة في هذا الحب فلم ننتبه كلانا الى بعض المظاهر ولا سيما لان هذا الفكر المتعلق بانشغاف قلب اما بالحب كان بعيدًا عن تصوراتنا بمراحل

ثم سالت هل يمكن ان يكون لاما من نساء السيدة دي ريشفيل من تكاشفها باسرارها وقلت انها بمزايا لا تساعد على اثبات هذا الافتراض ويظهر فضلاً عن ذلك ان اولئك النساء كن شديدات الاخلاص للدوقة دي ريشفيل . . على ان الذهب واسفي غرار قهار لا يثبت امامه اعظم المخلصين . . والموسيو ليكورتو واسع الثروة

والذي ظهر لي ان هذه التاملات كانت سكونة باردة وتقريبًا صبيانية بالنظر الى الضربة الهائلة التي تتهددني لكن استولى عليّ وقتئذٍ مخاوف متهكمة وكما ان عين الله سبحانه وتعالى تحيط علما بكل شيء دفعة واحدة هكذا امكني انا ايضًا ان اطلع بنظرة واحدة على جميع عوالم الاوجاع واليأس من ارهب الاسباب الى ادق المسببات

وكان لايمكني احيانًا ان اصدق ادبيًا بهذا التلاشي الساحق الملم باَمالي وتراءى لي ان ذلك فوق الطبيعة ومع ان الحقيقة كانت حسية ظاهرة في هذا المعنى كنت ارفض التصديق بها واعارض في اوضح الحقايق والحوادث التي تعادل باقتدارها وثباتها النواميس الطبيعية

واقول في ذاتي لا . . لا . . لا يمكن ان تحب اما الموسبودي روشكيم لايمكنها ذلك . . لان هذا الحب يكون سببًا اما لموتها واما لتعاستي الازلية واما لا اريد ان تموت ولا ان اكون تعيسة الى الابد فمن المستحيل ان امتنع عن حبي واعود الى الموسبودي لانكراي من المستحيل ان اصل الى هذا القرب من السعادة وامسها بيدي ثم تضمحل من امامي على هذه الصورة من المستحيل ان اوقف ذاتي لمستقبل مستنكر كالمستقبل الذي ينتظرني

ورايت وقتئذٍ تحقيق هذه المخاوف كحلم هائل فسالت الا يتجاوز انقضاض كل هذه المصائب على شخص واحد حدود الممكن

ان الله سبحانه وتعالى لايمكن ان يسمح بذلك ويرضى بهلاك نفس ثم ثارت مني شعائر الغيظ الشديد ضد هذا الاضطهاد الذي رمتني به الاقدار وسالت ما الذي فعلتهُ ياترى حتى حكم عليّ بهذا النصيب المشوم

ولا اعلم وقتئذٍ اي صوت والدي صارم اجابني بقوله وهذه الفتاة المتعذبة بالام النزع ما الذي فعلتهُ ياترى فانها تموت ونفسها الطاهرة التقية تجهل كل شيء حتى تاثرها بالحب انها لم تبح بشيء من ذلك لاحد من الناس بل سقمت وتوجعت وما شكت ولن تشكو على الاطلاق وهي سائرة بسكينة الى الموت

فانها شعرت كالزهور التي تذبل عندما تنقصها الشمس ولا تعرفُ ما هي الشمس بان الحب المحسوب قوامًا لحياتها ينقصها فذبلت ولم تكن هذه المسكينة في حاجة للمداهنة والتحيل لتذكية حبها لانها عزبة حرة وقد احبت شابًا حرًّا مثلها فحبها والحالة هذه ينطبق على شرائع الله والبشر ومع هذا فهي في السادسة عشرة من العمر وتموت . . .

اطبقي اعينك الى الابد ايتها البنية المسكينة ان حبك العفيف سيقبر معك لا تخافي لانهُ سيبقى مجهولاً من جميع العالم كما بقي مجهولاً منك . ليس من يشاهد اياديك المصفرة المذبلة مشبكة على قلبك الا ويقول انك تريدين بطهارة اميالك الغريزية ان تخفي حبك عن الناظر كما لو كان من الممكن ان يشاهد ذلك الحب من خلال نفسك الشفافة . . ارقدي . . ارقدي ذلك الرقاد الازلي ايتها البنية المسكينة

وحينئذٍ شعرت رغمًا عني اني متاثرة بالحنو فارسلت اعينًا مبللة بالدموع لنحو وجه اما اللطيف الذابل وكان الليل قد قارب الدخول ووجهها الجميل الابيض يتلألأ في وسط الظلمة المنتشرة في مضجعها

وكان مستوليًا عليها وقتئذٍ نوع من الرقاد الخفيف ووجهها الكليم المتالم يشف عن ملامح الصبر والاوجاع الطاهرة فسقطت جاثية على ركبتي وصحت اه يا الهي اه يا الهي انها كثيرة التعاسة

ولكنها تجهل على الاقل سبب اوجاعها . . . والاولى ان تموت بلا اسف ولا اعيش باليأس الى الابد ثم فكرت بما تتضمن هذه الرغبة من المنكرات الهائلة فاغتصبت ذاتي على الامساك من تنهداتي وجعلت اطلب الصفح من اما

وفي حالة تبكيت ضميري على تلك الرغبة المخيفة ترفعت بافكاري وشعائري الى درجة البسالة فسمعت من جديد ذلك الصوت الخفي يحرك من نفسي تقريباً جميع الاميال الكريمة ويقول لي تشجعي . . تشجعي ايتها الامراة المسكينة نعم ان صليبك ثقيل ولكن لا يلزمك الا قليل من الشجاعة ايضاً لتصلي الى القمة الاخيرة من جبل الجلجلة . . . .

وحينئذٍ تشاهدين تحتك من اعلى تمنعاتك السامية كالمسيح من اعلى صليبهِ المرتفع بين الله والبشر هذه البنية المسكينة التي خلصتها وامها يباركانك اما ذلك الرجل الذي يستخفك واحببتهِ بشرف فستقولين عنهُ وانت تخفين دموعك اه لو يعلم . . . .

تشجعي . . تشجعي اذ يلزمك عزم فوق العزم البشري لتقبلي باختيارك اكليل الشهادة سرًّا ولا يعلم بذلك احد ولكن تعزيات ضميرك الوالدية التي لا توصف كم ترطب وتشفي جروحك

اه ثم اه انك لا تعلمين بعد ايتها الامراة المسكينة ما هو هذا ان يحصل المرء بقوة الضحايا على الحق بالبكاء على ذاتهِ ولا تدركين ايضاً حلاوة هذه الدموع الغزيرة المقدسة وباي كبرياء طافح بالرحمة يشعر المرء بجريانها لدى علمه بان لولا ذلك لسكب غيره دموعاً امر واحر من دموعه انك لا تعلمين بعد لذة الاوجاع الخشوعية وكم يتوجع المرء ويفرح معاً عندما يخاطب ذاته بقلب منسحق واعين غارقة بالدموع وشفاه مرتجفة بالتنهدات ويقول اني تعيس بل كثير التعاسة لكن اولئك الذين انوجع من اجلهم سعداء

نعم . نعم افتخري بهذا الحب الذي تحاولين ذبح ذاتك باسمهِ . . افتخري بهِ فهو حبك الاول الوحيد الشريف انظري الى الافكار التي يدعوك اليها انظري الى ما تشعرين بهِ بدلاً من تلك الغيرة الخشنة التي تهيجت بها سابقاً ضد اورز بل فما الذي يخفق فيك يا ترى من نحو اما اليس اسمى الاميال المؤثرة . . فهي تموت حبًّا من اجل الرجل الذي تعزينه وستنفين الآن على هذا الخبر المكدر من شفتيها المتلاشيتين وتعرضين باختيارك عن حلمك الذهبي . . وسماك . . ولا تفيض اعينك من اجل اما الا دموع الحنو والشفقة

نعم نعم يا متيلدة ان حبك عظيم وقد قال لك حبيبك لا بد ان يصدر يوماً عن ذلك الحب انواع الاخلاص البديعة والامثال السامية

ففي السابق ما عرفت الا ان تتوجعي بخضوع من اجل حب دني وقد حانت الساعة

للتوجع والعمل من اجل اقدس المبادئ حافظي على انوار فضيلتك الالهية لا تسقطي لا امام اعينك ولا امام اعين احبابك ضحي ذاتك من اجل بنية طاهرة نقية وخلصيها من الموت . . اشتغلي لسعـادتها . . تشجعي ان الله سبحانه وتعالى يراك وينظر اليك متبسماً من اعماق ازليتـه

. . . .

ومع هذا كنت احاول اقفال قلبي عن استماع هذا الصوت الكريم كما لو كان القصد مقاومة بعض القوات الساحرة الاثيمة او الانقياد لمشورات مشيئة وذلك لاني كنت قد سئمت من الاوجاع فقلت لماذا اوجد في هذه البنية التعيسة هذا الامل الذي لا يمكن تحقيقه على الاطلاق لان الموسيو دي روشكيم يحبني انا . . يحبني بجنون ولا ريب ان الضحايا المخيفة التي اتكبدها من اجل سعادة هذه الفتاة ستذهب ضياعاً

وبينما انا في وسط هذه التاملات الناخزة واذ تحركت اما حركة خفيفة ثم التفت راسهـا بضعف لجهتي وفتحت اعينها متنهدة ونظرت اليّ

اه ولي اسفي اني ما زلت ارى للان ذلك النظر العميق الطافح بالحلاوة والحزن والصبر . .

وتراآى لي كانها تستنجدني بنظرها وتسالني الحياة والسعادة . . وبعد اذ تاملتني برهة بتعجب اطبقت اجفانها الطويلة ثم انحدرت دمعتان من اعينها على خديها الذين تلونا وقتئذٍ لبرهة بلون الورد الباهت

فقلت لها بتأنٍ اراك تبكين فما بالك يا اما هل تتوجعين

اجابت بصوت ضعيف ولم تفتح اعينها نعم فاني احبك ولكن وجودك يؤلمني . . لا تحقدي عليّ . . لان الاموات يستوجبون الشفقة

قلت ماذا تقولين . . لا تحصلي على امثال هذه الافكار يا ابنتي المسكينة لانها تزعجني وتكدرني

قالت اني عالمة جيداً اني ساموت والله سبحانه وتعالى قال لي ذلك في حلمي

قلت واي حلم

اجابت وهي مستمرة على اغماض اعينها حلم غريب لا اتجاسر ان اقوله لك

قلت اما بربك صرحي

قالت شعرت اني اموت وان قوة عظيمة تريد ان تنتشلني الى السماء ثم تراآى لي كاني اسمع صوتاً يقول هل يجب ان تموت . . هل يجب ان تموت . .

قلت ولمن كان موجهًا الخطاب بذلك الصوت يابنيتي

اجابت اه وا اسفي ان الحوى هي التي اوجدت فيّ هذه الافكار ولا ريب انها جنونية

قلت ولكن لمن كان يقول ذلك الصوت هل يجب ان تموت

اجابت كان يقول ذلك لامراة . . لامراة لم اشاهد وجهها

وعند ذلك علمت ان هذه الفتاة المسكينة تخفي عني الحقيقة واني انا هي الامراة التي شاهدتها في الحلم

فقلت وبماذا اجابت الامراة

قالت لم تجب بشيء ثم عاد الصوت فقال يجب ان تموت والذي يظهر انها لامت ذاتها وقتئذٍ على تاثرها ضدي بذلك الحلم وعادت الى ظرفها ولطافتها العاديين فتحت اعينها ونظرت اليّ في هذه المرة بملامح الحنو والندامة فلم يسعني الامساك من دموعي ثم انحنت نحوي وقبضت على يدي بين يديها ورفعتها الى شفتيها المثلجتين ثم وضعتها على قلبها وقالت ان يدك الحارة تستعيد الحرارة الى قلبي الذي تجلد منذ هنيهة

قلت هل تحبينني اذن يا اما كثيرًا

قالت الان . . نعم . . فبعد امي الثانية لا احب احدًا في العالم اكثر منك

قلت لا تحبين احدًا اكثر مني يابنيتي

اجابت ابدًا وكان بودي لو اشبهك في كل شيء

قلت بحرارة لكنك تبغضينني احيانًا

فانتفضت فجأة وضمت يدي بشدة الى قلبها فشعرت ان دقاته الضعيفة اسرعت قليلاً ثم عاودت الحديث بتبسمات الاوجاع وقالت انظري كم يؤلمني هذا الكلام وثقي اني احبك اما تلك الشعائر التي التزم بمقاومتها احيانًا عند رؤياك فقد اكتشفت على اسرارها . . ثم حاولت التبسم ايضًا

قلت حقيقة وماذا كانت ياترى

اجابت الهامًا من قلبي ينبهني اني اسات اليك بلا علمي وحينئذٍ كنت لا اتجاسر على الاقتراب منك واشعر كاني مصابة بتبكيت الضمير على هفوتي ولكن مكارمك الحنونة كانت لا تلبث ان تطرح عني ذلك الحمل فاعود الى الارتماء بين ذراعيك

فكيف لا يجن فؤادي عند استماع اما تجتهد بتفسير غيرتها على هذه الصورة وتلوم ذاتها من اجل هذه الغيرة التي لا تقدر ان تعلم اسبابها

اما الفتــاة فداومت الحديث وقالت احلف لك باعظم الايمان اني لست ابغضك . .

وفي ساعة ذهابي لمقابلة الرب لا يمكن ان اكذب

قلت انك تتكلمين بالموت على الدوام باعزيزتي ولحسن الحظ لا يوجد شيء من اخطاره لا تسوءك اذن مفارقة الحياة والذين يحبونك

قالت صدقت يسوءني ان ابارح الدوقة دي ريشفيل وابارحك اما الحياة فلست آسف عليها

قلت ولماذا

قالت لاني اشعر بلا سبب . . بلا سبب على الاطلاق اني اتدرج من يوم الى اخر بمدارج التعاسة . . وان كل شيء من حولي تحول الى ظلمة دامسة وان جميع افكاري سحقت بمصادمة حاجز غير منظور

قلت وقبل هذه التعاسة

فضمت يديها الى بعضها ورفعت الى السماء اعينها الجميلة الساطعة بنوع من الانذهال والذكرى وقالت قبل ذلك كان يتراءى لي اني ساعيش على الدوام وكان يمر عليّ الزمان وانا بافكار باسمة كحلم مبارك . . كنت سعيدة . . سعيدة الى حد ان املت بمشاهدة امي يوماً مع علمي انها ماتت

فسالت وهل كنت حاصلة على هذه السعادة وانت في الدير يابنيتي العزيزة

قالت في الدير كنت حاصلة على سعادة اخرى وهي محبة رفيقاتي وجودة السيدة دي ريشفيل وكنت قادرة وقتئذٍ على ايضاح سعادتي واحزاني اما السعادة الثانية فاحر واعظم من الاولى والاغرب اني شعرت بها ولم افهم كنهها ومثل ذلك الاحزان التي تبعتها

قلت لربما يكون الباعث وقتئذٍ على مسرتك كل هذا السرور انما هو الفرح بخروجك من الدير

قالت لا لاني آسفت لفراق رفيقاتي وكنت اشاهد في الدير السيدة دي ريشفيل كما اشاهدها الان

قلت اهتي ان تتذكري بالتقريب متى ابتدا معك ذلك الهناء الذي غير تقريباً مشهد حياتك . . وجعل لوجودك غاية والقى على كل شيء من حولك نوعاً من الضياء اللامع الساطع اليس كذلك

قالت نعم . . نعم . . هذا الذي شعرت به

فاعترتني حركة هائلة من التردد ثم قلت اخيراً الم تبتدِ هذه السعادة . . بعد رجوع الموسيو دي روشكيم الى باريس بقليل وكنت تشاهدينه في كل يوم

فنظرت اليَّ بملامح الطهارة والمسرة السموية وللحال شعرت ان قلبها يخفق بسرعة اكثر من العادة ثم قالت لي بنوع من الفرح المقرون بالتعجب والامتنان والوجد نعم . . نعم . . هذا اكيد يا الهي . . هذا اكيد

قلت وتعاستك الم تبتدِ بعد وصولي الى هنا بقليل

ولا ريب واسفي ان الياس اعطى لكلماتي وهيئتي وقتئذٍ مظاهر اللوم والقساوة لان اما نهضت عند هذه الكلمات متثاقلة وارتمت بين اذرعي منتحبة بالبكاء ثم اخفت راسها في حضني وصاحت بصوت منتحب . . العفو . . العفو

ثم ضمتني اليها بقوة عصابية ولم تلبث بعد ذلك ان فارقتها القوى فارجعتها وانا مرتعشة بالخوف الى فراشها وركضت الى قنينة العلاج وكان قد ظهر عليها وقتئذٍ اصفرار الموت فاكفهرت خدودها وبردت ايديها كالرخام ولم تستفد شيئًا من المنبهات التي استنشقتها فوضعت يدي على قلبها واذا هو بلا حركة ثم قربت خدي من شفتيها المنفصلتين قليلاً فلم اشعر بشيء من حركة التنفس وظننت اني قتلتها

وكانت تلك الساعة من ارهب الساعات التي صادفتها في حياتي فجثوت على ركبتي وصحت العفو . . العفو . . يا الهي اعدها الى الحياة ولك عليَّ اني اضحي ذاتي من اجلها واستعمل جميع قواي الباقية لسعادتها كما لو كانت شقيقتي . . او ابنتي . . اه يا الهي اني انذر لك القيام بهذه الضحية ولو كلفتني حياتي . . فقط لا تسمح ان تموت هكذا بسببي . . لا تسمح ان تموت هكذا بسببي

وبعد عدة دقايق قضيتها بالعذاب المخيف وانا منحنية على اما اراقب اقل حركة تبديها استجاب الله صلاتي فتنهدت وعاود الدم سريانه في عروقها ورجع خداها الى الاصفرار وظهر اخيرًا انها تعيش وان الله سمع نذري

فوجب عليَّ والحالة هذه ان اظهر الاخلاص لان كل شيء كان قد كمل وانتهى بالنظر اليَّ . . كل شيء . . وصار من الضروري ان ادفن حبي . . حبي الحزين المسكين في منتهى اعماق قلبي كما لو كان في قبر وانور هذه البنية المسكينة واحاول ارجاعها الى الحياة بالامل حيث لم يعد لي ادنى ارتياب بان هذه المنكودة الحظ تموت بالحب والغيرة

ولكن هو . . هو . اريد ذلك الرجل الذي تموت من اجلهِ كيف السبيل لتجريده من حبي وحمله على الاهتمام بحب اما ومقاسمتها بذلك الحب

واعترف ان الافكار نغصتني عند هذا السوال ولم يبقَ لي الا القليل من القوى لاعلام اما بما يعيدها الى الحياة . . فمن اللازم قبل كل شيء انقاذها

الفصل الخامس والستون

الشفاء

وكان الطبيب قد ترك لي شرابًا منعشًا بمفعول عظيم واوصاني ان استعملهُ عند الحاجة لتنبيه افكار اما برهة من الزمان فعندما اصيبت بهذا الضعف قربت من شفتيها ملعقة منهُ فشربت بلا وعي

وبعد ذلك بدقائق تلون خداها باحمرار طفيف وفتحت اعينها بدهشة كما لو كانت خارجة من حلم

وكان يهمني ان لا ترجع بتصوراتها الى ذلك الفكر الموثر المولم الذي اوجب غشيانها فحاولت ان اضرب الضربة الفاصلة وصحت انهضي اذن ايتها الكسلانة فقد حضر الموسيو دي روشكيم وهو هنالك مع السيدة دي ربشفيل

ولم الفظ اسم الموسيو دي روشكيم الا بدأ قلب اما يخفق بشدة اخافتني ثم نظرت اليَّ بهيئة زاهرة متعجبة بلا تضعضع وسالت هل رجع الموسيو دي روشكيم

فاجبتها بصوت متقطع حار وقد شعرت وقتئذٍ ان كل كلمة من كلماتي تقتل املاً من امالي . . نعم رجع وهو مزود بمقاصد عظيمة تتعلق بك وكنت اتحادث معهُ دائمًا بخصوصها . . واحبهُ من اجل حبهِ لك . . وما كان يمكنا وقتئذٍ ان نكاشفك بشيء . . . لان موانع . . موانع عظيمة كانت لا تسمح باطلاعك على هذه المقاصد . . نعم كنا لا نفكر الا بك . . وانت تظنين اني لا افكر الا بهِ وهو لا يفكر الا بي ولهذا كنت تحصلين ضدي احيانًا على بعض شعائر تجهلينها وهي الغيرة فهمت ايتها البنية المسكينة الغيرة المجردة عن العدالة لان الموسيو دي روشكيم يحبك كما تحبينهُ بدون ان يعلمك بحبهِ نعم . . يحبك . . والان ما عدت تشكين لا بي ولا بهِ ولا بذاتك لان الموانع المذكورة زالت وهو يحبك . . يحبك وسيطلب الزواج بك من امك الثانية وهكذا تقضين من الان وصاعدًا حياتك معهُ لكن يلزم ان تطردي عنك سريعًا هذا المرض وتعود خدودك الجميلة الى لونها الوردي ثم اخبريني بحقك هل لك ان ترجعي بعد الان الى التكلم عن الموت

ولا حاجة لايضاح التقلبات الكثيرة التي طرات على وجه هذه المسكينة المتوجع الباهت

في اثناء حديثي وكيف ظهرت عليهِ مظاهر الدهشة والفرح والحيرة والخوف والمسرة والانذهال بحدة اخافتني

وكنت قد علمت من قبل بان كثرة الاستعداد والمداراة في مثل هذه الظروف لا يحصل عنها اعادة المرء بعد الغيبوبة الى صحتهِ السابقة متنورًا بمعرفة الحقيقة وهذا اول ما يجب الاهتمام بهِ قبل التصريح بمثل هذه الايضاحات المؤثرة فنجحت اما . . . ولكني لم احصل في اول الامر على هذا اليقين لان الفاجعة التي اصابتها عند هذا الخبر كانت هائلة فبقيت عدة ساعات بمشاغل قتـالة

ثم اخلف الضعف الشديد الذي الم بقواها عوارض حارة من الهذيان فلفظت عدة عبارات بلا معنى ولكني ميزت بينها اسمي مصحوبًا بهذه الكلمات . العفو ياملاكي الحارس

ولم تلفظ بنوع من النسيان الغريب او بالحري بشدة اميالها الغريزية المطبوعة على الطهارة اسم الموسيو دي روشكيم ثم انتهت لحسن الحظ هذه العوارض الشديدة لا بغيبوبة مزعجة كالعادة بل بنوم السكينة والراحة

وتصادف رجوع الطبيب في بداية رقادها وكان قد استولى عليَّ بدوري خوار القوى واسترخيت فقال لي بقلق والان ياسيدتي فلم اجبهُ بشيء ولكني اريتهُ اما بنظرة ثم اخفيت وجهي بين يديَّ وغرقت بدموعي وبعد ثوانٍ قليلة صرفت بلا ريب بتفقد اما صاح الموسيو جيرارد بملامح لا توصف من الفرح لقد نجت الفتاة ولا ريب انك حدثتها اه يا الهي ما هذه الاعجوبة المدهشة لا يبعد ان تصير مديونة لك بحياتها فقد نشأ عن تلك المفاجئة الهائلة احسن النتائج الموصلة الى الشفاء وها هي نائمة . . ومستغرقة بالنوم ومنذ خمسة ايام لم يكن رقادها الا نوع من الغيبوبة المزعجة الثقيلة . . لكن اخبريني كيف صرحت لها بذلك الايضاح ياسيدتي

فحدثت الطبيب بكل ما اجريتهُ ما عدا الاسرار المتعلقة بشخصي وعندما اخبرتهُ بماية الطرق اعلمت اما برجوع الموسيو دي روشكيم ارتعش في اول الامر ولكنـه عاد اخيرًا الى الطمانينة وقال لربما تعذر عليَّ لو كنت مكانك اظهار كل هذه الشجاعة والعقل فان هذه الفتاة كانت مشرفة على الموت ولا يمكن انقاذها منهُ الا بازمة فاصلة عنيفة ولو اخذت بالتأني والمداراة لما وصلنا الى هذه النتيجة الغير المامولة وقد صار كل شيء يحمل على الظن بتقدمها السريع لنحو الشفاء ولا يخفاك ياسيدتي انهُ يقتضي الان لاتمام عملك ان تكوني حاضرة بجانبها عند استيقاظها لانها ستظن في اول الامر كونها حلمت حلمًا فيلزمك تطمينها بتفصيلات جديدة وسبك الخبر الذي اجبرت على مخاطبتها بهِ في قالب يقربهُ من الحقيقة ثم اياك ان تدعي سبيلاً للشك بصحته حيث لا يلبث ان يتبع ذلك تجدد المرض وهذه المرة تكون القاضية

وحيث الموسيو دي روشكيم لا يزال متغيباً فيقتضي ان يكتب اليهِ بسرعة رجوعهِ مع اظهار الاهمية المترتبة على ذلك الرجوع

ففكرت وقتئذٍ بالتحرير الذي ارسلتهُ اليهِ صحبة ساع مخصوص بلزوم رجوعهِ سريعاً وقلت كتب اليهِ ياسيدي وسيكون هنا بعد غد ان شاء الله

فصاح الموسيو جيرارد كتب اليهِ . . وانت التي كتبت

فتعجبت من هذه الملاحظة وقلت لا يمكن ان يكتب اليهِ بمناسبة هذه الظروف احد غيري

قال الحق معك داومي العمل وخذي لقلبك قليلا من الشجاعة

. قلت اخشى ان تنقصني القوة ياسيدي

قال ولكنك تجدينها على الدوام عندما تفكرين انها لازمة لعدم ضياع كل شيء وان هذه الازمة العجيبة الموصلة الى الشفاء تصبح بلا جدوى اذا لم تداومي العمل حيث لربما تسال اما عند انتباهها احدى نساء الدوقة دي ريشفيل ولا يمكن ائتمانهن على هذا السر فينكشف الخفاء

قلت والدوقة دي ريشفيل ياسيدي

قال اني قادم من مشاهدتها وقد امرت لها بمسكّن وهي نائمة الان فانها قضت ثلاث ليالٍ متتابعات بقرب اما فانهكها التعب وما من شيء يحمل على الخوف من نحوها اذا رايت من المناسب عدم اطلاعها على دخيلة الامر

قلت استحلفك ياسيدي كالسابق ان يبقى هذا السر منحصراً بيني وبينك

قال وعدتك ولا اخلف وعدي ولكن كيف يمكن منع اما الى حين حصولها على تمام الشفاء من مخاطبة الدوقة دي ريشفيل عن الموسيو دي روشكيم وزواجها . . نعم يمكن متى تقررت صحتها ونالت الشفاء التام ان يطرد عنها بالتدريج ذلك الامل ولكن ما العمل للوصول الى تلك الدرجة من الصحة

فقاطعت حديثهُ وقلت لا اخشى ياسيدي الا شيئاً واحداً وهو لربما لا يبقي الله على عقلي زماناً طويلاً ايضاً انك لا تعرف ولا يمكن ان تعرف ابداً مقدار ما قاسيتهُ اليوم ولم يعد يسع راسي المقاومة . فما هي علامات الجنون ياسيدي اليست ان يشعر المرء بان شرايين الاصداغ تنتفض بشدة وتكاد تنقطع

فصاح ياسيدتي

قلت وان افكاره مشوشة متضعضعة كلها ليب النار المشرفة على الخمود ان هذه هي العوارض التي اشعر بها الان ياسيدي

وقد قال لي الموسيو جيرارد فيما بعد انه ارتهب وقتئذٍ لبرهة من تضعضع حواسي وانقباض وجهي وخاف ان لا احصل على القوة الادبية الكافية لاتمام عمل الاخلاص الذي باشرته فقال املكي روعك وسكني اضطرابك ثم قدم لي ساعده وقال اتكئي على ساعدي وتعالي . . فمرادي ان افتح احدى نوافذ هذه الغرفة لان هذه السهرة بمنتهى الجمال وبعض النسمات اللطيفة لا يمكن ان تعود بغير النفع والفائدة على مريضتنا ثم فتح الطبيب النافذة التي تطل على الجنينة وكنا وقتئذٍ في نهاية شهر اذار في ليلة دافئة من بداية الربيع والقمر يسطع في وسط النجوم

فاستنشقت بشراهة ذلك الهواء المنعش وعرضت جبهتي المحترقة لذلك النسيم اللطيف الرطب فسكن اضطرابي تدريجًا ثم رفعت اعيني لنحو السماء بتصبر طافح بالالم والمرارة

ولدى التامل بالفلك الاعلى الغير المتناهي ترآى لي كأن مواصلة خفية حصلت بين الله سبحانه وتعالى وبيني واني اسمع من جديد ذلك الصوت الخفي الذي اشار عليَّ سابقًا واسندني وهو يقول لي تشجعي . . تشجعي ايتها الامراة الشريفة انك رفعت نفسك الى اسمى مراتب الضحايا والالام المقدسة العظيمة ولا يسعك ان تحتملي اكثر من ذلك فلا تدعي عملك اذن غير مكمل اتكلي على الله فهو يلهمك ويعطيك الوسائط الكافية لازالة العوائق التي تتوهمين الان كونها عظيمة ولا يمكن ازالتها . . لانه لا يهمل ابدًا القلوب الكريمة واشد اعزائهِ اوجاعًا هم الحاصلون على مزيد حبهِ وعنايتهِ فهو يقودهم بفكره وينيرهم بنوره ويسندهم بقوته

وقد نفعتني هذه الافكار لانها افادت نفسي المثقلة بالهموم كما افاد النسيم جبهتي الملتهبة

وبعد سكوت طويل قال الطبيب الا تشعرين انك احسن ياسيدتي وظهر لي انه يخاطبني بصوت متاثر وكان القمر يضئ وجهه فنظرت دمعتين كبيرتين منحدرتين على خده

فصحت ما بالك ياسيدي

فنظر اليَّ برهة بدون ان يجيبني ثم قال لي اخيرًا بصوت حنون انك سالتني السكوت ياسيدتي وقد رهنت كلامي على ذلك وانما لحسن الحظ لا يوجد سر محتجب على الخالق ثم اشار باصبعهِ لنحو السماء

ولا اعلم هل كان الموسيو جيرارد وقتئذٍ مطلعًا باشاعات العالم على تعلقي بالموسيو دي روشكيم او اتصل الى معرفة ذلك منذ الصباح

وكان هذا الطبيب قلما يحسب من العالم بالنظر الى اشاعاتهِ ونقولاتهِ ولا يبعد ان يكون قد بقي الى ذلك الحين لا يعلم الاسباب التي توجب زيادة اوجاعي بالنظر الى هذه الضحية ثم امدني الموسيو جيرارد ببعض الوصايا بخصوص اما وانصرف فبقيت وحدي مع اما انتظر

يقظتها . . ولكن في هذه المرة كان كل شيء قد كمل . . . .

. . . .

فبعد اذ استغرقت اما بالرقاد مدة ثلاث ساعات استفاقت

ولو كان كافيًا لتعزيتي ان اعلم بأني انقذت هذه الفتاة التعيسة من الموت لما امكني الا ان اصرح برضائي لان احوال اما بعد هذا الرقاد تغيرت تغيرًا فوق العادة بحيث لم تعد تعرف والامل احياها لانها كانت عارفة وقتئذٍ او بالحري ظانة انها محبوبة بقدر ما تحب . . .

وا اسفي اني كنت ارتعش عند التفكر بما ربما يتأتى عن هذا الكذب الذي ارغمت عليهِ من النتائج المشومة . . فاني اطبقت اعيني امام الهاوية والقيت اتكالي في كل شيء على الرب

وعند الانتباه حاولت اما اولاً جمع افكارها ثم صاحت هل صحيح يا الهي . . هل صحيح يا الهي . هذا انت . . . .

قلت نعم . . نعم . . هذا انا يابنيتي والذي قلته لك حقيق فانت تحبين الموسيو دي روشكيم وهو يحبك وسوف نتكلم عن كل هذه السعادة ولكن كيف انت الان

قالت احس كوني ضعيفة ولكني في حاجة الى الحياة كما كنت من قبل في حاجة الى الموت

قلت فاذن انت الان في بحبوحة السعادة

قالت نعم . . . والذي اراه اني كنت مديونة بتلك الاوقات السعيدة التي اعجم على ادراكها للموسيو دي روشكيم . . واشعر اني من الان وصاعدًا ماعدت احصل على تلك الاكدار التي يقل في اثنائها حبي لك

ثم بقيت برهة مفكرة وجبهتها مسندة على يديها وقالت اخيرًا يا للغرابة كيف ظهر لي الماضي بعد ايضاحاتك بمظهر جديد . . نعم كنت الاحظ جيدًا ان سعادتي تزيد عندما يكون هنا بجانبي ولكن ما فكرت ابدًا ان اعزو اليهِ هذه الشعائر العذبة . . وكنت احفظ جميع اقواله والحانه في الحال ويتراءى لي كأن قلبي صدى يجيب على جميع حركات نفسه وكان يسرني ان اسمع مديحه كما لو كان ذلك المدح مسوقًا اليَّ عندما كنت ارافقهُ بالغناء على البيانو كنت اغني احسن من العادة ويسهل عليَّ كثيرًا ايراد الكلام والافكار عند محادثته

قلت ولماذا لم تصرحي بشيء من ذلك لا للدوقة دي ريشفيل ولا لي

فتاملت مليًا وقالت صحيح لماذا ثم اجابت نفسها وقالت بلا ريب لاني شعرت بذلك

منذ اليوم الاول الذي شاهدت فيه الموسيو دي روشكيم وما كنت اظن بامكانية الحصول على غير هذه الشعائر فنكرت انها شعائر فطرية ولم اتكلم بها فكان حصولي على السعادة والمسرة بجانبه لا يختلف عندي بشيء عن بقية الخواص الطبيعية كالشم والحياة والنظر والحس والخلاصة اني كنت وقتئذٍ كشخص يتمتع بخيرات الله ولا يعلم بوجوده وعندما كانت سعادتي تتكدر ببعض المخاوف والتذكرات كان لا يسعني اخفاء احزاني . . . . فالان فهمت اسباب دموعي الغير الارادية عند سقوط الثلج وذلك لان الموسيو دي روشكيم كاد يهلك تحته . .

قلت ولكن قبل وصولي كان يتكلم احيانًا عني مع الدوقة دي ريشفيل اليس كذلك

قالت نعم ويذكرك بلا انقطاع كامراة حاصلة على منتهى الكمال الاتم وانه يحبك اكثر من جميع الناس ولهذا احببتك كثيرًا قبل ان اعرفك ثم حصلت على مزيد السعادة والمسرة برؤياك . . وكان الموسيو دي روشكيم ينتظر رجوعك بفروغ صبر ومع ذلك . .

قلت صرحي . . صرحي لي بكل شيء يا بنيتي المسكينة حيث صار يمكنك الان التصريح بكل شيء

فعادت اما الى اتمام الحديث وقالت ومع ذلك فمن حينما نظرتك بجانبه تلازمينه غالبًا شعرت بلا فهم الاسباب اني مستغرقة بالاحلام والحزن وحينئذٍ اشتهيت الموت وهنا راجعت نفسها بحياء وقالت ما الفائدة بذكر الاحزان الماضية وذلك التباعد الغير الارادي الذي يوجب عليَّ الخجل . . فبربك دعيني انسى ذلك وكوني طيبة وكريمة كالعادة

قلت نعم نعم فلننسي ذلك فلننساه لان هذه هي رغبتي ايضًا

فصاحت الفتاة اه يا الهي اني مديونة لك برد حياتي اليَّ

قلت ولكنك قادرة على مكافاتي باشياء كثيرة يا بنيتي العزيزة

قالت وكيف ذلك

قلت بان تثقي بي ثقة عمياء وتسمعي لارائي وتسيري بحسب مشوراتي ثم يجب على الاخص ان تعتقدي باني لا اريد الا سعادتك

فصاحت الفتاة اعرف ذلك واصدقه واعدك بكل ما تريدينه

قلت وبذلك يتم زواجك بالموسيو دي روشكيم سريعًا ولربما باسرع مما تومليه وستتمكن بسهولة ان شاء الله من ازالة بعض الموانع العرضية ولكنك توجعت كثيرًا وما زلت ضعيفة ويلزم ان لا تفكري برؤياه قبل بضعة ايام لان مرآه يسبب لك انزعاجًا خطرًا

فصاحت لا . . لا . . بالعكس آه ان يشفيني تمام الشفاء

قلت ولكن هو ماذا يحل به عندما يراك متغيرة كل هذا التغير ان مرضك لم يتقدم بكل

هذه السرعة الا عند سفره

قالت نعم حيث تراءى لي عند سفره ان الضربة الاخيرة اصابتني وان كل شيء يذبل ويصير الى الخمود من حولي فاقفلت اعيني وسالت الرب ان يدعوني اليه فارسل اليّ برحمته احد ملائكته للسهر عليّ ثم قبلت يديّ بحنو

قلت دعيني اذن اقودك في السبيل الموافق . . ولا تكوني سبباً باشعال نار الحزن والكدر في قلب الموسيو دي روشكيم

فسالت انا يا الهي . . .

قلت بلا ريب انت لانهُ عند مشاهدة اثار الاوجاع على وجهك سيلوم ذاتهُ كثيراً حيث سبب لك هذه الاوجاع بسكوتهِ فلا اريد اذن ان تقابليهِ قبل ان يزهر وجهك ويعود الى جمالهِ السابق

ثم يوجد شيء اخر كثير الاهمية ياعزيزتي ومن اللازم ان احدثك بهِ . . ان الدوقة دي ريشفيل هي امك الثانية وترغب ان تقرنك من الموسيو دي روشكيم ولكنها تجهل حبك لهُ وتجد كونك صغيرة ايضاً وقد رات من المناسب ان لا تعلمك الان بمقاصدها ثم عهدت بها اليّ وطلبت مني بالحاح ان لا اطلعك عليها غير ان رغبتي الحارة بالكشف لك عن خبر لهُ نفوذ عظيم على صحتك دفعني الى التصريح لك بذلك السر فلا تدعيني اندم على هذه الخنة وعديني ان لا تحدثي الدوقه حبيبتك بشيء مما اعلمتك بهِ . . . اما هي فلا تلبث على كل حال ان تخبرك بذلك ويجب حينئذٍ ان تتظاهري كانك لا تعرفين شيئاً من هذه المقاصد . لست اكلفك الى الكذب ياعزيزتي اما بل الى السكوت بحيث لا يعود للدوقة دي ريشفيل من سبيل الملامتي بدعوى اني خنت سرها واحرمتها من مسرة اخبارك بزواج ينطبق على رغائبك ورغائبها

قالت سافعل كل ما تريدينهُ وستكون هذه هي المرة الاولى التي اخفيت فيها شيئاً عن الدوقة فان رغبتي الحارة بالخضوع لارادتك ستمنعني من التكلم بهذا السر

فحاولت التبسم وقلت ليس هذا هو كل المطلوب ياعزيزتي اما بل اطلب منك ايضاً المحافظة على اشياء اخرى كثيرة

فسالت وكيف ذلك

قلت ان الموسيو دي روشكيم يحبك بحنو ولا يستطيع التصريح لك بذلك الحب قبل ان يعرف من الدوقة دي ريشفيل اذا كان لديك او لديها من الموانع ما يعارض اجراء هذا الزواج الذي يريده بحرارة فيجب اذن والحالة هذه ان تتظاهري امامهُ كانك تجهلين مقاصده

تمام الجهل ثم يجب ايضاً بعدئذٍ عندما يتم زواجك ان تواظبي على اخفاء هذه الاسرار عنهُ حيث لا يناسب ان يعرف اني صرحت لك قبله بشعائر قلبه . . .

قالت نعم . . نعم لقد ادركت الان مقدار عنايتك بي وسيبقى هذا السر محصرًا بيننا نحن الاثنين

وكانت تتكلم عن ذلك بنوع من الفرح الدال على سذاجة القلب فقلت ويجب من اجل هذا ان لا تغيري شيئاً من اساليب معاملتك للموسيو دي روشكيم

قالت ولكن كيف يمكني الان وقد عرفت اني احبهُ ويحبني ان اخفي عنهُ ذلك

قلت لا تخفي عنهُ شيئاً من تاثيراتك على الاطلاق وكوني معهُ طبيعية صادقة لان هذه هي الواسطة المفيدة لدوام انجذابه بك .·. واذا جد عليَّ حوادث غير معلومة اجبرتني على التغيب عنك لبضعة ايام وكنت في حاجة الى مشوراتي فاكتبي اليَّ مع بلوندو الصالحة التي ابعثها اليك من وقت الى اخر لئلا تطلعك السيدة دي ريشفيل على مقاصدها

فسالت افعل ذلك بلا علم السيدة دي ريشفيل وقد لفظت هذه الكلمات بمزيد التعجب كما لو ان هذا الاخفاء ازعج نفسها المستقيمة المخلصة

قلت هل نسيت يا ابنتي ان السيدة دي ريشفيل لا تعرف شيئاً ومن اللازم ان لا تعرف شيئاً من كل ذلك . . وانت تعرفينني جيدًا وتعلمين يقيناً اني لا اشور عليك بعمل رديء

قالت اه يا الهي هل يمكن ان تظني بي هذا الظن ان من السعادة الكبرى لديَّ ان اتحادث معك بما تقوم به حياتي الان ولكن اخبرني هل مرادك السفر قريباً وهل يكون غيابك لزمان طويل

قلت لا . . لا اظن ذلك

قالت لا . . لا . . لا يمكن ابدًا ان تبارحي حبيبتك اما المديونة لك بكل شيء . . الا قولي . . قولي . . كيف امكن بعض الكلمات ان تغير مظهر الماضي بل الماضي بذاته

قلت لا تبحثي عن اسباب السعادة يا بنيتي المسكينة بل اشكري الرب الذي ارسلها اليك

وكان النهار قد اشرف على الانبثاق فعادت اما من جديد الى الرقاد ثم انهكني التعب والاضطراب فاستولى عليَّ ايضاً سلطان النعاس

وفي الغد ايقظتني بلوندو وكان الوقت تقريباً الظهر ثم سلمتني تحريرًا من الموسيو دي روشكيم وقالت ان حضرة المركيز لم يكن في روشكيم ياسيدتي بل في املاكه بجانب فونتينو بلو حيثما دفع اليهِ تحريرك نوها هو الان قد رجع الى منزلهِ ففتحت التحرير مرتجفة وقرات هذه

الكلمات

ان نصيبنا نقرر وقد يوجد من الافراح ما يكون عظيماً حافلاً كالصلاة . .

عندما وصلني تحريرك جثوت على ركبتي وبكيت . . في اية ساعة تريدين ان اشاهدك

فاجبته بسرعة

انتظرك في الساعة الواحدة

وفي الساعة الواحدة تماماً دخل عليَّ الموسيو دي روشكيم

الفصل السابع والستون

الاياب

وكان العمل الاول الذي اجراه عند دخوله عليَّ ان ارتمى على اقدامي ثم قبض على يديَّ يغرقها بدموع السعادة وهو مع سعة اقتداره بالامساك من زمام نفسهِ فريسة للفرح الجنوني وما سبق لي ابداً ان شاهدت وجهه منوراً بتلك الاشعة الباطنة الناشئة عن الفرح العظيم الغير المامول

وكانت اعيني جافة ملتهبة وقد انفقت دموعي وشعرت اني بليدة فكنت لا اعلم بماذا اجيب الموسيو دي روشكيم عندما يطلب مني حساباً عن هدم امالهِ

وعندمازالت تهيجاتهُ الاولى شخص اليَّ بنظره فانتبه الى تاثيرات الاوجاع المرتسمة على وجهي وبعد اذ تاملني برهة بملامح الاهتمام الموثر قال لي بحزن ارى جيداً ان هذا الاعتماد كلفك كثيراً وافتخر لاني انتصرت في هذه المقاومة فاه ثم اه بكم من الحنو سانسيك هذه الدموع الاخيرة التي سكبتها في حياتك يامتيلدة

قلت كنت اريد

فقاطعني بملذات السعادة وقال لا . . لا . . لا تقولي شيئاً لا تكلميني دعيني انظر اليك واعجب بك بذلك الانعطاف الطافح بالغيرة والخشونة الذين ينظر بهما البخيل الى الاموال التي يكتسبها . . دعيني اتلذذ لبرهة بهذا الفكر وهو ان هذه الامراة الواقفة هنا . . هذه الامراة هي لي وانها الزوجة الادبية لاحلام صبوتي وشبيبتي . . دعيني اقول لذاتي ان تلك التي ترآى

لي اولاً ان الحوادث والناس وادابها وكل شيء يفصلها عني الى الابد هي هنا وتخصني وقد اردت ان لا اصدق بذلك الا الان حتى لا يفوتك شيء من النظر الى سكرتي بك ومع هذا فكنت اشعر في بعض الاحيان ان قوة حبنا التي لا تقهر لا بد ان تاول بنا الى السعادة وان هذه المصاعب ليست الا وقتية فتارة كنت اخشى زيادة حرصك على الواجبات وتارة يصيبني الياس والقنوط فما اقبح تلك الايام التي قضيتها بعيداً عنك في ذلك الانتظار والشك القتال انة لا يمكنك ان تتصوري الافكار الهائلة الجنونية التي عرضت على راسي عندما فكرت ان لربما التزم بعد عدة ايام ان اودعك وداعًا ابديًا ثم تنفس الصعداء وقال اه ثم اه اريد ان تبقي جاهلة الاوجاع التي تحملتها وفتتذ .. حيث بلا ريب ستؤنبين ذاتك شديداً اذا علمت بمقدار التعاسة التي اصابتني بسببك

قلت صدقني اني ساحصل دوامًا على تبكيت الضمير عند التفكر بالاحزان التي سببتها لك

قال نعم حصلت في ايام انفرادي على ايام مستنكرة من الشك ولكني حصلت ايضًا على امال مسكرة . . . وقد راق لي في احدى دقائق السعادة المذكورة ان ارسم بمسرة الاطفال صورة عزلة ملذة كنت احلم بذهابي اليها معك وذلك في كاستيلامار لانك تحبين كثيرًا ايطاليا .. فكان من حولنا الزهور وفوق رؤوسنا الاشجار الكبيرة المغضة وعند اقدامنا البحر وفي الافق بركان ازوف

قلت ياصديقي . . .

قال العفو العفو يامتيلدة لاني اهذو كالمجانين والحق معك اليس لدينا الان نحو الف صالح اهم من هذه التصورات والف عزم يستوجب البت . فما الذي نقوله لاصدقائنا وهل اسافر قبلك او بعدك ومن تستصحبين معك في هذا السفر . . . اه يا الهي ان راسي الثابت عادة تتلاعب به الان اهواء المسرة والهناء وليس الذنب بذلك عليّ لان زوبعة السعادة هي التي تلقيني على اقدامك ولكن ما هذه الهيئة الحزينة المتضعضعة يامتيلدة لا تكوني مجنونة مثلي دعيني اشاهد قليلاً من التبسم على شفتيك ونظرة حنونة من عينيك . لست اذكر ابدًا اني شاهدت وجهك بمثل هذه العبوسة فما عندك ياترى من الاخبار

قلت اخبار مكدرة مشومة

قال لست افهم كلامك فما الذي جد يا ترى اولم تقلي لي بتحريرك تعال .. تعال

قلت بربك كفى اشفق عليّ ولا تذكرني بذلك التحرير

قال لا اذكرك به ولماذا

فاخفضت اعيني فرارًا من نظره وقلت بعد اذ كتبت اليك ذلك الكتاب شاهدت الموسيو دى لانكراي

قال زوجك . واين ذلك

قلت عندي هنا

قال هنا وكيف تجاسر على المجئ ولماذا . . ان مجيئهُ بلا ريب من اجل شرور جديدة ولكن مالك ولزوجك وقد افترقت عنهُ الى الابد وماذا يكون مركزه بالنظر الى حياتك الان انك تشعرين من نحوه بالبغض والاحتقار الذين يستحقهما فما المعنى اذن بمجيئه ان هذا الا برهان جديد على مزيد فحشه

فشعرت كاني مصابة باعراض الموت وكانت قد حانت الساعة لاطعن تلك الطعنة الهائلة واجرد الموسيو دي روشكيم من امال الحاضر والمستقبل وابيد بكلمة جميع حبه لي حيث لا فائدة من تضحيتي بلا ذلك ومن اللازم لزواجه باما ان لا يعود يحبني على الاطلاق ولا يبقى له امل بالحصول على حبي

اه يا الهي اني استنجدتك وقتئذٍ وبمساعدتك حصلت على الشجاعة ثم داوم الموسيو دي روشكيم الكلام وقال اقول لك للمرة الثانية ما لنا ولزيارة زوجك هل اخافك يا ترى بتهديداته

قلت بتهديداته . . لا لعمري وكان احب لديَّ ان يعاملني بالتهديد

قال كيف اذن وما الذي تريدين قوله

قلت انهُ بالعكس رجع اليَّ مضطربًا تعيسًا بكلمات مملوءة بالندامة والحنو . .

قال وهل صدقت بهذا الرجوع الكاذب وتنبه فيك حب المحافظة على الواجب وغششت بهذه الرواية

قلت اوكد لك ان الموسيو دي لانكراي كان يتكلم باخلاص وصدق . . بمنتهى انواع المداراة والاحترام الممكن فانهُ اعترف بخطاياه الماضية واجرى هذا الاعتراف بصراحة وكرامة وصار يمكن بدون ان يعذر على تلك الخطايا ان يصفح لهُ عنها

فنظر اليَّ الموسيو دي روشكيم بدهشة لان اساليب الرعاية وحسن الالتفات التي تكلمت بها عن زوجي ازعجتهُ ثم هزَّ راسه وقال بصوت متاثر عرفت الحقيقة ان نفسك الكريمة صدقت بهذه الندامة مع استحالة حصولها عن طيبة قلب حتى لا يعود لها سبيل للبغض فلا باس لاني انا ايضًا صرت مثلك واجد من اللازم الان ان لا يعود يشعر قلبنا بالبغض والاحتقار . . وان نستعيض عنهما بالنسيان . . لان النسيان هو الاحتقار والانتقام للقلوب الكريمة

قلت ان زوجي لم يحضر فقط لاظهار حزنه العميق عما فرط منهُ بحقي بل . . قال لي ايضًا . .

انهُ لم يحصل افتراقنا بطريقة شرعية ومن اللازم . . . .

فقاطعني الموسيو دي روشكيم بحرارة لانهُ وا اسفي حصل لتمة المصاب على نفس الفكر الذي حصلت عليهِ قبلاً وصاح حسن حسن الحق معهُ ان مركزنا بذلك يصبح اشد صراحة من الحاضر لان الافتراق جسدًا ومالاً شبيه بالطلاق وهكذا تخلصين الى الابد من زوجك ثم توقف قليلاً وقال لقد ادركت الان اسباب احزانك فانت تخافين بحق الافتضاح بمباشرة هذه الدعوى وليس هذا الخوف من اجلك يا الهي حيث لا يمكن الا ان تربحي بمشاهدة اعمالك معروضة للعموم ولكنك تخافين ان يكشف الستار بالعار والخجل في اثناء هذه الدعوى عن مسلك زوجك المستنكر ولك الحق بذلك لكن لا بد من حصول العدالة اخيرًا وقد طال عليك كثيرًا زمان الاوجاع والضحايا ثم افكري جيدًا انهُ متى تمت هذه المعاملة تتقرر شرعيًا حرية مستقبلك وتنزع منك الشكوك الاخيرة بخصوص حقك الادبي

وعند ذلك تعاظم عذابي فاستجمعت قواي وقلت للموسيو دي روشكيم بصوت قصير متقطع من المستحيل لديَّ ان ابقيك طويلاً ايضًا في هذا الخطاء نعم كتبت اليك تحريرًا وقلت لك في ذلك التحرير ان تحضر واني قابلة بالمستقبل الذي تعرضهُ عليَّ ولكني لم ارسل ذلك التحرير الا دخل عليَّ الموسيو دي لانكراي

قال وحينئذٍ

قلت وحينئذٍ اعترف اني تاثرت لتبكيت ضميره وحنوه ومصائبهِ وتاكيداته وكثير من التذكرات القديمة ووعدتهُ رغمًا عني اني ما عدت افارقهُ

وقد تلفظت بهذه الكلمات كما لو كانت محرقة لشفتيَّ ملغمة واطرقت باعيني الى الارض غير متجاسرة على النظر الى الموسيو دي روشكيم

ثم مضى عدة ثوان ولم اسمع صوتهُ فاضطربت ورفعت راسي فاذا هو يسمعني لا بدهشة ويأس بل بنوع من القلق والفضول

وعندما انتهيت من حديثي قال لي ببرودة كثيرة سمعت جيدًا كل ما قلتهِ واعلم يقينًا انك لا تمزحين بمثل هذا المزاح المشوم في هذه الدقيقة الخطيرة وزد على ذلك ان صوتك مرتعش ووجهك منقلب واضطرابك مخيف ومع هذا فقد يظهر لك بلا ريب من ملامح وجهي اني لا اصدق بكلمة من هذه الاقوال

قلت لا تصدق

قال من المستحيل ان اصدق هذا القول حيث لا يمكن حصولهُ ولم يحصل

قلت اعلم جيدًا ان نفسًا كنفسك لا تسلم بوقوع مثل هذا الضعف وتعتبره من المستحيلات

ولكن . . .

قال لست احاول اجراء التعليل او المشابهة ولكني اقول ببساطة ان ذلك لا يمكن حصوله ابداً ولم يحصل والذي يقلقني انما هو هياجك . واصفرارك اما السبب الذي دفعك الى هذا الحديث فلست اعرفه الان ولكني ساعرفه

قلت الا يجب ياترى ان يصيبني الياس والرعشة والتاثر وقد صرت فريسة لحاسة لا يسعني قمعها والتزمت ان اجاوب حبك بمثل هذا الجواب

فرفع الموسيو دي روشكيم اكتافه وقال لي ببرودة ضعضعتني لا ريب ياميتيلدة انك حاصلة على اسباب عظيمة اوجبت عليك مقابلتي بهذه الايضاحات ولكن ثقتي بك لحسن الحظ لا توثر بها التجارب وقد درست قلبي بما يكفي لمعرفة قلوب الاخرين ولا سيا قلبك ويلزمني الان ان اتذكر ما قلته لي نحوًا من الف مرة قبل سفري . لاعلم ان تلك الاقوال لم تكن باطلة بل حقيقية . . . مشعورًا بها

قلت ولكن

قال ولكن امراة مثلك ياعزيزتي متيلدة لا تنحدر في اربع وعشرين ساعة من السماك الاعزل الى الحضيض والبرهان على ذلك اني ما زلت للان كما كنت عند دخولي عليك لا اصدق كلمة من خبر زوجك والحقيقة انك ما زلت تبغضينه وتحتقرينه باكثر من السابق

قلت وهل تظنني اكذب اذن . . .

قال نعم وبلا ريب من اجل غاية عظيمة ومجيدة . وانا متيقن الان بوجود شيء من الاخلاص الخفي تحت هذا الرماد ولا ريب انه شريف وجميل ولكنك لحسن الحظ لم تعدي وحدك بلا نصير في هذه الحياة الدنيا ياميتيلدة وقد صار الاعتناء بسعادتك من متعلقاتي فلي ان اسهر على ملكي وامراتي وسادافع عنك من نفسك اني لا اعدم النيرة وقبل مرور اربع وعشرين ساعة ينكشف الستار عن سرك

ولدى مشاهدة سري قريبًا من الافتضاح شعرت بالخوف والفرح معًا الى حد ان سالت دموعي ولكني رايت من اللازم باي ثمن كان ان ابعد الموسيو دي روشكيم عني واجرده من كل امل ولا سيا من الظن بكوني افعل ذلك عن اخلاص مني لبعض الناس

ولو عزوت نفري من الموسيو دي لانكراي الى الشفقة ومقتضيات اللياقة لبقي الموسيو دي روشكيم يظن على الدوام اني احبه واستحال علي تحقيق مقصدي باقرانه من اما ولهذا رايت من اللازم والحالة هذه ان احصل على الشجاعة واتظاهر بالحب والوجد من نحو الموسيو دي لانكراي بحيث اجرد الموسيو دي روشكيم من كل فكر وامل بخصوصي

وكنت وقتئذٍ بمركز صعب وقاس لان المراد خلاص اما تلك البنية التعيسة المديونة لها بانفاذ الوعود اللازمة لانقاذها فكان من اللازم اذن والحالة هذه ان يكون تصرفي بسيطًا وبفائدة منطقية مخيفة وهي ان اقتل اولاً حبي من قلب الموسيو دي روشكيم حتى اذا صار قلبه حرًّا خاليًا اطلعه على حب اما وبذلك تكون ضحيتي عظيمة ومفيدة لان اما تحصل وقتئذٍ على السعادة وكذلك الموسيو دي روشكيم حيث لا بد ان يعرف اخيرًا قدر هذه المخلوقة الملائكية ثم اتمتع انا ايضًا على الاقل بنوع من التعزية المرة وبالعكس اذا لم انجح في هذا السعي تكون ضحيتي العقيمة سببًا بمصاب اثنين احبهما اكثر من جميع العالم . . فوا اسفي ان هذه التاملات كانت كافية لاثبات كوني ملزومة بالتظاهر وقتئذٍ من نحو الموسيو دي لانكراي بحب مستنكر يصعب شرحه فقلت للموسيو دي روشكيم لست اتعجب من قلة تصديقك لان تصرفي اثيم لديك ولا يمكن ان تعتبره من الامور الممكنة الحصول . . فيربك سامحني اذا كلمتك عن الماضي الم تفكر عندما سافرت اخيرًا حزينًا قلقًا وقضيت تلك الوحدة خائفًا بين الياس والامل بامكانية حصول ذلك الافتراق الذي عرضتهُ عليَّ انت ذاتك

قال بلا ريب ولو وجدتك يامتيلدة عند رجوعي بالرغم عن تحريرك المشدد مترددة ومتقلبة بخصوص هذا العزم لما انجم عليَّ فهم هذا الانقلاب وكنت اعتمدت على الوقت ونفوذي لارجاعك الى وعودك ولكن لا يمكن ابدًا ان يبلغ بي الجنون هذا المبلغ العظيم واصدق انك انت . . متيلدة . . سلبت من جديد فجأة بحب الموسيو دي لانكراي في مدة غيابي والاولى ان اصدق كونك حاصلة على الف معشوق من ان ترتكبي مثل هذه النذالة

قلت ولماذا تسمي ذلك نذالة . . اليس الموسيو دي لانكراي هو زوجي او لا يكون حسنًا مني ان اصفح عن سيئاته اذا جاءني نادمًا عن الاحزان التي سببها لي ومع هذا فقد نظرت كيف اني بالرغم عن انعطافي اليك بقيت محافظة باصرار على واجباتي . . وذلك لاني احببتك كشقيق فقط ولم اشعر من نحوك الا بصداقة حارة . . وحبي الاول المخفي تحت الرماد هو الباعث على كل هذه الفضيلة والعفة

وكان الموسيو دي روشكيم يمتاز على بقية الرجال بسمو اخلاقه وصفاته النادرة ولكنه اظهر كعامة الناس ثقة زائدة بالعبارة الاخيرة او بالحري شعر انها احر من غيرها الان عزة نفسه جرحت بها جرحًا بليغًا فصاح بحركة من الخوف لم يسعهُ التغلب عليها لا يستغرب بعد هذا ان يشك المرء بابيه . . انت . . انت . . تتكلمين بذلك . . . نعم وجد من تلك المظاهر الطاهرة الطهارة وذلك الحب المشوم ما قيد ملائكة من الشرف والطهارة الى الابد بجانبه رجال من ارباب المعاصي الخاسرين ثم راجع نفسهُ بحركة من الغيظ وقال لا . . لا . . ابدًا لا يوجد

ولا اقدار مشومة وما هذه الا كلمات ابتدعها الضعف والجبن او الخجل فلست اصدقك وانت لا تحبين ولا يمكن ان تحبي هذا الرجل الا اذا كنت فاسقة خاسرة مثلة

وكان يتكلم وفتثذٍ حقًا فنهمت كلامهُ واعجبت بغضبه الشريف لكني التزمت لاعطاء دوري المشوم مظاهر الحقيقة ان ادافع عن حبي الكاذب للموسيو دي لانكراي وعن الموسيو دي لانكراي نفسه

فآه كم شكرت الرب وقتئذٍ على ما وهبني من القوة حتى امكني ان اخفي عن الموسيو دي روشكيم الى ذلك الحين حبي الحار العشقي الذي شعرت بهِ نحوه منذ زمن طويل وما زلت اشعر بهِ . . اذ كيف كان يمكني لو اطلعته على هذا السر ان اقول له الا ان حضور الموسيو دي لانكراي استمالني من جديد الى حبهِ . . لا . . لا لعمري ان الموسيو دي روشكيم كان لا يمكنهُ وقتئذٍ ان يصدق بهذه السفالة وكان من المستحيل ان احاول اقناعه بذلك . . .

وفي ذلك الحين جعل الموسيو دي روشكيم يتمشى بخطوات متسعة وظهرت عليهِ مظاهر الالم فاردت اختصار ذلك المشهد المكدر وقلت ليس من العدل ان ترميني بالفسق لان حبًا مشومًا شرعيًا تنبه فيَّ الم اقضي سنين برمتها مسحورة بمحاسن زوجي اولم أُضحي كل شيء من اجل هذا الرجل الذي لوجوده عليَّ والحق يقال قوة لا تقهر فاني بقيت الى الساعة التي شاهدته فيها شريفة شجيعة ولكن من حينما علمت انهُ تعيس ونظرتهُ نادمًا على اقدامي وسمعت صوتهُ وصادفت اعيني نظره نسيت كل شيء الشرف والشجاعة والحزن وركضت بفرح الى قيودي

فصاح لكن هذا مخيف . . ومن الوقاحة ان يعترف المرء بهذا النفوذ المشين . . . فانت مجنونة ولست اصدقك ولا اريد ان اصدقك

قلت ومع هذا فمن الواجب عليك انت وحدك ان تصدقني لاني اخاطبك بتمام الحرية ولا احاول ان اوضح لك ذلك التقرب بمظاهر غير حقيقية وكان يمكني ان اخاطبك عن ذلك كما اخاطب اصدقائي الاخرين واقول لك ان الشفقة على مصائب زوجي وتبكيت ضميره مع زيادة التطرف بالمحافظة على واجباتي دفعتاني الى اتباع هذا السبيل ولكني لا اقول لك الا الحاصل . . لا اقول لك الا الحقيقة ولو مهما كانت خشنة . . . نعم نعم احبهُ . . احبهُ حبًا لا اتجاسر على وصفهِ . . ولكني على كل حال احبهُ . . ولا انكر ان ذلك من الاعمال المشومة الغير الارادية ولكنهُ الحاصل

فصاح ان هذه دناءَة ياسيدتي . . فاني احبك . . وقد قلت لي انك تحبينني

اجبتهُ ومن قال لك اني لا احبك او من منا نحن الاثنين اراد ان يمس طهارة العلايق التي تجمعنا اليس انت . . وهل يمكن ان تحسب كتابتي اليك في ساعة من الضعف والحنو هذه الكلم

تعال وعداً لا يخلف الم تقل لي بانك لولم تجدني عند رجوعك من الاسفار منفصلة عن زوجي لعرضت على الارتباط معك بعلايق الوداد الاخوي القويم . . . فما من شيء تغير علينا اذن الان ودادي لك لا يزال مخلصاً نقيًا اخويًا كالسابق ثم من يحق له باترى ان يلومني واصدقائي انلسهم لا يسعهم الا ان يصوبوا اعمالي بنسياني لذنوب زوجي ورجوعي اليه عندما وجدته تعيساً متروكاً

قال فاذن صرحي بذلك على الاقل حيث لا يزال الوقت يسمح بان لا ابتعد عنك الى الابد قولي الانسانية . . . فاعلم ان الانسانية جبلت على هذه الصورة وانها تسعى للتظاهر كذباً حتى بمنتهى الاخلاص البديع من اجل مطمع جنوني وان اشرف الانفس يمكنها بخطاء مشوم ان تضحي كل شيء من اجل الاعجاب بها . . . قولي انك تعودين الى زوجك بحاسة من الشفقة التقشفية . . فاصدقك . . وتستمرين بالنظر اليّ على الدوام الامراة الوحيدة التي اوقفت حياتي اليها من جميع النساء . . ما العمل انك متطرفة بالفضائل تطرف غيرك بالرذائل لكن اشفقي عليّ وعلي نفسك ولا تقولي ان حبًا قهارًا يلقيك بين اذرع هذا الرجل لا تقولي انه زوجك حيث لم يعد زوجًا وتصرفه المشين التى بينك وبينه حاجزًا لا يقطع ومن الممكن ان تحصلي من اجله على الشفقة والرحمة والجودة وجميع الشعائر ما عدا الحب

فاردت ان اضع حدًا لهذا المشهد القاسي وصحت لكن الحب مع ذلك هو الحاسة الوحيدة او بالحري احر الحاسات التي تدفعني اليه فاني احب به ولو احتقرتني الرجل الاول الذي خفق له فوادي . . احب به زوجي . . احب به معشوقي . . نعم معشوقي ومن اجل هذا اريد ان ارجع اليه

فاخفى الموسيو دي روشكيم جبهته بين يديه وبقي ساكتًا مدة طويلة ثم قال بصوت منخفض كما لو انه لا يزال مستغرقًا بالتفكر ان هذا غريب وكنت اقوله لذاتي على الدوام . . ولكني كنت لا اصدقه على الاطلاق . . وكان من اللازم ان ارى ما اراه الان

فخفت من مشهد وجهه المشوش وصحت ما بالك . . ما بالك

اما هو فاستمر يخاطب ذاته وقال ان حادثًا غريبًا طرأ عليّ الان يا امتيلدة . . نعم نعم ان امـالي واعتقاداتي سائرة الى السقوط رويدًا رويدًا فهي تنتثر كاوراق الشجرة اليابسة ولا اشعر بوجع عند كل جرح وقد ناب فيّ مناب الالم الحار خدر بارد وليس هذا الذي احس به الان شدائد الغضب واليأس بل احتقار مر ممزوج بالشفقة المولمة . وكل ماضي حياتي وكنت اظنه ثابتًا لا يزول بدأ يتهدم ويقل ويضمحل فاني توهمت الثلج الذي يذوب عند حرارة الشمس الاولى رخامًا صلبًا . . يا للغرابة اني منذ هنيهة عندما فكرت بان لربما اجبر على

الامتناع عن هذه الامراة المعبودة مني ترآى لي ان هذا الافتراض عبارة عن هاوية عظيمة لا يمكنني ان انظر اليها بلا دوار اما الان فبدلاً من تلك الهاوية العظيمة المخيفة لا ارى الا ارضاً موحلة ابادر الى تحويل انظاري عنها ومع ذلك فهذا انا . انا بعيني من كان ذلك الحب شغلاً شاغلاً لافكاري وما مرّ يوم ولا ساعة منذ عشر سنوات بدون ان افكر بذلك الحب وكنت احاول به اتمام اعمال عظيمة . . . هذا انا من ركضت امس كولد صغير وشعرت منذ هنيهة بنوع من الفرح الجنوني الالهي لاني قربت من غاية احلامي اما الان فاضمحل فجأة كل شيء . . ولم يعد شيء فصرت ابحث على مكان تلك البناية العظيمة التي تشيدت في نفسي الى ذلك الحين بحرارة مقدسة من فكر فوق فكر وتذكار فوق تذكار ولا اجد شيئاً فبنفخة واحدة اضمحل كل شيء وما بقي شيء على الاطلاق لا خراب ولا بقية ولا اثر قولي . . قولي اليس ذلك غريباً يا سيدة

فاه واسفي ما من شيء اصعب لديّ من استماعه يصرح هكذا بخيبة اماله ويقينه بي

وعند ذلك كدت اصرح له بمقدار غشي وحبي له وهل يلزم يا الهي ان اعترف بهذا الجبن ان سبب هذا الضعف الوقتي الذي الم بي وقتئذٍ انما هو انقياد الموسيو دي روشكيم المقرون بالاحتقار وكان هذا الاحتقار مفيداً لمقاصدي ولكن ياسه اعطاني قوة جديدة لانه اثبت لي انه لا يزال يحبني ومن اللازم ان يضمحل ذلك الحب برمته

ثم داوم الموسيو دي روشكيم الحديث موجهاً خطابه اليّ وقال ان ذلك يكون من الامور التي لا يمكن فهمها لو صدر عن كل احد غيري اما انا فصفاتي معلومة ولا يكون السم القتال اشد فعلاً في انفاذ الموت من احتقاري عندما يصيب اميالي الودادية ولو مهما كانت عظيمة وحارة ثم نهض فجأة وقال وبعد هذا كله فالانسانية هي الانسانية سواء جبلت من الذهب او التراب ومن اللازم ان اشفق على ضلالك لدى التفكر بالصفات التي اوجبت هذا الضلال وان لا القي الى العدم والنسيان عشر سنوات صرفت بالوداد المقدس العظيم والحب والعبادة ولكني لا استطيع ذلك لاني لا اعرف الخطة الوسطى في كل شيء ولا يمكني ان انظرك الا كالهة او امراة من عامة النساء فعندما كنت مرتفعة على قاعدة المنزلة التي تستحقينها تعشقتك بعبادة اما الان فقد انحدرت عن تلك القاعدة بشين وصرت كغيرك من النساء ولهذا اجحد تعبداتي الماضية

فاجبته بتمرمر انني لو سمعت لك عندما طلبت اليّ بلجاجة ان انسى واجباتي لقابلتني على هذه الضحايا بالاحتقار ايضاً وكنت كالان جحدت تعبداتك الماضية . . لاني تنزلت بشين عن منزلتي انك تحتقرني الان لاني انقدت لميل شرعي فكم بالحري لو انقدت

الميل اثيم . . . .

والذي يظهر ان هذه الملاحظات استجلبت انتباهه فبقي مفكرًا ثم صاح بحدة قلت لك منذ زمن طويل اني اذا شككت بك يومًا اشك بنفسي فها قد حانت الساعة التي يحصل بها ذلك وشككت بنفسي وبالجميع فالويل لك انت يامن ضعضعت جميع افكاري من خيرية وشريرة الويل لك لانك استوجبت البغض بأتمام واجب مقدس الويل لك لانك تفسقين بالخضوع لحب شرعي حقًا اني احتقر الرياء والرذيلة باقل من سماجتك وتطرفك بالعفة والفضيلة

ثم خرج بحدة وكان قد قضي الامر وصار يحتقرني و يبغضني ومن تلك الساعة كملت ضحيتي فشعرت ان قلبه نفر مني لاني حضرت شدائد النزع والموت التي المت بحبه واعتباره لي ولم يعد لي من ريب بان قلبه خالٍ فمن يشغله

وفي تلك الساعة خطر على تصوراتي فكر جهنمي فصحت واورزيل اذا حاولت سبيه واستمالته الا تجده الان وهو حر غضوب في احسن الظروف المناسبة لامتداد نفوذها عليه وهل يسع اما تلك البنية التي وعدتها بذلك الحب والتي تموت بدونه ان تصادم اورزيل في مقام العراك ولا سيما اذا احبت هذه الامراة بتعشق

ثم هل يجوز ان امتنع بارادتي عن حبي لاشاهد هذه الامراة اللعينة تشغل قلب الموسيو دي روشكيم

واعترف ان الحوادث التي مرت معنا تراكمت عليَّ بعجلة فلم افتكر ابدًا بالمواجهة التي حصلت بين الموسيو دي روشكيم واورزيل في الاوبرة ولو فكرت بذلك لربما حصلت على القساوة وفضلت تضحية اورزيل على المخاطرة بمشاهدتها محبوبة من الموسيو دي روشكيم

الفصل السابع والستون

الوداع

وكنت قد كتبت من حينما تقرر عزمي الى الموسيو دي لانكراي اعلمه اني تاملت بمطلوبه ورضيت اختيارًا بالرجوع اليه وذلك لاني خشيت ان يبادر الى استعمال الوسائط الشرعية ويفسد بذلك جميع مقاصدي حيث يشك ويفتتن بما اظهرت من الاهتمام للمعيشة بجانبه

وبعد خروج الموسيو دي روشكيم ذهبت لمشاهدة السيدة دي ريشفيل واما فوجدت الفتاة المريضة احسن كثيرًا من السابق والذي يراه الطبيب ان حصولها على الصحة التامة من الامور الاكيدة المضمونة اما الدوقة نكانت قد نالت تمام الشفاء وعندما شاهدتني شكرتني بحنو مزيد على عنايتي بابنتها ثم اخبرت الدوقة بعزمي على الرجوع للمعيشة مع الموسيو دي لانكراي واسندت هذا العزم الى شفقتي عليه بالنظر الى مصائبه وندامته فظنتني الدوقة مجنونة وابدت اليَّ جميع الملاحظات والالحاحات الممكنة لتحويلي عن عزمي فلم انحول ثم انضم الى الدوقة البرنس ديركور وامراته وتكلما كثيرًا لاقناعي بفساد تصرفي فسالتهما عما اذا كنت اخسر اعتبارهما بهذا التصرف فاجاباني بالسلب وقالا ان هذا العمل ليس الا تطرفًا ممدوحًا ولكنه قدوة مشومة ومن المحزن ان تعامل الرذيلة والفساد بمثل هذا الاخلاص

ثم احتججت بمصاب وندامة زوجي فاجاباني ان مصابه باستحقاق وان ندامته غير ثابتة وهذا التعلق الاعمى الذي اظهره تكاد لا تكفي لجوازه سنوات عديدة تصرف منه بحياة مستقيمة

وكنت اعلم من الجميع بصوابية هذا الحديث ولكن صوالح كثيرة كانت معرضة وقتئذٍ للخطر ولا يمكني ان اتردد لبرهة عن مواصلة السير في المسلك الذي رسمته لنفسي

ومع هذا فاني علمت بحزن ان البرنس وامراته داخلهما البرود من نحوي فاني خسرت كثيرًا من منزلتي في افكارهما اذ وجداني ضعيفة وبلا استحقاق وكانا يتالمان بحق لدى مشاهدتي معرضة عن حمايتهما وهي لديَّ من موجبات التعذية العظمى وذلك كله من اجل الذهاب للاجتماع برجل يحتقرانه ويبغضانه لانه اساءَ اليَّ كثيرًا باعمال الشروقد فصلاني عنه اديبًا وخلاصة الامر انهما كانا يتاسفان لاهتمامهما باحزان اصابتني ونسيتها بكل هذه السرعة

وهكذا قلت للدوقة دي ريشفيل واصحابها الجامعين بين العدل والصرامة ان الشفقة وحدها هي التي تقربني من الموسيو دي لانكراي . . واسفي اني لم اتظاهر كذبًا بذلك الحب المشين لزوجي الا امام الرجل الذي احبه واحترمه اكثر من جميع العالم

ثم حاولت الدوقة دي ريشفيل اقناعي بالاستمرار على سكن الدائرة التي اسكنها بقربها ولو اقتضى لذلك ان تتغلب على اشمئزازها من مجاورة الموسيو دي لانكراي لكني رفضت هذا الطلب اذ لو رضيت به لجرى ملاحظة علاقتي مع زوجي من قريب واكتشف سريعًا على كذبي

ولا يسعني استيفاء الشرح على مقدار دموع واحزان الدوقة دي ريشفيل وقتئذٍ ففي حال تهيجات احزانها وخشونة حبها اوسعتني توبيخًا قاسيًا فسمعته بسكوت لانها اثبتت لي بذلك قوة ودادها لي وكنت مستحقة لهذا التوبيخ بالنظر اليها

وعند ذلك شعرت للمرة الاولى من حياتي بالفرح الذي يداخل المرء لدى مشاهدة كونه مجهولاً مذموماً ويقول لذاته انه يسعني بكلمة واحدة ان اغير هذا الذم الى عبادة

وتراءى لي من الجميل البديع ان اكمل هكذا وحدي وانا ملومة من الجميع عملاً لا يسع كل من يعرفه الا ان يعجب به

وحينئذٍ ادركت تلك المعاملات الخشنة المستمرة الشديدة التي يجريها البعض من اجل غاية شريفة ضد الهيئة الاجتماعية بلا مدد الا افكارهم ولا قوة الا ارادتهم

وكان من الواجب عليَّ وقتئذٍ وانا في هذا المركز الصعب الموجودة به ان اقود الموسيو دي روشكيم للزواج باما بالرغم عن الدسائس والمكائد السحارة التي لا بد ان تستعملها اورزيل لاستمالة هذا الرجل اذا كانت محبة وكان من رغبتي الحارة بالوصول الى نهاية هذا المشروع والعظمة الناشئة عن يقين كريم ان رفعا افكاري الادبية وحركا عزيمتي ومنعاني من البقاء مسحوقة تحت احمال ضجيني وفي تلك الساعة ادركت الفرق العظيم الكائن بين حبي للموسيو دي روشكيم والحب الذي شعرت به قبلاً للموسيو دي لانكراي فكنت قبلاً خائرة القوى مضعضعة مسترخية . . لا اعرف الا ان اتوجع بلا عمل اما الان فبالعكس

نعم اني اتوجع كالسابق ولكني لا اريد ان تكون اوجاعي عقيمة وبلا جدوى ويجب في هذه المرة ان تخصب دموعي لاني رغبت حتى في احزاني ان اكون مستحقة للرجل الذي اعبده

فاه كم كنت مفتخرة بهذا الحب جوهرة قلبي المحفوظة بلا دنس . . . . وعندما كنت اشعر احياناً اني ضعيفة في عزمي كنت اتذكر هذه الكلمات التي الهمني بها الرب على مخدة اما وهي اه لو يعلم

نعم كنت اقول في ذاتي غداً اكشف للموسيو دي روشكيم عن كل شيء وحينئذٍ ماذا يحصل الا يصبح هذا الرجل عند اقدامي ويزداد بي وجداً وتحرقاً

وكنت لا ازال اعزّ على الدوام واكثر من العادة ويحصل لي احياناً دمار في القوى ويأس مخيف واذ ذاك كنت اتذكر ما قاله لي الصوت الالهي في تلك الليلة المشومة وهو تشجعي ايتها الامراة المسكينة . . انك لا تعلمين بعد ما هو هذا ان يحصل المرء بقوة الضحايا على الحق بالبكا على ذاته وبالحقيقة كنت اجد في هذه الدموع لذة محزنة

وكنت اعود احياناً الى مخاطبة ذاتي فاقول متى نجحت بمقاصدي وتقررت سعادة اما لان الموسيو دي روشكيم لا يمكن ابداً ان يبقى غير متاثر بحبها ولا بد ان يقاسمها ذلك الحب فمن يمنعني وقتئذٍ من الانفصال عن زوجي بطريقة شرعية والرجوع للمعيشة كالان بجانب السيدة دي ريشفيل ولربما اصرح للموسيو دي روشكيم وهو وقتئذٍ زوج اما بكل شيء حيث يمكني بلا

الخوف بالنظر الى ثقتي بذاتي وبه ان أكشف له عن هذا السر واقنعه اني بقيت على الدوام مستحقة له . . وانه مديون لي بالسعادة التي يتمتع بها بجانب اورزيل . . . وحينئذٍ كم يكون جزائي عظيماً وعذباً بعد تلك الاحزان التي تحملتها بسكوت . . وكم تكون حياتي سعيدة وهنيئة مني صرفت على هذه الصورة بجانب احبائي . . . .

. . . .

وكنت انتظر قدوم الموسيو دي لانكراي الاحد صباحاً وقبل مبارحة المسكن ذهبت لمشاهدة اما المرة الاخيرة وكانت وحدها ففي اثناء حديثي معها اوصيتها بلزوم المحافظة على خبر زواجها تحت السر العميق بالنظر الى الموسيو دي روشكيم والسيدة دي ريشفيل ووعدتها ان احرر لها صحبة بلوندو ثم كلفتها الى مجاوبتي مع نفس الرسول

ولدى علم هذه البنية المسكينة بخبر رجوعي الى زوجي لم يسعها اخفاء حركة من الفرح الاضطراري بالرغم عن مزيد ارتباطها الحقيقي بي ولست اشكو لذلك من قلبها بل من اميال حبها الغريزية

ثم وعدتها بالمجيء غالباً لمشاهدتها وكنت معتمدة تمام الاعتماد على القيام بهذا الوعد الضروري لانفاذ مقاصدي

وفي صباح الاحد حضر الموسيو دي لانكراي الى مسكني كما سبق واخبرني

وقد برح عن بالي ان اقول بان الموسيو دي لانكراي من حينما بارحته اورزيل استغرقته بلا ريب المشاغل الجارحة فلم يعد ينتبه الى شخصه وملابسه ووصل في هذا المعنى الى درجة الاهمال والقذارة وكانت سحنته قد انقلبت بالاحزان والسهر والمعاصي من جميع الانواع التي صار يطلب بها منذ قليل التسلية عن حبه الجنوني المستعصي فهو باعين محمرة ووجه مكفهر ولحية طويلة وشعر مشوش وصوت خشن ابح والخلاصة ان كل شيء فيه كان يمثل الرذيلة والفقر (وقد علمت اخيراً ان هذا الفقر كان حقيقياً)

وكان هذا هو الرجل الذي نظرته منذ سنوات بمنتهى الزهو والفوز فقال لي عند دخوله اثني عليك ياسيدتي بالنظر الى حسن نيتك نعم ان هذا الخضوع الفجائي لا بد ان يتضمن بعض الافكار الردية ولكن لا باس . . ولا تصدقي ابداً انك تلعبين بي . . وساثبت لك ان ما اريده . . اريده

قلت متى نتوجه ياسيدي

. قال في الحال ياسيدتي في الحال . . . ثم سال بهزء هل في نفسك مخاطبة حبيبك المخلص بالفاظ الوداع الحنونة وان تتبادلي معه بعض الدموع . . افعلي ما تحبين ولا يضايقك وجودي . . فلي فرصة

خمس دقايق يمكني ان اصرفها بخدمتك من اجل هذا الوداع الموثر

قلت اني ودعت في هذا الصباح السيدة دي ريشفيل ياسيدي ومن جهة ثانية فلي الامل ان اشاهدها قريبًا

قال لا يكون لك فكرة من هذا القبيل حيث لك ان تشاهدي كل من تريدينهُ وستحصلين على الحرية المطلقة الا اذا تغيرت افكاري بعد ذلك

قلت اني مستعدة للمسير معك ياسيدي عندما تريد

قال امهلي عليّ قليلاً فيجب ان اخبرك ياصديقتي العزيزة ان المسكن الذي اقطنهُ الان من المساكن الحقيرة البسيطة وقد اتخذتهُ بعد اذ تركت منزلي . . . لاسباب تعلمينها بلا تعب ولم احصل على الوقت الكافي للاهتمام بترتيبه وسيفرق عليك الحال كثيرًا بالمعيشة هنالك

قلت يرضيني ياسيدي كلما يرضيك . . بشرط ان احصل فقط على غرفة لي وغرفة اخرى بجانبي لحضينتي بلوندو وساحضر من هنا الامتعة التي تلزمني

قال ونبيع الامتعة الباقية حيث لا اخفي عنك ياسيدتي اني متضايق ما بالك تتعجبين انك اطلعت الان على متاعب فوادي وصار من الواجب ان تعلمي كل شيء فاني لعبت اخيرًا لتشتيت افكاري . . لعبت كثيرًا . . وخسرت كثيرًا ولا ريب انك موفرة شيء من الدراهم

قلت يمكنا فيما بعد ان نتكلم عن الاشغال

قال الحق معك ياسيدتي هل تريدين ذراعي ثم توجهنا سوية فصعدت معهُ الى عربة وتبعتنا بلوندو في عربة اخرى مصحوبة ببعض لفافات لا يستغنى عنها ثم امرت خادم غرفتي ان ياتيني مساء بعدة اشياء محتاجة اليها

وعندما صرنا في العربة قال لي الموسيو دي لانكراي اني ابقيت عندي خادمًا نعم ان هذا بدخ ولكن هذا الخادم متعلق بي وهو يكفي لخدمتنا مع بلوندو وحيث لا اتناول الطعام في المنزل فيمكنك ان تستحضري طعامك من احد باعة الطبيخ المجاورين وبواب المنزل يساعد بلوندو في خدمتك

قلت منذ ست سنوات تقريبًا ياسيدي كنا راجعين من شانتيلي وقد خاطبتني وقتئذٍ بخصوص ترتيب منزلنا في باريس لكن الاوقات تغيرت

قال كثيرًا ياسيدتي بما يويد هذ المبدأ وهو ان الايام تتابع ولا تتشابه والذي يظهر لي ان دم ماران تنبه فيك وصرت محبة للسخر والقدح ولكن لا باس لاني حليم وانما حلمي لا يكون دائمًا

.. ها قد وصلنا

واذ ذاك وقفت بنا العربة امام منزل قديم في شارع بوركوني ثم تجاوزنا داراً مظلمة رطبة مغمة وعند وصولنا الى الطابق الثاني فتح لنا خادم الموسيو دي لانكراي باباً من الداخل فاذا هو نفس الرجل الذي رافقني في تلك الليلة المشومة الى المنزل المنفرد وكان بهيئة مفزعة اما المنزل فكان مولفاً من فناء حقير مكردسة فيه الصناديق بلا انتظام وقاعة خالية تقريباً من الاثاث ثم غرفة في الجهة اليمنى للموسيو دي لانكراي وغرفة في الجهة اليسرى لي مع اوضة صغيرة لبلوندو

وكانت الاوراق قذرة والمنافذ بلا ستائر والاخشاب مسودة بالدخان والبلاط تقريباً موحلاً والنهار يكاد لا يصل الى اعماق ذلك الدار الرطب

ففي اول الامر انقبض قلبي بتوجع ثم حصلت على الخوف وظهر لي ان ذلك المسكن منفرد مقفر فنظرت بقلق الى ما حولي وكانت بلوندو المسكينة لا تفارقني وتلتصق بي وهي مرتعشة بالخوف

فقال الموسيو دي لانكراي بهيئة ساخرة انك بلا ريب تجدين هذا المنزل حقيراً سفلاً لكن زمن القصور مضى ياعزيزتي

قلت لا باس لا يسوءني شيء على الاطلاق ولكني ساجري فقط بعض الاصلاحات التي لا يستغنى عنها

قال افعلي ما يحسن لديك ولا تخافي ان الوملك هنا كما لمثك في ماران بخصوص حركة الفعلة لاني ابارح المنزل باكراً ولا اعود الا متاخراً جداً واحياناً لا اعود على الاطلاق فلك والحالة هذه ان تفعلي هنا كل ما تريدينه

قلت فاذن اطلب اليك ياسيدي ان تسمح لي بالمحافظة على خادم غرفتي فينام في هذا الفناء لانه رجل امين وانا لا اعرف هذا المنزل وخائفة كثيراً

قال اذا كنت قادرة على دفع اجرته فلا مانع ابقيه اما فريتز فينام فوق

ثم خرجت بلوندو فقال لي من اللازم الان ان اخاطبك بتلك الصراحة المالوفة بين الزوج وزوجته فاعلمي انه لم يبق لي من حطام هذه الدنيا الا نحو الف ريال لا غير اما انت فعندك احجار كريمة ومجوهرات ومن اللازم الانتفاع بها للمصروف وكنت اقدم لك الى السنة الماضية راتباً سنوياً وقدره عشرون مليون فرنك ولا ريب انك لم تصرفي كل هذا المبلغ لانك كنت تعيشين في ماران كناسكة

فصحت مرتهبة ولكن من المستحيل ياسيدي ان تكون قد وصلت الى هذه الدرجة من الفقر

قلت عندما اختفت اورزبل كان باقياً عندي نحو مائتين وخمسين الف فرنك ولكني

بالنظر الى الياس ورغبة مني بطرد مشاغل افكـاري ومعرفة حظي لعبت ولم اتوقف بلعبي كما قلت لك فخسرت كل شيء وحيث صرحنا بذلك الان فما من حاجة لاعادة التكلم به اني لا اتذكر ابداً الاموال التي اصرفها بسرتي فكم بالحري الاموال التي اخسرها باللعب

قلت فاذن ياسيدي كان القصد باجباري على المجيء معك ان اقاسمك هذه الحياة الهائلة حيث بماذا يمكني ان افيدك يا ترى وقد قلت انك لا توجد هنا الا نادراً فما هي غايتك اذن

وكنت اتكلم بذلك وارتعش بالخوف ثم اسفت شديد الاسف لاني دفعت ذاتي باختياري الى ايدي الموسيو دي لانكراب

ولكن هذه التاسفات كانت بلا جدوى وبعد اوانها ومن اللازم ان احمل جميع نتائج مسعاي لمدة واتعلق بهذا الرجل او اتخلى عن المقاصد التي تقويني وحدها على احتمال هذه النكبات

ولم تعد تسمح لي الظروف ان اشكو امري لاحد من الناس او اسمع من احد بمشورة او مساعدة لان الجميع كانوا معتقدين اني ذهبت للمعيشة مع الموسيو دي لانكراي بملء الحرية والاختيار ولا يمكني والحالة هذه الا ان انظاهر بالسعادة والمسرة من هذا النصيب الذي اتخذته

ثم اجاب زوجي على سوالاتي بقوله تساليني ياصديقتي العزيزة عن غايتي بطلب مجيئك اليَّ ان الغاية الاولى من هذا الطلب هي التمتع برافقتك المحبوبة ثم لا يعنيك ذلك

قلت فاذن انت حاصل ياسيدي على مقاصد مستنكرة لا يمكنك ان تصرح بها

قال ليس المراد الان البحث بمقاصدي ولكن لي الحق بالمحافظة عليك عندي وساحافظ عليك الى ما شاء الله اما من جهة الامال التي يمكن دخولها عليك بامكانية التخلص مني الان او في المستقبل وذلك بطلب الافتراق عني فقد احضرت لك لاراحة ذهنك من هذا القبيل نسخة طبق الاصل عن فتوى شرعية احثك على مطالعتها بتامل وهي محررة من اشهر قضاة باريس وقد كلفتني نحو خمسين ليرا فرنساوية نعم ان هذا جنون بالنظر الى مركزي ولكني لا ابالي بدفع الاموال الباهظة من اجل ضمانة المعيشة بجانبك — ثم دفع اليَّ ورقة وقال سوف ترين كيف ان القضاة الثلاثة اجمعوا رايًا بالجواب سلبًا على هذا السوال هل لك اقل حق بطلب الافتراق عن زوجك وذلك لان الصوت العام يعزو الينا نحن الاثنين ذنوبا متشابهة وهذا رايهم الخاص ولا علاقة له براي مجالس العدلية ولكنهم يوكدون من جهة ثانية ان ما من مجلس يقدر على اجابة طلبك بالافتراق اذا ثبت رسميًا انك عدت باختيارك الى مسكن زوجك . . لان هذا السعي من قبلك يعتبر كصفح عام عن جميع ذنوبي الماضية ضدك ولو مهما كانت خطيرة وكنت لا اتوقع منك مثل هذه المساهلة الاخيرة بالمجيء الى مسكني فاكتفيت بالارا الخصوصية

التي ابداها قضاتي الثلاثة وذهبت اليك احاول اجراء وسيلة اخيرة للمصالحة التي شعرت وفتشئذٍ باهميتها قبل ان ارسل اليك محضرا المحكمة فاحكي اذن على مقدار تعجبي وفرحي عندما وصلتني منك تلك التذكرة الصغيرة البديعة التي تقولين لي فيها انك لدى التامل بدقة لم تجدي من داع بجملك على دوام المعيشة طويلاً بعيدة عني

وعند التفكر بهذا الخطاء المشوم لم يسعني التغلب على حركة من الياس انتبه اليها الموسيو دي لانكراي فقال هازئًا وقد اراني تحريري انك ما فكرت بذلك والذي اراه انك آسفة كثيرًا على ارسالك لي هذه الورقة الصغيرة الناعمة المعطرة التي تربطك بجانبي الى الابد اني ذاهب لاغير ثيابي حيث يهمني اليوم كثيرًا ان اتحسن واكون جميلاً

ثم تركني الموسيو دي لانكراي باهتة مضطربة وذهب فتضعضعت حواسي لاني ظننت اني اقيد ذاتي موقتًا بكتابة ذلك التحرير فحصل الخلاف وتقيد حاضري ومستقبلي

وهكذا سقط املي الى الابد بالرجوع يومًا للسكنى بجانب السيدة دي ربشفيل والتمتع اخيرًا بالعوض عن جميع هذه الضحايا وذلك بالكشف للموسيو دي روشكيم عن اسباب تصرفي فقضيت اذ ذاك ساعة مستنكرة وكانت جميع اقوال الموسيو دي لانكراي صحيحة لان هذا التحرير اضاعني او بالحري سيبقى بيدهِ كحجة قوية ضد مدعا آتي . . . فباية حجة ياترى يمكنني بعد الان ان اطلب الانفصال عن زوجي وهو حاصل مني على تذكرة خطية ناطقة بخضوعي الاختياري الى رغائبهِ

وا اسفي ان حلقة مركزي الحديدية احاطتني وحصرتني من جميع الجهات ثم اصابتني نكبة جديدية اوجبت زيادة مصائبي او بالحري ثبت منها ان مخاوفي كانت مؤسسة على الحقيقة بالنظر الى اورزيل

ففي المساء بينما كنت اباشر مع بلوند واجراء بعض الاستعداد لصرف الليلة الاولى بلا خوف في ذلك المنزل المرهب واذ اصعدوا لي تحريرًا وهذا نصهُ

ياسيدتي

ان احد اصدقائك المحبين المواصل منذ مدة اطلاعك على جميع اسرار زوجك يريد ان يسبق الجميع باخبارك ان اورزيل هي التي امرت الموسيو دي لانكراي ان يستدعيك اليهِ وذلك لقطع علاقتك مع الموسيو دي روشكيم . . . لانها تحنة بتعشق ولم تشاهد اورزيل زوجك ولكنها كتبت اليهِ بان الواسطة الوحيدة للحصول على رضاها بمواجهتهِ انما تكون باخذك الى منزلهِ والمحافظة عليك ثم . . . ولكن وعود اورزيل في هذا المعنى كاذبة ولا نكراي المسكين لا يعلم انهُ يسهل حب اورزيل بفصلك عن الموسيو دي روشكيم

وقد نظر في ايدي اورزيل فتوى رسمية محررة بقلم ثلاثة من مشاهير القضاة ثم صورة تحرير

منك تعلنين به استعدادك عن طيبة خاطر للرجوع الى الموسيو دي لانكراي

فهذا الخبر الجديد اذا اضفته الى افادة الدكتور يتاتى عنه ارتباك المسالة ارتباكاً غريباً ولابد ان يحصل عن كل ذلك هذه النتيجة وهي

اولاً ان اما تموت حزناً . . . ولا يكون هذا بلا تاثير بالسيدة ريشفيل وبك انت ولا سيما عندما تجدين ان تضحيتك لذاتك ذهبت عبثاً وبلا جدوى

ثانياً ان الموسيو دي روشكيم ستقتنصه قريباً ابنة عمك اورزبل باشراكها ولا يكون هذا الفوز منها بلا اهمية بالنظر اليك

ثالثاً انك ما عدت تفارقين زوجك على الاطلاق . . حتى ولو علم ان اورزيل تلعب به لانها تقدم له على الدوام اسباب اخرى لدوام المحافظة عليك ويكفي هذا لارعابك كثيراً لو كنت حاصلة على فضيلة العلم بالمستقبل

وكان هذا التحرير من الموسيو ليكورنو ولا يمكني ان اشك بذلك فهذه هي المصاعب التي فرض عليّ وقتئذٍ التغلب عليها وهذه هي الاخطار التي عرضت لي ولا بد من اقتحامها

الفصل الثامن والستون

مراسلة

وعندما هدأ روعي نوعاً تصورت مركزي بتعقل فخف ياسي وتطمنت قليلاً لدى معرفتي السبب الذي حتم من اجله لانكراي بلزوم رجوعي اليه وكان التحرير غير الممضي (ولا ريب انه عمل الموسيو ليكورنو) قد اراني المستقبل بمشهد مخيف خفي ولكن مشاكل الحاضر اشغلتني عن هذه المخاوف الاستقبالية

وكنت اعتبر من الاهانة الجارحة لصفات الموسيو دي روشكيم ان افترض كونه اهلاً لان يرتبط مع اورزبل باقل العلائق الوقتية لان هذه الامراة كانت قد سببت لي احزاناً كثيرة وهو حاصل من نحوها على كثير من الحقد والبغض اما الصعوبة الكبرى فكانت بالسعي لاتمام زواج اما وذلك بدون ان يداخل الموسيو دي روشكيم ادنى شك باطلاعي على حب هذه البنية المسكينة . وبقيت انتظر كل ذلك من الالهامات الربانية التي اسندتني وقادتني . . .

ولم افكر بحياة الفقر الشقية التي اوصلني اليها الموسيو دي لانكراي بجنونه واسرافه ولكني عرفت وقتئذٍ قيمة تدبير الموسيو دي مورتاني فان اراضي ماران كانت قد شريت لي باسم الدوقة دي ريشفيل وايرادها يكفي لسد احتياجي

وكنت مجبورة بناء على هذا المركز الغريب ان اقاسم زوجي الضيق والاحتياج حيث لا املك شيئاً خاصاً بي ولا ابالغ اذا قلت باني صبرت على هذه الحياة الفقرية بدون مبالاة فاني اتخذتها كتجربة او امتحان

وبعناية بلوندو اصبحت غرفتي صالحة للسكن وكنت لا اشاهد الموسيو دي لانكراي الا قليلاً واعلم من بعض قطرفاته الجنونية بالمسرة الخشنة والاحزان المشومة ان اورزيل شجعت او قطعت امالة الاخيرة بحسب الظروف وكان املي انه لا يلبث حتى كفت اورزيل عن امره بلزوم المحافظة عليَّ ان يرضى بالانفصال عني ولهذا فان ارغامي والحالة هذه على المعيشة بجانب زوجي لم يزد احزاني كثيراً ولكن جميع هذه الاحزان كانت تدور بكليتها على خسارة حب الموسيو دي روشكيم والخوف على مستقبل اما

وبعد انتقالي الى المسكن الجديد بيومين حضرت الدوقة دي ريشفيل لزيارتي بعد اذ تحققت بمزيد التحرس غياب زوجي وعلا صوتها بالبكاء لدى مشاهدتها لحقارة مسكني المذكور ثم قالت انها تستدل من هذه الحقارة على اخلاصي وكانت اما قد تمالكت صحتها بسرعة وامها لا تشك بحصولها على الشفاء التام

واذ ذاك سالت الدوقة دي ريشفيل مرتعشة عن الموسيو دي روشكيم فاجابت انها لا تعلم عنه شيئاً الى ذلك الحين وانها بعثت تسال عن صحته فقيل لها انه متوجع قليلاً

ثم اخبرتني السيدة دي ريشفيل ان الناس مختلفون بالحكم على تصرفي فالبعض يندد بي بقساوة والبعض يبالغ بمديحي والثناء عليَّ

وفي الغد وصلني تحرير من الموسيو دي روشكيم وهذه صورته

باريس

اني تصرفت معك بخشونة وقساوة وبلا عدا له لاني كنت من ارباب الكبرياء الموجودة في جميع شعائرنا الرديئة وقد شعرت من نحو الغير بما لا تشعرين به من نحوي فثارت عزة نفسي واظلم عقلي ولم اعد انظر الى زوجك كرجل مستحق او غير مستحق لحبك بل نظرت اليه كمزاحم

ان كل هذا منطبق على القواعد المنطقية فاني خرجت من دائرة الشعائر السامية وسقطت في الشعائر السفلة الغيورة والجنون اخلف فيَّ التعقل وهنا اسال هل كان من الممكن لديَّ ان

ابقى على الدوام في تلك الدائرة لا لعمري ان الحب العفيف لا يمكن ان يدوم بين اثنين في ريعان الشباب ولا بد من سقوط احدهما عاجلاً كان او اجلاً نعم انهُ طافح بمظاهر الظرف والعظمة ولكنهُ فخ خطر ولو لم يسند حبك لزوجك عفتك لكبوت مثلي حيث لا يمكن النجاة اذا سلب القلب من وباء الرغبة

اني فكرت كثيرًا ووضعت ذاتي موضعك لاحكم على اعمالكي من حيث الوجه الادبي المحض فوجدتك لا تستوجبين اللوم ولم يعد مسموحًا لي كما يقال ان اتاسف فما اقسى هذه القضية بالنظر اليَّ

لو وقفت لك حياتي او قضينا سعادتنا في الوحدة لان الشهوات العظيمة تكون وحيدة وفريدة لتم بذلك مستقبلي وسعادتي اما الان فلم يبق لي شيءٌ على الاطلاق لا حب الاخ ولا حب العاشق اذ من حينما تصورت فيك الامراة . . اضمحلت الشفيقة ولكن هذه الامراة اعرضت عني بتفضيل نجاتي . . ففقدتها ايضًا ومن المستحيل عليَّ ان اتغلب على هذا الاعراض او انسى كوني مصدرهُ

ثم قد يوجد من التاثرات ما لا يمكن اعادتهُ كالايام اذا مضت فلست استطيع والحالة هذه ان اعود كالاول شقيقًا لك الاَّ اذا رجعت الى سن العشرين

فاذن مركزنا قد سحق . . سحق الى الابد

ان رجوعك الى زوجك قد زعزع كل ميزانية وضعضع كل تصور ولو حصل هذا الرجوع عندما كنت شفيقك لما تغير شيء بيننا وكنت حينئذٍ لمتك او صادقت على اعمالك بلا غرض

اني في الثلاثين من العمر واظن اني احببتك في الثامنة عشرة منهُ واثبت لك ذلك ولكن الماضي مشوم سواء بالنظر الى تذكراته الحسنة او الرديئة

ثم اذا كانت مودتي لك قد ماتت بعد ان تنوعت فلا يمكن ان يزول تذكارها من افكاري ومن اللازم ان يكرم على الدوام اكرامًا دينيًا ما لم يعد لهُ وجود . . اجل ان ما اشعر بهِ نحوك في هذه الساعة انما هو عبادة سودوية مقدسة يحصل عليها المرء لمن ينتقل قبله من هذا العالم اما تاسفاتي فستكون ابدية . . ابدية واذا ما صرنا يومًا ترابًا فبقايانا تستمر على هذا الحال في القبور هذه هي شعائري من نحوك وستبقى سرمدية الى ابد الدهور

لست الومك يا متيلدة لان الموتى لا يلامون بل يبكى عليهم

ان هذه التصورات محزنة ولكني اذكرها لاعلمك ان الماضي ليس قاسيًا ومستقبحًا وغير مهمل بالنظر اليَّ بل اصم كالقبر . . . مات الماضي وما نسي نسيًا بل قتل قتلاً

وستكون حياتي شقية من الان وصاعداً لاني اخفق بين الف طوم ولا يقر افكاري على شيء ان خسارتك دمرت حياتي بما يحملني على معاودة العمل ولكن العمر يتقدم وانا تعب من مشاق الطريق

وكنت قد فكرت مع ذلك اني قريب من النهاية . . . فخاب فكري . . وصار من اللازم ان اسير . . اسير ايضاً . . وانما بآية صحراء قاحلة وبلا نهاية يا الهي

باريز

امس وصل بي الغيظ والبغض الى منتهى درجاته واردت ان اشفي غليلي . فصرت كالمجنون . . وخرجت بقصد ان استدعي زوجك للبراز واقتله

اقول ذلك لاني كنت على يقين من قتله وقد يوجد من الهامات الضمير ما لا يخطيء على الاطلاق

وقد كان من هذا الاعتقاد ان ارهبني لاني خفت ان اكون قاتلا والبرهان على انفصال قلبي عنك تمام الانفصال واني لا انسى ابداً كونك فضلت عليّ رجلاً فاسقاً شقياً هواني فكرت عندما اردت قتل زوجك ان اقيم بيني وبينك الموانع متى صرت ارملة ثم فكرت ايضاً انك اذا صرت غداً حرة بوفاة زوجك فلا يمكن ابداً ان ارضى بالحصول على بقية حياة طرحت مرتين على اقدام هذا الرجل . . لا . . لا ابداً . . ابداً

وقد اثر بي والمني كثيراً من هذين التحريرين ، لتحرير الثاني اذ ثبت لي منه ان الضربة التي ضربتها اخيراً كانت موجعة وصائبة لان الموسيو دي روشكيم لم يصرح ابداً بقتل هذا العزم والقساوة عن انفصاله عني انفصالاً لا يصله زمان والذي ظهر لي ان هذه الشعائر اذا لم نقل انها انجحت مقاصدي نحو اما نجاحا عجيباً فعلى الاقل دمرت الموانع الناشئة عن وجودي

وكان فكري باورزيل يدفعني الى نوع من الخوف المبهم . . ولكن كيف يرضى يا ترى الموسيو دي روشكيم الذي يعرفها ان يسمع لها . . وهل يمكن ان يقابل تقدماتها بغير الاحتقار وبينما انا مستغرقة بهذه الافكار واذ وصلني هذا التحرير ولا اعلم هل هو من الموسيو ليكورتو او من احد رسله لاني لا اعرف هذا الخط وليحكم القارىء على مقدار الخوف الذي شعرت به عند تلاوته اما التحرير فهذه صورته

باريس

ان الصديق المجهول الذي امدك بكثير من الافادات الثمينة عن حياة زوجك سيداوم مهتماً بمسرة عظيمة لان الحوادث جارية بما يوافق مسعاه ويهمك كثيراً

اين المراد الآن اخبارك بما يتعلق باورزيل لانك تجدين بلا انقطاع في هذه الاخبار ويهمه الموسيو دي روشكيم والذي يظن ان هذا المشهد يسرك كثيرًا فهاك ما حصل لها بعد احتجابها من منزل ماران ولسنا نخفي عنك الاّ تعيين مكان سكنها المعتزل حيث لا تهمك معرفته فنقتصر على القول انها تسكن احدى الضواحي المنفردة المتطرفة من باريس .

ثم نفيدك ان اورزيل حاصلة منذ اكثر من سنتين على خادمة لغرفتها متعلقة بها تمام التعلق وهي تثق بها ثقة مطلقة واسمها السيدة زيفرين وقد كلفتها قبل حفلة نصف الصيام بايام ان تبحث لها على مسكن صغير وضيع منفرد تستاجره فوجدت الخادمة المذكورة وهي فتاة طافحة بالذكا والاجتهاد والامانة في صدر ممر يوءدي الى طريق مقفرة في ضاحية من باريس لا تطرقها الارجل الا قليلاً منزلاً حقيرًا صالحًا للاختفاء

وبعد حفلة نصف الصيام بيومين اثنين تركت ابنة عمك كل ما تملكه في منزل ماران واتجهت خفية مع خادمتها في عربة الى مكان عزلتها المذكور حيثما بقيت هنالك لا تخرج منه على الاطلاق مدة خمسة عشر يومًا دار في اثنائها الموسيو دي لانكراي باحثًا عليها كل باريس وضواحيها بدون ان يهتدي اليها ولك ضمن هذا التحرير بعض شذرات من افكار اورزيل السرية محررة بيدها على دفتر مقفل ومفتاحه معها على الدوام

ولا ريب انك تعلمين من وصول هذه الشذرات الينا ثم اليك بان زيفرين تجد اثناء تغيب سيدتها الوسائط الموصلة لفتح هذا الدفتر وتنسخ عنه ما تراهُ غريبًا ثم ترسل الافادات المذكورة الى سيدها غير المنظور الذي يسر باطلاعك عليها

وقد تبتدي هذه المنتخبات من جريدة اورزيل اليومية منذ سنتين تقريبًا اما الشذرات الاخيرة منها فكتبت منذ ايام قليلة ولا ريب ان هذه المقتطفات تسبب لك اضطرابًا عذبًا مفيدًا

جريدة اورزيل اليومية

حصلت في هذا المساء على نصيب من الفوز فاني نظرت متيلدة في الملعب الايطالي ووافاني زوجها فاساءت معاملته ولا ريب انها لاحظت ذلك . اني انتشلت منها كونتران للانتقام ثم اهنته امامها للمسرة — وقد اصبح الموسيو دي سينفيل مشهورًا كرجل لا يصد فهو واحد من اولئك الذين تحول اليهم الافكار والمقاصد عندما لا يعرفون وقد وجدت انه من ارباب الزهو المدقق ولا ريب انه يتقلد ربطة رقبته باحتفاء ويلبس كفوفه بتامل وله صورة تفريد

الظرف البديع ولكنهُ لا يحتمل لانهُ يتكلم على الدوام بلهجة واحدة لا تتغير واعظم عيوبه لديَّ كثارة ظرفهِ لان جمال الرجل لا يكون بمثل هذا الظرف وكذلك الموسيو دي لانكراي لم يعجبني على الاطلاق ان هذه الا وجوه صافية وبلا وقار من جبلة وضيعة افرغتها الطبيعة باحتقار في قالب الوجود ولم تجملها بشيء من مظاهر الغرابة والاستقلال اما اللورد س *** فخبر منها في هذا المعنى ولكنهُ بهيئة انكليزية كبقية مواطنيهِ تقريباً ويمثل الكبرياء مع الارتباك والعظمة مع الجمود ثم هذا النوع من الناس يكون في الادبيات كالماديات باحساسات ضعيفة .

***

اين يكي ياترى ان اجد ذلك الرجل الخشن الآمر المتعشق الذي ينحني بيده الضخمة كالغصن . بالله ما اشد احتقاري لكونتران ان ملاطفاته خدامات سفلة واخلاصه تعبد مشين . . فهو يحبني كخادم يخشى الطرد — ماذا انتظر ياترى من هذا الشقي الذي يسرق امرأته نعم يسرقها الان تبذير اموالهُ من اجلي على هذه الصورة سرقة سفلة — اه ثم اه كم ابغض هذه الامراة ولكن وجهها لا يشف عن شيء من المصاب فما اقل عقلي لقد خدمتها بانشال زوجها عنها وارحتها منهُ

***

ان من موجبات الافتخار العظيم ان يدعو المرء الناس بصفاته البديعة الى بعض شعائر الوجد ولكن احتقاره بعدئذ لتلك الشعائر يكون موجباً لزيادة هذا الافتخار .

***

راى الموسيو دي فولانج وهو من العشاق الجدد ان يلومني على ما يسميه خفتي ودلالي فتشكى بمرارة لما اني اقابلهُ منذ شهرين بما يسكره — فهل يوجد والحالة هذه من ضروب الحماقة ما يقارب هذه الشكوى — فهذا رجل يشكى لاني قابلتهُ عدة اسابيع بمزيد الظرف والملاطفة والاكرام — الا يعتبر قبولي لعنايته واهتمامي به من قبيل الاعتراف بكرامة بتلك العناية او لم اعاملهُ باكثر من استحقاقه . ان الرجال الذين يطارحوننا الغرام يكونون عند اظهار غيظهم من سوء نيتنا وتكلمهم عما يدعونهُ ببساطة حقوقهم علينا احمق من اللصوص الذين يظنون بسذاجة انهم سرقوا عندما يتمكنون بعد شق النفس ومعاناة التعب والشدائد من فتح . . .

صندوق يجدونه فارغاً



اني اعتبرت الرجال على الدوام بالعلم والعمل كاعداء الداء لجنسنا نحن النساء فانا نجد البغض متمكناً منهم حتى في وسط تحرقات الوجد الشديد او بالحري حيثما وجد الوجد وجد البغض فان زوج متيلدة يتعشقني بتعبد ولكنه يلعنني ويحمل بري وهو مزبد بالغيظ والخلاصة انه يحبني حيث لا يمكنه ان يتخلص من حبي اما انا فاعذبه بلا شفقة لاني اعرف سر سلطاني عليه وانه سر مغل . وزد على ذلك ان عداوتي لمتيلدة فوق العادة ولكني اشعر بنوع من الارتضاء عندما افكر اني مجردة عن الشفقة من نحو رجل القاها بمثل هذه التعاسة . . .



ان الرجال اذا احتقرنا رغائبهم يبغضوننا واذا سمعنا لم يحتقروننا فهم لا يصفحون ابداً الا لعفتنا ولا لضعفنا وعندما يشتغلون بنا يباشرون الحب بنوع من الافكار الخفية المستنكرة وهي الافتخار الباطل والكذب والغيرة ثم ياتي بعد ذلك التحذر والرياء ولا سيما الخوف من عدم النجاح المقرون بالبغض وليس هذا من قبلهم الا نوعاً من الزوق او الهواء والذي يدفعهم اليه هو الكبرياء باضاعة قلب شريف او الانتصار على مزاحميهم ولربما لا يوجد رجل يهيم بجمال الزي الجديد ولا يفضل التظاهر بالسعادة امام الناس على احراز السعادة الحقيقية بالخفاء فهم يرتضون بتضحية سمعتنا الظاهرة اكثر كثيراً من تضحية مبادينا المجهولة وهنا اسال قائلة كم يوجد من الرجال ياترى التي تخاطر من اجل امراة بما تخاطر به الامراة بارتكاب هفوة واحدة . اني قرات في احد الكتب هذه العبارة وهي لو كان من السهل الاكتشاف على العلائق الاثيمة ومقاصة الرجل المحبوب بجزاء نقدي يرتفع الى ربع ثروته من كان يتجاسر من الرجال على التعرض لاخطار الحب وبناء عليه فقد يقسو قلبي لدى التفكر باننا لا نعامل الرجال الا بالشر الذي يريدونه لنا



ان مشهد هذا الممثل استجلب بغرابة انتباهي فادركت تهيجات وجده وقد اظهر الحزم والحرارة والاضطراب ولعب ذلك الدور بنوع من النشاط والافتخار الخشن وعندما قبض على تلك الامراة من كتفيها والقاها جاثية على ركبتيها بتلك اليد القديرة جللته مظاهر العظمة فارتسمت على جبهته سمات التهديد والغيرة القاسية التي لا تلين وكان لصوته الخشن الاجش

اهتزازات عميقة كزئير الاسد تقريباً وكانت تلك الخبيثة الاميرة كسرنكة جالسة معي في طليعة المشهد فصاحت بمظاهر السخر والاحتقار انهُ يزئر فيالها من سخيفة عقل تريد من الاسد ان يناغي كالطيور

***

وعند الوصول الى مشهد الحب حصل هذا الممثل لبرهة من الزمان على ملامح بديعة ولم يقبل الفتاة بتخيل وتستر بل قبلها كسيد بجسارة وعسف وحشي تقريباً

***

وعند خروجنا من الملعب بالغت كثيرًا بمدح اسطفان (وهو اسم الممثل المذكور) اما السيدة كسرنكة فرمتهُ بما تسطيع من المطاعن واذ ذاك وجه اليَّ الموسيو دي لانكراي هذه الملاحظة وانما بمزيد التحرس والاحترام وقال لا يبعد ان تكوني متطرفة قليلاً بالدفاع عنهُ فشخصت الى الموسيو دي لانكراي بنظري الاسود . . . وللحال فهم غلطهُ . . . ولكن بعد مضي الاوان : . . ثم تبسمت الطف التبسمات وتوكئت بدلال على ذراعهِ وقلت لهُ بصوت منخفض . . . منخفض كثيرًا ساكتب بعد غد صباحاً الى اسطفان اسالهُ ان يعلمني التمثيل لان هذا الفكر وهو تعلم اللعب في الروايات تبادر فجأة الى ذهني وكان من هذه المسارة القاسية ان اغابت الموسيو دي لانكراي عن الوجود فصاح مندهشاً ان هذا الميل الجديد من المستغربات فعاودت التبسم وطلبت اليهِ ان يذهب هو بذاتهِ بعد غد ويستاجر لي غرفة في الملعب لمشاهدة اسطفان يلعب في نفس هذه الرواية ثم قلت اريد ان تشيد حالاً قاعة صغيرة للتمثيل في جنينة ماران

***

لا بد ان تنفذ هذه الاوامر ولا اشك بذلك على الاطلاق لان كونتران بمنتهى الجبن والحماقة ولا يمكن ابدًا ان يشوش افكاري برفض او مستحيل فهو شبيه بجوادي ستيلا مروض بتا لا يحتمل الى حد ان انقياده وطاعتهُ يغيظانني فتراني اضربهُ غيظاً من عدم وجود اسباب تحملني على ضربهِ

***

جاءني مهندس الموسيو دي لانكراي واطلعني على عدة خطوطات لقاعة التمثيل التي طلبتها

فلم اجد كونها فاخرة وثمينة لاني اريد قاعة لا تنقص قدرًا في بعض الظروف عن قاعة قصر فرساليا ولن نشيد حالاً و بسرعة عظيمة وقد امدني الليل بافكار جديدة فطلبت من زوج متيلدة ان يستاجر لي غرفة في ملعب اسطفان لا لمساء الغد فقط بل لستة شهور بحيث يمكني ان ارتبها وانظمها لان الملعب حقير ومرادي ان اذهب اليه احيانًا وساجد غدًا كل شيء مرتبًا وفي محله من اثاث ودهان ومرايا حيث لا يزال لكونتران ست وثلاثون ساعة لمساء الغد وهذا الوقت اكثر من كافٍ لرجل ككونتران

***

هانذا قادمة من السفارة وكانت حفلة الرقص ثمه بديعة وقد شعرت اني كثيرة الجمال في تلك الحفلة ومع هذا فقد اوشكت ان اموت من شدة الضجر . . . يالله ما اكره هذه المدائح التي تساق اليَّ بلا انقطاع وعلى نمط واحد والذي ينفر القلب هو التفكر بسهولة الفوز وانه لا يلزمني الا الارادة لانتشل كل هولاء المتزاحمين عن نسائهم ومعشوقاتهم لا يهيج الاميال الا المبادىء والموانع وقد رضيت بالموانع . . . ولكن من اين لي ان اصادفها في سبيلي وانا متطرفة بالزي الجديد والرجال سهل انقيادهم بالحب اه لو يمكني ان اصادف رجلاً يعصى حبي وحينئذٍ يكون مجدي عظيماً بالانتصار عليه

***

قد اولاني هذا الفكر شيئًا من الضجر وفروغ الصبر وانتبه اليها رجال دولتي . . . ثم تهيجت اعصابي بما يستجلب الانظار فضربت على الات الطرب بما ابسط كثيرًا السيدة دي ماران حقًا ان هذه الامراة مجنونة بي لان بغضنا المشترك ضد متيلدة احكم بيننا عرى الالتحام وزد على ذلك انها تتهلل بوجودي . . . فقد شاخت وصارت تخاف من الوحدة التي لا تلبث ان تنحدر اليها متى تركتها بالنظر الى شرورها ولكن هذا كله لا يهمني وساتركها يومًا . . اذا دعاني حظي الى مكان اخر

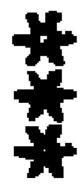
***

ان زوج متيلدة اجرى ما فوق اقتداره لاني وجدت غرفة الملعب مرتبة ومنظمة بما يسبي العقول وفي صدرها حوض طويل مزين بجميع انواع الزهور ولكن ما الفائدة اني ما عدت ادوس تلك القاعة . . وقد اضمحلت جميع اوهامي . . . لان اسطفان الذي استاسر عقلي

في المرة الاولى واثر فيَّ كثيرًا رايتهُ في المرة الثانية بمظهر مستنكر شنيع همج . . فاين كانت ولاً افكاري واعيني ولكني على كل لا اشكو من هذا التاثير الاول المخالف للثاني فهو الذي وجد فيَّ فكر الحصول على ملعب خصوصي ويسرني كثيرًا ان امثل بعض الروايات



مثلت دور سيليمين وكانت القاعة الصغيرة التي شيدناها للعب بمنتهى الظرف فاحسنت التمثيل كثيرًا واتقنت اللفظ وكنت اثناء اللعب بهياة عظيمة . فياللسرور . . . والذي اراه اني سلبت العقول بما اظهرت من القحة المهيجة . . فيا لله ما احمق الرجال وما افسد مدعاتهم لانهم يتصورون عند المسرة بمشاهدة امراة تظهر انواع البسالة المجردة عن الحياء بان تلك الاميال السفهة موافقة لنواياهم مقصودة منا لاجابة تطلبات قلبهم ولا يريدون ان يفهموا بالنظر الى كبريائهم السخيفة هذه الحقيقة وهي ان هذه الامرأة لا تعتد بهم على الاطلاق ولولا ذلك لما استعملت كل هذه القحة بحضورهم وعند نهاية الرواية حضر اليَّ زوج متيلدة بمظاهر الافتخار ظانًا ان اختياري لهذا الدور كان بقصد مني لاظهار حقيقة شعائري الحيية من نحوهِ فقابلتهُ بنشوفة ارجعتهُ بالخزي والعار



اجد احيانًا ان الحياة التي اقضيها فاحشة . . وكلها حقارة وضجر ومع هذا فما من حياة بالنظر الى الناس واليَّ اعظم من حياتي فاني حصلت على مطلوبي وتمتعت بالبذخ المفرط وصار لي سمعة عظيمة بتفننات الزهو واصبحت امرأة من نساء الزي الجديد متسلطة على نخبة الهيئة الاجتماعية في باريس وخيار الناس عند اقدامي اما مزاحماتي فيخشينني ويكرهنني ولكني اسمى منهنَّ بكثير فاداوم معاملتهنَّ كامراة سموحة وانتهي اخيرًا بالقائهن في الياس وذلك باحتقاري الشديد للعاشق الذي يحسدنني عليهِ ويتعبن كثيرًا لتجريده من الحرص على مودتي التي استخرمتها اني كاولئك الفاتحين المختلسين رفعت ذاتي بذاتي واوصلتها الى هذه الدرجة واقمت من اسم خامل مضحك مظهرًا للزهو والامتياز فصارت الناس تتناقل رسوم ثيابي وتستشهد باقوالي وتحسدني لفوزي وتكفي كلمة مني لوضع رجل في المقام الاول من اللطف والزهو ثم كلمة اخرى لضياعهِ واذا وصلت الى حفلة رقص تقبض النساء بخشونة على عشاقهن ولا ارى منهنَّ الا نظرات البغض والغيرة ولا اسمع الا همسًا خشنًا وملامات غضوبة ولكن لا يلبث جميع هولاء العشاق مني وقعت زهرة من باقة زهوري عند اقدامي ان

يكسروا قيودهم و يتخلصوا من معشوقاتهم و يتراكضوا لالتقاطها غير مبالين بما يصيب اولئك السيدات من الخمول . . . كل ذلك بديع . . ولكن ينقصني شيء . . او بالحري ينقصني كل شيء . فاني مجردة من الحب ولم يسبق لي ان احببت احدًا في حياتي فاه ثم اه كم اشتهي ان احب

***

ظننت في احد الايام اني اشعر بهياج خشن عميق يستدل منهُ على عاصفة الوجد كما يستدل من دوي الصاعقة الاول على قدوم الزوبعة ولكن هذا الامل وا أسفي اعترته الخيبة يا الله ما اغرب هذه المشابهة ومع هذا فلو وجد رجل مثل الذي احلم به لفهم كيف اريد ان احب وان اترك كل شيء من اجله ولا ريب اني اعيش وقتئذٍ بالشقاء والذل والدموع ولا يبعد ان يضربني ويخونني ويطردني ولكني اكون قد احببت على الاقل وشعرت اني ترفعت في اعيني عن ذي قبل

***

هل من الهام سري ياترى يقول لي ان الالم يطهر كالنار وهل يمكن ان يكون مرادي بالحب انما هو الرجوع الى مركزي السابق قبل التهور الاثم . . لا لعمري لاني غير حاصلة على تبكيت الضمير ولست اريد ولا يلزمني الحصول على ذلك ولكني شفقت مرة على متبلة وعاملتها بمنتهى ما يمكن صدورهُ عن فطرة كفطرتي من الجودة والمكارم فقاصني الله على ذلك قصاصًا قاسيًا

***

كيف لا ابغض الموسيو دي لانكراي ففي بعض الاحيان اشعر رغمًا عني اني متاثرة بالخجل عندما افكر اني مديونة بهذه الحياة الزاهرة لخيانته المستنكرة ضد امراته فباطلاً كنت اتساهل وقتئذٍ مع ضميري واقول في ذاتي انهُ لا يوجد من المسرات المجردة عن المادة ما يقابل مسرتي الحاضرة واعامل زوج متبلة معاملة الاشقياء عندما يجسر على اهدائي شيئًا خلاف الزهور والموسيقي اه ثم اه انهُ يوجد بين كؤوس الحياة ما يكون طافحًا بالمرارة والحقد

***

في هذه المرة اصيب فؤادي . . نعم فؤادي . واريد ان اثبت هنا هذا التاريخ . . فمن

تاريخ هذا اليوم بدات معي حياة الحب سعيدة كانت او تعيسة ووجدت رجل احلامي اما هو فمر امامي ولم يشاهدني ولست اعلم اسمهُ ولا من هو وعلى فرض انهُ احقر الرجال لا يهمني ذلك واشعر اني ساحبهُ بل اشعر اني احبهُ واخصهُ يا الله ما هذه الهيئة السامية المفتخرة بل ما هذه المشية الرشيقة الجسورة وذلك اللون الاسمر وتلك الشفاه الحمر والاعين الكبيرة ان هذه الاعين اذا تنازلت بالالتفات الى احد لا يلبث الملتفت اليهِ ان يجثو حالاً على ركبتيهِ و يقول مر يا سيدي ها انذا عبدك — من يكون يا ترى هذا الرجل المجهول

*
**

ما هذه القوة الخفية غير المنظورة التي اخضع لها ان هذا الرجل لم يخاطبني بكلمة ولم يلقِ نظره عليَّ ومع هذا اشعر اني خاضعة لهُ مسودة منهُ وتاملات فوادي العميقة تنذرني بان نصيبي قد كمل

*
**

ما من شيء اشد غرابة من مقابلتي لهذا الرجل المجهول فاني تجاوزت التويلري ماشية على الاقدام ولدى وصولي الى احد الحياض نظرت امامي رجلاً يمشي بتمهل وكان من قامتهِ ومشيتهِ ان استجلبتا انتباهي ثم التفت بما يدل انهُ ضل عن الطريق بالنظر الى تشتيت افكاره . . فحينئذٍ . . . حينئذٍ عند هذا المشهد ما امكني الامتناع عن الوقوف . . اما هو فلم ينتبه اليَّ وابتعد فبقيت انظر اليهِ الى ان غاب عن العيان

*
**

من هو هذا الرجل . . . من هو هذا الرجل . . . اني ما نظرتهُ قبل الان بين العالم ولكن لا باس اني عالمة بوجوده فهل اعود الى رويا في حياتي . . . نعم نعم لا بد من رويا ولولا هذا لما قسم لي بمشاهدتهِ ان وجود هذا الرجل يوضح الان ويذكي احتقاري لجميع الناس . . . نعم لجميع الناس . . اليس اولئك الذين ظنوا بان لهم حقوق عليَّ هم الذين اوسعتهم احتقاراً واهانة باكثر من الغير ثم هل سمع عن احد انفصل . لا اقول على شيء من السلطان بل على شيء من النفوذ على قلبي او نفسي او افكاري . . . وهلا يستفاد من قلة الاهتمام عدم الاكتراث والاهانة . . . ان زوج متيلدة قال هذه العبارة وايدها ان الرجل ليس بعبد

*
**

يا للشقاء ان هذا هو عاشق متيلدة . . ان هذا هو المركيز دي روشكيم الرجل الغريب الممتاز الذي تلهج بذكره جميع الناس وقد وصل الى باريس منذ بضعة ايام وكانت تهمني كثيرًا معرفتهُ . . هذا هو . . هذا هو . . فهو يحب متيلدة وهي تحبهُ اه ثم اه الم اكن مصيبة بكلامي عندما كنت اقول اني محقة ببغض هذه الامرأة . . فهذا هو سر بغضي الالد لمتيلدة منذ طفوليتي ان ضميري كان يقول لي بان هذه الامرأة ستحب يومًا الرجل الذي ينقطع اليهِ نصيبي بكليتهِ

*
**

ان متيلدة تحبهُ . . تحبهُ ولكنها لا تستحقهُ . . لانها احبت قبلهُ بتعشق كونتران البليد الشقي . . اما انا فيالله ما اعظم افتخاري لاني بقيت محافظة على قلبي بلا حب الى الان . . ما اعظم افتخاري لاني شعرت بان من اللازم ان لا احب احدًا على الاطلاق قبل التعرف بسيدي وقاهري وهل يحق لي بعد هذا ان اشكي . لا . لا لعمري بل من اللازم ان اشكر الصدف على ركبتيَّ . . على ركبتيَّ الاثنتين لانها قست فؤادي عن التاثر بالحب الى الان

*
**

اني خائفة من ذاتي ومن كل ما يحيطني وقد عرفت الان اني امرأة تعيسة مرذولة فابدًا ابدًا . . لا يتنازل مثل هذا الرجل ويحول انظاره لنحوي . . الان ادركت عمق هاوية العار والذل التي انحدرت اليها ولا يمكني مدى الحياة ان اطهر جسدي وروحي من هذه الاقذار . . باية الاوهام الغريبة عللت نفسي . . هل يمكن ان اصدق باني انا . . انا اورزيل مستحقة له . ما هذا التجديف هل بسعني ان اتجاسر وارفع نظري اليهِ او اخاطبهُ بكلمة واحدة ولا اموت من شدة الاضطراب . . الان علمت ما هو الحياء او بالحري ما هو الخجل

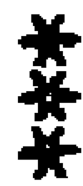
*
**

ما عدت اريد البقاء في منزل السيدة دي ماران ان هذا البذخ يهيج شعائري واحب لديَّ ان اختفي عن جميع الاعين . اني بعت نفسي من اجل التمتع بهذا البذخ كامرأة فاحشة والمسكينات اللواتي يقودهن الاحتياج الى ضياعهن يحسبن ملائكة بالنظر اليَّ . . صرت ابغض نور النهار

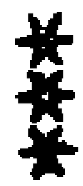
والذي اراه ان الظلمة تقلل من مظاهر سفالتي — اه كم يحبها وكم تحبهُ — ما هذه الكرامة والافتخار والشجاعة وكم من اشعات اشرف والوطنية والاستقامة تشرق من حول اسم هذا الرجل الشريف ان هذا الفكر وحدهُ كاف لادهاشي — ثم متيلدة كم يحبونها ويصادقون على اعمالها ويعجبون بها لانها تحبهُ كثيرًا . . يا الله ما ابدع هذا التقرب بين هذين النفسين الكريمين وما اعظم واطهر حبهما . . ثم هذا الشقي كونتران الذي يسخر بهما هل يعلم . . . . نشكر الله على عدم علمه . . . .



اني مجنونة . . فاني ذهبت مختفية في عربة وقضيت نحو ساعتين امام منزلهِ بامل ان اشاهدهُ عند خروجهِ . . اشاهدهُ . . فقط اشاهدهُ . . لاني ابدًا . . ابدًا لا اعرض نفسي لاحتمال نظره حيث لا يبعد ان اموت وفتتذٍ من الخوف والخجل ولا اجد كلمة اقولها . . اني منذ شهرين تقريبًا تركت جميع المعاشرات وصرت لا انزل عند السيدة دي ماران الا قليلاً فانتظرت طويلاً على بابهِ الى ان خرج ماشيًا فتبعتهُ بالعربة وانا مختفية ضمنها فذهب الى عند متيلدة وبقي هنالك الى الساعة السادسة فاه ما اسعدها لم يعد لي قوة على مداومة حسدها وبغضها ولا اعلم ما الذي افعلهُ — وتراني مجبورة رغماً عني على الاعتراف بهذه الحقيقة انهما يستحقان بعضهما وكلٌ منهما جدير بالاخر



ابكي . . ابكي ايتها التعيسة . . . اذرفي دموع الغيظ والدماء . . . اذهبي . . . موتي من الياس واخفي حبك الجنوني عن العيان ليبقى مجهولاً من الناس ان الموت يوفر عليك كثيرًا من الاهانة والسخر ومع هذا فلو اني نظرت هذا الرجل من قبل لتغيرت حياتي وكانت جميلة وشريفة بقدر ما هي الان اثيمة ومشوشة لكن هذا الحال من الحياة الاثيمة لا تدوم طويلاً . . نعم سيبقى لا يعرفني الى الابد ولا يعرف اني احبهُ ولكن النيران التي اشعلها بي ستطهر حياتي — وقد قطعت بعزمي اليوم لمفارقة منزل ماران . . لم يعد لي شي على الاطلاق ولا البث ان اصير فقيرة فاشتغل او اموت ولكني اكون وقتئذٍ حرة وجديرة بان افكر بهِ . ان التفكر بهِ يستلزم فروضًا عظيمة



لقد تنبهت فيَّ جميع قواي وغدا افارق هذا المنزل ولكني في هذا الليل ساكلمهُ . . . نعم

ساحصل على هذه الشجاعة واكلمة لاني فكرت بحفلة الرقص المعتاد اجراؤها في الاو بره في نصف الصيام وسوف احرر لهُ بطلب الاجتماع بهِ هنالك وساكتب هذا التحرير بما يحملهُ على الظن انهُ مرسل اليهِ من بعض المصابين بنوائب الدهر ولا ريب انهُ لا يمتنع عن الحضور فهل اقوى على مقابلتهِ لا اعلم — ان ضعفي وشكوكي يعاودانني عند هذا الفكر . فاه ما اجبني اني خائفة ومرتعشة — باي اضطراب يا الهي ساراجع يومًا قراة هذه الاسطر التي اكتبها الان اني بلا ريب ساجد على هذه الورقة الجامدة وفي هذه الاقوال السريعة تذكراتي حية امامي . اني سعيدة لاني قادرة على الاقل ان احافظ على اثر منظور لم اشعر بهِ الان . . . وفي هذه الساعة

***

كلمتهُ يا الهي كلمتهُ وقد شعر بدقات قلبي واسندت ذراعي على ذراعهِ وشفتاي قبلتا بخوف يدهُ . . يدهُ الشريفة التي غرقتها بدموعي وقد تنازل الى مجاوبتي بكرامة . . فابدًا ابدًا لم تقابل تعطفات الملوك بامتنان احر من هذا الامتنان الذي قابلت بهِ تعطفاتهِ . . . ولم تسمع الكلمات الملوكية بمثل هذه الشراهة والارتعاش وقد حصلت على الشجاعة بالتحجب اذ لو كان وجهي مكشوفًا لما وجدت كلمة افوها ثم اصابتني الحمى وتوردت خدودي اما هو فكان مسرورًا باستماعي لاني كنت اخاطبهُ بمدح متبلدة وقد حرقت شفتاي بهذا المديح ولكن لساني انطلق بفصاحة وبالغ بالثناء عليها وقد نظرتهُ يتبسم بمظاهر البغض والاحتقار عندما لفظت اسمي ثم ذممت بغيظ من دناءة تصرفي لارضائهِ ولم اجد عبارة مرة بما يكفي للشكوى من نفسي — اه ثم اه اني شعرت وقتئذٍ بتمرمرات الياس . . . فابدًا . . ابدًا لم اقدر بمثل هذا التالم المسافة الشاسعة التي اقامها الماضي بين هذا الرجل العظيم وبيني

***

وعندما نظرني على هذا الحال اعظم بما يعزهُ واطعن بما يبغضهُ ظهرت عليهِ مظاهر السعادة والسرور . . وفي تلك الساعة ظننت اني احب متبلدة . . . اما هو فيالله . . ما هذا العقل والظرف والهمة العلية والافكار المفتخرة المجمل بها ان امثال هذا الرجل يستعملون للفضائل النادرة الصعبة الجسارة الخطرة والهمة العزومه الذي يستعملها الغير للرزائل السهلة الهمجية حقًا انهُ رفعني الى اطهر واقدس منزلة من منازل الارتقاء وقلدني لا اعلم اية صفة من صفات شرف النفس كملك يكرم اتباعهُ بالقاب الشرف

***

فارقت ماران وما عدت اشاهد ابداً الموسيو دي لانكراي وهكذا تخلصت اخيراً من وباء الذل والعار وكنت وشيكة الاختناق بهما ولا يمكن ان استبدل الان منزلي هذا الصغير الحقير بجميع قصور العالم

***

ما عدت اشاهد الموسيو دي روشكيم ولا اسمع صوتهُ على الاطلاق وسيبقى جاهلاً الى الابد انهُ تكلم بلطف ومكارم مع الامرأة التي يبغضها ويحتقرها اكثر من جميع البشر ومع هذا فسابقى دائماً امينة ومخلصة لهُ بوجد وتحرق كما لو سمح لي بحبهِ — نعم اني عالمة جيداً بطهارة حبها ولربما اعرف ذلك باكثر من متيلدة واكون اجدر منها ايضاً بمعرفة الضحايا التي يفرضها مثل هذا الحب لان تمسك متيلدة بالفضيلة والعفة ليس الا نتيجة مبادئها واذا كبت يوماً فلا يكون ذلك منها الا اخلالاً بواجباتها اما انا فلست اكبو من الان وصاعداً على الاطلاق لان هذا الرجل كشف لي عن كل شيء ومخني كل شيء من مبادىء وشرف وعفة وطهارة ويلزم للوقوع في الخطية ان انساه هو وليس الفضيلة

***

اني مرتهبة لما يفعلهُ بي هذا الوجد من الدمار . . . فقد طاش راسي وتواردت على فكري جميع المقاصد المشومة — اه لو يعرف حبي لما امكنهُ الا ان يشفق عليَّ — ولا ريب انهُ يحبني حينئذٍ ويفضلني على متيلدة ثم ما الذي احرزهُ من النفوذ يا ترى على هذه الامرأة . . لا شيء . . . لانها كانت قبل معرفتهِ صالحة نقية وبقيت صالحة نقية اما انا فكنت ضالة خاسرة ومن حينما شاهدتهُ وخاطبني ببعض الالفاظ اللطيفة واحببتهُ صرت صالحة نقية كمتيلدة ثم من يعلم ايضاً ان متيلدة بقيت نقية الى الان اه ثم اه كم يكون افتخاره عظيماً بنفوذه عليَّ اذا صدق الظن وكانت متيلدة اثيمة لانهُ يكون حينئذٍ قد جعل من متيلدة العفيفة الفاضلة امرأة اثيمة ومني انا اورزيل الاثيمة امرأة فاضلة . . اليس ذلك بديعاً وجديراً بتلك النفس العظيمة وهل يبقى هذا الرجل المحب لكل ما هو كريم وعظيم بلا تاثر لهذا النوع من الانقلاب الغريب الذي اجراه

***

كل هذا صحيح بان هذا الرجل غيرني من حال الى حال واوجد فيَّ تبكيت الضمير ولم

اشعر بهِ من قبل الان بدات اتصوَّر قباحة تصرفي ومسلكي لنحو زوجي ويكاد قلبي ينسحق لدى التفكر بهذا الرجل الكريم المخلص الذي احبني بنوع من العبادة وتركتهُ من اجل رجل احتقره

***

لو كنت في غير هذا الوقت لما ترددت ولا دقيقة من الزمان للاعتماد على هذا العزم الذي قررتهُ اما الان فقد مضى عليَّ يومان وانا اعارك . . واقاتل بتالم الى ان تغلبت اخيراً من اجل حبي على بقية افكاري ان هذا الحب هو حياتي ولم يعد من قبيل حب ذات والقساوة بل من لوازم الحياة الضرورية . . لدى واسطة اكيدة مضمونة العقبى لفصل الموسيو دي روشكيم عن متيلدة فاني ساحرر الى كونتران بدون ان اعلمهُ بمكان وجودي واعده بمشاهدتي اذا تمكن من ارجاع متيلده للمعيشة بجانبهِ ولا يخفاني اني اخاطر بذلك ولربما ادفع حبها بهذه المعاملة الى منتهى درجات التطرف واجبرها على الفرار للتخلص من الموسيو دي لانكراي ولكني لا اريد ان اكون تعيسة باكثر من تعاستي الحاضرة ولا يمكن بهذا العمل ان اخسر شيئاً بل لا يبعد ان اكسب كل شي

ان كونتران لا يقاوم هذا الطلب لان نفوذي عليهِ مطلق ولكن ما الذي افعلهُ متى عادت متيلدة الى سلطان الموسيو دي لانكراي هل اجسر ان اقابل نظر هذا الرجل الذي مجرد التفكر بهِ كافٍ لالقائي في لجة الاضطراب والرهبة والخضوع والسكر الا يحب متيلدة بتعشق فماذا يكون منهُ ياترى اذا فكر اني انا التي تسببت بارجاعها الى الموسيو دي لانكراي وباي بغض واحتقار يقابلني . . . لا . . لا . . ابداً . . لا يمكن ان يبغضني بما يتجاوز شعائر بغضهِ الحاضرة ضدي اه واسفي ان هذه الا هاوية . . هاويه عميقة . . ولكن لا باس ساخاطر باملي الوحيد الاخير

***

ما هذه العجيبة هل انا في حلم او في يقظة اني منذ اربعة ايام تقريباً كتبت الى الموسيو دي لانكراي للسعي بارجاع متيلدة وها قد وصلني الان حوالة بنفس العنوان الذي عينتهُ لهُ زيفرين وهو لا يحوي فقط التاكيد برجوع متيلدة اليهِ واعتمادها على السكن معهُ بل في ضمنهِ ايضاً كتاب من متيلدة تصرح فيهِ برضائها عن طيبة خاطر بهذا العزم الذي ظننت في اول الامر انهُ يكلفها اكثر من حياتها . . لا ريب ان هذا الحلم . . وقد ارسلت زيفرين الى

بعض معارفها من اتباع الموسيو دي روشكيم لاستطلاع الاخبار

***

ها زيفربن قد رجعت اما انا فرنعشة وخائفة حيث يوجد من انواع السعادة ماينقض على المرء بسرعة انقضاض الصاعقة فيصعب تصديقة ويخيف ان الموسيو دي روشكيم صار له اربعة ايام وهو مستغرق بالاحزان الشديدة ومنقطع عن زيارة متيلدة . . . والشائع بين الناس ان هذه الامرأة عادت الى الجنون بحب زوجها فهل من الممكن ان يصدق هذا الخبر ياالهي لا . لست اصدق اه لو صح ذلك . . لامكني ان اومل بكل شيء

الفصل التاسع والستون

مقابلة

وبعد مطالعة هذه التذكرات التي وقفت منها على الخفي من افكار اورزيل بقيت لمدة مضعضعة . . لا اقوى على اتمام هذا التحرير المرسل اليَّ من الموسيو ليكورتو والذي انتبهت اليه افكاري من هذه التذكرات انما هو اخلاص وشدة حب ابنة عمي للموسيو دي روشكيم فهل هذه العاشقة ياترى هي نفس الامرأة التي كتبت في الاوجه الاولى من جريدتها اليومية كثيرًا من تلك التصريحات السفلة

وكان من عادتي المبالغة بكل ما يحملني على الخوف فاثر فيَّ كثير من ملاحظات اورزيل تاثيرًا مؤلمًا وظهر لي قولها لجهة نفوذ الموسيو دي روشكيم عليها بما طهر قلبها وعوائدها صحيحًا وقلت لربما يهتم بالتغيير الحسن الذي طرأ عليها بسببه ومع غرابة هذه المشابهة المستنكرة التي اجرتها اورزيل بقولها اني احببت الموسيو دي لانكراي اما هي فلم تحبه ولم تحب احدًا على الاطلاق قبل مشاهدة الموسيو دي روشكيم رايت شيئًا من الحقيقة في هذا التعليل بناء على مذهب ابنة عمي لانها بقيت الى ذلك الحين بلا مبدأ وما من وجود لبعض الهفوات بالنظر اليها اذ قلما كانت تكترث بواجباتها

ثم تزايد قلقي لدى التفكر بشعائر التحذر والارتياب التي اوجدها تصرفي بالموسيو دي

روشكيم وقلت الا يختشى على الموسيو دي روشكيم يا ترى بعد هذا الخذلان وهو غارق بين الف فكر من الافكار المكدرة المرة ان تغره اورزيل وتقتنصهُ لاشراكها . وهلا يرى بالاقتراب منها والارتباط معها نوعًا من الانتقام مني يجعلهُ تعيسًا بل نوعًا من السخر الجارح ضد النصيب الذي يلعب بقساوة باعراماله

. . . .

ثم اردت ان اقف على نصيبي بكليتهِ فعدت الى اتمام تلاوة تحرير الموسيو ليكورتو وهذا نص الباقي منهُ

الى هنا انتهت الشذرات الماخوذة عن جريدة اورزيل اليومية التي راى صاحبك المجهول أن من المناسب اطلاعك عليها وكل ما زادتهُ عليها اورزيل بعد رجوعك الاختياري الى روجك ينحصر بتاملات وافكار حارة تتعلق بحبها

والذي نعرفهُ من مقاصدها انها مهتمة الان بالبحث على الوسائط الممكنة للحصول على مقابلة الموسيو دي روشكيم وحيث انها تحب بتعشق كما لا يخفاك من مطالعة كتابتها وحاصلة على مظاهر قهارة وحب حقيقي والموسيو دي روشكيم حانق ضدك وبالتابع ضد جميع النساء المحصنات الشرعيات فلم يعد ابنة عمك العزيزة ان ساعتها قد حانت وان مبادرتها لتعزية الموسيو دي روشكيم ستكون بوقتها ولهذا صاحت يمكني ان اومل بكل شي

اما الرجال فغريبو الاطوار ولا ريب ان الموسيو دي روشكيم سيوخذ بحبال ابنة عمك . . . ارايت كيف ان الاحوال دخلت في دور هزلي وان جميع تلك الصحايا العبوسة التي تحملتها بتصريحات الدكتور جيرارد ستجلو عن ارضاء السيدة اورزيل

والان بواسطة هذا الايضاح المتعلق بحب اما اريد ذلك الحب الذي خفي عليك وعلى السيدة دي ريتميل والموسيو دي روشكيم لان الاشياء تبقى غالبًا مجهولة ممن يهمهُ معرفتها اجد من المناسب ابداء هذه الملاحظة وهي ان هذا الحب لم يخفَ على بعض اصدقائك بل تكلم عنهُ كامر هو غاية في الابهام وافترض ان لا بد لهذا الايضاح بالنظر الى مرض اما سواء كان كذبًا او صدقًا ان يقلق حبك ويلقي النفور بينك وبين اما ولربما بينك وبين السيدة دي ريتميل ايضًا . . وقد تم قسم مهم من هذا الافتراض

ولنبادر الان الى الخلاصة (سانكلم من الان رصاعدًا باسمي لانك بلا ريب صرت تعرفينني من اهتمامي بك) فهيا لننظر سوية الى مركزك

اني قادر على كل شيء ضدك . . اما انت فلا تقدرين على شي ضدي . . ومن اي منفذ حاولت الفرار تجدينني واقفًا امامك

واذا فقدت الرشد بهذه الاخبار واعترفت للموسيو دي روشكيم باسباب تضحيتك خوفًا من اورزيل فستكون نتيجة ذلك كما ياتي اولاً ان اما نموت وهذا واضح كالشمس في رابعة النهار . ثانيًا انك لا تستطيعين النجاة من زوجك للرجوع الى حبيبك لان تحريرك للموسيو دي لانكراي يمنعك من الامل بالانفصال عنه الى الابد . ثم لا يمكنك الفرار خفية لانك محاطة باناس يسهرون على ملاحظتك ويخبرون زوجك بما تحاولين اجراءهُ في الحال وقد اوجدوا له منذ هنيهة اسبابًا معتبرة لدوام المحافظة عليك .

فما قولك بهذا الشرك المعقد الذي سقطت بهِ . . . هاك مشابهة اذكرها لك ولا بد ان تعترفي بصوابيتها

يتراى لي انك في حال قراءة هذه الاسطر اشبه بذبابة صغيرة علقت بخيوط العنكبوت فكل ما صرفت قواها للتخلص من تلك الاشراك حرصًا على الحياة كل ما استغرقتها الاشراك وتاكدت منيتها وهي ترى لتتمة البلاء في وسط هذه الخيوط الجهنمية ان العنكبوتة المستنكرة على يقين من منيتها وهي واقفة بلا حركة تنظر باعين دامية الى فريستها الجديدة وتتلذذ بعذابها قبل افتراسها وعند تلاوة هذه العبارة ارسلت صوت الخوف لان هذه المشابهة كانت تامة ومصيبة الى حد ان شعرت انهُ ضيق عليَّ من جميع الجهات ولا اعلم باية قوة غير منظورة لان الخطر الظاهر ولو مهما كان هائلاً لا يخيفني بقدر هذه الدسائس السرية الخفية التي كانت تتهددني وتقتلني وقد علمت من التجارب اهمية اخطارها

ثم عدت الى اتمام القراءة وانا خائفة في كل دقيقة من خسارة عقلي لان الرعب بلغ مني مبلغًا عظيماً فاذا التتمة كما ياتي

اعلمي ياعزيزتي متيلدة اني بلا ريب ساكون من اعظم الكتاب اذا كنت قد شعرت عند تلاوة هذه الاسطر التي مرت معنا بشيء من تلك المخاوف التي كانت تصيبني اثناء طفوليتي عند تلاوة قصص آن اوكليف ولا اظن باستحالة ذلك ولا سيا لانك تقرئينها وحدك على الاغلب في ذلك المنزل المشوم المظلم في طريق بوركوني الذي زرتهُ قبل مجيئك اليوم . . . وحتى تتاكدي صحة كلامي انظري جيدًا الى اللولب شمالي الموقدة هل نظرته . . .

فانقطعت عن القراءة ونظرت بلا وعي الى اللولب فلم اشاهد شيئًا مخيفًا ولكني ارتعشت عند التذكر بالمنزل المنفرد

ثم عدت الى القراءة بقلب خافق فاذا مكتوب ما ياتي

اقتربي الان وشدي بقوة على سطح الحائط الخشبي الملتصق بالموقدة فترين ما يدهشك

وعند ذلك ناديت بلوندو بلا وعي فصاحت اه يا الهي اه ياسيدتي ما الذي اصابك

وكنت لا اقوى نقرباً على مجاوبتها فاريتها الحائط بنظر فازع

فصاحت اخبرني ياسيدتي ما بالك فقد افزعتني

وكنت قد تشجعت قليلاً بحضورها فاتكأْت على اخشاب الحائط وللحال فتحت ثم حركت بلولب فتاخرت بتان وظهر من خلفها مخباة كبيرة تسع رجلاً متصلة بداخون الموقدة توصلاً للهواء

فصاحت بلوندو مصفرة اه يا الهي اه يا الهي ما المعنى بهذا ياسيدتي

قلت اسكتي . . . اسكتي . . . اقفلي هذا المخباة ولا تقولي كلمة بهذا المعنى لاحد فاقفلتها

اما انا فعدت الى اتمام التحرير غير عالمة هل انا في يقظة او في منام وهذا نص التتمة

قد نظرت مخباتي ولا ريب انك خفت كثيرًا . . فاحكي اذن على كل ما انا حاصل عليه من حولك حتى كشفت لك بسهولة عن هذه المخباة

لا . لا . لا تخفي صدقيني اني غير حاصل على شيء غيرها وارقدي براحة . . . حقًا ان كلامي الاول مزاح ولم اخاطبك به الا لتحلي احلامًا مفزعة نميتك من شدة الخوف

سوف تتصورين ان منزلك هذا الذي يخصني كلة خبايا كالاوبرة او كتاليفات دوكري دومينيل . . . والا بدع انك اذا حاولت ان تطلبي من زوجك ان يغير هذا المسكن فلا يصادف طلبك قبولاً ويضحك منك

سوف تحصلين على ليالٍ بديعة وهكذا تستريحين من احزانك المستمرة واضحك ان نقيي للحراسة عليك بلوندو الامينة . . ولكن المنومات . . . هل تذكرين المنومات انك بلا ريب ما عدت تتجاسرين على مس شيء مما يحضرونة لك من بائع الطبخ وهو لربما يكون من رجالي ايضًا (الا فاخبريني بمناسبة ذلك ما هذا الانحطاط الذي الم بامراة مثلك كان لها احسن منزل في باريس

اعترفي باهمية المال واقتداره حقًا لوجاء سنتابل بالذات لما امكن ان يعذبك باكثر من هذا العذاب فسوف تحيط بك المخاوف المستمرة ويقلق نومك باحلام مخيفة اما في النهار فتتعذبين باضطراب احوالك وخلاصة القول انك لا تحصلين لا ليلاً ولا نهارًا على دقيقة من الراحة والمستقبل امامك مستتر بالغيوم الكثيفة العاصفة السوداء بحيث لا يمكنك ان تستدلي منها الا على مستقبل مشوم

ان كل هذا والحق يقال لا يشف عن مظاهر حسنة وقد انتفعت بمهارة من جميع الحظوظ الموافقة لان البغض وحب الانتقام يضاعفان الهمة والحق بذلك عليك . . تذكري

تلك الليلة التي اهنت بها امامك وضربت بالكفوف بل تلك الليلة التي طلبت بها الرحمة جاثياً على ركبتي بايد مضمومة فبلا ريب انك توقعت مني الانتقام وهانذا مباشر بهِ اما الان فقد حنكتني الايام ولا تمكن ان اسعى سعياً او اعمل عملاً ولا اضمن نجاحهُ قبل المباشرة بهِ وزد على هذا اني مسعد . . . انظري الى مورتاني اني كنت على نحو خمسمائة فرسخ منهُ عندما تشاجر مع اثنين من القتلة ريحاني منهُ ولست اعرفها على الاطلاق . . حقاً ان امثال هذه النوادر لا تحصل الا لي ثم لا تتاخري عن اجراء كل ما تستطيعينهُ ضدي ولو الزمك الحال الى استخدام هذا التحرير واخبرك من الان انك لا تستطيعين شيئاً . . هل تقدرين عليَّ اكثر من الشكوى الى الحكومة . . فاولاً لست موجوداً في باريس ثم كل هذهِ المسائل ليست الا ترهات حب لا تتداخل بمثلها الحكومة والاعجب ان هذهِ المسائل حبالى بالدموع والياس ولربما بالقتل والانتحار

اني ارجو لك في هذا الليل السكون نوماً هنياً كطفل راقد على احضان امهِ

(صاحب مجهول اوعدو معروف)

(حسب اختيارك)

وكان من قراءة هذا التحرير ان اصابني دوار مولم فصارت افكاري تضطرب في راسي ولا تصادف مخرجاً لان الموسيو ليكورنو كان قد اجاب في تحريرهِ بحكمة جهنمية على جميع اعتراضاتي ونبه جميع مخاوفي

ولدى التفكر بامكانية حصول اورزيل على الفوز تجاه الموسيو دي روشكيم لم يعد لياسي حد ينتهي اليهِ فصحت اذا كان ولا بد من هلاك اما فالاولى ان امتنع عن تضحية ذاتي بلا فائدة على الاقل

وعند ذلك كدت ابادر للتصريح بكل شيء الى الموسيو دي روشكيم وصممت ان اكتب اليهِ واذا بذلك الصوت الالهي الذي يسند مقاصدي المترعزعة على الدوام يقول لي

تشجعي . . تشجعي لا تدعي الاوهام تتغلب عليك حولي اعينك عن الهاوية التي فتحها امامك احد الاشرار ليشوش ظنونك ويزعزع مقاصدك الشريفة لا تنظري الى اقدامك ارفعي اعينك الى السماء ضعي املك بالله فلا يخيب مسعاك ثم اذا كان الرجل الذي ظننتهِ اهلاً لك يمكن ان تكتسبهُ اورزيل باشراكها فهل من المحتمل ان تاسفي على خسارة قلبهِ وهل يمكن ان تحسدي هذهِ الامرة واذا كان لا بد من هلاك اما لدى مشاهدة من تحب مسلوب الفواد بحب امرأة اخرى فدعيها تموت على غير يدك وابقي لها على الاقل لتعزيتها فاذا لم تنجحي ومانت لا تنسي امها وافكري انها كانت لك بمقام الوالدة

اما من جهة تهديدات ذلك الوحش السرية فلا تخشيها بل اطردي عنك هذه المخاوف الباطلة وكوني شجيعة قوية تصوري بثبات ما يستطيعه ضدك فتحتقرين انتقامه تشجعي وتقدمي خطوة ايضاً اذ لربما يكون الجزاء على كل هذه الضحايا غير بعيد منك

وهكذا عدت كالعادة الى عزمي السابق بعد وجل وقتي واعتمدت ان انتظر الحوادث واسند امامي في املها واتحرى جميع الوسائط الممكنة للنجاة من فخاخ ومفاجئات الموسيو ليكورتو المخطرة فنامت بلوندو في غرفتي ثم تفقدت الحائط الخشبي وتطامنت نوعاً لدى التفكر بان لو اراد هذا الرجل استخدام تلك المخباة الجهنمية لما نبهني اليها وقلت لا ريب انه يريد زيادة مخاوفي واستمرارها

وكنت لا اشاهد الموسيو دي لانكراي الا قليلاً ويظهر لي من هيأته العابسة وفروغ صبره وغضبه ان اورزيل لم تنجز الوعد الذي وعدته به ولكنها كانت تستعمل المهارة حتى لا تطوح به الى تمام الياس وتجبره على دوام المحافظة عليَّ بجانبه

ولم اطلع الموسيو دي لانكراي على تحرير الموسيو ليكورتو ولكني اريته المخباة التي اهتديت اليها فرفع اكتافه واجابني بهيئة سخرية اخافتني

بلا ريب ان احد الاعيان قد اوجد هذه المخباة السرية ليواري ضمنها الطعام عن اعين خدمه . . . .

. . . .

وبعد خمسة عشر يوماً من حصولي على تحرير ليكورتو وصلني منه التذكرة الاتية

ما اردت ان احرر لك شيئاً قبل ان اتاكد حقيقته غداً تحصل المقابلة بين الموسيو دي روشكيم واورزيل ولا يكون ذلك عندها بل في الشوارع الخارجية حيث من الانسب الابتداء على هذه الصورة

اما هذه المقابلة فمعينة للساعة التاسعة على ان يتصادف الاثنان في الشارع العام شمالي باب المدينة المعروف بفونتين بلو

فتبلبل بلبالي بهذا الخبر وكدت لا اصدق بحصوله وفي صباح اليوم الثاني ركبت عربة وذهبت الى المكان المعين فنظرت هنالك اورزيل تنتظر وبعد دقائق قليلة حضر الموسيو دي روشكيم وقدم لها ذراعه ثم توارى الاثنان في طريق متحايدة تودي الى هذا الشارع

لم يعد لي قوة ولا ارادة لاتبعهما فرجعت الى منزلي بياس لا يوصف

الفصل السبعون

مسارة

وكان قد مضي نحو ستة اسابيع على مواجهة اورزيل للموسيو دي روشكيم التي مرت معنا عندما ذهبت للاجتماع بهِ في جنينة مونسو حيثما نظرته مرارًا وكان قد ارسل يطلب الي بتوسل ان اوافيهِ في ذلك الصباح الى المكان المذكور لانهُ حاصل على امور كثيرة الاهمية يريد ان يقولها لي

وقد تضمن حديثنا خلاصة الحوادث المهمة التي حصلت في ذلك الاثناء

ولدى اطلاع القارئ على تلك الحوادث وما نخفف عنهُ محادثتنا يعلم يقينًا اني اضربت عن الوسطاء للوصول سريعًا الى تلك الاوجه التي عزتني على كثير من عذابي بحيث لا يمكني في هذه الساعة ايضًا ان اكتب بدون ان اشعر بحاسة من السعادة السوداوية

وكان الموسيو دي روشكيم قد تقدمني بعدة دقائق الى مكان الاجتماع فقال لي الشكر بل الف شكر لك على مجيئك حيث لا يمكني ان استشير احدًا غيرك في هذا العالم عما يصيبني

قلت ولاورزيل

فابدى حركة من فروغ الصبر والاحتقار وقال دائمًا . . دائمًا مستمرة على ملاحقتي بما يضحك وقد قيل لي انها قضت الليل الماضي بتمامهِ في عربة على باب منزلي

قلت وهلا يوثر بك هذا الحب

فرفع اكتافهُ

فقلت آه ثم آه اني ما زلت ارتعش لدى التفكر باني نظرتك منذ ستة اسابيع تقريبًا قادمًا لمقابلة اورزيل وقد قبضت على ذراعها وتواريت وإياها عن العيان

قال الا تعرفين دهاء هذه الامرأة فهي تعلم ان اسمك طلسم يمكنها الحصول بهِ دائمًا على اهتمامي ففي المرة الاولى كتبت اليَّ بهذا التوقيع مجهولة الاوبره وقالت لي ان لديها اشياء كثيرة الاهمية بخصوصك تريد اطلاعي عليها فهرولت ركضًا الى تلك المقابلة . . الا فاحكمي اذن على مقدار ما اصابني وقشعر من الدهشة والاشمئزاز عندما عرفت هذه الامرأة التي سببت لك كل هذه الاحزان وما امكني التروي باخفاء تكرهي منها فاصفرّت لذلك ثم عاودت امتلاك روعها

وسالتني العفو لانها ازعجتني بلا ثمرة وقالت انة لا يمكنها ان تصرح لي هذه المرة بالافادات المتعلقة بك وانما اذا عدت غداً اجدها مستعدة لارضاء رغائبي . . ولا اعلم هل فعلت ذلك عن قصد او لا ولكن لحظت من اقوالها انها تنسب رجوعك الى الموسيودي لانكرابي لاسباب خفية . . وحينئذٍ داخلني يامتيلدة رغماً عني بعض اشعات الامل فرضيت بالرجوع غدا لمقابلة ابنة عمك للاكتشاف على ذلك السر

قلت اني اعرف تدبيرهُ ياصديقي فقد خابت الخطوة الاولى . . . ونجحت بالتغلب على اشمئزازك منها . . . وهي متكلة الان على شطارتها وفكرها

قال ان تدبيرها لا يخلو من الحذاقة . . لانك لم تطلعي بعد على كل شيء

قلت وكيف ذلك

قال تكرمي بالاصغاء اني حصلت بعد ذلك على مواجهتها مرتين ولكن هذه المواجهات ايضًا ذهبت عبثًا و بلا جدوى كالمواجهة الاولى فانها كانت توجل من وقت الى اخر اطلاعي على تلك الافادات التي تدعي انها تهمني وتهمك ولكنها صرفت عنايتها في تلك الاثناء لاقناعي بهذه الحقيقة القاسية وهي انك اشد عشقًا لزوجك من السابق والذي جعلني ان اصدق تاكيداتها بهذا الخصوص انما هو معرفتها التامة لزوجك ولك وهكذا دمرت اوروزيل الى الابد البقية القليلة الباقية من شكوكي في هذا الموضوع . . . ولا اعلم كيف ان هذه الضربة الاخيرة المتوقع حصولها جرحتني بمثل هذه القساوة وهيجت غضبي ضدك . . . لكن ابنة عمك والحق يقال لم تكلمني عنك الا بمزيد الاحترام

قلت لانها تعلم يقينًا انك لا تسمح لها بمخالفة هذه اللهجة من نحوي

فنظر اليَّ بهيأة غريبة وقال بعد دقيقة من السكوت لربما كنت تعيسًا الى حد ان اتساهل بذلك . . لان جميع جروح قلبي فتحت وقتئذ

قلت كيف هل من الممكن ياصديقي ان تسمح لاوروزيل بذمي . . لست اصدق ذلك

قال مضى كل شيء الان يامتيلدة وصار يمكني ان اعترف لك بضعفي وجنني

قلت بربك وضح

قال اني في المواجهة الاخيرة عندما اقنعتني بتضاعف حبك لزوجك شعرت ان قلبي تهيج بنوع من البغض ضدك ولدى اجراء المشابهة بينك انت العفيفة التقية واوروزيل الفاسقة قلت في ذاتي لو احببت هذه الامرأة لربما لم تعذبني بالرغم عن فسقها بمثل هذه الاكدار التي عذبتني بها متيلدة

فصحت اه ياصديقي ما هذا التجديف

قال من واجباتي ان احكي لك الحقيقة برمتها وهذا قصاصي . . . اني كنت وقتئذٍ مصاباً بعوارض الغيظ الشديد من اعراضك عني فقلت في ذاتي ان اعمال الشر التي اساءت بها اورزيل لمتيلدة قد زالت لان هذه الامراة رجعت الى حب زوجها بتعشق اشد من السابق . . ومن المعلوم ان صفحها للموسيو دي لانكراي يفيد صفحها لاورزيل فلماذا ياترى ابقى من نحو هذه الامرأة اشد خشونة وقساوة من متيلدة

قلت كيف . . انت ياصديقي . . هل يمكن ان تتصور مثل هذه الافكار الشاذة

قال ان الياس لا يعد المصاب به الا بشورات السوء يامتيلدة فما الذي اقوله اني عندما صرت في هذه الطريق المشومة خاطبت هذه الامرأة عدوتك ببعض كلمات لطيفة بنوع من الارتضاء المستنكر وسرني وقتئذٍ ان اذكر ذاتي بحدة افكارها وذكاءها

قلت بتمرمر والذي اظنهُ ياصديقي انك رأيت اورزيل وقتئذٍ حاصلة على جميع الصفات الممتازة التي فكرت بها

اجاب اني لحسن الحظ وجدتها بليدة

قلت اورزيل

اجاب نعم

قلت من المستحيل ان يكون ذلك لانها جذابة وبمنتهى الذكاء والرقة والدهاء

قال أكرر لك القول يامتيلدة اني وجدتها بليدة وظهر لي انها لم تعد حاصلة على شيء من ذلك العقل الذي استجلب انتباهي في حفلة الاوبرة فكانت تتمتم جملاً بلا فائدة ولم يعد لحديثها شيءٌ من الرونق والبهاء من حينما انقطع الكلام عنك فانها ارادت التطوح بمباحثات عظيمة فوق العادة بخصوص الحب العشقي ومحاسن الثبات والفضيلة فصدر ذلك الكلام من فمها بما يوجب السخرية والغيظ وخلاصة القول ان هذا الحديث كان يحمل السامع على اظهار الاشمئزاز والشفقة اذ ما من شيء لامرأة في مركزها ابلد من هذا الاستعراض المضحك لهذه القواعد الشريفة . . . وقد اغاظني ذلك على حين كان من الممكن بالنظر الى استعدادات افكاري المشومة ان اسلب بفكر غريب وفخ ساحر كفكر اورزيل . .

اني كنت وقتئذٍ في حالة شديدة من انخلاع القلب اعني في تلك الساعة التي يشك فيها المرء بكل ما هو كريم وعظيم ويشعر بابهامهِ في حاجة لان يدوس بارجلهِ ما استوجب احترامهُ فلماذا ياترى لا اصرح لك بكل ذلك الان وقد زال الخطر

فارتعشت من هذه التذكرات وقلت وبعد ذلك

قال اعترف يامتيلدة بمزيد الخجل انهُ كان من الممكن وقتئذٍ ان يكون لاقوال اورزيل

الجسورة السفلة فنوف قاهر مشوم عليّ . . . ومن يقدر ان يعرف توابع هذا التاثير الابتدائي ولكن كان يقتضي لحصول ذلك ان اصادف نوعًا من شيطان الظرف والذكاء واللطف والوقاحة اي امرأة جذابة جسورة وليس بتًا من بنات المدارس الحمقات تكرر على نمط واحد بما يملي السامع اقوال الفضيلة المضجرة وهي باعين حمراء و بشرة صفراء ووجه باهت ذابل

فصحت رغماً عني الم يوثر بك هذا الانقلاب التام في اسالب ومزايا اورزبل

اجاب ابداً على الاطلاق ياعزيزتي متيلدة لان هذا الانقلاب اما ان يكون حقيقيًا واما ان يكون تصنعًا فاذا كان الاول فلا يبعد ان يستدل من ذلك على حبها ولكن قلما يفتخر بالحصول على حب امرأة كالسيدة اورزبل سيشربن حتى ولو كان ذلك الحب حقيقيًا واذا كان الثاني وثبت ان هذا الاضطراب والارتباك تصنع يكون عملها رياء سملاً . . لالا . . اني اعيد لك القول بان حظ ابنة عمك باستمالتي اليها كان متوقفًا على ظهورها بجسارة امامي مستجمعة لجميع الصفات المشهورة عنها وان تثبت باعمالها واقوالها انها يسوع الفسق أوقلة الحياء اذ لربما كنت اردت وقتئذٍ وانا في حال الغضب من اوجاع الخيبة وقد قادني الفضول والكدر الى البحث على مباينات مشومة ان اطالع في هذا القلب الفاسق كما تطالع الناس احيانًا كتابًا رديئًا في اوقات البطالة اما الان فقد مضت هذه الفرصة ونفر لديّ كل شيء بالنظر الى هذه المخلوقة الدنية فخجلت من تلك الساعة التي ضلت بها افكاري وعدت لذاتي وشعرت ان قد تجدد فيّ للدوام البغض الذي تستحقة ولا سيا بالنظر الى شرورها الوحشية نحوك

قلت ان هذا بلا ريب باسيدي الا عبرة وقصاص هائل لان هذه الامرأة كان من الممكن تنودك للاخطار لو نفيت حريصة على مبادئها المستنكرة ولكن اراد الله ان تخجل للمرة الاولى من حياتها الماضية وان تتكلم بلهجة شريفة ولربما تكون هذه اللهجة صادقة ولكنها تجردت في فمها عن صفات الفضيلة . . . فيالها من امراة تعيسة اه ثم اه كم تكون اوجاعها عظيمة اذا ادركت صرامة هذه الامثولة المخيفة

قال الموسيو دي روشكيم بلهجة اللوم العلك تشفقين عليها؟

قلت لا لعمري ليس هذا من قبيل الشفقة . ولكنني توجعت كثيرًا ولا يمكني ان افكر بالمتوجعين بدون ان اضطرب

قال اني لا اشفق بسهولة مثلك يامتيلدة ان هذه الامرأة اذا صح كونها متوجعة تتوجع بحق لانها مستحقة لقصاصها نعم اني لا افعل شيئًا لزيادة الامها واوجاعها ولكني لا افعل شيئًا ايضًا وحياتي لتخفيض هذه الاوجاع . . وقد كتبت اليّ بعد ذلك مرتين تسالني مواجهة جديدة

فرفضت سؤالها ومن ذلك الحين اقتصرت على المجيء من وقت الى اخر الى شارع منزلي لتربص هنالك لمشاهدتي ولا يمكني ان امنعها من ذلك . . . ولكن ما لنا ولهذا الان ان تذكار هذه السفالات يحزنني والافكار المكدرة تتبادر الى التعساء كما يتبادر الذهب الى الاغنياء . ثم اصحب هذه الكلمات بتنهد عميق

قلت هلا تزال اذن تعيساً ياصديقي

اجاب هل تسالينني عن ذلك الا تعلمين اذن ما هي حياتي واوجاعي عندما اشابه . . . ولكن ما لنا ولهذا الان فلننس . . فلننس الماضي . . لانه مات . . مات مع متيلدة السابقة . . وكل ما تعمقت بافكاري كل ما ظهرت لي عدالة هذه المشابهة المشومة . . فلا ريب اني كثير التعاسة . . وما من شيء يربطني بالحياة الان . . لان ايامي تمر على نمط واحد من الياس العميق ثم راجع ذاته متبسماً وقال ما الفائدة من التكلم بهذا الان . . فلنتكلم عن الموضوع الذي جئت من اجله الى هذه المواجهة

و بعد اذ انتهى من هذه الكلمات سكت برهة ثم قال ان ما اريد اخبارك به يامتيلدة خطير بل كثير الخطارة وقد ترددت كثيرًا وما زلت اتردد للان باطلاعك عليه . . ولكن لك لك . . لك وحدك يسعني افشاء هذا السر الذي اخاف عليه كثيرًا لانه لا يختص بي وحدي

ولدى استماع هذه الكلمات خفت ان تخونني الظواهر لاني كنت بانتظار هذه المسارة منذ بضعة ايام فرأيت لتحويل افكاره عن كل ظن بالحقيقة ان اقاطعه وقلت لدي انا ايضاً امر خطير يهمني كثيرًا لانه يتعلق باحسن صديقاتنا واريد ان اخاطبك في شانه

فابدى اشارات الدهشة وقال كيف اذن . . اوضحي عن افكارك يامتيلدة

فتظاهرت بما امكن من قلة الاهتمام وقلت اخبرني الموسيو دي لانكراي ان احد الابناء غير الشرعيين لاحد ملوك الشمال قدم اخيرًا الى باريس وهو كثير الثروة والجمال ويقال انه مجمل باحسن المزايا والطف الاخلاق ولا ريب انه سيتعرف بالدوقة دي ريشفيل فاذا اعجب بالصدفة اما وكان اهلاً لان يحصل على هذا الكنز الثمين فلا باس حينئذٍ من استغنام هذه الفرصة لتزويج هذه البنية العزيزة . . الا ترى مناسبة ذلك

واعترف الان اني تموهت بهذا الكذب بطمانينة ادهشتني وللحال ظهر على الموسيو دي روشكيم ان هذه الكلمات استجلبت افكاره فاجابني بنوع من الارتباك

هل تظنين ان اما لم يستملها الحب لاحد من الناس الى الان

قلت اني في مدة سكني معها ومع امها لم الاحظ شيئاً من ذلك . . الا فاخبرني انت هل لاحظت شيئاً في ذلك الحين

قال لا . . في ذلك الحين لم الاحظ شيئًا على الاطلاق

وكانت تشف هذه الكلمات عن اليقين التام فسرني ذلك ثم عاود الموسيو دي روشكيم التكلم وقال الم ترِ يامتيلدة منذ زمن شيئًا غريبًا في مسلك اما

قلت لا . لا . . على الاطلاق ياصديقي ثم لا يخفاك لسوء الحظ اني لا اشاهد الان السيدة دي ريشفيل الا قليلاً ثم سالته بمظاهر التعجب هل لاح لك يا ترى من اعمال اما انها مشغلة الفواد بشيء من الحب

فظهر لي وقتئذٍ ان الموسيو دي روشكيم يجاهد بعنف للتغلب على ذاته ثم قال لي اني مجنون لاني ما زلت مشككًا . . لا . . لا . . ابدًا . . لا اريد ان اسبب لصديقتنا الكريمة شيئًا من الاحزان

قلت ما فهمت مرادك

قال هاك ما حصل لي يامتيلدة . . اني من حينما فقدتك داومت الذهاب في كل يوم تقريبًا الى منزل الدوقة دي ريشفيل . وصرت اذهب احيانًا مرتين في اليوم لاني اجد مسرة عظمى بالتكلم عنك اثناء مصابي وكانت الدوقة تتكرم بفتح ابوابها لي في جميع الاوقات واما التي لا تفارق امها الا نادرًا تسمع محادثتنا . . فهذه البنية المسكينة كانت متاسفة على فراقك بما يعادل تاسفنا . . . . وكنت احكي عنك كل شيء امامها ولا اخفي شيئًا على الاطلاق لانها اعتادت من قديم الزمان ان تسمعني اتكلم بخصوصك فنظرت مرارًا عديدة ان نظرها شاخص الى نظري بملامح غريبة فاستغربت ذلك في اول الامر ولكني نسيته في وقت قريب . . وفي احد الايام دخلت الى منزل الدوقة بدون ان اخبرها بقدومي واذا اما وحدها في قاعة امها فارسلت صوتًا ضعيفًا وصبغ وجهها بلون الارجوان فسالتها متبسماً هل اخفتك يا اما اجابت لا . . لا . . ابدًا انظر الى خفقان قلبي الا ترى ان هذا ليس بخوف ثم قبضت على يدي بسذاجة مسكرة ووضعتها على قلبها وكان يخفق بعنف

قلت اني اعرفها بهذه الصفات فان جميع اعمالها الابتدائية تكون مقرونة على الدوام بسذاجة تعبد . . ولكن ما الذي تجده غريبًا في ذلك

وكان الموسيو دي روشكيم قد ظن انه اطلعني بهذا الحديث على دخيلة الامر فنظر اليَّ بمزيد الدهشة وقال اني لا اجد في ذلك شيئًا غريبًا ان تكن تلك الحركة وذلك الاحمرار الفجائي . . . .

قلت لا يخفاك ياصديقي انها صغيرة . . ولا ريب انها خافت . . . .

اجاب لا ريب انها خافت . . ولكن هذا الحادث نبهني الى زيادة الاصغاء فكنت الاحظ

مثلاً انها تحمر فجأة بحال دخولي على امها وانها تتاملني على الدوام تقريبًا بعناية تامة وبقيت لا اعلق اهمية كبرى على هذه العوارض لملاحظتي انها تصدر منها عندما اكون وحدي ولكن عندما جرت لي العادة بالحضور مساء لزيارة امها وجدت بمزيد العجب انها تخصني بمعاملات ممتازة اربكتني . . . ثم هاك الان الاسباب التي دفعتني الى مسارتك بهذه القضية اني بينما كنت خارجًا اول امس من عند الدوقة دي ريشفيل وجدت اما على باب قاعة الانتظار فقالت لي بهيئة سرية وقد دفعت الي دفترًا صغيرًا في هذا اليوم تذكار ولادتي وقد صنعت لك هذا الرسم بمناسبة ذلك فلا تخبر به الدوقة دي ريشفيل لانهُ سري

وكان في ذلك الدفتر صورتي ملونة ومرسومة بيدها ومع انها اصطنعتها بقوة التذكر فقط كانت تشبهني مشابهة غريبة . . وانت تعرفين ياعزيزتي متيلدة اني لا اغر كثيرًا بمثل هذه المظاهر وان تكن بمعانٍ على ما يظهر لانها صبيانية ولكني ملتزم بالنظر الى الدوقة دي ريشفيل والى ذاتي والى اما التي اعرف صفاتها الكريمة باكثر من جميع الناس ان اضع حدًا لهذا الجنون ومن اجل هذا اريد المذاكرة معك

قلت اظن ان ما اظهرتهُ اما من هذا القبيل ما هو الا طيش صبياني والذي اراهُ ياصديقي ان تترك باريس وتسافر لمدة من الزمان قبل ان يتحول هذا الطيش الى حاسة احر وامكن . . ولربما لا يوافقك هذا الراي ويكون معاكسًا لمقاصدك ولكنك محب للدوقة دي ريشفيل ولا يمكن ان تتردد بما يفيدها . . ولا ريب ان غيابك يسكن هواجس اما اما انا فساستملك فرصة غيابك لمخاطبة الدوقة دي ريشفيل عن هذا الشاب الغريب واذا ظهر انهُ حسن كما يقال وتقدم الى اما كرجل جدير بالاقتران منها فلا اظنها الا تقبلهُ وحينئذٍ ينصرف حبها اليهِ فما رايك بهذه المشورة

قال انها طافحة بالتعقل ومع ان اتباعها يكلفني كثيرًا ساتبعها

قلت وما الذي تاسف عليهِ هنا

قال كل شيء ولا شيء . . . لان اقل الاشياء في الوقت الحاضر يكدرني وفضلاً عن هذا فاني اجد نوعًا من السوداء المفرحة بسكنى الاماكن التي احببتك فيها لاني اتكلم عنك لاصحابي باحزان مقرونة باللذة ويسوءني ان امتنع لمدة من الزمان عن هذه التعزية الاخيرة

قلت فهمت ياصديقي ولكن قل هل من سبيل تسلكهُ خلاف هذا السبيل الا فافكر بشعائر اما ومقدار استعدادها للتاثر بالاحساسات الحارة افكر بما يتاتى لها من النتائج المشومة عن هذا الميل اذا تجسم . . . وبما يصير اليهِ وقتئذٍ حظ هذه المسكينة . . . على حين ان غيابك ولربما الامل بزواج قريب يكفيان لشفائها من هذا الطيش العرضي وزد على هذا اني ساخاطبها

بهذا الخصوص وهي شق بي كثيرًا ولكني اعيد لك القول بلزوم السفر ياصديقي فيجب ان تسافر ولومهما كانت هذه الضحية مكدرة

اجاب الحق معك اذ لربما تتوقف راحة اما وسعادة مستقبلها على سفري . . ثم سال هل من الممكن ان اتردد بذلك عندما افكر بكل ما انا مديون بهِ لاجها و بمقدار اهتمامي بهذه البنية نفسها . . هل يوجد بين المخلوقات ما هو اطهر واحق بالسعادة من هذه المخلوقة فاي شيء ياترى لا تستحقهُ

قلت تكلمت صدقًا ياصديقي لانها كنز حقيقي وقد يمكن ان تجد عند رجوعك ان جميع رغائبك من نحوها قد كملت حيث اذا وجد هذا الزواج مستوفيًا لجميع الشروط الموافقة فلا يبعد حصولهُ في مدة شهرين او ثلاثة وحينئذٍ نعود الينا وتهتم اصدقاؤك بان تخفف عنك قليلاً اثقال هذه الحياة التي تجدها مكدرة وثقيلة

قال الا تجدين كونها ثقيلة ومكدرة حقيقة . . . فما الذي بقي لي ياترى وما هي خيوط امالي واي شيء هو مستقبلي الان .اه يامتيلدة ان الاقارب والاصدقاء ولومهما كانوا اعزاء لا يقومون ابدًا مقام حاسة كان يتالف منها مجمل حياتي واعلمي ان ذلك الفوز الذي كنت افتخر بهِ سابقًا اصبح الان كلا شيء بالنظر اليَّ لانك كنت الغاية القصوى لجميع مطامعي وكبريائي ثم حاول التبسم وقال اني في هذا الصدد كاولئك النساء المسكينات اللواتي كن يتحسنَّ و يتجملن من اجل معشوقهنَّ ثم فقدن ذلك المعشوق وقلن ما حاجتنا بعد الى الجمال والزينة

قلت متبسمة يقلن ذلك الى ان تتاثر قلوبهن بحب جديد وحينئذٍ يرغبهنَّ التجمل والتحسن كالسابق فهز راسهُ وقال ان كل حب حقيقي قضي عليهِ بالنظر اليَّ وانت اعلم الناس بهذه الحقيقة فهل يمكن والحالة هذه ان يكون لبقية حياتي اثر السعادة . . . وانا في الثلاثين من العمر ولربما يكون لي حياة طويلة اقضيها في هذا التيهان المظلم الخشن .ان هذه المسائل .ماذا افعل وما هو مصيري . ثقيلة عليَّ وسارضى باي مستقبل قسم لي بشرط ان اتخلص من متاعب التفكر بالغد . . . . اني احسد احيانًا الرهبان على حياة الاديرة المقيدة وتلك الطاعة المطلقة العمياء التي تجرد المرء من ارادة لا يعلم ما الذي يفعلهُ بها

. قلت هل يمكن ان تتكلم بمثل ذلك وانت شاب حر

قال ان هذه الحرية هي التي تخيفني فباطلاً ابحث في المستقبل للتخلص من هذا الجمود الذي استغرقني وستكون مناعي بهذا الخصوص تهيجات بلا فائده

فاوشكت نحوًا من عشرين مرة ان اقول لهُ تزوج اما فهي تحبك وحينئذٍ يكون لحياتك غاية وحد ولكني خشيت ان ابطل بزيادة الاستعجال نجاح العمل الذي كلفني كثيرًا من

الدموع والاعتناء فقلت له تشجع .. تشجع فلربما يكفي هذا السفر لانقاذك من هذا الدوار العرضي اتكل عليَّ فسوف اكتب لك نتيجة ملاحظاتي بخصوص اما والامل ان اخبرك قريباً بان غيابك عنها اوجد فيها التاثرات الحسنة التي نرجوها . . . .

. . . .

وفي مساء اليوم الذي دارت فيهِ هذه المحادثة بيني وبين الموسيو دي روشكيم كتبت اليَّ اما هذا التحرير الذي يتضمن تقريباً خلاصة مراسلاتنا من حينما غيرت مسكني وفارقت الدوقة دي ريشفيل

من اما الى السيدة دي لانكري

اني تبعت مشوراتك يا ملاكي المنقذ الحارس .. واريد ان اخبرك الان بما حصل منذ تحريري الاخير

قلت لي انهُ لا يعود لديَّ قريباً من الاسباب ما يحملهُ على اخفاء حبهِ عني وقد صدقتك ووجدت على الدوام اني افعل حسناً بتصديقك لانك كشفت لي عن اشياء كثيرة

اني اجريت بحسب رايك ولم اعد اخفي شيئاً من تاثيراتي وكان يسرني كثيرًا ان انظر اليهِ .. فنظرت اليهِ .. وعندما صادفت اعيني اعينهُ لم اخفضها ولا ريب انهُ طالع فيها جميع الافراح المتسببة لي عن وجوده

لا اعلم اذا كنت تصادقين على عملي هذا ولربما ترينهُ غريباً ... اني اعطيتهُ الصورة التي نقلتها لهُ عن تذكراتي وانت تعلمين اني لا اتوقع مسرتهُ بحصولهِ على صورتهِ ولم ادفعها اليهِ من اجل هذه الغاية ولكنني فكرت ان لربما يجد بهذه التقدمة ان رسمهُ لا يبرح عن افكاري وفضلاً عن ذلك فاني من حينما اكملت هذه الصورة ترى لي انها لم تعد تخصني وليس لي حق بدوام المحافظة عليها عندي وان من واجباتي ان اردها اليهِ ... وكنت مفتخرة بهذا الرسم .. لمزيد المشابهة الكائنة بينهُ وبين صاحبهِ فاني اشتغلت فيهِ كثيرًا بعدما نظرتهُ .. وما من عجب بهذا لاني لدى الجلوس على طاولة التصوير كان لا يلزمني لرؤياه عندما اريد ذلك الا ان اغمض اعيني فيظهر لي ظهورًا حقيقياً

ان الموسيو دي روشكيم لا يزال اليف الاحزان عند التكلم عنك ... فهو لا يختلف بذلك عني وعن الدوقة دي ريشفيل .. ونحن جميعاً لا نستطيع ان نتعزى على فراقك لانك عودتنا على المسرة بمشاهدتك في كل يوم

ثم قد لاحظت جيداً انه يحبني ولم يعد يعاملني كبنية صغيرة لاني اول امس عندما قدمت له الدفتر نظر اليَّ باضطراب انحدرت له دموعي الى اعيني

هذا وعندما افكر اني منذ ستة اسابيع تقريباً كنت في حال النزع واملك انت التي اعلمتني بالمرض الذي يميتني وانت التي رددت اليَّ حياتي اراني جاثية على ركبتي لاباركك واصلي لك كقديسة . . . . لانك بكلمة واحدة خلصتني وهذه الكلمة هي اسمهُ

اني اوجه لذاتي على الدوام هذا السوال وهو كيف استحققت ياترى ان يحبني وان يختارني انا من بين جميع النساء اللواتي يسعهُ اختيارهن . . الا ترين ان هذا من غرائب السعادة غير المامولة لاماك

اريد ان اعرف اذا كنت احببتهُ قبل ان يحبني . . نعم نعم انا احببتهُ اولاً وتكلمي بخلاف ذلك يكون نكراناً للجميل من قبلي

بربك لا توبخيني ولا تقولي عني اني مضجرة واخبريني هل تظنين انهُ يلازم السكوت لزمان طويل ايضاً ومتى يقول لي انهُ يحبني . . لقد قلت في تحريرك الاخير انهُ سيفعل ذلك قريباً ولكن لربما لا تكون الازمنة متساوية بالنظر الينا نحن الاثنين

لا . . لا . . لا تخف ياملاكي الصالح الحارس ساكون صبورة ولا اطلب بعد الان الاطلاع على الاسرار لان التظاهر بفروغ الصبر من حب الذات ولا سيما الان وقد صار يمكني ان اريه مقدار حبي له

استودعك الله . . استودعك الله . . لقد رايت كيف اني سارية بدقه طبقاً لمشوراتك تعالي لمشاهدتنا انك تعرفين كم تعزك الدوقة دي ريشفيل وهو . . واماك

الفصل الحادي والسبعون

الوعد بالزواج

وكان الموسيو دي ريشفيل قد كتب تذكرة الى الدوقة دي ريشفيل يخبرها باعتماده على السفر وانهُ مدفوع الى ذلك ببعض الاشغال المهمة

وفي غد سفره كتبت الى اما بلزوم الصبر على عدم مشاهدة الموسيو دي روشكيم لزمان

طويل وانهُ لربما تكون الاسباب العائلية التي اخرتهُ عن طلب الاقتران منها الى ذلك الحين قد تفاقمت . . ثم قلت لهذه البنية المسكينة ان الموسيو دي روشكيم بمزيد الياس لفراقها وانهُ لم يقوَ على المجيء لوداعها

وكان من هذه الضربة غير المنتظرة التي قطعت فجأة امالها او بالحري اجلتها الى ما لا يعلم اجلهُ ان اثرت فيها تاثيرًا شديدًا ولكني كنت مستعدة للمخاطرة باشياء كثيرة من اجل ضمانة سعادتها وعند هذا الخبر عاودها قسم من عوارض مرضها السابق فسقطت في الاحزان المظلمة الثقيلة واثرت فيها تلك الاحوال وكانت تعرف وتتقي اسبابها تاثيرًا بطيئًا عميقًا فالتزمت ان اطلع الدكتور جيرارد على دخيلة الامر لعدم المخاطرة بصحة اما فصادق على مقصدي وبقي محافظًا على ذلك السر لا يبيح بهِ للدوقة دي ريشفيل ولا لاحد على الاطلاق

وكنت اكتب غالبًا الى الموسيو دي روشكيم حتى لا يفوتهُ شيء من الحوادث وما اخفيت عنهُ ان صحة اما في تاخر بما يوجب القلق ثم اخبرني الطبيب ان من الخطر اطالة عذاب هذه البنية فتوسلت الى الموسيو دي روشكيم ان يرجع الى باريس لان صحتها تتوقف على حضوره

فاجابني بهذه الالفاظ ساكون في باريس ليلة غد . . ان ما اخبرتني بهِ مخيف . . . ولا يمكني لسوء الحظ ان اصلح ما اسأت بهِ عن غير ارادتي . . ان اما ملاك جلتهُ المكارم والجمال والطهارة والظرف . . وهي تستحق قلبًا يكون لها وحدها فلو لم اصادفك في حياتي . . وكان من الممكن ان احب . . لكان حبها كنزًا لا يثمن بالنظر اليَّ . . ولكن ما العمل الان هل يحسن يا ترى ان اقترن منها شفقة عليها . . كل املي ان لا تتصوري اهمية الاخطار التي تتهدد هذه البنية التعيسة . . وعلى كل فاني قادم . . . ثم امها خير صديقاتنا كيف هي . . اه واسفي لا اعلم ما هي الاقدار المشومة التي تتبعني

وبعد وصول الموسيو دي روشكم ببعض ساعات ذهب الدكتور جيرارد اليهِ (بناء على مشورتي) وكان يحترم كثيرًا علمهُ ومزاياه واعلمهُ بحالة اما الحقيقية المقلقة ولا قناعهِ بخطارة الازمة المرضية صرح لهُ بنفس الحقائق التي اطلعني عليها اثناء مرضها للمرة الاولى فجاءني الموسيو دي روشكيم بهيأة منقبضة وقال لي اني قادم من مواجهة الطبيب وقد علمت منهُ ان حياة هذه البنية المسكينة في خطر . قلت نعم واسفي فاني رجوت هذا الطبيب الذي اعرف صدقهُ واخلاصهُ ان يذهب اليك ويعلمك بالواقع عالمًا مني ان كلماتهِ تكون افصح واشد تاثيرًا من جميع الاقوال

قال ان ما اعلمني بهِ ادمى فوادي ولكني لا اقدر لسوء الحظ على خلاف الحزن واعيد لك

القول يامتيلدة اني لا اعرف بين الناس من هو اشد ظرفًا وبهاء من اما وانت تعرفينني وتعرفين جيدًا ان سر ولادتها لا يكون مانعًا في وجهي وأكرر المدح والاقرار بمحاسن صفاتها ولكنني لا احبها ولا يمكنني ان احبها

قلت بلا ريب ياصديقي ان هذا مشوم ولكنا لحسن الحظ لم نفقد بعد كل امل . . . فاني لم اخاطبك الى الان بما ينصرف اليه هذا الزواج عندما يصبح الواسطة الوحيدة لخلاص اما ولا يبعد ان يحصل ذلك غدًا . ان هذا الزواج يكون وقتئذٍ فرضًا واجبًا بالنظر اليك

قال فرضًا واجبًا

قلت نعم بالنظر الى رجل مثلك بنفس كريمة عظامية

فاجابني بثبات اخافني ليس هذا بفرض واجب لا عليَّ ولا على غيري نعم اني متاسف كثيرًا لما هو حاصل ولكني لا استطيع شيئًا

قلت ماذا لا تستطيع شيئًا بينما كلمة واحدة . . . . .

قال ولكن يجب للتلفظ بهذه الكلمة ان احب

قلت ولكن هي . . هي تحبك . . . وتموت من اجلك . . . الا يؤثر بك شيئًا هذا الفكر

فسال وما الذي فعلته ياترى لتنبيه هذا الحب وانتشاره وما هو ذنبي اذا كانت تصورات هذه البنية المسكينة تهيجت بلا سبب

قلت ولكن ما هو ذنب هذه المسكينة التي قسم لها الحظ ان تشاهدك في كل يوم وتسمع مدحك من افواه الناس بلا انقطاع اذا انتشر الحب تدريجًا في فوادها . . أليس من القساوة ان تتظاهر بعدم الاهتمام من نحوها انك بلا ريب لا تشعر بمثل ذلك . . ابدًا . . ابدًا . . لان حب اما مما يوجب افتخارك

اجاب نعم افتخر به . . افتخر به لو كنت استحقه

قلت ولماذا لا تستحقه

قال لان فوادي مجرد عن حبها ولا يمكنني ان احبها

قلت لا باس انك لا تحبها في هذه الساعة ولكن من يعلم المستقبل . . . الا فافكر آذن بما قلته لي قبل سفرك لدى التكلم عن مقدار الكدر والاشمئزاز المصاب بهما واعلم ان هذه الحالة المحزنه لا بد ان تزيد ايضًا . . لانك ما عدت تحبني او بالحري ما عدت احسب شيئًا بالنظر الى حياتك اما من جهتي فلا اخفي عنك ان كل يوم من هذه الايام التي تمر عليَّ مع الموسيو دي لانكراي تزيدني ارتباطًا به لانه ساع باصلاح هفواته الماضية بما في المستطاع وهكذا اصبحت تمنياتنا السابقة كاضغاث احلام ولم يبق لك مني بحسب قولك الا ذلك التذكار

السوداوي الذي يداخل المرء للاموات . . نعم سابقى محافظة لك على مزيد الصداقة والاعتبار ولكن حياتنا نحن الاثنين صارت الان لغايات متنوعة وفي كل يوم يتسع بيننا خرق الانفصال . . . فما الذي تنتظره من المستقبل يا ترى

اجاب الاحزان . . وانت تعلمين ذلك

قلت وهل هذا هو المستقبل الذي تتردد بتقييده وتصحيته مع علمك ان هذه التضحية تتوقف عليها حياة اما

اجاب خير لها ان تموت من ان ترتبط بنفس متلاشية

قلت ولكن ما ادراك ان حرارة هذا القلب الغني الكريم لا تعيد الحياة الى نفسك التي تظن انها تلاشت الى الابد

قال ان هذا مستحيل يامتيلدة والذي اشعر به اني ما عدت احب

فصحت بتمرمر اذن اما لا بد من موتها وهذا نصيبها في هذه الحياة يا الهي ان هذه البنية حاصلة على جميع الصفات المتناهية بالحسن والمادر فهي في السادسة عشرة من العمر بجمال اتم تحب شديداً . وستموت بذلك الحب . . ولا ريب ان من يسمع ذلك يقول عن سبب موتها بعدم اهتمام الشاف عن الاحتقار انه يحبها لا مال الطمع الخشن وبعض الشهوات العظيمة او على الاقل لحياة تصرف بالاعمال الخطرة للنجاة من الخمول ولكن الامر بالخلاف والصحيح انه سيضحي هذه البنية المحبوبة ابنة افضل صديقاته للضجر وجمود الجبن والحزن

اجاب انت صارمة يامتيلدة

قلت او كان الموسيو دي مورتاني حياً لما امكن ان يخاطبك بخلاف هذه اللهجة ومع هذا فاني ارفع هذا السؤال الى عدالتك قل ماذا كان يصح الموسيو دي مورتاني في هذه القضية لو كان موجوداً

فما اجاب الموسيو دي روشكيم بشيء ولكنه اخفض راسه بمزيد الحزن وظهر كانه مفكر بكلامي اما انا فداومت الحديث وقلت ان اراءه كانت مقدسة بالنظر اليك ولا يمكن ان تخالفه او تتردد باجراء ارادته . . . فاه ياصديقي تذكر اقوالك عندما كشف لك قلبك عن المستقبل وقلت لا بد ان ينشأ عن حبنا يوماً بعض الاخلاص البديع فلا ريب انك شعرت وقتئذٍ بما هو حاصل الان فكن ياصديقي طيباً كريماً ولا تتظاهر بقلب مجرد عن الشفقة

فسال هل تشور بن علي انت ان اتزوج اما باحكام الشفقة . . لا ريب ان هذه البنية ترفض الزواج بي على هذه الصورة

قلت متعجبة است تسالني مثل هذا السوال ثم على فرض انك سالت للشفقة فقط بالاقتران من اما هل يمكن ان تنبه افكار هذه البنية الى شيء من ذلك . . الا . . لا ابدًا . . لاني اعرف قلبك ولعلم جيدًا انك تفضل غشها بكذب موثر على جرحها بقول الحقيقة . . لانها هي ايضًا محبة الافتخار . . ولا ريب انها تفضل الموت بما لا يقاس على رضاها بالاقتران منها شفقة عليها

اجاب ان هذا حنون . . الا نعلم كم كنت احبك وكم اتاسف عليك اولم تسمعني اتكلم عنك على الدوام بمنتهى الفاظ الحب والحنو

قلت انت اعلم الناس بطهارة افكارها فانها رأت في حبنا نوعًا من الارتباط الاخوي . . ومن جهة ثانية الم اكن متزوجة . . وهلا تكفي هذه الكلمة لتفهم بمفردها و بينك حاجزًا لا يتلاشى

فسال وهل تنظرين الى اقتراني من اما بمسرة

قالت سامسر كثيرًا بهذا الزواج لانه يعد لاما حياتها ويقدم لك كثيرًا من حظوظ السعادة و يفرح احسن صديقاتنا . . سامسر بهذا الزواج لانه سينقذك من هذا الجمود الذي لا تقوى على مقاومته بحيث لا تلبث ان تحصل على الحياة بنفوذ هذا الحب الطاهر . . وستجد كثيرًا من الظرف والحلاوة بمعيشة الزواج . . فيصير لحياتك غاية . . ولربما تربطك بها ايضًا روابط جديدة . . وسوف تتولد فيك مطامع كريمة شريفة املاً باحياء الاسم الشهير الذي تخلف اليك عنه ابوك ثم زدت على ذلك وإنا لا اتمالك دموعي اه ياصديقي انك كثير التعاسة وقد قضت عليك الايام بالتخلي عن اعز امالك . . ولكن ما الذي يجب عمله ياترى اذا حكم علينا بالامتناع عما يوجب سعادتنا على هذه الارض اليس المبادرة للتعزية بجعل الاخرين في مركز السعادة الذي تمنيناه لانفسنا . . انظر الى هذه البنية المسكينة الطافحة بالحب كيف حلمت بنوع من السعادة الجنونية الى حد انها تموت . . تموت لانها تجاسرت فقط على تصور هذا الحلم الخيالي ثم افكر ايضًا كيف انك بكلمة واحدة قادر ان تعيدها الى الحياة وتحقق ذلك الحلم . . الا نقل ياصديقي من يقدر ما عدا الله على مثل هذه المكارم القديرة البديعة . . . اليس من اللذات الالهية ان يسبب المرء مثل هذه الافراح اولا يبلغ المرء بذلك منتهى درجات السعادة التي يمكن بلوغها في هذا الوجود . . من هذا الوحش الاحمق الذي تجاسر على القول بان الانتقام مسرة الالهة

اجاب الموسيو دي روشكيم متاثرًا دعيني ياسيدة دعيني ان هذه المطالب خطرة ولا يمكن ان يسلم بها الا بخسارة العقل

قلت بخسارة العقل . . . هلا نتفق ياترى الهامات العقل ولو مهما كان كئيبًا اذا سمعت

لها مع راحة قلبك . . انك متاثر ياصديقي على ما ارى . . فكن كريمًا اذن ولا تسمح ان يخالف حبنا المشوم نبكيت ضميرك الابدي على تسببك بموت اما وتاسفي المستنكر لاني لاشيت محاسن صفاتك بالاحزان التي سببتها لك . . لا لا يحقك لا تفعل شيئًا من هذا بل بالعكس دع ودادنا يجعلنا خيرًا مما كنا . . . وكما سامحت اما لمن اساء اليَّ وتسبب باوجاعي الكثيرة . . يلزم ان تنسي انت ايضًا هذه البنية التعيسة جميع الاوجاع التي تحملتها من اجلك . . .

فصاح ولكني آكون مجنونًا واثيماً اذا تغلب عليَّ كلامك وسرت بمقتضاه يامتيلدة ولا بد ان تندمي يومًا بالنظر الى الشرور التي يمكن حصولها عن ضعفي

قلت لا لا ياصديقي اجب هذه الحاسة الشريفة المتحرك بها قلبك ولا ريب انك تقول لي وقتئذٍ وانت تشد بيديك على يدي اما . . بوجه باش وقلب فرح ان كلامك يامتيلدة كان كلام صديقة صالحة مخلصة فتشكر لك لاني كثير السعادة بهذا الزواج ثم زدت على ذلك وانا لا اتمالك اخفاء دموعي وحينئذٍ انا . . وحينئذٍ انا . .

فصاح الموسيو دي روشكيم وقد نظر اليَّ بقلق ما بالك يامتيلدة فادركت مقدار الاخطار التي يمكن حصولها عن هذا الحنو غير الارادي وان دخول اقل الشكوك على افكار الموسيو دي روشكيم كان كافيًا لضياع كل شيء فحاولت التبسم وقلت لا شي ياصديقي اني تاثرت لدى التفكر بمقدار الهناء الذي ينتظرك بجانب اما الا فاصغ لتمنياتي ونصائحي وحينئذٍ ياتي يوم اقول فيه على الذاتي بصوت منخفض واناطافحة بالمسرة لسرورك وسعادتك بهذا الزواج يالهُ من صديق غشوم كيف اقتضى مع كل هذا ان اجبرهُ على الرضاء بسعادته

فصاح اه يامتيلدة تحذري من اجل اما وليس من اجلي ولا تكثري من الالحاح اذ ليس لديَّ الان ما يعز عليَّ المخاطرة به لان حياتي لا يمكن ان تصل الى اكثر من هذه الكآبة ولكن هذه البنية . . اه يا الهي من اجلها . . اي خداع ارتكب

قلت ولكن هذه البنية تحبك بلا امل . . ومنحدرة الى الموت من اجلك وحياتها ايضًا كحياتك لا يمكن ان تصل الى اكثر من هذه الكآبة

فصاح اه يامتيلدة ان هذا الارتباط سيكون مشومًا

قلت ولكنهُ سيكون بالنظر الى اما طافحًا بانواع السعادة والسرور . . تقيد معي بكلامك ياصديقي . . تقيد معي بكلامك

فصاح متيلدة

قلت استحلفك باسم ابيك . . واسم الصديق الذي فقدناه وهو مشترك معي الان بهذه التوسلات

فسال هل تريدين ذلك

قلت اتضرع بهِ اليك

قال فليكمل اذن نصيب هذه البنية

فصحت الشكر . . بل كل الشكر لك انت ياافضل واكرم الرجال انك لا تعلم . .
ابداً مقدار حلاوة هذه الدموع التي اسكبها في هذه الدقيقة
ان جميع هذه الضحايا والاوجاع الكثيرة كانت قد كللت على الاقل بسعادة اما . . .

. . . .

الفصل الثاني والسبعون

الطلب

ماذا اقول اكثر من هذا ان كلام الموسيو دي روشكيم كان مقدساً وقد راى بالنظر الى رقته العادية ان من ضروري اعلام اما انهُ يحبها منذ زمن طويل اما انا فاخذت على نفسي طلب هذه البنية للزواج من امها الدوقة دي ريشفيل فركضت الى منزلها وقبل ان اخاطبها بهذا الموضوع اردت مشاهدة اما

ولا يمكنني ايضاح دهشتها وفرحها وسكرها عندما اعلمتها برجوع الموسيو دي روشكيم واني مكلفة بطلبها للزواج بهِ من الدوقة دي ريشفيل

ثم وعدتني هذه البنية العزيزة انها تتظاهر بالعجب والدهشة عندما تعلمها الدوقة بهذا الخبر المسر وهكذا صار لا يمكن الاكتشاف على كذبي لا من هذه الجهة ولا من جهة الموسيو دي روشكيم

ثم دخلت على الدوقة دي ريشفيل وقلت لها اني قادمة من مشاهدة اما وهي احسن بكثير

فهزّت الدوقة بحزن راسها وقالت من الموكد لديَّ ان اما تخفي عني بعض الاحزان لان الموسيو جيرارد يحاول عبثًا الاكتشاف على اسباب هذا المرض ولا ريب ان هذه البنية التعيسة حاصلة على كدر عميق سري يحرق احشاءها . ولطالما سالتها عن ذلك بلا فائدة وقد يخطر

على بالي نائباً انها مطلعة على سر ولادتها ولكنني لا اجدمع ذلك ما يوكد مخاوفي في هذا الموضوع

قلت الم يقل لك الطبيب ان اما مصابة بمرض عصبي ولا يخفاك ان اسباب الامراض العصابية مما يصعب ادراكه غالباً كسرعة شفائها

اجابت واسفي ما من شيء ابضاً اشد تاثيراً في الاجسام من هذه الامراض فان اما كانت منذ خمسة عشر يوماً بتمام الصحة والعافية ... وها قد تحولت صحتها الان الى ما يحمل على مزيد القلق والخوف

قلت ان جميع اصدقائك قد اشتركوا معك بالاضطراب والجزع على امتك وسيسرهم جميعاً الامل بشفائها ولا حاجة لان اذكر لك في جملتهم الموسيو دي روشكيم فاني نظرته في هذا الصباح

فسالت وهل حضر

قلت نعم حضر وقد اطلعني على عزم مهم ولا ريب ان سفره لقضاء بضعة ايام في الوحدة كان من اجل التامل بدقة في هذا الموضوع الخطير .. لان حياته الان كما لا يخفاك .. مضعضعة

قالت واسفاه يا مدلتي المسكينة . لا يحق لنا ان نلومك لانك خضعت لصوت الواجب . ... ولكن الموسيو دي روشكيم كثير التعاسة

قلت نعم كان كما تقولين ولكن قلت الان تعاسته وانت تعرفين انه بمزايا ضعيفة وانه لا يجاهد للتغلب على المستحيل وهو شجاع يتصور المستقبل كما يجب ان يكون وعليه فلم يبق له من ذوي الوداد والاخلاص اما حبه فلم يسعه مقاومة التجربة القاسية التي اصابته ولا ريب انه تلفظ امامك بمثل ذلك

اجابت لا اخفي عنك يامتيلدة انه كرّر لي مراراً وهو بمزيد الياس ان رجوعك الى زوجك امات حبه وان متيلدة السابقة صارت عنده بحكم المتوفاة

قلت ان الموسيو دي روشكيم ياصديقتي لا يتلفظ باقوال باطلة وقد صدق في هذا القول كما صدق في غيره ... فانه تجرد عن حبي تمام التجرد والبرهان الاكبر على ذلك انه يريد الزواج

فصاحت هو .. هو .. مستحيل ذلك

قلت ان الغاية من تغيبه عنا في هذه المدة كما قلت لك انما هي التفكر لذاته بهذا العزم الخطير فانه لا يلبث ان يبلغ في بضع سنوات سن الكهولة .. وهو منفرد .. والمستقبل

يقلقهُ . . ويتراَى لهُ انهُ قفر مظلم . . انهُ لم يعد يُحبني حبًا . . كما صرح لك ولا يمكن ان يحب لان هذه الحاسة ماتت من قلبه . . وحيث كان لي مركز عظيم في حياتهِ وفقدتهُ صار يشعر انهُ في حاجة لايجاد روابط جديده وان يبحث على السعادة في الوداد العائلي الطاهر

فصاحت الدوقة دي ريشفيل بدهشة هو يتزوج . . هو يتزوج . . وانت انت التي اودعك هذا السر

قلت اني صديقتهُ على الدوام . . افلا يجب ان يعلمني بمثل هذا المقصد المهم

اجابت لا ريب بذلك يامتيلدة . . ولكن مسارتك في هذا الموضوع . . انت التي احبك ذلك الحب المفرط لا تخلو من القساوة

قلت ما وجدت في هذه المسارة شيئًا من القساوة ولكني وجدت فيها عواطف كثيرة من الوداد فاني تاملت مليًا بتان مركزه ثم سالت الدوقة ما الذي تريدين ان يفعلهُ من الان وصاعدًا . . اليس من الطبيعي ان يفكر بالمستقبل . . وما قولك بالامرأة التي يختارها الا تكون سعيدة . . انك تعرفين جودة قلبهِ وشرف اخلاقهِ واذا اراد الزواج فما ذلك الا ليضمن السعادة لعروسهِ

اجابت لا اشك بذلك لان جميع الروابط والواجبات مقدسة عنده

قلت فاذن لماذا تتعجبين من رغبتهِ بالزواج

قالت اه يامتيلدة لا يوجد في هذا العالم الا امرأة واحدة تستحقهُ

قلت لست ارى رايك ياصديقتي وغاية ما اظن ان الموسيو دي روشكيم يصعب تزويجهُ بالنظر الى ندارة صفاته كما يصعب تزويج اما ايضًا

قالت اه يامتيلدة كان بودي ان لا يشغلني الان من نحو اما خلاف هذا الفكر

قلت اطمئني ياعزيزتي فقريبًا لا يعود لك شاغل الا الاهتمام بايجاد زوج لها

فتاوهت وقالت انك تعلمين بمخاوفي بهذا الخصوص

قلت لا بعد ان تتصوري كوني مجنونة ولكني اقول لك عن اما ما قلتهُ عن الموسيو دي روشكيم انهُ لا يوجد في هذا العالم الواسع الا رجل واحد يستحقها وهو هو بعينهِ

فصاحت ومن . . هو . .

قلت الموسيو دي روشكيم

قالت الموسيو دي روشكيم

قلت بلا ريب

فكررت قولها الموسيو دي روشكيم . . الموسيو دي روشكيم . . حقًا انك مجنونة يامتيلدتي

المسكينة

قلت لربما لا اكون في هذه الدرجة من الجنون التي تتصورينها

فصاحت بتعجب الموسيو دي روشكيم

قلت نعم الموسيو دي روشكيم ما الذي يحملك على اظهار كل هذه الدهشة والعجب هل تظنينة من الرجال الذين يقلقون بظروف ولادتها او يفكرون بثروتها

قالت لا لعمري . . ولكنه ما فكر في حياته باما ولن يفكر بها على الاطلاق

قلت افترضي انه فكر بها

اجابت هو . . مستحيل

قلت ولكن على فرض انه فعل ذلك الا تكونين سعيدة بل كثيرة السعادة بهذا التوفيق

فصاحت اه ما احلى وما اشهى . . ولكن ما الفائدة من هذا الاحلام

قلت واذا لم تكن تلك احلاماً

فسالت كيف

قلت اذا ثبت القول وكان الموسيو دي روشكيم قد تولع بصفات اما البديعة التي احسن تقديرها حق قدرها منذ زمن طويل تولعاً لربما لا يكون في الوقت الحاضر شديداً مفرطاً ولكنه جدي خطير لا ينتظر الا الزواج ليصل الى درجة الوجد والتحرق . . ثم طلب منك يدها فهل تسمحين له بها

فصاحت متبلده . . متبلدة . . ان هذه هي المرة الاولى التي اساءت بها اليَّ بتهييج احزاني وأكدي ان اما لم تقلقني بمرضها كما اقلقتني انت بهذه الممازحة

قالت احلف لك بتذكار امي المقدس ياصديقتي ان ما قلته هو الحق فان الموسيو دي روشكيم سالني التقدم اليك بطلب الاقتران من اما حتى اذا قبلت هذا الطلب يتم عقد الزواج باقرب ما يمكن

وقد لفظت هذه الكلمات بلهجة جديدة خطيرة فما امكن الدوقة دي ريشفيل الا ان تصدقني

ولا يسعني ان اصف مقدار الفرح والدهشة والتاثيرات الحادة التي اصابتها وقتئذٍ وتضاعفت بمسرة اما وفرحها وكانت هذه البنية قد حافظت بامانة على سري . . . .

. . . .

. . . . ان كل شيء كمل وقتئذٍ واعترف اني في حال الشك بنهاية مقصدي

كانت مخاوفي وقلقي ونوائبي كافية لاشغالي . . ولكنني عندما اتممت العمل وبلغت الغاية اصابني لدقيقة من الزمان خوار القوى واليأس

ان مهمتي كانت قد كملت ولا تلبث اما والموسيو دي روشكيم ان يتمتعا بالسعادة ولكن انا . . انا . .

اني لا اخفي شيئاً واعترف بكل شيء فاني بقيت اشعر بنوع من الارتضاء السوداوي ولا يكلفني اخلاصي لاما كثيرًا عندما كان الموسيو دي روشكيم يعتبر اقترانه من اما كنوع من الضحية وهو خاضع رغماً عنه لنفوذي ولكن عندما امتلكته تدريجيًا محاسن هذه البنية التي لا تقهر واكتشف على كنوز تلك النفس الملائكية بل عندما قال لي بانعطاف انه لربما لا يوجد في هذا العالم الا امرأة واحدة جديرة بان تعزيه على تركي وان هذه الامرأة هي اما . . وان السعادة المديون لي بها بالاقتران منها ستنسيه يومًا بلا ريب الاحزان التي سببتها له . . فحينئذ تاثرت باحساسات مولمة مرة خجلت منها وكنت اعلم دناءتها ولكني لم استطع طردها عني .

. . . .

وبعد قليل صار خبر هذا الزواج موضوعًا للمحادثة في كل باريس فراى البعض انه برهان على غيظ الموسيو دي روشكيم وقلة ثباته وراى البعض الاخر انه عمل الدوقة دي ريشفيل وانها توصلت الى ذلك بقوة التفنن والشطارة وذهب اخرون انه دفع اليه بقوة الحب واكد كثيرون ان الموسيو دي روشكيم في حاجة لان تتكلم الناس عنه وقد راى في هذا الزواج نوعًا من الغرابة ينيله المطلوب حيث لا يصدق احد بوجود من يعطي مائة الف ريال ايرادًا سنويًا ليتيمة فقيرة بدون مقصد على الاطلاق

وكان الزواج مقررًا حصوله عند ما تسمح المعاملات القانونية بذلك "

الفصل الثالث والسبعون

زواج

فانني ان اتكلم عن معيشتي الداخلية في هذه المدة فان مراسلات الموسيو ليكورتو المشومة كانت قد انقطعت عني بالكلية وكنت قد الفت على مخاوفي الاولى وصارت بلوندو ترقد معي

في غرفة واحدة وحيث كان طعامي قليلاً واما في خوف دائم من ان يغدر بي تولت ملوندو بذاتها عمل الطعام بمزيد التحرس والعناية

وكنت قد سمرت جيداً الحائط الخشبي الموجودة فيه الخناة وهيأت سكيناً حاداً وضعته تحت مخدتي بحيث لا يفارق فراشي على الاطلاق ولا ريب ان المطالع يتوسم لحرمي هذا المؤذن بالبسالة

وفي الايام الاولى من حصولي على تحرير الموسيو ليكورتو تراآت لاعيني احلام هائلة ولكنها انقطعت عني بالتدريج ثم اعتدت على هذا المركز الذي رايته في اول الامر محزناً ولا يمكن المساهلة بقبوله

وكنت لا اشاهد الموسيو دي لانكراي الا نادراً ولا ريب انه فقد وقتئذ كل امل بمشاهدة اورز بل بالرغم عن انقياده وخضوعه لاوامرها بخصوصي

ولربما كان زوجي يجيب رغائبي وينذر لو الححت عليه بطلب الانفصال عنه ولكني كنت مجبورة لالف سبب ان ابقى في هذه الحالة ولا اقتصر على ذلك فقط بل انظاهر بقبولها بفرح

وكانت حياتي تمر على نمط واحد فكنت ارى نفريباً في كل يوم السيدة دي ريشفيل واما ولا أزار من احد في منزلي واصرف النهار بالرسم والطريز ثم اذهب للنزهة في حديقة مونسو او لزيارة البرنس دبركور وامرأته وكانا مستمرين على محبتي وهما يؤنبانني ملطف على حبي الجنوني واخلاصي لزوجي ويقولان انه في غير محله

وكنت انتظر بفروغ صبر زواج الموسيو دي روشكيم لاني كنت معتمدة على الانسحاب بعدئذ الى قصر ماران الذي اشترته لي السيدة دي ريشفيل تحت اسمها وكنت قد عهدت الى هذه الدوقة بحلاي المتصلة اليّ من والدتي وهي تساوي على ما اظن اكثر من خمسين الف ريال وكان زوجي قد صرف كل ما في الوسع للحصول على هذه الحلى ولكني اصررت على المقاومة بقصد ان اشتري بها يوماً رضاءهُ بالانفصال عني انفصالاً شرعياً ومتى قبل بهذا الانفصال نقنع الناس بان الموسيو دي لانكراي سئم من هذه الحياة التي نصرفها سوية واني كنت مغرورة باخلاصي ولا ريب ان الناس وقتئذ لا يهتمون بضحية بليدة مثلي ولكني اتعزى على كل ذلك بكسر قيودي الهائلة

ثم طرأ عليّ طارئ قليل الاهمية في حد ذاته حملني على انتهاج منهج كان له نتائج مشومة فيما بعد

وكان قد مضى عليّ زمان بدون ان يجد اليّ ما يحملني على الافتكار بنفوذ الموسيو ليكورتو

المشوم ففي احد الايام رايت ان اوراقي مختلة من اما كأنها كأن يداً قد لعبت بها وهذه الاوراق عبارة عن رزمة كبيرة من التحارير كنت قد جمعتها الى بعضها ووضعتها في صندوق مقفل من الصدف اما مفتاح هذا الصندوق فكان لا يفارقني على الاطلاق . ولدى البحث وجدت ان التحارير المذكورة كاملة لم يفقد منها شيء على الاطلاق ولكن تراءى لي ان الصندوق فتح في مدة غيابي وكان لا يمكني ان ارتاب بامانة بلوندو وما من شيء يحملني على الشك بجادتي الاخر ولكن لدى التفكر باقتدار اموال الموسيو ليكورتو وكثرة اساليبه في الغش والدهاء اعتمدت ان لا ابقي عندي شيئاً من اوراقي المهمة

وكان في جملة هذه الاوراق مراسلاتي مع اما ومنها يستدل ان لي دخلاً عظيماً في هذا الزواج ثم عدة تحارير من الموسيو دي روشكيم يخاطبني بها عن مرض اما وعن زيادة احزانه لانه لم يقبل الزواج بهذه النية الا شفقة عليها الى غير ذلك من الاقوال في هذا الموضوع .

فكان من المستحيل عليَّ والحالة هذه ان ائتمن الموسيو دي روشكيم او الدوقة دي ريشفيل على هذه التحارير حيث لا يبعد ان تكشف لهم الصدفة وقتئذٍ عما يهمني كثيرًا اخفاؤه عنهم وفضلاً عن هذا فان الموسيو دي روشكيم والدوقة دي ريشفيل معرضان مثلي لحقد الموسيو ليكورتو ولا تكون هذه الاوراق عندها في مامن من غدره فبقيت محتارة في امري لا اعلم لمن ادفعها واذ خطر على فكري فجاة الموسيو دي سيسبيل وكنت اراه غالبًا عند خالته وقيل لي عنه انه من اصحاب الشرف الامناء الذين يحفظون الاسرار فرجوته ان يبقى لي عنده هذه الوديعة . . . واتفقنا على ان ارسل له بلوندو مصحوبة بمفتاح الصندوق كل ما جد عليَّ من الاوراق ما اريد ائتمانه عليه فتضعها ضمن الصندوق المذكور وتعود

وعند ذلك اظهر الموسيو دي سيسبيل استعداده التام للقيام بهذه الخدامة الطفيفة وكنت اخشى كثيرًا من رقباء الموسيو ليكورتو والطريقة الخفية التي يمكنه ان يستخدم بها هذه الاوراق اذا علم بها او حصل عليها فرجوت الموسيو دي سيسبيل ان يزورني مساء حتى يتمكن من اخذ الصندوق المذكور بدون ان يشاهد من احد ولم يفاتحني هذا الشاب بشيء من عنايته السابقة بي ولا ريب انه راى من قلة الذوق ان يجدد مثل هذه الادعاءات بمناسبة هذه الخدمة التي كلفته بها

وبعد ذهاب الموسيو دي روشكيم ببضعة ايام الى اراضيه حيثما احتفل ثم بعقد زواجه وصلني منه هذا التحرير

صارت اما امراتي فاليك اسوق الشكر ايتها الصديقة الشريفة المخلصة على هذه السعادة لانها عملك وقد تحققت افكارك فصرت اسير الان في عالم الحياة بقدم حر وبلبيد تم انور الافق

امامي وهو يزداد صفاء من يوم الى اخر وقد ربطتني مشوراتك بالحياة بروابط مقدسة . . . ولا يخفى ان من له روابط عليه واجبات واتمام الواجبات يسرني على الدوام

احرر لك لان زواجي بلا ريب من حوادث حياتك المهمة اني كل ما بعدت عن الزمان الذي ضعضعت به امالي كل ما عاد اليَّ صوابي وتخلص فكري من المشاغل الدنية التي اظلمته فاتهلل سرورًا لاني تبعت مشوراتك

لقد كنت قبلاً الامرأة التي احببتها كثيرًا ثم انت الان وستكونين من الان وصاعدًا الامرأة التي اعتبرها بخشوع اكثر من جميع الناس لاني مديون لك بالحصول على نوع من السعادة ما فكرت بها قبلاً وهي سعادة الحياة في شخص اخر او بالحري اعادتك الى الحياة بالحياة من اجله

اني اشعر من نحو اما بتعلق خصوصي واثق ان لي نفوذًا عظيماً عليها حتى صرت سعيدًا ومفتخرًا وقلقًا بعملي

ما من شيء اشد تاثيرًا وبهاء من الانذهال السذج الذي نتكلم به احيانًا عن الحياة التي اعدتها اليها فالحق معك يامتيلدة ان سعادتها جعلتني سعيدًا وحبها يكاد يجعلني عاشقًا

ثم لماذا اخفي عنك ياترى ليس حبي لاما من الحب الذي شعرت به قبلاً من نحوك لان ذلك الحب قتل فجأة في فوادي ولم يعان الام الضعف والنزع بل سحق سحقًا بمنتهى عظمته وقوته وقد قلت لك غالبًا ان الموتى لا يشيخون في القبور واذا خرجوا باعجوبة منها يعودون الى الحياة كما تركوها . . وهكذا حبي لك اذا عاد الى الحياة باعجوبة يعود اليها بمنتهى العظمة والقوة كما كان عندما سقط فجاة في فوادي

لا . . لا . . الحمد لله ان حاسة الحب التي دعتني اليها اما لم تتالف لحسن الحظ من بقايا حبنا ولكنها حاسة جديدة عذراء لربما لا يمكن ان ارفع اليها من امرأة خلافها لان حب هذه الفتاة لا يشبه حب احد من النساء ومثل هذا الحب يتاتى عنه مثل هذا الحب

انه لا يمكنني ان اتقدم خطوة في هذا الطريق الكريمة التي دفعتني اليها بدون ان اقول لذاتي الحق مع متيلدة واتذكر تلك الكلمات الشريفة المقدسة وهي عندما تقضي علينا الضرورة بالامتناع عن سعادتنا على هذه الارض فما الذي يبقى لنا ياترى خلاف التعزية برفع الاخرين الى السعادة التي تمنيناها لانفسنا

احاول الظن احيانًا اني قريب من المراتب الالهية كما قلت لي بالنظر الى سعادة المحيطين بي ولا اقدر ان اصف لك مقدار الافراح العميقة المستولية على الدوقة دي ريشفيل الصالحة فهي تكاد لا تصدق للان بحصول هذا الزواج وقد تشخص احيانًا باعينها المبللة

بالدموع ونقول هل نحن في حلم ام حقيق ما نراه وانك رفعت ابنتي الى نعيمك ثم تصبح احيانًا بخوف يتقبض لهُ فوادي رغماً عني ان هذ السعادة كثيرة ولا ريب ان مصابًا يتهددنا فاطمنها بما في الامكان ولكنها مولعة بالاعتقادات الباطلة كغيرها من الناس الذين اصيبوا باحزان كثيرة حارة في حياتهم ولولا الحاحاتك التي اخرجتني من الجمود الذي استغرقني لصرت انا ايضًا ممن توثر بهم هذه الاعتقادات

ثم بحثنا لنعلم هل من الضروري ان نهيء اما للاطلاع على سر ولادتها فلم ارَ ذلك لان اما باحساسات رقيقة جدًا واخشى ان يحصل لها عن معرفة هذا السر احزان مستديمة وذلك بتعريضها للمقاومات المولمة بين مبادئها التي تحركها على الشكوى من امها وحنوها الذي يحملها على المناقمة عنها

ولا ريب ان المصاب يكون عظيماً جدًا اذا سمحت الاقدار باطلاعها يومًا على هذا السر وانا اعلم ذلك ولكن ما الفائدة باترى من تقريب ذلك المصاب

انا سنبقى في روشكيم الى شهر شباط او اذار لان اما ترغب ذلك ولا حاجة للتصريح بمزيد اسفي لدى التفكر انا لا نشاهد بعضنا وانت تعلمين اصل الموانع التي تمنعنا من ذلك ولكني اتعزى بقولك انك سعيدة لاني اعرفك واعرف ان الفقر قلما يسيئك وانك اهلة لان تجدي فيهِ ايضاً كثيرًا من المحاسن حتى لا يكون لك حجة لملامة زوجك

حيث كتبت اليك يجب ان اصرح لك بكل شيء اني عندما لفظت الكلمة التي تربطني باما الى الابد شعرت بحركة من التمرمر الجارح لان هذا الزواج كان الخطوة الاخيرة للانفصال عنك تمام الانفصال نعم اني تجردت من قبل عن كل امل من نحوك ولم تعدي ولية ذاتك ولكني . . ولكني انا على الاقل كنت حرًا الى ذلك الحين

على ان هذا الاضطراب المولم زال سريعًا وشعرت اني سعيد في الحاضر نعم اني متاسف وسابقى متاسفًا على الماضي ولكني حاصل على امال ثمينة للمستقبل ولو كان حبي لاما اشد حرارة مما هو الان لتخوفت منهُ ان حبي في الحاضر يكفي لفرح وسعادة هذه البنية المعبودة ولا ريب انهُ سيعظم ايضًا

والذي يستجلب التفاتي من صفات اما انما هو نوع من العدالة والاستقامة والرفعة يذكرني كثيرًا بصفاتك الممتازة وفضلاً عن ذلك فان هذه البنية اكتسبت نوع من الاقتداء الصبياني يدل على مزيد تعلقها بك كثيرًا من عوائدك واساليب تفنعك وبعض لهجات من صوتك . وانت تعلمين اذا كان ذلك يسرني

استودعك الله بحنو استودعك الله يتراءى لي انا صرنا الان بمراكز متساوية وانهُ بدأ

يتولد فيّ نحوك ذلك الوداد العذب السكون الذي اشغلني سابقًا ولربما يكون اشد سكونًا ايضًا لان ضميري كان يبهني وقتئذٍ رغمًا عني و بالهام الى تهيجات الحب العشقي في المستقبل اما الان فقد استحالت تلك الحرارة الى رماد خمدت ناره الى الابد

استودعك الله واكرر شكرك يا امتيلدة اذ لولاك لقتلت هذه البنية التي احبها بجنون الان وحصلت على حياة شقية تعبة ولربما سفلة ايضًا حيث لا اقدر ان افكر ولا ارتعش بتلك الساعة التي تاسفت فيها لاني وجدت ابنة عمك الجهنمية مجردة عن مظاهر سفهها وجسارتها العاديين ولو ظهرت لي اورزيل بتلك الظواهر التي تمنيتها وانا خال ومعذب بالياس لربما انضمت اليها واستعملت مثلها الشر جميع القوى والخاصيات التي اودعها فيّ الرب لغايات اخرى

ولا يخفاك ان المرء كل ما بعد عن الخطر كل ما تامله بتان وحكم على مداره ولهذا اعترف الان ان الخطر كان عظيمًا . . عظيمًا جدًا ولكن مشاغل هذه الامرأة المضحكة هي التي اضلتها فلم تعد ترى بظاهر الضجر الذي سمعت به لاقوالها الشريفة رغبتي بان تغير هذا الحديث وتخاطبني بلهجة اخرى

اني ارتعش خوفًا لدى التفكر بما كان ممكنًا حصوله عن تقربي من اورزيل حيث من يعلم لو حصل ذلك وتسلطت عليّ هذه الامرأة بنفوذها الى اي حد كنا تمادينا بالاعمال

شط بنا الحديث فبعدنا كثيرًا عن امانيّ البديعة . . . ولكن المرء والحق يقال لا يذكر الزوابع واخطارها الا عندما يصل الى الشط المحبوب ويصير في مامن من الخطار

اني لم اذكر تلك الزوابع المشومة التي تهددت مستقبلي الا عندما شاهدته صافيًا باسمًا ولو لم اكن سعيدًا بارقاد هذه البنية الطاهرة على فؤادي لما خطرت على ذهني هيأة اورزيل المشومة . . .

وعند وصولي الى هذه الفقرة من تحرير الموسيو دي روشكيم سمعت صوتًا في القاعة الصغيرة المحاذية لغرفتي ثم دخل عليّ فجاة الموسيو سيشرين مصفرًا . . . متبلبلاً وصاح بحق السماء . . تعالي . . تعالي . . لانها تموت وتريد مشاهدتك .

فاجبته مضطربة ومن هي هذه التي تموت . . وكنت لا اريد ان اصدق انه يتكلم عن اورزيل بالرغم عن الشرور التي عاملتني بها

فصاح اورزيل . . اورزيل . . الا تعالي اذن لانها تموت ولست بجانبها وكل دقيقة اصرفها هنا اخسرها من حياتها

فضممت يديّ الى بعضها بفاعيل الدهشة والخوف وصحت اورزيل . . اورزيل . .

قال انك بلا شفقة لاني انا زوجها اجبت توسلاتها وحضرت . . ومن اللازم ان

تحضري انت ايضاً . . . ثم صاح وهو يحاول جري قلت لك انها تموت . وان دقائق حياتها معدودة ولست هنالك

فتناولت بعجلة شالاً وقبعة وتبعته بلا وعي وإذا عربة تنتظرنا على الباب فركبناها وانطلقنا بسرعة

وكان الموسيو سيشرين خائر القوى باعين حمر متقدة ووجه مكفهر مضطرب برعشات اليأس يكاد لا يشعر بوجودي ويلفظ كلمات غير مرتبة ولا يفكر الا بحث السائق على سرعة العدو

فوجهت اليه الحديث وقلت متى علمت بهذا الخبر المشوم وهل هي في حال من النزع لا يمكن معه الشفاء . . اما من امل اذن

فشخص اليّ بنظره وصاح بضحكة عصابية اين الامل بعد كمية السم الوافرة التي تناولتها

قلت اورزيل سممت ذاتها

فلم يجبني بشيء ولكنه قبض على يدي بقوة وقال لي بصوت خشن اني مع هذا لا يمكني ان اقتل زوجك الا مرة واحدة

قلت لا تفكر بالإنتقام . . افكر بانقاذ هذه المسكينة اذا كان ثم وقت لانقاذها ثم سألته وامك

اجاب هنا . . ثم صاح اه يا الهي متى نصل ان اورزيل بلا ريب قد ماتت وسوف تشاهدين انها ماتت

قلت ولكن كيف اتصل بك هذا الخبر المشوم

اجاب بتحرير . . او بالحري ببضعة اسطر منها تقول لي فيها اني اذا اردت مشاهدتها للمرة الاخيرة فمن اللازم ان اهرع الى باريس . . اما امي فبقيت كعادتها لا تلين . ثم صاح اه من هذا السائق . . ما هذا التمهل . . لا ريب انها ماتت

وحاولت تجريده ولو قليلاً من هذه المشاغل المكدرة فقلت وماذا فعلت امك

فصاح بصوت قصير متقطع وهو عرضة للهذو الخيف اه من امي انها قالت عنها في الحال انها تمثل رواية للحصول على صفحها . . فهمت . . تمثل رواية . . . وكان يشتم من هذا التحرير رائحة الموت . . ولم اخطىء بذلك فهرعت من روفري الى باريس . وتبعتني امي . . وسوف ترين ماذا كانت هذه الرواية وكيف لا يمكن ان تعرفي وجه هذه المسكينة ثم لا يخفاك ان رغائب الموتى الاخيرة مقدسة . . ها قد اقتربنا . . وكل الرجاء ان اراها في حال الوعي

لتصفح لي عن قساوتي . - لا بل عن ضعفي لان الضعف هو الذي حملني على الانقياد لحقد امي ضدها . الا فانظري الى واقعة الحال . - انظري واقعة الحال . ان امرأة مسكينة ارتكبت هفوة ولكن بدلاً من ان تعامل بالرحمة والطيبة وتقاد للتوبة بقوة المسامحة ومكارم الاخلاق طردت كعاهرة ولعنت وحينئذٍ التزمت هذه المسكينة ان تتمادى بالشر وتخسر شرفها وسمعتها ثم اصابها بعد ذلك تبكيت الضمير وثقلت عليها الحياة فتناولت السم واشرفت على الموت فقبل رواية . . رواية . . هذا ما فعلته امي بحقدها . . وما فعلته انا بضعفي

قلت ولكن ما هي افكار الاطباء

فاجاب بنوع من التبسم العصبي وتلك الهيئة المضعضعة التي اخافتني ان الاطباء لم يقولوا كامي انها تمثل رواية ولكنهم قالوا بالعكس انها مشرفة على الموت وحينئذٍ قلت لامي افرحي فهذه اورزبل في حال النزع فهمت ثم صاح وصلنا هنا المنزل

وعند ذلك وقفت العربة فنزل الموسيو سيشرين هرولة وتبعته بسرعة

الفصل الرابع والسبعون

الميت

وبعد اذ تجاوزنا جنينة صغيرة مهملة مملوءة بالاعشاب والشوك والصخور وصلنا الى عرصة ثم الى غرفة كبيرة رطبة مظلمة حزينة موثثه بامساك يدل على الفقر الشديد وكانت اورزبل هنالك تعاني الام النزع وبجانبها عجوز تخدمها بوجه كريه مغطى تقريبًا بالخرق وعند دخولي اشارت اليها بالانصراف

فاه يا الهي ما هذا المشهد المحزن الذي ظهر وقتئذٍ لاعيني فان اورزبل كانت ممددة على مقعد طويل هناك بثوب اسود وعلى رجليها وركبتيها شال كبير وكان يظهر للمشاهد انها ترتعش بردًا وهي تشد باليد الواحدة بتشنجات عصابية على المخدة الملقي عليها راسها بثقل وترفع بالثانية عن جبهتها المصفرة المثلجة ضفائر شعرها الجميل الاسود المتفرقة وكان وجهها المتغير كثيرًا بلون شاحب واعينها الزرق على وشك الانطفاء

ولدى مشاهدتي انتعش نظرها قليلاً وظهر على شفتيها الشاحبتين تبسمات الالم ثم ضمت

يديها الى بعضها بملامح الامتنان العميق وقالت لي بصوت ضعيف انت كريمة يامتيلدة . . وهذا ما توقعتهُ منك . . اني اريد الاختلاء بك برهة

وكان زوجها قد ارتمى على ركبتيها ناحبًا فصاح ابدًا . . ابدًا . . ما عدت اريد ان اتركك وعند ذلك حولت اورزيل نحوه اعين الضراعة فصاح وهو يتامل امرأتهُ بتوجع يمزق الفؤاد اه ما احلى وما اجمل هذا اللحظ . . هذا هو . . عرفتهُ ولم يغرب عليَّ في حال الموت . . عرفتهُ فبمثل هذا اللحظ كانت تنظر اليَّ سابقًا وقد وجدتهُ الان . . ولكنها تموت يا الهي . . ولكنها تموت

قالت اورزيل ارجوك ياصديقي ان تدعني برهة مع متيلدة . . ان دقائق حياتي الاخيرة ستكون لك لاطلب منك ومنها العفو عما اساءت بهِ اليك واليها

قلت اتوسل اليك بذلك ياابن عمي

ثم عادت اورزيل الى الحديث فقالت وهي تحاول التبسم لزوجها ليس لي وقت طويل لاصرفهُ بالالحاح والتوسل بحقك لا تبخل عليَّ بهذا السوال

فنهض الموسيو سيشرين بغتة وخرج مغطيًا وجههُ بيديهِ وللحال دفعت اليَّ اورزيل مفتاحًا وقالت بعناءٍ مزيد افتحي خزانة غرفتي فتجدي ثمَّ ظرفًا مملوًّا بالاوراق والتحارير والذي اريدهُ ان تحرق جميع هذه الاوراق لان الاكتشاف عليها بعد موتي يكون سببًا بزيادة تكدير الرجل الكريم الذي نكثت عهودهُ بدناءة . . ان مفعول هذا السم كان ذريعًا . . ولم اتمكن من اجراء هذا الاحتياط قبل وصول زوجي . . .

فحولت راسي عنها حتى لا تشاهد دموعي وقلت سوف تنفذ رغائبك

ثم عادت الى التكلم بعد دقيقة من السكوت فقالت متيلدة اني اموت من اجل الموسيو دي روشكيم . . ويسعني ان اقول ذلك بدون ان اجرحك لانك ما عدت تحبينهُ

فصحت اه يا الهي تاملي بخلاف هذه الافكار في مثل هذه الساعة الهائلة . . . الا تعلمين انهُ تزوج

قالت ومن اجل هذا لم اعد اريد الحياة . . نعم انهُ داوم احتقاري الى الان ورفض معاملتي بعد تينك المواجهتين ولكن املاً مبهماً كان يسندني ويقويني الى ان علمت باقترانهِ من ملاك بمحبة وحينئذٍ فهمت انهُ لم يبقَ لي الا الموت وكان من الواجب ان افهم ذلك من قبل

فصحت اه يااورزيل . . كم اسأت لنفسك . . وللاخرين

قالت نعم ولكني انا ايضًا تالمت كثيرًا منذ ذلك الحين اه لو تعلمين باي احتقار وبغض

قابلني في اول الامر عندما حضر للمواجهتين اللتين دعوته اليها للتكلم عنك واذ ذاك اردت ان ارفع نفسي قليلاً امامه فحاولت ان اصرح له بجميع الالهامات التي دعاني اليها واثبت كوني توصلت بواسطتهِ الى ادراك الاحساسات الطاهرة العفيفة . . ولكن الويل لي . . الويل لي لان الالفاظ خانتني وقتئذٍ وكدت لا اقدر على التصريح بالافكار الجديدة الشريفة التي انتشرت فيَّ بسرعة وفي حال اضطرابي وخوفي وسكرتي جعلت اتردد واتمتم وزالت عني تلك الجسارة ولا ريب ان نظرة واحدة منه بمعنى المصادقة على التغيير الطارى عليَّ كانت كافية لتشجيعي وكان بمكنهِ الاحاطة باعماق نفسي التي ملئت منهُ وتغيرت بهِ من حال الى حال ولكنه ارهبني بما اظهر من ملامح البرودة والسخرية ولم اقدر على غير التلفظ ببعض كلمات متقطعة . . ومع هذا فابداً ابداً واسفي لم اشعر كوني مخلصة صادقة واني باميال غريزية مترفعة كذلك الحين ولا ريب اني لا استحق التكلم بمثل هذه اللهجة . . اه يامتيلدة اذا كانتَ الاوجاع في هذا العالم كفارة عن الذنوب فلا شك انك تصفحين لي لاني توجعت كثيرًا في ذلك اليوم

قالت نعم نعم صدقتك ايتها الامرأة التعيسة . . ولا ريب انك توجعت كثيرًا

قالت ولكن ليسْ هذا هو كل الحاصل . . انك لا تعلمين بعد ما الذي يجعل موتي مخيفًا

فصحت اه يا الهي . . تكلمي . . تكلمي . .

قالت نعم . . من اللازم ان تعرفي ذلك انت وحدك على الاقل . . وتشفقي عليَّ اني عندما تناولت السم وانتهى كل شيء ولم يعد لي الا الموت كشف لي الرب فجأة بانتقامهِ الهائل عن الواسطة الوحيدة التي اقدر ان اكفر بها عن ذنوبي واستحق اهتمام الرجل الذي اموت من اجلهِ . . واعتبار الجميع . .

فسالت وكيف ذلك . . الم يعد وقت الان لتحقيق هذا العزم

قالت لا . . لا لم يعد وقت واشعر ان ساعتي الاخيرة اقتربت ثم صاحت وقد علا صوتها بالعويل ان هذا هو الذي يجعل موتي مخيفًا

قلت اورزيل . . اورزيل سكني روعك فانت صبية ولربما لا يكون الامل زال بكليتهِ . . وسوف يلتفت الرب الى مقاصدك الحسنة

فضمت اورزيل يديها الى بعضها بياس وصاحت اه ياالهي اكرم عليَّ الان بالحياة . . بتلك الحياة التي ضحيتها اللاثم . . لا اسالك ذلك من اجلي بل من اجل هذا الرجل الصالح الذي خفرت زمامهُ بدناءة واعاهدك ياالهي اني انسيه الاحزان التي سببتها لهُ بقوة الاخلاص والخضوع

فصحت اورزيل ما هذا الذي تقولينهُ . . العلك مصابة بتبكيت الضمير . .

اجابت فهمتِ . . فهمتِ . . اني بدلاً من ان انهي حياتي بجناية عقيمة كان من

اللازم ان اعود نادمة الى زوجي وارتمي على اقدامه وعلى اقدام امه وحينئذٍ لا يمكن ان يبقى هو ولا امه غير متاثرين لندامة حقيقية وكنت قضيت البقية من حياتي في تقرير سعادتهما ولا ريب اني قادرة على ذلك حتى اذا ثبت بعد زمن طويل اني صرت صالحة شريفة فلربما اجسر وقتئذٍ على مخاطبة هذا الرجل الذي تغيرت احوالي بنفوذه قائلة كنت امرأة دنية شقية واحببتك وانت لا تعلم ولكن هذا الحب المجهول منك جعلني بالفضائل وكنت مجردة منها ان فيك سرًّا عظيماً ومحاولة حبك انما هي محاولة اكتساب الفضائل بما يجعل المرء مستحقًا لك اني من حينما تطهر قلبي بفكرك صار كل من حولي يحبني ويباركني . . ولكن الويل لي يامتيلدة مضى الاوان . . مضى الاوان

فصحت يالخسارة . . حقًا ان هذه التوبة كانت جميلة وعظيمة

فسالت بتهيج اليس كذلك . . اليس كذلك . . انك تعرفينني يامتيلدة وتعرفين مقدار ارادتي وعزمي فلو تمت هذه التوبة لصرفت هذه الارادة والعزم الى الخير وكنت اظهرت جميع ضروب الاخلاص والشهامة لاعيد زوجي الى حياة السعادة واللذة . . واستحق يومًا اعتبار الموسيو دي روشكيم ولا ريب انه لا يبخل علي بذلك الاعتبار انا التي رفعت بواسطته من اعماق الحضيض الى منتهى درجات العلا

فقلت باهتمام يمزق الفؤاد . . مسكينة انت ياورزيل

قالت اه ما اكرم فؤادك حتى شفقت عليّ يامتيلدة . . اليس من المرعب ان اموت في ريعان الشباب وامام اعيني مثل هذا المستقبل وانا متروكة ومكروهة من جميع الناس . . . بينما يمكنني ان اعيش محبوبة ومحترمة ثم كررت قولها اليس من المرعب حصول ذلك وهلا يحسب هذا الموت قصاصًا هائلاً من السماء

ثم خارت قوى هذه المسكينة بهذا الاضطراب الاخير ولم تستطع اتمام الحديث فانقطع صوتها . . واسترخت اعضاؤها

وكان بغضي لاورزيل قد اضمحل تقريبًا منذ بداية هذه المحادثة وتحركت فيّ نحوها احساسات الشفقة وما امكنني الا ان اشترك بالبكاء مع هذه الامرأة من سوء البخت الذي ما افسح لها الاجل للتكفير عن ذنوبها لان حبها للموسيو دي روشكيم كان فيه شيء سام موثر وقد انتشر فيها مقرونًا بهذا الفكر الشريف المتعلق بالتوبة

وعند مشاهدتها بلا وعي تقريبًا بين ذراعيّ دخلني الخوف فناديت زوجها وللحال دخل ركضًا كمن عدم الصواب وكانت اورزيل تتنفس اذ ذاك بصعوبة كلية وقد اكفهر وجهها وظهرت عليه ملامح شديدة من الالم . . . ثم تخفضت تدريجًا هذه الازمة واختبط وجهها

بقرب الموت فجعلت تحرك بلطف يدها كما لو كانت تريد ان تدفع عن ذاتها بعض المظاهر المشومة ثم فتحت اخيرًا اعينها وقالت بصوت متقطع . . متيلدة هل تصفحين لي عن الذنوب التي اسأت بها اليك

قلت نعم . . نعم . . اصفح لك عنها . . والرب العلي يعاملك بحسب افكارك الاخيرة ثم جعلت تبحث عن زوجها بنظر ساهٍ وقالت اين انت باصديقي . . يتراءى لي ان الظلمة غشيت اعيني

فصاح الموسيو سيشرين بفؤاد منفطر . . اورزيل . . اورزيل لا اريد ان تموتي . . لست انا الذي طردك بلا شفقة . . بل امي . . . ان امي هي التي عاملتك بالقساوة . . هي التي ارادت . . . فلا تشكي مني . . . بربك لا تشكي مني . . . ان الذنب بذلك على امي فالويل لي ولها

ولم ينتهِ الموسيو سيشرين من هذه الالفاظ المشومة الا ظهرت السيدة سيشرين العجوز على الباب لان ابنها تركهُ مفتوحًا عند دخولهِ وكان وجه هذه الامرأة المتقشفة لا يزال كالسابق تنبعث منهُ مظاهر الاصفرار والخشونة والتهديد فاقتربت متمهلة بنوع من العظمة الهائلة وقالت بصوت جهوري غضوب . ابن جاحد تجاسر على لعن امهِ

فصحت اشفقي عليهِ ياسيدتي لان اورزيل على شفير الموت

اجابت ان هذا الموت جدير بمثل هذه الحياة التي عاشتها . . فهي تموت بجناية

فضمت اورزيل يديها الى بعضها بخوف وحاولت النهوض متثاقلة بالرغم عن ضعفها وصاحت الرحمة ياسيدتي . . الرحمة . .

فعاودت السيدة سيشرين الحديث وقالت ما من رحمة لك ثم اصحبت هذه الكلمات باشارة ولهجة ونظرة ساحقة الى حد ان بقي ولدها مصابًا بالاندهال والخوف لا يبدي كلمة كما لو كان الانتقام الالهي قد تمثل امامهُ بشخص امهِ

فكررت اورزيل قولها الرحمة . . الرحمة

قالت السيدة سيشرين وهل رحمتني انت عندما قلت لك اشفقي على ولدي

اجابت اني نادمة . . نادمة من صميم فؤادي

قالت ان هذه الندامة لا تفيد شيئًا لانها جاءت بعد اوانها

فصاحت اورزيل سامحيني . . بربك سامحيني . . لان ابنك ومتيلدة سامحاني

اجابت ما من سماح للفاسقة

فصاحت آه يا الهي

قالت ما من سماح للجاحدة

فتمتمت اورزيل الرحمة

قالت ما من سماح للمنتحرة

فصاحت ابنة عمي وقد سقطت بلا حراك على مقعدها اه يا الهي اني ملعونة

وكان الموسيو سيشرين قد تغلب وقتئذٍ على الجمود الذي اصابهُ في اول الامر فصاح بصوت عظيم طافح بالغيظ يا امي . . يا امي انك تعذبين هذه الامرأة . . والله سبحانهُ وتعالى سيشفق عليها

فصاحت وهل نسيت ايها الاحمق كم عذبتك وعذبتني

قال ولكنها نادمة يا امي . . ولكنها نادمة

اجابت انها خائفة من القصاص الماثل الذي استحقتهُ باثامها . . ومن اجل هذا اظهرت الندامة

قال فهي اذن تمثل رواية . . تمثل رواية . . اليس كذلك يا امي

اجابت نعم ان هذا النوع من تبكيت الضمير الباطل انما هو رواية كفرية تمثل امام القبر الذي ينتظرها

ثم وجهت الخطاب لنحو اورزيل وهي بغيظ متزايد وقالت انك ندمت منذ بضع ساعات خوفًا من القصاص الابدي الماثل وهذا المسكين بقي ثلاث سنوات معتزلاً عن الناس بسببك يواصل ذرف الدموع الممتزجة بالدماء . . ندمت يومًا واحدًا . . وانا التي ليس لها خلافهُ . . انا التي لا نعيش الا لهُ بقيت ثلاث سنوات انظر اوجاعهُ واقاسمهُ عذابهُ لان الام المسكينة تقاسي جميع الاوجاع التي لا تستطيع ان تشفي ولدها منها فهل يمكن والحالة هذه ان تنسى كل هذه التالمات لانك جئت تطلبين الرحمة ثم سالت ماذا . . البعض يعيشون بالافراح العالمية والمسرات الفسقية والبعض الاخر يعيشون بالدموع والياس والوحدة وحيث ان المخلوقة الدنية التي سببت كل هذه الشرور جحدت الماضي الذي يخيفها يتساوي الذابحون والمذبحون امام الخالق . لا . . لا . . ابدًا . . ابدًا . . ما من رحمة لك على الارض وما من رحمة لك في السماء . .

واذ ذاك حاول الموسيو سيشرين الجواب فقبضت اورزيل على يده والقت راسها بعناء لجهة حماتها وقالت واسفي ياسيدتي ما الذي استطيعهُ يا ترى خلاف الندامة . . هل اقدر ان اتغلب على مخاوفي وهل اذنبت يا الهي لاني اردت قبل موتي ان استسمح من اسات اليهم . . فما الذي تقدر عليهِ يا ترى مخلوقة تعيسة اهملها الجميع على الارض وكل شيء يتهددها في العالم

الاتي . . خلاف تقديم كل ما يسعها تقديمة وهو تبكيت ضميرها الصادق . . لقد اسأت كثيرًا اليك ياسيدتي والى ابنك احسن الناس والى متيلدة التي كانت لي بمقام الشقيقة وحياتي الاثيمة انتهت بالاثم ايضًا . . وقد لعنت منك . . وسوف يعلم ابي موتي بلا اسف و يقول عني العالم اني قصصت بعدل

فصاحت السيدة سيشرين بصوت خشن . . نعم . . نعم . . قصصت بعدل

قالت اورزيل لم اقل هذا على سبيل الشكوى ولكن افكري ياسيدتي اني في حال الصغر دفعت الى امرأة من شر النساء . . بربك لا تنسي ان هذه الامرأة نشرت فيّ اثناء طفوليتي وصبوتي اردأ الاميال وهي البغض والغيرة والرياء

اجابت السيدة سيشرين ان ابنة عمك ربتها ايضًا هذه الامرأة اللعينة . . . فقابلي بين حياتك وحياتها

فلم تدع لي اورزيل فرصة للتكلم بل بادرت الى الجواب بتان وكان زوجها صاغيًا اليها بنوع من العبادة المولهة فقالت ان فطرتي كانت رديئة بقدر ما فطرة متيلدة صالحة ولهذا كنت في حاجة لامثلة شريفة وتعاليم صارمة ولربما يكون الباعث على اثامي تربيتي المشومة . . لاني اشعر انه كان من الممكن ان اكون خيرًا مما كنت وعند هذه الكلمات القت عليّ نظرًا حزينًا معنويًا . . ثم عادت الى الحديث فقالت اه لو كان ممكني ان اعيش لما اقتصرت للتعويض عن الشرور التي اجرتها على الندامة الباطلة . . ولكن مضي الاوان . . مضى الاوان . . ولا ريب ياسيدتي ان الله اراد ان ينهي حياتي الاثيمة بموت اثيم . . وما من احد يصلي من اجلي بعد وفاتي الا الاثنان الذين اساءت اليهما اكثر من الجميع في هذا العالم . . .

وظهر لنا وقتئذٍ ان وجه السيدة سيشرين فقد شيئًا من مظاهر قساوته فبدلاً من ان تلقي على اورزيل كالعادة نظرًا غضوبًا تاملتها برهة باصغاء خشن . . ولا ريب انها تاثرت رغمًا عنها لمشهد هذه الامرأة التعيسة التي فارقتها في ريعان الصبوة والجمال ومنتهى الجسارة والافتخار ثم وجدتها على هذه الحال تعاني مرارة النزع الهائل

ولم تستطع اورزيل احتمال لحظ حماتها النافذ وكانت تشخص اليها وهي مداومة الوقوف بسكوت عند مخدتها فقبضت على يد زوجها وقد علا صوتها بالبكاء والنحيب وقالت بصوت ضعيف ان معيشتي واثامي قد اوجبت احيانًا حصول البرودة بينك وبين امك . . وهذا الذي يعذب ضميري كثيرًا فبحياتك بحقك . . ارحني من هذا العذاب ان تعاستي تقل عند ذهابي من هذا العالم اذا علمت بحصولكما على مثل هذه التعزية . . وحينئذٍ لا يبعد ان يتحرك قلب امك بقليل من الشفقة لدى رجوعك اليها صالحًا حنونًا كما كنت على الدوام قبل ان تعرفني وذلك عند

التفكر بي انا الامرأة التي منعت عنها البركة والمسامحة لا ريب ان ساعتي الاخيرة كانت اقل عذابًا من الساعة الحاضرة لو تنازلت الى مباركتي بيديها المحترمتين . . فعدني ياسيدي هذا الوعد المقدس في هذه الساعة الرهيبة . . بربك عدني

فصاح الموسيو سيشرين فاقدًا صوابهُ من شدة الالم احلف لك على ذلك . . احلف لك على ذلك

والحال ظهر على وجه السيدة سيشرين شيء من اثار الشفقة وصاحت فجأة ان هذه التعيسه لا يمكن ان تموت بلا كاهن وبلا صلوة

فاجابت اورزيل بصوت منخفض مرتعش ان الكنيسة ترفض من احضانها المنتحرين ولهذا لم اتجاسر على طلب كاهن

وعند ذلك جثت السيدة سيشرين تنان على ركبتيها بجانب كنتها وجرى على خديها المجعدين دمعتان ثم ضمت يديها الى صدرها وقالت اه يا الهي . . اه يا الهي ان ندامتها تعادل اثامها . . ما عاد لي قوة على البغض فاغفر لها يا الهي كما غفرت لها

فصاح ابن عمي اه يا امي . . اه يا امي . . احلف لك ان حياتي . . حياتي بكليتها . . . ولما لم يقدر على اتمام العبارة ارتمى على يدي امهِ يقبلها ويبللها بدموعهِ

فاشرق وجه اورزيل لدقيقة بانوار الفرح والدهشة وصاحت اه يا الهي انك بلا ريب ستشفق عليَّ لانها غفرت لي

قالت اني اباركك ايضًا واصلي من اجلك ايتها الامرأة المسكينة التعيسة لانهم اضاعوك . . نعم اضاعوك وقد صدقت ان قلبك كان اهلاً لان يثمر ثمرًا صالحًا لو لم يتسلط عليهِ من يفسدهُ في صغره ثم ضمت السيدة سيشرين راس ابنة عمي بين يديها وقبلت جبينها

قالت اورزيل اسمحي لي للمرة الاولى والاخيرة ان ادعوك امي لان هذه الكلمة في مثل هذه الساعة تكون عذبة على شفتي والذي اراه انها تساعدني على تخفيض مرارتي في حال الموت

فصاحت السيدة سيشرين باضطراب عميق نعم انا امك . . انا امك لقد تمزق فوادي اخيرًا ولا ريب اني تظاهرت طويلاً بالصم عن توسلاتك . . وكان من اللازم ان اعاملك كابنتي . . ولا اسد في وجهك طريق السلام بمثل هذه الصرامة الخشنة

قالت اورزيل اه يا امي . . لقد انقذت نفسي من الياس في ساعتي الاخيرة . . اه ياامي اني اترك لك ولدك جديرًا بحنوك

فصاح الموسيو سيشرين بيمين الله اني اقسم حياتي . . حياتي بكليتها بين تذكارك وتعبدي لامي . . لكن الله سبحانهُ وتعالى لا يسمح الان بموتك وسيمهلك الى ان تصلحي هفواتك

وتجعلني سعيداً ولا ريب انهُ يشفق عليَّ انا لاني تحملت كثيرًا وعلى امي التي توجعت كثيرًا ايضًا ولا يريد ان تموتي بعد ما صرت ابنة لها وصفحت لك . .

وكانت عزائم اورزيل قد وهنت ولا سيا بعد هذا الاضطراب فقالت بصوت خائر اريد يا امي . . ان اسند . . راسي على . . . احضانك فانحنت السيدة سيشرين على المقعد ثم رفعت قليلاً اكتاف اورزيل وضمتها بين ذراعيها

وعند ذلك التفتت اورزيل الى زوجها ثم اليَّ وقالت يدك ياصديقي . . يدك يامثيلدة ولكنها واسفي كانت قد تجلدت ولم يعد ليدها المتلاشية قوة للشد على يدي ثم استرخت تدريجيًا وقالت استودعكم الله الان والى الابد . . استودعكم ثم تمتمت ياامي يامتيلدة ياصديقي اصفحوا عن سيئاتي وصلوا من اجلي

فصاحت السيدة سيشرين بصوت رهيب وقد وضعت يديها المحترمتين على جبهة اورزيل يا ابنتي . . يا ابنتي اني اباركك

وما اتمت هذه العبارة الا وقد فارقت اورزيل الحياة فاستولى على الموسيو سيشرين نوبات عظيمة من اليأس الجنوني ثم فقد حواسهُ وانحطت عزيمتهُ انحطاطًا تامًا وظهر لنا كانهُ لا ينظر ولا يسمع فكان يتصرف بلا وعي بدون ان يلفظ كلمة

اما انا فساعدت السيدة سيشرين بتقديم الواجب الاخير من الصلاة على اورزيل فقضينا سوية الليل ونحن نصلي بجانب جثتها وكان ابو اورزيل قد رفض مشاهدتها من حينما فارقت زوجها وسافر منذ زمن طويل للتسوح في المانيا

وكنت لا اريد مخافة الافتضاح ان يذيع خبر هذا الموت المشوم ولا اعلم لمن اتقدم لاجراء المعاملات اللازمة للميت فرجوت الدكتور جيرارد وكنت اثق باستقامتهِ وحرصهِ على كتمان السر ان يتكلف بهذه المعاملة المحزنة ثم حرقت حسب وصية اورزيل الاوراق التي وجدتها في خزانتها

ولقد ظهر لي من مظاهر الغلاف انهُ يحتوي على اوراق الدفتر الذي كتبت عليهِ ابنة عمي بعض تفاصيل حياتها وكان الموسيو ليكورتو قد ارسل لي عنهُ نسخة ولا ريب انهُ حصل عليها بواسطة خادمة غرفتها ولا اعلم هل تركت هذه الخادمة المستاجرة من ليكورتو اورزيل قبل شربها للسم او بعده

ولحسن حظ الموسيو سيشرين بقي غائبًا عن الصواب لا يشعر بشيء من الحاصل حولهُ فقادتهُ امهُ الى غرفة اورزيل حيثما جلس على فراشها بايدٍ مشبكة على صدره واعين شاخصة وبقي هكذا سكوتًا وبلا حركة مدة طويلة ومع هذا كان ياتي احيانًا ونحن نصلي ويجثو مثلنا

بجانب الجثة والذي يظهر انهُ كان يقتدي بنا بلا وعي بدون ان يفهم شيئًا مما يفعلهُ وهو بنظر تائه ينقلهُ من مكان الى اخر في غرفتها ولا يلفظ كلمة وعند الصباح اثر فيهِ كثيرًا التعب والنعس فسقط على مقعد ونام

وكانت الكنيسة قد استعملت حقوقها (ولربما تكون افرطت باستعمال هذه الحقوق) ورفضت قبول جثة اورزيل فسير بها راسًا الى المقبرة ولم ارد مبارحة هذا المنزل المشوم قبل ان يتم كل شيء . فابدًا . ابدًا لا انسى مدى حياتي ذلك المشهد الذي يمزق الاحشاء وكان الوقت اذ ذاك اواسط الخريف في صباح يوم مظلم محجب بالضباب فذهبنا للمرة الاخيرة انا والسيدة سيشرين وصلينا بقرب ذلك النعش الحقير الموضوع في فناء ارضي مظلم رطب يطل على الجنينة المهملة ولم يكن هنالك قسيس ولا ماء مقدس ولا شموع ولا شيء على الاطلاق تستتر بهِ عربة ذلك الموت المرهب اما في الخارج فكان سكوت عميق يكدره صفير الهواء المتلاعب بالاشجار وكانت اوراقها المصفرة تتساقط بصدمات الهواء عند اقدامنا

فوا اسفي اني بالرغم عن وقار ذلك المشهد المحزن لم يسعني الامتناع عن التفكر بالمرة الاخيرة التي نظرت فيها اورزيل وكانت اذ ذاك في حفلة عظيمة مشرقة بانوار الشبيبة والجمال تسبي بمحاسن العقل والظرف والبهاء وهي محاطة بالمدائح . . . .

. . . .

وكنت قد ارسلت وراء بلوندو فاخبرنا ان عربة الجنازة وصلت وعند ذلك ارتفع صوتي بالبكاء فقبلت بخشوع النعش ودخلت مع السيدة سيشرين وبلوندو الى داخل المسكن حيثما سمعنا من هنالك وقع اقدام ثم اصواتًا مرتفعة سكتت برهة ثم سيرًا بطيئًا متوازنًا ثم دوي عربة تسير بتمهل واذ ذاك اردت ان اتزود نظرة الوداع الاخيرة من بقايا اورزيل فرفعت قرنة احدى الستائر واذا عربة الميت تبتعد وحدها . . وحدها . . . بلا رفيق على الاطلاق ثم اختفت عن اعيني وانتهى كل شيء

وحصل بعد ذلك ساعة مخيفة لان صوت مسير العربة الخشن سرى صداهُ الى داخل احشاء الموسيو سيشرين فاستفاق من دهشتهِ ووجه الى ما حولهِ نظرًا مضطربًا ولا ريب انهُ تذكر وقتئذٍ الحقيقة المخيفة فسقط بين ذراعي امهِ وارسل صوتًا حزينًا . . . .

. . . .

فوا اسفاه انهُ لم يوجد من الكهنة من يصلي صلاة اخيرة على تلك الحفرة التي توارت ضمنها جثة هذه المسكينة

مسكينة انت يا اورزيل . . مسكينة انت يا من ذهبت فريسة لشرور السيدة دي ماران

الجهنمية التي افسدت فطرتها القديرة النشيطة وجعلتها الة لشفاء حقدها مني .. نعم مسكينة لانها بالرغم عن ضلالها كانت حاصلة على اميال شريفة كريمة ان النفس التي تشعر بمثل هذا الحب الشريف لايمكن ان يستولي عليها الفساد الى الابد ولا ريب ان اورزبل كانت جديرة بذاتها ونشاطها العادبين ان تسير في ذلك الطريق الشريف السامي وان تصرف الى الخير جميع محاسن ظرفها الجذاب ان هذه الامرأة المسكينة تكلمت بالحق حيث لا يوجد الا الارادة الالهية المتفهمة التي يمكن ان ترينا مثل هذا المستقبل الساطع ونحن على حافة القبر .

. . . .

. . وقبل الرجوع الى مسكني في ذلك اليوم ذهبت الى سين طومار داكين وادى دخولي الى الكنيسة وجدت ثم كاهنًا فرجوته ان يصلي قداسًا عن نفس اورزبل ثم حضرت القداس المذكور وعند خروجي ملئت اعيني بالدموع لدى مشاهدة جرن الماء المقدس الذي كنت اتبرك بهِ مع اورزبل ايام الصبوة لانها كانت قد تناولت معي القربان للمرة الاولى في هذه الكنيسة

الفصل الخامس والسبعون

التاسفات

ثم عاد الموسيو سيشرين مع امهِ الى روفري وقبل سفرهما حضرا لمشاهدتي وكان ابن عمي لا يزال مستغرقًا بالحزن والياس فما تكلم الا قليلاً وعند مبارحتي قال لي بصوت منخفض وهيأة قلقة وحشية كل الامل ان لا يقتل زوجك قبل وفاة امي اه ما اطول ايام الانتظار على من يرغب الانتقام

ثم ذهب قبل ان تمكني الفرصة من مجاوبتهِ وتابط ذراع السيدة سيشرين وكان كل بغضهِ قد تحول لنحو زوجي ولا يمكن ان يحصل خلاف ذلك لان اورزبل حضرت للحسنة في زوجي في باريس على مشهد من جميع الناس ومن الموسيو سيشرين نفسهِ وكان الموسيو دي لانكراي هو المسبب الحقيقي لضياع ابنة عمي

وقد سرح عن بالي القول ان زوجي كان متغيبًا عن باريس لبضعة ايام ولم يعد اليها الا

بعد وفاة اورزيل بيومين لكنت لا اعلم ماذا تكون افكاره من نحوي متى علم بهذه الوفاة القاسية . . الا انه لا يمكنني مساواته شيء للتخلص من سلطانه لان رجوعي الاختياري اليه قيدني بسلاسل لا تكسر ولكن آماله الاخيرة زالت بانتحار اورزيل ولم يعد له من صالح بدوام المحافظة عليّ وفضلاً عن هذا فاني اعتمدت على وسيلة كنت اظنها مضمونة النجاح للحصول على حريتي

وبعد ذلك الحادث المشؤم بيومين دخل علي صباحًا الموسيو دي لانكراي وقال لي لا ريب انك مسرورة وقد اتيتم لك

قلت ولماذا ياسيدي

قال الم تمت اورزيل دونك الالدّ ان هذا اليوم ولا ريب من اسر الايام بالنظر اليك

قلت اني اغمضت اعينها بخشوع ياسيدي ودامتها الحارة استثني كل شيء

فتبسم بمرارة وقال حقًا ان الدنو عن الاساءة من صفات الحلم والفضيلة وقد اعطتك ابنة عمك من الاسباب ما تساعدك على اظهار شرف النفس والعظمة

فبقيت مبهوتة مرتعدة لدى استماع زوجي يتكلم بمثل هذا الحديث عن الامرأة التي ضحى من اجلها كل شيء وكان وجهه بعيدًا عن التاثر بملامح اليأس وهو بالعكس يشف عن نوع من الارتضاء المقرون بالعبوسة

ولم يكن هذا هو نهاية افعاله الموجبة للتعجب لان القلب الانساني هاوية مخيفة فانه تمتى برهة بسكوت ثم استتبع الحديث اولاً بهزء جارح استحال اخيرًا الى لهجة شديدة من الغيظ فقال ماتت في الخامسة والعشرين من العمر . . ماتت في ريعان الشبيبة والجمال فلا ريب والحالة هذه انه انتقم لي ايضًا

فصحت ما هذا الكلام المرعب . انها لم تعاملني بخلاف الشر ومع هذا بكيتها . . فردد هذه الكلمة بكيتها . ان هذا البكاء يشف عن شدة تاثرك وقوة احساساتك ثم يستدل منه فضلاً عن ذلك ان الاحزان التي تظاهرت بها لا ارضي عنك وحبي لغيرك كان مبالغًا فيها

فصحت اه ياسيدي

قال مستتبعًا حديثه اما انا وليس لي كرامة اخلاقك ولم انسَ بعد مرارة الاوجاع التي سببتها لي هذه الامرأة الجهنمية فاقول ان اورزيل ماتت . . واظهر الفرح بموتها لاني تخلصت بذلك من شيطاني المضل فما عدت احصل عليها لا انا ولا غيري ولا اتعذب بمرارة الغيرة والاغرب اني كنت لا اتجاسر على اظهارها لحوفي الشديد من تهكمات هذه الامرأة بسلطانها . . نعم ما عدت اتعذب بهذا الفكر المستمر المولم المحرق وهو اين هي وماذا تعمل ولا عدت اصاب بعاقيل اليأس الجنونية التي كانت تعتريني منذ سقوطي بالنقر عندما كنت اقول لنفسي . .

لربما تكون الان مع مزاحم من اصحاب الثروة والسعادة وهي في وسط البذخ والمسرات تضحك من ابله انحدر من اجلها الى الفقر والشقاء ثم صاح ماتت اورزيل وتخلصت من مشاغل مستنكرة مستمرة مستصعبة وجدت لمفاهرة حياتي لاني كنت احب هذه الامراة كالمقامرة . . نعم كالمقامرة . . فكانت لي ينبوعًا لا ينضب من الاضطرابات الجارحة المشوشة كالخوف والغيظ والبغض والامل والكبرياء والنهالل بالفوز بعد ايام كثيرة من الانتظار والامل والخيبة لقد قلت لك انها كالمقامرة بالنظر اليَّ وكما يخاطر بالذهب على ورقة كنت اخاطر بمبالغ جسيمة على بسمة من تبسماتها وما كانت الافراح الناشئة عن المكاسب النادرة لتخفض عني بعض عذابات الخسارة وتهيجاتها . . ماتت اورزيل فكسرت قيودي وصار يمكنني ان آسف يومًا لا على صفاتها بل على محاسنها الغرارة الجهنمية . . ماتت اورزيل . . نعم ماتت . . ولم يشعر فؤادي بمثل هذه الراحة منذ سنوات طويلة فقد زالت اذن تلك القوة الخفية التي كانت تثقل عليَّ وتسحقني وتوهن عزائمي وتجعلني ضعيفًا جبانًا ابله . . ماتت اورزيل فصرت حرًّا . . ولم اعد ذلك العبد المطيع البليد لتلك الارادة الحديدية التي لم يكن لي قوة ولا اقتدار على مقاومتها ولا لديَّ من الضعف الخفي الممقوت ما يحملني على التمرمر . . ماتت اورزيل وانطفأ الى الابد ذلك النظر الفهار الذي كان يسحرني ولا يدع لي الا هذه الخاصية وهي ان اتم وانا في حال الاضطراب والرعشة رغائب هذه الامرأة الجنونية . . ماتت . . فما عدت اسمع ذلك الصوت المتمرد الساخر لان هذه المخلوقة كانت تمثل السخرية والاهانة وعندما كانت تدمي بتهكماتها جروح عزة نفسي وكبريائي وابقى وحدي لاعبًا من تألمات هذا العذاب كان يتراءى لي كاني اسمع من بعيد صوت ضحكها الوقح مجيبًا على لعناتي . . . لقد ماتت . . . ماتت اخيرًا . . . فليتبارك اسم الرب الذي ارسلها الى الجحيم لانها دفعت الناس الى الاعتقاد بالله بينما كانت تعمل للاعتقاد بالشيطان!

وما قدرت وقتئذٍ على ايجاد كلمة اقولها ثم تزايد خوفي بمظاهر الفرح الخشن الوحشي الذي تظاهر به الموسيو دي لانكراي وهكذا كانت نهاية حبه المشوم والتاسفات التي تركتها من بعدها هذه الامرأة التعيسة

وبقي الموسيو دي لانكراي برهة يمشي بهياج ثم وقف امامي وسال من هو ذلك الغني السعيد . . او السعيد الغني الذي كان عائشًا معها عند موتها

قلت انها ماتت فقيرة ومتروكة من الجميع ياسيدي

اجاب هي احبت المعيشة بالفقر لانها عندما تركتني كانت لا تنقصني الدراهم ثم سال نفسهُ قائلاً . . لماذا ياترى كتبت اليَّ كثيرًا منذ فراقنا تعدني بمقابلتها بدون ان تفي بوعدها وعند

ذلك وجه خطابه اليّ مثبسماً باحتقار وقال انك ولا ريب تريدين التظاهر بالمسامحة والكرامة من نحو اورزيل حتى تبقي محافظة على منزلتك كامرأة عظيمة سامية فاعلمي الان لزيادة اهمية هذه المنزلة ان اورزيل تبغضك شديداً واني ما امرتك بالرجوع اليّ الا اجابة لالحاحاتها

قلت فاذن صرت آمل وقد زالت الاسباب التي دفعتك الى هذا الاحتياط ان تسمح لي بالمعيشة وحدي . . . حيث كان لديك اولاً من البواعث ما يحملك على ابقائي بجانبك اما الان . . .

اجاب اما الان فلديّ سبب اخر لابقائك عندي ثم اصحب هذه الكلمات بشيء من تبسمات الشر فظننت اني فهمت المراد بحديثه لانه كان قد خاطبني مراراً عديدة عن حلاي . . ومع اعتمادي تمام الاعتماد على التخلي له عن هذه الحلى اذا اخلى سبيلي بضمانات كافية اي بافتراق شرعي رايت من المناسب الانتظار الى ان يفاتحني هو بهذا الطلب وان لا ابادئه بمثل هذا الحديث فقلت لا اعلم ياسيدى لاي سبب تريد ابقائي عندك . الم تزل منذ هنيهة وانت تشكو من اورزيل ان حبها جعلك بقساوة لا توصف بالنظر اليّ . . لا اريد ياسيدي ملامتك بهذا الحديث لان هذا هو غاية مرادي ولا اظنك بعد ذلك تضع موانع جديدة في سبيل افتراقنا

قال اخطأتِ ياسيدتي اني بالعكس ارفض اطلاق سراحك بسبب عدم اهتمامي بك . . فهمت بسبب عدم اهتمامي بك حتى لا اقول اكثر من ذلك

قلت حتى لا تقول بسبب حقدك ضدي

اجاب نعم حتى لا اقول بسبب حقدي لك . . لاني ابغضك ولا ريب انك تتعجبين من ذلك . . ولكن اسمعي لي فتعلمي من انا ومن انت بالنظر الى بعضنا ولا تعودي الى مثل هذه المطالب المضحكة والامال الوهمية ثم قال فلنلحص الحوادث انك جئتني بثروة عظيمة وكنت ملآكاً من اللطف والصبر والفضيلة وقد اقترنت منك . . بلا حب . . اقول هذا حيث من اللازم ان اخاطبك الان بحرية

قلت انك منذ زمن طويل لم تعد تخفي شيئاً . . ولكن ما الفائدة ياترى . . فقاطع حديثي وقال سوف تعرفين كل شيء اني اقترنت منك والحالة هذه بلا حب وكنت من اصحاب الثروات العظيمة فلعبت دوري باختيار الحديث الذي يناسب اختياره في مثل هذه الظروف فصدقتني حيث كان يسرك تصديقي وكنت جميلة بديعة فدام لنا شهر العسل ما امكن دوامه . . وبعد انقضاء الحب . . بقي فيّ لنحوك نوع من الشفقة العذبة . . لانك كنت طايعة خضوعاً

صبورًا تبكين لاقل الاشياء . . نعم ان هذا لم يكن مسرًا ولكنهُ يجنن القلوب وكان يوثر في احيانًا بشدة الى حد ان خاطرت بكل شيء اثناء ملازمة ليكورتو لك لانقاذك من هذا الصديق الخائن . . ثم بعد ذلك عندما اعترتك الغيرة ضد اورزيل كانت حالتك التي تستدعي الاهتمام ودموعك وحزنك العميق وحبك الذي لا يكل كل هذا يحملني على الشفقة عليك . . وقد نظرت كيف اني رجعت اليك احيانًا بقلب طيب ونية صافية ومقاصد كريمة ولكنك حينئذٍ كنت لا تزالين غنية متواضعة حنونة محبة

قلت انك فعلت كل شيء لملاشاة ذلك الغنى والحب

اجاب هذا ما اريد الوصول اليهِ انهُ لم يعد لك شيء من الغنى وقد خلا قلبك من الحب وهكذا تغيرت الايام ولم يبقَ لك شيء ولا يهمني سواء كان الحق بذلك عليك او عليَّ ولكن الحقيقي المهم انك افتقرت ولم تفتقري فقط بل ما دمت تعيبينني ايضًا وصرت تحبين رجلاً غيري او بالحري صرت تبغضينني وجيشت ضدي جميع قواك وامكانك فانت الآن واحالة هذه بالنظر اليَّ الا امرأة فقيرة مخاصمة مرتاب بعفتها على الاقل نعم ان جمالك باقٍ لك ولكن لا احسبهُ شيئًا على الاطلاق فاسالك الآن ياسيدتي ونحن على هذه الحال ما الذي تنتظرينهُ مني اذا اعتبرنا هذه الحقيقة وهي ان الناس تقدر بقدر فيمتها

قلت لا ريب انك منطقي ياسيدي وسامح ملك انا اردت ايضاح حالتك بالنظر اليَّ . . اني لو بقيت فقيرة خاضعة مخلصة لاقل ارادة منك لربما كنت اقتصرت على التظاهر بعدم الاهتمام من نحوي ولكن الصدف اطلعتني الى اعمالك السفلة وخولتني الحق الصريح باحتقارك علانية ولهذا ناب الحقد في قلبك مناب عدم الاهتمام

قال احسنت كثيرًا بهذا التحليل رحقًا لو تكلمت انا لما جئت باحسن منهُ . . نعم انك وان افتقرت كان من المحتمل ان ابقى مهتماً بك ولربما شفوقًا عليك ولا يمكن ابدًا ان اشعر من نحوك بخلاف عدم الاهتمام ولكن كان من اللازم المشترط لحصول ذلك ان تبقي على الدوام عاشقة متصبرة

قلت انت كريم ياسيدي

اجاب لست كريمًا ولكني باطوار غريبة نعم انى لا احبك حبًا ولكن يسرني ان اراني معبودًا منك ان حبك للمسيو دي وشكيم سواء كان عنيفًا او لا ثم اختيارك لهذا الرجل الذي ابغضهُ دون غيره من الناس جرحا كبريائي جرحًا بليغًا لا يقبل الشفاء وقد تعاظم جرحي الى حد ان اهاج مني احساسات البغض الشديد لك . . وسوف تقولين لي ان المسيو دي وشكيم سخر منك باحتقار . . ولنا من زواجهِ دليل على ذلك الآن هذا لا يشفي اذ ما زال ولايزال

لي معك حساب هائل اريد تسويتهُ ياسيدتي

قلت اشكرك على هذه المسارة ياسيدي اليس مرادك بهذا الحديث ان جميع الاشياء على علاتها يجب ان اتوقع صدورها منك

اجاب تقريبًا ياسيدتي

قلت ما دام الحال على هذا المنوال فلا باس من طرح المسائل الدقيقة للبحث بها بصراحة انك بعت بمقتضى حقوقك جميع اثاث المقصورة التي قطنت بها عند السيدة دي ريشفيل مع الامتعة الفضية والرسوم والذي اظنهُ انك بددت الثمن وقد تيسرت لي المعيشة الى الان من بعض دراهم وفرتها ولكن هذه الدراهم نفذت ايضًا فهل يمكنني والحالة هذه ياسيدي ان اطلع على مقاصدك لجهة المستقبل

اجاب لا ياسيدتي

قلت وهل انت مصر على دوام المحافظة عليّ

اجاب نعم ياسيدتي

قلت بالرغم عن وفاة اورزيل

اجاب بالرغم عن وفاة اورزيل

قلت وماذا تكون وسائط معيشتي

اجاب سوف اتدبر بها

قلت سوف تتدبر بها . . . وكيف يكون هذا التدبر ياسيدي

فصاح ماذا يهمك ذلك

قلت يهمني كثيرًا حيث يوجد من وسائط العيش ما لا اشترك بهِ على الاطلاق وهي الوسائط التي مصدرها الدناءة

قال . . . لا ريب انك مجنونة حتى كلمتني بمثل هذا الحديث الان . .

قلت لست مجنونة ياسيدي واراني مدفوعة الى مخاطبتك بما خاطبتك بهِ قبلاً عند مواجهتنا الاولى في مقصورتي

قال وما الفائدة من هذه المخاطبة اذا كانت تكرار ما قلتهِ سابقًا

قلت اريد على الاقل ان احاول التخلص من هذا القيد الهائل الذي يثقل عليّ كثيرًا . . انك سالتني مرارًا عديدة عن حلاي

اجاب نعم ياسيدتي

قلت كم تساوي هذه الحلى

اجاب نحو خمسين الف ريال

قلت حسن ان نصف هذا المبلغ هو لك اذا قبلت بالمصادقة على انفصالي عنك بطريقة قانونية . . والنصف الباقي يكفيني . .

قال وانا ايضًا اكرر جوابي السابق واقول اني لا اريد نصف قيمة حلالك وغاية مرادي ان تبقي معي

قلت لا اقدر ياسيدي ان اعطيك اكثر من هذا المبلغ . . . حيث يلزمني ان اعيش انا ايضًا . . . .

قال لو عرضت عليّ الخمسين الف ريال ارفضتها

وعند ذلك خطر على تصوراتي فكر هائل فصحت انك حاصل مثلي ياسيدي على الف برهان يويد كون الموسيو ليكورتو في باريس

قال وبعدهُ ياسيدتي

قلت لا يخفاني ان لديك اسبابًا كثيرة تحملك على بغض هذا الرجل . . ولكنك تحب المال بقدر ما تبغضني ياسيدي

قال وبعده ياسيدتي

قلت ان هذا الرجل كثير الثروة ياسيدي . . وهو مثلك يبغضني ولهُ معي حساب هائل يريد تسويتهُ

قال وبعدهُ ياسيدتي

قلت لا يمكن ان ترفض المال الذي عرضتهُ عليك مع ما انت عليهِ من الفقر الا لانك حاصل على امال اخرى

قال وبعدهُ ياسيدتي

وكانت قد زهقت روحي بمناعيل الغيظ والخوف وهذه البرودة الهائلة فصحت انك لا تتاخر عن معاملتي بجميع انواع الفظائع اذا دفع لك الموسيو ليكورتو للمحافظة عليّ بجانبك ازيد مما استطيع دفعهُ للتخلص منك

فالقى عليّ الموسيو دي لانكراي نظرًا قاسيًا مهلاً بدون ان يظهر على وجههِ شيء من مظاهر الاضطراب وقال لا يفوتك شيء من الفطنة ياسيدتي ولهذا اشفق عليك لان هذه الموهبة من المواهب المشومة حيث تعلمين بها قرب انقضاض المصائب ولا تستطيعين شيئًا لدفعها فاعلمي اذن ان لربما تكون مخاوفك في محلها ولكن ما الذي تقدرين على عملهِ . . . وحتى اخبرك بمعرفة الخضوع المطلق المتوجب عليك اقول افترضي ان عربة سفر وصلت غدًا

صباحًا الى بابك واني قدمت لك ذراعي واصعدتك الى العربة وقد امرتك ان تتركي هنا بلوندو

قلت حينئذٍ ارفض السفر ياسيدي ولا اقبل مطلقًا بالانفصال عن امرأة اخبرت امانتها

اجاب نعم ترفضين . . ولكن القانون الذي الزمك ان تتبعيني الى هنا في شارع بوركوني يلزمك بالمسير معي الى حيثما اريد . . ولنعد الى اتمام الافتراض انا ننطلق سوية في تلك العربة ومتى قطعنا نحو خمس او ست محطات نلتقي برجل من اعظم اصدقائي او اعدائي القدماء ولا يهمني ذلك ولكن المهم اني اريد استصحابه معي في تلك السفرة فهل لك ما تقولينه وهل سمعت ان القانون يحدد عدد اصحابي او يخصهم بجنس من الناس دون غيره او يحرم عليّ العفو عن الاساءة . اقول لك ذلك على فرض كون الرجل المذكور هو ليكورتو . . اراك مرتعبة وليس لك ما تقولينه ولا عجب فلنعد الى الافتراض . . انا نبارح فرنسا ونذهب للسكنى في قرية بديعة من فلورنسا تخص ليكورتو . . هل لك اعتراض على ذلك ايضًا . . لا لعمري . . لاني استصوبت المعيشة في بلاد اجنبية ومن اللازم ان تتبعيني . . دائمًا تتبعيني . . والقانون لا يعتد باميالك . . ارائيت كيف انك مجبورة عند التكلم عن ارادتك اذ لا حق لك باستعمال هذه الارادة ولا يسعك الا الخضوع لارادتي التي يتوقف عليها نصيبك كما دبرت عمتك ثم انظري الى اعمال الصدف ايضًا وكيف ان عمتك عندما شاخت وانهكتها الامراض ولم تعد قادرة على ملاحقتك بقوة كالسابق سعيت ان بكل ما يؤول الى اغضابي ضدك وما اهملت شيئًا لازهاقي . . وقد قالت عني اني احب المال واني افعل كل شيء بشرط الحصول على شيء من الدراهم . فالحق معك ان الاسراف يستلزم ذلك وهذه الرزيلة لا يمكن ان تزول وقد يسرني الان كثيرًا العود الى حياة البذخ المشرقة كما لو كنت مستعدًا بالدخول الى العالم لاني ما زلت مولعًا بحب اللعب والخيل والنساء والرسوم والبذخ بحرارة كاني في الثامنة عشرة من العمر والذي يزيد كثيرًا في هذه الحرارة ان وجدي بابنة عمك كان يمنعني من التمتع باسرافي فكان مثلي بذلك كمن يعد وليمة للاخرين ولا يشترك بها وبالاختصار ان من يتوقف عليه املي للحصول على هذه التمنيات العزيزة ليس في هذه المدينة التي ابغضها وهو لا يشترط عليّ لتحقيق هذه الاحلام بالنظر الى مكارمه التي لا تحد الا ان اصحبك معي اما هذا الرجل الكريم فهو ليكورتو . . ان كل هذا ولا ريب مما يوجب عجبك قليلاً . . تاملي كما تشائين بهذا الحديث واستشيري قضاتك ايضًا فترين انك مجبورة على الخضوع بعناية للمستقبل الذي يحفظه لك النصيب ولو مهما كان . . . واظن انه من المستحيل التصرف معك بحرية اعظم من هذه الحرية وخلاصة القول انه يمكن تحقيق هذه المقاصد المتعلقة بالسفر قريبًا جدًا

. . . ولربما بعد غد . . . وبعد ان استوفى الموسيو دي لانكراي هذا الحديث تركني وحدي وخرج

الفصل السادس والسبعون

القديسة كلير

وكان من هذه الحادثة مع الموسيو دي لانكراي والمخاوف التي نشأت لي عن تهديداته ان اوجبت سقوطي في مرض ولا ريب اني كنت على استعداد لذلك وان اثار المرض كانت موجودة فيَّ لاني كنت اشعر منذ زمن طويل بحمى متمهلة اهملتها لا علاج لما ان الحوادث تزاحمت عليَّ بكثرة وكان مقضياً عليَّ ان اشترك فيها بمزيد النشاط فان جميع قواي تهيجت بحدة منذ مرض اما للمرة الاولى الى حين زواجها ووفاة اورزبل بحيث لم يكن لي وقت للمرض

وزد على ذلك ان ضحيتي كانت عظيمة ولربما جعلتني في عداد المنظور اليهم من الرب ولكنها لم تزدني بذلك الا شدة والمًا . . اما حبي للموسيو دي روشكيم فما فقد شيئاً من قوته . . . وكانت تعزيتي الوحيدة محصورة بالتأكيدات التي ابداها وهي ان هذه الحماسة ستبقى وحيدة في فؤاده ولا بد ان اشعر يوماً عاجلاً كان او آجلاً بتأثيرات هذه الاحزان وقد شعرت وقتئذٍ ان جسمي يتهيأ لمرض عظيم فقلت لبلوندو المسكينة وهي تعجب بشجاعتي لا تفرحي اني اخشى عند نفاذ مشاغل افكاري الشديدة من تأثر جسدي برد التأمل لاني اسندت نفسي الى الان بنشاطي واخاف ان افقد هذه القوة الوهمية دفعة واحدة وما اخطأت بهذا الفكر الا ان الضعف لم يصبني بنهاية قلقي كما توهمت بل بمحادثتي الاخيرة مع الموسيو دي لانكراي

وكان احد تحارير الموسيو ليكورتو يتضمن هذه العبارة انه سيوجد لزوجي اسباباً خطيرة حتى لا يتركني وان المستقبل سيكون مخيفاً لي

وكان الموسيو دي لانكراي وقتئذٍ قد صبصب ماله ولم يعد لديه من سبيل للكسب ولا ريب ان الموسيو ليكورتو يمده بكثير من المال للحصول عليَّ اني لا اجسر على التصريح بجميع مخاوفي عند التأمل بهذا الفكر علماً مني بسفالة الموسيو دي لانكراي وحبه المال وبغضه لي ولا سيما رداءة الموسيو ليكورتو الوحشية اللاحق بي منذ زمن طويل

حبًا بالانتقام

فلا شك والحالة هذه ان هذه المخاوف نشأ عنها نازلة مرضية اخيرة لم اقوَ على مقاومتها فما بارحني الموسيو دي لانكراي الا اصابتني رعشات عصابية شديدة تبعتها حمى حارة في الدماغ فبقيت مدة خمسة عشر يومًا على ما قالت لي بلوندو والطبيب في حالة قريبة من الياس وفي اليوم الثالث من مرضي اختفى الموسيو دي لانكراي بعد اذ ترك لي تحريرًا قال فيهِ بالاختصار ان مرضي غيَّر جميع مقاصده وانهُ ذهب للتسوح في ايطاليا . فما عجبت ولا تكدرت من هذا البرهان الجديد الدال على قساوتهِ وقلة احساسهِ

وكانت بلوندو المسكينة قد حررت الى الدوقة دي ريشفيل تخبرها بظروف مرضي المقلقة فنزلت حالاً هي والموسيو دي روشكيم الى باريس ولم يتصور احدامكان نقلي من مسكني في شارع بوركوني فحضرت الدوقة دي ريشفيل للمعيشة ثم بجانبي ولم تفارقني الا عندما امكنني الذهاب معها لصرف زمان النقه في ماران

وكانت اما في كل يوم تصرف ساعات طويلة بجانبي الى ان تكامل شفائي ولا حاجة للتصريح بمقدار الملاطفات الحنونة التي عوملت بها ولا بمزيد الاخلاص البديع الذي ترجمت بهِ اما عن مقدار امتنانها بالجميل لاعمالي السابقة نحوها

وكانت قد اقترنت الحمى الدماغية التي اصابتني اولاً بحمى خبيثة اقتضى لشفائي منها نحو اربعة شهور فلم استطع السفر الى ماران الا في اواخر الشتاء وبقيت ثم الى اواسط الصيف من سنة ١٨٢٧ وكنت وقتئذٍ قد خلصت من حالة النقه اذا لم اقل شفيت تمام الشفاء ولكني كنت لا ازال مصابة بكثير من الاصفرار والضعف مع زيادة التاثر بالاحساسات العصبية فراى الدكتور جيرارد والحالة هذه ان من الامور التي لا يستغنى عنها على الاطلاق ان اسافر لصرف الخريف والشتاء المقبلين في الجهات الجنوبية من فرنسا وكنت قد رجعت الى ماران بتذكرات كثيرة محزنة لاني تالمت فيهِ كثيرًا وحينما تمالكت صحتي نوعًا حضرت الدوقة دي ريشفيل للسكنى معي ثم تم جاءت اما والموسيو دي روشكيم بعد ذلك وكان من هذه الالتفاتات الحبية ان لطفت مرارة الافكار التي كانت تخطر على ذهني وتقلقني من وقت الى اخر ومع هذا كان يلزمني كثير من الشجاعة والقوة والصبر للتغلب على التاثيرات المشومة التي كانت تصيبني احيانًا رغمًا عني بالنظر الى تعلق الموسيو دي روشكيم الودادي باما والاغرب ان هذا الزواج كان الغاية الوحيدة لجميع رغائبي ولو لم يتم لتصورت كوني من اتعس النساء ولكني كنت لا اقدر لدى التفكر بهِ الا ان اشعر بتاسفات قاسية مرة

فوااسفي ان كثرة الاحزان اضلتني ففقدت ولا ريب مزاياي الاولى السامية الشريفة نعم

ان مظهر سعادة اما والدوقة دي ريشفيل التي اشتغلت من اجلها كثيرًا كان يسرني دائمًا ولكنه كان يفكرني ايضًا بالحياة التعيسة التي وصلت اليها فكان لا يسعني ان امتنع في الغالب عن النظر بارتياب الى نفسي لدى مشاهدة السعداء لا لاحسدهم يا الهي بل لابكي واسفي على شقائي ... نعم على شقائي لان اختفائي وموتي عن اعين الناس لم يلطف حبي ... وكنت لا ازال احب ... احب على الدوام الموسيو دي روشكيم . . . .

. . . .

وكان مرادنا ان نحتفل فيما بيننا في ماران بتذكار القديسة كلير وهو عيد الدوقة دي ريشفيل وذلك في ١٢ آب سنة ١٨٢٧ وسوف تعلم الاسباب التي من اجلها لا يمكن ان انسى ابدًا ذلك التاريخ ولا ذلك اليوم

اني كنت وقتئذٍ في الساعة الحادية عشرة من الصباح وقد اشرقت الشمس مشعشعة انتزه في احد ممرات الجنينة المخضة المودي الى جناح القصر الذي فيهِ غرفة الدوقة دي ريشفيل وهي تتاخر عادة في الرقاد وكنت انتظر ثمه اما حتى نذهب سوية لمعائدة امها ونحمل اليها باقة كبيرة من الورد كنا معتمدين على اقتطافها بايدينا لان الدوقة تحب كثيرًا هذا النوع من الزهور واذا الموسيو دي روشكيم مقبل عليَّ فمددت له يدي وقلت متبسمة ما هذا اليوم الجميل لعيد صديقتنا ثم اريته الزهور التي في يدي وقلت هل باقة اما جميلة كهذه الباقة

اجاب انها اكملت باقتها بعد اذ نثرت حوضًا برمتهِ من الزهور .... حقًا لا يوجد بين مناظر الطبيعة ما هو ابدع من مشاهدتها في هذه الحال في وسط غياض الورد الغارقة بالندى

قلت الامل ان تكون خاطبتها وقتئذٍ بشيء من المشابهات البديعة ولكني راجعت نفسي فجأة وقلت لا لعمري حيث من الظلم ان نشبه حمرة خدودها اللطيفة النضرة بالورد ولا يمكن مشابهتها بخلاف وردة الشاي البنغالية

فنظر اليَّ الموسيو دي روشكيم باهتمام وقال وانت يامتيلدة المسكينة متى يمكن مشابهتك بخلاف زهرة جميلة من الزنبق ومتى يتلون اصفرارك بقليل من الحمرة الزاهرة

قلت ان الموسيو جيرارد له امل كبير بحصولي على تمام الصحة متى اقمت برهة في جنوبي فرنسا وهذا املي انا ايضًا ياصديقي

فتاملني بمزيد الاصغاء ثم قال لي وهو يهز راسهُ هل يمكن ان تكوني انت وحدك تعيسة فيما بيننا .. انت التي لولاها لما حصلنا على هذا الهناء

قلت ما هذا الفكر ياصديقي . . اليس اصفراري بعد مرض طويل من الامور الطبيعية العادية . . .

قال لا يمكن ان توافقي على ذلك يامتيلدة . . ان زوجك يعذبك . . واخباره منقطعة عنك تمام الانقطاع

قلت انهُ معتاد على قلة الكتابة وفضلاً عن هذا فان بوسطة ايطاليا على ما يقال عديمة الانتظام . .

فاستتبع حديثه متنهداً وقال اه يامتيلدة . . اه يامتيلدة . . ان هذه القساوة لا تبرح ابداً عن افكاري كيف امكنهُ ان يتركك وانت على تلك الحال من المرض والخطر . انهُ لا يوجد من الاشغال والمصالح ما يسوغ مثل هذا التصرف

قلت ان المراد بسفره ياصديقي على ما قال لي انما هو الحصول على دين وافر كان قد قطع منهُ الامل وهو في مكان عظيم من الاهمية بالنظر الى مركزنا الحاضر قلت مركزنا لاني بحسب مشوراتك ومشورات الدوقة دي ريشفيل اخفيت عن الموسيو دي لانكراي تملكي لهذه الارض مخافة رجوعهِ الى الاسراف وسوف اعترف لهُ بالحقيقة متى هذبتهُ المصائب فلا عجب اذن من اهتمامهِ بجد في هذه المسالة لانهُ يجهل امتلاكنا لهذه الارض

فهزَّ الموسيو دي روشكيم راسهُ بهيأة عدم التصديق ولا ريب ان كذبي في هذه القضية كان ظاهرًا ولكن ما قدرت وقتئذٍ على تصور خلاف هذه الحجة لسفر الموسيو دي لانكراي ولو تركتهُ يطلع على حقيقة العلائق الكائنة بيني وبين زوجي لتنبهت بذلك شكوكهُ وعرف اخلاصي لاما ولا يخفى اني كنت اريد مجانبة ذلك باي ثمن كان من حينما امتنعت بحكمة عن عزمي الاول المتعلق بالكشف للموسيو روشكيم عن كل شيء

ثم قال الموسيو دي روشكيم متنهداً من اللازم ان اصدقك . . انك تجيبينني على الدوام بامثال هذا الحديث عندما اخاطبك عن الموسيو دي لانكراي ولكن ضميري ينبهني ان تصرفهُ نحوك يتضمن بعض الاسرار . واخشى ان لا تكوني سعيدة . . لا . . لا انت لست سعيدة . . وقد غششت بقلبك الشريف كما غش زوجك بحسن مقاصده ولا يبعد ان يكون ندم باخلاص لمدة من الزمان ولكن الطبع تغلب اخيرًا على التطبيع ففضل العود الى معيشة النزق على مداومة الاعتزال والسكينة بجانبك . . ومن ثم . . . ثم قاطع نفسهُ وقال دعينا من التكلم بهذا . . . حيث لا اريد التصريح بجميع افكاري . . . . ولا ريب اني تعديت بهذه الافكار التي تحزنك

قلت الحق معك ياصديقي دعنا من التكلم بذلك . ولا تضطرب . . اني عالمة بكسل

الموسيو دي لانكراي ولكن يقلقني احيانًا انقطاع اخباره وهذا الذي يحزنني فلنتكلم اذن عنك وعن اما وعن مقاصدك التي هذه الاكدار

قال ان التكلم باخبارنا يفيد التكلم باخبارك ايضًا لانا مدبونون لك باشياء كثيرة ومن جهتي فان حياتي لم تكن ابدًا في زمن من الازمان بمثل هذه السكينة والعذوبة والصفاء اما امه فكثيرة السعادة . . من لا شيء تقريبًا . . وقد الوم نفسي احيانًا لاني مقصر في اجراء الواجب نحوها ويكاد يصيبني الخجل لدى مشاهدتها على مثل هذا الارتضاء والسرور

قلت ان تكلمك بهذه اللهجة المتواضعة عن السعادة التي تصدر عنك ذكرني بكبار الشعراء الذين يولفون بسهولة مولفات بديعة ويعجبون لمشاهدة تاثيرها العظيم في القراء حيث لم تكلفهم الا قليلاً من الوقت والتعب

قلت لا يامتيلدة اوكد لك اني صارف منتهى العناية لاعطاء كل شيء ولكني احصل دائمًا على اكثر مما اعطي فانا الان بمنتهى السعادة واكاد اغيب عن الصواب لمزيد المسرة واذا خرجت احيانًا بالصدفة من هذه الحالة الملذة من السكينة والثقة والامن لاجراء بعض المقاصد فلا البث ان اعود اليها سريعًا بمسرة جديدة . ما الذي اقوله لك ان هذه الحياة لربما لا يكون لها عظمة الوجد وانعطافاته السامية وتحمساته ولكنها رائقة باسمة ولا علم لي بحياة الذ منها خلاف تلك التي تصورت قضاءها بجانبك . . وفي الايام الاولى من زواجي كنت ارغب اشتداد حبي الى درجة احد من هذه الدرجة اما الان فلا اريد ذلك لانه بمجرد ميلي لاما من تلك المزية التي تجعله فريدًا في بابه لا يقبل المشابهة

قلت الحق معك ياصديقي ان نوع العبادة العميقة التي تتعشقك بها اما يمنعك من مقابلة احساساتها بالمثل والامل ان لاتانف بالنظر الى وداعتك من هذه المشابهة ان الالهة ولو مهما كانوا صالحين لا يحبون بنفس الصفة التي يحبون بها

فضحك وقال اه يامتيلدة اني اشتم من خلال هذا التاليه السخري رائحة تهكمات السيدة دي ماران

قلت اني اعتبرك كثيرًا ولهذا ابالغ في مديحك . . الا فاعترف اذن بوجود شيء من الحقيقة في قولي وان هذه المشابهة مصيبة بقدر ما يمكن ان تصيب المشابهة

اجاب لست انكر ان اما تعبدني عبادة جنونية ولكني انكر فقط كوني مستحقًا لهذه العبادة . . او بالحري . . لا . لا . اني اقبل هذه المشابهة برمتها ولا سيما بالنظر الى الوهيتي

قلت متبسمة هذا غاية السرور

قال لست اقبلها كمديح بل كنتم كلها عدالة وصواب

قلت وضح لي ياصديقي هذا الذم الذي لم يخطر لي في خاطر

فاستتبع الموسيو دي روشكيم حديثهُ بلهجة جدية وقال انت خير مني في الحكم على دخيلة فؤادي . . فان هذه التوبيخات المبهمة التي اخاطب بها نفسي لتصوري عن القيام بتمام الواجب من نحو اما ما من سبب لها الا هذه الالوهية التي كلفتني عنها اني ترفعت جهلاً الى هذه الدرجة من الكبرياء وصرت كتلك الالهة الباطلة التي صدقت اخيرًا بالنظر الى زيادة التعبدات المسوقة اليها انها قديرة واعتقدت انها تفعل كثيرًا للبشر المساكين اذا رخصت لهم بعبادتها . . حقًا لقد انرتني يامتيلدة ولربما وفرت على اما كثيرًا من الدموع . . . حيث كان من الممكن ان ترى في سعادتي الصماء شيئًا من حب الذات او البرودة وحينئذٍ كنت احصل على تبكيت الضمير الابدي لاني سببت اقل الاكدار لهذا الملاك الكريم

فقلت متبسمة صار لي الحق الان ان ادعوك رديئًا كالسيدة دي ماران لاني قلت لك شيئًا حقيقيًا فاستخرجت منهُ ذمًا لنفسك

قال والان بمناسبة ذكر السيدة دي ماران الك علم انها فلجت تمامًا فان خادم غرفتي القديم ستوك ذهب ولا اعلم لاي سبب لمقابلة سرفيان كبير خدام عمتك والذي يظهر انهُ هو وبقية خدمها يسيئون معاملتها كثيرًا وهي تحتمل منهم ذلك بمزيد الغيظ ولا يوجد من يهتم بها . . . .

ثم انقطعت محادثتنا بمجيء اما وكانت تحمل في اليد الواحدة باقة من الورد وفي الثانية عدة تحارير دفعتها الى زوجها وقالت وصلت البوسطة وهذه تحاريرك ياصديقي

فوضع الموسيو دي روشكيم التحارير في جيبهِ وسالها هل يمكن الدوقة دي ربشفيل ان تقبلنا الان ياعزيزتي اما

اجابت بلا ريب فقد صار لها اكثر من نصف ساعة وهي تحادث مع الاب الصالح داميار

فوجه الموسيو دي روشكيم خطابهُ اليَّ وقال كاهنكم في كنيسة السيدة المختصة بالقصر

قلت انهُ افضل وافقر كاهن من كهنة المزارع وبالحقيقة ان محبتهُ وصفاتهِ الانجيلية فوق التصور

قالت اما يا لله ما ابسط واشرف اساليبهُ في الوعظ وقد اعجبني حديثهُ كثيرًا يوم الاحد الماضي في الكنيسة فان جميع اقوالهِ بسيطة لا يصعب فهمها على ابناء ابرشيتهِ وهي مع ذلك صالحة لان تتلى على مسمع من ملك ورجال بلاطهِ

قال الموسيو دي روشكيم ينبت لنا من ذلك انهُ لا يوجد حقيقة ما هو اسمى وافصح من

البساطة اني لا اعرف رجلاً باحكام وطيدة ومحجة مقدسة من مثل احكام ومحجة هذا الكاهن الصالح وقد صدقت اما فيما رويتهُ ان اقوال هذا الرجل ممتازة باجمعها وهو مع ذلك لا يشعر بوجود شيء فيها يستوجب الافتخار ولا يخفى ان اجتماع هذه الصفات وهي العظمة مع الاتضاع نادر جداً . . فهي كاجتماع الظرف والجمال مع سلامة القلب والطهارة . . . ولست اقول هذا عنك يا اما لان شقيقتنا متيلدة لا تسمح لي بذلك وهي تغار من جميع المدائح التي توجه اليك اذا لم تكن صادرة منها

وفي اثناء تكلم الموسيو دي روشكيم كانت اما لا تفارقهُ بنظرها ومظاهرها تشف عن الحب البسيط بل عن التعبد العشقي المستمر كانها تحيى بهِ لا بنفسها

وكانت دائماً بعد هذه التاملات المقرونة بالتهلل كانها تلتذ طويلاً باستنشاق نسيم السعادة تلقي عليَّ نظراً طافحاً بالامتنان الذي لا يوصف

وعندما انتهى الموسيو دي روشكيم من هذا الحديث قبضت أما على يده وقالت لهُ بلهجة ساحرة ان شقيقتنا متيلدة مصيبة حيث لا يوجد من يستطيع تمليقي بطريقة مسكرة الا هي وحدها

قال الموسيو دي روشكيم . . اكثر مني

اجابت بلا ريب لانك انت ياصديقي تخاطبني عن نفسي وعن صفاتي . . اما هي فبالعكس تخاطبني عنك . . . وتقول لي انك تحبني . . . الا تتضمن هذه العبارة منتهى ما يمكن من اساليب المديح

قال الموسيو دي روشكيم اني اقبل ذلك بمعنى ان متيلدة عندما تقول لي انك تحبينني تكون قد مدحتني بمنتهى ما يمكن من اساليب الكلام

فهزت اما راسها الشقراء الجميلة وقالت متبسمة نحن على اختلاف ما من شيء ابسط من الحياة . . ولا يهنأ بالحياة الا من حياتهُ سعيدة . . . .

. . . .

ثم قضينا صباحاً سعيداً مع الدوقة دي ريشفيل ودعوت الاب دامبار لمناولة العشاء معنا احتفالاً بذلك العيد العائلي الصغير

وفي نحو الساعة الثالثة قرع الموسيو دي روشكيم باب غرفتي فادهشني اصفراره وملامح وجههِ العبوس وكان في يده تحرير مفتوح فقال لي متيلدة كتب اليَّ من ايطاليا بحثك طالعي هذه العبارة ثم دلني على فقرة من تحريره فقرأت فيها ما ياتي

. . . عند وصولي الى نابولي وجدت ان الالسن لا تلهج بخلاف البذخ المفرط الذي استعملهُ ليكورتو في هذه المدينة ومعاصيه وشروره اللعينة التي انتشر خبرها بما الجأ الملك الى طرده

من بلاده قبل وصولي ببضعة ايام بدون ان يعارض بذلك وكيل حكومة البرازيل لانهُ عالم بما يساو يهِ ويستخفهُ مواطنهُ اللئيم وهو فضلاً عن ذلك مبغض ومحتقر بعدل من جميع مواطنيهِ . وما عجبت لشيءٍ من هذا لاني اعرف ليكورتو منذ زمن طويل ولكن الشيء الذي اوجب عجبي . . وكدت لا اصدق بهِ لو لم اتأكده من سفيرنا هو ان صديق ليكورتو الحميم ورفيقهُ في المعاصي هو الفيكونت دي لانكراي الذي تبارز معهُ سابقًا من اجل سبب خطير اخبرت عنهُ حيث لم اكن وقتئذٍ في باريس ويقال ان الموسيو دي لانكراي اصيب بالفقر المدقع وصار تحت مطلق سلطان عدوهِ السابق وقد تركا نابولي سوية على باخرة استاجرها ليكورتو والمدينة بصوت واحد تدعو عليهما بمصادفة جميع العوارض المشومة في هذا السفر

وعند ذلك سقط التحرير من يدي على ركبتيَّ ولم اتجاسر على النظر الى الموسيو دي روشكيم اما هو فقال لي بلهجة شديدة من اللوم اه يامتيلدة . . لقد غششتني . . ان صداقة الموسيو دي لانكري مع هذا الوحش الضاري تصرح لي عن هذه العلاقة بما لا يصل اليهِ فكري

قلت حسن لا باس من التصريح الان بما حاولت اخفاءهُ عنك ان مقاصد زوجي الحسنة لم تدم طويلاً كما قلت . . نعم ان توبتهُ كانت صادقة ولكنهُ سئم من هذه الحياة السكونة المظلمة . . . وانا اظن الان مثلك ان الاسباب التي تعلل بها للسفر كانت حجة كاذبة

فصاح وعلاقتهُ مع هذا الوحش الضاري الذي تمد مرارًا اذيتك بما تصفينها

فوا اسفي اني كنت لا اجسر ولا اقدر على التصريح لهُ وقتئذٍ بما حصلت عليهِ اخيرًا من البراهين الصريحة الدالة على استمرار حقد الموسيو ليكورتو ضدي لان هذه الحوادث كان لها علاقة بما تحملتهُ من اجل اما فبقيت صامتة ولم اجب بشيءٍ

فصاح الموسيو دي روشكيم بمظاهر الغيظ والالم انظري من اجل اي رجل ضحيتني . . . انظري من اجل اي رجل تمنعت عن السعادة التي عرضتها عليك . . عندما تعهدت لك . . . ان . . .

فقاطعتهُ وقلت لهُ بثبات ادهشهُ كفى . . كفى . . لا ترد كلمة في هذا الموضوع اذ لا يحق لك ان تتفوه باقل التاسفات على الماضي . . لان مثل هذا العمل من قبلك يكون قتالاً لاما التي اسعدتك وشائنًا لي . . . . ان تصرف زوجي لنحوي من الان وصاعدًا سواء كان خيرًا او شرًّا لا يترتب عليهِ كبير اهمية وعلى فرض اني فقدت غدًا كل ميل لزوجي فلا يتاتى عن ذلك شيءٌ جديد في مبادئي اذ خير لي وتذكار امي ان اموت الف مرة ولا انسى واجباتي اما انت فحاشا ان تلمح بما تستدل منهُ هذه الامرأة التعيسة على اسفك لافترانك منها . . انت اعلم الناس بمزاياها فافكر بذلك لئلا تقتلها . . لانها بلا ريب تموت من الياس

فصاح بالهول ثم اخفى راسهُ بين يديهِ وخرج بجدة

وما خفت وقتئذٍ من اجتماع الموسيو دي لانكراى وليكورتو بقدر خوفي من تاثيرات هذا الخبر بالموسيو دي روشكيم وكنت معتقدة انهُ لا يفعل ابداً باختياره ما يحمل اما على الظن بتاسفاتهِ ولكنني كنت اخشى ان تخونهُ الظواهر رغماً عنهُ . .

وهكذا فان ذلك اليوم الذي ابتدا بالمسرة تجلبب اخيرًا بمظاهر الشوم ولا يلبث ان ينتهي بكمال التعاسة

—

الفصل السابع والسبعون

الاب دامبيار

وكان الموسيو دي روشكيم قد تمالك نفسهُ بما يكفي لعدم اظهار شيء من اضطرابهِ وبعد العشاء اجتمعنا انا وحضرة الاب دامبيار والدوقة دي ريشفيل واما في القاعة الصيفية الصغيرة وكان الاب دمبيار شيخًا مسنًا ابيض الشعر بهيأة وقورة وصوتهُ المتلئ الرنان يحمل كلماتهِ بلهجة خطيرة

ان اعيني ما زالت تتصور للان ذلك المشهد كانهُ مرسوم امامي فان السيدة دي ريشفيل كانت جالسة في صدر القاعة على ديوان وعلى مقربة منها الاب دامبيار اما انا فكان يفصلني عن اما المائدة التي وضعت عليها القهوة وكان الموسيو دي روشكيم قد خرج للمجاوبة على بعض تحارير لان البوسطة من التور الى باريس كانت تمر من هنالك في الساعة التاسعة مساء بحيث يمكن المجاوبة يوميًا على جميع التحارير التي تصل صباحًا وبينما نحن كذلك واذ دخل علينا ستوك خادم غرفة الموسيو دي روشكيم القديم ثم قدم لاما تحريرًا على صينية وقال لها ان سيدي المركيز حصل على هذا التحرير صباحًا مع بقية التحارير ولكنهُ نسي تقديمهُ الى حضرة المركيزة

فضحكت اما وقالت تحرير باسمي . . ان هذا هو التحرير الاول الذي جاءني هنا ثم نظرت الى الغلاف وقالت من باريس ايضًا . . لا ريب انهُ كان في جملة التحارير التي احضرها صباحًا الى الموسيو دي روشكيم ولم انتبه اليهِ

فتبسمت الدوقة دي ريشفيل وقالت هيا يابنيتي سريعًا واطلعينا على ما تحتويهِ هذه المراسلة

قالت اما باذنك ياحضرة الاب ثم فضت الغلاف بسرعة وقرأت الاسطر الاولى وقالت انه من امرأة مسكينة تطلب المساعدة

قالت الدوقة دي ريشنيل افرئيه ياابنتي بصوت مرتفع حتى نشترك معك في عملك الخيري

فقرأت ما ياتي

سيدتي

ان صاحبة هذا التحرير المنكودة الحظ قادمة اليك بامل وثيق وهي موقنة انك تقبلين رجاء امرأة تعيسة تغلب عليها ضعفها وقلبها وما من عذر لها الا قوة الوجد الشديد الذي اضلها

وهنا توقفت اما عن القراءة ونظرت الى الدوقة دي ريشفيل والكاهن فرفع الكاهن اكتافه وقال لا يمكن ايجاد ما هو اوهى من هذا العذر وهو ان يشكو المرء من مضار النار التي اوقدها بيده اليس كذلك ياحضرة الدوقة

اجابت الدوقة بلا ريب ياحضرة الاب ثم ظهر عليها وقتئذٍ ملامح قليلة من الارتباك لانها بالرغم عن توبتها كانت لا تزال شديدة التاثر والتوجع لجميع الاشياء التي تذكرها بتصرفاتها الماضية ثم وجهت الخطاب لنحو اما وقالت كملي يا ابنتي

فعادت اما الى اتمام التحرير وقرأت هذه العبارة

ان اقاربي ازوجوني وانا في ريعان الصبوة لرجل نغص حياتي واحلف لك ياسيدتي امام الله ان هفواته واعماله السيئة هي التي سببت ضياعي وتهوري في هذا المسلك المستنكر

فصاح الكاهن بمزيد الغيظ ما هذا التجديف وكيف تستدعي اسم الله للشهادة على خجلها . .

قالت اما بسذاجة الحق معك ياحضرة الاب ثم التفتت لنحو الدوقة دي ريشفيل وقالت كيف تجسر هذه الامرأة على مثل هذا الاقرار ثم هل يوجد ياترى في العالم من الاعذار ما يصفح بسوء السيرة فلو كنت انا مكانها واساء اليَّ زوجي لاهتممت بارجاعه الى سواء السبيل بقوة الصبر والحنو . . ثم يمكن ايضاً الصلاة الى الله حتى يغفر له خطاياه لان الصلاة الصادرة من القلوب النقية تستجاب على الدوام فاشار الكاهن متاثرًا الى اما وقال للدوقة دي ريشفيل اه ياسيدتي انظري الى صنعك . . انظري الى ثمرة التربية التي ربيتها

فاحمرت الدوقة دي ريشفيل ولم تجب بشيء ولكنها نظرت اليَّ بما يفيد ان هذه الحادثة تولمها وكنت قد شعرت بذلك ايضاً ولكن ما ما سبيل لقطعها

ثم استتبعت اما تلاوة التحرير بما صورته

ان زوجي تركني منذ اربع سنوات ياسيدتي وقد انقطعت عني اخباره من ذلك الحين ومع هذا اكاد لا اجسر لمزيد خجلي واضطرابي على كتابة هذه الكلمات وهي ان الفتاة التي استلفتت

من اجلها مكارمك طفلة تعيسة وضعتها الى العالم منذ قريب وهي ليست ابنتة

فصاح الكاهن ياللعار

اما اما فلم تلفظ كلمة ولكنها القت التحرير على اقدامها باشارة من الاحتقار والاشمئزاز الجارح وترجم سكوتها وملامح وجهها عن غيظها بما يقصر عن ايضاحه امر الكلام . . فابدًا . . ابدًا يا الهي لا انسى مدى حياتي الاحمرار والخجل والتاثيرات الجارحة التي المت وقتئذٍ بالدوقة دي ريشفيل .

وصادفت اعيني اعينها فارتني بلحظها اما . . ففهمت . ان الام المسكينة وجدت كونه مهانة من ابنتها باسم المباديء الحسنة التي انشاتها عليها فما امكنها الا ان تحاول الدفاع عن نفسها ببعض كلمات فقالت بحزن يجب ياابنتي ان يعامل الخطاة بقليل من الحنو . . . اذ لربما تكون هذه الام المسكينة . . التي تلومينها . . جديرة بالشفقة

فصاح الكاهن بصوت ثابت اني كاهن وشيخ ياسيدتي . . ويجوز لي ان اتكلم باخلاص

قالت الدوقة دي ريشفيل وقد تزايد اضطرابها بلا ريب ياسيدي

قال فاذن من الامور التي توجب الاسف ان نساء مثل حضرتك من اللواتي يمكنهن الاتكال على عفتهن وحياتهن الكريمة للحكم بصرامة على الرذيلة يعاملنها بالمسامحة والشفقة . هل من العدل ياسيدتي ان يهتم المرء بالمصائب المخجلة المقرونة بالعار بقدر اهتمامه بالمصائب الشريفة الموثرة

فاخذتني الرعدة من هذا المجرى الذي اتخذه الحديث وقلت الحق مع حضرة الاب تناولي تحريرك ياما فسوف نستفحص عن هذه الامرأة ولا يبعد ان تكون محتالة بما تقول للانتفاع بمكارمك وعلى كل دعينا ننتقل الى خلاف هذا الموضوع الان

اجابت اما بسذاجة لا لا سائم قراءة هذا التحرير ولكن قلبي نفر لكلام حضرة الاب من هذه الامرأة التي تتجاسر على ذم تصرف زوجها وهي تعمل عملة ولربما اكثر منهُ ايضًا

واذ ذاك حاولت الدوقة اخفاء دمعة ترقرقت تحت اجفانها وقالت انت شديدة الصرامة يا اما

فتبسمت لها اما بمنتهى ما يمكن من سلامة القلب وقالت صحيح ولكنك ربيتني على الافكار الكريمة واعطيتني من الامثلة الصالحة ما يدفعني رغمًا عني الى استنكار كل ما هو سفل واثم . . فكم من مرة قلت لي ان العفة للنساء كالشجاعة للرجال ولا اخفي عنك . . اني ابغض الانذال

ثم عادت الى قراءة التحرير بما نصة

اني وان كنت غارقة في التعاسة لست مستحقة لهذا البلاء وارى ان تربيتي وظروف ولادتي يقتضيان خلاف هذا النصيب والذي اظنة ان هذه الاعتبارات الاخيرة تحملك

على الاهتمام بي وفضلاً عن هذا فان ابنتي ياسيدتي . . ابنتي الصغيرة المسكينة ليست . . ولا يمكن ان تكون على الاطلاق . . مسئولة بخطاء امها وعلى فرض اني استحق اللوم . . . فابنتي تستحق الاهتمام واذا ساغ للبعض ان يشكو من سوء سيرتي فلي انا ايضاً ان اشكو من قلة احساس الذين لا يشفقون على ابنتي . . .

وعند ذلك لم يسع الاب دامبيار الامساك من غضبه الكريم فصاح ان هذه الشقية تكرر في هذا التحرير كل ما يقولة امثالها وهي مثلهم كل ما تورده للمدافعة عن نفسها يصلح استعمالة ضدها

قالت اما وقد وجهت خطابها لنحو الدوقة دي ريشفيل ولا سيما ما تدعيهِ لجهة تربيتها حيث لم يعد لها عذر يصفح بها . الا تنطبق ياترى على هذه الامرأة الكلمات الحقيقية التي طالما كررتها لي ولم انسها على الاطلاق وهي كان يقال قبلاً ان الشرف يقضي بواجبات كثيرة اما الان فصار يصلح ايراد هذه العبارة عن التربية . . . ان الخطايا تعظم بقدر عقل صاحبها وتنور افكاره

فصاح الكاهن الحق مع الدوقة ولكن ليس هذا هو كل شيء انظري كيف ان الرذيلة تظهر على الدوام بلهجة بليدة خبيثة قاسية فان هذه الامرأة توهمت انها بمجرد قولها ان ابنتها ليست مسئولة عن خطايا امها تحل من اعظم الجرائم التي يمكن ارتكابها ضد الانسانية بوسمها فتاة مسكينة بريئة بختم اللعنة العامة

فنظرت الي الدوقة دي ريشفيل بياس وصاحت بالهول فظن الكاهن ان هذه الدهشة ناشئة عن مصادقة الدوقة على حديثهِ فاستتبع الكلام بحرارة وقال لم اوضح افكاري في هذا الموضوع بما يكفي ياسيدتي حيث لا فرق عندي بين الام التي تقتل ولدها وتلك التي تقف حياتهُ للعار والالم

فصاحت الدوقة دي ريشفيل اه ياسيدي

اجاب نعم ياسيدتي ان الامرأة الزانية هي ام شريرة ايضاً الا تعلم ياترى ان ولدها مسئول باحكام الضرورة الادبية والاجتماعية بخطيئة امهِ الا تعلم انهُ ساقط من الحقوق العمومية وليس لهُ اسم ولا عائلة وان شفتيهِ لا تلفظان ابداً هذا الاسم المبارك ياامي واذا علم يوماً بجريمة امهِ الخفية فلا يسعهُ الا ان يحتقر رغماً عنهُ اولئك الذين يريد الرب اكرامهم واعزازهم

فصاحت اما بالخوف ان هذه الام تدفع ولدها الى لعن الحياة التي اعطتهُ اياها بجريمة ثم كررت هذه العبارة يجبر المرء على احتقار امهِ . . . احتقار امهِ اه يا الهي . . . الموت الف مرة . . ولا ذلك . . .

فصحت اما . فنظرت اليَّ بتعجب وقالت ماذا تريدين ياصديقتي وكانت الدوقة دي ريشفيل قد اشرفت على الافتضاح ولكنها تمكنت اخيرًا من التغلب على اضطرابها فقلت انك تهيجت كثيرًا بهذه المباحثة المكدرة يا ابنتي العزيزة فدعينا منها ولنتكلم بشيء اخر اني لا ارى رايك واعتبر ان هذه الطريقة التي يطلبون بها مساعدتك لا تستوجب اهتمامك ان هذا المساء جميل واشعر بوجع قليل في راسي فهيا بنا للتنزه في الجنينة اما اما فاصرت بحكم الاقدار الغريبة على اتمام قراءة هذا التحرير وخفت ان تستغرب الحاضرون الحاحي عليها بالكف عن القراءة وكانت قد نظرت اليَّ الدوقة دي ريشفيل بما اعاد اليَّ الطمأنينة . وقالت اما لم يعد من التحرير الا بضعة سطور ولا يلبث ان ينتهي قريبًا فتركتها تقرأ واذا في التحرير ما ياتي

وانت ياسيدتي يلزمك اكثر من جميع الناس ان تشفقي عليَّ . . او بالحري على ابنتي

فنظرت الينا اما بتعجب وقالت لماذا ياترى يلزمني انا وحدي اكثر من جميع الناس ان اشفق على هذه التعيسة

فصحت قلت لك اتركي هذا التحرير ياابنتي ان هذه الامراة مجنونة ثم نهضت مدفوعة بحماسة لا تدرك لاخذ التحرير من يدها ولكني ما وصلت اليها الا وقد نفذ المكتوب واكملت قراءته فان اعينها الشاخصة فيه اتسعت بطريقة مخيفة واضطربت شفتاها برعشة عصابيه وصبغ وجهها باصفرار الموتى ثم القت نفسها بسرعة غريبه على اقدام الدوقة دي ريشفيل وصاحت بصوت يمزق الاحشاء

سامحيني سامحيني اذا كنت امي ولا تلعنيني

انهُ من المستحيل امكان تصوير ذلك المشهد فان الدوقه دي ريشفيل سحقت لهذه الكلمات وبقيت خرساء وبلا حركة اما الاب دامبيار فنهض فجأة وضم يديه الى بعضها بملامح التوجع وغطت اما منتحبة راسها بين ركبتي امها

وبعد مرور عدة دقائق بمنتهى السكوت العميق رفعت الدوقه دي ريشفيل ابنتها بلطف عن ركبتيها واوقفتها ثم وقفت هي وقالت بمنتهى الصبر والاستحقاق اني مستحقة يا ابي لالفاظ التوبيخ التي وجهتها للامهات الاثيمات لان اما ابنتي وانا احاول منذ زمن طويل التكفير عن خطيئتي وقد اراد الرب ان ينتقم مني اليوم بقصاص هائل . . فلتكن ارادتهُ . . اني لا أيئس من رحمته غير المتناهية

فاجاب الاب بصوت متاثر جدًّا ان الحقيقة واحدة للجميع ومن واجبات خادم الرب ان يخاطب بها الجميع في هذا العالم ولكن الله وحدهُ هو الذي يدين ويصفح ورحمتهُ غير متناهية كما قلت ولا ريب ان كفاراتنا تحسب لنا يوم الدين . . . ثم حيى باحترام وخرج . .

. . . .

وكان هذا التحرير الجهني منتهياً بهذه الكلمات . . .

وانت ياسيدتي يلزمك اكثر من جميع الناس ان تشفقي عليَّ او بالحري على ابنتي لانك ابنة غير شرعية للدوقة دي ريشفيل وساثبت لك ذلك بالبراهين الدامغة اذا جئت لمساعدتي . . تكرمي بارسال المساعدة التي تقدرين عليها حوالة على البوسطة في باريس الى السيدة جاني بيرون ام السيدة اليين التي ربتك والتي تعرف سر ولادتك

ولا ريب ان هذا التحرير كان مرسلاً من هذه الامرأة ولكنا لم نعلم وقتئذٍ لا انا ولا الدوقة دي ريشفيل اذا كان لليكورتو يد بهذه الدسيسة الجديدة الهائلة او لا

وعندما رجعت الى افكاري لمت نفسي وقلت لربما كان من الواجب بعد دهشة اما ان امنع الدوقة دي ريشفيل من الاعتراف بالحقيقة واوكد للبنية ان هذا التحرير كاذب ولكن هذا الاحتياط لا يمنع استيقاظ ظنونها والظن في هذا الموضوع يكون اشد قساوة من اليقين بالنظر اليها . . . .

. . . .

كلما قاربت سيرة حياتي النهاية كلما اظلمت الحوادث وقد اشعر احياناً اني في حاجة الى الشجاعة لان ما اريد قصة الان حدث منذ عهد قريب وليس لي قوة على شرحه بتان لحوادث ماضية منذ زمن طويل

اني ما احجمت ابداً في هذه السيرة عن شرح اوجاعي بل بالعكس كنت اجد في ذلك بعض الملذات المرة لان هذه الايضاحات كان حكمها بالنظر الى امرأة مثلي لم ترفع صوتها في حياتها ولم تشك كانطلاق الدموع المحصورة منذ زمن طويل ولكن عند التكلم عن تالمات اصحابي واحبابي كان ينقبض قلبي بخشونة واشعر كان قلبي قد وقف . . . .

. . . .

وفي اليوم الثاني من هذا المشهد المشوم خاطبتني اما ببعض كلمات تشف عن المركز المولم الذي اشغلته من تلك الساعة بالنظر الى الدوقة دي ريشفيل اما الكلمات المذكورة فهي :

اني لا اصفح لنفسي على الاطلاق كوني تفوهت عن امي بما تفوهت به امامها

وكانت الدوقة دي ريشفيل لدى التكلم معي احياناً عن مخاوفها لجهة اكتشاف سر ولادة اما تقول لي على الدوام ان الحياة تصبح ثقيلة ومستنكرة لديَّ اذا اكتشفت ابنتي على ما يوجب عاري وخجلي امامها

فعلى القارئ الان والحالة هذه ان يفكر بما تقاسيه هذه الام التعيسة من العذاب من حينما

وجدت الصدفة المشومة هذه الحادثة التي حكم فيها على هفواتها امام ابنتها ومنها . ثم فليفكر ايضاً بتبكيت ضمير اما وكيف انهــا تلوم نفسها على الدوام لانها حكمت على امها بلاشفقة و بالحرب الهليلة الناشبة بين ارتباطها بالدوقة دي ريشفيل وصرامة المبادىء التي اودعتها الدوقة في ابنتها ولا ريب ان حب اما وحنوها لامها يتغلبان اخيرًا على بقية العوارض ولكن هذه البنية المسكينة كان لا يمكن ابدًا ان تتعزى على الكلمات القاسية التي تفوهت بها

واسفي ان هاتين النفسين المجروحتين كانت تعرض عليَّ اسرارها فكانت تقول لي اما احيانًا ان جودة امي تجرح فؤادي واصرارها على التظاهر بعدم تذكر شيء من تلك الحادثة المشومة يثبت لي انها تفكر بها على الدوام ولا ريب بذلك لاني جرحت قلبها جرحًا مزمنًا لا يقبل الشفاء

وكذلك الدوقة دي ريشفيل كانت تقول لي ايضًا ان اما تفعل كل ما في الامكان لاقناعي انها لا تحتقرني ولكنها بمزية سامية ولتربيتها نفوذ لا يمحى ولهذا فهي بالرغم عن حنوها وحبها الاعمى لي لا يمكن الا ان تتذكر احيانًا الحكم القاسي . . بل العادل الذي حكمت به على سلوكي ومقدار الاحتقار الذي مزق به واسفي الاب داميار الستار بمزيد العدالة عن مثيلاتي

وكانت جميع اقوالي عاجزة عن تسلية هاتين المسكينتين الكثيرتي التاثر لان رقة احساسها فوق التصور

فاي عسف وتحذر وحزن و برودة غير اختيارية لا تلقي مثل هذه الافكار في علائقهما التي بقيت عذبة وحنونة الى ذلك الحين

فكم من مرة ترجم الاثنتان بالتبادل تاسفاتهما الجارحة السكونة بمعنى اللوم الخفي . . اذ من اين للناقد واسفي ان يعرف كنه الاحزان المرتسمة على الوجه المتعض بملامح الكآبة

وقد تمكنت في هذه الظروف الصعبة المكدرة من ادراك قوة مزايا الموسيو دي روشكيم وطيبة قلبه فانه وجد في تعليلاته السامية وافكاره منابع لا تشح لتسكين هذه الوساوس وتلطيفها وتخطئتها وتوصل بفصاحته والحاحه الى التخفيض من اوجاع هذه الضربة فكان يكرر بلا انقطاع مخاطبة الدوقة دي ريشفيل واما بما قاله لها مساء ذلك اليوم المشوم وهو

ان البرهان الاكيد ياسيدتي على ان الخطايا ولو مهما كانت عظيمة يمكن التكفير عنها تمام التكفير هو اني انا الذي لا يختلف احد بمبادئه انا المتشيع باكثر من غيره لديانة الشرف والمتطرف كثيرًا بملاحظة الواجبات طلبت بلجاجة يد اما التي اعرف كونها ابنتك وحصلت بسعادة عليها . . فليس لك الان والحالة هذه سواء بالنظر الى سعادتها وسعادتك او الى العالم ان تاسفي لظروف ولادتها ولا لاما ان تلومك على ذلك . . اما فيما سوى هذه القضية فان

الاب دامبيار نفسهُ قال لك ان رحمة الرب لا تحد وان كفاراتنا تحسب لنا يوم الدين .

. . . .

ثم اقترب الخريف وكان ممطرًا شديد البرد فعاودني المرض طفيفًا وكان يسوءني مبارحة اصحابي في ذلك الوقت بالرغم عن مشورات الدكتور جيرارد واوامره المحوجة بلزوم السفر ولما راي هذا الدكتور ان مشوراته لا تثمر كتب الى الدوقة دي ريشفيل ان صحتي لا يمكن ان تحسن ولربما اصاب بمرض الصدر اذا بقيت مصرة على عدم الذهاب لقضاء الخريف والشتاء في جنوبي فرنسا فصار من اللازم والحالة هذه ان اجيب الحاجات اصدقائي واسافر وكان مراد الموسيو دي روشكيم واما الذهاب لقضاء بضعة شهور في روشكيم اما السيدة دي ريشفيل فعزمت على الرجوع الى باريس وكانت هذه الام المسكينة لا تزال تتالم رغمًا عنها عند مشاهدة ابنتها وكذلك اما لا تستطيع التغلب على خوفها لانها ادمت فؤاد امها الى الابد

وعندما فارقتني الدوقة دي ريشفيل قالت لي كنت عالمة بذلك يامتيلدة قبل حدوثه . . . لان عدالة الله لا يمكن ان ترتضي بسهولة وكان من المنتظر ان ترميني بقصاص هائل . . ثم سالت هل يوجد ياترى ما هو اعظم من هذا القصاص الالهي المخيف وهل يمكن تصور موقف احرج من هذا الموقف وهوان تشكى ام وتدان على مراى منها امام ابنتها بصوت كاهن محترم وان تسمع هذه الام ابنتها تتفوه امامها بنفس هذه الالفاظ الهائلة . . ثم قالت ان غاية ما ارجوه ان يكون الانتقام قد تخفض بما ساتحملة من الاوجاع بهذه الضربة الى اخر حياتي وان لا يرميني الرب بضربة اخرى اعظم من الضربات الحاضرة

واسفي ان الهامات ضميرها المشومة لم تخطىء ثم فارقني اصحابي فعانقت اما للمرة الاخيرة . . نعم واسفي . . للمرة الاخيرة . . حيث كان مقدرًا عليَّ من الله ان لا اعود اراها ابدًا . . ابدًا .

. . . .

. . . .

. . . .

وبعد ذلك سافرت الى هيارس مصحوبة ببلوندو واحد الخدم فوصلت اليها في اوائل تشرين الاول وفي تلك الاثناء تقريبًا وصلني تحرير من الموسيو دي لانكراي يستدل من اوراق البوسطة انهُ مرسل من قاديس وهذه صورتهُ

قيل لي انك لا تزالين مريضة . . فتعالي اذن بسرعة سوف احضر لاخذك فجأة عندما تصيرين قادرة على السفر ان مرضك غيّر مقاصدي بغتة منذ سنة ولكنك لا تخسرين شيئًا

بالانتظار وانا مهتم كثيرًا بكل ما يتعلق بك وجميع اخبارك واعمالك عندي فقد علمت انك في باريس او على وشك الوصول اليها ولربما اوافيك الى هنالك

ان رفيقي في هذا السفر يكلفني بالف تذكار لك وان اسالك هل وصل الى ماران عند الدوقة دي ريشفيل (حتى لا اقول عندك لانك انت والدوقة الان حال واحد) في ٢١ اب تحرير من باريس ان ذلك اليوم هو تذكار القديسة كلير المحامية الطوباوية للدوقة الجميلة النادمة

اما هذا التحرير المرسل الى المركيزة دي روشكيم فهو من امرأة مسكينة تستمد المساعدة لولدها غير الشرعي وقد كان من رفيقي في السفر الحاضر في كل مكان ان افتكر بانكم تعيدون ولو قليلاً بمناسبة عيد القديسة كلير واشار على الامرأة بكتابة هذا التحرير في ذلك اليوم ظنًا منه انه متى وصل في تلك الظروف بحضور جمهور من الاصحاب الصالحين يحسن قبوله ويكون له تاثير عظيم بسبب الايضاحات الاخيرة

ثم يسالك رفيقي ايضًا عن كاهن ماران وهل حضر قراءة هذا التحرير الذي اهمل ولم يسلم الى المركيزة الصغيرة الا بعد العشاء وهو لا يسالك هذه السوالات التي يحسن المجاوبة عليها مثلك الا ليثبت لك انه على اطلاع من كل شيء وانه حاصل على مقاصد كثيرة ومصر على انفاذ مقاصده

نحن نمرح هنا بحياة طافحة بالرخاوة والملذات كسرد اناپال (ملك نينفا) ولا ينقصنا الا انت وحدك فاني متشوق بحرارة لذلك اليوم الذي اراك فيه جميلة زاهرة عفية وانا اتلهى الان عن افكاري لبينما احصل على تلك الساعة

وعند تلاوة هذه الاسطر تحققت ظنوني وعلمت ان افتضاح سر ولادة اما وذلك التحرير المتضمن طلب المساعدة الكاذبة من اعمال الموسيو ليكورنتو الاثيمة ولا ريب ان هذا الرجل كان حاصلاً للوقوف على كل هذه الاخبار على شخص من قبله اما عندي واما عند الدوقة دي ريشفيل واما عند الموسيو دي روشكيم

ثم قضيت الشتاء وحدي بمزيد الحزن والكآبة وكان يصلني من وقت الى اخر بعض تحارير من السيدة دي ريشفيل ومن الموسيو دي روشكيم وقد فهمت من تحاريره ان اما لا تزال متوجعة بتاثيرات الضربة غير المنتظرة التي المت بها ولكنه يومل ارجاعها الى تمام الصحة والعافية بقوة الاهتمام والعناية

الفصل الثامن والسبعون

الصندوق

ثم اقبل ربيع سنة ١٨٢٨ وكان قد مضى عليَّ نحو سنة شهور ولم احصل على خبر من أصدقائي فبدات اقلق شديداً واذ وصلني من الموسيو دي روشكيم هذه الكلمات

ماتت اما . . وانا المسبب بموتها . . وهذه كلماتها الاخيرة — انك تحب متيلدة وقد تزوجت بي شفقة عليَّ فاصفح لي عن السعادة التي نلتها بعذابك — ان هذه الفتاة لم تخلف لي التاسفات الابدية بل تبكيت الضمير ايضاً . . تبكيت الضمير المخيف . . نعم انا قتلتها . . لاني لم اعاملها بمنتهى الحنو الذي تستحقة . . ولا ريب انها اطلعت على سرائر فوادي رغماً عني وعرفت اني احبك ثم توهمت هذه البنية المسكينة اني لست سعيداً بالاقتران منها وهذا الفكر المشوم هو الذي قتلها لانها كانت قد برأت تقريباً من الاحزان الناشئة عن معرفة سر ولادتها عندما عاودت السقوط في المرض وقضي عليها بعد شهر من الزمان . . لقد اضعت صوابي وصرت مجنوناً من شدة الياس

ولا يخفى على احد كنه الاوجاع الجارحة الهائلة التي شعرت بها عند الوقوف على هذا الخبر

وكنت لا اعلم كيف امكن اما الاطلاع على حب الموسيو دي روشكيم لي وانة تزوج بها شفقة عليها ولا كيف يدعي الموسيو دي روشكيم انة هو السبب بموتها

واذ ذاك بارحت هيارس ولدي وصولي الى باريس ركضت الى عند الدوقة دي ريشفيل وكنت اتوقع رؤياها باكية منتحبة ولكني بالعكس وجدتها ثابتة منصبرة وهي مجالدة على هذه الخسارة الهائلة كقصاص اصابها باستحقاق فقالت لي بصبر ارعبني اكثر كثيراً من رعشات الاوجاع العصبية ان الله سبحانهُ وتعالى عادل وقد ضربني بولدي الشاهد الحي على جريمتي

وكانت الدوقة دي ريشفيل مصفرة بلون الرخام وقد ابيض شعرها في ذلك الشهر كما يحصل احياناً لبعض الناس عند حلول المصائب العظيمة وهي معتمدة على الانسحاب الى دير القلب المقدس وان تعيش ثمه في حال التوبة والندامة الى اخر ايامها وكانت لا تريد ان

تشاهد احداً على الاطلاق غير البرنسبس ديركور وانا

وكان الموسيو دي روشكيم قد سافر بعد وفاة اما بقليل ولا يعلم مكان سفره اما الدوقة دي ريشفيل فاستمرت تعزو وفاة ابنتها الى الضربة العظيمة التي اصابتها بالاكتشاف على سر ولادتها فكانت تقول لي انها تغيرت كثيرًا من ذلك التاريخ نعم ان صحتها تحسنت بعد ذلك قليلاً ولكنها ما لبثت قبل وفاتها بشهر ان اصيبت بنوبات حادة فجائية وتضاعفت احزانها التي لا نعرف اسبابها ومن ذلك الحين لم تعد حياتها الا نوعًا من النزع الطويل ثم انطفأت

وعندما اخبرتني الدوقة بهذا الخبر المحزن لم تتلفظ بما يستدل منهُ ان اما علمت بحب زوجها لي او انها اعتقدت باقترابهِ منها شفقة عليها

وبعد هذه الحادثة المشومة بشهر واحد اعتزلت الدوقة دي ريشفيل الى دير القلب المقدس بعد ان صرفت ما بقي لها من ثروتها في سبيل خيري ولم تبقِ الا راتبًا سنويًا حقيرًا تدفعهُ الى الدير لمدى الحياة

وكنت قد تماكثت صحتي جيدًا بهواء الجنوب فما اردت مبارحة باريس وترك الدوقة دي ريشفيل وحدها في الايام الاولى من العزلة التقشفية التي وقفت حياتها اليها فسرت الدوقة كثيرًا بهذا العزم وعرضت عليَّ السكنى بمنزلها حتى لا اتكلف الى ترتيب منزل جديد —وسوف اصرح لماذا جئت على ذكر هذه التفاصيل— . فقبلت تقدمتها وكان وكلاء اشغال الدوقة لا يكفون لاجراء المعاملات الاخيرة المتعلقة بثروتها ولابن اختها الموسيو كاستون دي سينفيل صوالح مشتركة معها في بعض الاملاك المتصلة اليهما بالارث فعرض عليها خدمتهُ وان ينوب منابها في الجلسات العائلية التي تعقد بهذا الخصوص فقبلت منهُ ذلك وحيث ان الدوقة وقتئذٍ كانت لا تريد مشاهدة احد غير البرنس والبرنسيس ديريكور وانا توسلت اليَّ ان انوب منابها تجاه الموسيو دي سينفيل عندما يكون مرادهُ الحصول على بعض الافادات او الايقاع على بعض الاوراق

وهكذا كنت اشاهد احيانًا الموسيو دي سينفيل عند الصباح وهو لا يزال محافظًا على الوديعة التي ائتمنتهُ عليها وقد ارسلت بلوندو اليهِ نحوًا من مرتين او ثلاث لاضافة بعض التحارير على الاوراق الموجودة عندهُ ضمن الصندوق وفي كل مرة كنت أصحبها بالمفتاح لان خوفي من الموسيو ليكورنو تزايد كثيرًا

وفي نحو اوائل كانون الاول كتب اليَّ الموسيو دي روشكيم انهُ بعد سفر طويل اقام بهِ لنفي اضطرابهِ رجع الى باريس ولكنهُ لا يقوى على مشاهدتي لا انا ولا الدوقة دي ريشفيل

وانهُ استاجر منزلاً منفردًا في حي ميريس وغيَّر اسمهُ حتى يبقى مجهولاً من الناس ثم افادني عن عنوانهِ حتى تتمكن انا والدوقة دي ريشفيل من مخاطبتهِ اذا كنا في حاجة اليهِ فاحترمت وحدتهُ وواجاعة ولم اتجاسر على مجاوبتهِ ثم علمت من الدوقة دي ريشفيل انهُ حصل على تصريح خصوصي بالدخول ليلاً الى مقبرة بيرلاشيز حيثما أُلحدت ثمه بقايا اما في لحد عائلة الموسيو دي روشكيم

وكنت ارسل احيانًا بلوندو للاستفحاص عن صحة الموسيو دي روشكيم من خادمهِ الامين ستوك فعلمت منها ان يأسهُ لا يزال عميقًا وانهُ لم يخرج من منزلهِ نهارًا الا مرة واحدة للقيام بتعهد ارتبط بهِ سابقًا مع الضباط الذين قاتلوا معهُ لتحرير اليونان في الجيش الذي طوعهُ لحسابهِ وكان قد ذهب حسب الاتفاق الى هذه الجمعية الحافلة بالملابس الرسمية وقال هنالك انهُ قادم من اراضيهِ وانهُ سيعود اليها عاجلاً

وفي احد الايام الاخيرة من السنة ذهبت لمشاهدة الدوقة دي ريشفيل وكانت اشد حزنًا من العادة فقالت لي انا كنت السبب عن غير ارادتي بوشاية سفلة ان ابن اختي كاستون شقي وما عدت اراه في حياتي لان البرنسيس ديركور حضرت امس لزيارتي واخبرتني انها عرفت بالصدفة ان الموسيو دي سينفيل حدث بطريقة مستنكرة عن العلائق التي اجريتها معهُ من اجل مصالحي فهو يدعي ان حياتك بكليتها مخصصة لهُ منذ زمن طويل وانهُ وافاك الى جنوبي فرنسا ويوكد ان بلوندو رسولة الحب بينكما وان كثيرين من اصحابهِ راوها مرارًا عديدة قادمة اليهِ من قبلك وهو من اجلك يتردد الان بقبول الاقتران من عروس واسعة الثروة عرضت عليهِ من احد اصدقائهِ

ولم اكن في حاجة لان اوكد للدوقة دي ريشفيل اني في مدة اقامتي في هيارس لا اذكر اني سمعت اسم الموسيو دي سينفيل ثم وضحت لها قسماً من الاسباب التي دفعتني سابقًا الى ائتمانهِ على وديعة مهمة وكيف ان بلوندو كانت تلتزم احيانًا بالذهاب الى منزلهِ

فاغتاظت الدوقة شديدًا من هذه الخيانة السفلة اما انا فقطعت بعزمي وفي صباح اليوم الثاني ارسلت بلوندو الى منزل الموسيو دي سينفيل لاحضار الصندوق وكان الموسيو دي سينفيل خارج المنزل فطلبتهُ من خادم غرفتهِ وهو يعرفها حق المعرفة فدفعهُ اليها بدون تصعب على الاطلاق

وعندما جاءتني بهِ صعدت واياها الى العربة وذهبت بنفسي لوضع هذا الصندوق عند الموسيو دي روشكيم لاني فكرت وانما لسوء الحظ بعد فوات الوقت انهُ لم يعد يخشى من اطلاعهِ على مضمون الاوراق المذكورة ثم رايت على الطريق ان من الاصوب الذهاب بعربة للاجرة

لان الموسيو دي روشكيم كان يحب المحافظة على سر مسكنه وخفت ان تعرف خدمي ستوك وينكشف ذلك السر فرددت عربتي وركبت عربة للاجرة انطلقنا بها الى مباريس

وكان يسرني بما لا يخلو من تاثيرات الحزن ان انظر الى مسكن الموسيو دي روشكيم فتركنا العربة بقرب شارع سين لويس ونزلت انا وبلوندو التي ذهبت لاعطاء الصندوق الى ستوك وبينما هي مشتغلة بهذه المهمة جعلت انظر بتالم الى ظواهر ذلك المنزل وكان من مشهده المقفر المنفرد ان جرح فوادي فارتهبت لدى التفكر بساعات الياس التي تمر عليه بتمهل في ذلك المسكن المنفرد

وبعد ان دفعت بلوندو الصندوق الى ستوك عدنا الى المنزل ثم ذهبت لوداع الدوقة دي ريشفيل وكنت معتمدة على السفر في نفس ذلك المساء الى ماران قطعاً لالسنة الناس عن التكلم بالاشاعات المستنكرة التي اذاعها عني بحماقة الموسيو دي سينفيل . . . . .

. . . .

وبعد وصولي الى ماران ببضعة ايام كتبت اليّ الدوقة دي ريشفيل تعلمني بحادث كان من الممكن ان ينتهي بما يوجع فوادي وينغص حياتي وهذه صورة الفقرة المختصة بهذا الحادث من ذلك التحرير

.. ان ابن اختي كاستون دي سينفيل اصيب بخطر عظيم فما امكنني بالرغم عن تغيظي ضده ان ارفض الذهاب لمشاهدته حيث اخبرت ان لديه اقوالاً مهمة يريد ان يقولها لي وعند وصولي وجدته متاثراً بجرح بليغ من حسام الموسيو دي روشكيم ولربما لا يبرأ منه مدى حياته فاعترف لي بصراحة انه انقاد بخفته الى جنون الخيلاء والافتخار الباطل واتخذ بدناءة من علائقك السرية معه سبيلاً لمسك وان اقامته في جنوبي فرنسا اختلاق منه كبقية الاشياء ثم توسل اليّ بمناسبة وفاته بذلك الجرح ان استمد له منك الرحمة وان اقول لك انه عرف سفالة اكاذيبه ثم ذكر اخيراً كاثرة خير نشنع به للحصول على صفحك حرصه الشديد على حفظ سر الموسيو دي روشكيم . الا فاسمعي اذن كيف قص عليّ اخبار ذلك المشهد المشوم قال

اني علمت لدى رجوعي الى منزلي ان خادم غرفتي دفع الي بلوندو الوديعة المؤتمن عليها من سيدتها فتعجبت وشعرت كاني جرحت بهذا التصرف فهرعت الى منزل السيدة دي لانكراي ولما لم اجدها هنالك رجعت الى منزلي وبينا انا على الطريق نظرتها بالصدفة مع بلوندو تنحدر من عربتها الى عربة للاجرة وكان من مظاهر هذا السر ان اهاج فضولي فهممت الى اتباعها واذ صادفت احد اصدقائي الموسيو بودريكور وكان قادماً حديثاً من الولايات المتحدة الاميركانية حيثما اقام زماناً طويلاً وهو واثق كغيره من الناس بما قلته من الوشايات بخصوص

السيدة دي لانكراي فاخفيت عنهُ قسماً من الحقيقة ورافقني للبحث على اثار هذه السيدة التي اضعتها ثم تاكدت من عدة ظروف غريبة ولا حاجة الى ذكرها هنا ان الصندوق وضع في شارع سين لويس في حي ميريس عند رجل يعرف بالكولونيل اولريك

واعترف اني اغتظت وقتئذٍ من عملي السيء وشعرت بشيء من الغيرة المبهمة من هذا الرجل المجهول الذي ائتمنتهُ السيدة دي لانكراي على اسرارها بدلاً مني ثم خفت ان يحتقرني الموسيو دي بودريكور لاعتقاده ان لي حقوقًا على السيدة دي لانكراي اذا لم اظهر العزيمة فاعتمدت ان اطالب الكولونيل اولريك بارجاع ذلك الصندوق وحصلت بعد الجهد العظيم على الوعد بمواجهة حضرت اليها مصحوبًا بالموسيو دي بودريكور الا فاحكمي اذن على مقدار الدهشة التي آخذتني عندما واجهت الكولونيل اولريك ووجدت انهُ هو الموسيو دي روشكيم بعينهِ وكان صديقي لا يعرفهُ والذي اظنهُ اني تصرفت وقتئذٍ كرجل من اصحاب الشرف ولا ريب ان الموسيو دي روشكيم عرفني حق المعرفة ولكنهُ تظاهر بعدم معرفتي وعندما زالت دهشتي الاولى قابلتهُ بالمثل فانهُ تقدم اليَّ بصفة الكولونيل اولريك فرايت من المناسب ان اقابلهُ بهذه الصفة ثم رفض الموسيو دي روشكيم ارجاع التحارير والاوراق وانتهت المحادثة بيننا بتعيين مكان الاجتماع للبراز في فيلسان واردت ان احافظ بما في الامكان على سر الموسيو دي روشكيم ففكرت ان يكون شاهدي الثاني الجنرال ماجورهرنمن الذي حضر اخيرًا من فينا اما الموسيو دي روشكيم فاحضر شاهديه من انفار العساكر وهكذا حفظ سره وبقي قبل البراز وبعده وفي اثنائهِ معروفًا من الجميع بصفة الكولونيل اولريك

فهذا ما اخبرني بهِ ابن اختي ياعزيزتي متيلدة متوسلاً اليَّ ان انوسط لهُ عندك وان اخاطبك بشدة حرصهِ على كتمان السر المتعلق بالموسيو دي روشكيم ولا ريب ان ابن اختي كاستون تصرف في هذه القضية كرجل حاد الطباع ولكن هذا العذر لا يقلل شيئًا من سفالة تصرفهِ نحوك ولا يمكن ان اعود لرؤياه في حياتي وقد ارسلت اليك هذه التفصيلات حتى لا تقلق افكارك اذا سمعت بالصدفة شيئًا عن هذا البراز . . . .

. . . .

لقد كررت الان قراءة هذه السيرة الطويلة من تاريخ زواجي الى هذا اليوم ١٠ نيسان سنة ١٨٣٩ فداخلني التردد ولا اعلم هل ارسل هذه الصفحات الحزنة لمن كتبتها اليهِ وهل حانت ياترى الساعة لرجوعي الى ما كنت عليهِ من نحوهِ وان اعترف لهُ بمقدار ما كنت احبهُ قبلاً . . وما احبهُ الان وهلا يكون هذا الاعتراف جريمة

لا لعمري فليعلم اني احبهُ . . . واني ما احببت احدًا غيره . . . لاني واثقة الان اني

مستحقة لهُ ولنفسي

ثم لا اعلم ما الذي يضمرهُ لي المستقبل . . اني حصلت اول امس على بضعة اسطر من الموسيو دي لانكراي وهو يخبرني بقرب رجوعهِ . . . ومن يعلم فلربما يرغمني على اتباعهِ . . . وعلى ترك فرنسا الى الابد لاني استشرت كثيرًا من المحامين فاجابوا جميعًا انهُ لم يعد لي سبيل للخلاص من سلطان الموسيو دي لانكراي اذا اراد استعمالهُ

فمن اللازم على الاقل يا الهي متى حصل ذلك ان يعرف الرجل الذي احبهُ واعتبره اكثر من جميع الناس سرائر افكاري . . . . واني ما قصرت ابدًا بواجباتهِ . . . . وضحيت نفسي ببسالة من اجل سعادة احبابي . . وإذ ذاك تبقى لي ولو مهما كان النصيب الذي ينتظرني هذه التعزية وهي ان اصدقائي يقدرونني باخلاص حق قدري

ولولا الهامات ضميري المشومة المتعلقة بقرب وصول الموسيو دي لانكراي لربما شعرت بشيء من السعادة لاني قدرت على اتمام هذه الصفحات

ثم لا يخفى ان هذا النظر الطويل الذي القيتهُ على الماضي سكن هواجسي وبعثني اذا لم اقل على الكبرياء فعلى الثقة باخلاقي وعزيمتي وقد اديت حسابًا صادقًا لنفسي عن مقاوماتي واوجاعي فما اخفيت شيئًا من اعمالي الرديئة وما بالغت بشيء من اعمالي الخيرية

وقد نبهت فيَّ هذه التفصيلات الصارمة والاحكام المجردة عن الغرض التي تكلمت بها عن حياتي كثيرًا من التذكرات الجارحة ولكنها تركتني بضمير صاف وسيكون هذا الضمير تعزيتي الوحيدة اذا اصابتني مصائب جديدة

فهذه تفاصيل حياتي الى هذا اليوم وقد ظهر مما مرَّ ان ظنون السيدة دي ماران اللعينة لم تخطئ فانها عهدت الى اورزيل والموسيو دي لانكراي بتتبع اعمال الانتقام التي باشرت بها ضدي . . وجميع مصائبي جائتني من هذين الشخصين حيث لو ازوجتني عمتي للموسيو دي روشكيم طبقًا لمشورات الموسيو دي مورتاني لتقررت سعادة حياتي . . وهي لا تريد هذه السعادة . . . ولهذا سعت بابطال هذا الزواج وجعلتني شريكة لها في حقدها عن غير ارادتي بدفعي الى الاقتران من الموسيو دي لانكراي

انتهت سيرة متيلدة الخاصة



الخاتمة

الفصل التاسع والسبعون

قهوة ليبوف

وكان قد مضى نحو شهر من حينما احضرت السيدة بلوندو سيرة متيلدة الى الكولونيل اولريك الذي نعيد اليهِ اسمهُ الحقيقي ونسميهِ من الان وصاعداً الموسيو دي روشكيم

وكان لا يزال يشرف على القليل من المارة في شارع سين لويس من خلال زجاج قهوة ليبوف اوعية الكرز والكاسات المفضضة بما يوليهم العجب ومنزل اوربيسون في حال الوحدة والانفراد كالعادة وساكنة الوحيد الذي يلقب تارة بفرقدون النجر واخرى بالساحر من الاخوين كوديت لا يخرج من منزلهِ على الاطلاق او بالحري في مدى النهار ولكن وجه ستوك الملتحي كان يظهر من وقت الى اخر من الباب السرى الصغير ومنافذ المنزل مقفلة دوامًا اما السيدة ليبوف والاخوان كوديت وبقية المترددين على القهوة فكانوا قد عقدوا نوعًا من المتاركة مع من يدعونهُ بالعدو العام وامتنعوا عن المراقبة لانهم سئموا من دوام الانتظار ولا سيما حيث لم يجد شيء على الاطلاق من حين زيارة بلوندو الاخيرة للموسيو دي روشكيم وكان الاخوان كوديت مستمرين على المجيء بضبط في صباح كل يوم لمناولة القهوة عند السيدة ليبوف حيثما يتم بهما عقد الجمعية التي تلتئم يومياً عندها وتحيط بطاولة حساباتها ففي صباح ٢١ ايار سنة ١٨٢٩ وكان صباحًا جميلاً من ايام الربيع جاء الاخوان كوديت على خلاف العادة بعد ساعتين تقريبًا من الوقت المعين وكان السبب في ذلك ان السيدة ليبوف دعتهما منذ بضعة ايام الى نوع من الغذاء كانت تعدهُ من وقت الى اخر الى احسن اصحابها الملازمين فرأى الاخوان ان يتهيئا الى هذه الوليمة بالذهاب صباحًا الى تنزه طويل في جنينة النبات وان يرجعا بعد ذلك للقيام براسم الدعوة وعندما صارا على بعض خطوات من القهوة وقف كوديت الاكبر وبعد ان وضع مظلتهُ تحت ابطهِ ورفع قبعتهُ ومسح العرق عن جبهتهِ قال لاخيهِ بصوتهِ الجهير

لا اخفي عنك ياديودونه ان طيب الهواء وجمال الطقس ومنظر اقسام الدنيا الاربع الطبيعية التي شاهدناها في جنينة النبات بما فيهِ الحيوانات من الطيور الى الحشرات السامة . . كل ذلك زاد في شهيتي للطعام فجعت جوعًا شديدًا اجاب كوديت الاصغر ببلادة لست اتعجب من ذلك لانا استيقظنا باكرًا جدًا وقد جاء في بعض الاغاني ان النضلاء الاعفاء يحبون مشاهدة الفجر

وكان الاخوان المذكوران قد وصلا وقتئذٍ امام باب منزل اوربسون الكبير فالقى كوديت الاكبر الى تلك الناحية نظرًا تهكميًا وقال لاخيهِ بملامح الهزء الجارح اذا كان الاعفاء النضلاء يحبون مشاهدة الفجر فلا ريب ان من يسكن هذا المنزل قلما يشاهده

وكانت هذه الكلمات بمنتهى الخشونة ففهم ديودونه قوتها وقال بصوت منخفض لاخيهِ تحرس لنفسك يا كوديت لان الجدران يكون لها اذان احيانًا

فصاح كوديت الاكبر بصوت يشبه لهزيم الرعد وقد وجه خطابهُ بافتخار الى باب المنزل والصحبة بنظرات التحذر والغضب اذا كان للجدران اذان فلفرنسا قوانين ايضًا . . نعم لفرنسا قوانين وحكومة نيابية وحرس بلدي يدافع عن الاهلين المسالمين ويسهر بعين متيقظة ابوية المراقبة من يتلصص سرًا في الظلام لدس الدسائس . . لا اعلم بخصوص اي شيءٍ ولكنهُ يدس الدسائس وانا متاكد انهُ يدس الدسائس

فخاف ديودونه من جسارة اخيهِ وقال كوديت . . كوديت استحلفك بالله ان تسكن روعك

فصاح كوديت الاكبر فليفعل ما يستطيعهُ وليرسل شياطينهُ تدهمني اذا اراد ولكنهُ باطلاً يهتم بالاختباء منذ مدة ولا ريب انهُ يدس الدسائس

وبعد هذا الاحتجاج الشديد الذي لا يخلو من البسالة دخل الاخوان كوديت الى قهوة السيدة ليبوف فاخذهم الذهول والعجب لانهم راوا ولاً بدلاً من بوانار الساذج الذي يحسن اصطياد الذباب من القناني رجلاً طويلاً هزيلاً بشعر اسود ولحية سوداء وهيأة مشؤومة اقترب منهما وسالهما بصوت خشن ماذا تامران

فنظر كوديت الاكبر الى اخيهِ بتعجب ولكنهُ فكر اخيرًا ان لربما يكون بوانار مشتغلاً باستعدادات الوليمة فاجاب بملاطفة انا قادمون ياصديقي للغذاء

قال الرجل واي غذاء

وظن كوديت ان القهوة لا تزال على ما يعهد فبدلاً من ان يجيبهُ على حديثهِ قال اين السيدة ليبوف العزيزة

اجاب ومن هي هذه السيدة ليبوف

فقال كوديت الاكبر لاخيهِ بصوت منخفض حقًا ان هذا الرجل لوحش حقيقي ثم امسك عن مجاوبتهِ واتجه نحو القسم الداخلي من القهوة حيثما يبسط عادة الطعام

فقبض عليهِ خلف بوأتار بخشونة من ذراعهِ وقال لهُ الى اين تريد الذهاب من هنا . لا يجوز لك الدخول

فتحول لون كوديت الاكبر الى الحمرة القرمزية من شدة الغيظ ولكنهُ امسك من غضبهِ وقال لهُ بملامح العظمة والرافة انت في غرور ياصديقي .. في غرور عظيم ... ولكنك ستجد هنا ومن اللازم ان نعاملك بالمسامحة ... الا تعلم ان كلمة واحدة مني للسيدة ليبوف كافية لان .....

فصاح الخادم بما يدل على فروغ الصبر لا يوجد هنا لا سيدة ولا ليبوف فاجلس مكانك ليحضر مطلوبك وإياك ومحاولة الدخول الى الجوا

فاجهد كوديت قواه لاخفاء غيظهِ وقال لهُ بصوت يحاول تلطيفهُ بما في الامكان اعلم للمرة الاخيرة اني احد المدعوين للغذاء المباشر بتهيئتهِ داخلاً وآمرك .. نعم امرك علانية ان تذهب سريعًا وتستدعي سيدتك ....

فادار الرجل المذكور لكوديت الاكبر ظهره وقال لهُ لولم تكن مسنًا لفزرت بطنك برجلي

وكان من هذا الاعتداء ان افرغ صبر كوديت فما امكنهُ بالرغم عن توسلات اخيهِ الى ان يصيح قائلاً يعزُّ عليَّ كثيرًا التنازل الى مشاجرة اجير ولكنني اصرح لك علانية انك فاجر متفاخر .. وانك ولا ريب شيخ الفجار

فالتمت الخادم بحدة واشار اليهما مهددًا بما ارجع الاخوين سوية الى الوراء ولكنهما اتخذا حالاً مظاهر الدفاع بتصويب المظلات الى صدر خصمهما كما تصوب الحراب اما الخادم فلم يبال بذلك واقترب منهما بملامح التهديد ثم اشار الى راس كوديت الاكبر الصلعاء باهانة وقال هل تريد ان اهشم لك برجلي هذا الراس فتاخر كوديت خطوة اخرى وصاح يالك من شقي وقح الا يوجد عندك شيء مقدس يستوجب الاحترام

ثم علت الجلبة فحضر شخص اخر وهو رجل متوسط العمر سمين قصير احمر الوجه ملتحف بقميص مستدير وقبعة من الفرو وقال ما هذا الذي اراه يايوحنا

اجاب الخادم ان هذين الرجلين ياسيدي صومير يحاولان الدخول عنوة الى الجوا ويقولان انهما مدعوين لوليمة ويطلبان السيدة ليبوف ولا ريب انهما شاربان

وكان كوديت الاكبر قد تملك روعهُ قليلاً بمجيء هذا الرجل المدعو صومير فقالا انت وحدك السكير

قال صومير بصوت خشن لا يختلف بشيءٍ عن صوت اجيره ان السيدة ليبوف ليست هنا وقد ابتعت منها جميع ادواتها وحقوقها في هذا المحل وليس عندي موائد ولا ولائم

ولو اخبر المسيو كوديت وقشذر برجوع نابوليون الى الحياة لما اصابهُ من الدهشة والذهول ما اصابهُ عندما علم بانسحاب السيدة ليبوف الفجائي فصاح ولكن هذا ياسيدي مما لا يقبل التصديق وهو جدير بان يذكر بين غرائب الاخبار ولي الشرف ان ابدي هذه الملاحظة لحضرتك وهي ان السيدة ليبوف كرّرت عليّ امس مساء الساعة الثامنة وثلاثة ارباع الدعوة التي كلفتني اليها قبلاً . . .

فقاطعهُ صومير وقال قلت لك اني ابتعت من السيدة ليبوف جميع ادواتها وامتعتها وحقوقها وكل ما تملك في هذا المكان ما عدا ثيابها وطرابيشها حيث لا فائدة لي ولا ليوحنا بها وامس مساء في الساعة العاشرة توجهت بسلام من هنا

قال كوديت الاكبر وليس باقل غرابة من هذه الحادثة ان يحضر المرء بشهية للطعام ولا يجدهُ . . .

قال صومير ما عاد لي وقت لاطالة الكلام ماذا تريدان ان يقدم لكما . يوحنا قدم لهما ما يطلبانهِ ثم انسل الى القسم الداخلي واغلق من خلفهِ الباب بمزيد الاعتناء

اما كوديت الاكبر فجلس على بنك بجانبهِ ورفع يديهِ الى السماء وقال بهياة مضطربة احضر لنا ما تريدهُ . . وان شئت فقليلاً من الحليب والشاي

قال الخادم لا يوجد عندنا شاي

فارسل كوديت تنهدًا عميقًا وقال كيف لا يوجد شاي فاذن احضر لنا قهوة وحليبًا

قال وكذلك لا يوجد قهوة ولا حليب

فصاح ماذا نقول

قال لا يوجد الا شاكولاته وبن محمص بلا سحن وكرز مخمر بالعرق وماء مسكر

فصاح كوديت من لا يقدر ياسيدي على تقديم خلاف هذه الاطعمة لا يفتح قهاوي

قال وماذا يهمنا أكلت اولم تاكل

والذي يظهر ان هذه الكلمات الاخيرة كان لها تاثير عظيم في كوديت الاكبر فالقى نظرًا معنويًا على اخيهِ وقال للخادم حسن آتنا بخبز وشاكولاته وكاس ماء مسكر

والذي ثبت من مظاهر الاحوال ان يوحنا المذكور كان غرًا في مصلحتهِ لا يعرف

منها شيء على الاطلاق لانه احضر السكر في طاسة والشاكولاته على جريدة قديمة بالية والماء في قنينة

ولدى مشاهدة الاخوين لذلك تبادلا فيما بينهما اشارات التعجب بما لا يخلو من الخوف . . .

ثم حضر بعدئذٍ البعض من ملازمي التردد على قهوة ليبوف وكانوا مدعوين للغذاء ايضاً من السيدة ليبوف في ذلك النهار فحدثهم الاخوان عن اختفاء صاحبة القهوة الفجائي وعن الوحشيين الكاسرين (وهي الالفاظ التي استعملاها للدلالة على صومير وخادمة يوحنا) الذين اخافا الارملة الكريمة الوديعة وخادمها الانيس بولتار

وعند ذلك انصرفت افكار الاخوين واصحابهما الى الافتراضات الغريبة بخصوص اختفاء السيدة ليبوف وظهور هذين الغريبين فذهب البعض ان السيدة ليبوف نشلت وان الناشل هو رجل انكليزي او اميركاني ولكن ديودونه ابدى بتعقل هذه الملاحظة وهي ان هياة السيدة ليبوف وسنها لا يسمحان بتصديق هذا الافتراض

فعارضه موسيقي قديم من ابيكو بدعوى انه اختبر قلوب البشر واكد ان هياة وسن السيدة ليبوف لا يمنعان من انتشالها لان كثيرًا من الميلوردات الواسعي الثروة فاسدو الذوق بما لا يقدر وكانت هذه النتيجة قلما توافق السيدة ليبوف ولكنها مع ذلك حصلت على مصادقة الاكثرية الكثيرة من المجتمعين وعند وصولهم بالبحث الى السوال من انفسهم عن خلفاء الارملة تعذر عليهم الجواب لان جميع تصرفاتهم كانت خفية ثم يظهر فضلاً عن ذلك انهم قلما يهتمون بالمبيع فلماذا يا ترى افتتحوا قهوة ما دامت هذه حالتهم .

وكان يوحنا مداوماً النظر الى الطريق واعينه شاخصة على الدوام الى منزل الساحر وفي تلك الاثناء فتح الخادم المسن ستوك باب المنزل الصغير السري لاخذ سلة الطعام من البائع المجاور كالعادة فركض يوحنا مسرعاً من الباب يبحث على سيده ثم قاده من يده واراه ستوك وقال هو . دائماً هو . .

قال صومير لا ريب ان روح هذا الرجل مسمرة بجسده

وعند ذلك اقفل الباب واختفى ستوك وبعد هنيهة دخل رجل بهيأة شنيعة ركضاً الى القهوة وقال ليوحنا تيقظ جيدًا اني لم اتقدمها الا ببضعة دقائق وقد سمعتها تقول انها قادمة اليه

قال يوحنا لا تخف فان سيمون على باب الطريق الصغير ولا يمكن ان يمر احد ولا يرى فصاح الرجل الاخر هذه هي وللحال ركض الرجلان سوية وتبعهما جماعة المترددين الى

القهوة لجهة الزجاج ينظرون باصغاء مزيد الى الطريق وكانوا قد سمعوا كل هذه المحادثة التي تقدم ايرادها .

فصاح كوديت الاكبر ديودونه . . . ديودونه تعال . . . تعال سريعًا . . . فهذه هي نفس الامرأة المسنة التي احضرت منذ اربعة شهور الصندوق ومنذ شهر تحريرًا الى الساحر . . انظر الى هيأتها كيف تدل على البلبلة وضياع الصواب

وكانت الامرأة المذكورة هي حقيقة السيدة بلوندو . . ولكنها مصفرة ومرتجفة فقرعت الباب وفي الحال فتح لها ستوك وادخلها الى داخل المنزل

فصاح الرجل الشنيع الذي يخاطب يوحنا حسن . . حسن . كم الساعة فاخرج يوحنا ساعته وقال دخلت المنزل الظهر وعشرين دقيقة

قال الرجل كفى فاني عائد الى فندق موريس حيثما نزلوا في الساعة العاشرة من هذا الصباح وخرج اما يوحنا فدخل ركضًا الى القسم الداخلي من القهوة

واذا ما علم القارئ بمقدار الفضول الخشن الملم بالمترددين على قهوة ليبوف وكيف ان هذا الفضول بقي بلا نتيجة تذكر منذ عدة شهور فحينئذٍ يسهل عليه ادراك حالة الاضطراب وتشاغل الافكار التي اصابت الاخوين وبقية المترددين لدى مشاهدتهم ان تلك الدسيسة الخفية التي ظن انها حسمت عادت الى زيادة الاشكال والتعقد بما يبذل بها من الاهتمام المزيد لاصحاب قهوة ليبوف الحديثين

الفصل الثمانون

منزل ماران

ولنترك اصحاب قهوة ليبوف والمترددين عليها شاخصين بابصارهم الى ابواب منزل الموسيو دي روشكيم ونقود القارئ الى منزل ماران الذي لا يزال مسكونا من عمة السيدة دي لانكراي

وكان الليل قد قارب الدخول وفي وسط احد العرصات الكثيرة الانوار المحاذية لقاعة الطعام مائدة كبيرة ممدودة عليها كثير من الاطعمة الشهية الفاخرة يرأسها سرفيان كبير الخدم ومن حوله اثنتان من خادمات الغرف وخادمان والطباخ ونحو اثنين او ثلاثة من

معارفهم وهم يرحون جميعاً بخيرات السيدة دي ماران التي لا تستطيع مفارقة فراشها لانها مصابة بمرض الفالج ولا يمكنها التحرك وكانت السيدة دي ماران على ما مرّ معنا في سيرة متبلدة الخاصة مبغوضة ومتروكة من الجميع لا يزورها احد على الاطلاق وقد اهملت لرحمة خدمها وهم لا يرحمون

قال الطباخ بصحتك ياموسيو سرفيان لان كل الشرف للسيد . . وانت اقدم منا جميعاً في هذا المنزل

فنهض سرفيان بهيأة تهكمية غريبة وقال بصحة سيدتنا وحبذا لو تعيش زماناً طويلاً ايضاً على هذه الحال من اجل سعادتنا

فقابل الجميع هذا الكاس بضجات الضحك

قال الطباخ ذكرتني بشيء نسيتة لاني لم اطبخ لها شوربة الارز ولكن لا باس سوف تاكل من شوربة السلاحف حيث لا يزال باقياً منها في القدر

وعند ذلك قرع الجرس شديداً في الدائرة الداخلية فلم يتحرك احد

قالت جوليا كبيرة الخادمات لقد عادت الى نغمتها الاولى وسوف تقلقنا بهذا الجرس

فتجدد القرع مرة ثانية

فصاحت جوليا هذا لا يحتمل عجباً الا تدعنا نتناول الطعام براحة وانت ياسيدي سرفيان كم من مرة وعدتنا بكسر هذا الجرس واراحتنا منهُ ولم تفكر باتمام وعدك

قال الطباخ والغريب انها صارت تكثر من قرعهِ وتضجرنا

وعند ذلك تجدد القرع بعنف نحو ثلاث او اربع مرات متتابعة

قال سرفيان الحق معك ياجوليا لا راحة لنا الا بكسر هذا الجرس

قالت جوليا ومع هذا فلا باس من ترك جرس صغير في يدها لتسليتها ثم نقفل الابواب جيداً حتى لا نعود نسمع شيئاً

قال احد الخدم ولكنها تحضر حداداً لاصلاح الجرس المذكور وتعود الى قرعهِ كالعادة

قالت جوليا انت لا تزال غراً جاهلاً ياموسيو كوجون . . من يطيع اوامرها . . نعم انها لا تلبث بعد كسر الجرس ان تامر باحضار الحداد لاصلاحهِ ولكننا لا نحضره ونقول لها . . .

قال سرفيان ونقول لها انهُ يوجد في المدينة مرض حيوانات وان هذا المرض لم يبقِ على احد من الحدادين

فاستلقى الحضور لهذه المازحة على ظهورهم من شدة الضحك وعلا صوت قهقهتهم على صوت

الجرس المقروع وقتئذٍ بشدة من السيدة دي ماران ولكن عندما همد الضحك قليلاً سمع رنين الجرس بما تصطك له الاذان

فصاحت جوليا ما عدنا نستطيع احتمال ذلك .

قال الطباخ متعجباً ما امهرها في قرع الاجراس . . ما امهرها

قال كوجون لا ريب انها تصر الان على اسنانها وتضطرب غيظاً كمن فيهِ شيطان

قال سرفيان لا يمكنها ان تضطرب لانها ملقية على فراشها ولا تستطيع ان تحرك شيئاً من جسدها خلاف يدها اليسرى

قال الطباخ ولكنها تحسن استعمال هذه اليد على ما يظهر . . اسمعوا . . اسمعوا قرعات الجرس حقاً انها ماهرة كثيراً في قرع الاجراس

فصاحت جوليا ان هذا القرع الشديد يورث الجنون وقد فكرت بطريقة مناسبة للتخلص منهُ فانهض يا كوجون وآتنا بسلم المكتبة واقطع شريط الجرس المار في هذه القاعة وارحنا من هذا البلاء

فصادق الجميع على هذا الفكر لان قرع الجرس من السيدة من ماران كان قد اشتد كثيراً وصار متواصلاً

فاحضر كوجون السلم وعند ذاك دفع اليهِ سرفيان المقراض المستعمل لفتح قناني الشامبانيا فقص بهِ الشريط وفي الحال انقطع الصوت وسادت السكينة فجأة بعد ذلك القرع العنيف فضحكت جوليا وقالت يالله ما اقبح هيأتها الان وهي ممددة على الفراش بقبعتها الرمادية كان بودي ان اذهب للتفرج عليها ولكنها تنهشني اذا اقتربت منها في مثل هذه الساعة

قال الطباخ ولا ريب ان جرحك يكون وقتئذٍ ساماً

فقال كوجون لماذا يا ترى السيدة دي ماران مستمرة على لبس قبعة من الحرير وعباءة بلون البراغيث في فراشها وقد صار لها الان نحو شهرين لا تستطيع النهوض

قال سرفيان هذا نذر منها للشيطان

فصاحت جوليا حقاً ان هذه الامرأة من بنات الشيطان لانها متناهية بعمل الشر وقد عذبتنا كثيراً قبل مرضها وقذرت كثيراً والان جاء دورنا

قال سرفيان والذي يزيد في غيظها انها لم تعد تقدر على الكتابة لوكيل اعمالها الموسيو لوشيت الذي كانت تشكونا اليهِ دائماً . . ولطالما الحت عليَّ بلزوم احضاره . . ولكني لست بهيماً الى هذا الحد . . . .

قال كوجون ان البواب ارجع الاب فابري منذ ثمانية ايام ولم يسمح له بالدخول

قال سرفيان لقد امرتة بمعاملة الموسيو لوشيت نفس هذه المعاملة اذا حضر من تلقاء نفسهِ حيث لا يبعد ياولادي ان تسكنهُ السيدة دي ماران بيننا اذا نظرتهُ وحينئذٍ ينغص عيشنا وبدلاً من ان نتناول الطعام الفاخر في رواق القاعة كالان نلتزم بالنزول الى دائرة المطبخ ونفقد كل هذه الملذات

قالت جوليا فاذن قل للسيدة دي ماران عن الموسيو لوشيت انهُ مات وان مرض الحيوانات قضى على جميع وكلاء الاعمال كما قضي على الحدادين

قال سرفيان ولا احسن من هذا الراي المريح حيث لا يتضمن الرفض ولا العصيان ومن جهة ثانية نقول للموسيو لوشيت ان السيدة دي ماران لا تريد ان تراه . . . واذا كتب اليها لا اسلمها تحاريره لاني اعرف خطهُ

قالت جوليا بمظاهر الخبث ولكن يجب الاحتراس من اصحاب السيدة دي ماران لئلا يقولوا لها ان لا صحة لوجود هذا الوباء

قال كوجون ومن هم اصحابها فقد صار لي ستة شهور في هذا المنزل ولم ار احدًا منهم الا ذلك الشيخ العالم الشنيع

قال سرفيان الموسيو بيسون الكسار حيث لم يعد لها من اصحابها القدماء الا هذا الرجل لانهُ اتى على الاقل منذ اقفال المنزل نحو ثلاث مرات وفي كل مرة كنا نعتذر منهُ ونقول لهُ ان السيدة دي ماران لا تسمح لاحد بمقابلتها . . ياللفرق العظيم بين ايامنا هذه وايام اورزيل كم كان يحصل وقتئذٍ من حفلات الرقص والسهرات والولائم فقد رقصوا كثيرًا وغنوا كثيرًا واكلوا كثيرًا وانا اكتسبت من ذلك بستانًا صغيرًا في بوس قالت جوليا انظر والى ماذا يفعل الاقتصاد ولكن قلبي يكاد يتمزق حزنًا لدى التفكر بتلك المسكينة السيدة اورزيل

قال سرفيان ان الجديرة بالشفقة انما هي حضرة الفيكونيسة ابنة اخي السيدة دي ماران التي عذبتها برداءة عندما كانت صغيرة

قالت جوليا اما رايت كيف ان سيدتنا تشاجرت منذ خمسة عشر يومًا مع الدكتور جيرارد لانهُ اثنى على السيدة دسيه لانكراي واوسعتهُ سبًا وشتماً حتى صرح علانية انهُ لا يعاود الدخول ابدًا الى هذا المنزل

قال سرفيان ومن اجل مقاصتها على هذا العمل لم اذهب لاستدعاء الدكتور فيرنول كما امرتني . . حيث لا يخفاكم ان الطبيب يضايقنا

قالت جوليا وما الفائدة من استدعاء الطبيب . فالج لا تعالج

قال كوجون ليس هذا فالجًا فهي لا تشعر بشيء على الاطلاق الا انها لا تستطيع الحركة

وغاية ما يقال انها ملازمة السكينة

اجابت صدقت وهذا المرض لا يحوج الى استدعاء الطبيب واذا نظرت الى ادوية الدكتور جيرارد تتأكد ذلك فهو لا يعطيها الا بعض قناني شراب الليمون و بعض المعطرات واشياء لا تذكر

قال سرفيان من المقرر انها منذ خمسة عشر يوماً اي من حينما انقطع الطبيب عن زيارتها لم تتاخر صحتها عما قبل ولربما تبقى طويلاً في قيد الحياة لان الحدب طويلو الاعمار كالقطاط ثم لدينا من الاموال ما يكفي لمصروفنا لاني معتاد على اعطاء الوصولات الى مستاجري الاملاك بالنيابة عن السيدة دي ماران ولها عليّ اني لا آخذ من المال المقبوض غير اللازم المصروف . . واضع البقية في صندوقها

قالت جوليا نحن بتمام الراحة من هذا القبيل ولكن يلزمنا خادم صغير لخدمتنا على المائدة حيث من المضجر ان ينهض الواحد منا في كل دقيقة لخدمة نفسهِ

قال سرفيان مستصوب والان اخبركم بمناسبة ذلك ان السيدة دي ماران من حين وفاة كلبها الاخير وهي تطلب اليّ بالحاح ان اشتري لها كلباً اخر

فصاحت جوليا ابداً . . . ابداً . . . لا اريد كلاباً في هذا المنزل : . . لا اريد كلاباً . . . كفاني ما تحملته الى الان في خدمة الكلاب وفضلاً عن هذا فانيما قتلته لاحضر كلباً اخر بدلاً منهُ

قال سرفيان فاذن انت التي قتلتهِ

اجابت بلا ريب لان ذلك الكلب المسن الشرير كان ويلاً علينا

قال سرفيان من الموكد ان السيدة دي ماران لم تبكهِ الا لشره ثم سال والان هل تريدون قطعياً الا احضر كلباً الى المنزل

فردد الجميع نعم . . نعم لا نريد ذلك

قال سمعاً وطاعة وسوف اقول لها عن الكلاب ما قلناه عن الحدادين ووكلاء الاعمال والاطباء

فضحك لهذه العبارة بقية الحضور وكانوا يتناولون وقتئذٍ الاثمار فقالت جوليا ما احسن هذه الفواكه ولكننا في حاجة الى الخمر القبرصي

فنظر الموسيو سرفيان على الطاولة وقال اظن ان قناني هذا الخمر في غرفة السيدة دي ماران

قالت جوليا يا للعجب من هذه الامرأة كيف تخزن الخمر القبرصي في خزانة ثيابها

قال سرفيان دعينا من الحديث في هذا الموضوع لان هذه الاعمال تحملنا على الشفقة عليها ثم نهض وقال اني ذاهب لاحضر لكم من هذا الخمر

قالت جوليا اذا كان لا بد من الدخول الى غرفة السيدة دي ماران فلناخذ لها الشوربة بطريقنا ونقضي المصلحتين سوية

قال سرفيان الحق معك انا ما تاخرنا عليها الا نصف ساعة فقط لانها طلبت الشوربة في الساعة الثامنة ونصف ونحن الان في الساعة التاسعة

وعند ذلك صب الطباخ بلا اكتراث بعض فضلات من الشوربة في صحفة من الخزف ثم اخذ سرفيان الصحفة ووضعها على صينية من الفضة وتجاوز بالجميع القاعات الثلاث التي تفصل مكان الطعام عن غرفة السيدة دي ماران وجوليا امامة تحمل الشمعة حتى لا يعثر في طريقهِ وكان الليل قد ارخى سدولهُ فقالت جوليا ضاحكة وهي تفتح الباب الحذار منها ياسرفيان عندما تقدم لها الشوربة لئلا تفترسك

وكانت داخلية هذه الغرفة لا تزال على ما تقدم وصفهُ في سيرة متيلدة الخاصة فعلى الموقدة تماثيل خضر باعين حمر متحركة ثم الخزانة القديمة والكلاب المحنطة وصور البعض من ابناء الجيل الماضي معلقة على الجدران .

وكان يظهر في صدر المضجع المغطى بالجوخ الاحمر على الضوء الضعيف المنبعث من شمعة جوليا وجه السيدة دي ماران المصفر المضطرب وهي جالسة في فراشها تسند راسها الى كداسة عظيمة من المخدات

وكانت لا تزال لابسة نفس ذلك الثوب الحريري الرمادي وذلك الرداء المختص بالفراش وشعرها الاسود يغطي نصف جبهتها المسطحة المنخفضة كجبهة الافعى وعندما دخل سرفيان كانت اعينها المجورة اللامعة متقدة بشرار الغيظ . . . وهي في حالة مستنكرة لان الفالج امات جميع جسدها ولا يمكنها ان تحرك غير عنقها واليدبها وذراعها الايسر ولهذا فان اللعنات والقذف والشتائم التي وجهتها الى سرفيان عند دخولهِ كان لا يصحبها الا حركة طفيفة من راسها وبعض رعشات عصبية من يدها اليسرى فصاحت وهي تزبد غيظاً العلك تريد موتي اذن ايها اللص الشقي

اما سرفيان فتقدم ببرودة لا توصف الى الفراش لوضع الصينية وكان من هذه البرودة ان ضاعفت غيظها فصاحت اغرب عن وجهي اذهب من هنا ولا تدعني اراك

فارتد سرفيان على اعقابهِ ثم اشار الى جوليا واتجه نحو الباب فقالت لهُ الخادمة بصوت منخفض والخمر القبرصي قال صبراً سوف تعود الى مناداتنا اما السيدة دي ماران فعادت الى

النداء وصاحت سرفيان . . سرفيان . . جوليا . . الا تريدان البقاء . . اه ثم اه من هولاء الاشقياء لقد آلوا على انفسهم ان يميتوني من شدة المرارة والعذاب فظهر على سرفيان كانه ارتد عن عزمه وارجع الصينية بقدم متمهل.

وشعرت السيدة دي ماران وقتئذ انها في حاجة للامساك من نفسها فقالت بصوت متقطع بالغضب كم الساعة الان . . واية ساعة طلبت الشوربة

فوضع سرفيان الصينية على الفراش وقال كنت منتظرًا ان تدق سيدتي الجرس لاحضر لها الطعام

قالت جوليا ان سيدتي تقرع الجرس عادة للحصول على الضوء

فرفعت عمة متيلدة اعينهـا لنحو السماء وصاحت بصوت خشن سيقتلونني . . . سيقتلونني ثم سالت بغيظ يستحيل وصفة كيف لم ادق الجرس وقد كاد يخلع ذراعي من كثرة الدق

فسال سرفيان متعجبًا سيدتي قرعت الجرس

قالت جوليا لربما توهمت انها قرعتة

فصاحت السيدة دي ماران ماذا . . . لربما توهمت اني قرعتة ايتها الكاذبة . . . لربما توهمت اني قرعتة . . وقد صار لي نصف ساعة وانا اقرعة بعنف شديد

قال سرفيان فاذن سيدتي كسرتة بشدة القرع حيث ما سمعنا شيئًا

فصاحت على فرض اني كسرتة فالذنب بذلك على من ايها الحيوان اليس عليك . . . صار لي نحو نصف ساعة وانا في الظلمة وانت تعلم جيدًا اني اخاف شديدًا من الظلام ثم صاحت بجوليا ان اقتربي ايتها الحيوانة واضيئي الشمعة

اما جوليا فبدلاً من ان تطيع سيدتها رفعت طرف ثوبها الى اعينها وتظاهرت بالبكاء ثم ركضت الى الباب واختفت وهي تقول لا احتمل ان اعامل بمثل هذه المعاملة فصاحت السيدة دي ماران جوليا . . جوليا ابقي مكانك . . ياللشقية . . لست اريد ان تبقي في منزلي . . . لا اريد مثل هولاء الناس . . . فلتطرد . . . فلتطرح ثيابها خارجًا . . . الان وفي هذه الدقيقة . . فهمت ياسرفيان . .

قال نعم ياسيدتي كوني براحة وسكني روعك وبعد ان وضع الصينية على طاولة للفراش بجانب السيدة دي ماران ذهب الى الغرفة واخذ قنينة من الخمر القبرصي وبينما هو يقفل الخزانة واذ سمع صوت كسر صحنة على البلاط ثم صوت السيدة دي ماران وهي تصيح بمنتهى درجات الغيظ سرفيان . . سرفيان:

قال ما بالك ياسيدتي

فصاحت هل مرادكان تسمني . . ياللهول ما هذه الشوربة

قال ما هذا الذي فعلته ياسيدتي هل القيتها الى الارض مع الصحفة

فصاحت جئتني بشوربة السلاحف وانا مريضة فاذن مرادكم قتلي ايها الانذال . والظاهر ان سرفيان فكر وقتئذٍ بانتظار اصحابهِ لهُ فاتخذ من ذلك حجة للذهاب لجوليا وقال بصوت حزين متالم يصعب كثيرًا على خادم مسن ان يعامل هذه المعاملة وخير لي ان اذهب ولا اسمع سيدتي تخاطبني بهذا الحديث ثم خرج واقفل الباب من خلفهِ باحترام

فصاحت سرفيان . . سرفيان . . ابق مكانك . . اه ياالهي ما هذه القنينة التي اراها معهُ . . . انها ولا ريب من خمري القبرصي وانا محاطة باللصوص الاشقياء الانذال واكاد اختنق من شدة غيظي .

ثم حاولت بعناء قرع الجرس ولكنها القت سريعًا الشريط وصاحت الجرس مكسور والخدم لا يحضرون . . فما العمل ياترى وانا وحدي . . وحدي . . وما من احد معي ينقذني من هولاء القساة . . وهم يهينونني . . ويعذبونني . . وينهبونني . . ولا استطيع شيئًا لاني عجوز منفردة مفلوجة ومتروكة من الجميع ثم ما الفائدة اذا طردتهم واتخذت لي خدمًا غيرهم وليس لي احد يسندني ويهتم بمصالحي . . فاه يا الهي ما اقل حظي . . لاني عجوز مسنة مريضة سقيمة محرومة من كل عناية لا آكل خلاف الشوربة ولا احصل عليها . . واتضور جوعًا . . اتضور جوعًا وقد اشرفت على الموت من شدة جوعي وانا في وسط منزلي وخدمي ثم صاحت سرفيان . . سرفيان . . ولما لم تسمع جوابًا قالت لا يريدون الحضور ولا يوجد عدالة لا في السماء ولا على الارض . . ما هذه البربرة . . ما هذه الخشونة ان ادنى النساء يكون لها عند مرضها من يعتني بها . . ويشفق عليها . . اما انا فليس لي احد . . ليس لي احد على الاطلاق ولا اقدر على غير الصياح وقد ناديت كثيرًا ولكنهم لا يريدون استماعي . . فما العمل ياالهي . . لربما يحضرون اذا صحت المعونة المعونة . . النار النار

ثم اخذت السيدة دي ماران تصيح بمنتهى قوتها المعونة . . المعونة . . . النار . . النار

وكان صوتها قد ضعف باضطرابات الغضب فما سمع من احد وبقي السكوت منتشرًا ثم اكفهرّ وجهها من الخوف لان ضوء الشمعة الضعيف كان لا يكفي لتبديد الظلمة المنتشرة في تلك الغرفة وكانت السيدة دي ماران كبقية الاشرار الجبناء المعذبين بتبكيت الضمير يخيفها الظلام فرددت بصوت خائر المعونة . . المعونة . . النار . . النار

وبعد هنيهة من السكوت العميق عاودت الحديث بياس فقالت انهم لا يحضرون وغاية

مرادهم ان احترق واموت ولكن من المخيف ياالهي ان اموت هكذا وحدي . . ومن حولي خدام ينتظرون موتي ليسلبوني ثم كررت قولها اموت . . اموت . . و بعد ذلك ماذا يكون لا . . لا . . . لا يوجد شي . . لا يوجد شي على الاطلاق

وفي تلك الساعة صادفت اعينها المتضعضعة بالخوف صورة احدى قريباتها وكانت فيما سلف راهبة وهي بقناع اسود ووجه مصفر كوجوه الموتى يتراءى للناظر كانه متجسم في تلك الصورة فتضاعفت بهذا المشهد مخاوف السيدة دي ماران وحصلت لانفرادها ومنظر هذه الراهبة على بعض الافكار الدينية التي جددتها بعنفوان منذ هنيهة فصاحت اشفق عليّ ياالهي سوف اعود الى الدين . . واصلي واتخذ لي كاهنًا يناولني القربان ويعرّفني . . وهذا الكاهن لا يفارقني ويعتني بي و ينقذني من هولاء الخدم الادنياء فيطردهم و يدافع عني . . اني احلف لك على ذلك ياالهي ولكن كيف الوصول الى هذا الكاهن ومن يحضره . . ان هولاء الاشقياء يحتقرون اوامري وقد طلبت اليهم منذ خمسة عشر يومًا ان ياتوني بطبيب ولكنهم ابوا الا مخالفتي فلمن اشتكي ومن يسندني . . وانا وحدي . . دائمًا وحدي ان الناس يبغضونني فمن يحضر لمشاهدة عجوز مسكينة مفلوجة . نعم كانوا يحضرون ايام كنت اعد الولائم الحافلة واستطيع اذيتهم اما الان فما عادوا يخافونني وهم ينتقمون مني عن الشرور التي صنعتها فياللهول . . اني اسمع دويًا . . ولا شك ان هذه التي وقفت امام بابي عربة فاه يا الهي ما هذه السعادة ولكن الخدم الاشقياء لا يتركون احدًا يدخل عليّ . . وسوف يرجعونها . . لا . لا بقيت وقد اغلقوا الباب . . وهذا وقع خطوات . . وقع خطوات ولا ريب ان انسانًا قادم اليّ

وعند ذلك سمع حقيقة صوت سير ارجل ثم فتح الباب بعنف ودخلت السيدة دي لانكراي يتبعها سرفيان الخادم

الفصل الحادي والثمانون

المواجهة

فصاحت السيدة دي ماران ان الرب العلي هو الذي ارسلك ياامتيلدة فتعالي لمعونتي

اما متيلدة فركضت مذعورة وبلا صواب نحو فراش عمتها وصاحت النجدة . . النجدة . . عما قليل يحضر زوجي . . فانقذيني بربك انقذيني

فصاحت السيدة دي ماران نعم . . نعم سانقذك يابنيتي ولكن نبقى سوية بعد ذلك ولا تفارقيني على الاطلاق وسوف ترين من اعمالي الصالحة ما يعادل شروري السابقة فقط لا تتركي عمتك العجوز المسكينة بين ايدي جلاديها اليس كذلك ياعزيزتي لو كان في وسعي ان اجثو على ركبتيّ لتوسلت اليك بالبقاء معي وانا جاثية عليها واحلف لك اني افعل كل ما تريدينه فقط لا تتركيني وحدي . . انك لا تعلمين الى اية حال مخيفة وصلت حياتي

فما امكن متيلدة بالرغم عن مخاوفها الا ان تتاثر من لهجة الياس التي تكلمت بها السيدة دي ماران فاجابت بعجلة ان الدقائق ثمينة ياسيدتي وانا قادمة لاطلب منك نفس ما تطلبينه وهو البقاء معك . . فانت اقرب انسبائي ولربما يسمح لي ان ابقى بجانبك

فصاحت السيدة دي ماران بمنتهى الفرح والتعجب اصحيح ذلك يا الهي . . انت تسالينني البقاء بجانبي

اجابت بمزيد التالم والاضطراب نعم ياسيدتي . . ارضى بكل شيء ولا . . ثم استتبعت حديثها وقالت انه مسلح بالقوانين والقوة ولكنني افضل الموت على اتباعه

قالت السيدة دي ماران لا . . لا . . لا تتبعيه . . ابقي معي يامتيلدة فان جميع ثروتي هي لك وقد خصصتك بها منذ زمن طويل . . وهذا صحيح . . صحيح وسوف اعطيها لك كلها في حياتي ولا ابقي منها شيئاً لسد احتياجي اذا رضيت بالبقاء معي

وكانت متيلدة وقتئذٍ في حال شديدة من مشاغل الافكار فلم تنتبه الى شيء من هذه الاقتراحات وبقيت لا تفكر بخلاف النجاة من زوجها ثم صاحت سوف يرغمني على الذهاب معه كما فعل قبلاً

قالت السيدة دي ماران ابداً . . ابداً . . لا يستطيع ذلك وسوف نختار افضل المحامين للدفاع عنك ونخاصم ولا نبخل بشيء . . لا نبخل بشيء على الاطلاق لابقاء ابنة اخي بل ابنتي العزيزة بجانبي لانك انت تقريباً ابنتي . . . انت ابنة اخي . . اخي الصالح الذي طالما احببته

قالت متيلدة لربما يحضر زوجي الى هنا بعد ساعة . . بعد ساعة ياسيدتي . . لانه جاء اول امس بطلبي الى ماران ولما رفضت اتباعه ذهب الى شيخ الناحية وارغمني على مرافقته لدى وصولي الى هنا في فندق موريس مع حضينتي بلوندو التي سمح لي باحضارها معي قال لي ان انتظره هنالك وانا لا نبقى في باريس الا اثنتي عشرة ساعة لاجراء المعاملات اللازمة اجازات السفر والحصول على اوراق السلطة التي له عليّ بقوة القانون لانه يريد ان يتسلح

باوراق قانونية تمكنة من اغتصابي على انفاذ اوامره متى اظهرت المقاومة

قالت السيدة دي ماران فاذن اختبئي هنا يا ابنتي فلا يهتدي اليك ولا يعلم بمجيئك الى هذا المكان

اجابت يوجد من العيون والرقباء من يلاحظ خطواتي ياسيدتي وقد اخبرني الموسيو دي لانكراي اني لا استطيع النجاة منه وانه قادر على اجتذابي ومع هذا فقد استغنمت فرصة ذهابه وركضت الى عند الدوقة دي ريشفيل فاشارت عليَّ بالمجيء الى هنا وان لا اسلم الا للقوة ومتى حضر القضاة اتوسل اليهم ان يتركوني بجانبك لانك اقرب انسبائي لبينما اثبت لهم دناءة تصرف الموسيو دي لانكراي نحوي

فصاحت السيدة دي ماران الحق معها . . الحق مع هذه الدوقة الطيبة . . . الصالحة . . والقضاة لا يمكن ان يرفضوا هذا الطلب . . من يستطيع ان يفصل ابنة الاخ عن عمتها . . ابداً . . ابداً . . لا يمكن ان تتركيني وكم يكون حسناً وجميلاً منك التظاهر بمثل هذه المكارم بعد جميع الشرور التي اساءت بها اليك . . ولكن سواء عندك اسأت او احسنت لانك طيبة ولك نفس كريمة وزد على هذا ان الصفح من شيم العظماء وانا تعيسة . . تصوري يابنيتي المسكينة كوني ضحية لخدام اشقياء يحيطونني . . . انظري الى اية درجة وصلت شرورهم كان عندي كلب . . حيوان مسكين . متعلق بي . . وهو المخلوق الوحيد الذي لا يبغضني في هذا العالم وكان تعزيتي وفرحي في هذه الوحدة فقتلوه بقساوة . . . . نعم قتلوه بالسم واوكد ذلك لاني امرتهم بعد موته باحضار كلب اخر فلم يحضروا . . نعم ان هذه الاخبار لا تصدق ولكنها حصلت . . تصوري يابنيتي انه لا يوجد في هذا المنزل من يطيعني حيث ما الذي يضرهم ياترى لو احضروا لي هذا الكلب . ثم لمن اشتكي وهم لا يسمحون لاحد بالدخول عليَّ . . وبالعكس عندما تكونين هنا بجانبي فانهم يخدمونني وانت تامرينهم بذلك وترغمينهم على اطاعة اوامري وتفعلين كل شيء لاحترام عمتك المسكينة العاجزة اليس كذلك

فصاحت ميلدة عربة . . عربة . . هذا هو . . هذا هو . .

ولكن ظهر من صوت مسير العربة المذكورة انها تجاوزت المنزل فقالت السيدة دي ماران لا . . لا ليس هذا هو . . ثم ما الذي يريد ان يفعله هذا الوحش الكاسر لانه بلا محالة وحش اه لو كنت تعرفينه كما اعرفه . اني نادمة الان كل الندم لرضائي عن هذا الزواج ولكنك سلبت وفتنت بحبه وسابقى حزينة لمدى حياتي لاني ازوجتك لمثل هذا اللص . . المزور . . المحتال ولو كنت قادرة على البكاء لبكيت بدل الدمع دماً . . ثم ما الذي يريده منك الان هذا الشقي الم ينفق جميع ثروتك

فصاحت السيدة دي لانكراي مرتهبة بريد ان يبيعني من الموسيو ليكورتو

قالت السيدة دي ماران اه يامتيلدة ما هذا البلا

اجابت قلت لك ان هذا الرجل يفعل كل شيء من اجل الدراهم وانهٔ يقدم على جميع انواع الجنايات لشفاء حقد ذلك الوحش ليكورتو لانهٔ يبغضني مثلهٔ وعند مجيئهِ سارني بامور كثيرة هائلة وقال انهٔ عند الحاجة ينكر كل ما قالهٔ ولا يصدقني احد . . ومع ذلك فان القانون الذي سنهٔ الرجال . يرغمني على مرافقة هذا النذل الذي لا يقودني للعار فقط بل للموت ايضًا . . لاني سانتحر ولا اسلم بالبقاء مع هذين الرجلين . . واذا انحرف يشفق عليَّ الرب . . ولكن اسمعي . . اسمعي ثم صاحت بخوف شديد . . صوت عربة . . ولا ريب انها وقفت على الباب في هذه المرة

اجابت السيدة دي ماران صحيح يابنيتي وقفت عربة . ولكن لا يبعد ان تكون عربة الطبيب الذي انتظره . . لان هولاء الخدم القساة تمنعوا عن احضار الطبيب ايضًا

فصاحت متيلدة لا . . لا . . هذا هو . . وقد ارسل من يترقبني . . واكتشف على اثري حيث قال لي ذلك . . قال لي ذلك

قالت السيدة دي ماران . اني سارسل سرفيان حالاً لاستدعاء المحامين وعلى كل فاظهري المقاومة يابنيتي العزيزة . . اظهري المقاومة ولا تسلمي الا للقوة اه لو كانت خدمي مخلصة لي لالقيت من النافذة ذلك الوحش الشقي الذي يريد ان يختطف مني ابنتي الحنونة

وكانت ظنون متيلدة في محلها حيث ما لبث الموسيو دي لانكراي ان دخل بعد هنيهة الى غرفة السيدة دي ماران وكان قد سمن كثيرًا ولكن قامتهُ لا تزال رشيقة زاهية وهو لابس بمنتهى العناية والزهو وكان وجههُ بالرغم عن سمنهِ باهتًا واعينهُ مجوره سقيمة تحيط بها دائرة زرقاء وقد رسمت على ذلك الوجه ملامح الفسق والرزيلة فكان لهياتهِ التي امتازت قبلاً بالرقة والظرف والذكاء مظاهر الخشونة والرخاوة ولا ريب ان امبراطوري رومية القديمة سفاكي الدماء المخنثين كان لهم مثل هذا المشهد اما صوتهُ وكان قبلاً جسورًا متعظمًا فضعف وتلطف بتصنع مضجر

وعند دخولهِ تقدم الى فراش السيدة دي ماران ثم اخذ يدها وقبلها وقال لها ما هذهِ الصدفة البديعة التي جمعت اليوم بجانبك الزوجين السعيدين اللذين جمعت بينهما

قالت السيدة دي ماران دعني براحة من هذا الصوت المصنع وهذهِ الاساليب النسائية ان هذهِ الهيئة النمرية تخيفني . . فلماذا ياترى تعذب هذه الامرأة المسكينة . . الا فاعلم قبل كل

شيء انها تريد البقاء هنا . . معي . . مع عمتها العزيزة . . فهمت . . اني شقيقة ابيها واقرب انسبائها وانبهك انك لا تستطيع انتشالها مني

فجلس الموسيو دي لانكراي على مقعد بجانب فراش السيدة دي ماران ثم وجه حديثة الى متيلدة وقال ساخرًا بقساوة وتصنع يظهر ياعزيزتي انك خائفة كثيرًا مني حتى لجأت الى هذه النصيرة

فصاحت متيلدة مرتعشة لا يمكن ياسيدي ان تاخذني حية من هذا المكان

قالت السيدة دي ماران فهمت ايها الرجل السفل ان هذه البنية العزيزة لا يمكن اخذها حية من هنا . . اذهب اذن . . اذهب من منزلي ودعنا براحة لبعضنا فبقي الموسيو دي لانكراي مداومًا التصنع في حديثهِ وقال اما من امل اذن برجوعك الى الصواب ياملاكي الجميل . . الا تريدين ان تسلمي انك لي وانك زوجتي العزيزة . . وان لي مطلق السلطان على نفسك وجسدك . . وهلا تعتبرين بالحوادث الماضية اني حضرت اول امس الى ماران فرفضت المسير معي والتزمت ان احضر لك شيخ الناحية مع القاضي وقد صرحا لك انك ملتزمة بمرافقتي الى حيثما اريد ياحبيبتي . . وهل يمكن ياترى ان اتخلى عن كل هذا الظرف . . فانت اجمل كثيرًا مما كنت ولك بشرة بمنتهى النعومة والنضارة

فتميزت السيدة دي ماران من الغيظ وصاحت ان شيخ قريتك حمار ابله وفي باريس لا يحصل مثل هذا الجور حيث لدينا محامون محنكون وقضاة يفصلون بينكما بطريقة شرعية ويربحوننا منك

قال هل تظنين ذلك

اجابت بلا ريب هل من الممكن ان نترك امرأة مسكينة بين ايدي رجل . . . . ابدًا . . ابدًا . . ولا يحصل مثل هذا الا اذا اضمحلت العدالة عن وجه الارض

فاستتبع الموسيو دي لانكراي حديثة بلطف وقال من المقرر ياسيدتي ان كل شيء لا يكون مسرًا في هذا العالم وانا حاصل الان في جيبي ياعمتي العزيزة على ما يخالف افكارك فان حبيبتي متيلدة نفعتني بفرارها في هذا الصباح نفعًا عظيماً وقد علمت من قبل بامكان هذا الفرار فتواجهت قبل ذهابي الى ماران مع رئيس البوليس ومن حين وصولك الى هذه المدينة وانت تحت مراقبة رجال البوليس وغيرهم من مهرة المراقبين وعليهِ فقد علم انك ارسلت بلوندو خادمتك الامينة الى الكولونيل اولريك المسمى بالموسيو دي روشكيم وانها وصلت الى هنالك الساعة الواحدة و بقيت ثمه مقدار ساعتين ثم علم ايضًا انك عند خروجك من فندق موريس حيثما نزلنا ياحبيبتي ذهبت الى القبر المقدس ثم الى هنا وقد ارسلت الى فندق موريس

اطلب عربة السفر حيث كما اخبرتك ياعزيزتي لا نريد الاقامة في هذه المدينة اكثر من اثنتي عشرة ساعة وقد صرفت هذا الوقت في تنظيم اجازات السفر ثم الحصول على امر من رئيس المجلس بحث الدوائر الرسمية على مساعدتي اذا حاولت زوجتي الشرعية مخالفة ارادتي اناز وجها حتى لا اقول سيدها . . هل تريدين ان تشرفي هذه الورقة بنظرك ياحبيبتي . . لا تمزقيها حيث لا تستفيدين شيئًا من تمزيقها الا ارجاعي لاحضار ورقة غيرها

ثم رفع الموسيو دي لانكراي الى متيلدة مضبطة شرعية بهذا الخصوص لان القانون كان يساعده وهو لا يستعمل الأ حقوقة القانونية

وبينا متيلدة تطالع بلا وعي المضبطة المذكورة صاحت السيدة دي ماران لا يمكن ذلك . . فانت لا تعلم اذن اهمية الشكوى التي ترفعها ضدك ولا ريب انها تكفي لتقرير افتراقكما لان عملك ضرب من الدنالة فهي تدعي انك تريد اخذها للاجتماع بذاك العبد الابيض اللعين الموسيو ليكورتو . . .

قال الموسيو دي لانكراي حقًا ان هذه العزيزة المسكينة قد تكلمت صوابًا ولم تخطيء . . لان هذا الصديق الصالح الحنون ينتظرنا في نيس . . وسنسافر في هذا المساء ويكون ساعينا في هذا السفر فريتز الذي تعرفه متيلدة . . ولا نصحب معنا احدًا غيره . . ونترك بلوندو هنا . . حيث يسرني كثيرًا ان اخدم بنفسي جميلتي العزيزة

وكانت متيلدة منذ مدة تنظر الى ما حولها بلا اكتراث كانها لا ترى شيئًا ثم جثت فجأة على ركبتيها بدون ان تلفظ كلمة واخفضت راسها وصلت بحرارة

قالت السيدة دي ماران ارايت كيف انها تصلي للرب . . لم يبقَ لها عضد الا بهِ وهو لا يتركها ولا يسمح ابدًا بحصول مثل هذه الجناية وان تعود لمشاهدة ذلك الرجل

اجاب الموسيو دي لانكراي اوكد لك ياعمتي ان الموسيو ليكورتو مظلوم بما ينسب اليهِ من التهم وسوف تحكم على ذلك معبودتي متيلدة . . حيث متى وصلنا الى نيس نتوجه سوية نحن الثلاثة الى سيسيليا لان صاحبنا ليكورتو يريد الاقامة فيها لمدة من الزمان وعندما كنا في نابولي زرنا قصرًا على بعض فراسخ من مسينا في وحدة بديعة تحيط بهِ الوديان العميقة التي لا تداس . . فسوف نقيم هنالك انا ومتيلدة وليكورتو ونعيش عيشة سعيدة . . اذ في ذلك المكان المقفر يكون المرء حرًا كما في اوتابيتي . .

وعند ذلك نهضت متيلدة بهيئة مفتخرة مهيبة واعين لامعة ووجه محمر وقالت للسيدة دي ماران بصوت ثابت ان الله سبحانهُ وتعالى لا يتركني واشعر جيدًا انهُ لا يتركني وان تركتني العدالة البشرية وسوف يسامحني ولو مهما حصل ويلعنك . نعم يلعنك لانك انت التي عهدت

لهذا الرجل بحياة ابنة اخيك لاعتقادك انهُ شيطان رجيم

فصاحت السيدة دي ماران بصوت سكين متيلدة

اما السيدة دي لانكراي فعاودت الحديث بهياج متزايد وقالت ان الله سبحانهُ وتعالى اراد بهذا الاجتماع الهائل ان يمثل امام اعينك الشر الذي فعلتهِ فانت اليوم في بدء ايام التكفير عن خطاياك . . متروكة من الجميع تتعذبين باعمال خدمك البربرية وسوف تموتين ايضاً متروكة وملعونة من جميع الناس . . . لان اورزيل التي اضعتها حتى ارتكبت الجرائم المتنوعة وانتهت حياتها بالانتحار لعنتك والموسيو دي مورتاني عندما سقط قتيلاً برصاص القتلة لعنك ايضاً حيث لو لم تزوجيني لهذا الرجل لما تاثر ليكورتو الموسيو دي مورتاني بحقده . . .

فصاحت السيدة دي ماران اه يا الهي . . . اه يابنيتي . . . لقد القيتني باليأس وانا اتعس المخلوقات

قالت السيدة دي لانكراي انك منذ عشرين سنة ابكيتني للمرة الاولى على فراش الاوجاع هذا الذي ترقدين عليهِ وكنت السبب في مخاوفي الاولى بقص شعري الذي مستهُ امي و ماركتهُ في حال الموت واليوم تريني مستعدة للسير مع هذا الرجل لان القوة والقوانين ترغمني على ذلك . . . مستعدة للسير معهُ فهمت . . انك ولا ريب تفهمين قوة هذه العبارة وما تتضمنهُ من المعاني المرهبة . . الا فافكري اذن بالشرور التي عاملتني بها منذ طفوليتي الى هذه الساعة . . . وبالمصائب التي يمكن ان تلم بي فيما بعد . . واذا سمعت يوماً عني انا ابنة اخيك اني قتلت نفسي للخلاص من العار فاعلمي وقتئذٍ ان دمي سقط على راسك وانك ملعونة . . .

فصاحت السيدة دي ماران الرحمة الرحمة يامتيلدة

وعند ذلك دقت الساعة العاشرة ثم سمع صوت مسير عربة وقفت في الشارع فاستتبعت السيدة دي ماران الحديث وقالت متيلدة اتركيني اذا اردت ولكن لا تذهبي مع زوجك لانهُ جدير بارتكاب جميع المعاصي

قالت متيلدة ان هذا هو الرجل الذي اخترتهِ لي ياسيدتي والقوانين ترغمني على المسير معهُ ثم التفتت الى جهة زوجها وقالت بصوت ارعشهُ رغماً عنهُ هانذا مستعدة ياسيدي . . .

وكان الموسيو دي لانكراي متوقعاً ان يصادف من زوجتهِ مقاومة اليأس فتعجب من هذه السكينة المخيفة ولكنهُ نهض متبسماً وقدم لها ذراعهُ

فدفعتهُ عنها باشارة العظمة والاحتقار

وعند ذلك دخل سرفيان وقال للموسيو دي لانكراي هوذا العربة والرجال ينتظرونك في القاعة

فسال الموسيو دي لانكراي ومن هم هولاء الرجال

قال ثلاثة رجال ياسيدي حضروا من فندق موريس بعربة مقفلة . . . وقد تقدمكم فريتز الساعي ليهيء اللوازم على الطريق

قال الموسيو دي لانكراي ما الذى تعنيه ياترى بهولاء الرجال الثلاثة ثم نهض يحاول التقدم لنحو الباب واذا يد شديدة احادت سرفيان من الطريق . . وظهر الموسيو سيشرين على الباب مصفراً كخيال وكان غاطساً بملابس الحداد فقال بصوت صريح مانت امي وجئت لاقتلك ياموسيو دي لانكراي

الفصل الثاني والثمانون

براز

وعندما شاهد الموسيو دي لانكراى الموسيو سيشرين اكفهرّ لونهُ واجابهُ بصوت خائر سنعود فيما بعد الى مقابلة بعضنا ياسيدي ثم التفت الى متيلدة وقال تعالي . . تعالي ياسيدتي

فانتصب الموسيو سيشرين في طريقهِ وصاح لا يمكن ان تخرج من هنا الا للمقاتلة معي

اما الموسيو دى لانكراى فاستمر على التقدم وقال انت مجنون ياحضرة الموسيو سيشرين

قال الموسيو سيشرين اذا تقدمت خطوة واحدة ايضاً صفعتك بالكف على وجهك امام امراتك

ولايخفى ان الجنايات والذنوب تجعل المرء جباناً لان كونتران كان باسلاً ولكنهُ فقد هذه البسالة ولم يعد يتصف بخلاف القساوة فصاح سرفيان خلصني من هذا الرجل . . . واطردهُ خارجاً

فصاحت السيدة دي ماران سرفيان اياك ان تمسهُ لان الموسيو دي لانكراي يحاول اخذ ابنة اخي المسكينة والموسيو سيشرين يريد ان يقتلهُ ولهُ الحق بذلك . . فبالله دعهُ يفعل . . . دعهُ يفعل . .

فانسحب سرفيان بتمهل ولم يقل كلمة ولا يعلم هل فعل ذلك لكدر بينهُ وبين الموسيو دي لانكراي او رغبة منهُ بارضاء سيدتهِ

اما متيلدة فسقطت على مقعد هنالك وغطت وجهها بيديها وعند ذلك اراد الموسيو دي لانكراي ان يغتصب الطريق للخروج فقبض عليهِ الموسيو سيشرين من طوقهِ بيد قوية ودفعهُ بعنف الى الوراء فسقط على طولهِ الى الارض وعند نهوضهِ ارسل نظرًا سريعًا الى ما حولهُ عساه يجد ما يمكن استخدامهُ كسلاح لدفاع . . فلم يجد شيئًا

وكان من هذه الاهانة ان اوقدت فيهِ شرارة من عزيمتهِ الاولى فتلون وجههُ الكالح بحمرة طفيفه وقال سوف تجازى على هذه الخشونه ايها الفلاح

قال الموسيو سيشرين لا باس انا فلاح ولكنني اريد قتلك باسرع ما يمكن . . وساقتلك . . .

قال حسن ارسل اليَّ بعد غد شهودك للاتفاق مع شهودي لان هذه الليلة وغدًا لايخصانني . . ثم التفت الى متيلدة وقال تعالي ياسيدتي

قال الموسيو سيشرين لو كان الوقت نهارًا لقدتك في الحال الى ساحة البراز . . ولكن الظلمة تلزمنا بالانتظار الى صباح الغد . . ولحسن الحظ الليالي قصيرة وشهودي واسلحتي معي ولا يمكن ان تخرج من هنا الا لمباشرة القتال

فصاح الموسيو دي لانكراي لا يليق حصول مثل هذا المشهد امام النساء

وكان الموسيو سيشرين يخاطب الموسيو دي لانكراي بقرب الباب فقال اصمت ثم قبض عليهِ من طوقهِ باسرع من لمح البصر وخرج بهِ عنوةً الى القاعة الاولى حيثما تنتظره الشهود ثم اقفل الباب من خلفهِ

ففرغ صبر الموسيو دي لانكراي بهذه الاهانة الجديدة وتقدم مطبقًا يده والزبد يتدفق من شدقيهِ نحو الموسيو سيشرين وقال هل وصلت بك الجسارة الى حد ان ترفع يدك عليَّ

قال نعم ايها الفيكونت وسافعل اكثر من ذلك ثم قبض بيديهِ الخشنتين على قبضتي الموسيو دي لانكراي الناعمتين وفتلها الى ان كاد يسحقها وبعد ذلك اقترب منهُ الى ان شعر بتنفساتهِ وبصق في وجههِ وقال لربما ترضى بقتالي الان

فعر الموسيو دي لانكراي عريرًا هائلاً اما الموسيو سيشرين فدفعهُ عنهُ بخشونة وانتصب امام باب القاعة ثم تناول من احد الشهود عصًا وقال للموسيو دي لانكراي ساوسعك ضربًا اليماً بهذه العصا اذا خطوة خطوة واحدة الى الامام . . بقصد الخروج . .

ولما رأى الموسيو دي لانكراي انهُ من المستحيل مقاومة الموسيو سيشرين جسماً لجسم جعل

يعض على قبضتيه بهياج ثم صاح يخاطب الشهود بصوت مختنق من شدة الغيظ هل يمكن ان نشترك اناس من اصحاب الشرف بمثل هذا الكمين

اجاب احدهم وهو رجل طويل بخدود عليها اثار كدوح ان هذا الا دين قديم . . وكان من اللازم ان لا ترفض مقاتلته غدا فالذنب اذن عليك لانك اجبرت الموسيو سيشرين على استعمال الوسائط المتطرفة . . . ان هذا الرجل ينتظر منذ زمن طويل تعويض الاهانة التي اهنته بها . . ومن كان مديونًا يجب ان يفي . . ويسكت

فصاح كونتران ولكنني في حاجة الى شهود ياسادتي . . . في حاجة الى شهود ويلزمني وقت لايجادهم

قال الشاهد ان عربتك تحت على الباب فاذا شئت نزلنا سوية ولا ريب ان لك معارف هنا فنحضر اثنين من اصدقائك ثم نعود لاخذ الموسيو سيشرين ونذهب الى بعد محطة من باريس حيثما ننتظر ثم طلوع الفجر وحينئذٍ لا نعدم مكانًا مقفرًا وطريقًا مخائدة لمباشرة العمل الذين جئنا من اجلهِ

وكان الموسيو سيشرين يتمشى ذهابًا وايابًا في القاعة كذئب في قفص فقال واذا لم تفعل ذلك لا افارقك ولا دقيقة واحدة واينما ذهبت اذهب معك واوسعك ضربًا بهذه العصا

قال الموسيو دي لانكراي متميزاً من الغيظ الى شاهد الموسيو سيشرين اسمح لي بكلمة واحدة ايضًا من اين علمتم اني هنا

اجاب منذ ثلاثة ايام اي في اليوم الثالث من وفاة السيدة سيشرين اخبرنا ابنها بامرك انا ورفيقي بطرس ليبلان الذي تراه امامك والذي خدم مثلي في الفرقة الثانية عشرة من الدراغون ونحن الاثنان في جوار قرية الموسيو سيشرين فوجدناهُ مصيبًا وان له حقوقًا عليك ولكن كان من اللازم لاعدامك ان نجتمع بك اولاً فسافرنا من روفري الى باريس وعند مرورنا بقرب ماران راى الموسيو سيشرين ان يدخل الى ذلك القصر مستكشفًا اخبارك لعلهِ ان زوجتك هنالك فقيل لنا انك سافرت مع امرأتك فتاثرناك من محطة الى محطة حتى يرني حيثما انتظرنا ثم رجوع العربة التي سافرت فيها وعلمنا منها انها اوصلتك الى فندق موريس فذهبنا الى هذا الفندق فقيل لنا انك متغيب في المدينة ثم عدنا للسوال عليك نحو اربع او خمس مرات ولما لم نرك التزمنا بالاقامة في ذلك الفندق لانتظارك ففي نحو الساعة التاسعة ونصف حضر صاحب الفندق وقال لنا انكم ولا ريب تريدون مواجهة الموسيو دي لانكراي وحيث عربتهُ ذاهبة الان لاخذه من ضاحية سين جرمين فالاصوب ان تذهبوا فيها لمقابلتهِ وحينئذٍ تكونون على يقين من هذه المقابلة فاستصوبنا هذه المشورة وسرنا بمقتضاها الى

ان حضرنا الى هنا كما رايت . . وقد يثبت من هذا وجود اله في السماء يريد ان تحصل البواسل على حقوقها من الا . . . سوف اصرح بهذه اللفظة الى شهودك اذا الهمني ضميري عندما اراك في ساحة البراز مع الموسيو سيشرين

وفي اثناء هذا الحديث كان غيظ الموسيو دي لانكراي قد بلغ حدهُ حيث لا يبعد ان تحبط مقاصده الشريرة بخصوص متيلدة . . وكان لا يامل ابدًا النجاة من انتقام الموسيو سيشرين فاعتمد ان يقاتله باسرع ما يمكن ولا سيما لان شجاعته كانت قد رجعت اليهِ بما تحمل من الاهانات

وكان كونتران قد توفق في برازات عديدة وهو يحسن اطلاق الرصاص واستعمال السيف فوجه الحديث الى شاهد خصمهِ وقال قبلت بكل شيء فهيا للبحث على اثنين من اصدقائي ولكن قبل الذهاب يمكنني على ما اظن ان اودع امرأتي

قال الموسيو سيشرين لربما يكون مراده الفرار من بعض الابواب السرية فاذهب يا بطرس ليبلان للحراسة على باب العربة

فصبر الموسيو دى لانكراي على هذه الخشونة الاخيرة ودخل بحدة الى غرفة السيدة دي ماران ثم قال لامراتهِ سوف يتكامل سرورك ياسيدتي وعما قليل تصيرين ارملة او بالحري تاملين ذلك

فلم تجب متيلدة بشيء اما السيدة دي ماران فصاحت . . نعم . . نعم . . تاملهُ وانت لا تستحق خلاف هذا النصيب وسوف انذر نذورًا من اجل هذا الباسل الموسيو سيشرين

وعند ذلك تامل الموسيو دي لانكراي امراتهُ برهة بملامح الحقد الخشن وقال لربما اموت ولكن سوف ينتقم لي وسيبقى لك ليكورنو . . . وهو يعلم كيف ينتقم منك ومن الموسيو دي روشكيم كما انتقم من الدوقة دي ريشفيل . . هذا اذا قتلت واما اذا نجوت فارتعشي . . لانك تستحقين . . ثم خرج

وهكذا كانت كلماته الاخيرة لمتيلدة التي تركت في الحال عمتها السيدة دي ماران بالرغم عن توسلاتها وذهبت تنتظر نهاية هذا البراز عند الدوقة دي ريشفيل

ولدى اخبار اثنين من معارف الموسيو دي لانكراي باهمية هذا البراز وضروريتهِ قبلا بالذهاب مع المتبارزين كشهود ثم انطلقوا جميعًا الى سين دانيس حيثما انتظروا في حانة هنالك شروق الشمس وعند طلوع الفجر حصل البراز في خنادق الحصون القديمة فسقط الموسيو دي لانكراي قتيلاً على الارض للطلقة الاولى . . واسلم الروح وهو يلعن تذكار اورزبل ويشكوها بموتهِ . . . .

خلاصة

وعندما علمت السيدة دي لانكراي نتيجة هذا البراز بواسطة تحرير ارسل اليها من احد الشهود صرفت الاشهر الستة الاولى من حدادها في دير القبر المقدس مع الدوقة دي ريشفيل اما الموسيو دي روشكيم فسافر بضعة شهور الى ايطاليا ولدى مطالعتو لسيرة متيلدة استنار بمعرفة احساساتها الحقة من جهتو والضحية العظيمة التي اجرتها ولكن امالة الباسمة بقيت مظلمة ومكدرة بتبكيت الضمير لاعتقاده انهُ هو السبب بوفاة اما الا ان متيلدة اكتشفت اخيرًا على هذا السر المشوم وذلك ان اما قبل زواجها كانت قد رسمت صورة للموسيو دي روشكيم عن تذكراتها وقدمتها لهُ فبعد زواجها بمدة ارجع لها زوجها تلك الصورة مع الجزدان المختص بها وكانت الدوقة دي ريشفيل قد جمعت بتخشع كل ما بقي لها من ابنتها ومنذ وفاتها لم يعد لها شجاعة على النظر الى هذه البقايا المقدسة ففي احد الايام توسلت الى متيلدة ان تبحث لها بين هذه الاشياء على ميداليون يحتوي على صورة اما وهي طفلة فاجابتها الى سوالها و بينما هي تبحث فتحت الجزدان المتضمن صورة الموسيو دي روشكيم واذا فيهِ تحريران وهذه صورة احدهما

لقد غشوك لان متيلدة معشوقة زوجك وانت تعرفين خط الموسيو دي روشكيم فطالعي هذه التذكرة التي اهتم بايصالها اليك احد اصدقائك

اما التحرير الثاني فهو الذي كتبهُ الموسيو دي روشكيم الى السيدة دي لانكراي عندما توسلت اليهِ ان يرجع الى اما وهذه صورتهُ

ساكون في باريس ليلة غد . . ان ما اخبرتني بهِ مخيف . . ولا يمكنني لسوء الحظ ان اصلح ما اسأت بهِ عن غير ارادتي . . فان اما ملاك جبلتهُ المكارم والجمال والطهارة والظرف وهي تستحق قلبًا يكون لها وحدها فلو لم اصادفك في حياتي وكان من الممكن ان احب . . . لكان حبها كنزًا لا يثمن بالنظر اليَّ . . ولكن ما العمل الان هل يحسن بان نرى ان افترن منها شفقة عليها . . كل املي ان لا تتصوري اهمية الاخطار التي تتهدد هذه البنية التعيسة . . وعلى كل فاني قادم . . . ثم امها خير صديقاتنا كيف هي . . اه واسفي لا اعلم ما هي الاقدار المشومة التي تتبعني

ولدى التفكر بقوة المعاني التي يمكن ان تفسر بها اما هذا التحرير و بالشكوك التي تتولد

عنهٔ وبالمظاهر المحزنة التي المت بهذه الفتاة عند الاكتشاف على سر ولادتها فحينئذٍ يعلم جليًا ان هذا التحرير اثر فيها تاثيرًا مميتًا وقد اجهدت هذه المسكينة نفسها على سكوت الياس وما ارادت ان تبوح لاحد بالعذابات الاخيرة التي قضت عليها

وكان يظهر من طيات هذا التحرير البالي ان اما طالعتهُ وكررتهُ مرارًا عديدة وانها تناولت هكذا قطرة فقطرة ذلك السم القتال الذي اماتها وكانت متيلدة متاكدة وجود هذا التحرير عندها فبحثت عنهُ ووجدتهُ حقيقة بين مراسلاتها ولدى اجراء المقابلة باعتناء بين النسختين ظهر ان النسخة المرسلة من ليكورتو الى اما مزورة وان خط الموسيو دي روشكيم كان مقلدًا بمهارة جهنمية . وهاك تفاصيل هذه الحادثة

ان السيدة دي لانكراي كانت ساكنة مع زوجها في شارع بوركوني عندما اعتمد الموسيو دي روشكيم على الزواج وكان خادم الموسيو دي لانكراي مستاجرًا من ليكورتو الموجود وقتئذٍ سرًا في باريس فاستولى بامره على صندوق المراسلات بضع ساعات بعد ان اغتصب بمهارة خزانة اوراق متيلدة في مدة غيابها ومن السهل فهم البقية لان ليكورتو كان يحسن تقليد جميع الخطوط ولا يصعب عليه فتح الصندوق الموجود مفتاحهُ مع السيدة دي لانكراي وبمناسبة اعتماد الموسيو دي روشكيم على الزواج كان اختيار هذا التحرير دون غيره مما يدل على اقتدار واصابة اليد التي اختارتهُ ثم داخل بعد ذلك السيدة دي لانكراي الارتياب واودعت الصندوق المذكور عند الموسيو دي سينفيل وهكذا تمكنت بهذا الاحتياط المتاخر من حفظ بقية التحارير الخطرة بعيدة عن ليكورتو

وبعد الاكتشاف على هذه الخيانة اللعينة ارسلت متيلدة التحريرين الى الموسيو دي روشكيم فادرك الحقيقة وانتفى عنهُ تبكيت الضمير ولم يعد يشعر الا بتاسفات قاسية وشفقة عميقة لدى التفكر بما تحملتهُ اما بين الاوجاع ايام نزعها الطويل

وبعد احد عشر شهرًا من وفاة الموسيو دي لانكراي تزوج الموسيو دي روشكيم متيلدة ثم لا حاجة للقول بمقدار السعادة العظيمة وسكرة المسرات المقدسة التي قرن بها هذا الزواج ولا يخفى على احد المستقبل السعيد المعبود الذي فتح وقتئذٍ امام متيلدة التي تالمت بخشوع وصبر الى ذلك الحين

وفي ذلك الزمان تقريبًا بينما كان البعض يدمر احد المنازل المهجورة المنفردة بين الوزارشي وحرش شانتيلي واذ وجد في اعماق مخباة بجانب الموقدة من غرفة النوم التي تشبه كثيرًا لغرفة متيلدة في شارع بوركوني هيكل رجل من عظام وكان ذلك الهيكل هو هيكل ليكورتو لان الموسيو دي لانكراي عندما حضر للبحث على متيلدة في منزل السيدة دي ماران كان

قد وعد ليكورتو بالاجتماع بهِ في ذلك المسكن مصحوبًا بمتيلدة .... وحصل الاتفاق على ان ينبه فريتز الموسيو ليكورتو الى قدوم سيده ومتيلدة بفرقعة القمشة وهو مار على الطريق ثم يذهب الى شانتيلي لانتظار العربة ولكن براز الموسيو سيشرين احبط جميع هذه المقاصد لان فريتز بقي لا يعلم بحصول هذا البراز وفي زعمهِ ان العربة قادمة على اثره فابدى الاشارة المتفق عليها عند مروره بجانب المنزل ثم انطلق الى شانتيلي وعند هذه الاشارة دخل ليكورتو الى المخباة في غرفة النوم ظنًا منهُ ان اصحابهُ على وشك الوصول وكان يهمهُ ان لا تعرف متيلدة بوجوده في ذلك المسكن

وعندما حاول الخروج من المخباة بطلت بسماح من الله حركة اللولب الداخلي ثم طال عليهِ الانتظار ولم يحضر كونتران لانقاذه فجعل يصيح ويستغيث وما من مجيب لانهُ كان وحده في ذلك المنزل وفي صباح اليوم الثاني رجع الساعي وقرع الباب ولما لم يجبهُ احد ولم ترسل اليهِ العربة حسب الوعد رجع الى باريس حيثما علم بوفاة الموسيو دي لانكراي اما من خصوص ليكورتو فكانت حياتهُ منذ مدة محاطة بالاسرار فلم يتعجب احد من اتباعهِ لاختفائهِ وانقطاع اخباره

ولا يمكن ان يستغرب الانسان الشرور المخيفة التي اجراها هذا الرجل لدى التفكر بالوسائل العظيمة المتيسرة لهُ سواء كان بالغش او بنوع من البوليس الخفي الذي يتاثر بهِ اعداءه وكان الشر لهذا الرجل السفل المنقطع للمسرات من الضروريات الملذة لحياتهِ وقد تمكن بقوة المال واقامتهِ الخفية في باريس ومهارتهِ في تزوير الخطوط ان يصيب الموسيو دي مورتاني واما والدوقة دي ريشفيل والموسيو دي روشكيم ومتيلدة بضربات قتالة

ولا يسعنا الا تحويل نظرنا عن المنكرات الوحشية التي كان ينويها للمستقبل الموسيو دي لانكراي والموسيو ليكورتو حيث لا يستغرب شيء متى اجتمع مثل هذين النفسين

اما الموسيو سيشرين فبعد ان قتل كونتران انطلق متجولاً في اراضي الله الواسعة متعذبًا بتذكار اورزيل لان موت كونتران وان اشفى غليل انتقامهِ لم يقوَ على تعزيتهِ

وكانت السيدة دي ماران قد تكامل فالجها وصارت تقريبًا عمياء فبقيت متروكة لرحمة سرفيان يستبد فيها كيفما اراد ولا يدع احدًا يراها فقضت ايامها الاخيرة بعذاب مستمر لعجز القلم عن ايضاحهِ ولولا ارادة الموسيو دي روشكيم الثابتة التي لا تتزعزع لما تاخرت متيلدة عن المجيء لنجدتها وتلطيف مرارة حياتها

اما الدوقة دي ريشفيل فانقطعت للتنشفات القاسية وكانت الاحزان الشديدة قد اثرت كثيرًا في صحتها فلم تقاوم طويلاً الا انها علمت اخيرًا باخلاص متيلدة الاسى لنحو اما

اما الموسيو دي سينفيل فانهٔ انسان خنتهٔ الاثيمة واكاذيبهٔ بندامتهِ الصادقة واعترافهِ بخطاياه والاحترام العميق الذي استمر على اظهاره للموسيو دي روشكيم ومنيلدة

وحتى لا ندع احدًا من جميع الاشخاص الذين مر التكلم عليهم في هذه القصة نقول ان الارملة ليبوف عادت بعد بضعة ايام من اختفائها الى الجلوس على طاولة الحسابات في قهوتها في شارع سين جرمين مصحوبة بخادمها الامين بوانار ومحاطة من الاخوين كوديت حسب العادة وكان الموسيو ليكورنو والموسيو دي لانكراي قد انقدا هذه الارملة مبلغًا عظيماً من المال حتى تتنازل لبوليسها السري بضعة ايام عن هذه القهوة المجاورة لمنزل اوريسون مقر الموسيو دي روشكيم اذ لربما تدفع متيلدة بفاعيل الياس للالتجاء الى هذا المنزل

وقد رات السيدة ليبوف ان تخفي اسباب هذا الغياب الموقت بتمويهات لا طائل تحتها ولا يزال هذا السر الى الان موضوعًا لا يفنى لمحادثات الاخوين كوديت وبقية المترددين على هذه القهوة اما منزل الموسيو اوريسون فاستحال بعد سفر الكولونيل اولريك الى معمل كيماوي